يسوع في إنجيله

تأملات في نصوص من الإنجيل

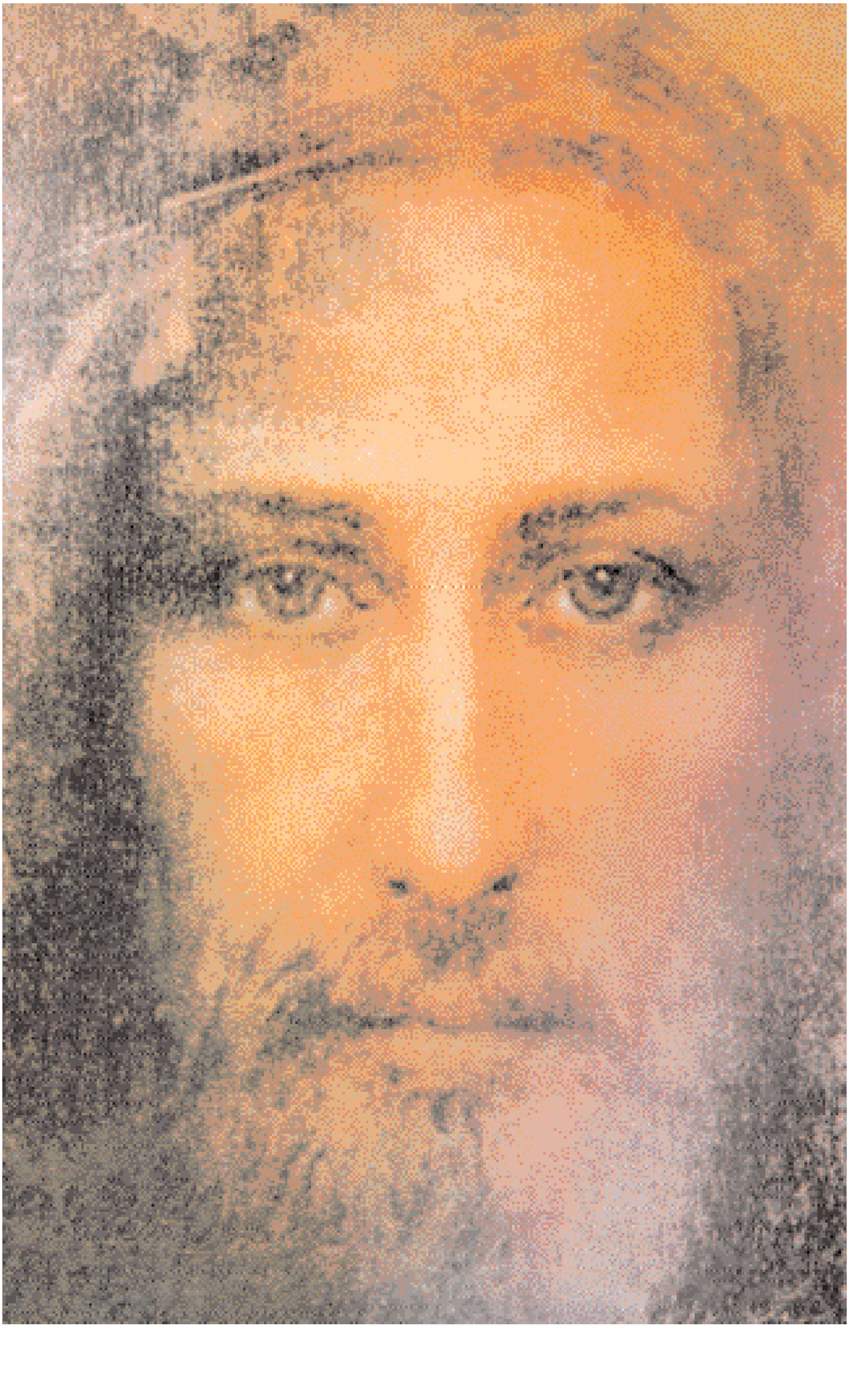

أديب مصلح

يسوع في إنجيله

تأملات في نصوص من الإنجيل

منشورات المكتبة البولسية

طبعة أولى

٢٠٠٦

*

جميع الحقوق محفوظة

*

مَنشُورَاتُ المَكْتَبَة البُولسِيَّة
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحْلة – الحمراء بلازا – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إهداء

إلى أيمن ،

ابني الحبيب الذي به سررت ، وبه استنارت حياتي .

لطالما طالبتني بوضع هذا الكتاب ،

فعساك تجد فيه بعض الأجوبة على بعض تساؤلاتك ،

وعسى أن يكون يسوع هو النور الذي يضيء حياتك .

أديب

«لَقَدْ جِئْتُ لِأُلْقِيَ عَلَى الأَرْضِ نَارًا»

«ما تكلّم، قطّ، إنسانٌ مثل هذا الرجل»

(بمثابة مقدّمةٍ)

لو عاد يسوع، اليوم، لوجد أنّ ملح كنيسته قد فسد، وأنّ طعم حياة معظم الناس قد بات تافهًا. غير أنّ ملح إنجيله ما زال لاذعًا، وبركانه ما زال متفجّرًا يُطلق حِمَمًا توري في نفوس من تصيبهم حرائق تقضي على كلّ رداءةٍ ودناءةٍ، وتشيع الدفء والنور.

يوم طرد يسوع الباعة من الهيكل، وقلب موائد الصيارفة، أحدث تفجيرًا، ولطالما زعزعت أقواله المدهشة، وأجوبتُه على أسئلة خصومه المفحّخة، التقاليدَ الراسخة، والمظاهرَ الجوفاء، وأساليب الرياء والنفاق. أمام ألَق نظرته كان يتصدّع ثقَل المؤسّسات، وضيق العقول، وشلل القلوب. وكانت تشعّ منه كثافة حياةٍ منقطعة النظير.

وما برحت كلّ صفحةٍ من الإنجيل تحرق بنارها حَذَرنا وتوانينا، وتطمح إلى إبداع حياةٍ جديدةٍ قوامها الحرّيّة والحبّ. إنّها تحدّثنا عن أبٍ يحبُّ حبًّا جنونيًّا، وعن ابنٍ يماثله حبًّا، وتحثّنا على اقتفاء مسيرة الابن الرشيقة، وأعماله المدهشة، والعمل بأقواله الكاوية؛ فما أقواله وأعماله سوى شظايا من حضور اللّه المنعش.

يسوع هبط أرضنا، وبيّن سبب مجيئه بقوله: «لقد جئت لألقي على الأرض نارًا، وكم أودّ أن تكون قد اضطرمت» (لوقا ١٢: ٤٩). لقد أشعل في الدنيا حريقًا ما انفكّت نيرانه تمتدّ، وبات إطفاؤها محالاً. وحتّى عندما يُظنّ أنّها أُخمدت، إلاّ أنّها

راقدةٌ تحت الرماد، ويكفي أن تهبّ ريح الروح كي يتعالى لهيبها، ويشقّ سُجُف الليل.

في حياة الأفراد والجماعات والمؤسّسات، ليالٍ يتراكم فيها الرماد، حتّى ليُخيّل أنّه هو كلّ ما بقي من النار. ولكن حسْبُ هذا الرماد أن يُحرَّك، كي تلتمع في ثناياه جمرةٌ. وحتّى عندما لا يبقى سوى قبسٍ أحمر مفرطٍ في الصغر، فالنار حاضرةٌ، جاهزةٌ لأوسع لهيبٍ. ولكَم من مواقد هامدةٍ، تبدو ميتةً، ولكنّها تخبئ، على غير علمٍ منها، نارًا غافية، تنتظر فرصة الهبوب والتراقص! فمن يحرّك الرماد، ويحرّر الجذوة الغافية، ومن يلقي بضعة أعشابٍ جافّةٍ، ينفخ فيها، فتشبّ النار؟

باليقظة، والروح الحيّ، وسماحة القلب، وعَرَق الكادحين، وجذوة الإنجيل، تشبّ النار البشريّة.

تراكم الرماد يخنق النار، فلنُزِحْه كي يسري الهواء، وينطلق اللهب في تراقصه الأثيريّ.

لا ريب أنّ شبوب النار كفيلٌ بالتهام حطبنا وإفنائه. ونحن، خشيةً عليه وعلى أنانيّتنا، نحاول خنق النار، والحدّ من لهيبها، وتفتير حرارتها، مداراةً لحيطتنا، وحذَرنا، وحدودنا.

ولكنّ يسوع جاء كي يضرم على الأرض نارًا،

فلننفض رمادنا، وليحمرّ موقدنا وليتوهّج !

ولئن تعذّر علينا العثور على جمرةٍ نضرم بها نارنا، وننعش بها موقدنا، فإنجيل يسوع، هو، أبدًا، عمود نورٍ يتقدّم مسيرة كلّ جيلٍ، وموقد نارٍ متأجّجةٍ.

يسوع توّاقٌ إلى إذكاء نار حبّه على الأرض، فما علينا سوى الاقتباس من إنجيله.

كلامه أشعّةٌ وهّاجةٌ، ودفءٌ دافقٌ، وإشعاعٌ يلفّنا ويلتصق بنا. إنّه يضرم النار في قلوب من يصغون إليه، كما شهد بذلك، تلميذا عمّاوس.

لا تحفّظ في نوره، بل إنّه بأكمله حيثما حلّ، ويملأ كلّ من يفتح له ذاته.

وناره تسري في العالم، فتحرق وتدمّر الحواجز التي ينصبها المال، والأنانيّة، والكبرياء، والتعصّب، والروح القبليّة، والتقاليد، والأديان المغلقة. فيسوع، بنظره

الإلهيّ المشعّ نورًا، أعلن للفقراء، والمنبوذين، والهامشيّين، أنّهم أحباب الله. كان يسبُر قرارات القلوب، في ما يتخطّى المظاهر والأدوار المصطنعة، وكان يدعو إلى الحبّ حتّى الصفح بلا حدودٍ، وحتّى حبّ الأعداء أنفسهم، على مثال الله الذي كان يدعوه «بابا». وما إنجيله سوى تراكم رسائل حبٍّ.

هذه النار ما برحت، في عتمة التاريخ، تنير، وتدفئ، وتنقّي، وتحرق. وفي هذه البوتقة المضطرمة، يستمرّ، سرّيًّا، تحوّل البشريّ إلى الإلهيّ.

* *

لا يفتقر عصرنا إلى التقدّم المادّيّ، فهو يقفز، في مضماره، قفزًا مذهلاً؛ ولكنّه يفتقر إلى ما يحول دون جعل التقدّم وسيلة دمارٍ؛ يفتقر إلى روح التطويبات، وروح الإنجيل. فما هو كفيلٌ بإنقاذنا ليس المتعة بل الطهر، ولا وفرة الاستهلاك، بل ضبط النفس، ولا الثروة، بل التجرّد، ولا الامتلاك، بل البذل، ولا السلطان، بل الخدمة.

الإنسان يحيا عندما يرفض، على غرار يسوع، إغراءات إبليس، انطلاقًا من يقينه بأنّ الحياة ليست في إرضاءٍ فوريٍّ للشهوات الجامحة، بل في الانسجام مع نبع حياتنا، وفي ازدهار الروح وتساميها، والتصاقها بنبعها الدافق بالحياة.

إنّ كلّ من يتنفّس محكومٌ عليه بأن يلتهمه تنفّسه ذاته، الذي هو، في آنٍ واحدٍ، حياةٌ وضربٌ من النار البطيئة التي تحرق الطاقات، وإذا كان مصيرنا أُكلةً للنار، فما قيمة الحياة، إذن؟

ولكن عندما يكون الله قبلتَنا، فهو نارٌ من نمطٍ آخر، ليست شركًا تقع فيه الفراشات الهائمة فتحترق، بل هي دفء رحمةٍ، وعنف حبٍّ. يسوع قال: «**لقد جئت كي أُضرم على الأرض نارًا**»، وقد التهمت نارُ الحقد والرداءة يسوعَ. غير أنّه، بقيامته، قد أثبت أنّ ناره، نار الحبّ، أقوى من كلّ عوامل الدمار والموت، وأنّ كلّ حياةٍ تتغذّى بهذه النار، لها شأنٌ خطيرٌ.

للمرء ما ينشد: فلا وجود لله لمن لا يلتمس وجهه، والنور لا يضيء من لا يلتفت نحوه.

وفي هذا العالم حيث الصخب يحجب الجوهريّ، وحيث الهدير يطغى على

همس الربيع المنبجس من الأرض، لا بدّ من آذانٍ مرهفةٍ لالتقاط النداء الخافت، ومن عيونٍ يقظةٍ لاستبيان الإشارة الصامتة الموجّهة إلينا.

عالم اليوم في حاجةٍ يائسةٍ إلى سماع كلمة الله، والتغذّي بها. ويسوع هو «الكتاب الذي نقرأ فيه الله» (توماس ميرتُن).

ففي يسوع يلتقي الله والبشريّة، إذ، لّما حلّ ملء الزمان كتب الله ذاته في أحشاء عذراء، حيث ألقى كلمته، ابنه، وحيده. ومنذئذٍ غدا يسوع مركز البشريّة. فعلى حدّ قول پاسكال: «قبل يسوع، لم تفعل القرون سوى السير نحوه، ولن يسع القرون، من بعده، سوى الالتفات إليه. كلّ العهد القديم سعى، بخطواتٍ حثيثةٍ، نحوه، وكلّ العهد الجديد، والأزمنة الحديثة، لن تقوى على مواصلة تصعيدها إلاّ بالالتفات إليه».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

قال پول ڤاليري: «لم تقترن لفظة «الحبّ»، بالله، إلاّ بفضل يسوع».

أمّا الفيلسوف برغسون فقال: «لم يتحقّق، قطّ، ولن يتحقّق، أبدًا، أيّ شيءٍ عظيمٍ، بمعزلٍ عن يسوع المسيح».

إنّه، على حدّ قول بولس الرسول «قوّة الخلاص لكلّ مؤمنٍ» (روما ١: ١٦)، ويؤمن به كلّ من يرفض الإيمان بالأصنام.

إنّه اقتحام السماء لحياة البشر، وإشراك الطبيعة البشريّة في نعمة الطبيعة الإلهيّة. أمرٌ من الروعة بحيث يذهل!

منذ مولده أعلن النفير العامّ، وبشّر ببدء مغامرةٍ إنسانيّةٍ كونيّةٍ كبرى، تتمخّض عنها البشريّة، منذ نشوء العالم.

كان الفيلسوف الفرنسيّ برغسون يرى أنّ الإنجيل، وبخاصّةٍ في موعظة الجبل، يدعو إلى دين الكمال، وأنّه لايني يهيب بكلّ إنسانٍ: «إنّك لن تسمو أبدًا، ولن تكبر أبدًا، بالقدر الكافي، وعليك أن تمضي، أبدًا، إلى أعلى فأعلى».

من يتخلّف عن دعوة يسوع هذه، يخطئ هدف حياته، مؤثرًا أن يولد ميتًا، كفرخٍ فضّل البقاء داخل البيضة على أن ينقرها ويثب صوب النور.

«**أمّا الذين قبلوه، وآمنوا به، فقد آتاهم أن يصيروا أبناء الله. أبناءً لم يولدوا من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إرادة رجلٍ، بل من الله**» (يوحنّا ١ : ١٢ – ١٣). هؤلاء، بالإيمان نالوا بنوّة الله. وكما أنّ الساقية هي ابنة النبع، بواسطة النهر، هكذا هم أصبحوا أبناء النور، باتّحادهم بالابن.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لقد تبنّى يسوع الوضع البشريّ، ولكنّه غيّره تغييرًا جذريًّا، وسما به حتّى الألوهة. لقد توارى عن كوكبنا منذ أكثر من ألفي عام، وما زالت جماهيرُ كثيفةٌ تتأثّر خطاه. صُلِب، ودُفن، وقام، وما فتئت كلّ كلمةٍ تلفّظ بها تختلج، وتصنع ما هو أكثر من الحبّ، تصنع الفضائل التي يؤتي الحبّ ثمارها.

إنّه يولد، كلّ يومٍ، من جديدٍ، في قلوب جماعاتٍ لا حصر لها، وفي أذهانها، وما انفكّ يزور مهدَه رعاةٌ، وملوكٌ، وعلماء، ويقدّمون له، بسخاءٍ، ذهبًا، وبخورًا ومرًّا، وعبادةً وتسبيحًا، وذواتهم، وحياتهم.

مقتضيات يسوع لا محدودةٌ: تأهّبٌ للتحوّل الجوهريّ، ومن ثمّ نداوةٌ في الكيان، وشباب إرادة؛ دعوةٌ مفتوحةٌ يجد فيها كلٌّ طريقه، طريق الحبّ، نحو الله، ونحو القريب، ونحو الذات الخالدة، نحو تحقيق الطاقات الرحبة. فالإنجيل قد أحدث هزّةً عميقةً في الكيان البشريّ، وأماط اللثام عن طاقاته الجسيمة.

وسيظلّ ضربًا من البطولة والمغامرة أن يكون المرء مسيحيًّا حقًّا. فمقتضيات الإنجيل عسيرةٌ، غير أنّ الالتزام بها يدفع بعيدًا إلى الأمام، وشاهقًا إلى العلاء. والمسيحيّ الحقّ شخصيّةٌ منيعةٌ تشعّ وتفرض ذاتها؛ تحدوها مقتضياتٌ كبيرةٌ، وتشغلها همومٌ ساميةٌ. نسمةٌ صافيةٌ تدفعها، مطيحةً، في طريقها، بالحسابات الضيّقة، والأفكار العابثة. فلو كانت المسيحيّة مذهبًا لعفا عليها الزمن؛ ولكنّها يسوع، حيًّا. إنّها قدرةٌ إلهيّةٌ، إنّها ضعفٌ أقوى من كلّ قوّةٍ بشريّةٍ. لطالما تعرّضت لهزّاتٍ عنيفةٍ كانت كفيلةً بزعزعة أسُسها، وتقويض بنيانها، ولكنّها صمدت، لأنّ مؤسّسها انتصر، إلى الأبد، بصليبه، وقيامته، وحضوره المحيي في قلوب المؤمنين به.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

قد تُشيع رداءتُنا فينا الإحباط؛ ولكن فلنذكر أنّ هذه الرداءة ليست عائقًا في وجه حبّ اللّه لنا الذي يتغذّى حتّى ببأسائنا وأوهاننا. وفي هذا السياق كتب «توماس ميرتُن»: «لو أدركنا ما يضمره لنا يسوع من حبٍّ، لما خشينا أن نمضي إليه بكلّ ما يغشى روحنا من فقرٍ، ووهنٍ، وشقاءٍ، وسقمٍ. وفي الواقع، لو نحن، فقهنا حقيقة طبيعة حبّه لنا، لآثرنا الشخوص إليه فقراء، عاجزين، ولما راودنا عن بؤسنا خجلٌ. امتيازنا الأكبر أنّ ليس لدينا ما نتوقّعه سوى رحمته. ويحقّ لنا أن نسعد بضعفنا، عندما يترسَّخ لدينا الإيمان بأنّ قوّته ستتجلّى، بكلّ كمالها، في سقمنا».

* *

وقد ينتابنا الاضطراب عندما يُخيّل إلينا أنّ اللّه قد هجرنا وغاب عنّا؛ ولكنّه كالشمس عند غروبها، توحي بأنّها غرقت في لجج المحيط وانتهت، في حين هي ما برحت تضيء الكون وتدفئه. وفي ساعات اضطرابنا هذه، فلنرنُ إلى يسوع، ولنجدّ في لقائه. فعلى حدّ قول الأب عادل تيودور خوري: «كلّ لقاءٍ بيسوع المسيح يبدّل المفاهيم، ويوسّع البصيرة، ويحيي الأمل، وينعش الرجاء، لأنّه يفتح آفاقًا جديدةً، ويوقظ الثقة باللّه، في نفس من يلقاه».

لقاء يسوع هو أعظم هوًى في أسمى فضيلةٍ، هوًى يضرم الفضيلة، وفضيلةٌ تعطّر الهوى وتخلّده.

وليس من العسير لقاء يسوع، فهو الطريق المؤدّي إلى ذاته. وهو، خلافًا لجميع المعلّمين، لم يقل لتلاميذه: «إنّني أشقّ لكم طريقًا، وأُلقّنكم حقيقةً، وأُبلّغكم حياةً»، بل خاطبهم بلهجةٍ تختلج فيها ألوهته: «**أنا الطريق، والحقّ، والحياة**»، فسيروا عليّ، وآمنوا بي، واحيوا بي. هكذا وهبنا يسوع ذاته.

ويتجلّى يسوع لنا في وجوه إخوتنا البشر، ولا سيّما الفقراء منهم، والمتألّمين، والمحتاجين، كلّما شاهدناه فيهم وحدبنا عليهم؛ وفي قلوب من تقطن فيهم أقواله ومواقفه، ويجهدون، العمرَ كلّه، في أن يكونوا له تلاميذ أوفياء، وشهودًا صادقين؛ وفي نفوس أوليائه وقدّيسيه، الذين أنكروا ذواتهم، وحملوا صليبه بجرأةٍ وعزيمةٍ ثابتةٍ، وانطلقوا في إثره، غير هيّابين ولا متخاذلين، وتمثّلوا به، فارتسمت على

وجوههم صورته، وسموا عاليًا فوق الزاحفين على الثرى، والغائصين في المستنقعات الآسنة. «إنّ قلب القدّيسين هو سماء اللّه».

ويتجلّى يسوع، بأسمى سنًى، في إنجيله. فمذ تكلّم للمرَّة الأولى، من رقعة فلسطين الضيّقة، كان يخاطب الدنيا بأسرها، ومن خلال الصيّادين والجموع التي كانت تتبعه، توجّه إلى الأجيال المتعاقبة حتّى منتهى الدهر.

البساطة والعمق متلازمان في كلامه الذي ينير الحياة البشريّة بحكمة اللّه.

إِنجيله شهادة إيمانٍ، ودعوةٌ إلى الإيمان.

إنّه ينساب في عناصر الوجود المتمثّلة في الأخلاق، والسياسة، والدين، انسياب الملح والضوء، من غير أن يحلّ محلّها، أو يتشبّه بها. إنّه لا يوفّر حلولاً جاهزةً لقضايا عصرنا الشائكة، مثلما لم يوفّر حلولاً جاهزةً لقضايا القرن الأوّل الحارقة. بل لا بدّ من أن يحياه المرء بكلّ حذافيره، وكلّ عنفوانه، كي يستضيء بنوره، ويعمل بديناميّته.

ففي صفحاته التي قوامها البساطة والنور، يكمن إلهامٌ وحضورٌ يواكبان البحث ويحفزانه. كلّ محاولةٍ لإظهاره بمظهر مجموعةٍ من القواعد الأخلاقيّة، أو لاتّخاذه أساسًا لنظمٍ سياسيّةٍ أو لطُرُقٍ دينيّةٍ، كفيلٌ بإفراغه من روحه، وبجعل ملحه تافهًا. بيد أنّ ملحه الأصيل ما برح لاذعًا، فعّالاً، كفيلاً بتزويد الأطعمة الجديدة بأعذب نكهةٍ، وبتطهيرها، وحفظها.

اللّه لا يمكن سجنه في صِيَغٍ جامدةٍ، بل لا بدّ من احترامه، وحبّه، بلا حدود. أمّا إذا حصرناه في صِيَغٍ وطقوسٍ قابعةٍ على هامش الحياة، فكم نكون قد نأينا عمّن تلفّظ بأقوالٍ مزلزلةٍ، مثل «**ليس من يقولون: يا ربّ، يا ربّ، هم الذين يدخلون ملكوت السماء ...**»، «**كلّ ما تفعلونه لأحد إخوتي الصغار هؤلاء، فلي تفعلونه...**»، «**أحبّوا أعداءَكم ...**»، «**كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل**»! كان بوسعه الاكتفاء بالقول للبشر: «اجهدوا في أن تكونوا طيّبين، كرماء، ولا تسيئوا إلى أعدائكم». ولكنّه آثر أن يدفعهم إلى لعب دور اللّه على الأرض، وشقّ لهم درب أبناءٍ لايني يصفح عنهم أبٌ مسرفٌ في طيبته، ويُلوّح لهم بصورة مدينة المستقبل، مدينةٍ كلُّها إخاءٌ، تشعّ عليها شمس اللّه بأنوارها، وتجعلهم، أبدًا، غير راضين عن كلّ مدن البشر.

بيد أنّ التغذّي بالإنجيل ليس عملاً فكريًّا، بل هو ممارسةٌ وتضحيةٌ.

ولا يكفي تأمّل كنوزه مرّةً واحدةً، بل لا بُدّ، في سبيل التملّي بحيويّته، من جعله غذاءً يوميًّا، وتمثّله، واستمداد جوهره قوامًا للحياة.

فعلى حدّ قول جوليان غرين: «ميزة الإنجيل أنّك قد تنصت إليه سنين طويلةً، وفي دقيقةٍ واحدةٍ، غير متوقّعةٍ، يتصاعد من صفحاته، صوتٌ صامتٌ، ولكنّه مدوٍّ، لن يعود بالإمكان إسكاته». إنّه الصوت الذي صنع بولس وفرنسيس الأسّيزيّ، وخلقهما إلى حياةٍ جديدةٍ.

أقوال الإنجيل شمسٌ تدفئ القلوب المقرورة، فهو ما انفكّ نارًا مضطرمة، وما علينا سوى العودة، باطّراد، إلى تلك الصفحات المتأجّجة، الحارقة، النابضة، الحافلة بالبساطة، الدافقة بالحياة، والكفيلة، وحدَها، بتحويل حياتنا. فهو النبع الذي يتغذّى به المستقبل المتفجّر منه.

الإنجيل كفيلٌ بأن يوري فينا نارًا ملتهبةً، شرط أن يكون غذاءَنا اليوميّ، وأن يوثّق علاقاتنا بيسوع، وأن نجعل، نحن، من حياتنا زيتًا يُبقي فينا مصباح الإنجيل متوهّجًا. فالنور الذي لا يشعّ ينطفئ، والخليقة التي لا تتكاثر تموت، والنبع الذي لا يتفجّر يغور، والساقية التي لا تتدفّق تصبح بؤرة تعفّنٍ.

نور يسوع ينوس فينا بقدر ما يتراجع حضوره في نفوسنا، ويزداد إشعاعًا بقدر ما يترسّخ هذا الحضور.

وما أحوجنا، اليوم، إلى حضور يسوع الكثيف، وإلى سماع أقواله الإلهيّة الخالدة التي تطيح برداءة البشر، وتقلب نقاشاتهم رأسًا على عقب، وتُشرع آفاقًا بلا حدودٍ، تندثر الأجيال، ولا تفرغ من سبر غورها!

لكلّ جيلٍ قضاياه ومشكلاته، وفي كلّ جيلٍ أكبّ مؤمنون على كنوز الإنجيل، واستمدّوا منها حلولاً لهذه القضايا والمشكلات، مكتشفين وجوهًا جديدةً للبشرى تلائم كلّ موسمٍ في الحياة، جديدٍ، وكلّ جوٍّ، في التاريخ، قشيبٍ.

فالإنجيل يُكتَب كلّ يومٍ، وعلى كلّ مؤمنٍ وكلّ جيلٍ، أن يكتُب، بعبارات حبٍّ ودمٍ، إنجيلاً مستوحًى من خبرة حياةٍ على مثال يسوع، ومن أقواله التي تخترق كثافة القرون.

لطالما ناصب متحذلقون يسوعَ العداء، وحاولوا نقض إنجيله، بكلّ ما انطوت عليه نفوسهم من كبرياءَ وادّعاءٍ، وها إنّ الإنجيل يعود إلينا، في مطلع هذه الألفيّة الثالثة، وقد صهرته شتّى بوتقات النقد، وبأقصى درجات حرارتها، صامدًا، نقيًّا، متألّقًا، وأبلغ أثرًا وإقناعًا.

أمّا الذين أقبلوا عليه بنفوسٍ صافيةٍ، وعيونٍ نيّرةٍ، فقد استنبطوا، من منجمه، جواهر نادرةً، جهدتُ في جمع بعضها، عِقْدًا، يُسعدني زفُّه إلى كلّ صابٍ إلى النهل من نبع الإنجيل، علّه يحفزه على الإمعان في اكتشاف كنوزه الثمينة، وعلى الإيغال في ملازمته والالتزام به، فيزيده حبًّا ليسوع وفهمًا.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

وقد توخّيتُ من هذا الكتاب أن يكون متمّمًا لكتابٍ آخر موازٍ له، عنوانه: «**يسوع في حياته**»، سردتُ فيه مسيرة يسوع على الأرض. وبما أنّ هذا السرد لا يحتمل الاستطرادات الطويلة، وبما أنّ الكثير من أقوال يسوع وأفعاله يوحي بجمٍّ من الأفكار والتأمّلات، فقد جاء هذا الكتاب كي يوفّي بعضًا ممّا لم أستطع الاستفاضة به، في ذاك.

ومن ثمّ ستكون فصول «**يسوع في إنجيله**» إضاءةً إضافيّةً لفصول «**يسوع في حياته**» يرجع إليها من يودّ الاستزادة من فهم الإنجيل، والتوغّل في قلب يسوع وفكره.

الإنجيلُ معينُ حياةٍ

«**ما تكلّم، قطّ، إنسانٌ مثل هذا الرجل.**»

ولا غروَ في ذلك، فيسوع هو الإنسان الوحيد الذي كان، في الآن عينه، إلهًا. ولم يكن، قطّ، لإنسانٍ مثل سطوته على القلوب والأذهان، سطوةٍ تنفرد بها الحقيقة الصافية، التي تعمل في النفوس، برقّةٍ وعمقٍ، ومن غير عناءٍ ولا تصنُّعٍ.

بعد ألفين من السنين، ما برح كلام يسوع هو النور الحقّ الذي ينير للإنسان ذاتَه، وينير لـه الله، ويدعم الحسّ الأخلاقيّ الذي تجهد في تقويضه فلسفاتٌ حمقاءُ، ويقي من الزلل والضلال العقلَ البشريّ المعرَّض للدُّوار والهذيان. وما برح يلد أبطالاً وقدّيسين، ويفجّر الإيمان، وينتزع من أكثر القلوب جَدْبًا صيحات دهشةٍ، وأفعالَ محبّةٍ. فهل بوسع أحدٍ سوى يسوع أن يفعل مثل ذلك؟

الإنجيل إلهٌ صار إنسانًا، وصار بُشرى. إنّه أكثر من كتابٍ مقدّسٍ. إنّه الكلام المقدّس، إنّه الكتاب، فحسب.

وليس من كتابٍ شاملٍ مثله يلائم جميع اللغات، وجميع الأزمنة، وتجد فيه أعتى النفوس خشونةً، وأشدّ الأذهان رهافةً، غذاءَها الروحيّ.

إنّ كلّ ما يستوقفنا من إبداعٍ وجمالٍ لدى عباقرة الشعر والفنّ يبدو باهتًا أمام الإنجيل. ففي الإنجيل، وفيه وحده، ينتاب المرءَ إحساسٌ بأنّه في حضرة كائنٍ هو أقرب إلى نفسه، وأشدّ التصاقًا حميمًا بها من أيّ شاعرٍ ملهمٍ، وأنّه يتجاوزها من كلّ صوبٍ، بل يشعر **أنّه يُقرأ وهو يَقرأ**، وأنّه، حقًّا، مغمورٌ بحضور «عمّانوئيل»، أي «الله معنا».

* *

إنّ ما يضفي على الإنجيل وحدته، وجماله، وتميّزه هو وجه يسوع الذي يملأ كلّ سطرٍ فيه. يقول «جان غيتّون» (Jean GUITTON): «ما كاد يسوع يُصلَب حتّى اجتذب إليه الوجود، وبات، وحده، حاضرًا في ألوف الضمائر، بل أكثر حضورًا في هذه الضمائر ممّا هي حاضرةٌ في ذاتها. فهي له تحيا».

ولو لم يكن يسوع، بشخصه، وتعليمه، ومثال حياته، يلبّي أعمق وأسمى تطلّعات الإنسان القابعة في أنبل قطاعٍ من ذاته، لبات أثرًا بعد عينٍ، ولكساه غبار الماضي. ولو أنّ أجمل النفوس، في أرفع محاولاتها وتوقها، وفي أرقى حالات تفكيرها وحبّها، لم تعثر، من خلال ما عرفته عن يسوع، على نهجٍ لتقدّمها ولرقيّها، لما كان يسوع أفضل من بعض مشاهير التاريخ. ولو لم يكن الإنجيل، بمقتضياته الشاقّة، وبما يدعو إليه من كمالٍ، وبإحاطته بواقع الشقاء والألم والحيرة، متجاوبًا مع اختبار أيّ إنسانٍ، لطُوي اسم يسوع، منذ أمدٍ بعيدٍ.

الإنجيل دعوةٌ دائمةٌ إلى تجاوزٍ للذات مطّردٍ، وإلى المضيّ أبعد من كلّ توقّعٍ. وإن كانت لفظة السموّ تعني ما وراء هذا التوقّع، فالسموّ هو جوّ الإنجيل، ومنبع تميّزه.

لا يتميّز الإنجيل ببلاغة الكلام الجزل المحكم السبك، الذي يدغدغ السمع، بل بملئه فراغ نفس الإنسان الخالدة، وبمخاطبته كلّ شعبٍ، وكلّ عهدٍ، وكلّ جيلٍ، وكلّ فردٍ في جميع الأجيال.

إنّ الإنجيل إلهيٌّ بقدر ما هو بسيطٌ. بساطته تنفذ إلى عقل طفلٍ؛ بيد أنّ كثيرًا ممّا يدركه الأطفال بيُسرٍ، يعجز الحكماء عن فهمه.

من يُحسن الإصغاء إلى الإنجيل يسمع صوت يسوع العذب، وينتشي بسحر أقواله التي تقرن البساطة بالعمق، والسذاجة بالمفارقة والإدهاش، والعنف بالوداعة والسكون. أقوالٌ لا ينتهي المرء من سبر أغوارها، واستجلاء مكنوناتها.

يقول پاسكال: «لقد أدلى يسوع بأقوالٍ جليلةٍ في بساطةٍ توحي بأنّه لم يُعمِل فيها فكره. ولكنّه قالها في وضوحٍ يُظهر أنّها كانت موضع تفكيره. إنّ هذا الوضوح المقرون بهذه البساطة لرائعٌ».

بساطةٌ وسموٌّ يُسبغان على أقوال يسوع طابعًا مميّزًا لا يخفى على أحدٍ. إنّ مقارنة الإنجيل حتّى بسائر أسفار العهد الجديد ذاته تبرز البوْن الجليّ بين كلام يسوع وأيّ

كلامٍ آخر، كالبَوْن بين نور الشمس الساطع، ولهب الشمعة المرتجف، بوْنٍ تميّزه الأذن والقلب مثلما تميّز الرئتان نسيم غابات الصنوبر المنعش من هواء غرفةٍ مغلقةٍ موبوءٍ.

الأُذن تميّز، بلا عناءٍ، جرْس كلمات الربّ بين كلّ كلام البشر، مثلما تميّز رنّة الذهب من رنّة الرصاص، وتتبيّن فيها نداء السماء وسط كلّ صخب الأرض.

قال «ڤيكتور هوغو»: «كلُّ صفحةٍ من الإنجيل تختلج برعشة القدسيّة، لذلك قالت الأرض: سأقرأه».

فمن لا يهتزّ لتلك الموسيقى السماويّة حيث تتقابل وتتجاوب مفارقاتٌ مذهلةٌ: «**مِن الأوّلين من يصبحون أخيرين، ومِن الأخيرين من يصبحون أوّلين**»؛ «**من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها، ومن أهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلّصها**»...؟ على أجنحة هذه الموسيقى تحلّق الكلمة الأبديّة، عبر الأجيال والشعوب، نابضةً خالدةً.

والذوق يميّز الملح الذي تسري نكهته في كلام يسوع، وتسبغ عليه طعمًا فريدًا، بحيث إنّ من استساغ، مرَّةً، تلك النكهة، بدا له كلّ طعامٍ آخر تافهًا.

إنّ في كلّ قولٍ من أقوال الربّ، ولا سيّما في الأمثال، ذرّة ملحٍ؛ وفيه نور بسمةٍ ليس من هذه الأرض، نورٌ يتوهّج تارةً حزينًا، وتارةً ضاجًّا بالفرح، ولكنّه يسطع، دائمًا، بعذوبةٍ تفوق كلّ ما في الأرض من عذوبةٍ ورقّةٍ.

الإنجيل نارٌ، ومنذ أَلفين من السنين، لم يقوَ أحدٌ على حصرها. ولطالما أحرقت من حاول ترويضها.

وسيظلّ القلب البشريّ مكتويًا بنار تلك الكلمات الحارقة التي تدمغ مرور يسوع بكوكبنا: «**لأنّي جعتُ فأطعمتموني، وعطشتُ فسقيتموني، وكنتُ غريبًا فآويتموني، وعريانًا فكسوتموني، وكنت مريضًا فعدتموني، ومحبوسًا فأتيتم إليّ... كلّ مرَّةٍ صنعتم ذلك لأحد هؤلاء الصغار، الذين هم إخوتي، فلي قد صنعتموه**».

كلّ كلامٍ بشريٍّ خزفٌ سريع العطب، أمّا كلام يسوع، فيتّسم بشفافيّة الماس وصلابته. كالماس قاسيةٌ هي كلماته، ولكنّها، كالماس الصافي تتألّق بألف ألَقٍ لازورديٍّ، تخطف القلب والعقل، قبل العين.

* *

وهذا الكتاب المتميّز هو، أيضًا، كتاب حياةٍ. إنّه يسوع، حيًّا ومغدقًا الحياة. إنّه يُسبغ وجودًا غنيًّا على أكثر الناس بساطةً وهزالاً، بمجرّد التقائه بهم، على نحو ما فعل بتلاميذه الصيّادين. إنّه يوري جذوة نبوغٍ في أيّ إنسانٍ، بفضل ما يبثّه من قوّةٍ خفيّةٍ، ومن طاقاتٍ خلاّقةٍ.

ليس الإنجيل روايات أحداثٍ طواها الماضي، وأُدرجت في سجلّ التاريخ، بل هي تعاليم حيّةٌ، ما برحت تطبع الحاضر بميسمها، وتقوده.

من يطالعه بإيمانٍ وصدقٍ، لا يخامره أيّ شعورٍ بأنّ ألفين من السنين تفصلنا عنه. فأمس واليوم فيه ممتزجان، وليس فيه شيءٌ كان واندثر. بل كلّ شيءٍ فيه كائنٌ، ماثلٌ. فإذا ما تصفّحناه بإمعانٍ، وأصغينا إليه بعنايةٍ، تعالى من بين سطوره صوت يسوع هامسًا: «عليّ أن أحلّ عليك، اليوم، ضيفًا!»

الإنجيل خميرة يسوع الفاعلةُ في عمق الوجود البشريّ، دافعةً إلى نشدان الحقيقة، وإلى التحوّل وفقًا لمقتضياتها. ومن شدّ الإنجيلُ نفسَه وبصرَه، صَدَف عن كلّ بريقٍ زائفٍ يتلألأ على السطح، وردّد مع الرسول بطرس: «إلى أين نمضي، يا ربّ، وعندك كلام الحياة الأبديّة؟»

إنّنا غالبًا ما نتضوّر جوعًا وعطشًا، في حين أنّ مياه الحياة المحيية، وخبزها المغذّي، بمتناول يدنا، في الإنجيل.

وهذا ما خَبَرَه واعترف به أحد كبار فلاسفة عصرنا بقوله: «جوّ الإنجيل هو جوّي. إنّه نبعي الخفيّ. قضاياه تصدمني. كلماته قاسيةٌ أحيانًا، إلاّ أنّي أدرك مدى صدى هذا النصّ في حنايا نفسي، والذي يتعاظم جلالاً كلّما طالعتُ كتبًا أخرى، وراح فكري يقيم المقارنات» (جان غيتوّن).

* * * * * * * * * * * * * * * * * * *

لقد اكتفت الأناجيل برسم الخطوط العريضة لسيرة يسوع وتعليمه، وكان هذا حسبها كي تقودنا إلى قلب يسوع، وتدعونا إلى اقتسام قناعاته الأساسيّة، وتذكّرنا بأنّه ما زال حيًّا بين ظهرانينا، يعيد لكلّ مؤمنٍ الحياة، كما أعادها للعازر، ويعيد له البصر كما أعاده لبرتيماي، ويشركه في عرس الملكوت، كما أشرك تلاميذه في عرس قانا، وفي تذوّق خمرته العجيبة.

يصبح لنا الإنجيل كلام الله، حقًّا، عندما ينير دربنا ونفسنا، كي نحيا بشرى يسوع، يوميًّا، في حياتنا الخاصّة والاجتماعيّة، وفي أدقّ تفاصيلها.

منذ عشرين قرنًا ما فتئت الأناجيل تدمغ، بعمقٍ، أتباع يسوع في كلّ مكانٍ؛ تدفع بعضهم إلى خدمة إخوةٍ لهم في الإنسانيّة، بلا حساب، حتّى بذل الذات، وتسيل في همّة آخرين منعةً تمكّنهم من الصمود في وجه أشرس الاضطهادات وأعتاها.

الأناجيل ثمينةٌ، لأنّها تُدخلنا إلى محراب كيان يسوع، أخينا، ومعلّمنا، وربّنا، ومخلّصنا. فبتأمّلنا فيها نشهد يسوع يحيا، ويحبّ، ويتألّم، ويبكي، ويأكل مع أصدقائه، ونعاشره عشرة الصديق للصديق، ونتبيّن كم كان حريصًا على تنفيذ مشيئة الآب مهما غلا الثمن.

معرفتنا ليسوع تقودنا إلى معرفة الآب ومشيئته، وحبّنا ليسوع يقودنا إلى حبّ الآب، كما هو أحبّه.

وباستلهامنا الإنجيل نخوض حياتنا بوحي تعاليمه، فيستضيء أسلوب حياتنا، وممارستنا الدينيّة، ونستوعب ما يوحيه لنا في كلّ حينٍ.

لا نطالبنّ الإنجيل بوصفاتٍ جاهزةٍ، بل بإشاراتٍ مرشدةٍ، وبصُوىً توضح الدرب، وبإيحاءٍ ينير الوجدان، ويؤهّلنا لمواجهة كلّ طارئٍ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ولا بدّ من مطالعة الإنجيل بتواترٍ، ونَهَمٍ، واستقصاءٍ، وإيمانٍ، للارتواء بمياهه المنعشة. فحقائقه الخلاصيّة مبثوثةٌ في كلّ سطوره ومقاطعه، فلا مندوحة لنا عن مطالعته بالكامل، وإعادة مطالعته بلا هوادةٍ، ولا انقطاعٍ.

والمثابرة على مطالعة الإنجيل تزوّدنا بالكثير من غنى يسوع: ففي أدنى مبادرةٍ من مبادراته، وفي أبسط قولٍ من أقواله، ما يكشف لنا، من وجه الله الجمّ، أكثر من أعمق الخطابات فصاحةً وعلمًا.

فالإنجيل كُتب بإلهام الروح القدس، وينبغي أن يُقرأ على ضوء هذا الإلهام، إذ ليس كالله من يحسن التحدّث عن الله.

اكتناهه يقتضي مطالعته في بساطةٍ، وإصغاءٍ، مع عدم إغفال الإطار الزمنيّ والاجتماعيّ الذي كتب فيه، وظروف ترجمته ونسخه. وبالتالي، من العبث الإكباب على تقصّي الدقائق الحرفيّة، وهدر الجهد في تحليل القشور عوضًا عن تذوّق اللبّ. وإلاّ كنّا كمن يقف أمام لوحةٍ رائعةٍ، فينصرف إلى تحليل الأصبغة المستخدمة في رسمها، صادفًا عن استلهام معناها، والافتتان بجمالها؛ أو كمن يعكف على دراسة الخشب الذي صُنع منه الكمان، معرضًا عن الاستمتاع بموسيقاه وأنغامه.

وقد كتب «لوي ڤيّو» (Louis VEUILLOT) في هذا السياق: «من لا يرى من الإنجيل سوى الحرف، فحتّى هذا الحرف لا يفهمه. ومن لا يبحث فيه سوى عن مبادئَ أخلاقيّةٍ، لا يعثر حتّى على المبادئ الأخلاقيّة السامية التي ينطوي عليها. فإنجيل الحرف، والمبادئ الأخلاقيّة لا غير، ليس سوى قشرةٍ باليةٍ للإنجيل الحقّ، وهو مجرّدٌ من الجمال الذي شاء الله إيداعه فيه، كي يجتذب قلوبنا، ويشدّها إلى يسوع بقيود الحبّ».

إنّ اكتناه الإنجيل لا يتحقّق بتحليل قشرة حرفه، بل بالتحليق إلى سماء معانيه، صوب ذرًى سامقاتٍ، بتجاوز ما يستغلق من التعبير في سبيل فهمٍ أمثل للفحوى الشاملة، وباستخدام قاموسٍ جديدٍ قد يبدو مناقضًا للمنطق، ولكنّه يُثبت ذاته منبعًا للنور.

الإنجيل مشبعٌ بالشاعريّة الشرقيّة، والأمثال الحيّة، فلا يسوغ دراسته وكأنّه كتابٌ علميٌّ. وقد كان أولى بمن أخضعوا الإنجيل لمعايير العلم والعلماء، أن يخضعوا العلم والعلماء لمعايير الإنجيل!

إنّ الله يحترم حرّيّتنا وعقلنا، وفي هذا السياق كتب «لاكوردير»: «الإنجيل والعقل صفحتان متميّزتان لنصٍّ واحدٍ، تنطويان على المادّة عينها، وهما إنتاج مؤلّفٍ واحدٍ. الإنجيل أكّد العقل، والعقل لا ينفي الإنجيل، إلاّ إذا أنكر ذاته. المسيحيّ إنسانٌ بعقله، والإنسان مسيحيٌّ بالإنجيل. ومن ثمّ يتداخل ويتنافذ الإنسان والمسيحيّ، كي يؤلّفا، معًا، روحًا واحدًا، آتيًا من الله، ابنًا، وانعكاسًا لنوره الذي لا يتجزّأ».

فإن لم نستشفّ، في الإنجيل، نداء الله المتجدّد أبدًا، والذي ينذرنا، في كلّ لحظةٍ، بوجوب اتّخاذ موقفٍ من ذواتنا، ومن الحياة، والموت، ومن الله، والقريب،

والوجود، نكون قد أوصدنا دوننا الباب المؤدّي إلى أسرار الله وكنوزه، وإلى خصب الحياة المنبعث من كتاب الحياة.

مطالعة الإنجيل السليمة هي تجاوز الحرف والنصوص إلى لقاء يسوع، وسماع كلمته، فهو كائنٌ حيٌّ، حاضرٌ يكلّمني، أنا شخصيًّا، ويستدعي اهتمامي مردّدًا: «**من لـه أذنان فليسمع**» ومقتضيًا تصميم إرادتي: «**من أراد أن يكون لي تلميذًا، فليحمل صليبه ويتبعني!**»

مطالعة الإنجيل، إذن، هي هذا اللقاء، وهذا الإصغاء، وهذا الحوار، لا بالكلمات فحسب، بل بالمواقف التي تلزم الإنسان بكلّ كيانه.

ولن نقوى على اكتناه الإنجيل، ما لم تكن حياتنا ملتزمةً به، وستظلّ موسيقاه مكتومةً خرساء، ما لم يكن لها في وجودنا كلّه، أصداءٌ.

فاكتناه الإنجيل لا يعني مجرّد الإلمام بسيرة يسوع الناصريّ، بل إنّه الاتّحاد بذلك الإله الحيّ، أبديًّا.

حتّى العجائب التي توردها الأناجيل، لا يسوغ التوقّف أمامها على أنّها خوارق مدهشةٌ فحسب، بل ينبغي أن نستشفّ منها كائنًا، مجرّدُ وجوده معجزةٌ، كائنًا من جسدٍ وتاريخٍ، وأيضًا من روحٍ يسمو فوق الجسد والتاريخ، لأنّه إلهٌ.

* *

وليس الإنجيل مخدّرًا يشيع السكينة، بل هو كثير الاقتضاء، وبعض عباراته تزخر بالقسوة.

فمن يطالع الإنجيل، ويرفض الالتزام بمقتضياته، ويحجم عن الحياة بيسوع، فيفشل في أن يصبح له، بالإيمان، معاصرًا، ينضوي تحت لواء أعداء الربّ، ويشترك مع زعماء اليهود في الحكم عليه بالموت.

أمام المسيحيّ خياران لا مكان وسطًا بينهما: الحياة في النور، أو إطفاء النور حالما يبزغ فجره في القلب.

خيارٌ لا يني يتجدّد: فعلى من اختار النور ألاّ يكفّ عن توثيق العلاقات التي تشدّه إلى الربّ، وأن يتيح للنور تبديد رُقَع الظلمات التي تغشى نفسه باستمرار.

واستقبال نور الإنجيل هو إصغاؤنا، اليوم، لبشراه، واستيعاب الحدَث الماضي، لعيشه حاضرًا راهنًا.

وبذلك يمسي استقراء سيرة يسوع، والإنصات لأقواله، تزوّدًا بالحياة وإعلانًا لكلام الربّ، وإيمانًا يتوغّل، بلا هوادةٍ، ويتأصّل في يسوع الذي غلب العالم.

أمّا الذين يرفضون الإنجيل ومقتضياته، فهم من يجبنون عن الارتقاء إلى القمم التي يدعو إليها، أو الذين انهارت منهم الأخلاق، وأسفّ السلوك، فعكفوا على اختلاق مبرّراتٍ «منطقيّةٍ» لرفض الإنجيل.

* *

إنّ أقوال يسوع تحمل من المعاني أكثر ممّا بدت تحمل عندما تلفّظ بها. فلا بدّ من الإمعان في استجلاء أسرارها وكنوزها.

ولا ريب أنّ الاجتزاء بمقاطعَ من الإنجيل لا يميط اللثام عن كلّ مكنوناته، فلا بدّ من قراءته، بين فينةٍ وفينةٍ، قراءةً كاملةً، والإحاطة بكامل نصّه، كي يتجلّى كلّ نوره، وتنجلي نكهته الفريدة.

ولكي لا تهن نفوسنا وتجوع، علينا أن نظلّ على صلةٍ وثيقةٍ ومستمرّةٍ به، وألاّ نكفّ عن تأمّله. فلئن كان الإيمان هو العثور على الله، إلاّ أنّه، أيضًا، بحثٌ عنه مستمرٌّ؛ لأنّ الله أكبر من إلمامنا، ولا مفرّ لنا من نشدانه بلا هوادةٍ ولا توقّفٍ، فخيرٌ لنا أن نسكن في الإنجيل، ونسكن إليه. ولا ريب أنّ كلّ مطالعةٍ لنصّه يكسبنا علمًا جديدًا، ونسغًا نديًّا.

في هذا السياق، كتب «دمتري ميريجكونسكي»:

«إنّني أُطالع الإنجيل، كلّ يومٍ، وسأظلّ أطالعه، مادامت عيناي تبصران، على ضوء الشمس، أو على ضوء القلب، في الأيّام الأشدّ إشراقًا، وفي الليالي الأكثف حلكةً؛ في السعادة وفي البؤس؛ في إيماني وفي جحودي؛ عندما تكون مشاعري مرهفةً، وعندما تكون بليدةً. ويبدو لي، دائمًا، وفي كلّ مرّةٍ، أنّني أطالع مادّةً جديدةً، وموضوعًا مجهولاً، لن أطالعه أبدًا بكامله، ولن ألمّ به، أبدًا، إلمامًا شاملاً.

ولكأنّي لا أراه إلاّ بطرف عيني، ولكأنّه لا يحتلّ من قلبي سوى زاويةٍ. فما عسى أن يكون الأمر لو أحطتُ به؟

«كتابٌ عجيبٌ: لم يفرغ، قطّ، أحدٌ من مطالعته، ومهما أمعن المرء في استقرائه واستقصائه، يظلّ وكأنّه لم ينتهِ منه؛ ولكأنّ شيئًا ما، منه، قد غاب عن الإدراك، واستعصى على الفهم. وتُعاد مطالعته، فيتجدّد الشعور عينه، وهكذا إلى ما لانهايةٍ، مثل سماءٍ ليليّةٍ، بقدر ما نُنعم فيها النظر، نكتشف المزيد من النجوم».

وقد نصح «بوسويه» المؤمنين قائلاً:

«طالعوا الإنجيل، وأعيدوا مطالعته. تأمّلوا، اجترّوا، رحّبوا بجميع الخواطر التي ستراود فكركم تلقائيًّا، وببساطةٍ. اسمعوا كلّ شيءٍ، وروزوا كلّ شيءٍ، أنصتوا، خاصّةً، إلى ما يأخذ بمجامع قلوبكم، وما يدفعكم صوب الله، صوب يسوع المسيح؛ ما يدعو القلب إلى التواضع، وإلى ما يسمو به، إلى ما يريعه، وإلى ما يشيع فيه العزاء. وقولوا، في ذواتكم: كلّ هذا حقٌّ، كلّ هذا عدلٌ. ولنخرس، ولنُصْغِ، صامتين، إلى حقائق الله التي لا يُسبَر لها غورٌ».

* *

إنّ قوّةً هائلةً تتفجّر من الإنجيل، وتخيف أعداءه؛ ولئن قاسى يسوع، مرّةً واحدةً، من وحشيّة الجلاّدين، فهو يقاسي، كلّ يومٍ، من فظاظة المتفذلكين وسماجتهم؛ إلاّ أنّه ماضٍ في تحدّيهم.

وهو يقاسي، كلّ يومٍ، من فتور مسيحيّين كُثُرٍ يعمدون إلى ختم كتابه الرهيب، وتحصينه بالحديد، والذهب، والأحجار الكريمة، خشية أن يهبّ منه روح الحرّيّة الخافق بين سطوره، ويفجّر كلّ شيءٍ.

وما أكثر الذين طالما جهدوا في لجم ديناميّة الإنجيل، وإخماد ثورته، لئلاّ يفجّر زخمُه المؤسّسات والأنظمة، حتّى الكنسيَّة منها! غير أنّ القوّة الإلهيّة التي تساند الكنيسة، تكمن في أنّ الحياة لا تدوم لها إلاّ بروح الإنجيل الذي يهاجَم ويتعرَّض للإخراس بلا انقطاعٍ، ولكنّه يصمد، أبدًا، ويخلُد بتفجّراته الداخليّة الصامتة.

وما انفكّ الإنجيل يلد كلّ يومٍ أبطالاً وقدّيسين، هم، اليوم، إنجيلنا الحيّ، أولئك

الذين يخاطرون، في شتّى بقاع العالم، براحتهم، وحرّيّتهم، ومستقبلهم المهنيّ والشخصيّ، وبحياتهم ذاتها، استجابةً للإنجيل، وولهًا بيسوع الذي استولى إيمانُهم به على كلّ كيانهم. هؤلاء يمزّقون ما يلفّنا من خَدَرٍ، ولامبالاةٍ، وتوانٍ، وتخاذلٍ، ويعيدوننا إلى بوتقة الإنجيل الكفيلة بصهر رداءتنا، وإبراز جوهرنا.

وإنْ كان يسوع هو كلمة الله النهائيّة، فالقدّيسون هم كلمات يسوع الحيّة، على حدّ قول «جيلبير سيسبرون» (Gilbert CESBRON).

الإنجيل تحرّرٌ، وبساطةٌ، ورشاقة حياةٍ؛ مغامرةٌ ووضوحٌ؛ جنونٌ ونورٌ؛ عزاءٌ ومقتضياتٌ عسيرةٌ، والالتزام به تطلّعٌ دائمٌ إلى الأمام، وتسامٍ مستمرٌّ.

الإنجيل نارٌ مضطرمةٌ، جذوتها متّقدةٌ منذ ألفين من السنين، وما علينا سوى العودة إلى ذلك الموقد، إلى تلك الصفحات الحارقة، المتأجّجة بالحياة، الحافلة بالبساطة والسموّ، والكفيلة، وحدها، بتحويل مصيرنا، وإخصاب وجودنا.

* *

ولا جَرَم أنّ نكهة كلام يسوع الفريدة لا يضاهيها أيّ تفسيرٍ أو تعليقٍ، مهما بلغا من براعة. ومن ثمّ فخير تعليقٍ هو ما يحرّض على مطالعة الإنجيل وتأمّله بتواضعٍ وخشوعٍ. فلنتحسّس أثره المباشر، ولنستسلم لسحره الخلاّق، ولننضج بناره الإلهيّة، ولنوثّق علاقتنا بيسوع. ففي الإنجيل ما يتخطّى كلّ تعليقٍ، وفي يسوع ما يتخطّى الأناجيل كلّها.

يســـوع

وُلد طفلاً في عتمة ليل التاريخ. وكرّت ثلاثون من السنين، فإذا به شابٌّ يذرع الطرقات، شُعلةَ إنسانيّةٍ غير مألوفةٍ، داعيًا إلى تغيير العالم، مزحزحًا جميع الأثقال: أثقال الأفراد والمؤسّسات والدين اليهوديّ. حواجز الأُسَر، والقبائل، والأجناس، لم يكن لها وجودٌ لديه. وكان يجهد في إيقاظ الجميع على وعي الحبّ. لقد كلّم الله العليَّ في أُلفة طفلٍ، وحيثما حلّ كانت الطبقات المصطنعة تتهاوى، فيصبح الفقراء أكثر غبطةً من الأغنياء، ويحتلّ السقماء والمنبوذون المقامات العليا، ويغدو الأخيرون أوّلين.

لقد حقّق يسوع جميع توقّعات الأنبياء ولكنّه تخطّاها.

المجوس بحثوا عن ملك اليهود. وعندما صُلِب يسوع علّق بيلاطس فوق صليبه إعلانًا يقول إنّه يسوع الناصريّ ملك اليهود. ولكنّه لم يكن ملكًا زمنيًّا، ولا مسيحًا منتصرًا، بل كان ملك سلامٍ، ومحبّةٍ، وفقرٍ، وبذلٍ، ولذلك صُلِبَ.

يسوع يتعذّر حصره في إطار صُوَرٍ وَصِيَغٍ مسبقة الصنع. فهو يتخطّى كلّ توقّع، ويستخدم خيوط الماضي كي ينسج مستقبلاً قشيب الجدّة.

نوره كان يخترق الظلمات الكثيفة، فيهبّ من غفلته الغنيّ الذي ألصقته بالتراب ثروته، والمرأة التائهة، ورجل القانون الذي أرهقه علمه.

طعم حياةٍ جديدٌ كان يتفجّر من هذا الإنسان، ونمطٌ مدهشٌ من العيش المشترك. وكان يُشاد، بالحبّ، عالَمٌ وليدٌ.

وما انفكّت عدوى يسوع تسري في دماء البشر، وما زال إخوةٌ له يقاسمونه اندفاعه ويواصلونه. أولئك الذين يرقبون ما في العالم من مآسٍ، وآلامٍ، ومشقّاتٍ، فلا يتجاهلونها، ولا يفرّون منها، بل يتصدّون لها بإقدامٍ، ويقدّمون لمقاومتها ذواتهم،

وفي هذه التقدمة يكتشفون نبع الفرح الصافي، الذي ينبجس من موطن الله الخفيّ، وعلى الوجود يتدفّق.

إنّه يحيا في قلوب البشر، ولا تحصره أماكنُ وطقوسٌ. ولا يلمّ به كلامٌ منمّقٌ ينأى بنفسه عنه، بل هو، أبدًا، يجتذب البشر إلى الأمام، ويُشرع سبُل المستقبل.

إنّه حاضرٌ حيث الناس يرتحلون ناشدين أرضًا جديدة، وحيث البشر يهجرون ذواتهم كي يهبوها. إنّه إله الحرّيّة، والمبادرة، والسخاء الذي ينير الوجود.

إنّه إله الحياة، يقطن قلوب البشر، ويقطن، أيضًا، أَجسادهم، ويقطن الجموع، في القارّات كلّها.

اليوم، أيضًا، ما برحت البشريّة تنتظر، مدى ساعاتٍ، ومدى قرونٍ وألفيّاتٍ، في فترات الفرح، ومواسم المحن، تنتظر وجهًا يولد، بين ظهرانيها، الوجه الأكثر إنسانيّةً، لأنّه وجه الله. وعيد الميلاد يكرّر، كلّ سنةٍ، القول: «فلنتذكّر مستقبلنا!».

« فِي البَدْءِ كَانَ الكَلِمَة »

(يوحنّا ١:١ – ١٨)

مطلع إنجيل يوحنّا عسير الفهم، ولكنّه فريد الجمال.

كان نشيدَ الجماعات المسيحيّة الأولى، ونصّ إيمانٍ جوهريًّا، وترتيلة تمجيدٍ للتأنّس: ولادة اللّه الفريدة في يسوع المسيح، وولادة اللّه بين البشر، منذ الأزل، وفي كلّ لحظات التاريخ.

إنّ عطيّة الكلام الإلهيّ تعتلن، قارنةً عظمةً وحميميّةً مدهشتَيْن. فالكلمة صار جسدًا، تجسّد في الإنسان، وارتدى جسد إنسانٍ.

ولادة الإنسان الحقّة، بمصيره الفريد، وسط وفرة الكائنات، لا تنبع من الدم، ولا من إرادةٍ بشريّةٍ، بل من اللّه. إنّها كلمةٌ مطروحةٌ على كلّ إنسانٍ. بوسعها أن تنبض في كلّ فردٍ، كلّما رغب في الإصغاء إليها، في صمت ذاته.

الكلمة، سرّ اللّه، هي، في الأغلب، همسةٌ أكثر منها صيحةٌ. إنّها تنمّي وتساعد على الكِبَر؛ تُضيء الإنسان في أعماق ذاته، وتجعله كائنًا من نور.

وجود يسوع لم يبدأ عندما تجسّد، بل هو موجودٌ منذ الأزل، بصفته كلمة الآب المشارك له في الجوهر. وهذا الواقع ينير كلّ أقوال يسوع وأفعاله الواردة في الإنجيل.

قبل أن يكون الكون، وقبل أن يولد في مغارة بيت لحم، يسوع كائنٌ. في ما يتخطّى الزمن، كان هو اللّه، وكلمة اللّه، وأحد أقانيم الثالوث، وخالق كلّ شيءٍ. وما ولادته سوى اعتلانٍ حسّيٍّ للّه، وولادة عمل الخلاص، حياةً أبديّةً، ونورًا للبشر. حياة البشر الحقّة، الوحيدة، تكمن فيه، في ولادته، في أقواله، في عجائبه، في موته وقيامته. وفيه حقّق اللّه حلمه بإشراكنا في حياته.

يسوع هو الكلمة غير المخلوق، الإله المولود الذي لبس بشريّتنا لكي يمكّننا من أن نكون أبناء اللّه، ويوفّر لنا مشاركةً فعليّةً، فائقة الطبيعة، في الحياة الإلهيّة عينها.

تجسّد الكلمة الأزليّ هو اعتلان الله الأكمل. وقد قال يوحنّا الصليبيّ:

«**مذ منحنا الله ابنه، كلمته، لم يعد لديه أيّ قولٍ يبلّغنا إيّاه. فقد قال لنا كلّ شيءٍ، دفعةً واحدةً، في كلمته**».

لكي يصبح بشرًا، استخدم الله وسائل بشريّةً، فأقام، تسعة أشهرٍ، جنينًا في أحشاء مريم؛ ووُلد طفلاً، في زمنٍ محدّدٍ من التاريخ، ومكانٍ محدّدٍ على الأرض؛ واستولد من زكريّا وإليصابات، الطاعنَيْن في السنّ، ابنًا يمهّد لـه سبيل الرسالة.

كان هو النور الحقيقيّ الذي ينير كلّ قادمٍ إلى الوجود؛ فهو يكشف للبشر جوهر كلّ شيءٍ، ومعناه الأخير، ويكلّم قلوبهم.

«**كان في العالم، والعالم به كان، والعالم لم يعرفه. جاء إلى بيته الخاصّ، وأهل بيته الخاصّ لم يقبلوه**». حيال يسوع، لا مجال للتأرجح: فإمّا الإيمان به أو رفضه.

فاقدو البصر لا يلحظون الشمس الساطعة. كذلك من لا يؤمنون لا يرون الله، مع أنّه يحيق بهم من كلّ صوبٍ.

«**أمّا الذين قبلوه، أولئك الذين يؤمنون باسمه، فقد آتاهم أن يصيروا أبناء الله، أبناءً لم يولدوا من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إرادة رجلٍ، بل من الله**».

نحن، إذن، نولد مرّتين: ولادةً بشريّةً تنتهي بالموت، «بمشيئة بشرٍ»، «باللحم والدم» في الهشاشة الملازمة لوضعنا البشريّ؛ غير أنّ الإيمان يقودنا إلى ولادةٍ أُخرى، ولادةٍ إلهيّةٍ، في قلب كياننا الهشّ، تؤهّلنا لحياةٍ «أبديّةٍ».

في مرحلةٍ أُولى، كلّ إنسانٍ ابنٌ لله بالولادة، لأنّ الله هو الذي يهب الحياة، ويُبقيها ما شاء؛ فلا وجودَ إنسانيًّا، بمعزلٍ عن الله. وكلّ إنسانٍ يولد وشريعته مدوّنةٌ في قلبه، وعلى صفحات وجدانه، ويتلقّى من الله القدرة على النهج وفقًا لمقتضيات ضميره.

وفي مرحلةٍ ثانيةٍ، يُصبح الإنسان «ابنًا لله» بالإيمان بيسوع .

«والكلمة صار بشرًا، وسكن بيننا، مملوءًا نعمةً وحقًّا. وقد رأينا مجده، مجد ابنٍ وحيدٍ آتٍ من الآب».

في مغارة بيت لحم شاهدنا الجسد الذي ارتداه ابن الله الوحيد. صار هشًّا لكي يهبنا أبديّته؛ وصار خاضعًا للموت، لكي يهبنا خلوده؛ صار «إنسانًا»، كي يجعلنا آلهةً. وفي جسد ابن الله الوحيد، الذي أصبح هيكل الله الحقّ الوحيد، شهدنا مجد الله.

وشهد لـه يوحنّا، إذ أعلن قائلاً: «**إنّه هو الذي قلت فيه: إنّ الذي يأتي ورائي قد تقدّمني، لأنّه كائنٌ قبلي**».

يقول القدّيس أُوغسطينُس في المعمدان: «لأنّ كلمة الله صار بشرًا، وكتم ألوهته، سبقه رجلٌ عظيمٌ، كي يشهد أنّ ثمّة من هو أكثر من إنسانٍ».

كلّ العهد القديم كان إنباءً بمجيء المخلّص. ولكنّ المعمدان، الأعظم بين مواليد النساء، أشار إليه بإصبعه، وكانت شهادته فيه قمّة النبوءات كلّها.

المعمدان، خاتمة الأنبياء، وآخر شهود العهد القديم، والشاهد الأوّل على يسوع المسيح، يؤكّد الاختلاف الجوهريّ بين يسوع وسائر البشر. فالبشر يولدون في إطار الزمن، ويسوع موجودٌ قبل الزمن، هم «يؤلّهون» لكي يصبحوا أبناء الله، ولكنّ يسوع هو «الله» منذ الأزل، إنّه الكائن قبل كلّ كيانٍ.

«أجل، من ملئه كلّنا أخذنا، ونعمةً على نعمة. ذلك بأنّ الشريعة أُعطيت على يد موسى، وأمّا النعمة والحقّ فقد جاءا على يد يسوع المسيح».

قصّة الله مع البشريّة، هي مشروع فيض غامرٍ، وحبٍّ دفّاقٍ، «ونعمةٍ على نعمةٍ». فعندما لم تعد الشريعة كافيةً لإرواء عطش أَبناء الله إلى الكمال والحبّ، عقد يسوع معهم عهدًا جديدًا، وأغدق عليهم حبًّا مجّانيًّا على حبٍّ مجّانيّ، وعطاءً على عطاء. وفي مثل إيمان العذراء، «حملت» البشريّة الله، «لذلك تتوقّع الخليقة كلّها، مترقّبةً، تجلّي أبناء الله ... وتئنّ حتّى الآن، وتتمخّض...».

«الله لم يرَه أحدٌ قطّ، ولكن الإله، الابن الوحيد، الذي هو في حضن الآب، هو الذي كشف عنه»

ما أعظم حبّ الله! يعلم أنّه يفوق كلّ خليقةٍ، ولا يمكن أن «يُرى»، فتجسّد في يسوع؛ وهكذا عندما نحدّق إلى يسوع نستشفّ صفات الله الخفيّة، وعندما ننصت إليه، نتبيّن فكر الله الصامت، وإرادته.

من خلال يسوع يكلّم الله البشر، ويكشف لهم سرّه. لا ريب أنّ كلّ من يحبّ هو متّحدٌ بالله، ومولودٌ منه. بيد أنّ كلّ من يؤمن بيسوع يدخل في امتلاءٍ جديدٍ، لأنّه «يعرف» الله، و«يصبح لـه ابنًا».

أُمَّان تَلْتَقِيَان: «مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ»

(لوقا ١: ٣٩ – ٤٢)

كانت مريم قد أضحت، لتوّها، أُمًّا لله، عندما تنامى إلى علمها أن نسيبتها إِليصابات حاملٌ حملاً عجيبًا، وأنّها في الشهر السادس من حملها، فهبّت، وهرعت لمدّ يد العون لها.

وكان لقاءٌ فريدٌ بين أُمَّيْن نادرَتيْن تحمل كلٌّ منهما، في أحشائها، مثل كنزٍ ثمينٍ، طفلها: إِليصابات التي حبلت في شيخوختها، ومريم التي حملت ابن الله، وهي عذراء.

لحظة انفعالٍ كثيفٍ، ذهولٌ، رعشةٌ: مصيران استثنائيّان يتلاقيان وجهًا لوجه، ويتعانقان. لحظة رجاءٍ لا توصف، في سياق تاريخٍ سحيقٍ.

وها هما الآن يوحنّا الذي سيدعى السابق، وأخيرًا، يسوع الذي ستدعوه السماء نفسها «عمّانوئيل»، أي الله معنا. لقاءٌ صامتٌ خَصْبٌ بين الله والبشريّة، من خلال جنينَيْن رقيقَيْن، هشَّيْن!

حدثٌ جوهريٌّ، أكبر بكثيرٍ من مجرّد لقاءٍ. فعبر تيْنك المرأتَيْن، طفلٌ يختتم عهدًا قديمًا، وطفلٌ يستهلّ عهدًا جديدًا بين الله والإنسان، أسمى تعبيرٍ عنه يسوع، الكلمة الإلهيّة التي صارت بشرًا.

وهل من عجبٍ إن توثّب فرحًا جنين إِليصابات، في بطن أمّه، لدى سماع صوت من كانت تحمل يسوع، جنينًا، في أحشائها؟ «**ما إن وقع صوت سلامك في أذنيّ حتّى ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني**». فحيث مريم، تنبع البهجة، ويهيمن حضور الله. وبواسطة مريم يدخل الله إلى أكثر الأماكن حميميّةً وبساطةً، ويلج إلى البيوت والقلوب. زيارة مريم لإِليصابات دشّنت عهدًا كلّيّ الجدّة، بات معه الله يزور

البشر بواسطة إنسانٍ من صلبه، ابنه المتجسّد، وغدا بوسع البشر الاتّصال بالله من خلال يسوع وأمّه.

«**وامتلأت إليصابات بالروح القدس**». فحيث تأتي العذراء، تحلّ العنصرة. تحيّة العذراء في «عين كارم» استدعت الروح القدس، وكلّما نحن هتفنا: «السلام عليك، يا مريم» نستدعي الروح القدس. إنّ ما تقوله هذه الصلاة هو أنّ كلّ مجد مريم يأتيها من الله، وأنّ كلّ عظمتها تستمدّه من «النعمة» التي أفاضها الله على نفسها، وأنّ كلّ جمالها نابعٌ من كون «الربّ معها» وكلّ ما فيها مرتبطٌ بابنها.

«**من أين لي أن تأتي أمّ ربّي إليّ؟**».

العذراء هي أمّ يسوع البيولوجيّة، ولكنّها، أيضًا، شريكته في رسالته، ومهمّته الخلاصيّة. في مطلع رسالته حملته على إجراء معجزة قانا، وفي ساعة موته، كانت عند أقدام صليبه، وولدتنا، جميعنا، بالآلام، عند أقدام الصليب. كانت مع التلاميذ في العنصرة، ورعت نشأة الكنيسة، وهي أمٌّ لكلّ إخوة يسوع، تحبّ جميع من أحبّهم وتُعنى بهم. وما أسعد من تكون أمُّ الله أمَّه!

«**طوبى للّتي آمنت**»: العذراء هي أمّ الكنيسة، ونموذج شعب الإيمان. وشرط الفرح هو الإيمان بأنّ الله معنا بروحه وجسده. والعذراء هي التي حملت جسد يسوع، واختبرت وجود الله في جسدها، ومن خلالها ندرك سرّ الإفخارستيّا، ومعنى القدّاس.

وكم من أحداثٍ منذ التحيّة المتبادلة، والألفاظ الأولى! وكم من الحقائق الخالدة في النشيد الذي انبجس، تلقائيًّا، من نفس مريم، التي أنشدت فرحها، لأنّ الله يؤثر الصغار، ويخزي المتكبّرين، يحطّ المتغطرسين، ويرفع المتواضعين، يشبع الجياع، ويصرف الأغنياء، مُصفري الأيدي! إنّ زيارات الله لا تمرّ إلى جانب وجود البشر، عبثًا؛ فعندما هو يقترب تتحطّم الحواجز، وتتفجّر حياةٌ جديدة.

لقد أنشدت «أَمَة الله» شكرها، وعزَتْ كلَّ ما أُنعم به عليها إلى «المخلّص»، «القدير». وكلّ ما أتاها من الله، نعمةً، أعادتها لـه شكرًا وتسبيحًا .

لقد كانت من الصغار الذين يختارهم الله، وكان خصب الخالق يضجّ في داخلها. كانت ثمرةَ تقدُّم البشريّة، وزهرةَ الإنسانيّة الجديدة. وقد أنفقت كلّ عمرها في حبٍّ

مطلقٍ للّه والبشر، وكان حبّها نارًا خفيّةً، ولكن حارقةً، لا تترك رمادًا. وعندما ماتت، كان الحبّ قد أحرقها بالكامل، ولم يكن فيها، ما يطاله فسادٌ، فانتقلت بنفسها وجسدها إلى السماء .

* *

كم سعدت إليصابات بمكوث مريم إلى جانبها، وبنجدتها لها! ثلاثة أشهر من الأبديّة.

ثمّ عادت تلك العظيمة المتواضعة إلى بيتها، واستأنفت حياة الفقر والامّحاء: تمتاح الماء من النبع، وتطحن، وتعجن، وتشعل نار الموقد، وتطهو، وتغسل، وتقطف العنب والتين، وتزور مرضى القرية، وتتحدَّث إلى الجارات، وتبتسم للشمس المشرقة. وفيما هي ناهضةٌ بهذه المهامّ اليوميّة البسيطة الوضيعة، كان اللّه يولد فيها.

أجل، إنّ جميع الأجيال تطوّبك، يا مريم!

وجه يسوع (بريشة رامبرانت)

يسوع الطفل يراقب يوسف النجّار (بريشة جورج دي لا تور)

مريم واليصابات

الفتاة أمام العجوز، في نهاية الدرب الوعر.
وألقت الصغيرة التحيّة، فارتعشت الكبرى حتّى جذور نفسها.
في ظلّ جسَديْهما، طفلان غافيان.
بانتظار مصيرَيْهما المترابطَيْن.
ولكنّ جنين الفتاة أيقظ جنين العجوز العقيمة.
إنسانيّةٌ طاعنةٌ في السنّ، وإنسانيّةٌ تضجّ شبابًا.
إلى أين يمضي طفلا المعجزة؟
واحدٌ سيُقطع رأسه، وآخر سيُصلب.
من صميم الصراعات المحتدمة، والأفراح الحادّة،
والميتات المنتصرة،
تتفتّح الولادات، في ليالي التاريخ.

(جيرار بيسّيير)

سِرُّ مَريَم وَسِرُّ يوسُف

من كبريات خصال مريم الصمت، ولطالما طوت صدرها على سرٍّ قدسيٍّ رهيبٍ.

فمنذ طراوة عودها كانت قد نذرت للّه بتوليّتها، فهي كَلِفةٌ بالطهر الذي يحرّرها من استعباد الجسد والعالم، ويوليها حرّيّةً قصوى، ويوثّق صلاتها الحميمة باللّه، ويضاعف طاقاتها على العطاء، ويُسبغ على بصيرتها نورًا صافيًا.

مثل ذلك النذر لم يكن شائعًا، ولم يكن له، في شعبها، سوابق. فواجب كلّ فتاةٍ يهوديّةٍ أن تتزوّج وتُنْجِب كي تُسهم في مهمّة تكثير شعب اللّه، وإن هي كانت من نسل داود، كما هو شأن مريم، فواجبها، في هذا المجال، مزدوجٌ، فهي قد تُنجب لشعبها المسيحَ المنتظر. ولا ريب أنّ نذر مريم للبتوليّة قد تمّ بإلهامٍ من اللّه، وهي، باستجابتها لـه، لم تُضحِّ بالأمومة فحسب، بل نأت بنفسها عن إمكانيّة الحظوة بإنجاب الماسيّا، الذي كان أغلى حُلم يراود خيال فتاةٍ من أمثالها.

كان نذرها عهدًا بينها وبين ربّها، لم يعلم به أحدٌ من ذويها، وكان منسكها في داخلها، حيث كانت تعيش في أُلفةٍ حميمةٍ مع اللّه.

ولم تكن جاهلةً لما سيعرّضها لـه ذلك النَّذر من مشكلات، فهي مخطوبةٌ لرجلٍ يدعى يوسف، ولن يكون بوسعها رفض الزواج، والمكوث في بيت ذويها، فالتقاليد تفرض فرضًا مبرمًا، على كلّ فتاةٍ، الخضوع لتدابير الزواج التي تقرّرها الأسرة، نيابةً عنها.

ولئن هي تشبّثت بالبتوليّة، فلن تقوى على ممارستها، إلاّ في إطار الزواج. وبما أنّها نذرتها استجابةً لوحي الربّ، فقد أوكلت إلى الربّ أمر حلّ تلك المفارقة المستعصية، فهو كفيلٌ بأن يُلهم الرجل الذي سيكون زوجها، معايشة فتاةٍ نذرت للّه نفسها وبتوليّتها.

إنّها مطيعةٌ للربّ، مستسلمةٌ له، مُسْلِسَلةٌ له قياد ذاتها وحياتها، مؤمنةٌ إيمانًا لا

ريبة فيه أنّه، طالما هي ظلّت حريصةً على إِتمام مشيئته، سُيزيل من دربها الحواجز، وسيجعل كلّ مستعصٍ يسيرًا.

مأساتها انعقدت يومَ قالت «نعم» للملاك الذي بشّرها باصطفاء الله لها لكي تكون للمخلّص أُمًّا. امتثلت لمشيئة الله، وإِليه أوكلت تحقيق مراميه، بثقةٍ مطلقةٍ.

* *

يوسف، أيضًا، كان يحمل سرًّا ينوء بعبئه. فالشكوك والظنون تتنازعه وتمزّقه. إنّه لا يرتاب في طهر خطيبته، غير أنّ الواقع المذلّ الذي صدمه، عقب عودة مريم من زيارتها إلى إِليصابات، واقعٌ لا يمكن دحضه، ويقضّ مضجعه. ومريم لا تزيح عن صمتها ولا تقدّم تفسيرًا. فإن هو طلّقها قضى على حياتها، إذ إنّ عقوبة الزنى هي الرجم، وهو يخشى أن يرتكب جريمة قتل بحقّ من يؤمن، في سريرة نفسه، ببراءتها. إلاّ أنّ كرامته لا تسمح له بأن يكون أبًا لطفل يجهل أَباه.

ولكنّ الله، الذي غرس ابنه في أَحشاء مريم، بادر إلى تبديد حيرته، فاتّحد هو ومريم، في سرّ الله. وأخذها إلى بيته زوجةً رقيقةً يفخر بها، وهو عالمٌ أنّها مكرّسةٌ لله وحده، محترمًا بتوليّتها، مرتضيًا تبنّي ابنها، وتولّي رعايته وتنشئته.

لقد أوجد الله العيلة، وابتغى لابنه أن يعيش في كنف عيلةٍ، حيث الأب المتبنّي، بحبّه الصادق الدافئ، وتفانيه الجمّ، لا يقلّ شأنًا عن الأب البيولوجيّ. ولكم من آباء يكتفون بالإنجاب، وليس فيهم من الأبوّة شيءٌ!

وكان يوسف لمريم خير رفيقٍ وسندٍ. أحبّها بعمقٍ، ولكنّه احترم، بإجلالٍ، الله الذي حملته جنينًا، وحضنته طفلاً ويافعًا، وكرّست له كلّ ذاتها.

بَيْتَ لَحْم

أكثر ملامح حياة يسوع سحرًا وعذوبةً وازدحامًا بالذكريات: بيت لحم. كلّ ما تلاها: سرّ الناصرة، ورسالة البحيرة، وكفاح أورشليم، كان النهار وما ينطوي عليه من دأبٍ؛ وتظلّ بيت لحم هي الفجر النديّ، بسمة السماء الأولى، النسمة الصافية الرقيقة التي تحلّق بالنفس إلى لازوردٍ مجهولٍ، وتفعمها بعطورٍ سرّيّةٍ. بيت لحم نغمة عيدٍ حافلةٌ بتراتيل الملائكة وحفيف الأجنحة.

كان الله قد اصطفى، في قريةٍ تائهةٍ، طفلةً مسكينةً اسمها مريم، لم تتعدّ الخمسة عشر ربيعًا. وأوفد إليها رسولاً من عالمٍ آخر، وبسط الرسول مهمّته، فأجيب طلبه، وتحقّق السرّ، فانحنت السماء، وغمرت الأرض بالرجاء، حين ملأت أحشاءً بالسرّ، وقلبًا بالحبّ.

تجشّمت العذراء عناء السفر إلى بيت لحم، خمسة أيّامٍ، على ظهر حمارٍ، وهي في نهاية شوط حَملها، ولكنّها لم تكن تني، في سرّها، تردّد: «**تعظّم نفسي الربّ**».

في بيت لحم، كانت الخانات والبيوت غاصّةً بالمسافرين الغرباء، ولا تتّسع لأُسرةٍ جديدةٍ، وخاصّةً لأمٍّ مقبلةٍ على الوضع في غضون ساعاتٍ، على نحو ما تغصّ نفوسنا بشتات الأفكار، وجماعات الرغبات، وزرافات الهموم والأهواء، بحيث لا يبقى فيها متّسعٌ لاستقبال يسوع عندما يقرع الباب استئذانًا بالدخول، لا سيّما أنّه ضيفٌ مزعجٌ، يقتضي المكان كلّه، ولا يرتضي التعايش مع من ارتحنا إليهم من ضيوفٍ. حينئذٍ قد لا نتلفّظ بعبارة الطرد، ولكنّ قلبنا، وكلّ كياننا يردّدانها؛ ويسوع الذي يصغي إلى صوت القلب، ويدرك أنّه غير مرغوبٍ فيه، يمضي في سبيله، ويدعنا نعانق بؤسنا.

استحوذ القلق والاضطراب على يوسف. أَمّا مريم فلم يكن أيّ همٍّ يجد إلى نفسها سبيلاً، فهي تحمل منظّم الكون، الكلّيّ القدرة. إنّها تحمل كنز الوجود، ولا تعبأ

بأيّ شيءٍ آخر. لم تكن تحسد الأمّهات الثريّات اللاّئي يضعن أطفالهنّ في جوٍّ حافلٍ بالترف؛ بل إنّ معاناتها، فيما يسوع في أحشائها، كانت تفرز فرحًا مزدوجًا: انصهارها في مهمّة الخلاص قبل أن يباشرها هو، وسبقها إلى حمل الصليب وهي تحمل من سيتمدّد عليه.

إنّها فادية البشريّة الثانية. ولا عجب إن هي جابت شوارع بيت لحم، في غيرِ قلقٍ ولا خشية، مستسلمةً لمشيئة الله، الذي كان يسكب سكونه في نفسها قطرةً قطرةً. لقد وهبت المخلّص دمها وخفقات قلبها، فنفحها النور، والقوّة، والحبّ، والصبر، وذلك السلام الذي يمتلكه من يمتلك الله.

وعندما قنط يوسف ومريم من استضافة البشر التفتا إلى ما توفّره الطبيعة لكلّ فقيرٍ، إلى المغاور الكثيرة المشرعة لكلّ مهجَّرٍ.

لم يَلِقْ بمن يفوق الكون رحابةً أن ينحصر في مسكنٍ بشريٍّ، وأن يولد في إطار غنانا الباطل. إنّه يسمو على ثرواتنا وممتلكاتنا بازدرائها، ويعبّر عن عظمته باختياره ما ندعوه بؤسًا. لقد أبت زهرة الكون التفتّح في حديقةٍ مصطنعةٍ من عمل البشر، ولم ترتضِ سوى الحقول التي أنشأها الله، أبوه.

ثمّ أليس من البديهيّ أن يكون رجل العالم أجمع، منذ ساعاته الأولى، في متناول الجميع، ولا سيّما أولئك الذين أراد أن يتمثّل بهم على نحوٍ خاصٍّ: الوضيعين والصغار، المحتقَرين الأثيرين على قلبه؟

إنّ ما درجنا عليه من زينةٍ تجعل من المغارة مكانًا دافئًا، مضاءً، ملوّنًا، معطّرًا، يشيع رقّةً، وعذوبةً ورفاهًا، يجب ألاّ ينسينا الزريبة الحقيقيّة التي وُلد فيها يسوع، المشرعة للريح والبرد، المعتمة، التي تفوح منها روائح الروث والسائمة.

الميلاد

-١-

ما من يومٍ في السنة يوري مثل نيران أفراح الميلاد، ويحرّك مثل هذه الأمواج من البَشَر، والأُسر، والهدايا، والعادات. وما من احتفالٍ أوحى مثل هذا القدر من الأناشيد، في كلّ لغات العالم، وبكلّ أنماط الموسيقى.

في ليلة الميلاد هتفت السماء بإعلان أعظم رجاءٍ بُلّغ به البشر، يومًا: «**المجد لله في العلاء، وعلى الأرض سلامٌ للبشر المستقيمي النوايا**»، الذين ينشدون سلام القلب، ويرغبون في فعل الخير، وإن لم يعرفوا، دائمًا، السبيل إليهما. فلهؤلاء كان مولد يسوع عربون رجاءٍ، ومنارة هدايةٍ.

الحدَث، في وقته، كان ضئيلاً، ولم يتوقّع أحدٌ، له، أن يُخلّف أثَرًا: مجرّد طفلٍ فقيرٍ يرى النور في ركنٍ خفيٍّ، مُغفَلٍ، من الإمبراطوريّة الرومانيّة، التي كانت عاكفةً على إحصاء رعاياها، ولكأنّها تدعّم سلطانها، وتُعدّه للخلود. بيد أنّ الإمبراطوريّة اندثرت، وشاع، في كلّ أرجاء المسكونة، الاحتفال بمولد ذلك الطفل الإلهيّ، باتّخاذ الله جسدًا بشريًّا، وبزيارة كائنٍ فريدٍ، إلهٍ كاملٍ، وإنسانٍ كاملٍ، لكوكبنا.

أَلم يكن زكريّا قد تنبّأ: «**يا لرحمة أحشاء إلهنا التي اجتلبت لنا افتقاد الكوكب الشارق من فوق، الذي تجلّى للقابعين في الظلمة وظلّ الموت، كي يُرشد خطانا على درب السلام**»؟

أَولم يقل القدّيس أوغسطينُس: «لو لم يكن الله يحبّ الخطأة، لما انحدر من السماء إلى الأَرض»؟

بالميلاد تجسّد الله، وتألّه الإنسان، ولم يعد طفل المغارة، وحده، يحمل، في ذاته، الوهن والعظمة، الهشاشة واللانهائيّ.

ومنذ تلك الليلة الوُضّاءة في تاريخ البشر، اتّحد الله والإنسان اتّحادًا لا انفصام

لعراه. فما من إنسانيّةٍ حقّةٍ، بمعزلٍ عن عبادة الله، ولا من ألوهةٍ حقّةٍ، بمعزلٍ عن احترام الإنسان وخدمته.

فيسوع وُلد حُبًّا بنا، والطريقة التي نُحَبُّ بها تدعونا إلى الحبّ بالطريقة عينها. فعلى ناشدي الله أن يذودوا عن حقوق إخوتهم البشر. غير أنّ خدمة الإنسان تفقد كلّ معناها، إن لم تتجدّد باطّرادٍ، وإن لم تظلّ تتغذّى من معينها الأَصيل: حبّ الله للبشر.

ما من شعورٍ أعمق إنسانيّةً من الحبّ. ولكنّنا غالبًا ما نخطئ الحبّ، ونخلط بينه وبين نقيضه. والله كفيلٌ بأن يعيد لنا إنسانيّتنا، ببثّه فينا الحبّ الذي لا يشوبه عكرٌ، الحبّ الذي جعله يولد طفلاً.

لقد كانت ليلة الميلاد مطلع قصّة حبٍّ، أجمل قصّة حبٍّ، في مملكة الحبّ. ولكلّ إنسانٍ، فيها، دورٌ.

الميـــلاد
-٢-

اتّسع النزل لمن يملكون المال والجاه، ولم يكن فيه متّسعٌ لمن سيصبح ملجأً لجميع القلوب التي تعاني الوحدة والنبذ. وسيظلّ السطر الأشدّ قتامًا في تاريخ البشريّة ذاك الذي يقول إنّه لم يكن لابن البشر مكانٌ يولد فيه، فوُلد في زريبة مغارةٍ مشرعةٍ على كلّ الرياح.

في أكثر المطارح قذارةً وُلد الطهر، وفي زريبة بهائمَ وُلد من ستقتله بهائمُ بشريّةٌ.

الزريبة آخر مكانٍ يمكن تخيّله مهدًا لابن الله، ولا بدع فالألوهة تثوي دائمًا حيث لا يُتوقّع لها أن تكون.

من كان بوسعه تخيّل أنّ ذاك الذي أدفأ الأرض كلّها بالشمس احتاج إلى ثورٍ وحمارٍ يدفئان جسده الغضّ، وأنّ الكلمة الأبديّ سيكون، يومًا، عاجزًا عن الكلام.

كان من البديهيّ أن يلج الخالق الأرض مثلما يلج الرسّام مرسمه، والنحّات محترفه، والكرّام كرمه، وصاحب البيت بيته، ولكنّه ألفى نفسه غريبًا في منزله وبين خلائقه.

وُلد في مغارةٍ حيث على من يودّ الدخول أن ينحني، ولذلك لا يستطيع المتكبّرون مشاهدته. أمّا الذين ينحنون ويدخلون المغارة المظلمة، فيطالعهم مشهد عالَمٍ جديدٍ، يتربّع على عرشه، جالسًا على ركبتي أمّه، صبيٌّ يحمل الكون كلّه بين يديه.

قطبا حياة يسوع: المذود والصليب؛ لقد تقبّل المذود لأنّه لم يكن له مكانٌ في النزل، وتقبّل الصليب لأنّ اليهود أعلنوا: «لا نريد هذا الرجل ملكًا علينا». أُنكر لدى مجيئه، ونُبذ عند مُضيّه. أُعير عند مجيئه مذودًا، ولدفنه أُعير قبرًا، ولم يملك لنفسه شيئًا. أحاط به في الزريبة حمارٌ وثورٌ، وعلى الصليب كان بين لصّيْن مجرمَيْن.

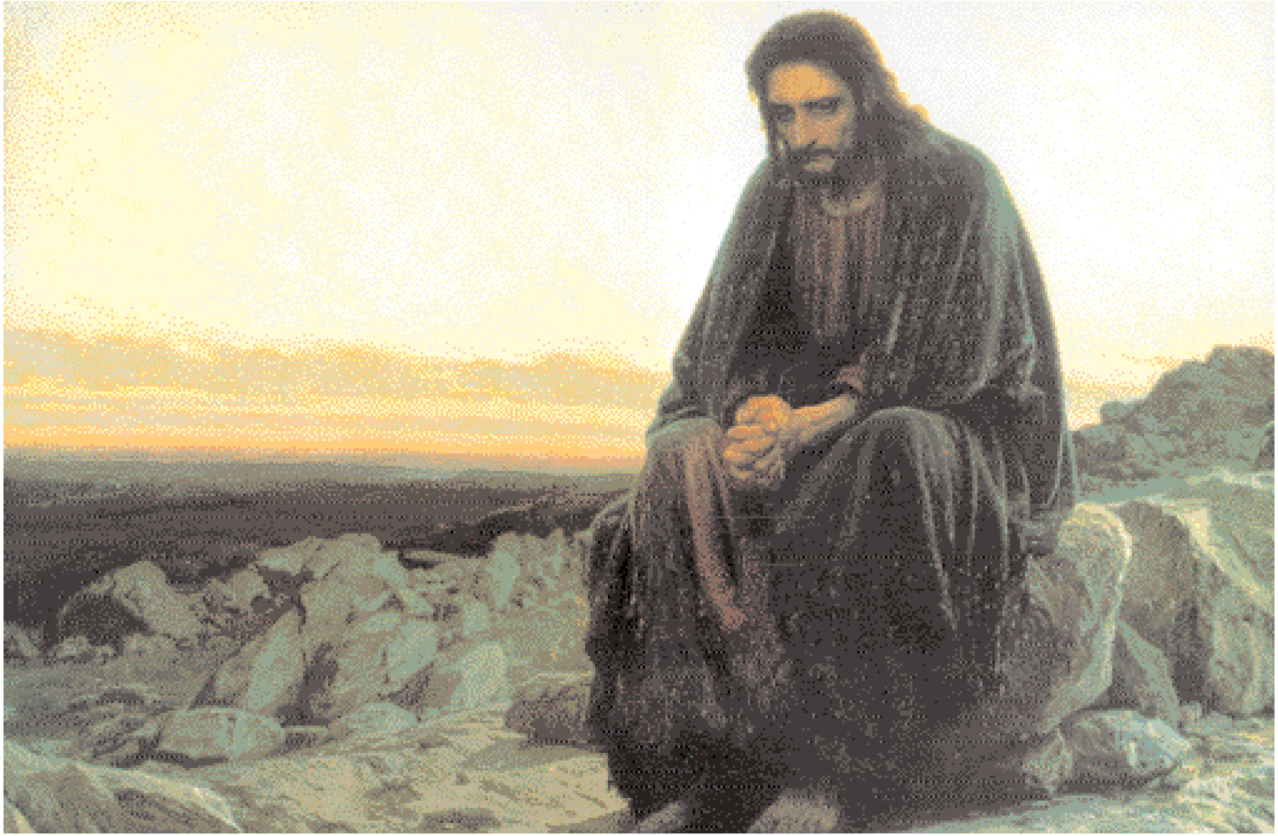

يسوع في الصحراء

(بريشة إيڤان كرامسكوي)

عرس قانا الجليل (بريشة ڤاران)

فئتان من البشر اكتشفتا السبيل إليه: الرعاة والمجوس: البسطاء والعلماء، المعترفون بأنّهم لا يفقهون شيئًا، والمعترفون بأنّهم لا يفقهون كلّ شيء.

لا يستطيع اللّه التحدّث إلى من يدّعون معرفة كلّ شيء، ولذلك لا يسمع المتكبّرون صوته: بل المتواضعون وحدهم، يسمعونه.

أقوالٌ في الميلاد

– يوم الميلاد، احتفالٌ فرِحٌ وقورٌ بالكلمة التي تأنّست في يسوع المسيح. احتفالٌ بولادة الكلمة في كلٍّ منّا.

الميلاد هو مولدنا من الله.

– المذود منتهى الوضاعة، ولكن أمام هذه الوضاعة سجد الملائكة، والرعاة، والمجوس.

– في ليلة الميلاد، غدت الأرض مركز العالم، والنقطة التي يدور حولها الكون كلّه.

– الملائكة أنشدت مبشّرة بمولده، والرعاة والمجوس سجدوا له، ولم يحدث أن أُلِّه طفلٌ وليدٌ سواه، لا من قبلُ، ولا من بعدُ.

– حتّى قبل مولد يسوع رفضه العالم وأَبى البشر أن يُفسحوا له مكانًا في ما بينهم، في الأماكن «اللائقة»، فتنازلت له البهائم عن مذودها.

– نجمٌ ظهر، بغتةً في السماء، وقاد المجوس إلى مهده، وبعد أن اكتشف المسيحيّون يسوع، بات هو نجمهم الأوحد، ودليلهم في الليالي المدلهمّة.

– شكرًا لكِ، يا مريم، لأنّك لم تَدَعي الإله المتأنّس يستوحش على الأرض، أو يفتقد الفردوس الذي تخلّى عنه من أجلنا، فقد لقي، بين ذراعيك، فردوسًا أعذب وأحلى.

المَغـــارَة (١)

في بيت لحم سكنت السماء تحت الأرض، وفي المغاور. انقلابٌ جذريٌّ تناول العالم كلّه. نُفي الله عن المجتمع وأُقصي، فلا بدعَ أن يحظى منه المنفيّون، والمنبوذون، والفقراء بالإيثار.

الرعاة كلّموا أُمراء السماء، مشافهةً، وجهًا لوجه. وقامت بين السماء وبسطاء الأرض علاقات إخاءٍ. وصوتٌ قادمٌ من الأجواء جعل الرعاة يدركون أنّهم، أخيرًا، وجدوا راعيهم...

العالم الجديد الذي وُلد مع يسوع أرحب من العالم القديم، والمسيحيّة أرحب من الخليقة قبل المسيح. فهي، مع احتفاظها بالقديم، حفلت بكلّ جديدٍ. وتعليم الكنيسة عالميٌّ، شاملٌ، خلافًا لتعليم الفلاسفة.

الكنيسة تحتوي ما لا يحتويه العالم. والحياة ذاتها لا توضح كلّ معاني الحياة كما توضحها الكنيسة.

* *

الابن، في المغارة، كان هو الأب، والأُمّ كانت هي الابنة .

كان الأولمب ما زال يحتلّ حيّزًا من السماء رحبًا، مثل غمامةٍ جمّةٍ. وكانت الفلسفة تتبوّأ أرفع مقامٍ، بل تتبوّأ العروش أحيانًا، في حين كان يسوع يولد في مغارةٍ، والمسيحيّة تحبو في الدياميس. المغارة والدياميس كانت محتقَرةً ومخيفةً، في آنٍ واحدٍ. والحكم القائم، رغم ازدرائه لهما، كان يجهد في القضاء عليهما. والكنيسة، حين كانت لا تزال غير مرئيّةٍ وواهيةً، كانت تثير اهتمامًا كبيرًا، إذ إنّها كانت قد أعلنت، بأسلوبها الخاصّ، حربًا شبه سرّيّةٍ. كانت تنبثق من تحت الأرض، كي تقوّض أرض الوثنيّة وسماءها.

---

(١) عن تشسترتُن: G.K.CHESTERTON: L'Homme Eternel.

إنّ لدى الكنيسة من التجسّد ما ينفي عنها تهمة الوهم والخيال. تعليمها أوسع التعاليم مدًى، على الإطلاق، وفضلاً عن ذلك، هي تحدٍّ وجهادٌ. إنّها منفتحةٌ على الحقيقة من أيّة جهةٍ أتت، ولكنّها لا تهاود الضلال، أيًّا كان مصدره.

سحر الكنيسة أنّها تتجلّى اكتشافًا لنورٍ جديدٍ، ولمعنًى للحياة لم يخطر، من قبلُ، ببالٍ. والمغارة أمست مأوًى لكائنٍ هو أكثر إنسانيّةً من أيّ إنسانٍ.

الوِلادَةُ في اللهِ

لم يكن مولد يسوع مولد إنسانٍ، يُضاف إلى ملايين الولادات في العالم، بل هو ولادة اللّه في إنسانٍ. اللّه صار بشرًا. إلهٌ حقيقيٌّ، في إنسانٍ حقيقيٍّ. عمّانوئيل: اللّه معنا، اللّه مع الإنسان، اللّه في الإنسان.

إنّها أشدّ الثورات إذهالاً في تاريخ البشريّة، وأغناها وعودًا!

ولادة اللّه في إنسانٍ هي دعوةٌ للإنسان كي يولد في اللّه. دعوة الإنسان إلى أن يصبح كائن نورٍ وحبٍّ، إلى ما لا نهاية.

عندما يولد اللّه في الإنسان، ينشب بالإنسان عطشٌ لا يرتوي إلى الحرّيّة، وملء الكيان، إلى الولادة من اللّه، كلّ يومٍ، بانتظار ولادةٍ جديدةٍ كاملةٍ أبديّةٍ.

تلك هي سنّة الحياة الحقّة: ما لم تولدوا من الروح، فلن تلِجوا ملكوت اللّه. وإن لم تولدوا من جديدٍ، كي تصبحوا مثل هؤلاء الأطفال الماثلين بين ظهرانيكم، فلن تجدوا إلى الملكوت سبيلاً.

على الإنسان أن يولد، كلّ يومٍ، كي يظلّ ابنًا للّه.

ربّاه! ما أعسر الولادة، كلّ يومٍ، كي نظلّ لك أبناءً!

فقط الذين يضجّون رغبةً، يولدون من اللّه، هؤلاء المنفتحون على الريح والنسيم، على البشر أجمعين، والكون بأسره.

لا يولد من اللّه إلاّ من تذوّق الحياة، حياته وحياة الآخرين؛ من عشق الحرّيّة، حرّيّته وحرّيّة الآخرين؛ ومن استساغ ما يلقاه وما يمنحه من حبٍّ.

الولادة في اللّه هي تذوّق الحياة، في سنّ العاشرة، وفي سنّ العشرين، وفي كلّ سنٍّ، وحتّى عندما يهبط الليل ويخيّم. وهي المثابرة، في حلك العتمة، على انتظار الفجر الأخير.

الولادة من اللّه نعمةٌ يتمتّع بها المؤمنون بيسوع إذ إنّه «**آتاهم أن يصيروا أبناء اللّه، أبناءً لم يولدوا من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إرادة رجلٍ، بل من اللّه**» (يوحنّا ١: ١٢).

وَصَارَ اللهُ طِفْلاً

إنّ أشدّ ما يُذهل، في حياة يسوع، هو مولده، وصيرورة اللّه طفلاً. فبين الكلّيّ القدرة، باري السماء والأرض، وهذا الرضيع المُضجَع في مذود بهائم، أو اللاطي بين ذراعي أمّه، وهي نفسها مخلوقةٌ، هل من نسبةٍ معقولةٍ؟

طفلٌ لا يحمل من علامات العظمة سوى الفقر، جاء الرعاة البسطاء، الجاهلون، فسجدوا له، وجاء المجوس، الملوك، العلماء، فسجدوا له، أيضًا.

ولج يسوع عالمنا، مُغفَلاً، في صمت أُسرةٍ مجهولةٍ، متواضعةٍ. وما أوسع البَوْن بين مجيئه، ومجيء سابقه. فمولد المعمدان أعلنه الملاك لكاهنٍ معروفٍ، مرموقٍ، موقّرٍ، في إطار احتفالات هيكل أورشليم الضخمة. أمّا مولد يسوع، فأُعلِن لفتاةٍ من عامّة الشعب، في بيتها الوضيع، وضيعتها التي لم يسمع أحدٌ باسمها إلى أن تكنّت بيسوع.

لقد فاجأ اللّه العالم، وتجلّى شديد الاختلاف عن كلّ ما تخيّله البشر عنه. فقد عرفوه، من قبلُ، «روحًا صرفًا غير مرئيٍّ»، فإذا به يلبس جسدًا؛ وعرفوه «كلّيّ القدرة»، فإذا به يستسلم للقيود والموت. كانوا يعلنون أنّه «لا يتغيّر»، فإذا به جنينٌ ينمو في أحشاء امرأةٍ. عُرف عنه أنّه «في كلّ مكانٍ»، فإذا به سجين الزمان والمكان، حُبل به في الناصرة، ووُلد في بيت لحم، وقُتل في أورشليم.

كلّ ما عُرف وقيل عنه، من قبل، صحيحٌ، ولكنّه، بتجسّده، تجلّى أعظم، وأبسط، بلا قياسٍ، ممّا قيل وعُرف عنه. فعظمته، ولانهائيّته، وقدرته الكلّيّة، ترتدي وجهًا غير الذي نتخيّله، لأنّها عظمة الحبّ، ولامحدوديّته، وقدرته الكلّيّة.

مريم العذراء هي أولى المؤمنات بسرّ التجسّد والحبّ هذا. وكلّ من يؤمن أنّ يسوع الناصريّ، ابن مريم، هو ابن اللّه، وكلمته، والأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، الذي تجسّد في عالمنا، يشارك العذراء في إيمانها.

قبل تجسّده كان اللّه مجرّد فكرةٍ، وما زال كثيرون عاجزين عن وضع أيّ مفهومٍ تحت اسم «اللّه». ولكنّه، بتجسّده، أصبح بمتناولنا، على حدّ قول يوحنّا في مطلع رسالته الأولى: «**إنّ ما كان من البدء، ما سمعناه، وما رأيناه، وما تأمّلناه، وما لمسته أيدينا، في شأن «كلمة الحياة»، لأنّ «الحياة» قد ظهرت؛ لقد رأيناها، ونشهد لها، ونبشّركم بهذه «الحياة» الأبديّة، التي كانت لدى الآب، وظهرت لنا.**»

لقد تنازل اللّه، وصار طفلاً، لكي ندنو منه، ونلمسه، ونداعبه، وندعوه، بلا وَجلٍ، وببساطةٍ: «أبّا»، بابا. التجسّد، إذن، فِعْل حبٍّ إلهيٍّ، بفضله نستطيع لمس حضور اللّه، في دقائق حياتنا اليوميّة.

ولئن جعل اللّه نفسه طفلاً، أمامنا، أفلا يتعيّن علينا أن نصبح «أطفالاً» أمامه، وبلا تردّدٍ؟ ففي الواقع صُنع الإنسان من أجل اللّه. وأمام اللّه وحده يُدرك ما هو، ويُصبح ما هو عليه، وبمعزلٍ عن هذه الحقيقة، يتعرّض للتشويه.

كبرياء البشر لا تبني سوى بروج بابل، ومدن فوضى وحقدٍ. في حين أنّ اعتمادنا على اللّه، في تواضعٍ وثقةٍ، يكشف لنا حقيقتنا، ويقيمنا في ديار الحبّ المجدي، ويجعل من حياتنا، على غرار طفل بيت لحم، جسرًا بين السماء والأرض.

مَلِكَان

قصّة المجوس تضعنا أمام مَلِكَيْن: هيرودس الطاغي، النَّهِم إلى الدماء، في أورشليم، والطفل الوليد في بيت لحم.

ليس ما يستدعي قلق هيرودس. فيسوع لم يأتِ كي ينازعه السُّلطة السياسيّة. ولقب المِلك لن يُطلق عليه، إلاّ وهو معلّقٌ على الصليب.

يسوع هو الملك الحقّ، ولكنّه يسمو فوق كلّ ممالك هذا العالم. إنّه ملكٌ في أعماق الكيان، حيث يرحّب البشر بالله أو يرفضونه، ويتّضح من قصّة المجوس أنّ ذوي السلطان سيضطهدونه، وسيلاحقونه بحقدهم.

بسرده قصّة المجوس، يؤكّد متّى، منذ مطلع إنجيله، أنّ يسوع جاء من أجل جميع البشر، وأنّ النبوءات التي كانت ترى الشعوب تتدفّق على أورشليم قد تحقّقت. فما كان موضع توقُّعٍ ورجاءٍ، وحلمٍ، أصبح واقعًا، وما كان سرابًا يتراقص في المخيّلات قد تبخّر أمام الحدَث الماثل. فاللهُ صار إنسانًا بين البشر، وهيّأ لهم أن يتخطّوا التخوم والحواجز، ويتلاقوا في حبّ أبٍ مشتركٍ، محقّقين الوحدة البشريّة.

بعد ولادة يسوع لم يعد الانتماء إلى جنسٍ، وأمّةٍ، وشعبٍ، وعشيرةٍ، وأُسرةٍ، عائقًا دون الحدَث القشيب: كلّ إنسانٍ هو ابن الله، و«مختارٌ».

النبوءات تحقّقت في يسوع. فهو الماضي الذي تطلّع إليه الأنبياء، ومن أجل استقباله نضجت العصور. نظير داود وُلد في بيت لحم، وهو سيكون الراعي النهائيّ.

رؤساء الكهنة والكتبة اطّلعوا على مولده، ولكنّهم لم يوافوا إلى أورشليم. غير أنّهم، ذات يومٍ، سيواجهونه، وكثيرون منهم سيكونون له أعداءً ألدّاء. غرباء هم الذين قدموا وسجدوا له كما يُسجد أمام الملوك، وأمام الله. وثنيّون اعترفوا به، في حين أنّ ممثّلي شعبه تجاهلوه، أو ابتغوا إلغاءه.

زعماء شعبه سيجهدون في القضاء عليه، ولكنّ ملكوت الله سيكون نصيب البشريّة كلّها.

منذ مطلع إنجيله يُظهر الإنجيليُّ متّى يسوع ملكًا مرذولاً، قادمًا من أجل العالم أجمع، وظهورًا لله على الأرض.

وكلّ من يدنو من الله يلتقي الرعاة والمجوس، المتواضعين والغرباء. أولئك هم بشريّة الله، وسكّان ملكوته.

مَرْيَمُ تَتَأَمَّل

(لوقا ٢: ١٥– ١٩)

عاد الملائكة إلى سمائهم، وبقي، على الأرض، الحدَث المعجز، البشرى السعيدة، الكلمة التي ستغزو العالم.

الرعاة انطلقوا يُخبرون بما رأوا وسمعوا، والجميع يدهشون، واللغَط والأقاويل تنتشر حول مذود بيت لحم. وحتّى في قصر هيرودس لجان الغدْر تتباحث وتخطّط.

وأمّا أمّ الله الوليد فكانت «**تحفظ تلك الأقوال كلّها، وتتأمّل فيها، في قلبها**»، كي تشبعها تمعّنًا، تصديقًا للماضي، وإنارةً للحاضر، وهدايةً إلى المستقبل. كانت تسترجع الأمس، كي تحيا اليوم الحاضر على نحوٍ أمثل، وتجتاز، بسكونٍ، الأمواج المصطخبة، مغذّيةً الحياة الحاضرة بنسغ الزمن المنصرم، وجاعلةً من الحدث الذي يكرّ، مقفزًا صوب المستقبل. لقد غلّفت الحدَث الجلَل بصمت قلبها، المكان الأثير لاعتلان الحقيقة. لقد استرجعت، في ذاكرتها، تعاقب الأحداث، مستقرئةً تساوقها، ومن خلال ضجيج ما كان قد شرع يُسجّل على صفحات التاريخ، سمعت لعثمةً داخليّةً، صدى لعثمة الطفل الإلهيّ.

حيال ضآلة الوليد وبساطته، كانت تتسلّح بإيمانها، وتردّد، في أعماقها، ما كانت قد أجابت به جبرائيل: «**نعم. إنّي أمَة الربّ: فليكن لي بحسب قولك**».

لقد اكتشفت الله في وليدها. الرُّعاة بُشّروا بولادة مخلّص، وبحثوا عنه، فإذا بهم أمام طفلٍ فقيرٍ مضجعٍ في مذود بهائم، وأُمّه تعبده. أوَلا يتعيّن نشدان يسوع، تحت أكثر المظاهر هشاشةً ورثاثةً، وفي أشدّ البشر فقرًا وحرمانًا؟!

لقد وضعت العذراء وليدًا، كان الله أباه، وابنها هذا، الإنسان والإله معًا، يُشرع للبشر الدرب الذي يتعيّن على كلّ إنسانٍ انتهاجه: فالكائن الذي وُلد بشريًّا، عليه أن يولد من جديد، إلهيًّا.

مغزى الأحداث يُدرَك بعد حدوثها. ومريم، الأمّ المتواضعة، التي ولدت ابنها في فقر الزريبة المأساويّ، لعبت، في الكون، دورًا فريدًا. فما من امرأةٍ، في كلّ تاريخ البشريّة، كان لها مثلُ أَثَرِها، ومثلُ عظمة شأنها. وما من امرأةٍ أُنشِد لها، بجميع الألسن المعروفة، وفي جميع الحضارات، والتُمست شفاعتها، وأُحبّت، مثلها.

كان الناس يدهشون، لحظاتٍ، أمام ما يشاهدون ويسمعون، أمّا العذراء فكانت في دهشةٍ دائمةٍ، مستمرّةٍ. كانت «**تتأمّل في قلبها**».

ونحن، سنظلّ متقاعسين عن الإشعاع، مقصّرين في إذاعة البشرى، ما دمنا عاجزين عن «تأمّل» سرّ الله وأمّه؛ ولن تؤتي معارفنا ومشاريعنا أُكُلَها، إن هي لم تنغمس في لجّة الصلاة، والعبادة، والتأمّل، والصمت.

تقدمة يسوع إلى الهيكل

(لوقا ٢ : ٢٢–٤٠)

«ولمّا تمّتْ أيّامُ تطهيرهم. بحسب شريعة موسى صعدا به إلى أورشليم ليُقدّماه للربّ على حسب ما هو مكتوبٌ في شريعة الربّ من أنّ كلّ ذكرٍ فاتح رَحِمٍ يكونُ مقدّسًا للربّ، وليُقرّبا ذبيحةً، كما تقضي شريعةُ الربّ، زوجَيْ يمامٍ أو فرخَي حمامٍ.

وكان في أورشيلم رجلٌ اسمُه سمعان. وهو رجلٌ صدّيقٌ وتقيٌّ كان ينتظر تعزيةَ إسرائيل، والرُّوح القدسُ كان عليه. وكان الروحُ القدس قد أوحى إليه أنّه لا يرى الموت ما لم يُعاينْ مسيحَ الربّ. فأقبل بإلهام الروح إلى الهيكل. ولّما دخل بالطفل يسوعَ أبواه ليُجريا عليه ما تقضي به الشريعة، أخذه هو على ذراعَيْه وبارك الله وقال:

«الآن، أيُّها السيّد، تُطلِق عبدك بسلام، على حَسَب قولِكَ.

«فإنّ عينيّ قد شاهدتا خلاصَك الذي أعددتَه، على وجه الشعوب كلّها: نورًا لهداية الأُمم، ومجدًا لشعبك إسرائيل».

وكان أبوه وأُمّه يتعجّبان ممّا يُقال فيه. وباركهما سِمعانُ وقال لمريم أُمّه: «إنّ هذا قد جُعل لسقوط كثيرين في إسرائيل أو نهوضهم، وليكون آية مُقاومة. وأنتِ أيضًا سيجوزُ سيفٌ في نفسك. وهكذا تنكشِفُ الأفكارُ المتحرّكةُ في قلوبٍ كثيرةٍ».

وكان هناك أيضًا نبيّةٌ، حنّةُ بنتُ فنُوئيل من سِبْط أشير. كانت قد طعنَت كثيرًا في أيّامها. وبعدما عاشت في الزواج سبع سنين مع رجُلها، ظلّت أرملةً، وبلغت من العمر أربعًا وثمانين سنة. وكانت لا تفارقُ الهيكل مُتعبّدةً ليلَ نهار

بالأصوام والصلوات. ففي تلك الساعة حضرتْ وأخذت تُسبّحُ بحمد اللّه، وتُحدّث بأمر الولد كلّ من كان ينتظر الفداء لأورشليم.

ولمّا أتمُّوا كلّ ما تقضي به شريعةُ الربّ رجعوا إلى الجليل، إلى مدينتهم الناصرة. وكان الولدُ ينمو ويتقوّى، ممتلئًا حكمةً. وكانت نعمةُ اللّه عليه» (لوقا ٢: ٢٢- ٤٠).

يسوع وأُمّه لم يكونا ملزَمَيْن بهذه الطقوس: فهو صاحب الهيكل، ولا تتوجّب عليه أيّة تقدمةٍ لـه. وأُمّه حبلت به، ووضعته، وهي عذراء، ولا حاجة بها إلى طقوس التطهّر، فهي الطهر عينه. ولكنّ العيلة المقدّسة، بدافع الورع والتواضع، وتحاشيًا عن التظاهر بالتفوّق على الآخرين، أو عن تشكيكهم، شخصت إلى الهيكل كي تتمّم الطقوس في الكتمان والفقر.

وإذ بهذا الحدث العيليّ الذي أريد له أن يتمّ في الحميميّة والصمت، يتحوّل حدَثًا يخصّ البشريّة جمعاء، في جميع البلدان والأزمان. كان مجرّد طقسٍ بسيطٍ، يراعي التقليد، فأمسى إعلانًا لرسالة المسيح الذي يدشّن أزمنةً جديدةً.

العجوزان سمعان وحنّة اللّذان يرمزان إلى انتظار الأجيال المتمادي، تنبّآ بولادة العالم على حياةٍ جديدةٍ، وتكلّما باسم من طالما انتظروا معزّيًا للعالم ومخلّصًا. وفي كلامهما امتزج نور الفرح بمجيء المخلّص، بغمام الحزن الذي سينجم عن جحود شعبه لـه. وستقاسم الأمّ ابنها المجد والأحزان، وسيكون جرح قلبها بليغًا بقدر ما سيكون عذاب ابنها مضنيًا. يومها، أدركت العذراء أنّ ابنها لن يكون لها وحدها.

* *

الحدث تمّ في أورشيلم المدينة المقدّسة، وفي الهيكل الذي يحتلّ منها مركز القلب. وفي الهيكل تلقّى يسوع ألقاب مخلّص الكون، وجميع الشعوب، والنور الذي يضيء جميع الأُمم الوثنيّة، والوجه المرئيّ للّه اللامرئيّ.

لم يعد الخلاص محصورًا ومضمونًا في معبدٍ واحدٍ، مهما تميّز بالفخامة، بل أمسى الكون كلّه معبدًا، وسيغدو كلّ إنسانٍ يرحّب بكلمة الروح هو الهيكل.

وكم كانت دهشة مريم ويوسف بالغةً! فقد جاءا للقيام بطقسٍ يندرج في الكتمان، وإذ بنشيد تسبيحٍ عالميٍّ يتفجّر.

غير أنّ ذاك الذي سيجعل من جميع الأمم شعب إخوةٍ واحدًا، سيكون «آية معارضة»، وعلامة شقاقٍ.

فسيهبّ في وجهه من يرفضون المسيح الكونيّ الشامل، الذين يأبون الخروج من أُطُرهم الضيّقة، أُطر فكرهم، وإيمانهم، وتقاليدهم، وسلوكهم، ويرفضون الانفتاح على أقوامٍ من كلّ لغةٍ وجنسٍ، ومعايشتهم معايشة الإخوة.

غير أنّ العيلة الصغيرة المقدّسة غدت نموذجًا لكلّ عيلةٍ حقّةٍ، مشرعة النوافذ على الأُسرة البشريّة بكلّ رحابتها.

المَجُوس

من بعيدٍ جاؤوا، من بلادٍ قصيّةٍ. إنّهم حكماء وباحثون، مكرّسون للترقّب والانتظار. يرقبون الكواكب والسماوات، ويحاولون اجتياز الآفاق العليا. أولئك الغرباء الوثنيّون، العرّافون، أولئك العلماء لم يعتدّوا بعلمهم، ولم يتورّعوا من الانقياد لوحي قلوبهم، وللمخاطرة في مجاهل الصحراء. ولم يخجلوا من الاهتداء بنجمٍ، ومن الاستنارة بإشارةٍ من السماء للضرب في ليالي الأرض وفيافيها. لقد أخضعوا ملكوت هذا العالم لملكوت الآخرة، ولكأنّهم يعملون بتعليم الوليد الإلهيّ، قبل إعلانه. لقد آثروا نور الوحي السماويّ على المعرفة العقليّة، وقادهم ذلك النور إلى يسوع.

لقد أنفقوا عمرهم يتأمّلون السماء، ويستقرون إشاراتها، متوقّعين مجهولاً مدهشًا. وعندما لاحت لهم العلامة، لم تتردّد قلوبهم الطفلة، فنهضوا، ونظير ظبيةٍ تتوثّب ناشدةً منهلاً عذبًا، انطلقوا، وحدْسهم يؤكّد لهم أنّهم سيعثرون على معين كلّ طهرٍ.

اكتشفوا أنّ ملك العالم يرقد في مذودٍ زريٍّ، في هيئة طفلٍ رضيعٍ، وأنّ ذلك الطفل المستغرق في ثنايا الكرى هو قطب الدنيا، وواهب الحياة الحقّة، ومنبع النور. أدركوا ذلك، هم القيّمون على التقاليد العريقة.

لم يروا هالةً حول هامة يسوع كما يصوّره الرسّامون. بل شاهدوا فقيرًا فحسب؛ ولكنّهم كانوا يملكون تلك «النظرة الداخليّة» التي تخترق المظاهر والقشور.

لقد وافوا من بلادٍ نائيةٍ كي يروه، في حين لم يتحرَّك أحدٌ من علماء اليهود، لاكتشاف مسيحهم.

كان يحدوهم فضول العلماء، وكانوا طلاّب حقيقةٍ. عطشهم إلى المعرفة كان ظمأً إلى الله، وقد ارتوى. كانوا يبحثون عن الجديد، فعثروا على غير المتوقّع.

أوّلهم قدّم لـه ذهبًا، محيّيًا فيه ملك المستقبل؛ وثانيهم قدّم لـه البخور، محيّيًا

فيه الكاهن المطلق؛ وثالثهم قدّم لـه الحنوط، طيب عدم الفساد، محيّيًا فيه معلّم الروح، ونبيّ الأزمنة الجديدة.

وبعد أن قدّموا هداياهم، وعبادتهم، رجعوا في طريقٍ آخر، إذ لا بدّ لمن رأى يسوع أن يغيّر طريقه ونهجه.

بحدسهم الثاقب استشفّوا مكر هيرودس، ونواياه الإجراميّة، فأبوا مصانعته، وتجنّبوا العودة إليه.

وقد عادوا يحملون في قلوبهم صورة إلهٍ طفلٍ غافٍ بسلامٍ، طفلٍ فقيرٍ يمثّل إنسانيّة الله، وخمير مستقبل العالم. وكان روح يسوع يواكب قافلتهم إلى البلاد القصيّة. هو أيضًا مضى معهم إلى جميع بقاع الأرض حتّى نهاية الدهور، وما انفكّ، في القارّات الخمس، في المدن الكبرى، وفي القرى الصغرى، يُطلع نجومًا متلألئةً في ضمائر البشر، وفي الليالي المدلهّمة حيث تتلمّس البشريّة دربها.

بعد أن قاد النجمُ المجوسَ إلى يسوع، توارى، لأنّ النجم الحقّ الأبديّ الوحيد الذي سيرشد المؤمنين في حَلَك الليالي، هو يسوع نفسه.

الأُسْـرَةُ المُقَدَّسَـةُ المُشَـرَّدَة

(متّى ٢: ١٣ – ١٥)

أُسرةٌ شابّةٌ لا عهد لها بالاستقرار الهانئ. أُمٌّ على أهبة ولادةٍ، تضطرّ إلى سفرٍ طويلٍ مضنٍ، وأبٌ ينوء بهموم الأمّ والجنين، وولادةٌ في زريبةٍ مشرعةٍ للريح، ثمّ ضربٌ في دروب النفي، وهروبٌ من الطغيان، نظير جميع مشرّدي العالم، الذين لا سقفَ يظلّلهم.

كم كلّفت يوسفَ الأمانةُ التي انتُدب لها من عناءٍ! فأوامر السماء تتوالى: «قمْ»، «امضِ»... الجميع يطالبونه، ولكنّه لا يتكلّم، بل يعمل ساكتًا. رائحة الغدْر تحوم حول الطفلَ الإلهيّ، فلا بدّ من وقايته. وعلى كاهل يوسف تقع مسؤوليّة إنقاذ المنقِذ.

ولّما عادت الأُسرة من منفاها، لم تستطع الاستقرار في موطنها، بيت لحم، لأنّ اليهود رفضوا يسوع وعادَوه، فعاش ردَحًا، ونما وكبر في قريةٍ مغمورةٍ من قرى الجليل حيث تختلط الأجناس والقوميّات، بعيدًا عن أسوار أورشليم، وعن هيكلها المتعالي. ولّما عاد إليها، كبيرًا، صُلِب عند أبوابها.

هروبٌ، ونفيٌ، وعودةٌ متردّدةٌ، وبحثٌ عن مأوًى، وتخفٍّ ... أيعقل أن يصبح طفلٌ لاجئًا سياسيًّا؟ ولّما باشر حياته العلنيّة ظلّ التشرّد ديدنه، ولم يكن لـه مكانٌ ثابتٌ يثوب إليه، ولا حجرٌ يسند إليه رأسه.

ثمّة أمرٌ محقّقٌ: منذ مولد يسوع شعرت السُّلطات، كلّ السُّلطات، أنّه يهدّدها، فسعت للقضاء عليه. وسيظلّ يسوع شريدًا، مقوِّضًا للأحكام المسبّقة، وللعادات المتجذّرة، ولعُجب الأفراد، ولصَلَف المؤسّسات، وللحواجز الاجتماعيّة، والأخلاقيّة، والدينيّة، كي يبعث البشر إلى حياةٍ جديدةٍ، قائمةٍ على لقاء الله المحبّ، ولقاء الجميع.

لقد عهد يسوع مصير المضطَهَدين، والمنفيّين في كلّ زمانٍ، وقطنه تضامنٌ أبديٌّ

معهم. ولا ريب أنّنا نصدفه، وقد لا نميّزه، وسط أُسرٍ مشرّدةٍ، ضئيلة المتاع، لوّحت الشمس والريح وجوه أفرادها، وقد التجأت لجوءًا يائسًا إلى مرآبٍ، أو إلى ظلّ بوّابةٍ.

عن نفسه قال يسوع: «**أنا الطريق**»... وسيستحيل، أبدًا، الجلوس، والاستقرار، وتمجيد النظام الجامد القائم، مع هذا المتشرّد، المتطلّع، دائمًا، إلى المضيّ قُدُمًا، إلى الأمام.

وعلى غرار يسوع، يريد الله قومًا واقفين، ناهضين، ناشطين للتجديد، جادّين على «الطريق».

هـــرُوبٌ

(لوقا ٢: ٤٣ – ٥٢)

لم يكن يسوع، في صغره، ملتصقًا بأمّه، ولا كانت مريم كالدجاجة الحاضنة لفراخها، التي تمنع عنهم كلّ غريبٍ، بدليل أنّها أمضت يومًا كاملاً لم ترَه، فيه، ولم يساورها قلقٌ، ليقينها بأنّه مع أترابه، ولثقتها في حكمته.

كان قد بلغ الثانية عشرة، وهي السنّ التي تؤهّله لتبوّؤ مكانه بين ظهرانَيْ شعبه. وكان يقوم بحجّه الرسميّ الأوّل إلى المدينة المقدّسة. فشاهد هيكلها، وجموعها، والجند الرومانيّين، وكذلك المتسوّلين، والعميان، الذين يذرعون طرقاتها. أصغى إلى محادثات الناس، وسمع نقاشات الكتبة والرابّيين، وتنشّق، ملء رئتيه، ريح العصر، وراودته تساؤلاتٌ كثيرةٌ، واستيقظت فيه رغبةٌ عارمةٌ في مواجهة تحدّيات أمّته الحيويّة.

حتّئذٍ كان يعيش وسط أُسرةٍ مثاليّةٍ، هادئةٍ، مطمئنّةٍ، وإذ بذلك الحجّ يزعزع كلّ شيءٍ، فأحداث الله غير المتوقّعة تطيح بالطمأنينة.

أيُعقل أن يقوم بهذه الفعلة ذلك الصبيّ الهادئ، وأن ينتهز فرصة حجٍّ إلى أورشليم كي يهرب من والديه ؟ ولكنّه كان قد هرب إلى الله.

كان في الهيكل، يناقش علماءه، وكان هؤلاء دهِشين ممّا تنمّ عنه أجوبته من فهمٍ وذكاءٍ. ليتنا نعلم ما كان يقول، فلا ريب أنّ أقواله كانت تقطر بساطةً نيّرةً.

استنكرت أُمّه فعلته: «**لم صنعتَ بنا هكذا، يا بنيّ؟ فها أنا وأبوك، نبحث عنك متألّمين!**».

وجاء جوابه وكأنّه تصحيحٌ لقول أمّه، وتذكيرٌ لها بأنّ الله هو أبوه الحقيقيّ، وبأنّ عليه الاهتمام بشؤونه: «**أما تعلمان أنّه عند أبي يجب عليّ أن أكون؟**».

كان الأبوان سعيدين بالعثور على الابن الضائع، فإذا به يؤكّد انتسابه إلى أبٍ

سماويٍّ. ظنّا أنّهما استعاداه، فإذ به يسكن المطلق، في مكانٍ آخر، لدى أبي البشريّة. وعليهما أن يظلاّ يبحثان عنه، باستمرارٍ، كي يكتشفا هويّته.

ظنّا أنّهما أدّيا طقوس الحجّ، فأكرههما على العودة إلى الهيكل، كي يبدآ منه حجًّا جديدًا، مختلفًا، لا ينتهي، صوب أَبي الأسرة البشريّة.

يأبى يسوع أن يكون «الولد العاقل»، وهو يُشرع أمام كلّ إنسانٍ مصيره الإلهيّ. وعلى ذويه ومحبّيه أن يتبعوه على دروب الله غير المتوقّعة، وأن يهربوا إلى الله.

نجَـــَّارُ النــَّاصِرَة

أنفق يسوع سنوات شبابه ممارسًا مهنة النجارة. والنجّار، آنذاك، كان يعمل بيديه، مستخدمًا أبسط الأدوات البدائيّة.

عَمِلَ كلّ شيءٍ لخدمة الجميع، فكان يصنع ويُصلح الأبواب، والنوافذ، وسقوف البيوت، وخزائن الثياب، والمناضد الواطئة، والمحراث، والمذراة، والنير، ومستودع الحبوب الخشبيّ. كان يساعد البنّائين في البناء، وفي تثبيت عُمد السقوف، وينجز كلّ ما يوفّر للناس الأمان والراحة، ووسائل العمل.

مارس يسوع مهنة الفقراء الذين لا يملكون أرضًا. ولكنّه في المواسم الزراعيّة كان يعمل مع الفلاّحين، لقاء أجرٍ يوميٍّ، فيُسهم في أعمال الحصاد، والبيادر، والقطاف...

منذ صباه عمل بيديه، كي يقدّس عمل اليد، ويرتقي به. فاليد قد تعطي وقد تسلب، قد تُنتج وقد تُدمّر، قد تساعد وقد ترهق، قد توفّر العون وقد تستعبد، قد تبارك وقد تضرب بالسوط، قد تلأم الجراح، وقد تُسيل الدماء...

في الناصرة عمل يسوع بيديه، وبهما عبّر عن ذاته، والعمل الذي بدأه بهما في الناصرة، أكمله، بهما على الصليب، فاحتفظت يداه، إلى الأبد، بندوب العمل، وندوب الصلب.

لقد حفر البشريّة على راحتَي يديه، على حدّ قول النبيّ أشعيا: «**ها أنذا على يدي رسمتك**».

في الناصرة، وبعمله نجّارًا، اتّحد الكلمة، الذي صار جسدًا، بالبشريّة الملموسة، الحقيقيّة، اتّحد بجميع البشر لا اتّحادًا فوقيًّا على شكل ملكٍ أو حَبْرٍ، بل من القاعدة، على مستوى الخدمة. تضامن مع جميع العاملين حيث كلّ واحدٍ خادمٌ للجميع. وبصفته الخادم المتألّم مهّد، بجهده، وكدحه، وبذل حياته، لقيامة بني

البشر في الحبّ المنتصر، أخيرًا، على الأنانيّة والكبرياء. وكانت كلّ ثانيةٍ من حياته الخفيّة في الناصرة إسهامًا في خلاص العالم.

في الناصرة مهّد يسوع لأسمى رسالةٍ تستهدف تحرير الإنسان، بعيشه عيشة أيّ إنسانٍ بسيطٍ من عامّة الشعب. وقبل أن يعلن التطويبات عاشها بنفسه: عاش في الفقر، فقر من لا يملك سوى جهده، ويستمدّ من الله طاقة هذا الجهد؛ عاش جوع من يتصبّب عرقًا، ويعاني النَصَب كي يظفر، كلّ يومٍ، برغيفه؛ عاش العطش إلى العدل الذي يتلظّى به من يبيع جهده، فيغدو، غالبًا، ضحيّة عالَمٍ يسمن فيه الكبار والأغنياء، متمتّعين بجهد الفقير والمسكين.

وهكذا كان يبذر بذور سلّم قِيَمٍ جديدةٍ، ونمطٍ جديدٍ في العلاقات بين البشر.

وهكذا بات بوسع كلّ صغيرٍ ووضيعٍ، لا نصيب له من الدنيا سوى الامّحاء والحرمان، أن يقول: مثلي كان يسوع فقيرًا، مسكينًا، نكرةً، مثلي ومن أجلي. ومن كان له مثل هذا الندّ، أصبح له الطريق، على وعورته أوفر رفقًا، والصليب عندما تسنده كتفٌ إلهيّةٌ يمسي أخفّ وطأةً.

الأنبياء كانوا، غالبًا، متزمّتين في معيشتهم، وزهدهم، وصومهم، ولباسهم، وكأنّهم ينوءون بعبء الرسالة. أمّا يسوع فكان يؤدّي رسالته في بساطةٍ مطلقةٍ، يلبس ويأكل كأيّ إنسانٍ من العامّة، ويتكلّم في بساطةٍ، لا ألغاز فيها ولا رؤى مستغلقة.

ولكن، في بيت الناصرة الوضيع، الصغير، كان يسكن اللامحدود، وفي كلّ شيءٍ من حوله، كان يسوع يقرأ اسم أبيه.

وفي الناصرة كان يسوع مصدر إنارةٍ وتقديسٍ لكلٍّ من مريم ويوسف اللّذين كانا طليعة متلقّي الإنجيل، بامتلاءٍ منقطع النظير.

تلك العيلة المقدّسة المقتصرة على ثلاثة أشخاص، كانت أساس كنيسة العهد الجديد، كنيسةٍ بكرٍ، لا لوثة فيها ولا غضن.

صَمْتُ يَسُوع

صَمَت يسوع ثلاثين سنة، في الناصرة، قبل أن ينطلق يبشّر. ولم تتعدَّ فترةُ تبشيره ثلاث سنواتٍ.

لو هو شاء أن يتجلّى منذ سنواته الأولى لفعل، ولكنّه أبى، وآثر أن يعيش عيشة العامّة، الشاقّة، الممحيّة، عاملاً، كادحًا، نظير أبسط أبناء جلدته.

كان يملك كلّ شيءٍ، فنشد ما كان يفتقر إليه: اللاشيء، وتلاشى.

ابتغى التأنّس، كي يحاكي سائر البشر، وآثر، في تأنّسه، الإغفال والتواري، مدى ثلاثين حولاً. ولكنّه، بذلك، أسبغ على جميع أعمال البشر البسيطة عَظَمةً ساميةً، فأصبح الأكل، والسير، وتأمّل الطبيعة، والعمل اليدويّ، أفعالاً ساميةً، بعد أن قام بها إلهٌ.

كان يسوع كاهن الوجود، ولكنّ كهنوته لم يكن طقوسًا ودماءً وذبائح، بل كان تضحيةً بالذات، وكان حبًّا صامتًا.

عندما شخص إلى أورشليم، وهو فتًى، رأى كيف انقلب الدين طقوسًا، ودماءً، ومظاهر جوفاء، وإقطاعًا يتحكّم به متنفّذون مُغرضون، وكيف أصبح حقوقًا وشرائع، ونأى عن الروح والحبّ. فوطّن العزم على أن يجعل من تضحيته بذاته نموذجًا للتضحية الخلاصيّة الحقّة.

وفي الناصرة وطّد اتّصاله بالناس اتّصالاً شفّافًا، فريدًا، لم يستطع أن يجاريه فيه أحدٌ من رسله الأوّلين. كان الصغار، والضعفاء، والخطأة يرون في طهره، وسموّه، وقدرته، كلّ ما يفتقرون إليه، وكلّ ما تصبو إليه نفوسهم، فيما كان يخشاه المراؤون، والمنافقون، والأنانيّون، والمزوّرون.

شفافيته كانت تحطّم كلّ ما هو صفيقٌ، ومعتمٌ، ومُغبَـرٌّ، في أجواء الروح.

كان يحسن الإصغاء إلى كلام أبيه. ولكنّ الكلمات التي كان يسمعها لم تكن تحمل إلى ذهنه أيًّا من المعاني التي شوّهها الإنسان بإضفائه أهواءَه، ومصالحَه، واهتماماته عليها. بل كانت تنتهي إليه صافيةً، خالصةً، في نقائها الأصيل، كما خرجت من فم الله. وكذلك كانت أقواله حافلةً بالصفاء العذريّ الإلهيّ.

منذ صباه كان مسيحَ الصغار والمحرومين. كان أكثر من أعطى، وأقلّ من أخذ. وقف حياته على تنقية نفوس شعبه. ولم يتلقّ من شعبه سوى المهانة والتعذيب. التمس خلاص شعبه بتضحيته ذاته له، وعلى يديه.

لقد أمعن في تأمّل الطبيعة، كما أرهف الإصغاء إلى الناس، وتعقّب همومهم وهواجسهم. وقد تجلّى ذلك، في ما بعد، من خلال تعليمه المفعم بجوّ محيطه. كان مرآة الناس والكون، وتمكّن من النفاذ حتّى إلى قلوب من كان يشاهدهم للمرَّة الأولى.

وفي الناصرة، وفي صمتها، تبلورت شخصيّة ذاك الذي وصف نفسه بالوديع والمتواضع القلب. وهل الوداعة والتواضع سوى انفتاحٍ على الغير. وفي الناصرة ترسّخت رسالته المزدوجة: التبشير بالخلاص والملكوت، والتضحية بالذات من أجل قيادة إخوته إليهما.

* *

وقد قاسمت صمتَ يسوع أمُّه العذراء الصموت. أمّ «الكلمة» كرّمته بصمتها. ولكنّ في الصمت كلامًا يسمو فوق كلّ كلامٍ، بل إنّ الصمت ينطوي على سرّ الكلام.

وكما أنّ، هناك، مشاركةً في الكلام، ثمّة، أيضًا، مشاركةٌ في الصمت. ومثلما قد يوقظ كلامُ الآخرين على الكلام الحقّ، كذلك قد يوقظ صمتهم على صمتٍ بكرٍ يحاكي فجرًا قشيبًا.

إنّ «الكلمة» المتجسّد قد صمت أكثر ممّا نطق، أو هو، بالأحرى، عندما أفضى بالكلمة كاملةً، أفضى، أيضًا، بكلّ الصمت الذي، في طيّاته، يتحقّق الحبّ.

كلّ من يمتلك، حقًّا، كلام يسوع، يستطيع أن يسمع حتّى صمته، لكي يكون كاملاً، ولكي يعمل بكلامه، ويفصح عن نفسه بصمته.

وإن كنّا نتيح لكلمات يسوع أن تنفذ إلى قلوبنا، وتعيد صَوْغها على صورتها، فحريٌّ بنا، أيضًا، أن نفسح لصمته أن يصوغنا وفقًا لنموذجه. ففي هذه الفراغات التي لا يشغلها أيّ حديثٍ، يجد الإيمان راحةً غير مُتوقَّعةٍ، هي، على أيّة حالٍ، ليست راحة توانٍ. فلئن كان اكتناه الكلمات عسيرًا، أحيانًا، فليس تأويل الصمت بأيسر منالاً. ومع ذلك، فإنّ من طهّر قلبه، بدأبه الصبور على استقراء ذلك الصمت، تنبعث منه قوّةٌ تنير الألفاظ، وتيسِّر فهمها.

هلاّ سمعنا، واستجلينا، واستوعبنا، في إناء صمتنا، صمتَ يسوع الذي كانت تنهال عليه سهام الصيحات، والصمتَ الذي التزم به، لحظاتٍ، فيما كانت المرأة الكنعانيّة تلجّ في إثره، الصمتَ المشدود، المختلج، المدهش، الذي انتهى بالاستسلام للرحمة؛ أو الصمتَ المحاصَر بالنظرات، والذي تسربل به عندما دفعوا أمامه المرأة الزانية. كم تمادى ذلك الصمت، وأيّة حرائق كان يُضرم، وأيّ إشعاعٍ كان يبعث إلى أعماق القلوب! وعندما قطعه، لم يكن، بعدُ، ثمَّة، سوى نظرة تلك المرأة التي غدت مطمئنّةً، ونظرته، هو، التي كانت تصفح، وتعيد للخاطئة كرامة أبناء الملكوت.

ولنذكر صمت آلامه أمام بيلاطس، وهيرودس، والحَرَس، والجلاّدين، والرعاع. إنّ كلّ ذرّةٍ من ذرّات الصمت تلك كانت مثقلةً بالوقار، والطاعة، والحبّ.

يـــدَا يسَـــُـوع [١]

يداه كانتا تعالجان الخشب، والحديد، والحجر، من أجل إسكان أهالي الناصرة، وتأثيث منازلهم. إنّهما متضامنتان مع ألوف الأيادي التي تصنع الكون، وتواسي جسد البشريّة. كانتا يدَيْ نجّارٍ، ولهما وجوه شبهٍ مع الموادّ التي كانتا تستخدمانها. فثمّة، دائمًا، تحالفٌ يتحوّل إلى أُلفةٍ، بين يدَيْ الإنسان ومادّة عمله... كان في يديه شيءٌ من الخشب، ومن الحديد، ومن الحجر. كانتا منيعتَيْن، وخشنتَيْن. وكانتا، منذئذٍ، معدّتَيْن للخشبة والمسامير على صخرة الجلجلة...

يداه كانتا يدَيْ عاملٍ. فقد كان لائقًا بابن الإنسان، لكي يكون، حقًّا، إنسانًا بين البشر، أن يعمل بيديه.

اليد هي نتيجة التطوّر الرائع الذي قاده الخالق لكي يتمكّن الإنسان من القبض على العالم، وإكمال الخليقة. واليد تتيح للإنسان أن يصوغ المادّة، ويعبّر بالفنّ، ويتواصل بالمداعبة. غير أنّ أنانيّة بعض الناس وكبرياءهم قد أفلحتا في استعباد جموع إخوتهم، واستغلال عمل أيديهم. وجاء يسوع كي يحرّر المسحوقين. فأيديهم، هي، له، أيدٍ أخويّةٌ.

بيديه داعب الأطفال، وشفى المرضى، وأخذ الخبز والخمر لكي يقدّمهما طعامًا وشرابًا للجموع. وستُقيَّد يداه مع أيدي المجرمين، وستسمّر مع أيدي العبيد. وسيدعو النجّار، يومًا، توما وسواه، إلى جسّ يديه المثقوبتَيْن.

ولكن، في الناصرة، لم تكن يداه سوى يدَيْ عاملٍ، يعيش بيديه، ويعبّر بهما، ويُفكّر ويصلّي بهما. عمل مذ كان في العاشرة، وأسهم في عمل البيت وعمل المنجرة، فتجرّحت أصابعه، واخشوشنت يداه.

---

(١) مقتبسة عن پول غوتييه Paul GAUTHIER.

يداه خَلقتا وافتدتا. كانتا تصوغان وتُصلحان، وتداعبان. كانتا تضفيان على الطبيعة نبلاً، بالقوّة والرقّة، من أجل خدمة البشر ومجد الآب. بمعالجتهما الخشب استهلّتا عمل الفداء، ودمغتا بطابعهما أمثال نبيّ الناصرة التعليميّة، المستلهمة من عمل المحترَف، وعمل الحقول.

وسيُجيد يسوع، دائمًا، استخدام يديه في سبيل عمله الرسوليّ والنبويّ: لبطرس الذي يواجه خطر الغرق سيمدّ اليد المنقذة. وبيديه اللّتين ألفتا العمل والخدمة سيُعدّ الطعام للتلاميذ الذين كدّوا الليل بطوله ولم يصيبوا سمكةً، إلى أن هداهم إلى موقع الصيد الوفير. وبيديه غسل أرجل الرسل.

وعلى الصليب ستُكمل يداه العمل الذي بدأه في المحترَف، وفي بيوت الناصرة. وستحتفظان، أبدًا، في المجد، بسِمات العمل وسِمات الآلام. كان بعض الناس يدوّنون على يدهم اسم إلههم، أمّا نجّار الناصرة فدوّن البشريّة على راحتَيْ يديه.

وهو، عبر التاريخ، وبأيدي مليارات العمّال، أعضاء جسده السرّيّ، يبني البيت، وينسج الثوب، ويُنضج خبز الأسرة البشريّة، متمّمًا في جسده ما ينقص من آلامه، لعلّ البشريّة كلّها تجد فيه ملء الحياة والفرح.

ولخدمة هذه البشريّة الكادحة، ترك نجّار الناصرة، على الأرض، يديه اللّتَين تواسيان، وتضمّدان، وتُبرئان. وهما ما برحتا تغسلان في العماد، وتغفران، وتُطعمان خبز الحياة، وتكرّسان، وتُحييان. إنّهما تحطّان على رؤوس الرسل، والعذارى، والشمامسة، والكهنة، والأساقفة، وهما تتناولان، كلّ يومٍ، الخبز والخمر، كما فعلتا عشيّة الخميس المقدّس، من أجل تجديد ذكرى الحبّ.

يداه الخشنتان توصفان بأنّهما «مقدّستان ومكرّمتان»، «طاهرتان، منزّهتان من كلّ دنسٍ»، والأيدي التي ترتفع وتبارك، هي يدا النجّار، الراعي، المنيعتان. ألم يقل: «خرافي لن ينتزعها أحدٌ منّي»؟

ولكن، في ذلك الزمان، لم تكونا سوى يدَيْ رجلٍ يكسب خبزه بعرق جبينه، يدَيْن تحاكيان أياديَ كثيرة. وفيما كان يُشعل، من نفايات الخشب، نارًا تساعده على طرق الحديد، كان ينتظر نار الروح العظمى.

النجّار، حينذاك كان، في الآن عينه، بنّاءً، وحدّادًا، الرجل الذي يضطلع بجميع

الأعمال التي يحتاج إليها أهل قريته. كان خادم العمّال، وخادم القرية والحقول. يصنع كلّ أدوات الفلاّح: المحراث، والنير والنورج والمذراة، ويصنع هياكل البيوت، ونوافذها وأبوابها وخزائنها.

عمله غالبًا خارج محترَفه، ويُضطرّ إلى نقل أدواته ومصنوعاته عبر الطرقات.

ولا ريب أنّه كان يحرث قطعة أرضٍ، توفّر له مؤونة الشتاء والخضار لكلّ يومٍ.

ذلك اللّه المتستّر في جسدٍ بشريٍّ لم يكن أحدٌ يرى فيه سوى خادم الجميع. لم يكن يجادل أحدًا، ولا يُسمع له صياحٌ. «لا يطفئ الفتيلة المدخّنة، ولا يكسر القصبة المرضوضة».

كان إنسانًا بين البشر، محاكيًا أبناء قريته، كان عاملاً، وحياة العامل كانت شاقّةً.

وعندما سيشرع يحدّث الناس ويتحدّث الناس عنه، سيذهل أبناء قريته متسائلين: «أليس هذا هو النجّار؟».

«أَعِـدّوا طَـريقَ الرَّبّ»

(لوقا ٣: ٢ – ٦)

عقب صمتٍ طويلٍ، اختفى فيه صوت الأنبياء، دوّى صوت الله في الصحراء. لم يدوِّ على ألسنة الكهنة ولا رؤسائهم المزدانين بأفخر طيالسهم، ولا في حنايا الهيكل، بل على لسان إنسانٍ شبه عارٍ، على ضفاف الأردنّ، ولكنّه يحيا في أُلفةٍ مع أشعيا والأنبياء الأقدمين، الذين تنبّأوا بمجيء المخلّص. وها هوذا، وقد أَزِفَتْ ساعة ذلك المجيء، يحرّض القوم على تمهيد درب الربّ.

يوحنّا يعمّد: يُغرق الناس في مياه الأردنّ، ثمّ ينتشلهم. وبذلك يرمز إلى موت الإنسان القديم، وولادةٍ جديدةٍ، في الخلاص الآتي. المطلوب، إذن، هو تحوّلٌ جوهريٌّ، انقلابٌ كاملٌ، حياةٌ قشيبةٌ، في نور البشرى الخلاصيّة.

«كلّ وادٍ يُطمَر، وكلّ جبلٍ أو تلٍّ يُخفَض، والمسالك المتعرّجة تُقوَّم، ومتوعّر الشعاب يُسهَّل».

لن يبقى شيءٌ على حاله، بل الرؤوس المشرئبّة تُطأطئ، والنفوس المتغطرسة تُخزى، والمرميّون في القعر يُنتَشلون. وكم من العروش ستهتزّ، ومن الصولجانات ستتحطّم، ومن التيجان ستتدحرج، ومن المنبوذين سيستعيدون كرامتهم!

وسيدشّن الملكُ الخادم بشريّةً جديدةً، تنشد مستقبلاً مشرقًا، يدعونا إليه الله، من خلال صبر الأجيال.

على نقيض المواكب التي تعلن، بالضجيج والطبول، قدوم زعماء الأرض، كان يوحنّا بن زكريّا، الرجل الهزيل، الرثّ الهندام، المُمّحي أمام ذاك الذي يعلن عنه، ينبئ، على دروب الصحراء المبهمة، بقدوم زعيمٍ من نمطٍ مختلفٍ، آتٍ إلى قلوب البشر، شرط أن تُعدّ له دروبٌ مستقيمةٌ، دروب التوبة، ونقاء السرائر.

إنّ الربّ قادمٌ، وهو، وإن زهد في كلّ سلطةٍ أرضيّةٍ، يودّ أن يلهم السلطات،

جميعها. إنّه لا يحبس ذاته، ويأبى أن يحبسه أحدٌ في أرضٍ، أو قبيلةٍ، أو جنسٍ، أو إثنيةٍ، أو حضارةٍ، أو ثقافةٍ، أو حتّى في ديانةٍ.

«**سيرى كلّ بشرٍ خلاص الله**»، أي سيكون الخلاص عميمًا، فالمخلّص هو ربّ جميع الأزمنة، وجميع الأمصار، إنّه الربّ الشامل.

وسيضع موضعَ تساؤلٍ، بأسلوب حياته، وبفحوى رسالته، السلطاتِ الحريصةَ على نفوذها، ومركزيّتها، وهيمنتها، سلطات تيبيريُس، وهيرودُس، وحتّى قيافا.

إنّه قادم، فأعدّوا له الدروب!

البـذَرةُ التي تـُلقَى في الأَثْلام

(لوقا ٣: ١٥– ١٧)

مع أنّه قطن الصحراء، كان المعمدان ملمًّا بالأوصاب المميتة التي تلتهم وطنه كالآكلة: اللامساواة، والفساد، والعنف، والرياء. ومن ثمّ دعا إلى المشاركة، والنزاهة، واحترام الجميع، أي إلى برنامجٍ اجتماعيٍّ بدائيٍّ.

يوحنّا ابن كاهنٍ، ولكنّه زهد في الزيّ الكهنوتيّ، وفي امتيازات الوظيفة الكهنوتيّة، كي ينصرف إلى رؤى الصحراء النيّرة المضطرمة، وإلى تجديد شعبه، كلّ شعبه، بتغطيسه في النهر، من أجل تجديد نفسه.

وتساءل بعض القوم أليس هو المسيح المنتظر، الذي سيجتازون، معه، مجرى النهر، كي يلجوا أرض الميعاد؟ أليس الزعيم الذي سيرمّم الأمّة، وسيشرع لها دروب المجد والازدهار؟

ولكنّ يوحنّا يربأ بنفسه أن يدع الشكّ يحوم حوله، ويقود إلى الخداع، فيسارع إلى الإعلان بأنّه مجرّد ممهّدٍ لطريق من «**يأتي الآن، وهو أقوى منّي، ولستُ أنا أهلاً لأن أحلّ سيور نعليه**»، «**أنا أعمّدكم بالماء، أمّا هو فيعمّدكم بالروح القدس والنار**».

لقد عرّف يوحنّا يسوعَ بأنّه من «**بيده المذرى لينقّي بيدره، ويجمع القمح في أهرائه؛ وأمّا التبن فيحرقه في نارٍ لا تنطفئ**».

ولكنّ يسوع عرَّف نفسه بأكثر من ذلك: فهو من يغرس أصغر البذور شأنًا، ويُطلع منها حصادًا وافرًا. ويحجم عن اجتثاث الزؤان لكيلا يُجتَثّ معه القمح الجيّد؛ لا بل هو البذرة التي ستُلقى في أثلام التاريخ الدامية، فينبت منها ملكوتٌ يُسعى إليه بالحبّ، والصفح، وبذل الذات.

« أَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ »

(يوحنّا ١ : ٢٩ – ٣١)

على مدى بضعة أسطرٍ، يعترف المعمدان مرَّتين: «**أنا لم أكن أَعرفه**». لا ريب أنّ هذا التكرار يعني أمرًا خطيرًا، ولا سيّما أنّ اعترافَيْه بجهله يسوع يواكبهما اعترافان بألوهته: «**أنا لم أكن أعرفه**» ولكن «**هوذا حمل اللّٰه**». «**أنا لم أكن أعرفه**» ومع ذلك «**أشهد أنّه، هو، ابن اللّٰه**».

لا بَدْعَ ألاّ يعرف يوحنّا جوهر يسوع، مع ما يربطهما من أواصر القربى، إذ لم يسبق أن ارتدى اللّٰه جسد إنسانٍ. ولن يكون بوسع إنسانٍ معرفته، ما دام ينظر إليه نظرته إلى مجرّد إنسانٍ. إنّ يسوع، اللّٰه المتجسّد، من السعة وغنى الكيان، بحيث لا مفرّ لنا من الجدّ المتواصل في سبيل اكتشافه، إلى أن يتسنّى لنا أن نشاهده وجهًا لوجهٍ، في ملكوته.

ظاهريًّا لم يكن يسوع يتميّز عن سائر طالبي العماد، ولكن كم هو مختلفٌ عنهم! وكم عماده مختلفٌ عن عمادهم! بل كم هو مختلفٌ عن المعمدان نفسه الذي اعترف: «**لستُ، أنا، أهلاً لأن أنحني وأحلّ سيور نعليه. أنا عمّدتكم بالماء، وأمّا هو، فسيعمّدكم بالروح القدس**»!

ومع أنّ يوحنّا وُلد قبل يسوع، إلاّ أنّه أعلن: «**سيأتي بعدي من هو قبلي**». فيسوع كائنٌ منذ الأزل، وقادمٌ من اللّٰه. إنّه من عالَمٍ آخر، وهو أكثر من إنسانٍ، ولذلك يستطيع أن يُخلّص. به كان كلّ شيءٍ، وبه سيخلُص كلّ إنسان؛ والكون الذي أفسدته الخطيئة، وأثخنه العنف بالجراح، وسمّمه فقدان الحبّ، سيُعاد خلقه بالكامل.

* *

يسوع مجهولٌ، فلا بدّ من الإمعان في معرفته واكتشافه.

ومن يستطيع ادّعاء الإحاطة بكلّ حقيقته؟ فكم من الكتب، بعد الأناجيل، دُبّجت في سبيل التعريف به! ولكن، بعد ملايين الصفحات الرائعة التي كُتبت فيه، ما زال يتعيّن قول كلّ شيءٍ عن ذلك الكائن الفريد، الإنسان والإله معًا.

أيّةً كانت الأوصاف التي نُطلقها عليه، والأواصر التي تربطنا به، ومهما كان رفيعًا التكريم الذي نحيطه به، فهو، أبدًا، يتخطّانا، وهو، دائمًا، أمامنا، لكي نمضي إليه، دائمًا، أبعد فأبعد.

إنّ النور يتغلغل إلى أعماقي كلّما اعترفتُ بصدقٍ: «لستُ أعرف يسوع». فالكائن الذي لم يبقَ لديّ ما أتعلّمه منه، وأعيد تعلّمه كلّ يومٍ، هو كائنٌ انقطعت صلتي به. ويسوع، في هذا، أكثر من أيّ كائنٍ آخر. ويومَ لا يعود لديّ ما أتعلّمه عنه ومنه، أكون قد توقّفت على درب النور.

الاعتراف بالنقص والافتقار يقود على دروب الكمال والاكتناز. ومن يعترف: «أنا لست أعرف يسوع»، يمضِ شوطًا بعيدًا على درب «الذي لا تمكن الإحاطة به».

«**أنا لست أعرفه**»: موسيقى داخليّةٌ تدندن على منحدر الصباح، عندما تسكب الشمس من القمّة أشعّتها على السفح الذي أتسلّقه، وأتوقّف برهةً، ثابت القدمين، شاخص العينين صوب القمّة. أتنفّس لأستريح من عناء المرحلة التي اجتزتها، وأتنفّس قبل أن أستأنف التصعيد نحو «من لا يحيط به علمٌ».

من لا يحيط به علمٌ؟ حتّى يوم النور الكلّيّ!

«هُوَ يُعَمِّدُكم بالرُّوح القدُس وَالنّار»

(متّى ٣: ١١)

منذ فجر الأزمنة وضع البشر الماء عند عتبة العالم الإلهيّ. فكان الكهنة الأقدمون يُمعنون في الاغتسال قبل دخول الهيكل. ولطالما تطهّرت الجموع في الأنهر المقدّسة: الغنج، والفرات، والنيل. وفي معظم الديانات، طقوس رشٍّ بالماء ترمز إلى معانٍ مختلفةٍ. لقد دوّن الماء المتحرّك الشفّاف، المطهّر، فتنةً في أعماق إنسانيّتنا، ولكأنّه طريقٌ إلى عالمٍ آخر.

وجاءت الجِدّة مع يوحنّا المعمدان: إذ أضحى العماد تحوُّلاً وانقلابًا، وبدء حياةٍ متجدّدةٍ، وفجر وجودٍ أدبيٍّ جديدٍ، يجعل تقادم التكفير الدامية نافلةً، لا طائل تحتها.

الذين كانوا يوافون إلى ضفاف الأردنّ، ما عادوا في حاجةٍ إلى الهيكل، وكانوا كُثُرًا، قادمين من أورشليم ومن «كلّ» اليهوديّة، ومن «كلّ منطقة الأردنّ». وكان يوحنّا يوفّر للجميع، ولا سيّما لأولئك الذين تاهوا في شعاب الطقوس والفرائض، دينًا جديدًا، مبسَّطًا. كانوا يأتون زرافاتٍ، ويظفرون بصفح الله، وكان شعبٌ جديدٌ، منفتحٌ على الجميع، يولد. هذا الانقلاب أقلق القابضين على مقاليد السُّلطة الدينيّة.

يسوع، أيضًا، مُشرَعٌ على الجميع، وبخاصّةٍ على الخطأة والمنبوذين. إنّه يحقّق مصالحةً مع الله تخلق شعبًا جديدًا، ليس فقط في الصحراء، وبممارسة الصوم، فهو كان يعلن اقتراب الملكوت في أزقّة القرى، وعلى موائد الطعام. ولكنّه لا يعمّد، بل يُبدع عالمًا جديدًا بأقواله وأفعاله: والمطلوب هو اقتفاء أثره، لأنّه غدا، هو، «**الطريق، والحقّ، والحياة**».

وعندما سيتكلّم عن عماده، سيعلن موته، موت النبيّ الشهيد، خاتمًا بدمه، رسالةَ تحرُّر البشر اللامحدودة. ويدعو تلاميذه إلى توفير هذا العماد، لجميع الأمم. ممّا

سيسمح لبولس أن يقول: إنّنا في موت المسيح قد تعمّدنا، عمادًا يهيّئنا للقيامة معه، ولخوض حياةٍ جديدةٍ.

حينئذٍ اتّخذ رمز الماء الذي يميت ويحيي وجه يسوع. وبات العماد منبع الروح ولم تعد قيمته تثوي في طقسه، بل في الالتزام بشخص يسوع.

الماء الذي ينسكب على جسم الإنسان، ويظلّ خارجه، لا يقوى على تحويل قلبه، بل روح الله الحيّ وحده هو الذي يحوّل القلوب، لأنّه يخلق كلّ ما يمسّه خلقًا جديدًا. ويسوع، وحده، يهب عماد الروح.

فِي مِثْلِ صَبَاحِ العَالَمِ الأَوَّل:
عِمَادُ يَسُوع

(مرقس ١: ٧ – ١١)
(متّى ٣: ١٣ – ١٧)
(لوقا ٣: ٢١ –٢٢)

النور يتراقص فوق الصحراء القريبة، وعلى ضفّة النهر، تحت ظلّ شجرةٍ، رجلٌ يغطّس مواطنيه في الماء، الماء الجارف القاتل، الماء الذي يغدق الحياة؛ وعندما يرفع المعمَّدون رؤوسهم، ويعودون إلى الضفّة، يكونون بشرًا جُدُدًا متأهّبين لولوج الملكوت.

كانت طقوس الوضوء والتطهّر تتبوّأ مكانةً مرموقة لدى اليهود، الحريصين على الطهر الطقسيّ، غير عابئين بالطهر النفسيّ. وقد قاوم المعمدان، ثمّ يسوع، هذه النزعة الوبيلة، ودعَوَا إلى طهر «القلب».

وقد أسبغ المعمدان على طقس التطهّر بالماء معنًى كثيفًا، وبلهجةٍ ناريّةٍ عنيفةٍ، دعا إلى جعله تعبيرًا عن التوبة، وتحوّل القلوب، والتطلّع إلى مجيء ملكوت الله. وكان الشعب البسيط يقدم إليه مدفوعًا بالرهبة والرجاء: الرهبة لأنّهم كانوا يعترفون بكونهم خطأةً، مذنبين، استأهلوا عقاب الله الذي لوّح به يوحنّا؛ والرجاء لأنّهم كانوا من أولئك المتواضعين الفقراء، الذين وعدهم الله، على لسان النبيّ أشعيا، بملكوت المسيح. كانوا الشعب السادر في العتمة والآلام، الذي سيُشرق عليه نورٌ ساطعٌ، وسيتدفّق عليهم فرح الله.

وقد ساوى يسوع نفسه بهؤلاء البسطاء، عندما تقدّم من يوحنّا طالبًا العماد.

في ذلك اليوم الذي ودّع فيه سكون الناصرة، كي يستهلّ كفاحًا أفضى به إلى الصليب، كان عماده خلاصة نضج تمادى سنواتٍ من التأمّل، ودليل جاهزيّةٍ مطلقةٍ هلّلت لها السماء، بصوت الآب مؤكّدًا: «**أنت ابني الحبيب**»، أنت العهد الجديد الذي أعقده مع البشر.

كان بعض اليهود يعتمدون كلّ يوم، ولكنّ المعمدان كان يعمّد مرَّةً واحدةً، ويستخرج من المياه شعبًا متجدّدًا جاهزًا لملكوت اللّه الآتي. وكان ينذر بأنّ الفأس قد همّت بقطع كلّ عقيمٍ، وبأنّ المخلّص الآتي يحمل في يده المذراة التي تفرز الحَبّ الجيّد عن العصافة، فيختزن القمح في أهرائه، ويحرق العصافة بنارٍ لا تنطفئ؛ وهو سيعمّد بالماء والنار، أي سيطهّر ويخلق من جديدٍ.

كان المعمدان يُشرع دربًا جديدًا، درب طوارئ. لم يكن يعلّم في المجامع، بل كان ينتقد زعماء الدين، مردّدًا إنذارات الأنبياء. كان يُزري بوصايا الطهر والنجاسة الظاهريِّين، ويدعو إلى تغيير القلب والسلوك.

ومن خلال أقوال المعمدان كان اليهود يتوقّعون مجيء مسيحهم المنتقم الجبّار، الذي سيدمّر أَعداءهم وسيحوّلهم رمادًا.

وإذا بهذا المسيح المنتظر شابٌّ غريبٌ، مجهولٌ، قادمٌ من قريةٍ مغمورةٍ، ينضوي في طابور التائبين المقبلين على ماء التجدّد، عند إحدى ضفاف الأردنّ التي يخيّم عليها طيف آخر الأنبياء، يوحنّا المعمدان.

يوحنّا كان ناسكًا زاهدًا، في زيّ إيليّا؛ أمّا يسوع فكان يلبس كسائر البشر، ويلبّي دعوات الأعراس، حتّى اتّهمه بعض المتزمّتين بأنّه سكّيرٌ ونهمٌ، ممّا جعله أقرب إلى قلوب العامّة. يوحنّا كان ينذرهم وينتظرهم، ويسوع مضى إليهم، وأكل وشرب معهم، عاملاً، بقوّة الروح، على تغيير ما في النفوس، غير حافلٍ بطقوس التطهير، ووصايا الشريعة المقتصرة على الظاهر.

لم يكن رجلُ الصحراء يعرف الناصريّ، فقد التقيا مرّةً واحدةً، لنحو ثلاثين سنة خلت، يوم كانا، كلاهما، جنينَيْن؛ ولكن ما إن حطّت عليه عيناه الحارقتان، حتّى تعرّف، بحدْسٍ نبويٍّ، أنّه هو ذاك الذي قال فيه: «**سيأتي بعدي من هو قبلي، وأقوى منّي...**»

لم يكن المعمدان قد أَلِف، بعدُ، أسلوب اللّه في قلب المعايير، وتحقيق اللامتوقّع. وعندما لمح المسيح في قسمات يسوع اعترض قائلاً: «**إنّي أنا المحتاج أن أعتمد منك، وأنت تأتي إليّ!**» ولكنّ يسوع ردّ: «**دع الآن، فإنّه هكذا يليق بنا أن نتمّ كلّ برٍّ**».

قول يسوع هذا، الذي استهلّ به حياته العلنيّة، ينمّ عن نضوجٍ مدهشٍ، واتّزانٍ فائقٍ، ووعيٍ عميقٍ لرسالته. فهو لا يتنكّر لتقاليد القديم، ولكنّه ينفث فيها روحًا جديدًا، ويمضي بها إلى كمالها؛ وهو ليس ثائرًا، ولكنّه يغيّر كلّ شيءٍ.

إنّ نهر الأردنّ يصبّ في أخفض مستوًى، بين كلّ أنهار العالم، وبانحداره إليه، رمز ابن اللّه لتردّيه إلى أوطأ دركات الإنسانيّة الخاطئة، وإلى مستوى أصغر أبنائها، محقّقًا المخطّط الخلاصيّ بالتواضع والتلاشي.

ولكن الابن الذي أمعن في التواضع، عظّمه الآب، فما إن خرج من الماء، حتّى انشقّت له السماء، وشوهد الروح يحوم حوله، على شكل حمامةٍ، معبّرًا عن تقديسه للعالم، بعد أن بات يسوع، بتجسّده، جزءًا منه، وبعد أن قرّبه من اللّه، وبفعله الإلهيّ، أقام بين اللّه والعالم علاقةً حميمةً.

ودوّى صوت الآب معلنًا: «**هذا هو ابني الحبيب الذي أودعته كلّ حبّي**»، إنّه اعتراف حبّ الآب... سرٌّ كان يسوع يحتضنه ويحيا به منذ تجسّده، ولكنّ الآب أعلنه على الملأ، بمناسبة عماد ابنه، ومباشرته رسالته العلنيّة. وهكذا التقى، في هذا العماد، الثالوث بجميع أقانيمه، وأُعلن يسوع مسيحًا، مسحه الآب وكان الروحُ مسحتَه. والسماء بانشقاقها أسفرت عن شيءٍ من سرّه وعظمته، وألوهته، وانفتحت فوق رؤوس المؤمنين به، بعد أن ظنّ البشر طويلاً أنّها موصدةٌ، متعذّرة المنال.

انفتاح السماء يعني رسالةً إلهيّةً إلى البشر، و«انشقاقها» يعني هبوط اللّه إلى الأرض. والحمامة تذكّر بتلك التي عادت إلى نوحٍ حاملةً غصن زيتونٍ، معلنةً انتهاء المحنة، وانبثاق فجر الخلاص. وفوق كلّ ذلك صوت الآب المعلن: «**هذا هو ابني الحبيب الذي أودعته كلّ حبّي**»، وفي هذا القول صدًى لواحدةٍ من نبوءات أشعيا تتحدّث عن مخلّصٍ، يُبطل، بتضحيته، سُمّ كلّ شرٍّ.

والذين توقّعوا مسيحًا عنصريًّا محاربًا، كما صوّره خيالهم وتعصّبهم، وجدوا مسيحًا يناقض توقّعاتهم، يبشّر، على الطرقات، أنّ ملكوت اللّه ما زال بذرةً ممعنةً في الصغر، ويدعو المطالبين بالفرز إلى مصالحةٍ شاملةٍ، ويعلن للمتهوّسين النزّاعين إلى ذبح من يدعونهم كفّارًا أنّه سيضحّي بنفسه لخدمة الجميع وخلاصهم.

لقد أعلنه اللّه ابنًا لـه، وكرّسه مَلِكًا، ولكنّه مَلِكٌ خادمٌ يؤسّس مستقبل العالم على

المحبّة والتضحية والبذل، وقد تولّى، منذ ذلك اليوم، مهمّة صدم شعبه، معرِّضًا نفسه للنبذ والقتل. وفي يوم صلبه سينشقّ حجاب الهيكل الذي كان يُبقي الشعب بعيدًا عن الله، وسيمسي الوصول إلى الآب متيسّرًا لجميع الصاعدين من نهر العماد والتوبة.

اعتماد يسوع في الأردنّ كان يحمل، في طيّاته، بذور فصحه المأساويّ، وموته، وقيامته.

* *

إنّ ما عاشه يسوع، بصفته ابن الله الوحيد، على البشر أن يحيَوه، بصفتهم «أبناء الابن». فالإنسان أكبر، بلا قياسٍ، ممّا يُرضي جسده، وإنّما تكمن كرامته في اتّصاله الوثيق بالله، عبر يسوع.

للإنسان بُعدٌ إلهيّ، إن هو لم يبلغه، فشل مصيره. وقد كتب «أندري مالرو» (André MALRAUX)، في هذا السياق: «ما يُجدي الإنسان أن يسيطر على الكون، ويهبط على سطح القمر، إن كان ذلك سيُفضي به إلى الانتحار؟».

في طقوس العماد، لدى الكنيسة اللاتينيّة، هذه الصلاة الرائعة: «يا الله، لقد أرسلت ابنك كي ينتزع الإنسانَ من الظلمات، ويُدخله إلى سنى نور ملكوتك... أيّها الآب الكلّيّ العطف، لقد فجّرت فينا جدّة حياة أبناء الله، في يوم عمادنا... بارك هذا الماء الذي سيولد فيه هذا الطفل ولادةً جديدةً للحياة الأبديّة».

وقد تحدّث المعمدان عن عماد النار والروح الذي سيأتي به يسوع. وللنار طريقتا اضطرامٍ؛ فثمّة النار المتوهّجة، التي يشهد الجميع لهيبها، والمتمثّلة في القدّيسين الذين يُشعّون الله، وتقف الأنظار، أمام إشعاعهم، دهشةً فرحةً، أمثال الرسول بولس، وفرنسيس الأسّيزيّ، وتيريزا الطفل يسوع، والأمّ تيريزا الكلكتّاويّة. وثمّة الجمرة المحافظة على اتّقادها تحت طبقةٍ من الرماد خفيفةٍ، قد لا تُلاحَظ نارُها من الخارج، غير أنّ من يلمسها يحترق بها. هكذا هم كثيرون من القدّيسين المغمورين، الذين لا تتيسَّر لهم فُرَص الظهور، إلاّ أنّهم يغلّفون، بحرصٍ، نار الروح القدس الثمينة، نار الحبّ.

كلّ مسيحيٍّ يرث من العماد نارًا قد يتسنّى لها هبوب ريحٍ تعلو بلهيبها، فيشاهدها الجميع، وقد تظلّ كامنةً تحت الرماد، ولكنّها تدفئ كلّ من يدنو منها.

تجــربَةُ يسَــوع

(لوقا ٤ : ١–١٣)
(متّى ٤ : ٣ – ١١)

ليس ما جاء في الإنجيل عن تجربة يسوع قصّةً تعليميّةً تستهدف دعم جهودنا في مصارعة قوى الشرّ.

فالروح هو الذي اقتاد يسوع إلى الصحراء كي يُجرَّب، إذ إنّ ابن الله، بتجسُّده، أَضحى إنسانًا كاملاً معرَّضًا، نظير سائر البشر، للتجربة، ولا سيّما في أكثر ما يُجرَّب به البشر: الكَلَف بالظهور والتباهي، والجوع إلى كلّ مثيرٍ، والطموح إلى السيطرة والإخضاع، والرغبة في الكسب والامتلاك.

لقد هبط يسوع عالمنا كي يتمّم رسالةً خلاصيّةً، في صميم تاريخ البشريّة، وقد شاء أن يَخْبُر، في ذاته، ما يخضع له البشر من مِحَنٍ وتجارب، كي يكون لهم قدوةً في مقاومتها.

التجربة قَدَر كلّ إنسانٍ، وهي ليست عارًا ولا زلَّةً، بل هي دعوةٌ إلى الخيار، وهي خصبةٌ بقدر ما يكون الخيار صائبًا، وجريئًا. غير أنّ معظم الذين يؤثرون السهولة والانقياد على الصمود والمقاومة يختارون درب الأمجاد لسحق الآخرين، والسلطة للبطش بهم، والمال الفاسد لإفسادهم؛ وقلّةٌ هم الذين يختارون درب الحبّ الذي يهب الحياة.

* *

بعد عماد الماء، عماد الصحراء.

جُرِّب يسوع في الصحراء، حيث شخص ليخلو بنفسه وبأبيه وروحه، قبل مباشرته رسالته بين البشر. والصحراء خير مكانٍ للخلوة، ففيها يرى الإنسان ذاته في عُريها، بعيدًا عن أقنعة المجتمع وتمويهاته.

الصحراء تعرض سرابًا لا نهائيًّا، خدّاعًا، مثلما تعرض الجوهريّ؛ إنّها منبع هواجس، ولكنّها، أيضًا، مكان لقاء الله وجهًا لوجه، ولذلك لا يطيقها الفاترون والمتردّدون. الصحراء هي مكان الخيار بين الحياة والموت. وفي عالمها الجامد الجافّ، ترمز الزهرة الصغيرة، والعشبة الضئيلة، إلى الحياة الصامدة في وجه كلّ محنةٍ، وكأنّها موعودةٌ بالأبديّة.

الصحراء هي المجالات الصوفيّة حيث يطوف الحيّ الأعظم، فيُشعرنا، في أعماق كياننا، بما يتخطّى ذواتنا. إنّها الفراغ اللامتناهي الذي يمسي امتلاءً، والصمت الجمّ الذي ينقلب وحيًا.

داخل كلٍّ منّا صحراء، وما أحرانا أن نفيء إليها كي نسمع همسات الروح.

كان يهوه قد تجلّى في سيناء وتكلّم؛ وها هوذا الإله المتجسّد يعقد فيها عهدَ حبٍّ جديدًا، باسم البشريّة ومعها، فيولد إنسانٌ جديدٌ، وعهدٌ جديدٌ.

* *

سمع إبليس إعلان الآب، في أثناء اعتماد يسوع: «**أنت ابني الحبيب**». وراعه أن يرى، في إزائه، إنسانًا، هو، في الآن عينه، ابن الله، فبذل جهودًا مستميتةً كي يزعزع إيمانه في تلك البنوّة الإلهيّة، وجهد في دفعه إلى التثبّت من إعلان الآب، ببراهين ماديّةٍ، لعلمه بأنّ مجرّد التماس دليلٍ محسوسٍ على صحّة الإيمان، هو ضربة معولٍ في جدار هذا الإيمان، وعلامةٌ على انهيار اليقين.

ولكنّ يسوع أثبت أنّه، حقًّا، ابن الله، برفضه كلّ اقتراحات عدوّ البشر، وبتأكيده طاعته المطلقة لمشيئة أبيه، والاستناد عليها وحدها، بكلّ كيانه.

وتوخّى إبليس، أيضًا، إقناع يسوع بأن يكون المسيح، على نحو ما تصوّره وتوقّعه اليهود، فحاول جرّه إلى بسط سيطرته على جميع ممالك العالم، وامتلاك كلّ ثروات الكون، وإلى استخدام قدراته الخارقة لفرض الهيبة، والتبجيل، والخضوع، لعلّه، بذلك، يحمله على خيانة الرسالة التي تأنّس في سبيلها. ولكنّ يسوع أطاح بكلّ تلك المحاولات، كي يأتي العالم بحبّه لهم النابع من حبّه للآب.

في الصحراء وهب يسوع نفسه للآب ابنًا بارًّا، ووضع بين يديه قلبًا مضطرمًا حبًّا به.

ولكنّ يسوع لم يعتزل في الصحراء، ولم يُقم منها حاجزًا بينه وبين العالم، ولم يُقصِه حبّه للّه عن البشر، بل قذف به إلى خضمّ حياتهم، حيث سينشئ ملكوت أبيه.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * *

قبل الإقدام على مهمّته العظمى، حرص يسوع على إخضاع جسده، وإحكام سيطرته عليه، فصام أربعينَ يومًا، في جوٍّ صحراويٍّ شاقٍّ، وعضّ معدتَه الجوعُ. وخُيّل إلى إبليس أنّ ذلك الجائع السَّغِب قد غدا لقمةً سائغةً له، فهرع إلى امتحانه. وزيّن له تحويل الصحراء الصخريّة إلى مخبزٍ عجيبٍ يزخر بالأرغفة الساخنة الشهيّة. ولكنّ يسوع صدّه بقوله: «**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ تخرج من فم اللّه**».

بقوله هذا علّمنا يسوع ألاّ تفقدنا حاجتُنا إلى إِشباع جوعنا السيطرةَ على ذواتنا، وألاّ تدفعنا إلى مقايضة نفسنا بالطعام. ولكم يضغط علينا مجتمعنا الاستهلاكيّ، بمادّيّته العمليّة الشرسة باتّجاه هذه المقايضة، الكفيلة بالتردّي بنا إلى أدنى مستويات البشريّة بهيميّةً وبدائيّةً! هذه المقايضة تعني فقدان الرجاء في الخلاص، والتمرّد على المحنة والألم، وعلى كلّ ما يوجع ويزعج، واتّهام اللّه بإحداث شتّى أصناف الشرور.

جوع الإنسان يحدّد جوهره، فإن انحصر جوعه في المُتَع الأرضيّة، فهو ماضٍ بنفسه إلى التهلكة. أمّا إن هو جاع إلى كلمة اللّه، فهو قادرٌ على الخلاص من كلّ امتحانٍ. ويبقى أدهى ما يتعرّض له المعمّدون من تجربة هو الاستعاضة عن مائدة اللّه بأطعمة الأرض.

ثمّ إنّ يسوع، باختباره الجوع، غدا نصيرًا لكلّ جائعٍ، وما انفكّ يحرّض أصدقاءه وأتباعه على أن يكونوا يده التي تطعم الجياع.

الحاجة إلى الطعام حاجةٌ أساسيّةٌ، فإنّ أوّل ما يموت في الإنسان الجائع هو روحه، أي العنصر القادر، فيه، على تقبّل كلام اللّه. فمن افتقر إلى الخبز تعذّرت عليه حتّى معرفة اللّه وعبادته، ولذلك نلتمس كفافنا منه، كلّ يومٍ، في الصلاة التي لقّننا إيّاها ابنه. وإنّه لمن واجب الحكومات والمؤسّسات والأفراد القادرين، مكافحة الجوع أينما وُجد، لأنّه كفيلٌ بإفقاد الإنسان إنسانيّته.

بيد أنّ هذه المهمّة، على خطورة شأنها، لا يسوغ أن تصبح هدَفًا، يُغني عن واجب تنمية سائر العناصر التي تجعل من الإنسان إنسانًا حقًّا. تأمين الطعام لكلّ إنسانٍ، واجبٌ جوهريٌّ، على ألاّ يقتصر اهتمام المسؤولين على القضايا الاقتصاديّة، والرخاء المادّيّ، ممّا قد يُفضي إلى فقدان مفاهيم الشرف، وإلى ضياع الروح، وإلى التخلّي عن كلّ رسالةٍ إنسانيّةٍ.

الخبز عنصرٌ أساسيٌّ للحياة، ولكنّ، ثمّة، عنصرًا آخر، لا يقلّ عن الخبز شأنًا، وهو ما يخرج من فم الله: صيحةٌ، نداءٌ، كلمةٌ تفيض الحياة. وعندما يُلبّى النداء تثمر الكلمة.

الجوع الأكبر، في الإنسان، هو الدعوة. وعندما يؤنس المرء أنّه قد دُعي باسمه، ويتيسّر لـه من الجرأة ما يدفعه إلى تلبية النداء، فيدأب، سحابة عمره كلّه، وحتّى النفَس الأخير، على تحقيق متطلّبات ذلك النداء، فهو، حينئذٍ، يحيا حياةً تليق بإنسانٍ، لأنّها تلبيةٌ كاملةٌ لنداء الله، وصدًى عميقٌ لهذا النداء.

ومثل هذا الالتزام يقتضي من الإنسان جهدًا مؤلمًا، بحيث تصبح له الدعوة، أحيانًا، سبب تمزّقٍ، وآلة صلبٍ.

التزامًا بهذه الدعوة صدّ يسوع تجربة إبليس الأولى، فمهمّته الأساسيّة ليست تحويل الحجارة إلى خبزٍ، بل تنفيذ مشيئة الآب، وهذا لا يعني ازدراء يسوع للإنسان ولحاجته البشريّة، بل يعني خيارًا يتعيّن معه، في الساعات الحاسمة، التقرير هل الله كائنٌ موجودٌ بذاته، مختلفٌ عن قضايا البشر، وأسمى منها، أو إنّه ليس سوى انعكاسٍ خياليٍّ لتطلّعات البشر الرائعة أو اليائسة.

وقد كانت التجربة الأولى محاولة حلّ قضيّة الله حلاً بشريًّا، وتحويل الله إلى حاجةٍ بشريّةٍ قد يُشبعها طعامٌ مادّيٌّ، أو عملٌ، أو فنٌّ، أو مستقبلٌ.

ولكنّ يسوع قضى على تلك التجربة بعبارةٍ قاطعةٍ، جازمةٍ، خالدةٍ.

لقد زيّن إبليس ليسوع تحويل الحجارة إلى أرغفةٍ، على أنّه عملٌ اجتماعيٌّ استثنائيٌّ، كفيلٌ بالقضاء على الجوع، وبإحلال السلام على الأرض، وبتكريس نفسه مرسل الله. ولطالما طالب اليهودُ يسوعَ بتكثير الخبز، وبإغداق المعجزات، وبتبوُّؤ عرش إسرائيل، ولكنّه واجه كلّ هذه المطالب والمقترحات بالرفض. فاليهود

والشيطان، بتزيينهم البحبوحة السهلة، والأعمال الخارقة، والسلطة المستبدّة، إنّما كانوا يتظاهرون بخدمة يسوع، بُغيةَ استخدامه، كي يجعل من البشريّة قطيعًا خنوعًا. ولكنّ ردّ يسوع القاطع بخّر جميع الحجج الجوفاء، وأضفى على الإنسان قوامه الحقّ، حرًّا مسؤولاً، أمام اللّه.

كم من أنظمةٍ ادّعت تحويل الحجارة إلى خبزٍ، فأطعمت رعاياها حجارةً عوضًا عن الخبز.

علينا، إذن، مقاومة سراب الفلسفات الشوهاء، والإقرار بأنّنا لا نحيا بالخبز وحده، بل، ننمو، قبل كلّ شيءٍ، بالخضوع لكلام اللّه. وفقط حيث يُعاش هذا الخضوع تنمو القناعات الكفيلة بتوفير الخبز للجميع.

لقد آثر يسوع أن تكون المحبّة، لا المعجزة الإلهيّة، هي التي تحقّق العدل والسلام، وتقضي على الجوع في العالم.

تجربة يسوع الأولى، إذن، ما برحت معاصرةً، حارقةً.

* *

وليست التجربة الثانية دونها معاصرةً. فقد حاول إبليس إيهام يسوع أنّه، بالاستعانة بالملائكة، يمكنه تحدّي نظام الكون الذي وضعه اللّه، وهو، اليوم، يغري البشر بقدرات العلم اللامحدودة، الكفيلة بالاستغناء عن العناية الإلهيّة.

ففي الكرَّة الثانية سوّل إبليس ليسوع أن يلعب دور المظلّيّ، من قمّة الهيكل، اختبارًا لحماية أبيه لـه، وهي تجربةٌ لإيمانٍ يشترط المعجزة كي يترسّخ. ولطالما تعرَّض يسوع، سحابة حياته، إلى تجربة التخلّي عن بشريّته، وإظهار ألوهته، وزعامته، بواسطة المعجزات التي تُكره على الإيمان قسرًا. ولم يكن عسيرًا على ابن اللّه أن يكون، في كلّ حينٍ، الكلّيّ القدرة، ولكنّه، مع كلّ ما حاصره من ضغوطٍ، آثر أن يكون، أبدًا، المسيح الخادم، الفقير، المهان الذي تسحقه الجماهير، وسلطات شعبه.

كلّ إنسانٍ يتعرَّض لامتحان إيمانه الذي يبدو لـه، أحيانًا، قفزةً في الفراغ، وغالبًا ما يرين عليه الشعور المرهِق بصمت اللّه، وبغيابه، وبإعراضه عن ملتمساته، فيودّ لو

يقبض عليه ويُكرِهه على الاستجابة لرغباته. في حين أنّ الله يترك لنا حرّيّة تدبُّر أمورنا بأنفسنا، ويضمن لنا سلامة نفوسنا كلّما التمسنا منه ذلك.

استخدم إبليس ما جاء في المزمور ٩١، بعد أن حرفه عن سياقه، وقد جاء في المزمور الذي يشير إلى حماية الله لخائفيه:

«الساكن في كنَف العليّ، يبيت في ظلّ القدير،

يقول للربّ: «أنت معتصمي وحصني، إلهي الذي عليه أتوكّل...

يظلّلك بريشه، وتعتصم تحت أجنحته...

يسقط عن جانبك ألفٌ وعن يمينك عشرة آلافٍ،

ولا شيء يصيبك...

الشرّ لا ينالك، ولا تدنو الضربة من خيمتك،

لأنّه أوصى ملائكته بك ليحفظوك في جميع طرقك،

على أيديهم يحملونك لئلاّ تصدم بحَجَرٍ رجلَك...»

ولكأنّ إبليس يوحي: إن كنت حقًّا ابن الله، فالفرصة متاحةٌ لك كي تثبت ذلك؛ وما عليك إلاّ أن تلقي بذاتك من ذروة الهيكل، فتحميك أجنحة الله، بواسطة الملائكة، وسيقرّ الجميع أنّك ابن الله حقًّا.

وكان جواب يسوع جليًّا، قاطعًا: إنّه يثق ثقةً مطلقةً بأبيه، ويكتفي بكلامه، فلا مبرّر لامتحانه، أو لمطالبته بدليلٍ.

هذه التجربة تكرّرت على نحوٍ أكثر حدّةً في مناسباتٍ أخرى من حياة يسوع، وخاصّةً من خلال صمت الله المطبق في أثناء آلامه على الصليب، ولا سيّما أنّ أعداء يسوع رأوا في هذا الصمت دليلاً على زيف ادّعاءاته، وتجديفه، وإلاّ لما كان الآب أذِنَ بإهانة ابنه وموته، ولكان بادر إلى إنقاذه، بقدرته الفائقة.

هذا الصمت بدّد حتّى رجاء تلاميذ يسوع في معلّمهم. ومثلما قال إبليس: «إن كنت ابن الله فألقِ بنفسك..» قال المارّة أمام الصليب: «إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب». على الصليب يعيش يسوع التجربة القصوى: رأى عمله ينهار، والآب

صامتٌ، متخلٍّ، وهو يسام مصير المجرمين، وشماتة أعدائه تنصبّ عليه. وإنّما الشامتون كانوا يسلكون وفقًا لما جاء في سفر الحكمة (٢: ١٦–٢٠):

«يتباهى بأنّ اللّه أبوه، فلننظر هل أقواله صادقةٌ، ولنختبر كيف تكون عاقبته؛

فإن كان البارّ ابن اللّه، فهو ينصره، وينقذه من أيدي مقاوميه.

فلنمتحنه بالشتم والتعذيب، لكي نعرف حلمه، ونختبر صبره.

ولنحكم عليه بميتة عارٍ، فإنّه سيُفتقد بحسب أقواله».

وقد سلّمه الآب لأيدي أَعدائه ولم ينقذه. يا لساعة الظلمات! ولكنّ ابن اللّه لم يفقد، قطّ، ثقته في اللّه، وفي حضوره المحبّ، حتّى في حلك الظلمات، وفي ما بدا تخلّيًا.

لم يقفز يسوع من جناح الهيكل، ولم يجرّب اللّه. ولكنّه تردّى إلى أعماق الموت، وإلى ليل الهجران، أعزل، وحيدًا. لقد أقدم على هذه القفزة التي جعل منها فعلَ حبّ إلهٍ للإنسان، وهو عالمٌ أنّه، وهو يقفز، لم يكن بوسعه أن يقع إلاّ بين يدي الآب العطوف. من يعمل بمشيئة اللّه يعلم أنّه، مهما انصبّت عليه الأهوال، فلن يفتقد حمايته، ويعلم، أيضًا، أنّ علّة وجود العالم هي الحبّ، وأنّه حتّى حيث لا يرتضي أحدٌ مساعدته، سيمكنه متابعة مسيرته، مفعمًا ثقةً في ذاك الذي يحبّه. وأيّ بَوْنٍ بين هذه الثقة التي يدعونا إليها الناهض من الموت، والمخاطرة المتحدّية التي تبتغي أن تجعل من اللّه خادمًا لنا!

أعطِنا، ربّ، ألاّ يتزعزع إيماننا فيك، حتّى عندما تتوارى عن أبصارنا ونفوسنا!

* *

وأخيرًا حاول إبليس النفاذ إلى قناعة يسوع عن طريق إغرائه بما يغري الكثيرين من البشر: أي السلطة، والنفوذ، وإخضاع الناس، وكان شرطه لتحقيق هذه السيطرة أن يأتمر يسوع بأمره، وينفّذ مخطّطاته.

بعد أن أخفق إبليس في محاولتَيْه السابقتَيْن، تخلّى عن أسلوب الحيلة، ولجأ إلى أسلوبٍ فظٍّ. لم يعد يدعو يسوع ابن اللّه، بل أراده أن يكون عبدًا مطّرحًا عند قدميه، كي يملّكه العالم الذي ادّعى بسط سلطانه عليه. وقد غاب عن ذهن الشرّير

أنّ العبادة لا تستقيم إلاّ للّه وحده. فيسوع، إذن، لن يركع لا أمامه ولا أمام سلاطين العالم. ولكن سيأتي يومٌ يعلن فيه لتلاميذه: «**إنّي قد أُعطيتُ كلّ سلطانٍ لي في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب، والابن، والروح القدس...**».

إنّ الملكوت الذي جاء يسوع كي يؤسّسه لا يمرّ عبر فتوحاتٍ كما كان يتطلّع غيورو اليهود، بل هو قائمٌ على إطاعة الآب، والتضامن مع الصغار. وسلاحه العدل، والرأفة، والوفاء، والصلاة والحقّ، ومطمحه الأوّل تنفيذ مشيئة الآب وعدله. وبالإجمال، دربه درب التطويبات، وعظة الجبل.

سيكون يسوع ملكًا، ولكن من نمطٍ آخر. تاجه من شوكٍ، وعرشه صليبٌ، وسلطانه استشهادٌ، وسيكون ملكوت أبيه ملكوت محبّةٍ، والسبيل إليه خدمة المحتاجين. وستكون كلّ علاقةٍ بالسماء منقطعةٍ عن الاهتمام بالإخوة البشر، علاقةً زائفةً.

فهل الكنائس التي تركع أمام اللّه، تعرف الركوع أمام الصغار والمتألّمين، من أَجل خدمتهم، وتأبى، دائمًا، الركوع أمام أرباب المال والسلطان، عندما يحيدون عن سُبُل المحبّة والخدمة؟

لقد شاء اللّه أن يسيطر الإنسان على الأرض. ولكن اقتضى منه أن يعدّ هذه القدرة هبةً منه يستخدمها لخدمة إخوته، وفي مشاركةٍ معهم. ولكنّ الإنسان ابتغى لنفسه سيطرةً مطلقةً، والسُّلطة عندما تخرج عن مضمار البذل تصبح طغيانًا واستلابًا، وتدفع المرء إلى التماس المجد، على حساب إخوته، وبسحقهم إن اقتضى الأمر.

وحدها السُّلطة الخاضعة لمعايير اللّه وحكمه، كفيلةٌ بأن تصبح سُلطةً تستهدف الخير. ووحدها السُّلطة التي تنعم ببركة اللّه جديرةٌ بالثقة.

إنّ انصهار الإيمان في السُّلطة السياسيّة يفضي، حتمًا، في نهاية المطاف، إلى خضوع الإيمان للسُّلطة ومعاييرها.

لقد أعلن يسوع أولويّة اللّه، وجعل من العالم ملكوته. ومن ثمّ فحيث يملك اللّه، وحيث يُعتَـرَف بسلطانه، فقط، يكرَّم الإنسان، ويغدو بوسعه أن يكون عادلاً. أولويّة العبادة هي الشرط الأوّل لخلاص الإنسان.

إنّ قدرة اللّه لا تُحدِث ضجيجًا، ولا تُظهر تفوّقها. هذا ما أثبتته تجربة يسوع وحياته كلّها. إنّها السُّلطة الحقيقيّة الدائمة. فغالبًا ما تبدو قضيّة اللّه وَكَأَنَّها في حالة احتضارٍ، ولكنّها تُثبت، دائمًا، أنّها وحدها الخالدة، ومنتجة الخلاص.

جميع ممالك الأرض التي بسط إبليس منظرها أمام يسوع قد اندثرت، واتّضح أنّ مجدها لم يكن سوى مظهرٍ خادعٍ. أمّا مجد يسوع، المجد المتواضع المتأهّب للألم، مجد حبّه، فهو باقٍ.

إنّ في التجربة الثالثة ما يُقلق. فإبليس يعلن أنّ ممالك العالم قد أُقطعت لـه، وبوسعه إعطاؤها لمن يركعون لـه. أيكون الأمر كذلك، حقًّا؟ إنّ الكثير من أساليب السياسة يصدّق ادّعاء إبليس هذا، فالسياسة هي المجال الأرحب لعبادة الأصنام، حيث ينصّب إبليس نفسه مصدرَ كلّ شرعيّة. والواقع يثبت كم يقتضي السلطان السياسيّ من إنكارٍ لمبادئ الأخلاق. وقد قيل: «السلطة تفسد، والسلطة المطلقة تفسد إفسادًا مطلقًا». وقيل، أيضًا، إنّ مصلحة الدولة هي العليا، أي إنّها فوق كلّ اعتبارٍ ومبدإٍ، وإنّها لا تتورَّع من اغتصاب دور اللّه ومركزه.

ولئن صدّ يسوع بحزمٍ عروض إبليس السياسيّة، فلأنّه جوهر الحقّ، والعدل، والاستقامة.

والمسيحيّ المشترى بدم المسيح، والذي بالعماد اشترك في الطبيعة الإلهيّة وسلطانها، يسمو، بفضل ذلك، فوق السلطات والممالك جميعها، وهو، بكرامته المنيعة، يرتقي فوق كلّ سيطرةٍ، ويُخفي، بين جوانحه، حيّزًا مقدّسًا لا يطيق التخلّي عنه، ولا سلطة عليه إلاّ للّه وحده.

لقد سفّه يسوع ادّعاء الشرّير بأنّ ممالك الدنيا خاضعةٌ له، وأنّه سيّدها، وأخزاه بتأكيده أنّ العبادة تحقّ للّه وحده. ولكن كم من الأصنام التي ننزلق إلى خدمتها، وعبادتها، والتضحية بنفوسنا على هياكلها، مستعيضين بها عن اللّه! وحينئذٍ، فليجلجل صوت يسوع في أعماقنا: للربّ إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد!

* *

من خلال هجماته الثلاث كان هدف إبليس واحدًا: تحويل يسوع عن مهمّته،

وعن صفته ابنًا لله حريصًا على تنفيذ مشيئته. لقد جهد إبليس في إغرائه بأن يكون المسيحَ الجبّار، المتسلّط، البهلوان الذي ينتظره اليهود. ولكنّ يسوع أوضح بأنّ لا رغبة لديه إلاّ في تنفيذ مشيئة أبيه، وردّ على الإغراءات باختياره درب التواضع، والمحبّة، والألم، الذي سينهجه الخادم المتألّم كما تنبّأ به أشعيا. وفي النوبات الثلاث ردّ يسوع بكلام الله، وأخضع كلّ شيءٍ له:

- «**الإنسان يحيا بكلّ كلمة تخرج من فم الله**».
- «**لا تجرّب الربّ إلهك**».
- «**للربّ إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد**».

وقد برهن إبليس عن عمق مكره، وخبث أساليبه، إذ عندما ردّ عليه يسوع بنصوصٍ من الكتاب المقدّس، شرع، هو أيضًا يستخدم نصوصًا من الكتاب عينه! لقد ارتدى ثوب اللاهوتيّ، وخاض معركةً شرسةً بحجم قدرات خصمه اللامتناهية. ولكنّ يسوع قاومه بكلّ كيانه، وقيّده، وسلبه القدرات التي كان بها مسيطرًا على العالم، ثمّ استخدم قدراته الخاصّة من أجل شفاء الأجساد والنفوس.

* *

تركه إبليس، إلى حينٍ، ولكنّه لم يكفّ، هو وأزلامه، عن محاصرته بتجاربهم، سحابة حياته. جرّبته الجموع التي أرادت تنصيبه ملكًا، ولم تنِ تطالبه بمعجزاتٍ مدهشةٍ؛ وجرّبه بطرس الذي رجاه، بإلحافٍ، أن يُعرض عن جنون الصليب. وقد جُرِّب وهو يصلّي في الجتسماني، وعندما تحدّاه أعداؤه والشعب الجاهل، واللصّ الذي صُلِب على يساره، أن ينزل عن الصليب، ويُظهر قدرته...

لقد كان إنسانًا حتّى آخر نقطةٍ من دمه، وبصفته هذه، كان لا مفرّ لـه من مصارعة الشرّ. إلاّ أنّه، حيال كلّ تلك التجارب، صمد، وقاوم، وكان خياره ثابتًا، مضيئًا. فرفض كلّ غذاءٍ خلا كلام الله، وأبى «امتحان الله»، وأعلن أنّ لله وحده السيادة، وله وحده تحقّ العبادة، وبقي ملتزمًا بأبيه، محقّقًا رسالته.

لقد قاوم أشدّ صنوف التجارب مكرًا، وأكثرها سماجةً، لكي يشرع للبشر طريقًا إلى الله وإلى إنسانيّةٍ أوفر خصبًا.

ردّ كلّ عروض الشرّير، وظلّ وحيدًا، وسط الحصباء، طيفًا هزيلاً لا أبّهة له ولا سلطان. ولكن، ساعةَ زهد في كلّ شيءٍ، دنت الملائكة وأخذت تخدمه.

انتصار يسوع على إبليس هو انتصار الثقة المطلقة في اللّه، وانتصار القداسة.

ثمّة مؤامرةٌ خبيثةٌ تستهدف نفيَ مفهوم الخطيئة، وإنكار وجود إبليس، وقد كتب جورج برنانوس، في هذا السياق:

«إذا سلّمتم بوجود إبليس تسنّى لكم أن تلتقوه مئة مرّةٍ كلّ يومٍ. ملكوته يغشى العالم، وهو يجد متعةً في تفقّد أحوال هذا الملكوت بنفسه. وهو، من ثمّ، كثير الترحال.

«هناك مؤامرةٌ حول الشرّ، ولكنّها مؤامرةٌ لا ترمي إلى سحقه، بل هي تقتصر على تمويهه فحسب. ولئن نحن أبدينا، نحو الإيمان بوجود إبليس، قدرًا كبيرًا من النفور، فذلك لأنّنا لا نجسر على الإيمان بأنّ للشرّ روحًا، وإرادةً، وهدفًا. أجل، إنّنا نأبى التصوّر بأنّ هذا الحيوان المنحرف، الساحر المظهر، والذي جعل منه نظام المجتمع ضربًا من حيوانٍ أليفٍ لا يقتضي تعهّده سوى القليل من العناية، والزهيد من الثمن، إنّما هو يحلم بابتلاع كلّ شيءٍ، وهو، في الواقع، ليس دون الألم نَهَمًا، ولا دون الموت جشَعًا».

عرسُ قانا الجليل

(يوحنّا ٢: ١–١٢)

أَيّامٌ طويلةٌ أُنفقت، وجهودٌ وتضحياتٌ بُذلت، في سبيل الإعداد لذلك العرس، الذي تحرص كلّ أُسرةٍ على جعله حديث الناس، لسنين عديدةٍ. ولكن لم يخطر ببال أحدٍ أنّ البشريّة كلّها ستظلّ تتحدّث عن ذلك العرس، على امتداد الأجيال، وكرّ القرون، مع أنّ اسم العريسَيْن ما برح مغفلاً، ولا نعرف من المدعوّين سوى مريم التي تربطها بالأسرة وشائج قرابةٍ وصداقةٍ، ممّا دفعها إلى الإشراف على الضيافة، وابنها الشابّ، نجّار الناصرة، وحفنةٍ من صحبه الصيّادين الجليليّين. وحسبُ حضور هؤلاء كي تُخلَّد ذكرى العرس.

ربّما لم يضبط ذوو العريس حساباتهم بدقّة، وربّما تدفّق عليهم من الضيوف أضعاف المدعوّين، والبيت، في مثل هذه الأحوال، يظلّ مشرع الأبواب، لكلّ قادمٍ، وربّما أسرف الضيوف في الشراب. أيًّا كان السبب، نفدت الخمرة، وكاد نفادها يسبّب فضيحةً، أبى قلب العذراء أن تطال أصدقاءها. واهتدت إلى المخرج الأمثل في ابنها الذي كانت تعهد، في سريرة نفسها، قدراته الإلهيّة.

لم تستفض في الشرح والتوسّل، فالتفاهم بينهما لا يحتاج إلى كلامٍ كثيرٍ؛ واكتفت بالإشارة إلى أنّ الخمرة نفدت. وكان جواب يسوع مقتضبًا مثل سؤالها: «**مالي ولك أيّتها المرأة؟ إنّ ساعتي لم تأتِ بعد**».

يقول لها: «أيّتها المرأة» لأنّ العذراء في وساطتها، وفي شفاعتها، تمثّل البشريّة جمعاء، مثلما هو دعا نفسه «ابن البشر».

«مالي ولك؟»... قد تعني هذه العبارة: «وما شأننا، أَنا وأنت، بقضيّة الخمر»، أو قد تعني أيضًا: «أيّ بوْنٍ بين تفكيري وتفكيرك؟»، ولكن ما من هوّةٍ بينهما لا يردمها حبّ الله لمن اختارها له أمًّا.

«ساعتي لم تأتِ بعد». ساعته أَجلٌ مُحدَّدٌ منذ الأبد! ولكنّ للأمّ العذراء قدرةً على العبث بنظام الأبديّة، وعلى تقديم الساعة.

«ساعتي لم تأتِ بعد»، وأنتِ تستعجلينها يا أُمّاه! لقد سألتِ فعلى الساعة أن تأتي.

إنّ العذراء قادرةٌ أن تنتزع من ابنها العجائب، حتّى عندما يكون، هو، عنها عازفًا. وثقتها به مطلقةٌ، بدليل قولها للخدّام، رغم جفوة جوابه الظاهرة: «**افعلوا ما يقول لكم**»...

قول يسوع: «**ساعتي لم تأتِ بعد**» يتقاطع مع صرخته على الصليب: «**أبعد عنّي هذه الكأس**». لقد كانت معجزته الأولى خطوته الأولى نحو الجلجلة، ولكأنّ أمّه، على غير وعيٍ منها، أو بدافع رغبتها في إظهار قدراته الإلهيّة للناس، دفعته دفعًا صوب أجله الدامي.

ولكن عقب تلك الخارقة، شرع التلاميذ يؤمنون بمعلّمهم، ولكأنّ العذراء، بوساطتها، ولّدت هذا الإيمان. إنّها حوّاء الجديدة المتحرّرة من كلّ خطيئةٍ. ولئن سبّبت شجرة الفردوس هلاك أبوَي البشريّة الأوّلَيْن، إلاّ أنّ حوّاء الجديدة النقيّة لم تتردّد في غرس شجرةٍ جديدةٍ، يُصلَب عليها وحيدها، افتداءً للبشر.

عندما استدرج المجرّب يسوع إلى تحويل الحجارة خبزًا، ردّه يسوع خاسئًا، لأنّ طلبه كان ينبع من نيّةٍ شرّيرةٍ، ولكنّه استجاب لطلب أمّه، فحوّل الماء خمرًا، لأنّ في طلبها بدء مسيرة الخلاص. وباستجابته تجلّى نمط عمله: عطاءٌ في كَرَمٍ يتخطّى كلّ توقّعٍ، ولكن في غير تظاهرٍ ولا جلبةٍ، في «تواضعٍ إلهيٍّ»، وكتمانٍ.

يقول الإنجيل إنّ يسوع «**أظهر مجده**» من خلال معجزته الأولى تلك؛ لم يظهره فقط من خلال قدراته الخارقة، وتحويله الماء خمرًا، بل، أيضًا، ببرهنته للأسرة المحتفلة عن رقّة محبّته وعطفه. فمجد الله هو، أيضًا، حبٌّ وحنانٌ. ولئن استحال علينا إجراء مثل معجزاته، إلاّ أنّنا خليقون بالاقتداء بحبّه.

كانت لفظة «المجد» في الكتب اليهوديّة المقدّسة تعني الله، ومداخلاته المدوّية في مسيرة التاريخ، مثل هبوطه على جبل سيناء، وسط قصف الرعود، ووميض البروق، وتمزّق حجب السماء، ولكنّنا، في قانا، نرى إله النور والمجد، في زيٍّ آخر،

مدهشٍ، جالسًا، ضاحكًا، مرحًا، وسط أقرباء، وأصدقاء، في احتفال عرسٍ، وبيده كأس نبيذٍ.

لطالما اعتقد اليهود، اعتقادًا راسخًا، بأنّ اللّه يقطن في هيكل أورشليم الجميل، فكانوا يتكبَّدون عناء الحجّ، كي يقتربوا، ما استطاعوا، من قدس الأقداس، المغلق في وجه الشعب، وإذ باللّه المتجسّد يجالس قرويّين، ويقاسمهم الطعام والشراب، والاحتفال بالحبّ. كان الالتفات نحو اللّه يستلزم التطهّر المطّرد بالكثير من الماء، وها هوذا يسوع يقلب ماء التطهير خمرًا، ويسهم في فرح الشعب ونشوته، ولكأنّ كلّ شيءٍ قد انقلب، فجأةً، ولكأنّ اللّه قد هجر الهيكل، والطقوس، والأماكن والأوقات المقدّسة، كي يقطن حياة البشر الوضيعة.

أَجاجين الماء كانت معدّةً للتطهير، ويسوع حوّل ماءَها خمرًا، ولكأنّه يعبّر عن رغبته في تجديد الدين اليهوديّ. وكان عدد الأجاجين ستّة، وهو رقمٌ ناقصٌ، عند اليهود. ولكأنّ يسوع يتوخّى إكماله، والاستعاضة عن الماضي الغابر، بمستقبلٍ متألّق الجدّة.

ولطالما شبّه الأنبياء «الشعب المختار» بالخطيبة الخائنة، وها إنّ يسوع يدشّن عرسًا نهائيًّا بين اللّه والبشريّة، عرس خمرة العشاء الأخير ودم الصليب. وما برحت الإفخارستيّا، في قلب الكنيسة، تواصل الاحتفال بخمرة الأعراس الأبديّة.

يختم الإنجيليّ يوحنّا روايته لهذه الحادثة، خاتمةً قاطعةً مؤثّرةً، تشرع الرؤية على آفاقٍ لا نهاية لها، إذ يقول: «**تلك كانت آية يسوع الأولى**».

ثمّة آيةٌ، وإذن، إشارةٌ، ولكنّ الهامّ والجوهريّ ليس الإشارة ذاتها، بل ما تعنيه وتشير إليه. إنّ المثل الصينيّ لا يرحم الذي لا ينظر إلاّ إلى الإشارة، فيقول: «أحمق هو الإنسان الذي يكتفي بالنظر إلى طرف إصبع من يدلّه إلى القمر».

فإلامَ تشير معجزة يسوع في قانا؟ لا ريب أنّها عمل محبّةٍ مدهشٌ، أجراه في الخفية، كي يجنّب الفضيحة أسرةً مفتقرةً إلى الفطنة. ولكنّ الجوهريّ لا يكمن هنا، وهو أبعد من طرف الإصبع، وهو ليس مجرّد عملٍ مفيدٍ يلبّي حاجةً، ويسدّ نقصًا، بل إنّه عملٌ يمجّد المجّانيّة، ويرشد إلى «الخمرة الجيّدة»، التي يجيد يسوع توفيرها، غير خمرة عرس القانيّين، وغير خمرة احتفالٍ ينتهي بالنشوة، والاسترخاء، والنعَس، بل خمرة عيد حبٍّ أبديٍّ؛ خمرة اللّه، خمرة العطش الذي لا يرتوي إلاّ في اللّه.

الخمرة رمزٌ إلى الفهم الذي يوفّره كلام يسوع، ويسوع هو الذي يقدّم هذه الخمرة، وفيرةً، نهائيّةً، عربون معاهدةٍ أبديّة الجدّة. والخمرة، أيضًا، رمز الحبّ والفرح، ورمزٌ لدم يسوع في الإفخارستيّا. والتحويل يمثّل العرس المسيحيّ حيث يقترن اللّه بالبشريّة، وستكون مهمّة الرسل، كما كانت مهمّة خَدَم العرس، توزيع الخمرة الجديدة، حياةً للبشر.

يسوع وأبناء قريته

(لوقا ٤: ١٦ – ٣٠)
(مرقس ٦: ١–٦)

من يعود إلى بلده، يعود به أَبناء بلده إلى ماضيه ويلبسونه «قنباز» جدّه، و«شروال» أبيه، أيًّا كان التغيير الذي طرأ عليه. لا ريب أنّ جذوره ما برحت هناك، ولكنّهم لا يلحظون الأفنان الجديدة التي نبتت وازدهرت.

الناصريّون أبوا الإبحار في أحلام نجّار قريتهم المتشرّد: فهم يعرفون ذويه البسطاء، ويعلمون أنّه ليس من أسرةٍ كهنوتيّةٍ، ولا هو من علماء الشريعة، ومع ذلك، ويا لجرأته! يدّعي النبوّة، ويدعو إلى قلب الأوضاع. وأنّى لِمَن صُنِّف تصنيفًا نهائيًّا، ولم يعد أحدٌ يتوقّع منه شيئًا، أن يحدث أيّ تجديدٍ؟

النبيّ يزعج، ويزعزع، ويغيّر، لأنّه يفضح ما يودّ الجميع طيّه وإخفاءه: الفوضى المتفشّية، وأصنام المال والسلطة، والمظاهر الجوفاء؛ ولأنّه يتوسّم المستقبل ومفاجآته، ويهزأ بالواقعيّين الجامدين؛ لأنّه كائنٌ من نارٍ ينير، ويكوي، ويحرق، ويتكلّم باسم من هو أعظم منه. هكذا هو شأن الأنبياء الذين يُرفَضون، منذ الوهلة الأولى، لأنّهم يُعَدّون خطرين على الوضع القائم. وما أكثر المنتفعين من هذا الوضع، المستكينين إلى جموده، الذين يتوجّسون خشيةً من كلّ من يتصدّى لـه بمحاولة تغييرٍ، ويُشرع ثغرةً في الآفاق المسدودة!

كانت العيون شاخصةً إلى يسوع، والجميع دَهِشون، بعد أن تلا نبوءة أشعيا، ومضى في تفسيرها. ولكنّ الغيرة دفعت بعضهم إلى التساؤل: أليس هذا هو ابن يوسف النجّار، الذي لم يغشَ مدارس العلماء؟ لقد توخّوا حصره في قريته، في أسرته، في الماضي الجامد الميت، رافضين الانفتاح على ما يزخر به شخصه من جدّةٍ، يتّسم بها تعليمه، والمستقبل الذي يدعو إليه. ولكم ينزع الناس إلى سجن الآخرين في سمعة أُسَرهم، في ماضيهم، في نشاطِهم المهنيّ، ولا يحدّقون إلى

أعماق قلوبهم السرّيّة، حيث يستطيع المرء أن يولد من جديدٍ، ويَخلُق، ويُبدع، ويُدهش!

منذ اللحظات الأولى، تعمّد يسوع التصدّي للمسلّمات العنيدة المميتة، فلمّح إلى سموّه فوق قيود الأسرة الضيّقة، وحدود القرية، والمجمع، فهذه كلّها عاجزةٌ عن احتواء «ابن البشر». وتوغّل إلى أبعد من ذلك، فأكّد تحرّره من قيود العصبيّة اليهوديّة، فهو، من الناصرة يتطلّع إلى العالم أجمع، وخصوصًا إلى الوثنيّين الذين سيلدهم على الإيمان بأبيه.

وتعمّد يسوع التصدّي وتحدّي أبناء قريته، ومن خلالهم جميع اليهود، بإيراد أمثال الأنبياء الذين آثروا غرباء، وثنيّين، منفتحي النفوس، على يهودٍ قساة القلوب، مغلقي الأذهان... ولكأنّ الإنجيليّ لوقا قد ابتغى إبلاغ الوثنيّين أنّهم كانوا في خاطر يسوع وقلبه، منذ مطلع رسالته، وأنّ نبيّ الناصرة كان، منذ البدء، يرنو إلى البشريّة جمعاء، بعينَيْ عطفه وحبّه.

وهذا يعني أنّ ما من قريةٍ، أو مجمعٍ، أو كنيسةٍ، تحتكر يسوع، ويحقّ لها سجنه داخل جدرانها، بل عليها، جميعًا، أن تحطّم أسوارها، وتشرعها على حيث يروم يسوع تحقيق معجزة البشريّة المتجدّدة.

إنّ يسوع أرحب من كلّ كنيسةٍ وسلطةٍ. ولكم طردته الكنيسة، والمطلوب منها أن تمثّله. وكم شوّهته، عبر التاريخ، وكم هي ما زالت تتذرّع بتقيّةٍ وحذرٍ ليسا من شِيَم نبيّ الناصرة.

فلنتساءل هل يسوع هو، حقًّا، نبيّ حياتنا، ونبيّ كنيستنا، التي، خلال تاريخها المشوب بالعثرات، طالما نفَتْهُ، ونأت عن تطويباته، وعن روح عظة الجبل، وما برحت تفتقر، أحيانًا، إلى الجرأة والانفتاح، اللّذين يميّزان الأنبياء.

فالأنبياء ليسوا سدنة الهيكل، ولا هم خدّام البلاط، بل هم رجالٌ أحرارٌ منغرسون في الله، وفي أعماق البشريّة الرحبة. إنّهم رعاة الترحال البشريّ، يحيون في رحاب الفلوات، ويتنسّمون نفحات الروح. هؤلاء القوم الملتهبون، المفطورون من نارٍ، يتوغّلون في أغوار زمانهم، ويعرّون المستقبل، ويمزّقون الآفاق، ويشدّون القلوب نحو فجر الله المشرق، ويزعجون، بوضوح رؤيتهم الذي لا يقوى على احتماله أولئك

الذين يعيشون على سطح الوجود، في الأحلام والأوهام، والمؤسّسات التي لا تني تغور وتغور.

الأنبياء هم مولّدو بشريّة المستقبل، ويؤكّد الإنجيليّ لوقا أنّ يسوع كان ينبض بالنبوءة، ويُزعج، ويغيّر كلّ شيءٍ، في حياته وفي موته. فلعلّه يهزّ حياتنا وكنائسنا، ويدفعها صوب فجر الله المتألّق.

تساءل مواطنوه من أين لـه كلّ تلك الحكمة، والسلطة، والقدرة. فقد كان يتكلّم من موقع نبيٍّ حقٍّ، يلتزم بكلّ كلمةٍ يقولها، ويتحمّل كلّ تبعاتها. وكان حريًّا بالمتسائلين أن ينصتوا إلى أغوار ضمائرهم، حيث كان بوسعهم سماع صوته الصادق، مثلما كان، هو، يختلي في صمته الداخليّ كي يناجي أباه، ويصغي إليه. أوَ لم يصرّح لأصدقائه: «**إنّ الكلام الذي أقوله لكم، لا أقوله من عندي، بل هو الآب، المقيم فيّ، يعمل أعماله**» (يوحنّا ١٤: ١٠).

* *

إنّه لمن اليسير تكرار عباراتٍ جميلةٍ، طيلة قرونٍ، مع الإحجام عن ترجمتها إلى أفعالٍ، إلى أن تهترئ، وينسى كلّ من يتلفّظ بها زخمها الأوّل..

ويسوع، هو أَيضًا، يسترجع عباراتٍ حارقةً من الماضي: البشرى للفقراء، وإعتاق الأسرى والعبيد، وإعلان سنة نعمةٍ يُعفى فيها المدينون من ديونهم، وتبصر عيون العميان – وكم للعمى من أشكالٍ ومظاهر!–. هذه الأقوال عينها تردّدت أصداؤها مئات المرّات في مجمع الناصرة وفي مجامع كثيرةٍ، وبقيت مجرّد صدًى. ولكنّ الجديد الذي حدَث، يومها، هو ما تلا القراءة، حين طوى يسوع السِّفْر، وأعاده إلى خادم الهيكل، وجلس، فيما كانت الأبصار شاخصةً إليه، وشرع يقول: «كلّ ذلك سيتحقّق اليوم». لقد ولّى زمن الانتظار، والتواني، والتعلّل بالأحلام؛ فيمكن طيّ الكتاب، وإيصاد باب خزانته، وليشمّر كلّ امرئٍ، عن ساعديه، ولينشط للعمل!

وعلت صيحة استنكار، وراودت خاطر بعض المستمعين فكرة قتل ذاك العازم على تحويل الأقوال الجميلة إلى أفعالٍ جادّةٍ، شاقّةٍ.

لقد خشي الناصريّون أن يزعزع يسوع أركان نظامهم النخِر، فضلاً عن أنّه خيّب

رجاءهم، فهم كانوا يتوقّعون مسيحًا قهّارًا، يحرّر البلاد، ويعيد الأمجاد والازدهار إلى إسرائيل، وإذا بمواطنهم يتحدّث عن تبشير الفقراء، وإطلاق سراح المأسورين، وإلى التحرّر من كلّ ضروب الخطيئة، بالروح والحبّ.

لقد طردوه، بل حاولوا إلقاءه من شاهقٍ وإهلاكه، لأنّه ابتغى فضح ريائهم، وخلخلة عاداتهم، وأساليب تفكيرهم، وتقاليدهم، ومؤسّساتهم المقدّسة، كلّ ذلك باسم الملكوت الآتي، الذي بات ماثلاً.

وفي كلّ حقبةٍ، وفي كلّ مكانٍ، وُجد نظراء لأبناء الناصرة، وما برحوا موجودين. أوَ لسنا، نحن أيضًا، منهم؟

ومنذئذٍ ما فتئ البشر يجهدون في تقييد عمل الله، ومراقبته، وفي رسم الحدود لـه. ولكنّ يسوع لا يني يفاجئهم، وتفجيراته مستمرَّة. رفاقه ومشجّعوه معروفون، ولكنّه، هو، جديدٌ جدّةً مذهلةً: إنّه وجه الله البشريّ، ووجه الإنسانيّة الإلهيّ.

وما علينا إلاّ أن نرسّخ رجاءنا فيه.

* *

لقد تحنّن يسوع على نفرٍ من مرضى الناصرة فشفاهم، ولكنّه امتنع عن إجراء معجزاتٍ كبرى، أمام أبناء قريته المشكّكين فيه، لأنّ المعجزات تقتضي إيمانًا مطلقًا. ويسوع يأبى إجراء معجزاتٍ تُكرِه على الإيمان قسرًا.

وجديرٌ بالملاحظة أنّ الناصريّين الذين رفضوا يسوع كانوا يؤمنون بالله إيمانًا صلبًا، وإلاّ لما غشوا المجمع. ولكنّ يسوع لا يكتفي بإيمانٍ موروثٍ، ويقتضي الإيمان به، هو، نجّار القرية، ابن الله، مؤسّس العهد الجديد. ولقد تعذّر على مواطنيه الذين عرفوا، عن كثبٍ، ماضيه وذوي قرباه، أن يولوه من الإيمان مثل ما يولون الله؛ ولا سيّما أنّه توخّى قلب كلّ المعايير، وأعلن، بلا وجلٍ: «**من فقد حياته من أجلي ومن أجل الإنجيل، يخلّصها...**»، ودعا إلى بذل الذات، وحبّ الأعداء، وحمل الصليب.

فهل نحن، مدّعي الإيمان، ننهج درب الإيمان الذي يقتضيه يسوع؟

ومن اللافت، أيضًا، أنّ يسوع لم يكمل نبوءة أَشعيا، واقتصر منها على بشرى

الفرح، وأغفل ما يتعلّق بانتقام الله، ذلك الانتقام العزيز على قلوب أبناء شعبه، والذي يمقته هو. وتتجلّى حرّيّة يسوع في اختياره، من النصوص القديمة، ما يتلاءم مع تعاليم السلام، والصفح، والمصالحة، ونبذه كلّ ما يدعو إلى البغض، والحقد، والانتقام، والعنف. حتّى إنّه لم يتحدّث عن الغضب الآتي، على غرار يوحنّا والأنبياء، بل زفّ بشرى الفرح: الحياة ستشرق، والديون سيُسامح بها، والعبيد سيُعتَقون. لِمَ؟ لأنّ الله قادمٌ. متى؟ اليوم!

الحالة السائدة، حينئذٍ، في فلسطين، كانت حالة ترقّبٍ، ونفاد صبرٍ، وتوقّع تغييرٍ وانفراجٍ، وحنينٍ إلى مثل أيّام داود، وتعطّشٍ إلى «يوم انتقام الربّ». اليهود الغيورون كانوا يستعجلون مجيء الملكوت بالعنف، والقتال، والأسّينيّون يستعجلونه بالزهد والتقشّف، والفرّيسيّون بالإمعان في التقيّد المتشدّد بالشريعة، في حين ارتضى الصدّوقيّون بالوضع الراهن، الذي كان يوفّر لهم مغانم جمّة.

الذين شاهدوا قدرات يسوعَ الخارقة توسّموا فيه منقذ إسرائيل من الاحتلال والمهانة، وحاولوا تنصيبه ملكًا، ولكنّه خيّب آمال الشعب، وأثار توجّسات المسؤولين الدينيّين والسياسيّين، ممّا أفضى به إلى الصليب. كيف لا؟ وهو الذي ما انفكّ يردّد، قولاً وفعلاً، نبوءة عاموص (٥: ٢١–٢٤):

لقد أَبغضتُ أعيادَكم ونبذتُها

ولم تطِبْ لي احتفالاتكم...

وتقادمكم، لستُ أرتضي بها؛

ولا أتطلّع إلى الذبائح السلاميّة، من مسمّناتكم.

أَبعدْ عنّي جَلَبة أناشيدك،

فلا أَسمع عزف عيدانك،

بل ليجرِ الحقّ كالمياه،

والبرّ كنهرٍ لا ينقطع».

* *

نغمةُ فرحٍ تخفق في رسالة يسوع، وتختلج في الأناجيل التي روتها. وكان يسوع قد أوجز هذه الرسالة عندما أعلن في مجمع الناصرة:

«**روح الله عليَّ، لأنّه مسحني لأبشّر الفقراء،**

«**وأرسلني لأُنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر،**

«**ولأطلق المرهَقين أحرارًا، وأنادي بسنة قبولٍ عند الربّ**».

ولكنّ مواطنيه آثروا الثأر والانتقام على البشرى، وكان حَنَقهم عليه إنباءً بجلجلته.

«**ما من نبيٍّ يلقى قبولاً في وطنه**». ما أصدق هذا القول في الأنبياء الذين يقتفون أثر يسوع، ويعلنون مستقبل الله وملكوته، وتحدوهم الرغبة في حلوله، في الحال!

ولكن ما أكثر الذين يُرحَّب بهم من تجّار المستقبل والمنجّمين، الذين، لقاء مبالغ مجزيةٍ، يتنبّأون بما سيكون عليه الغد من سعادةٍ أو تعاسةٍ، من نجاحٍ أو إخفاقٍ في الامتحانات، أو في التجارة، أو في الحبّ! أولئك هم باعة الأوهام، والضلال، والعبوديّة؛ وبأيّة حرارةٍ يُستقبَلون!

* *

هذا المقطع من إنجيل لوقا هو تمهيدٌ لكلّ ما سيلي، واختزالٌ لكلّ رسالة يسوع.

السـامريّة

(يوحنّا ٤: ٥ – ٤٢)

رواية الإنجيليّ يوحنّا لهذه الحادثة تحفةٌ أدبيّةٌ مدهشةٌ، تتميّز بفنّ الحبكة، وتبرز قراءة يسوعِ لما في قرارات النفوس، وتبرع في استخدام الرموز العميقة البعد، وتنطوي على لاهوتٍ قريب المنال يلقي الضوء على أسرار يسوع، وشخصيّته الفريدة.

إنّها الظهيرة، والشمس في سَمْتها، ويسوع منهكٌ من السير تحت هجيرٍ حارقٍ، يعضّ معدتَه الجوعُ والعطش. وقد جلس ليرتاح في الفيء، مسندًا ظهره إلى حافّة البئر، فيما انطلق التلاميذ إلى القرية لابتياع طعام.

الماء أَمامه، ولكن ليس لديه ما يستقي به. وإذا بامرأةٍ سامريّةٍ أتت، وجرّتها على رأسها لتمتاح ماءً. أتت في ساعةٍ غير معهودةٍ، إذ إنّ القوم يتجنّبون المجيء في الهجيرة، ويؤثرون، لهذه المهمّة، طراوة الصباح أو الأَصيل. وقد تعمّدت المرأة تلك الساعة، حين يكون جوار البئر خاليًا، لكيلا تلتقي أحدًا، فتتّقي سهام الألسنة المسمومة، والنظرات الدائنة، التي تنفذ إلى الصميم.

فوجئت بوجود رجلٍ غريبٍ عند البئر، وكان قدرها السعيد أنّه ليس ممّن يتلذّذون بمضغ سمعة الناس، بل كان سعيدًا بشفاء نفسها، بعيدًا عن كلّ إدانةٍ، وبمنحها الغفران.

إنّها امرأةٌ وسامريّةٌ: سببان كافيان كي يشيح بوجهه عنها، بازدراءٍ، وهو الرجل اليهوديّ. إلاّ أنّه لم يكتفِ بالتحدّث إليها، بل وضع نفسه في موضع السائل، والتمس منها جرعة ماءٍ: «اسقيني». ودهشت السامريّة: «**كيف! أنت اليهوديّ، تطلب منّي أن تشرب، وأنا امرأةٌ سامريّةٌ!**».

لم تكن تعلم، بعدُ، أنّ يسوع هو محطّم الحواجز. فقد حطّم، أوّلاً، جدار حظر التخاطب بين رجلٍ وامرأةٍ علنًا؛ ثمّ حطّم جدارًا أشدّ صفاقةً، جدار البغض والازدراء

المتبادلَيْن بين اليهود والسامريّين، فكلٌّ من الفئتين يدّعي احتكار الحقيقة الدينيّة: إذ يرى السامريّون أنّ مكان العبادة الحقّ هو جبل جرّزيم، فيما يؤمن اليهود، بعنادٍ، أنّ المكان الوحيد الذي تصلح فيه العبادة هو هيكل أورشليم. وسما يسوع فوق كلّ تفرقةٍ، وأبى حصر العبادة في أيّ مكانٍ، معلنًا «**أنّ العابدين الحقيقيّين هم الذين يعبدون الآب بالروح والحقّ؛ ومثل هؤلاء يريد الله عابديه**».

لطالما نظر اليهود إلى السامريّين نظرتهم إلى هراطقةٍ، وعبدة أَوثانٍ، وقطعوا كلّ اتّصالٍ بهم، ولكنّ يسوع أزرى بالتصنيفات المخزية، والشعارات الخرقاء، التي تكرّس التمييز الاعتباطيّ بين صالحين وأشرارٍ.

واستهلّ يسوع حواره مع المرأة بقوله:

– لو كنتِ تعرفين عطيّة الله، ومن ذا الذي يقول لك اسقيني، لكنت أنت تسألينه، فيعطيكِ ماءً حيًّا.

– ولكن، يا سيّدي ليس معك دلوٌ والبئر عميقةٌ؛ فمن أين لك هذا الماء الحيّ؟ أفتكون أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا هذه البئر، ومنها شرب هو وبنوه وماشيته؟

– إنّ من يشرب من ماء هذه البئر يعود فيعطش. وأمّا الذي يشرب من الماء الذي أعطيه إيّاه أنا، فلن يعطش أبدًا. بل الماء الذي أعطيه إيّاه يصير ينبوع ماءٍ يتفجّر حياةً أبديّةً.

– أعطني هذا الماء، يا سيّدي، لكي لا أعطش، ولا أجيء، أستقي من هنا.

كلٌّ من يسوع والسامريّة يتكلّم عن ماءٍ مختلفٍ.

فيسوع ليس عطِشًا إلى جرعة ماءٍ باردٍ، بل تستعر لديه الرغبة في تفجير الينابيع من قلوب البشر. إنّ الماء، مع ضآلة شأنه، وبساطته، وتفاهته، قد يصبح هو الأغلى، ويمثّل رمزًا ساميًا في مختلف الحضارات والأديان. «فالماء الحيّ»، صورة لله، مانح الحياة، ورموز الماء تملأ إنجيل يوحنّا، بدءًا بتحويله إلى خمرٍ في عرس قانا، مرورًا بالماء الشافي في بركة بيت حسدا، وبالماء الذي فتح عيني أَعمى في بركة سلوان، إلى الماء الضروريّ للولادة الجديدة «بالماء والروح»، وانتهاءً بالماء الذي يتدفّق خلاصًا للبشر، من جنب يسوع المطعون بحربةٍ.

الجرّة ملقاةٌ على الأرض، ونور الظهيرة الساطع يطرد كلّ ظلٍّ، والشفافيّة تامّةٌ، ولم تكن سيرة تلك المرأة السامريّة المثقلة بالخطايا، خافيةً على نظرة يسوع الإلهيّة. وفي سبيل شفائها بادر إلى فقوء دمّلها، فقال لها:

– **اذهبي وادعي زوجك، وهلمّي إلى هنا.**

– **ليس لي زوجٌ!**

– **لقد أصبتِ، إذ قلت ليس لي زوجٌ، فإنّك اتّخذت خمسة أزواجٍ، والرجل الذي معك الآن ليس بزوجك. لقد صدقت في هذا.**

لم تكن تلك المرأة سوى حطام دميةٍ عبث بها نصف دزّينة من الرجال. ولكن من هو، حقًّا، هذا اليهوديّ الذي اكتشف جرحها الدفين، ذاك الذي يسبر، برقّةٍ، قلب امرأةٍ، من غير أن يوجع تلك التي لم تفلح مساخر الحبّ في نقع ظمئها إلى السعادة؟ من هو هذا الصديق المجهول الذي يمدّ للعون يده، ويبتغي أن يرسّخ في خَلَدها أنّ حياتها، رغم كلّ تجاربها الموجعة، لم تكن فشلاً نهائيًّا؟

لم يحصر يسوع نظره في خطايا السامريّة التي أدانها، بل رنا إلى نفسها وأحبّها ورأى أنّها ما برحت مؤهّلةً لاستيعاب الله. نحن البشر نخطئ عندما نحكم على الناس من خلال تصرّفٍ خاطئٍ أتوه، ونُعرض عن كنوز الخير الكامنة فيهم، فنكون كمن يصف المحيط بالزبد، لأنّه لا يرى منه سوى الزبد الذي يغشى سطحه.

ولكنّ يسوع هو، دائمًا، في انتظارنا حيث نأتي لالتماس مقوّمات الحياة، مستجيبًا لتنهّداتنا، راويًا عطشنا. إنّه يأتينا حيث نكون، بل يسبقنا وينتظرنا، وغالبًا ما يكون متعبًا من مرورنا بإزائه، من غير أن نلقي عليه نظرةً. إنّه يودّ إنقاذنا، ولكنّه لا يقوى على ذلك، ما لم نعترف بعجزنا وخطيئتنا.

إنّ جرح الخاطئ قد يتحوّل إلى نبعٍ، فقلبه أرحب من أن يكتفي بمُتَعٍ جزئيّةٍ عابرةٍ. إنّ كلّ ما ينتهي ضئيلٌ، ووحدها عبادة الله الحقّة تملأ هذا القلب، وتروي عطشه المتجدّد باستمرارٍ. وقد أرشد يسوع تلك السامريّة إلى العبادة الصحيحة، بالروح والحقّ، وإلى الهيكل الوحيد، ذاته، أينما وُجد. لقد أزرى بكلّ سجالٍ دينيٍّ متبادلٍ، منذ قرونٍ، بين اليهود والسامريّين، وطوى كلّ ذلك ببضع كلماتٍ تحرق وتنير: «**إنّ الله روحٌ، وعلى الذين يعبدونه، أن يعبدوه بالروح والحقّ**». وربّما

لم تدرك السامريّة هذه الحقيقة، للوهلة الأولى، أو كانت الشكوك ما برحت تساورها فقالت: «**إنّي أعلم أنّ هامشيحا – ذاك الذي يقال له المسيح – سيأتي، فمتى أتى أخبرنا بكلّ شيءٍ**». **فقال لها يسوع**: «**أنا هو، أنا الذي يكلّمك**».

لقد كتب إرنست رينان، في هذا السياق: «يوم أعلن يسوع أنّ العابدين الحقيقيّين يعبدون الآب بالروح والحقّ، كان حقًّا ابن الله... فللمرَّة الأولى تفوّه بالكلمة التي سيقوم عليها صرح الدين الخالد، وأسّس العبادة الصافية التي لا تاريخ لها ولا وطن، العبادة التي ستمارسها كلّ النفوس الصافية، حتّى آخر الأزمنة. لم يكن دينه، يومذاك، دين البشريّة الأمثل، فحسب، بل كان الدين المطلق. ولئن أهِلَت كواكب أُخرى بسكّانٍ ينعمون بالعقل والأخلاق، فلا يمكن أن يكون دينهم مختلفًا عن ذاك الذي أعلنه يسوع، عند بئر يعقوب... كلمة يسوع تلك كانت برقًا مزّق ظلمة ليلٍ دامسٍ. وكان لا بدّ من انقضاء قرونٍ كي يألف نفرٌ من البشر نوره. بيد أنّ هذا البرق سيصبح نهارًا مشرقًا. وبعد أن تجتاز البشريّةُ كلّ دوائر الضلال، ستعود إلى تلك الكلمة، لتجد فيها التعبير الخالد عن إيمانها ورجائها».

أليس مستغربًا أنّ يسوع الذي طالما أمسك عن التصريح بهويّته، في أحاديثه مع تلاميذه، وفي نقاشاته مع علماء الشريعة، واكتفى دائمًا بالتلميح إليها، قد أعلنها صراحةً، وللمرَّة الأولى، أمام تلك المرأة السامريّة، السيّئة السمعة؟!

لقد أنقذ يسوع قلب تلك المرأة الذي «استُهلك»، حتّئذٍ، عبثًا، وفجّر فيه نبعًا، فزهدت بالبئر والماء والجرَّة، وركضت كي تُشرك الآخرين بفيض ما انهمر عليها. لم تقوَ على إمساك «البشرى» عن قريتها. وحتّى ماضيها المثقل بالخزي لم تتوانَ عن الإشارة إليه، تصديقًا للحقيقة المتجسّدة التي قرأت هذا الماضي منذ النظرة الأولى، فأعلنت: «**لقد قال لي كلّ ما فعلته**».

ويسوع أيضًا نسيَ عطشه، وقال لتلاميذه: «**إنّما طعامي أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني، وأن أتمّم عمله**». وعندما سيعلن، وهو على الصليب: «**لقد تمّ**» سيعني أنّه التهم كلّ هذا الطعام الإلهيّ، وحقّق مهمّته.

إنّ العمل بمشيئة الله يغذّي نفوسنا ويقوّيها، أمّا الإعراض عنه، فهو بمثابة إضرابٍ عن الطعام لا يقوى عليه جهازنا الروحيّ طويلاً، وإلاّ تعرّض للهلاك.

لقد تميّز حوار يسوع والسامريّة بالشفافيّة والوضوح اللّذين أفضيا إلى اكتشاف الحقيقة، وقادا إلى طرح الأسئلة الصحيحة.

وقد انحدر بنا يوحنّا إلى أعماق بئر سرّ يسوع، درجةً درجةً، فهو، أوّلاً، «الغريب» المنهك نصَبًا وسَغَبًا، ثمّ اليهوديّ الذي يفوق يعقوب مؤسّس إسرائيل، فالنبيّ الذي يقرأ في خفايا القلوب، ويتبيّن الهموم الدفينة، فالمسيح الذي يفجّر ينابيع ماء الحياة الأبديّة الحيّ، والذي يدلّ البشريّة إلى عطشها الحقّ: أي عبادة الآب بالروح والحقّ.

وطالما لم يكتشف العالم نبع يسوع الذي يتغذّى بتحقيق مشيئة الآب، سيظلّ ينفق جوعًا وعطشًا.

نتساءل: هل خطر لأحدٍ من الذين تدافعوا لرؤية النبيّ وسماعه أن يقدّم له جرعة ماءٍ؟

المَلَكوتُ البَعيدُ القَريبُ

(متّى ٤ : ١٧)

منذ مستهلّ رسالته انطلق يسوع ينادي: «**توبوا: فإنّ ملكوت السماوات قد اقترب**».

كيف يجرؤ على هذا الإعلان، والمعمدان قد زُجّ به للتوّ، في السجن، والبلاد بأَسرها تئنّ تحت نير الحكم الرومانيّ؟ ألم يكن الأَوْلى به أن يقول إنّ ملكوت السماوات قد تناءى؟

فلنتصوّر، اليوم، البلدان التي انقلبت ساحات وغًى، حيث تمارَس «التصفيات العرقيّة»، وتُرتكب باطّراد جرائم الاغتصاب والمجازر... وبلدانًا أُخرى حيث الشبّان قانطون، وصفوف العاطلين عن العمل تتضخّم كلّ يومٍ، ولنتخيّل مجتمعاتنا المحطّمة، المتهاوية، فهل سنجرؤ على الإعلان أنّ ملكوت الله قريبٌ؟

ولكن فلنقرأ نصّ الإنجيل بعنايةٍ، فنجد أنّ يسوع أسبق قوله: «**إنّ ملكوت السماوات قد اقترب**» بعبارة: «**توبوا**»، أي تحوّلوا فكريًّا، احيوا انقلابًا داخليًّا، تجدّدوا وجدّدوا. وعندما يعيد رجالٌ ونساءٌ النظر في أولويّاتهم، ويحبّون، ويبذلون حياتهم، على غرار يسوع، سيشرع الملكوت بالانبثاق، خفيًّا، وهشًّا، مثل حبّةٍ تثقب الأرض برأسها الضئيل، مبشّرةً بحصادٍ وفيرٍ.

يسوع قال: «**لقد جئت لأُضرم على الأرض نارًا**»، نار الروح، ونار التجديد. لقد خرج الله من صمته المتمادي، وأَخذ مبادرة خلقٍ جديدٍ. ولن يلبث يسوع أن يُثبت أنّ الملكوت حاضرٌ، وأنّ الفقراء، والمرضى، والمسجونين، والمقهورين هم من تتوجّه إليهم بُشراه، ومن تتحوّل بها حياتهم. فأحد أبرز عناصر رسالته هو حدبه على الصغار، وأصحاب العلل، ومن يدعوهم اليهود «خطأة» وينبذونهم. فيسوع لم يأتِ ليدعو الأبرار بل الخطأة، لأنّ «**ليس الأصحّاء هم الذين يحتاجون**

إلى طبيبٍ، بل السقماء»، ولأنّ الرحمة خيرٌ من الذبيحة، ونجدة المحتاج خيرٌ من صلاةٍ مُسهَبةٍ.

لقد تجرّأ يسوع فدعا شعبًا مقهورًا إلى بلاد المستحيل، بإعلانه: «إنّ ملكوت الله قريبٌ». والذين انتشوا بخمرة رجائه، فجهدوا في إرساء أركان الملكوت على المحبّة، والعطف، والعدل، والحرّيّة، قد يُعَدّون متمرّدين أو حالمين، ولكنّهم مثابرون على الإصغاء إلى همسات الرجاء العنيد، لكي يغيّروا العالم القريب، من حولهم، وربّما العالم الشاسع البعيد. فيسوع الشاعر الحالم، المتسلّح بالمحبّة قد تمكّن من زعزعة عالَمٍ بكامله، ودعا إلى تحوّلاتٍ منقطعة النظير.

وما انفكّ يسوع، بعد عشرين قرنًا، مصرًّا على تذكيرنا، كلّ يومٍ: «حذارِ، اليوم هو الموعد مع الله، مع الملكوت».

مَن هُمُ الأَسماك؟

(لوقا ٥: ١-١١)

«وذات يومٍ، فيما كان الجمعُ يزدَحِمون عليه لسماع كلمة اللّه وكان هو واقفًا عند بحيرة جِنّسار أبصر سفينتين راسيتَين عند الشاطئ وقد انحدر منهما الصيّادون يغسلون شباكَهم. فركِب إحدى السفينتين، وكانت لسمعان، وسأله أن يبتعد بها قليلاً عن البرّ. ثمّ جلس يُعَلّمُ الجموع من السفينة.**

فلمّا فرغَ من الكلام قال لسمعان: «تقدَّم نحو العُرْض وألقُوا شباككم للصيد». فأجاب سمعانُ وقال لـه: «لقد تعِبنا الليل كلَّه يا مُعلّم، ولم نُصِبْ شيئًا. ولكن بأمرك أُلقي الشباك». فلمّا فعلوا احتازوا من السمك شيئًا كثيرًا جدًّا حتّى أخذتْ شباكُهم تتخرَّق، فأشاروا إلى شُركائهم في السفينة الأخرى أن يأتُوا فيُساعدوهم. فأتوا وملأوا السفينتين حتّى أخذتا تغرقان. فلمّا رأى سمعانُ بطرسُ ذلك، وقع على رُكبتَي يسوع قائلاً: «تباعَد عنّي، يا سيّدي، فإنّي رجلٌ خاطئٌ»، ذلك بأنّ الذُّهول قد اعتراه هو وجميعُ الذين معه لكثرة السمك الذي أصابوه. كذلك يعقوب ويوحنّا ابنا زبدي اللّذان كانا شريكَيْ سمعان. فقال يسوعُ لسمعان: «لا تخَف! فإنّك بعدَ اليوم تكونُ صيّادًا للبشر». ولّما بلغُوا بالسفينتين إلى البرّ تركوا كلّ شيءٍ وتَبعوه» (لوقا ٥: ١- ١١).

كان يسوع يقطن قريةً لا تُشاهد منها البحيرة، ومع ذلك قال لصيّادٍ محترفٍ متمرّسٍ: «**تقدّم نحو العُرْض، وألقوا الشباك للصيّد**».

كان بوسع بطرس أن يجيبه: «هذه مهنتي، وأنا لا أرى جدوى في ما تشير عليّ به». وقد قال ذلك بأسلوبٍ أكثر كياسةً، غير أنّه أضاف: «**ولكنّني بأمرك أُلقي الشباك**».

عجبٌ! من أين توافدت أسراب الأسماك بغتةً؟ أهي، أيضًا، أقبلت لترى يسوع

وتسمعه، مثلما ستتدفّق الجموع من كلّ صوبٍ لسماع شهوده، وهم يتحدّثون عنه، بعد أن اجتازت كلمته الخصبة شواطئ المتوسّط، مبحرةً صوب روما والعالم؟

ذلك الصيد العجيب فتح عينَي بطرس على «دعوته»، فاستشفّ مستقبله الرحب: سيهجر مركب صيده الصغير، وسيُبحر صوب جميع آفاق العالم، في رحلةٍ لا عودة منها. هو ورفاقه الذين أَلِفوا أنواء البحيرة، سيَخْبُرون عواصف أعتى، بلا قياسٍ. وحينئذٍ عليهم التحصّن بالرجاء والثقة، حتّى في الصباحات الشاحبة، حين يتربّص اليأس، على الشاطئ، بمن كدّوا طيلة الليل، ولم يصيبوا شيئًا.

إثر موجة الذهول التي اعترتهم، خرّ قبطان السفينة عند قدَميْ يسوع معترفًا: «**تباعد عنّي، يا سيّدي، فإنّي رجلٌ خاطئٌ**». لقد تبيّن أنّ اللّه اقتحم وجوده، وفي الآن عينه، راز البَوْن الشاسع الذي يفصله، هو الإنسان الخاطئ، عن الربّ الذي يأمر اللجّة. لقد استحوذ عليه وعلى رفاقه خوفٌ مقدّسٌ، لن ينقذهم منه سوى الخضوع للربّ، والجاهزيّة للسير في خطاه.

وهذا ما أكّده يسوع بنصحه الإلهيّ الذي وجّهه إلى جميع رُسُله، في كلّ حقبةٍ: «**لا تخفْ!**» ثمّ أزاح لـه النقاب عن مصيره الجديد، وعن التاريخ الذي سيلعب على مسرحه دور حياته: «**بعد اليوم، تكون صيّادًا للبشر**»، صيّاد أحياءٍ، عليك أن تصوِّب وجهة حياتهم.

هذه الدعوة، كانت من شدّة الأسر، وتغلغلت إلى قناعات بطرس ورفاقه بحيث «**تركوا كلّ شيءٍ وتبعوه**». كلّ شيءٍ، أي ليس فقط مهنة الصيد، وأدواتها وخبرتها، بل كلّ ما عاشوا، حتّئذٍ، في سبيله، وهكذا باتوا جاهزين لاتّباع الربّ.

* *

في الأيّام التي كانت الأمور وكأنّها تراوح مكانها، وكان الرُّسُل يُطرَدون ويُهانون، وتبدو كلّ جهودهم عقيمةً، ما كان أعذب استذكار هذا الحدث، وسماع يسوع يدعو إلى العُرْض، وإلى حملات صيدٍ جريئةٍ!

وحتّى عندما كان النجاح باهرًا، ويكاد الدوار يأخذ بالرؤوس، لدى رؤية الحشود المتدافعة لدخول السفينة، ما كان أرقّ همس يسوع إلى التخلّي عن كلّ شيءٍ، ولا سيّما عن الخوف والعُجْب بالذات!

ليست تلك رواية حدَثٍ غابرٍ، بل هي رواية كلّ يومٍ!

دَعْـوَةُ مَتّى[١]

(متّى ٩: ٩– ١٣)

لا ريب أنّه كان لدعوة متّى شأنٌ كبيرٌ، في نظر يسوع، بحيث داس على المفاهيم الرائجة، وتحدّى الأعراف الراسخة، كي يضمّ إلى جماعة تلاميذه جابيًا يعدّه الجميع، ولا سيّما الفرّيسيّين، نجسًا، منبوذًا، لا تجوز حتّى مصافحته، وجعل منه أحد أعمدة كنيسته.

فيسوع لا يتوانى عن تخطّي أعتى الحواجز، من أجل المضيّ إلى من يحتاجون إليه، ومن يخدمون رسالته، وخاصّةً إن هم كانوا من الصغار والمحتقرين.

ولبّى متّى الدعوة، في الحال، بلا تلكّؤ، ولا تحفّظٍ، مثلما يحبّ يسوع أن تُلبّى دعوته، بجاهزيّةٍ تامّةٍ، وتصميمٍ ثابتٍ، وتأهّبٍ لمواجهة كلّ مخاطرةٍ.

وتعبيرًا عن فرحه بهذه الحظوة الفريدة، أقام متّى ليسوع وصحبه مأدبةً، وكرّمه الربّ بتلبيتها. وسرعان ما ذاع الخبر، فتوافد زملاء متّى السابقون على بيته؛ وهم جباةٌ ممقوتون، مزدَرون، عدّوا شرفًا عظيمًا أن يجلسوا إلى جانب نبيٍّ يجلّه الشعب.

وكان ذلك، في نظر اليهود المتزمّتين، فضيحةً مجلجلةً، فهم قد يُغضون عن تحويل جابٍ إلى مبشّرٍ. أمّا مجالسة يسوع لرهطٍ من الجباة، ومنادمتهم، واقتسام الطعام معهم، فأمرٌ يفوق احتمال الفرّيسيّين «الأطهار». وقد عبّروا عن استنكارهم بقولهم لتلاميذه: «**لماذا يأكل معلّمكم مع العشّارين والخطأة؟**» بلا حرجٍ ولا تحفّظٍ، مرحّبًا بكلّ قادمٍ أيًّا كان. ولكأنّهم يرومون زرع الريبة في قلوب التلاميذ حول مصداقيّة من يسلك هذا السلوك الطائش. فاليهود الأطهار يربأون بأنفسهم أن يجلسوا إلى مائدة من لا يضاهونهم طهرًا، ورفعةً، والتزامًا بالشريعة، وحظوةً باحترام الناس. أوَ ليس هم من قالوا عن يسوع: «**هوذا رجلٌ أكولٌ، شرّيبُ خمرٍ، أليفٌ للعشّارين والخطأة**»؟

يسوع يأتي إلى الجميع، أيًّا كان وضعهم في المجتمع، لا تعيقه انتماءاتهم ولا سمعتهم، ولا تقيّده المشاعر الوطنيّة، والعرقيّة، والخلافات الدينيّة، والحواجز الاجتماعيّة، بما لها من أَسْرٍ بالغٍ على السلوك العامّ، ولكأنّه غدا، فجأةً، بوسع جميع البشر أن يُسفروا عن وجوههم، ويمدّوا الأيدي للتصافح.

وفي الآن عينه، فضح يسوع زيف تقوى الفرّيسيّين وادّعاءهم البرّ والفضيلة. فإن هم كانوا يعدّون أنفسهم الأصحّاء، والآخرين خطأةً سقماء، «**فليس الأصحّاء هم من يحتاجون إلى طبيبٍ، بل المرضى، وإنّي ما جئت لأدعو الصدّيقين بل الخطأة**». مهمّته انتشال البائسين من وِهاد النبذ والازدراء، ومدّ اليد لهم، وشفاء أسقامهم. الخاطئ والسقيم لا ينفّرانه، بل يجتذبانه. إنّه لا يقنط، أبدًا، من ارتداد خاطئٍ، وما من سقمٍ يستعصي عليه شفاؤه.

لم يتعمّد يسوع مجالسة المرضى والمنبوذين بُغيةَ التميّز، وصدم النخبة، بل لأنّه طبيبٌ واجبه الشفاء، ولأنّه لا يتحرّج من لمس القروح الملتهبة، وتحريرها من صديدها. إنّه لا يتواطأ مع الشرّ، بل يقهره، ويُبرئ منه.

بقوله إنّ المرضى هم المحتاجون إلى طبيبٍ، لم يبرّئ العشّارين ممّا قد يرتكبونه من استغلالٍ وسحتٍ، بل يؤكّد أنّ الموقف السليم حيال هؤلاء وأمثالهم، ليس ازدراءَهم، ونبذهم، وإدانتهم، بل المبادرة إلى إصلاحهم، بالحبّ والاحترام.

لا تواطؤ بينه وبين الشرّ، ولا مهادنة له مع الظلم، والقهر، والعنف، والنفاق، والأنانيّة. إنّه يدين الخطيئة، ولكنّه يرأف بالخاطئ.

ثمّة، اليوم، نزعةٌ إلى التغاضي مع أبشع أنماط الشذوذ، وإلى إيجاد المبرّرات لها. وليس هذا هو موقف يسوع، فهو يسمّي الشرّ شرًّا، ويدينه، ولكنّه يرأف بمرتكبه كي يحرّره منه.

بقوله «**ما جئت لأدعو الصدّيقين، بل الخطأة**» – الذي يُسيل العزاء في نفوسنا، نحن الخطأة – لم يشطر البشر إلى فئتين. ففي نظره، كلّ إنسانٍ خاطئٌ. وهو جاء كي ينقذ الجميع، أمّا الذين يعدّون أنفسهم كاملين، لا يحتاجون إلى خلاصه، فهم يُقصون ذواتهم عن نعمة الخلاص.

وإن كان الفرّيسيّون يتباهَون بوفائهم للشريعة، وبالتزامهم الدقيق بفرائضها

وطقوسها، فيسوع يذكّرهم بأنّ ليس هذا ما يرضي اللّه، قائلاً: «**اذهبوا، وتعلّموا ما معنى هذا: «إنّي أريد الرحمة لا الذبيحة»**. والرحمة تعني الإحسان إلى المحتاج، وغوث الملهوف، والحدب على الضعيف، ولكأنّي بيسوع يقول لهم إِنّه هو الذي ينفّذ مشيئة اللّه، فيما هم يتناسونها، ويخرقونها.

كم من يزعمون استرضاء اللّه بتقديم الذبائح لـه، على أن يستوفوا منه أضعافًا، فيجعلون منه جابي ضرائب، محاسبًا، جالسًا وراء كوّة الجباية، وتظلّ قلوبهم بعيدةً عنه، غير متأثّرةٍ بتعاليمه، ولا مستمدّةً منه النور والحياة! وقد غرب عن بالهم أنّ رضى اللّه لا يُشترى بثورٍ، أو بخروفٍ، أو بزوج حمامٍ، أو بمبلغٍ من المال، فاللّه ليس جابيًا، ولا هو قَرِمٌ إلى الدماء، وهو لا يقتضي سوى حبّ القلب، وصفاء السريرة. وعبادته الحقّة هي تراحمٌ ورأفةٌ، وعطفٌ ومحبّةٌ، واهتمامٌ بالضعفاء، وانتشال من هووا إلى الحضيض.

اللّه محبّةٌ، ولابدّ من التعرّض لعدوى حبّه الفيّاض، من أجل خلق مناخٍ قشيبٍ للحياة. لقد افتدتنا الرحمة، وبالرحمة التي نمارسها نتابع عمل اللّه الخلاصيّ.

لم يعُد اللّه مسجونًا في معابد، بل هو يتجلّى، أيضًا، من خلال وجوه البشر. والذبيحة المثلى الجديرة برضاه هي حبٌّ بلا حدودٍ، كفيلٌ بتحويل العالم.

ربّما لم يزعزع يسوع قلوب من سمّاهم، ساخرًا، «صدّيقين»، فعُجْبهم المطلق بذواتهم، لا تخترقه دعوة الحبّ. ولكنّه لوّح للبشريّة المبتلاة بالأنانيّة، والبغض، والحروب، بعالَمٍ منفتحٍ، فرِحٍ، يضيئه حبّ الآب.

قد يبدو هذا العالم متعذّر التحقيق، وذوو يسوع أنفسهم اتّهموه بالجنون.

فهل جنون يسوع حيٌّ فينا؟

يسوع وتلاميذه

مستوى يسوع هو اللامحدود، وحجمه هو اللانهائيّ، ومشاغله مشاغل الله، فمن له أن يلج تلك الآفاق السحيقة؟ لا أحد، لولا أنّ الربّ يجمع، إلى ذلك كلّه، تنازلاً إلهيًّا يضع إلى جانب يسوع غير المحدود، يسوعًا متواضعًا، في مثل قامتنا، يعرف كيف يحدّ من بريق ذاته، ويقف على قدم المساواة من النفوس الأخرى، وقفة صديقٍ إلهيٍّ.

مع تلاميذه أقام قاعدةً للتحابّ والتبادل، والنجوى الحميمة، والحنان الواثق، يوفّر الإنجيل أمثلةً عديدةً عليها. ولا ريب أنّه كان مشرق البسمة في حواره معهم، بسمة عطفٍ، ونبلٍ، قريبةٍ من الروح.

لهجته معهم تتّسم بالوقار العذب المفعم بساطةً وجلالاً، يعلّمهم بطول أناةٍ، وفي أثناء تجواله معهم يثقّفهم، ويعزّيهم، ويحيطهم بعناية أمٍّ. وعندما يتعبون يبارك نومهم، ويمضي إلى مناجاة أبيه. عندما يشتدّ الهجير يتفيّأ معهم شجرةً وارفة الظلال، أو صخرةً مُطلّةً، ويسكب، بصبرٍ، تعليمه ونجاوى حميمةً مستفيضةً، وتكرّ الساعات عذبةً، مثمرةً، ويغشى حبُّه كلّ كيانهم:

«**كما أحبّني الآب، كذلك أنا أُحبّكم**».

جعل منهم أسرته. وعندما قيل له إنّ أمّه و«إخوته» يطلبونه، أشار إلى تلاميذه، وأعلن: «**هؤلاء هم أمّي وإخوتي**».

وبأولئك الاثني عشر مسكينًا استبدل أسباط إسرائيل الاثني عشر.

وكم كان معهم صبورًا! فهم، مثلنا جميعًا، جهلةٌ، قساة العقول، مثقلون بالعيوب. قد يكونون حسني النيّة، ولكن على ضعفٍ وعمًى. وهو لا يكاد يسمو بكلامه حتّى يعجزوا عن اللحاق به، ويُخلدوا إلى طبيعتهم البليدة.

لا يني يعلّمهم التواضع، وهم يتنافسون على المناصب. يعلّمهم المحبّة، ويريدون

إنزال نار السماء على من لا يحسنون وفادتهم. لا يكفّ يردّد على مسامعهم طابع ملكوته الروحيّ، في حين هم لا يختلفون عن مواطنيهم اليهود، وينتظرون منه ملكًا أرضيًّا عنصريًّا. وعندما يشير لهم إلى صليبه الوشيك، يكتئبون وينسحقون، ويحاولون ثنيه عنه.

بصبرٍ لا محدودٍ، كان ينتظر نضوجهم، ويقظة نفوسهم، فيُرجئ إلى الغد القول الذي يرفضون سماعه اليوم. وحيال برودتهم ومقاومتهم يُشعّ نعمته شمسًا تضيء وتدفئ. ينفذ إليهم بالإقناع لا باللوم. يلقي تعليمه، ويدعه يتغلغل بتؤدةٍ، ويترقّب ثغرةً كي يقتحم، من خلالها، نفوسهم. وقد يُفلح، وقد يُخفق، ولكنّه، أبدًا، يحبّ.

كان يعزّيهم، مسبّقًا، عن مواقف الجبن التي سيقفونها منه، في الغد، ويلتمس لهم العذر عمّا سيسيئون به إليه.

ولم يستثنِ من عطفه يهوذا نفسه، وهو يرى خيانته ماثلةً أمام عينيه. بل أولاه ثقةً خاصّةً، وأبدى له كنوز الغفران، وأغدق عليه عطفه وهو يرى قبح نفسه. غسل قدميه كالآخرين. ووصفه بالصديق، وهو يطبع على خدّه قبلة الخيانة، ويسلمه لأعدائه. توخّى أن يعرف يهوذا أنّ له في الغفران حقًّا تفرضه رحمة اللّٰه اللامحدودة. ولئن كان للحنان قمّةٌ شاهقةٌ، فهي هنا ماثلةٌ.

لقد نهل جميع التلاميذ من معين حنانه الذي لا ينضب.

وهو دعاهم إلى مهمّةٍ ساميةٍ، وجعل منهم أصدقاء حميمين. عانى منهم كلّ ألوان الضيق، ولكن لم يتأثّر، بذلك، حبّه لهم. وقد أكمل فيهم عمله المدهش بإرساله إليهم روحه، الذي جعلهم أوثق قربًا منه، وتمثّلاً به. وقد توّج كلّ تلك الهبات بأن وهبهم أن يموتوا شهداء له.

اللَّمْسَةُ المجْنونَة

(مرقس ١: ٤٠- ٤٥)

«وتقدّم إليه أبرصُ، وتضرّع وجثا، وقال لـه: «إن شئتَ فأنت قادرٌ أن تُطهّرني». فأشفق عليه ومدّ يدَه ولَمَسه، وقال له: «لقد شئتُ، فاطهُر». وللوقت ذهب عنه البرصُ وطَهُر. فصرفه يسوع من ساعته وانتهره قائلاً: «انظُر! لا تقُل لأحدٍ شيئًا. بل امضِ أَرِ الكاهن نفسَك، وقرّبْ عن تطهيرك ما أمر به موسى شهادةً لهم». وأمّا هو فما إنْ خرج حتّى جعل يُنادي ويُذيع الخبر بحيث أصبح يسوع لا يستطيع دخولَ مدينةٍ علانيّةً. فكان يقيمُ خارجًا في أماكن مُقفرة. وكانوا يأتون إليه من كلِّ مكانٍ».

نكاد نصرخ: لا، لا تقرب منه! ولا ريب أنّ الأبرص كان في مكانٍ قفرٍ، بين قريتيْن، عندما مرّ يسوع، فاندفع نحوه وكأنّ جاذبًا لا يُقاوَم يدفعه، متحدّيًا نواهي الشريعة التي تحظر على أمثاله الاقتراب من الأصحّاء، تفاديًا لنقل عدواهم إليهم. تدابيرُ صارمةٌ كانت تنفيهم عن المجتمع، وتجعل منهم أحياءً أمواتًا، إذ كان يُعتقد أنّ اللعنة الإلهيّة تلاحقهم، وأنّ خطيئةً ما تلتهمهم.

ولكنّ حبّ يسوع أطاح بكلّ تلك المعتقدات والفرائض، وبكلّ خشيةٍ من عدوى، فهو لا يطيق رؤية إنسانٍ منبوذٍ، محرومٍ من الحبّ. وفعل يسوع ما لا يُعقل إذ «**مدّ يده ولمسه**». لمس الأبرص! وما إن حطّت أصابعه على ذلك اللحم المهترئ، المنفِّر، ولفظت شفتاه الإلهيّتان كلمة الحياة: «**لقد شئتُ فاطهر**» حتّى «**ذهب عنه البرص وطهُر**»، ولكأنّه يولد من جديد.

عبارة «**لقد شئت فاطهر**»، كانت كافيةً لإبراء الأبرص من علّته، ولكنّ يسوع حرص على لمسه، لكي يؤكّد أنّ الطهر والنجاسة يثويان في النفس، لا في الجسد، ولكي يبيّن أنّ جسده هو وعاء الألوهة، وأنّ جسده السرّيّ المقيم في القربان، كفيلٌ بشفائنا من كلّ أصناف البَرَص التي قد تصيب بدمارها نفوسنا.

* *

لم يكن شفاء الأبرص كافيًا كي يندمج مجدّدًا في المجتمع، بل كان عليه الحصول، أوّلاً، على شهادةٍ من الكاهن تثبت بُرءَه، وأهليّته للاختلاط بالأصحّاء، فأوعز إليه يسوع أن يقوم بهذا الإجراء. ولكنّه حذّره من إشاعة ما حدَث له، لكي لا ينظر إليه القوم نظرة الشافي، ويذهلوا عن كونه، أوّلاً، حامل بشرى الخلاص. ولكنّ ذلك الأبرص الذي قلب شفاؤه كلّ كيانه، وكلّ حياته، لم يقوَ على كتمان نبأ النعمة التي حلّت عليه، فراح يذيعها، في كلّ مكانٍ، بحيث تعذّر على يسوع دخول أيّة مدينةٍ علانيّةً، ولكأنّه أمسى هو الأبرص، وذاك الذي شفاه هو المبشّر به.

ومع ذلك ما انفكّ سيل السقماء يتدفّق على الربّ، مقتحمًا عزلته. فمن سواه يشفي كلّ أصناف برَصنا؟

* *

تمثُّلاً بيسوع، لم يكتفِ أحد أعظم قدّيسيّه، فرنسيس الأسّيزيّ، بلمس أبرص، بل قبّل فمه المهترئ، وهو يصارع مشاعر نفورٍ طاغيةً.

اختراقُ السَّقف

(مرقس ٢: ١– ١٢)

الازدحام في البيت على أشدّه، والناس المتراصّون في الخارج يسدّون كلّ المنافذ. والرجال الأربعة الذين يحملون رجلاً مشلولاً على محفّةٍ، موطّنون العزم على انتزاع شفائه من يسوع بأيّ ثمنٍ. لم يُجدِهم التدافع نفعًا، وأيقنوا أنّ لا سبيل إلى الوصول إليه وسط كثافة الحشد. غير أنّ رغبتهم الحارقة في مقابلة يسوع تحدّت كلّ العوائق، ودلّتهم إلى حيلةٍ مبتكَرةٍ، فتسلّقوا السلّم المؤدّي إلى السطح، ونقبوا قشرته الطينيّة، وأحدثوا بين عمده الرقيقة فجوةً دلّوا من خلالها الفراش الذي ربطوا الرجل المشلول إليه، بحيث استقرّ عند أقدام يسوع.

«**ورأى يسوع إيمانهم**»، إيمانًا من الكثافة بحيث يُرى ويُلمَس، إيمان الرجل العليل والرجال الذين دلّوه من السقف، الإيمان الذي لم يثبّطه عائقٌ، واخترق الحواجز؛ الإيمان الذي يتحدّى المستحيل، ويراهن بكلّ شيءٍ على اللامرئيّ؛ الإيمان الذي يتّخذ من اللّه مرتكزًا، لكي يخلق ما لا وجود له، وما لم يُسمع به، وما لا يصدّق.

وقد قدّر يسوع، خاصّةً، ذلك التضامن في الإيمان، الإيمان الجماعيّ الذي يحمل إلى اللّه من يعجزون عن المضيّ إليه بأنفسهم. إنّه أجمل نموذجٍ للإيمان والمحبّة، وهو الذي «رآه» يسوع، وأحبّه، وكافأه.

هذا الإيمان حمل يسوع على مجابهة المستحيل، فهو، أيضًا، سيخترق سقفًا أَشدّ صفاقةً من سقف البيت، سيلج نفس ذلك المخلّع القابع في سجن عاهته، وسيقول لـه كلامًا مجنونًا، لا يُصدّق: «**مغفورةٌ لك خطاياك**»، ولكأنّه يدعوه إلى استعادة نضارة وجه طفلٍ.

ما هو الأكثر جنونًا: نقب سقف البيت، أم اقتحام دخيلة الإنسان، ودعوته إلى حياةٍ متحرّرةٍ من كلّ قيود الماضي؟

واتّفق أن كان هناك حرّاس الوضع القائم الذين يحمون المجتمع من خطر المستحيل الكفيل بتصديع كلّ شيءٍ قائمٍ، والذين أوكلوا إلى إلههم مهمّة وقاية وضعهم المحافظ الجامد، الذي يكبّلون به الشعب، من كلّ دخيلٍ.

هؤلاء رأوا في قول يسوع للمخلّع تجديفًا مستنكرًا، فالله وحده يملك حقّ غفران الخطايا. ونفذ الربّ إلى خفايا نواياهم، وحشرهم في زاوية إحراجٍ مُحكَمٍ، فقال لهم: «**لماذا هذه الأفكار تجول في صدوركم؟ ما الأيسر أن يقال للمخلّع مغفورةٌ خطاياك، أم أن يقال: «قم احمل فراشك وامش»**»؟ وساد صمتٌ بات مسموعًا. ثمّ استأنف يسوع قوله: «**فلكي تعلموا، إذن، أنّ لابن البشر سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا**»، والتفت إلى المخلّع وقال له: «**لك أقول: قمْ، واحملْ فراشك وامضِ**». ويتابع الإنجيليّ مرقس، وكأنّ المشهد يخطر تحت ناظريه: «**فقام، وحمل للوقت فراشه، وخرج أمام الجميع حتّى دهشوا كلّهم، ومجّدوا الله قائلين: «ما رأينا، قطّ، مثل هذا**».

ذلك الشفاء الفوريّ المعجز كان إثباتًا بأنّ حقّ يسوع بغفران الخطايا لم يكن ادّعاءً، بل كان ناجمًا عن سلطةٍ إلهيّةٍ راهنةٍ.

الجموع، بحدْسها البسيط الثاقب، مجّدت الله، في حين أنّ الكتبة، مدّعي المعرفة، لم يسمح لهم فكرهم الجامد الاعتراف بالواقع الماثل.

ذلك الإنسان الذي كان، من جرّاء علّته، يُعدّ ملعونًا من الله، ومنبوذًا من السلطة الدينيّة، جعله يسوع يهبّ واقفًا، مستعيدًا نضارة إنسانيّته، التي كانت قد ذبلت، ومكانه الكريم في المجتمع والحياة الطبيعيّة.

اختراق السقف، واختراق شلل الأجساد والقلوب، وخرسانة الأحكام المسبّقة، ومناطحة المستحيل... هذا ما كان يجري، حول يسوع، لعشرين قرنًا خلت.... وما زال يجري اليوم.

«أَأَنْتَ الآتي، أَمْ نَنتَظِرُ آخَر؟»

(متّى ١١: ٢-٦)

هل تسرّب الشكّ إلى نفس المعمدان، أم إنّ إيمان تلاميذه هو الذي تراخى، فأنفذ وفدًا منهم لكي يستفسروا بأنفسهم، ويسمعوا بآذانهم، ويتيقّنوا؟

المعمدان سجينٌ، وهاجس السجين أن يُشرَع له باب السجن على الحرّيّة، وعلى الحياة المستعادة. والمعمدان، بين جدران السجن، يجترّ انتظاره. والأخبار التي تتنامى إليه عن يسوع تكاد تكون مخيّبةً لتوقّعاته: فهو يشارك في المآدب، ويروي قصصًا، ويبشّر بالغفران والرحمة، وله معاشراتٌ مستهجنةٌ، والسؤال الذي بات يحاصر ذهن ناسك الصحراء هو: أهذا هو، حقًّا، المسيح الذي انتظرناه، أم علينا انتظار مسيحٍ آخر؟

لدى السجين المنكفئ على ذاته، تزدحم التساؤلات والشكوك، وربّما وسوس الشرّير في نفس المعمدان: كلّ ما آمنت به، حتّى اليوم، هراءٌ. فهذا المخلّص الذي بشّرت به عاجزٌ حتّى عن إطلاق سراحك، وإعتاقك من براثن هيرودس.

وربّما كان المعمدان يقتسم تطلّعات شعبه إلى مسيحٍ زمنيٍّ يعيد لليهود أمجادهم، ويحرّرهم من ربقة المحتلّ الأجنبيّ، فإذا بيسوع مسيحٌ لكلّ الشعوب، لا لليهود فحسب، وهو يدعو إلى التسامح، والصفح، وحبّ الأعداء، والرأفة بالخطأة.

ربّما اهتزّ إيمان المعمدان، ولكنّه لم يتهاوَ، فالإيمان ليس نهائيًّا، مُكتَسَبًا مرَّةً ولكلّ مرَّةٍ، بل لا بدّ من تجديده وإنعاشه باستمرار. وها إنّ يوحنّا الذي كان يحثّ الناس على الإيمان بيسوع، بات في حاجةٍ إلى من يرسّخ إيمانه فيه، إيمانًا ليس في من سيحرّره من سجنه، ويحرّر اليهود من الاحتلال، بل في من سيرتضي – هو، يوحنّا – الموت طائعًا من أجله. ومن أجل تجديد إيمانه وترسيخه، أوفد تلاميذه إلى يسوع.

وكانت فرصةً مؤاتيةً ليسوع كي يسفر عن حقيقة رسالته. فأمام تلاميذ يوحنّا أجرى معجزاتٍ كثيرةً، فضلاً عن المعجزات الباهرة التي كانوا عليها شهودًا من قبل، أو

التي سمعوا عنها، فقال لهم: «**اذهبوا وبلّغوا يوحنّا ما تسمعون وما ترونَ: إنّ العمي يبصرون، والعرج يمشون باستواء، والبرص يطهرون، والصمّ يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يُبشّرون. وطوبى لمن لا يشكّ فيّ**».

لم يُجب يسوع إجابةً مباشرةً، بل أدلى بمعطياتٍ ملموسةٍ، وترك لسائليه أن يستخلصوا منها قناعةً ذاتيّةً، ولكأنّي بيسوع يريد من المعمدان أن يقرأ العلامات التي تدلّ عليها أعمال المخلّص وأقواله، مجتمعةً، ويستنبط فحواها. فالإيمان هو الذي يقود من الظلمات إلى النور، ويقفز من العلامات إلى الواقع الذي تشير إليه. وبما أنّ جوابه كان صدًى لأقوال الأنبياء فيه، فقد كان على يوحنّا وتلاميذه استخلاص العبَر. ويبدو أنّ الفقرة الأخيرة من جوابه: «**طوبى لمن لا يشكّ فيّ**» انطوت على رسالةٍ خاصّةٍ موجّهةٍ إلى المعمدان، تشدّ من عضده، وتحرّضه على الصمود، ومقاومة الوساوس، وطرد الرِيَب.

وهذه الرسالة تشمل الأجيال كلّها، فأسباب الشكّ لدى اليهود كانت كثيرةً: إنّ جواب يسوع، يعني، ضمنًا، أنّه ليس المسيح الذي يريده وينتظره اليهود، بل هو مسيح الأنبياء، مبشّر العالم أجمع بالمصالحة والحبّ. إنّه شافي العلل، مزيل العاهات، باعث الرجاء، مانح حياةٍ خصبةٍ بالخير، ومؤسّس عالمٍ يسوده السلام والحبّ. ولكنّ اليهود لا يرتضون مسيحًا كهذا. ومن ثمّ أعلنت فئةٌ غفيرةٌ منهم: «ليس هذا هو المسيح الذي ننتظر. وليس هو مخلّصنا».

وشكّك يسوع، أيضًا، بجسامة مقتضياته. فللفرّيسيّين الورعين قال: «طهر القلب هو المعوَّل. أمّا الوفاء للفرائض والطقوس، فهو كالقبر المكلّس، بظاهره المتألّق، وباطنه الزاخر بالتعفّن والفساد». وللشابّ الغنيّ الذي لم يحِدْ يومًا عن أيّةٍ من الوصايا قال: «واحدة تنقصك لتكون كاملاً: تخلّ عن كلّ أموالك للفقراء، وتعالَ اتبعني!»

وشكّك يسوع أصدقاءه عندما استسلم للمهانة والصلب، وهو القادر على صرع أعدائه بكلمةٍ منه، وهو الذي أعلن أنّه ابن الله، وقع ضحيّة نقمة البشر وظلمهم، مخيّبًا رجاء من علّقوا عليه رجاءهم، ذلك الرجاء الذي تداركته القيامة فأنعشته، ورسّخته.

ونحن، أيضًا، غالبًا ما يخيّب الله رجاءنا، عندما لا يلبّي توقّعاتنا ورغباتنا. إنّنا نريد أن ينفّذ «مشيئتنا»، وأن يكون مطابقًا للصورة التي رسمناها له، في خيالنا. لقد فصّلْنا

مسيحًا على قياسنا وقياس رغباتنا ومشاعرنا، واحتياجاتنا الاقتصاديّة، وعلى صورة نماذجنا الاجتماعيّة؛ مسيحًا مريحًا، يراعي مصالحنا المادّيّة ويتجاهل الفقراء، فلا بِدْعَ إن خيّب هذا المسيح رجاءنا، وإن تساءلنا: هل هذا هو، حقًّا، يسوع الإنجيل؟

إنّ مسيح الإنجيل هو أكبر، بلا قياسٍ، من المسيح الذي روّضناه، وأنِسْنا إليه. ويسوع الذي لا يني يقرع بابنا، هو غير الذي استقبلناه، وألِفناه.

إنّه دائمًا جديدٌ، دائمًا خلاّقٌ، دائمًا شديد الاقتضاء، وعلينا أن نعيد اكتشافه واكتناهه كلّ يومٍ.

ونحن، أيضًا، نشكّ عندما نشهد جرائم مريعةً تُرتَكب، وآلامًا مضنيةً تنقضّ على أبرياء، والله لا يحرّك إصبعًا للذود حتّى عمّن أحبّوه وأولَوه ثقتهم، وعملوا إكرامًا له.

ونتساءل: لمَ لا يُعتق يسوع السجناء المظلومين من زنزاناتهم ومعتقلاتهم؟ ولِمَ يبدو، دائمًا، وكأنّ أعداءه أقوى منه؟ لمَ يلتزم الصمت عندما تعوي الذئاب؟ ولِمَ يصمت عندما يحمّله البشر مسؤوليّة الألم والبؤس الناشبَيْن بخليقته؟

وكيف لنا أن نظلّ متشبّثين بإيماننا، مع كلّ ذلك!

تساؤلاتٌ تظلّ مفتوحةً، ولن نجد لها أجوبةً عقليّةً منطقيّةً، ولكن، حسبنا التأمّل في مثال يسوع كي ندرك أنّ حبّه سيغلب، فلنثق به، بلا تحفّظٍ، رغم كلّ شيءٍ، مؤمنين بأنّ الصليب هو حكمة الله، وعنوان قدرته، كما قال بولس.

ولا ريب أنّنا لو أنصتنا إلى صوت يسوع لسمعناه يهمس: «إنّ خلاص العالم يتقدّم خطوةً، كلّما تراجع الشرّ في مكانٍ ما من المسكونة. وإنّ الله يعمل من خلال كلّ بادرة عطفٍ تجاه المتألّمين، والمحرومين، والفقراء، يقوم بها أيّ إنسانٍ».

وهو يسأل كلاًّ منّا: «أنت، يا من يتّهم الله، ماذا تفعل من أجل غوث المتألّمين، وتحرير المقهورين، وتحسين أوضاع إخوتك المحتاجين؟».

نحن، اليوم، سجناء عاداتنا، ورغباتنا، وآرائنا المسبّقة، ورفاهنا، وخوفنا من المستقبل، ومجتمعنا المتعفّن؛ أوَ لم نسجن يسوع، أيضًا، خلف جدراننا؟ ألم نمعن في تشويهه، منذ قرونٍ، باستخدامه في سبيل مصالحنا من كلّ صنفٍ؟

بيد أنّ اللّه حاضرٌ أبدًا بيننا، وملكوته يترسّخ كلّما حدت المحبّة بشرًا إلى العمل المخلص في سبيل فقراء، وعاطلين عن العمل، ومشرّدين مفتقرين إلى مأوًى، وجماهير العالم الثالث، والعالم الرابع... فلا ننتظرنَّ مخلّصًا آخر سوى المحبّة وإلهها.

* *

إثر انصراف تلاميذ يوحنّا، استطلع يسوع رأي الجمهور في المعمدان، وإزاء صمتهم أسهب في امتداحه، قائلاً:

– إنّه ليس قصبةً تهزّها كلّ نسمةٍ، بل هو شجرةٌ عتيّةٌ كثيرة العقد. إنّه صامدٌ جريءٌ، لا يهاب الموت في سبيل إيمانه.

– وهو ليس إنسانًا مرهفًا فاخر اللباس، لا يستطيع العيش إلاّ في نعيم الرفاه، فمثل هؤلاء مقامهم القصور.

– أجل، إنّه نبيٌّ، بل أعظم من نبيّ، لأنّه السابق الذي أعدّ لمجيء المسيح. وقد استحقّ المعمدان أن يكون سابقًا للمسيح بجدارة، لأنّه آثر السجن والموت على السكوت عن سلوك هيرودس المنحلّ، وكان سجنه وقتله رمزًا لمصير المخلّص. فالمحرّر الحقّ هو الذي يرتضي التضحية بكلّ شيءٍ، حتّى «السُّلطة الإلهيّة»، من أجل إقامة «ملكوتٍ جديدٍ» حيث لا تسود أيّة سُلطةٍ سوى سُلطة الحبّ.

وأضاف يسوع: «**لم يقُمْ في مواليد النساء، أعظم من يوحنّا المعمدان، غير أنّ الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه**». إنّه شخصيّةٌ فاعلةٌ في تاريخ الخلاص، إذ إنّه وُلد ليمهّد طريق الآتي بعده، والأقوى منه. وقد تكلّم عنه الأنبياء مؤكّدين دوره في مخطّط الخلاص الإلهيّ. إنّه الأعظم بين بني البشر ليس فقط بسبب دوره، بل بسبب شخصه، وقداسته.

ومع ذلك، فهو مجرّد صورةٍ لما سيأتي. إنّه أعظم من كلّ أنبياء العهد القديم، ولكن، لأنّه توقّف عند عتبة العهد الجديد ولم يجتزها، ولم ينعم بمفاعيل الصليب، فأيّ عضوٍ من أعضاء جسد يسوع السرّيّ أعظم منه.

وبذلك أكّد يسوع مدى البوْن الشاسع الفاصل بين عهدَيْن، بين ما قبله، وما بعده، ومدى التغيير الذي ستحدثه حياته، وتعليمه، وصلبه، وقيامته.

عظمة الجبل (١)

قد يمكن العثور على صدًى لبعض تلك الأقوال في تضاعيف المزامير، وقد يكون الأنبياء قد لمّحوا إلى بعضٍ منها. ولكنّ يسوع يتكلّم بسلطان المشرّع الأعلى، الذي يملك طيّ شريعة موسى وتجاوُزها، وقدرةَ من يُبدع عالمًا جديدًا، ويشدّ الأنظار والقلوب إلى سماءٍ جديدةٍ. ومن ثمّ يرتدي إعلانه: «أمّا أنا فأقول لكم...» مهابةً وجلالةً فريدَتيْن.

كلماتٌ تنبض بنبرةٍ قشيبةٍ، ولكلّ لفظةٍ منها مدًى بلا حدودٍ.

إلهٌ متأنّسٌ يتكلّم، فينسكب النور طيّعًا، ثرًّا، يغمر الكون، وتنبجس، فجأةً، ينابيع حبٍّ متفجّرةٌ.

التطويبات تتوالى تترى، قصيدةَ أملٍ، ولازمةَ رجاءٍ، ورسالةَ سعادةٍ، ولكنّها سعادةٌ من نمطٍ غير مألوفٍ، أشدّ إدهاشًا من معجزة قانا، حيث حوّل يسوع الماء خمرًا. فها هو يقلب المفاهيم: وإذ بالفقر يغدو هو الثروة الحقّة، والدموع تنقلب فرحًا، والبساطة تمسي علم حياةٍ، وتصبح السطوة والقوّة من نصيب الودعاء والمسالمين، لا سهمَ فيها للمحاربين.

ولكنّها سعادةٌ شاقّةٌ، والفضائل التي تُفضي إليها هي أكثر ما تنفر منه الطبيعة البشريّة، فلا سبيل إليها إلاّ بالتجرّد من كلّ شيءٍ، حتّى من الذات، بل على الأخصّ، من الذات.

في الواقع، البسطاء، والودعاء، والفقراء، والذين لا سند لهم، هم أكثر من يلاحقهم العالم بازدرائه، واضطهاده، ونبذه، في حين يتهيّب هذا العالم أولي النفوذ، والسطوة، والثروة، والمتألّقي الذكاء، ولكأنّ العالم كلّه يستمدّ فلسفته من «نيتشه».

---

(١) عن فرانسوا مورياك François MAURIAC.

لم يتوقّع يسوع أنّ تغيّر عظته، تلك، طباعَ البشر ومفاهيمهم تغييرًا فوريًّا، جذريًّا. بيد أنّه كان يعلم أنّ كلماته كانت خميرةً اندسَّت في عجينة البشريّة، لتتفاعل معها بتؤدةٍ، وفي الأعماق، وأنّها كانت حفنة ملحٍ ذرّها في تضاعيف تلك العجينة، كي يحول دون فسادها.

تلك الومضات المتوهّجة، تلك الكلمات النيّرة، التي تفوّهت بها شفتا إلهٍ متأنّسٍ، ستظلّ تحدّيًا لكلّ مشرّعٍ يحاول أن يعيد للقوى البهيميّة الغاشمة اليد العليا على قوى الروح.

ولكي تظلّ الجذوة الإلهيّة متّقدةً في حنايا النفس البشريّة، وتبقى أنوار السماء، وآفاقها الرحبة المتألّقة، تشدّ أبصار ساكني الأرض، حسبُ العالم حفنةٌ من أنقياء القلوب، أمثال الأسّيزيّ وغاندي، ينهضون جيلاً إثر جيلٍ، شهودًا يثبتون، بحياتهم البسيطة، المتجرّدة، المعطاء، البطوليّة، القائمة على الحبّ الصرف، سموّ تعليم عظة الجبل، التي تخبو، إزاءها، وتنوس، كلّ تعاليم العباقرة، ودهاقنة السياسة، والمصلحين الاجتماعيين، التي لا تتّخذ، من عظة الجبل، أساسًا لها ونبراسًا.

«أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم... من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الأيسر، ومن طلب ثوبك، فأعطِه رداءك، أيضًا...».

شرائع هي، في نظر البشر، محض جنونٍ، وهي، في منطق الطبيعة، لا تُطاق. ولكنّ يسوع سيُفلح في حمل أصدقائه على تلبيتها، فيتصرّفون بجنونٍ – وفق موازين العالم – لأنّ يسوع الذي يطالبهم بها، قد أبدى لهم من الحبّ ما هو منتهى الجنون.

* *

عجَبٌ أمره ذلك الناصريّ، فهو يدعو أولئك الفلاّحين والصيّادين، الذين جُبِل سلوكهم بالحرص والحيطة والتقتير، إلى انتباذ كلّ حيطةٍ، وتحسّبٍ، وهمٍّ، وإلى العيش على غرار طيور السماء وزنابق الحقل، راضين بما يغدقه عليهم أبوهم السماويّ من عطاءٍ وكفافٍ.

وهو، إلى ذلك، يزري بكلّ ما يظهر للعيان، وبكلّ ما تتفوّه به الشفاه والقلب عنه غائبٌ، وينصب موازين الخير والشرّ، والفضيلة والضلال، في أغوار القلوب، وفي صميم النوايا. فالقتل ليس في القضاء على الحياة، وحسبُ، بل في البغض،

والغُلّ، والنميمة، وكلّ كلمةٍ تخدش مشاعر الغير. وليست السرقة، فقط، سلب ما للغير، بل هي، أيضًا، حرمانه ما هو مفتقرٌ إليه، ومتوفّرٌ لديك. وليس الزنى فقط في تلاقي الأجساد، بل، أيضًا، في الشهوة الخبيثة التي تلوّث النفس والذهن.

إنّه عهدٌ جديدٌ، السيادة فيه للروح، ومعاييره الحبّ، ونقاء السرائر. عهدٌ يمسي فيه ابن الله صديقًا للبسطاء، ونديمًا للعشّارين، ذائدًا عن حياض الزواني التائبات، اللواتي يمضغ المراؤون سِيَرهنّ بنهمٍ، وهم، في أعماقهم، يضجّون فسقًا وفحشًا.

ولا يكتفي ابن الله بفضح المرائين والمتكبّرين، وبالحدب على المرذولين وحثالة المجتمع، بل إنّه يقف مذهولاً إعجابًا حيال البسطاء الذين يخضعون، في عفويّةٍ واتّضاعٍ، لمشيئة الآب، ويستسلمون، بين يديه، واثقين بقدرته على تحقيق ما يفتقرون إليه.

إنّه – ابن الله – يستسلم لذلك الاستسلام بين يديه، ويعنو لـه، ولا يقوى على مقاومته.

سَعَادَةُ اللهِ وَالتّطوِيبَات

(متّى ٥: ١ – ١٢)

يصف سفر الرؤيا السماء بأنّها احتفالٌ سعيدٌ، عيدٌ ضخمٌ، يرقص فيه الناس ويغنّون. وإلى هذا العيد يتدافع البشر كي يعبّوا من نبعهم الأصليّ. ولكن ما أكثر الذي يضلّون السبيل!

في أصيل يومٍ ربيعيٍّ، والقوم مستلقون على العشب، في نزهة سعادةٍ مع الطبيعة، انتصب يسوع، بثوبه الأبيض، وفي ألحاظه تتراقص ألوان الأزاهير المتألّقة، وبصوته العذب مضى يتحدّث، وبين الفينة والفينة تغمر صوته وسوسة أمواج البحيرة، ونسائم المساء؛ وحينئذٍ كان التلاميذ يشدّون أسماعهم، بل العالم أجمع، وأجيال الأجيال تشدّ أسماعها، كي تتلقّف شريعة العهد الجديد، التي تؤتي سعادة الله الخاصّة، سعادةً لا تُصدَّق، وتتناقض كلّ التناقض مع ما يبتدعه ويروّجه المنجّمون، ودهاقنة الدعاوة، ورجال السياسة، بل حتّى بعض رجال الدين. ففي ظاهرة التضخّم، في سوق السعادة الزائفة المزدهرة، جميعهم يسوّقون وصفاتٍ رخيصةً تولّد خيبات أملٍ متعاقبةً، مطّردةً.

يعاني الإنسان جوعًا حادًّا وملحاحًا إلى السعادة، فيحلم بها وينشدها بلهفة، ولا يتوانى عن إلقاء نفسه، بلا تحفّظ، في أحضان كلّ من وما يَعِدُه بها.

أمّا يسوع فلا يدعو إلى الدرب السهل، الوهميّ، درب إرضاء احتياجاتٍ زائفةٍ أو حقيقيّةٍ، أو شهواتٍ ونزواتٍ؛ غير أنّ دربه الوعر مشرعٌ أمام الرغبة اللامتناهية في الكمال.

فيسوع قد أخذ على كاهله إسعاد كلّ إنسانٍ محرومٍ من سعادة البشر، لأنّه، هو، سعادة التعساء. وهو يريد لنا الفرح الكامل، المقيم، العميق، لا المُتَع السطحيّة العابرة.

البشرى الأولى في الإنجيل سمعتها العذراء مريم من فم رسول الله الذي قال لها: «**افرحي، ابتهجي، أيّتها المغمورة بالنعمة**».

ويسوع استهلّ كلّ فقرةٍ من عظة الجبل بلفظة «طوبى»، «هنيئًا». هذه اللفظة تتردّد مثل لازمةٍ عذبةٍ، مثل نغمٍ إلهيٍّ، موجزةً الإنجيل كلّه. فيسوع قد جاء لكي يكون الناس سعداء، رغم كلّ شيءٍ. ولكنّنا غالبًا ما لا نصدّقه، ونقيم على اجترار همومنا ومكدّراتنا، ولكأنّ لا رجاء لنا؛ وليس، فينا، من يجسر على الإدّعاء بأنّه سعيدٌ، ولكأنّ السعادة جُرمٌ أو حرامٌ.

لا علاقة لسعادة يسوع بالمال، والنجاح، والمتعة... فأنت يا من يظنّ أنّ لا نصيب له في السعادة، اسمع يسوع يبشّرك بأنّها في متناول يدك!

وسعادة يسوع لا تنفي الألم، والحرمان، والاضطهاد. وبشراها تخاطب، أوّلاً، من يعدّهم الناس تعساء، جميع المرهقين الذين لا يجدون راحةً إلاّ لدى يسوع، بارتضائهم نيره، ومدرسته، والسير على درب وداعته وتواضعه.

إنّ يسوع يؤكّد للجميع أنّهم، في ما يتخطّى البؤس والآلام، وكلّ ضروب الفقر ودواعي اليأس، يستطيع كلٌّ منهم أن يوقن بأنّه يملك قدرةً لا يستطيع أحدٌ أو شيءٌ استلابها منهم: نفحة الحبّ المقدّمة لهم من الآب، عبر يسوع.

إنّه يدعوهم إلى ملكوتٍ ليس ملكوت دمٍ ونارٍ، بل هو ملكوت حنان الله، الحاضرُ، هنا والآن، مثل حبّةٍ غُرست بعنايةٍ، وتنمو بتؤدةٍ، كي تظلّل بأفيائها المسكونة كلّها.

لم يعلن يسوع مجيئًا صاعقًا للملكوت، ولا انقلابًا عنيفًا، بل دعا إلى أفعال تحرُّرٍ داخليٍّ، بسيطةٍ، يوميّةٍ. وفي حين كان اليهود يتوقّعون تحريرًا سياسيًّا هائلاً، مجلجلاً، كان يسوع يدعو إلى تحريرٍ ذاتيٍّ، لا ضخامة فيه.

التطويبات تخاطب جميع البشر، أفرادًا وجماعاتٍ، أيًّا كان دينهم، أو مذهبهم، أو تطلّعاتهم. وقد مارسها غير مسيحيّين خيرًا من معظم المسيحيّين. والنموذج الأمثل لهؤلاء هو المهاتما غاندي.

والذين يحيونها بصدقٍ، يعهدون، منذ هذه الدنيا، حتّى وسط الصراعات

والآلام، سعادةً عميقة الغور، هي طعمٌ مسبّقٌ لما سينعمون به في الأبديّة؛ فالتطويبات هي الوسيلة المثلى لإنجاح الحياة.

* *

كان الفيلسوف الفرنسيّ، اليهوديّ المولد، هنري برغسون، يرى في العهد القديم دينًا لم يكتمل، ولم ينمُ نموًّا كافيًا. أمّا في المسيحيّة، فكان يرى، من خلال «عظة الجبل»، دينًا تعلن مبادئه: «لن تنتهي أبدًا من التصعيد، ولن تفرغ أبدًا من النموّ، وعليك أن ترتقي دائمًا أعلى فأعلى».

إنّ معظم البشر يناضلون في سبيل السعادة، من خلال الكدّ، والجهد، والكفاح، والمرض، والسأم والإحباط، وهم، بسماعهم التطويبات، يتلقّون وعدًا سرِّيًّا بالسعادة يتقاطع مع ثوراتهم، ورفضهم القَدَريّة. هذه التطويبات تكلّم قلوبهم، وتستجيب لرغبتهم الحميمة في السعادة، ولكأنّ هذه الوعود المدهشة تشير إلى ينابيع ماءٍ زلالٍ، حيث يجد العطشُ البشريّ إلى السعادة، الارتواءَ.

* *

قبل إعلان يسوع لتطويباته كان قد جيء إليه بالمرضى، وأصحاب العاهات، فشفاهم، وكانوا ما برحوا في باله، عندما بشّر التعساء بالسعادة، سعادةٍ لم يعهدوها، ولم يعترف لهم بها أحدٌ من قبل؛ بشّرهم، وعيناه تغشاهما دموع الرأفة والتأثّر.

ليست التطويبات مجموعة وصايا ونواهٍ، كما هي شريعة موسى، بل هي دفق بركاتٍ، وتهانٍ لمن لم يخطر قطّ ببال إنسانٍ أن يهنّئهم، لأنّهم بسطاء وفقراء.

هؤلاء البائسون، المهانون، المفجوعون والضعفاء، والجياع إلى العدل، والعطاش إلى السلام، الذين كانت تبدو لهم الحياة باطلةً خاويةً من كلّ رجاءٍ، والذين لم يخطر ببال أحدٍ أن يباركهم، أو أن يتمنّى لهم الخير، وعدهم يسوع بالله، بحضوره وعطفه، وأَزْرِهِ، بل وعدهم بسعادته.

فأنتم، أيّها المرضى، والفقراء، والمحبَطون، والمقهورون، أيّها الواقفون على حافّة اليأس، اسمعوا، فلدى يسوع ما يبشّركم به، وإن وُفّقتم إلى سماعه وفهمه، فمن المحقّق أنّ حياتكم سترتدي وجهًا قشيبًا، متألّقًا.

والسعادة التي يبشّر بها يسوع ليست وعدًا مستقبليًّا فحسب، بل هي تغمر النفس في الحال، لأنّها ملكوت الله، «حبّ الله» الذي ينير اليوم الحاضر، ويحوّل الألم إلى أَملٍ. إنّها تسري في شرايين الحياة الدنيا، وتتجلّى بكلّ سناها في الآخرة؛ إنّها تُدخل من يرحّبون بها إلى أروقة الملكوت. غير أنّها، في مفهوم البشر للسعادة، تبدو مفارقةً يتعذّر حلّ لغزها على من لم يتذوّقها، ولكنّها تفتن نفوس من خَبَروها، كما يتّضح من تعريف فرنسيس الأسّيزيّ لما دعاه «الفرح الكامل»، ومن قول القدّيسة تيريزا: «لستُ راغبةً في أن تخفّ آلامي».

* *

أيّة نسمةٍ منعشةٍ تنبعث من التطويبات! إنّها دستورٌ متميّزٌ، وفريدٌ، وحاسمٌ، لمسيرة الإنسانيّة، وأُنشودةٌ تندرج، على وقعها، سعادتها الإلهيّة.

إنّها درب سعادة هذا الزمن، هنا والآن، وهي درب سعادة الزمن الآخر، في ما وراء الزمن.

إنّها تنساب، قطرةً فقطرةً، في الوجدان العميق، في صمت الصلاة الخاشع، وتتعارض مع الثرثرة المستعجلة، فلا بدّ من تذوّقها، بتؤدةٍ، فقرةً فقرةً، مثل قصيدةٍ فريدةٍ، حافلةٍ بالنور والسحر، ينبغي تلمّظها، وتمعّنها، بيتًا بيتًا، بل لفظةً لفظةً.

إنّ لكلٍّ منها ألقه الخاصّ، ففوق البحيرة والهضبة، وفي السماء التي ما انفكّت ترتعش من ذلك الحدث، كالأرغن الذي يخيّل إلينا أنّنا ما زلنا نسمعه بعد أن يصمت، هذه المجرّات الثماني تنير ليالينا. إنّها فلكنا، وكلٌّ منّا يكتشف فيها، لا محالة، برجه.

* *

بتطويباته، أعلن يسوع أنّ عهد الله قد دنا، فعلى الذين وُعدوا بها أن يبتهجوا ويغتبطوا. فقد وُلد عالمٌ قشيبٌ، وفجرٌ نديٌّ انبلج في تاريخ البشر. يوم جاءه تلاميذ المعمدان، قال لهم يسوع: «**العميان يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصمّ يسمعون، والأموات يقومون، والبُشرى تُعلن للفقراء...**»، وها هوذا

يؤكّد، مرَّةً أُخرى، أنّ ما توسّمه الأنبياء قد شرع يتحقّق، وأنّ الصبح البهيّ قد أشرق، وأنّ اللّه قد وصل بصحبة الفقراء، والجياع، والمضطَهدين، وأنّ الانتظار انتهى، والعالم بدأ يتجدّد، ومجرى التاريخ اندفع في منحىً جديدٍ.

* *

التطويبات هي رسالة يسوع الجوهريّة، وأساس السلوك المسيحيّ، والأخلاقيّات المسيحيّة، وبقدر ما تتساوق حياتنا مع مقتضياتها، نكتشف أنّ ما تدعو إليه هو السبيل الحقّ إلى السعادة.

ومن خلال التطويبات يرشد يسوع البشر إلى هذا السبيل «**لكي يكون لهم فرحه كاملاً فيهم**» (يوحنّا ١٧ : ١٣).

التطويبات بحرٌ لا ينضب. وهي توحي بطعمٍ فائق العذوبة، وبمفارقاتٍ مدهشةٍ، وتستثير رغبةً حارقةً في استنباط كنوزها. معانٍ عميقةٌ تكمن فيها، ولا تتكشّف للقارئ المستعجل، ولا لمن يريد أن ينتزع منها سرّها عنوةً. هذا السرّ فتن الكثيرين. وعلى مضمونها بنى المهاتما غاندي سلوكه وقداسته. وقد أعلن أنّها من أجمل النصوص التي تمتلكها البشريّة.

* *

التطويبات هي التي تطبع المسيحيّة بخاتمها المميّز. إنّها نقيضٌ لحكمة العالم، ودعوةٌ إلى مقاومة النفس الأمّارة بالسوء، وإلى كبح أهوائها الجامحة، ونوازعها الوبيلة، وإلى تطهير القلب ونواياه، وإلى الجهد المطّرد نحو الكمال، ابتغاءَ التمثّل بكمال الآب، بحيث إنّ من يدّعي التوفيق بين مقتضيات الكمال الإلهيّ، والظفر بأمجاد البشر ومُتَع الأرض، لا يحصد سوى غضب اللّه، وازدراء العالم.

علينا، إذن، مطالعة التطويبات والإصغاء إليها، وعينانا في عيني يسوع، وقلبنا متيقّظٌ إلى خلجات قلب المخلّص الذي يرى الآب يعمل، ويريد للبشر أن يعيشوا وفق غايات الآب ومشيئته.

لقد نبعت تطويبات يسوع من كلّ كيانه، ومن موقد الحبّ الأكبر، قلب من كان

يدعوه «أبّا»؛ وهي تنبض بخلجاتٍ إلهيّةٍ، ومن يصغي إليها، يصغي إلى نبضات قلب الله، وينعم برؤية وجهه المشرق حبًّا.

التطويبات نداءٌ إلهيٌّ موجّهٌ إلى القلوب.

* *

لقد جعلت التطويبات من تعليم يسوع إرثًا مشتركًا للبشريّة جمعاء. فهذه الأقوال الفذّة، التي تبدو مفارقةً محيّرةً، يُعترف، في كلّ مكانٍ، بأنّها دعوةٌ إلى مجتمعٍ أوفر إخاءً، ورسالةُ إيثارٍ وشمولٍ. فبمقارعته الظلم، وبسعيه إلى ترسيخ كرامة الفقراء والصغار، كان يسوع إنسانًا ملهمًا، ونموذجًا للرأفة الإلهيّة بكلّ البشر. ولطالما أكّد أفرادٌ، حتّى من غير المؤمنين، أنّ يسوع هو «رفيقهم»، الذي يزوّدهم بالعزاء، والعزيمة على اجتياز مسيرة الحياة الوعرة. ولا أحد ينفي، اليوم، أنّ يسوع، مع عبوره عصره عبور النيزك، قد غيّر، بتطويباته، مسيرة التاريخ.

ومهمّتنا، نحن أبناء اليوم، أن نتمثّل التطويبات ونتملّى بها، بحيث نبتدع تطويباتٍ جديدةً، وفق ما تقتضيه ظروفنا الراهنة، في نور تطويبات يسوع وهديها.

* *

ثمّة ترجمةٌ جديدةٌ تستعيض عن لفظة «طوبى» بلفظة «رائع» فتقول: «رائعون هم الفقراء، رائعون هم الودعاء...».

لعلّ عالمنا يصبح رائعًا بعيشه التطويبات.

تطويبات[1]

يتكلّم يسوع عن السعادة، لأنّها ازدهار الحياة، ولكنّ سعادته هي من نمطٍ مختلفٍ عمّا أَلِفَه البشر. والظفر بها يقتضي الفقر، والعطش، والصبر الجريء، والعطف، والوداعة، والطهر، وبالإجمال شعور المرء الموجع بعدم كفايته، وعدم كفاية العالم في إرضاء كائنٍ صُنع من أجل اللانهائيّ.

الاعتداد هو الشرّ الأقصى الذي يُمنى به الإنسان، لأنّه يوقف مجرى الحياة، ويقطع المدد. يقول لاكوردير في هذا الصدد: «كلّما أمعنتُ في الناس السعداء تأمّلاً، تعاظم ارتياعي لما هم عليه من جَذْبٍ إلهيٍّ. إنّ الحياة الرغيدة السهلة تقود بيُسرٍ إلى الانهيار، إذ سرعان ما ترتخي نوابضها، وتصبح، معها، الصلاة عسيرةً، ويصبح المرء في موقفٍ سلبيٍّ من الله».

الطوبى الأولى هي طوبى الأيادي المُصفرة، والقلوب المنفتحة. **والفقر** هو شرط حبّ الله لأنّه يشرع القلب عليه. ولا يظفر بالله إلاّ من يفتقر إليه، ويسعى نحوه.

ربّي، «حجّتي أمامك هي حاجتي إليك، وعدّتي هي افتقاري، وسبيلي إليك هو نعمتك عليّ».

الإنسان أكبر من أن يرضى، من الأرض، بالقليل، لأنّه يتجاوز العالم، حيث يحقّق ذاته، واللانهائيّ، وحده، قادرٌ على إرضائه.

«إن الله أكبر من قلبنا»، فالويل لمن يجد على الأرض كفايته، ولا يساوره شعورٌ بالنقص والافتقار إلى الله.

الويل لمن يرتضي، من هذا العالم، بأفراحه الأرضيّة، وعلمه، وحبّه، ويسعى إلى أن يطفئ فيه الرغبة والجوع، الهمّ والقلق.

(١) مقتبسة عن الأب مونييه

على الإنسان أن يكون فرحًا، ولكن غير راضٍ، فالإنسان الراضي غير سليمٍ، على حدّ قول الكردينال نيومن. وللفرح، على الأرض مقابلٌ: هو الألم الذي يلده ويغذّيه، ويعرّف الإنسان ذاته.

الوداعة: الماء يتّخذ الشكل الذي يراد له، ولكنّه عندما يتحرّر من الضغط يعود رقيقًا، قويًّا. القوّة إذا ضُغطت تضاعفت، والوداعة قوّةٌ دائبةٌ، صبورٌ.

الجوع إلى البرّ: البرّ هو انعكاس الله على أرضنا، مثلٌ أعلى يجتذب دائمًا، ولا يتحقّق أبدًا.

ويلٌ للشبعان، الراضي، فاقد الرغبة، والشهيّة إلى ما هو أكبر، وأسمى، وأفضل؛ لمن تخلّى عن روح الشباب، وعن التطلّع إلى الازدهار. ويلٌ للمستقرّين في ادّعائهم الاكتفاء.

الحياة، في المقام الأوّل، رغبةٌ، وجهدٌ في تجاوز الذات، حركةٌ دائبةٌ إلى الأمام.

قال الربّ للقدّيسة كاترينا السييناويّة: «ما أُحبّه فيكِ هو رغبتكِ، فهي، لديكِ، بلا حدودٍ، ومن ثمّ هي بحجم حبّي وقلبكِ».

إنّ الله يستجيب للرغبة التي يحفرها بنفسه في القلب؛ وهو «يهب ذاته بقدر ما يلقي رغبةً في ذلك» (دانتي).

الجائع إلى البرّ سيشبع ويرتوي. ولكنّ ارتواءه، الذي لن يتحقّق تحقُّقًا نهائيًّا إلاّ في السماء، يواكبه، على هذه الأرض، عطشٌ دائمٌ، ونهلٌ لا ينقطع. إذ إنّ في أعماقه نبعًا أبديّ التفجّر، وعلى حدّ قول بوسُّويه، «لن يظمأ، ويظلّ أبدًا على ظمإٍ، إذ لن يكفّ يرغب في ذلك الخير الأسمى الذي لا ينفكّ يطالبه بالمزيد... سيظلّ على ظمإٍ لا يرهقه، ولكنّه يتجدّد كلّما ارتوى».

طوبى للرحماء: يهب الله من يهب، ويعطي ذاته لمن يعطي ذاته، ويغفر لمن يغفر.

ليست الرحمة عطاءً لما نملك، من غير روحٍ، بل هي عطاءٌ منبثقٌ من الأحشاء، عطاءٌ لذاتنا، لما نحن؛ إنّها حبٌّ على صورة حبّ الله لنا، وهو أعطانا ذاته طعامًا.

الرحيم المنفتح على شقاء الآخرين، منفتحٌ أيضًا على حبّ الله السخيّ. والله

يضمّ إلى قلبه من يحرّر أخاه من شقائه. و«الإِسفنجة التي تمتصّ ماء الحضيض، تتقبّل، بلا عناءٍ، ماء السماء».

طوبى لأنقياء القلوب: القلب هو النظرة والنيّة. وإذا كانت النظرة منكفئةً على ذاتها ومصالحها الدنيا الآنيّة، فلا يسعها رؤية اللّه.

الإنسان يظفر بما يرغب فيه، شرط أن يرغب في ما هو حقٌّ، وخيرٌ، وجمالٌ، حسب مشيئة الخالق.

أمّا العجز عن رؤية اللّه فهلاكٌ للنفس.

منذ هذه الدنيا يفيض الفرح من القلب المقيم في اللّه،

والعالم، في نظر العيون القذرة، إنْ هو سوى دمنةٍ آسنةٍ.

طوبى لصانعي السلام: كم يقتضي صنع السلام من إنكارٍ للذات، وتضحياتٍ، وحبٍّ. فابتغاء السلام، والسعي إلى إقراره، يعنيان، غالبًا، التعرّض لضربات الخصوم.

ابن اللّه هو من دعا إلى السلام، وفي كلّ مكانٍ يسعى إلى السلام من كان حقًّا ابنًا للّه.

طوبى للمضطَهَدين من أجل الحقّ: الحقّ تجسَّد، ترى العين وجهه، ويحسّ به القلب، يمكن معرفته وحبّه حتّى الموت. «الحقّ» اشتراكٌ في من هو الحقيقة والحياة.

إنّ الوحل يقاوم، ويحاول تلطيخ من يودّ إزالته. والضغينة ذكيّةٌ، غير أنّ الاضطهاد لا يهلك نفس ضحيّته، ولكنّه يقيّد الشرَّ بسلاسل الخير الذي يبتغي القضاء عليه.

* *

في التطويبات الأضداد تتلاقى، وينجب أحدهما الآخر: الفراغ يستدعي الامتلاء، والبؤس الرحمة، والضعف القوّة، والفقر الغنى، والألم الفرح. ويسوع يستثير فينا الحاجة، والندم، وإنكار الذات، كي يحوّلها إلى أضدادها، ويملأنا بذاته.

إنّ يسوع يدين السعادة الرخيصة، والأفراح السهلة، كي يعيد لنا معنى عظمتنا الحقّة، ويعلّمنا أنّ شهيّتنا إلى السعادة هي التي ينبغي أن تتحوّل.

الوَيـــلاتُ

(لوقا ٦: ٢٤ – ٢٦)

ينتزعنا لوقا، بعنفٍ، من موسيقى التطويبات العذبة، عندما يلحقها بلعناتٍ تعيدنا إلى حضيض الواقع المرّ...

فقد كان همّ المشاركة يسكن قلب الإنجيليّ، ولكنّه اصطدم بأنانيّة الأغنياء وصَلَفهم في المدن الإغريقيّة التي بشّرها، فأورد أقوال يسوع المخيفة، التي أغفلها الآخرون.

تلك الويلات على نقيض التطويبات، تهزّ الضمائر المستكينة في سعادةٍ خدّاعةٍ، وسلامٍ زائفٍ، كفيلَيْن بالإفضاء إلى شَلَلٍ مميتٍ.

الويل لكم، أيّها الأغنياء الأنانيّون... أيّها المتخَمون... أيّها الضاحكون، الذين يُغدق عليهم العالم الأمجاد والتكريم.

والويل، أيضًا، لِمَن يسدل على هؤلاء، بصَمْته، ملاءة الطمأنينة، ويتعايش، راضيًا، مع مظاهر اللامساواة، والمظالم، والهيمنة، والقهر، التي تضمن لهم البقاء والازدهار.

بتعاقب البركات واللعنات، يدفعنا يسوع قُدُمًا نحو ملء الكمال، بانتهاج دروب الواقع، دروبٍ ترابيّةٍ صوب الملكوت.

* *

لقد كتب الأب جيرار بيسّيير Gérard BESSIÈRE:

«هل لعنتَني، حقًّا، يا يسوع؟ فأنا ممّن يُعدّون أَغنياء، ونادرًا ما يعضّني الجوع؛ الضحك رفيقي، وكثيرون هم الذين يقولون فيّ خيرًا. فهل، حقًّا، لعنتني، يا يسوع؟...

أنا أعرف أنّك وديعٌ و لا تطفئ فتيلةً ما زالت تدخّن، وأنّك تهجر كلّ شيءٍ من أجل استعادة خروفٍ ضالٍّ. فهل قرّرتَ فصل القمح عن الزؤان؟

كلامك، يا يسوع يحرقنا.

لقد جئتَ لتمزّق مفهوم السعادة مثلما يمزّق الفلاّح الأرض كي يُشرعها على خصب الهواء. ومذ أنت تكلّمتَ، يا يسوع، فقدنا السكينة، إذ غدا فقر الآخرين يوجعنا، وجوعهم يعضّنا، ودموعهم تنساب فينا.

هل قلتَ، حقًّا، يا يسوع: «الويل لكم...»، أم قلت: «ما أتعسكم...» وقلبك يترقرق شفقةً علينا؟!

إنّ كلامك، يا يسوع، ينيرنا.

فقد جئتَ لتقضي على التعاسة، وفتحت للبشر بلادًا جديدةً، في داخلهم، حيث الفقراء، والجياع، والمفجوعون، والمضطهَدون، هم إنسانيّتنا المصمّمة على الكفاح، والبذل، والمطالبة بالعدل، و الحبّ.

ما عسانا كنّا، لو لم يكن، ثمّة، في هذه اللحظة، رجالٌ ونساءٌ زُجّوا في السجون، لأنّهم فضحوا سلطاتٍ تمتهن حقوق الإنسان، وتهينُ وجه الله؟ هؤلاء المتألّمون هم شرفنا، ووجداننا ومستقبلنا...

وما عسانا كنّا، لو لم ينهض، على دروب تاريخنا، بشرٌ صاغهم حبُّك، وملأهم حضورك، فبذلوا بلا حسابٍ، وضمّدوا جراح إخوتك، وصالحوهم مع الحياة، وأسالوا في نفوسهم العزاء والأمل، أمثال غاندي، وفرنسيس الأسّيزيّ، والأمّ تيريزا، والأب پيير، ودون هيلدر كامارا، وجان ڤانييه...

من خلال هؤلاء يتجلّى سنى وجهك الذي شوّهه كثيرون ممّن يدّعون تمثيلك، فينتعش فينا الرجاء، رغم كلّ ما يُحيق بنا من بشاعةٍ ومظالم.

إنّني أعلم، يا يسوع، أنّك باركتَني، وأنّك لعنتَني. لقد قذفتَ في قلبي الكلمة التي تمزّق، لأنّك تبتغي أن تفجّر خميرتُك العجين، وتنضجه، كي يصبح، في تنّورك، الخبز الذي يُقتسم. ومنذ عشرين مرَّةً مئة سنةٍ، ما انفكّ خميرك يشيع في الجماهير، حمّى إلهيّة.

إنّك تريدنا، يا يسوع، أن نكون أنبياء، وتهزّنا، مثل أولئك الممزَّقين الذين كان الله يُسكرهم بروحه. إنّك تروم ولادة شعبٍ جديدٍ، والعالم يئنّ، في مخاضٍ لا ينتهي».

مَن هُمُ الذينَ طَوَّبهُمْ يَسُوع ؟

(متّى ٥ : ١ – ١٢)

هم الذين يستمدّون من الله كلّ شيءٍ، يثقون به، ويستسلمون لـه. القاسم المشترك فيما بينهم هو اصطدامهم بحدود العالم وحواجزه. هم:

الفقراء الذين لا يجدون لأنفسهم مكانًا في أُطُر العالم، ولا نصيب لهم في كنوزه؛

الحزانى الذين لا يوفّر لهم العالم أيّ عزاءٍ، والباكون الذين لا يكفكف أحدٌ دموعهم؛

المتواضعون الذين لا وسيلة لديهم للظفر باحترام العالم؛

الجياع والعطاش إلى القداسة، وإلى عدلٍ لا توفّره سوى يد الله، وأيدي أبنائه البَرَرة؛

المضطَهَدون من جرّاء استقامتهم، وجرأتهم، ووفائهم لحبّ الله، الذين نبذهم عالَمٌ يؤثر الدناءة، والرداءة، ولاحقهم بالإهانات والتهديد.

وهم، أيضًا، من كانت المحبّة رائدهم، وكان العطف دافعهم:

الودعاء الذين ينبذون كلّ عنفٍ؛

الرحماء الذين يُشرعون للمحتاجين قلوبهم، ومواردهم، وطاقاتهم؛

المسالمون الذين، بالمحبّة والمصالحة والصفح، يقهرون القوّة الغاشمة والعنف، ويحلّون السلام.

المطوَّبون هم:

– من لم تُعمِهم كبرياء العقل، فباتوا عاجزين عن رؤية النور الساطع. فكبرياء

العقل تحصر المرء في حيّزٍ ضَنكٍ، مدلهمّ الظلمة، فيتوهمّ أنّ أيّ شعاعٍ شحيحٍ يتسرّب إليه هو الحقيقة كاملةً.

– من لم ينقادوا لغرور القوّة والجبروت، ولم ينفخهم غرور النفوذ في المجتمع، ولم يذهلهم عمّن هو أقوى منهم، ومن جميع مدّعي القوّة، وعن إخوةٍ لهم يفتقرون إلى العدل والمساواة.

– من لم تستهوِ الأرضُ قلوبَهم، فظلّت تتطلّع إلى الله.

– من يجهدونَ ويضحّون كي يعمّ السلامُ الأرضَ.

– من يجعلهم إيمانهم وأعمالهم عرضةً للاضطهاد، والافتراء، والتنكيل، فهؤلاء، بآلامهم وبموتهم، يظفرون بالحياة لهم وللآخرين.

وليس المطوَّبون هم من وُلدوا كذلك، أو أفضت بهم ظروفٌ لا يدَ لهم فيها إلى ما انتهوا إليه. بل هم من أصبحوا كذلك بفضل ولادةٍ جديدةٍ. هؤلاء هم نور الأرض وملحها. اهتمامهم كلّه منصبٌّ بأكمله على تحقيق ملكوت الله. علامتهم المميّزة: مجّانيّةٌ مطلقةٌ على غرار مجّانيّة الله. فاللّه لا يهبنا ملكوته لكي يهيمن على نفوسنا، ويجود علينا بمنّةٍ، بل لأنّه، في جوهره، عطاءٌ مجّانيٌّ، بلا حسابٍ ولا تحفّظٍ. وذلك هو شأن من استقرّ فيهم حسّ الله. إنّهم يُسبغون على البشريّة نكهةً ونورانيّةً لا خداعَ فيهما؛ وهم لا يتوقّعون أجرًا، بل حسبُهم مكافأةً فرحُ عيش الملكوت.

هؤلاء جميعهم يتطلّعون إلى الربّ، ويهرع الربّ إليهم، ولئن كان ملكوته، في جوهره، سماويًّا، إلاّ أنّه، منذ الآن، يبدّد حلكات وجود المقهورين، وبتطويباته لهم، يعني أنّ الملكوت قادمٌ إليهم، هنا والآن، ولكلٍّ منهم وفقًا لتطلّعاته وافتقاره.

ليس ملكوت الله واقعًا أرضيًّا، ولا هو عالَمٌ ناءٍ عجيبٌ. بل هو حَدَثٌ، فعلٌ إلهيٌّ زاخرٌ بالنِعَم. والمدعوّون إليه يُفيض عليهم الربّ العزاء، والشبع، والرحمة، ويدعوهم أبناءه، ويجعلهم سادة العالم الحقيقيّين، ويُظهر لهم وجهه، ومن أجلهم، وبهم، يقيم ملكوته؛ فقد ولّى عهد الحزن والقنوط، وَأَزِفَ زمن الفرح والرجاء؛ وإنّما مكافأة من يحقّق التطويبات فرحٌ يستقرّ في أغوار القلب، ويشعّ على المحيّا.

قال غاندي: «لستُ أظنّ أنّ لموعظة الجبل معنًى، إن لم يكن لها استخدامٌ جوهريٌّ، في حياة كلّ إنسانٍ، كلّ يومٍ». فإنسان التطويبات هو «الإنسان الجديد»،

الذي اتّخذ من الخدمة الهدف الأوّل لحياته. هو الذي اكتشف يسوع في أخيه الإنسان، فجعل من خدمته سبيله إلى الله، وتحوّلت حياته إلى سعيٍ نحو التشبّه بيسوع، والسير على خطاه إلى حيث كان يخشى المضيّ.

فقد كان يسوع النموذج الأمثل لإنسان التطويبات. لقد عبر هذا الكون، زاهدًا في كلّ شيءٍ، لا مأوى ثابتًا له، ولا حجر يسند إليه رأسه، ووصف ذاته بأنّه «وديعٌ ومتواضع القلب». ولطالما صفح عن أعدائه صفحًا بلا حدودٍ، ورئف بالخطأة، وتعاطف مع الحزانى، وبكى معهم، وكان القلب الطاهر بامتيازٍ، بلا غشٍّ ولا مواربةٍ، وكانت كلّ أعماله على تناغمٍ تامٍّ مع نواياه.

وكان كلّ مبتغاه أن «يتمّم كلّ برٍّ»، وينفّذ مشيئة الآب. وقد هبط الأرض بغية مصالحتها مع السماء، وإحلال السلام والوئام والمحبّة في أرجائها. ولكم شُتِم، واتُّهِم افتئاتًا، واضطُهدَ حتّى الموت على صليب الهوان!

* *

لقد كان ملكوت يسوع ثورةً على ضلال الماضي، ونقضًا أساسيًّا للمعايير التي كان يقيس بها أتقياء العهد القديم رضى الله.

فجُلّ أبناء الملكوت هم قومٌ على هامش المجتمع بسبب قَدَرهم، أو خطئهم، أو من جرّاء عقليّةٍ سقيمةٍ سائدةٍ جعلت منهم فئةً مدموغةً، منبوذةً؛ هم السُّقماء الذين كان يتوسّم الأصحّاء الورِعون في علّتهم تكفيرًا عن ذنبٍ ارتكبوه، أو ارتكبه ذووهم؛ وهم البرْص الذين أوصد المجتمع أبوابه دونهم؛ هم البسطاء والجاهلون الذين كان علماء الشريعة يعدّونهم نفايةً، ويسمّونهم «شعب الأرض» ازدراءً؛ وهم الوثنيّون الذين لم يكن لهم نصيبٌ في امتيازات بني إسرائيل؛ وهم النساء والأطفال الذين لا شأن لهم في المجتمع؛ وهم، بالإجمال، أبناءُ لله الذين يحدجهم أتقياء اليهود بنظرة احتقارٍ وجفاءٍ.

* *

غير أنّ يسوع لا يشجّع الفقر والحزن والجوع والاضطهاد، بل يرى وجودها تقصيرًا لدى الأصحّاء، وأصحاب النفوذ والأقوياء، والأغنياء، وغيابًا للمحبّة. وهو لا يُثني على الانحطاط والخطيئة، بل يبرئ السقيم كي يحيا حياةً سويّةً كريمةً؛ ويصفح عن

الخاطئ كي يتيح له الحياة في خوف الله؛ يستقبل الابن التائب، ولا يقرّ ضلاله؛ ويغفر للزانية، ولكنّه يحذّرها من العودة إلى الخطيئة.

إنّه أتى إلى هؤلاء جميعهم لأنّ المجتمع جار عليهم واحتقرهم ونبذهم، وحطّم الحواجز التي أقامها في وجههم الرياء والتقاليد، فأعاد لهم كرامتهم، وجلس معهم على مائدةٍ واحدةٍ، تأكيدًا لحبّه لهم.

أَين يمكن العثور على الله وملكوته؟ يجيب يسوع: حيثما يعيش الناس في الفقر والألم والحرمان، وحيث يهبّ بشرٌ للذود عن حياض من سُلبت حقوقهم وامتُهنت كرامتهم، وحيث تدفع الرحمة بشرًا إلى معاملة إخوانهم بإنسانيّةٍ ومحبّةٍ، وحيث يسعى أبطالٌ إلى إِقرار السلام في العالم، وحيث من يهزأون بمثل هؤلاء جميعًا ويضطهدونهم.

* *

إنّ ملكوت الله لا يقوم على أرض البشر إلاّ بتعاضد ذراع الله مع أذرع أصدقائه المؤمنين، الودعاء، والرحماء، وصانعي السلام، والأوفياء رغم كلّ اضطهادٍ، وبتآلف إراداتهم وقلوبهم مع إرادته وقلبه.

* *

من المحقّق أنّ العمل بمقتضيات عظة الجبل والتطويبات ليس بالأمر اليسير، ومع ذلك لا يسوغ أن يتّخذ المسيحيّ من هذه الصعوبة عذرًا، بل عليه أن يدع أقوال الربّ تزعجه وتقلقه، وتغيّره، بحيث يصبح مزعجًا لمجتمعه، وداعيةً إلى النهج بمقتضى روح التطويبات.

وكم العالم مدينٌ لمسيحيّين وغير مسيحيّين، عبر العالم، اختاروا، من أعماق حرّيّتهم، درب التطويبات، وسلكوه، بأعمالهم، يومًا إثر يومٍ، بكتمانٍ، وصمتٍ، وصدقٍ، وثباتٍ بطوليٍّ!

طوبى للفقراء

(لوقا ٦: ٢٠)
(متى ٥: ٣)

قد نرتعش دهشةً لدى سماع يسوع معلنًا «**طوبى للفقراء...**» فلطالما كان الفقر دليل لعنة اللّه، ومبعث ازدراء البشر. ولطالما راج أنّ الثروة دليل رضى اللّه، وشرطٌ أساسيٌّ للسعادة.

ولطالما استُخدم هذا القول لدعوة المظلومين إلى الخنوع، وتخديرهم بأمل سعادةٍ في الآخرة. ولطالما علّل الأنبياءُ المقهورين بالصبر، ريثما يستعيدون حقوقهم في الملكوت.

وها إنّ يسوع يعلن: لقد جاء الملكوت، فهنيئًا لكلّ مقهورٍ، وطوبى للفقراء...

بشرى رهيبةٌ كفيلةٌ بزعزعة كلّ شيءٍ! بشرى كانت تحدّيًا للآراء الشائعة، وديناميتًا نشر الذعر في قلوب أصحاب النفوذ، الذين وطّنوا العزم على قتل المبشّر بالتطويبات.

كان، ثمّة، من يُدعَون «فقراء اللّه»، وهم العُزَّل، العاجزون عن الدفاع عن ذواتهم، والذود عن حقوقهم، الأيتام والأرامل، المعاقون، الغرباء، الذين يعيشون يومًا فيومًا؛ الذين لا سند لهم سوى اللّه. هؤلاء كانوا طليعة المعنيّين بطوبى يسوع.

عبارة «فقراء اللّه» كانت تعني وضعًا اجتماعيًّا هشًّا، وموقفًا معاشًا، بعمقٍ، مع اللّه والبشر. وجاء يسوع كي يشقّ لفقرائه أسمى طريقٍ نحو السعادة.

* *

الفقر أنواعٌ: فثمّة فقرٌ ناجمٌ عن كسل المرء وتوانيه، وقعوده عن أكل خبزه بعرق جبينه. ومن المحقّق أنّ يسوع لا يطوّبه، بل يدعو إلى إصلاحه.

وهناك فقرٌ تفرضه الظروف وأنانيّة البشر، ويسعى المبتلى به إلى التغلّب عليه. غير أنّ بين الساعين من يطمع في الثروة، ولا يردعه في سعيه إلى الظفر بها أيّ وازعٍ

أخلاقيٍّ أو دينيٍّ، فيحلّل لنفسه، في سبيل بلوغ مرامه، كلّ وسيلةٍ، ولو كانت جائرةً أو محرّمةً. ومن المؤكّد أنّ مثل هذا لا ينعم برضى اللّه، وطوباه.

وهناك من يسعى إلى كسب معيشته، ومعيشة عيلته، بكلّ طاقاته، ولا هدف له سوى العيش الكريم، فإذا ما أصابه قنع به، وفاض شكرًا للّه. مثل هذا، وإن رقّت حاله، وخفّت كفّته في موازين العالم، مغبوطٌ في نظر اللّه، وهو يردّد مع الرسول بولس: «**إذا كان لنا القوت والكسوة، فإنّنا نقتنع بهما**» (ا تي ٦: ٨). وهو يوصي أبناءه، مثلما أوصى طوبيّا الشيخ ابنه: «**لا تخفْ، يا بنيّ، فإنّنا نعيش عيشة الفقراء، ولكن سيكون لنا خيرٌ كثيرٌ، إذا اتّقينا اللّه، وابتعدنا عن كلّ خطيئةٍ، وفعلنا خيرًا**».

وهناك من يفتقر طوعًا، كي يعطي المحتاجين، فيكون ممثّلاً للّه، يطعم بيده الجياع الذين وعدهم الربّ بالشبع، ويسقي العطاش الذين وعدهم بالارتواء؛ مؤاسيًا الحزانى، معالجًا المرضى. ومثلما سخا عليه اللّه، يسخو على الذين يعانون الحاجة، ويسدّ عوز الفقراء، فيتمّ فيه قول الكتاب: «**المكثر يفضل عنه، والمقلّ لم ينقصه شيءٌ**»؛ وباستخدامه الصائب، الحكيم، لما أوتي، يُسهم في إقامة التوازن بين ثروات البشر في مشاركةٍ عادلةٍ. ومن تجرّده الطوعيّ يستنبط سعادةً حقّةً.

والويل لمن أُعطي فأمسك، ورأى بؤس الآخرين، فأشاح ببصره عنه، وحبس ذاته في سجن أنانيّته!

الإنجيليّ لوقا يكتفي بعبارة «**طوبى لكم، أيّها الفقراء، فإنّ لكم ملكوت اللّه**»، من جرّاء استعجاله في إعلان مجيء ملكوت اللّه، وبدافع ثورته على الظلم الناشب بالفقراء.

أمّا الإنجيليّ متّى فيتوغّل في بيان الفقر الذي عناه يسوع، والذي لا يقتصر على الإملاق المادّيّ، بل يطال الإنسان كلّه، فقال «**طوبى للفقراء بالروح، فإنّ لهم ملكوت السماوات**».

الفقراء بالروح هم من ترسّخ فيهم روح الفقر، هم المتجرّدون، في أعماق قلوبهم، الذين يمارسون الفقر الطوعيّ في أغوار ذواتهم، في ذلك المكان السرّيّ من الذات حيث يستهدي كلّ إنسانٍ وجهة حياته.

إنّ الفقر الذي طوّبه الربّ وحيٌ يُستلهَم، وروحٌ يُقبَل عليه بفرحٍ واندفاعٍ. وعلى من فُرِض عليهم الفقر، أن يكافحوه بأنفسهم، محتفظين بروح الفقر.

فالفقراء الذين طوّبهم يسوع هم الذين لا يضعون قلوبهم في خيرات هذا العالم، ولا يحبّونها إلاّ لتسخيرها في سبيل حبٍّ آخر، أسمى.

وليس الفقر الذي طوّبه يسوع هو فقر من سعى وراء الامتلاك، وتمنّاه، ولكنّه لم يحظَ به، بل فقر من تيسّر له امتلاك الكثير، ولكنّه زهد فيه، ولم يحتفظ بشيءٍ لنفسه.

* *

الفقر، في أيّام يسوع، كان وضعًا اجتماعيًّا ودينيًّا، وضع من تردَّوا إلى أدنى دركات الإملاق، ولم يملكوا ما يقدّمونه لله وللبشر، بل ينتظرون كلّ شيءٍ من مساعدة الله والبشر. وهم مَن، من جرّاء فاقتهم، لم تتسنَّ لهم فرصة التبحّر في دراسة الشريعة، ولا يفقهون من اللاهوت حرفًا، ولذلك يُحكَم عليهم بالازدراء والنبذ.

الفقير هو من سلبه العالم نصيبه من خيراته، فانطوى فقره على فيضٍ من البؤس والألم لا يقلّ عمّا يُحدثه العمى والشَلَل، والبرص والموت من مآسٍ. ولذلك يحرّض يسوع أصدقاءه على أن يعيدوا للفقير ما سُلِب منه، وعلى مدّه بما يدعم كرامته، ويزوّده بعناصر الحياة اللائقة.

لقد أناط الله بالفقير نعمًا جُلّى. فعندما نحن نبرهن عن إخائنا للفقير، نُثبت أنّنا لله أبناءٌ. وبذلك أودع يسوع مفاتيح ملكوته بين أيدي أشدّ الناس فقرًا وهوانًا. ذلكم هو الانقلاب الجوهريّ الذي أحدثه في عالمنا.

«الفقراء هم معلّمونا». هكذا كان يقول القدّيس منصور. ولا غروَ في ذلك، إذ لا بدّ لنا من الانتساب إلى مدرسة الفقراء، كي تتفتّح قلوبنا. فهم معلّمو الحضور الذي يُنبت الحبّ.

الفقر الحقّ، الذي طوّبه يسوع، هو الشعور، حتّى الأعماق، ببؤس الآخرين، وبما يَلحَقهم من حيفٍ. هو تعذّر العيش في اطمئنانٍ ورضًى، ما دام، هناك، من تعضّهم الحاجة، هو فقر فرنسيس الأسّيزيّ، وشارل دي فوكو، والأب بيير، والأمّ تيريزا.

يسوع عاش في فقرٍ، وواجب كلّ مسيحيٍّ التشبّه به.

* *

لقد أكّد يسوع للفقراء الذين لا يملكون شيئًا أنّ الثروة لا تشتري الملكوت، بل هي عائقٌ دونه، وأنّ القناعة التي تُعاش، يومًا فيومًا، هي ثروةٌ في نظر اللّه الذي يقدّر فلس الأرملة، أكثر كثيرًا من تقديره لتبرّعات الأغنياء الطائلة، التي لا يرومون من ورائها سوى التظاهر، وانتزاع تقدير الناس.

لقد طوّب يسوع الفقراء، الذين تحرّروا من القيود التي تُعيق مسيرتهم نحو الملكوت وتحرمهم الانفتاح على الغير.

أولئك الذين تعلّموا أن يحدّقوا إلى حياتهم ومصيرهم بنظرةٍ جديدةٍ، الذين انعتقوا من الشعور بالنقص والنبذ، لأنّ افتقارهم إلى حطام الدنيا بات لهم سبيلاً إلى خيراتٍ من نمطٍ آخر وأسمى: أي الحرّيّة الحقّة أمام اللّه، والتواضع، والجاهزيّة.

إلى أولئك الذين لا ينتحبون من جرّاء فقرهم، لأنّهم ارتضَوه في أعماق نفوسهم، ولأنّهم أعرضوا عن كلّ نافلٍ وزائلٍ، وعلموا أنّ اللّه يؤثرهم، لأنّهم آثروه على العالم، وباتوا، منه وحده يتوقّعون كلّ شيءٍ، ولا يعوّلون على أيّ شيءٍ، أو أيّ كائنٍ سواه؛ إلى أولئك الذين انعتقوا من طمع الامتلاك المادّيّ، ومن العُجْب بذواتهم، فغدوا أحرارًا وجاهزين أمام اللّه، يزفّ يسوع بشرى سعادة الملكوت.

بيد أنّ يسوع لا يطوّب الفقير الذي، في فقره، يعبد المال، ولا يتطلّع إلاّ إلى امتلاكه، ولا يتورّع، في سبيل الظفر به، عن أي سُحْتٍ أو حرامٍ، غير عابئٍ لا باللّه ولا بالقريب.

ومن ثمّ، فما يطوّبه يسوع هو «فقر الروح»، أي قرارٌ طوعيٌّ بالتخلّي المادّيّ عن وسائل البذخ، وزهدٌ في اقتناء كلّ نافلٍ؛ وهو، أيضًا، وضعٌ نفسيٌّ، وموقفٌ روحيٌّ يقود إلى التخلّي عن الكبرياء والأنانيّة، بل التخلّي عن الإرادة الذاتيّة في سبيل الاستسلام لمشيئة اللّه. وهذا الفقر لا يتحقّق إلاّ عبر مسيرةٍ طويلةٍ وشاقّةٍ، عبر الألم الذي يحرّرنا، شيئًا فشيئًا، من السجن الذي ابتنيناه لأنفسنا، بادّعائنا، وصَلَفنا، وكبريائنا.

فقير الروح الحقّ هو «متسوّل اللّه»، الذي لا يفتقر ولا يطمح سوى إلى اللّه. وكلّ

ما يصيبه من بؤسٍ، ودموعٍ، واضطهادٍ، وكدَرٍ، يفرغه من ذاته، فيسارع اللّه إلى ملئه بسعادته وملكوته. واللّه حَسْبُه.

من اللّه نتلقّى كلّ شيءٍ: الكيان، والحياة، الروح والجسد، وكلّ المواهب الطبيعيّة، وكلّ الثروات التي ننالها بالولادة، وكلّ ما يحيك نسيج حياتنا من أنوارٍ وأفراحٍ، ومن مضايق ولیالٍ داجياتٍ، من تقدُّمٍ روحيٍّ، ومن خيرٍ يتحقّق عبرنا. إنَّ اللّه عطاءٌ، يهب كلّ شيءٍ، ويهب ذاته، ولا يرغب إلاّ في ملء خليقته، على قياسه الإلهيّ.

وبقدر ما تكون النفس مجرّدةً، وتئنّ من افتقارها، تتدفّق فيها، بلا عائقٍ، مواهب اللّه، شرط أن تظلّ متواضعةً، معترفةً بوهنها وحاجتها، مثل ولدٍ لا يملك شيئًا، وينتظر من أبيه كلّ شيءٍ.

إنّنا غالبًا ما نقيم الحواجز دون مواهب اللّه عندما نضنّ بها، وعندما نتّخذ منها وسيلةً للتباهي والتفاخر. إنّ كلّ سلوكٍ تملّكيٍّ من قبلنا يغلق نفوسنا، ويحول دون تدفّق عطاء اللّه إليها، بحيث قد تغدو بعض عطاياه حاجزًا بيننا وبينه، إلى أن تنال منّا المجاعةُ فنعود إليه عودة الابن الضالّ.

إنّ السعي المطّرد إلى إفراغ ذواتنا، وبتر كلّ الحبال التي تشدّنا إلى حطام الدنيا وكبرياء النفس، وإنّ الانغماس، أعمق فأعمق، في سرّ الفقر، هما السبيل إلى فيض عطاء اللّه.

* *

ليس الفقراء بالروح هم من لا يمتلكون شيئًا، بل هم من يعترفون بإملاقهم المطلق، فكريًّا، وروحيًّا، وعاطفيًّا، وإراديًّا، فضلاً عن زهدهم في الممتلكات المادّيّة.

التجرّد عن الثروات ليس بشيءٍ ما لم يرافقه التخلّي عن أكثرها إعاقةً: الذات. وثمرة هذا التخلّي هي إتاحته للحبّ احتلال الذات، بحيث يقترن روح الفقر بروح الطفولة، وروح العطاء.

حتّى الإيمان الذي يتحوّل إلى امتلاكٍ يزدهي به صاحبه، ويتوهّم، معه، أنّه متفوّقٌ على غير المؤمنين، هو، أيضًا، غنًى يُبعد عن الملكوت.

المطلوب، إذن، هو خلع جميع الأقنعة، والألبسة الذهبيّة الملتصقة بالجلد، والتي تحول دون السير، بحرّيّةٍ، على دروب الله.

إنّ كثيرين من القدّيسين، ومن مؤسّسي الجمعيّات الرهبانيّة جُرِّدوا من شرف تأسيسهم ومن إنجازاتهم الرائعة، وهم على قيد الحياة. وحينئذٍ خَبَروا الفقر المطلق والفرح الحقّ. فما إن أرسل لهم الربّ إشارةً حتّى رموا أرضًا ما حصدوه، كي يجروا في فقرٍ وعريٍ تامَّين للارتماء بين ذراعيه.

وقد يكون التخلّي عن الإنجازات الروحيّة أبلغ إيلامًا من التخلّي عن الممتلكات المادّيّة. وقد يكون التشبّث بها أشدّ إيلامًا للنفس، وإفقارًا لها.

ولغاندي، في هذا السياق أقوالٌ رائعةٌ نورد بعضًا منها:

«التخلّي عن الأشياء، من غير التخلّي عن الرغبة فيها، قصير الأمد، مهما كانت المحاولات، في هذا السبيل، جادّةً».

«طالما لم تَمُتْ فينا أنانيّتنا، لن نقوى على قهر الشرّ الكامن في داخلنا، ولكي نستأهل الحرّيّة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم، يقتضي الله منّا تجرّدًا مطلقًا».

«يصبح عَوْن الله مجديًا، عندما يتحوّل الإنسان إلى صفرٍ».

الاتّصال بالله لا يتسنّى إلاّ بفضل الفقر التامّ القائم عل إفراغ الذات من كلّ ما فيها، حتّى الإرادة الخاصّة، وعلى الجوع والعطش إلى الحقّ، والخير، والحبّ.

فالفقراء بالروح هم جميع من طوّبهم يسوع: الودعاء، الحزانى، الجياع والعطاش إلى البرّ، الرحماء، أنقياء القلوب، صانعو السلام، المضطَهَدون من أجل البرّ، أي إنّ التطويبة الأولى تنسحب على كلّ ما يليها.

والله لا يتسنّى شراؤه بعملٍ ما، أو اكتسابه بثواب فعالٍ حميدةٍ، ولكن يمكن استقباله في نفسٍ أُفرغت من كلّ ما فيها، حتّى من ذاتها، إذ يسارع الله إلى ملئها بذاته. وهو يهب ذاته بقدر الفراغ الذي يناديه، ويبادر أبدًا إلى الاستجابة لكلّ فقرٍ يلتمس عونه.

* *

وأخيرًا، الفقر الذي يطوّبه يسوع هو الشعور، حتّى أعماق الأحشاء، ببؤس

الآخرين، وما يلحق بهم من حَيْفٍ وضَيْمٍ. وهو تعذّر العيش في اطمئنانٍ وسكينةٍ ما دام هناك من ترهقهم الحاجة، ويفتقرون إلى الحبّ.

الفقر الحقّ هو التمثّل بالله الفقير، إله الفقراء.

والفقراء الحقيقيّون هم الذين يلعبون لعبة من يخسر يربح.

طوبى لك، يا من يشارك بكلّ خيراته حتّى التجرّد التامّ، فسلوكك تعبيرٌ عن الحبّ، والحبّ هو الثروة المثلى، والجوهرة الغالية الثمن.

طُوبى لِلوُدَعَاء، فَإنَّهُم يَرِثونَ الأَرض

(متّى ٥ : ٤)

الوديع هو من عمرت المحبّةُ نفسَه، ففاضت رقَّةً وعذوبةً؛

هو من أحكم السيطرة على ذاته، ولم يسمح لها أن تبدي إلاّ كلّ فاتنٍ مستساغٍ.
هو من أشعّ وجهه نورًا علويًّا، وافترّت شفتاه عن بسمةٍ دائمةٍ، وسال لسانه شهدًا، وتألّقت عيناه مودّةً، واتّسمت أعماله ومواقفه باللين، بعيدًا عن كلّ مصانعةٍ أو خداعٍ؛

هو من قرنت إرادته صلابة الفولاذ، برقّة الورد؛

هو من سكن نفسَه قلقُ الكمال، وسجوُّ الرجاء؛

هو من لا يستثيره ازدهار الأشرار، ولا يفقد، إزاءه، صبرَه وثقته في الله؛

هو من يكسبه الألم شدّة مراسٍ، ومزيدًا من الرحمة والتعاطف مع المتألّمين؛

هو من امتلك من صلابة النفس والإيمان ما يؤهّله ليظلّ رقيقًا، راسخًا، مقيمًا على الحبّ، مهما داهمه وداهم أحبّاءه من مِحَنٍ وفواجع؛

وهو من يصفح عن المسيئين إليه، ويتسامح مع من يقضمون حقوقه، أو يخالفونه الرأي؛

هو من أزرى بإيمان العالم أنّ النصر معقودٌ لمن تفوّق قوّةً، وهو من آثر الإصغاء إلى الذي قال: «**تعلّموا منّي، فإنّني وديعٌ ومتواضع القلب**»، وأنفق عمره كلّه، متوغّلاً، أبعد فأبعد، على دروب الوداعة والتواضع؛

هو من نبذ كلّ عنفٍ حيال الخصم، وتذرّع بالصبر والأناة، واتّخذ من اللاعنف نهجًا وحيدًا، على ألاّ يكون لاعنفه سلبيّةً أنانيّةً، هدفها الحفاظ على «امتيازاتٍ»، أو دبلوماسيّةً جبانةً تخشى نفوذ ذوي السلطان، ويفسدها مال الأغنياء، بل يكون

لاعنفًا تؤرّقه المظالم، على غرار يسوع الذي لم يتوانَ عن جَدْل سوطٍ من حبالٍ أهوى به على باعة الهيكل، والذي صبّ لعناته على المرائين المضلّلين؛

هو من كان الحبّ وحده دافع ثورته وتمرّده، وسبيلهما؛

هو من دأب على قهر عنفه الفطريّ كي يصبح دمثًا، صبورًا، محاورًا، أليفًا؛

هو من لا يكفّ يخوض صراعًا مطّردًا مع نزواته، وأهوائه، وغرائزه، كي لا يحكم سلوكَه سوى مبادئه؛ هو من تمثّل بيسوع الذي قال عنه النبيّ أشعيا: «إنّه لا يخاصم، ولا يصيح، ولا يُسمَع له صوتٌ في الشوارع؛ القصبة المرضوضة لا يكسر، والفتيلة المدخّنة لا يطفئ، إلى أن يبلغ بالحقّ إلى الغلبة»؛

هو من أخضع أهواءه وأعصابه لإرادته، وسيّر إرادته بهدي عقله ومبادئه.

ليست الوداعة ضعفًا، بل هي قوّةٌ كامنةٌ كثيفةٌ. وهي التي تكبح فينا قوى العدوان، التي إن ألقينا لها الحبل على الغارب، لأفضت بنا إلى أوخم المغبّات.

فالعنيف يعبد ذاته، ولا يرضى أن يُظهر شيئًا من مواطن ضعفه، ولا يتقبّل الآخر، بل يستخدمه لكي يبرهن لذاته عن قدرته. وبقدر ما يسعى إلى زيادة قدراته يتفاقم عنفه. وما القوّة التي يحرص على التظاهر بها سوى دليل وهنٍ، وسبيل فشلٍ.

فالحبّ وحده يبلغ غاياته.

والودعاء هم شهودٌ على العطف الذي يحيط به اللّه كلّ إنسانٍ.

أمّا أعمال العنف فهي إهانةٌ لحبّ اللّه الكلّيّ القدرة.

* *

الوداعة هي ثمرة الروح، وعطيّة اللّه.

والأرض التي يرثها الودعاء، هي التي أصبحت، بالحبّ والسلام، موطنًا للملكوت.

وهي قلوب الناس، وصداقتهم. ولا ريب أنّ الوديع الذي تحرّر من عبوديّة الأرض، يجتذب إليه كلّ شيءٍ، وكلّ خليقةٍ، في تناغمٍ عذبٍ.

أولا يقول المثل إنّ قطرة عسلٍ تجتذب أكثر من برميل خلٍّ؟ أوَ لم تَعنُ الذئاب لفرنسيس الأسّيزيّ، وألم ترقص الأسماك فرحًا بحضوره؟

* *

ولا ريب أنّ ممارسة الوداعة ليست بالأمر السهل في عالَمٍ انتهج الشراسة، وخوى من الطيبة والحبّ. ولكنّ يسوع قال لتلاميذه: «**ها إنّي مرسلكم مثل نعاجٍ بين ذئابٍ**»، ولا بدّ لمن رام أن يكون تلميذًا ليسوع أن ينتهج درب الوداعة الوعر، مع الحذر والفطنة.

* *

فطوبى لك، أيّها الوديع، لأنّك أدركت ما للوداعة واللاعنف من ضرورةٍ جوهريّةٍ، وقيمةٍ غاليةٍ، فأصبحت قادرًا على الحبّ.

طُوبَى لِلبَاكِين، فَإنّهُم يُعَزَّون

(متّى ٥: ٥)

طوبى لكم، أيّها الباكون الآن، فإنّكم ستضحكون (لوقا ٦: ٢١).

أي طوبى لكلّ إنسانٍ على وجه البسيطة، فمن ذا الذي لا يعرف الحزنُ، والإحباطُ، والمرضُ، والتيهُ، إلى نفسه سبيلاً، في فترةٍ أو أُخرى من حياته؟ أو من لا يختلج لحزنٍ يحيق به؟ من لم يبكِ أمام موتٍ أو كارثةٍ؟ يسوع نفسه حزن وبكى.

طوبى لأولئك الذين يرون في أحزانهم نتيجةً لكونهم من أبناء الأرض، وأبناء الخطيئة، ولا يرون فيها إرادة السماء، موقنين أنّ الفرح هو نصيبهم الأبديّ.

طوبى لمن يتألّمون لأنّهم لا يكفّون يضحّون بشهواتهم ورغباتهم الحائلة بينهم وبين الكمال، ولمن يتعرّضون لامتحان إيمانهم بما يلفّ نفوسهم من ليلٍ دامسٍ يبدو الله غائبًا عنه.

طوبى لمن لا يرتجّ إيمانهم، رغم ما يحلّ بهم من مِحَنٍ وأرزاءٍ، وما يحاصرهم من أسباب الشكّ والريبة.

إنّ الوجود ممتزجٌ بالبحث عن الفرح، فالله قد خلق الإنسان كي يزدهر، ولكي، بازدهاره، يمجّد خالقه. والإنسان القادم من بلاد السعادة الإلهيّة ينزع، أبدًا، إلى الاندماج، من جديدٍ، بتلك السعادة، فهو يحتفظ، من محتده الإلهيّ، بذكرى غرسها الله فيه كي تدفعه إلى الاكتمال، والازدهار، رغم ما يعترضه من بواعث اليأس، وهي تحمله على الاندغام بالحبّ والحياة اللانهائيَّين.

طوبى لمن لا تسلبهم الأحزان فرحهم الداخليّ، ولا تسجنهم في ذواتهم، ولا تحجبهم عن نفسهم وعن الآخرين، ولا تصرفهم عن التماس الله وبرّه، من خلال آلامهم. فالعزاء، حتّى في الرزايا الجسام التي تبدو وكأنّ لا عزاء فيها، لا ينسكب

في الأعماق إلاّ عبر الإيمان. وبالإيمان يتغلّب المؤمنون على ما يبدو أكبر من طاقتهم على الاحتمال.

طوبى لمن، رغم براءتهم، تنهال عليهم الرزايا، ولكنّهم يتشبّثون بعزاء إيمانهم: «طوبى لمن وضع في الربّ ثقته»، فيستأهلون قول يسوع: «**طوبى لمن لا يشكّ فيّ**» (متّى ١١: ٦).

فاللّه لا يجرّبنا فوق طاقاتنا، بل حَسْبُنا أن نلتمس أَزْرَهُ كي يمدّنا بقوّته الخفيّة المنيعة، ويجعل لنا مُنْفَرَجًا من حيث لم نحتسب.

طوبى لمن يدركون معنى الآلام العميق، وقيمتها الخلاصيّة، ويرون فيها بوتقةً تتنقّى، في نارها، النفس من شوائبها، وتزدان بصفاء اللّه، وتغدو أقرب تمثّلاً بصورة المعلّم الإلهيّ.

طوبى لمن يؤمنون أنّ الآلام تكفيرٌ عن الزلاّت الشخصيّة، ومشاركةٌ للفادي في التكفير عن خطايا البشر.

ففي كلّ ذلك عزاءٌ أكيدٌ، عميق الغور.

وطوبى للمناضلين في سبيل تلطيف آلام الآخرين، الذين يُغدقون عطاءً متجرّدًا مجّانيًّا، ويدفعون حياتهم ثمنًا له، كي يتحرّر إخوةٌ لهم، في العدل، ومحبّة يسوع، ولكي تسود بين البشر، في جوٍّ من الاحترام المتبادل، ورغم تباين المناخات، والأعمار، والطبقات، والأمم والأجناس، وحدةُ الحبّ.

طوبى لك، يا من يوجعه ألم الآخرين، فذلك يعني أنّك اكتشفت الحبّ.

* *

إنّ يسوع، بتطويبه الحزانى والباكين، لا يدعوهم إلى الاستسلام للحزن، استسلام القانط من الوجود، ولا إلى الانسحاق تحت وِقْره على أنّه قَدَرٌ لا يُقاوَم، ولا إِلى الوقوف منه موقف التمرّد الذي يُفعم النفس غيظًا، وحنقًا، وانطواءً على الذات، ومرارةً؛ ولا إلى مداعبته، في تواطؤٍ وبيلٍ معه؛ بل يهيب بهم إِلى التسامي فوقه، وتخطّيه بنعمة الإيمان، وإِلى تحسّسه لدى كلّ إنسانٍ، ومحوه من قلوب الحزانى، بإسالة الإيمان فيها. فالمسيحيّ هو الذي يشيع فرح القيامة في كلّ قلبٍ، ويصالح

أخاه اليائس مع الحياة ومع الله، ويعيد إلى الوجود تناغمه الذي حطّمته المِحَن والخطيئة.

فمن المحقّق أنّ تقبّل المِحَن الكبرى إكرامًا لمشيئة الله، وبمؤازرة الإيمان، يوسّع حدود القلب، وآفاق النفس؛ وبه يتحوّل الإنسان من كائنٍ هشٍّ، بائسٍ، إلى كائنٍ سامٍ، لا ينال منه الكون، ولا تخيفه تهديداته، يؤنس فرحًا لا قِبَل للعالم على خنقه أو تكديره، ويتذوّق، منذ وجوده على هذه الأرض، بعضًا من طعم الأبديّة.

فطوبى لمن لا يطغى حزنهم على نداء نفوسهم، ولا يصرفهم عن أعماق أعماقهم، ولمن لا يسمحون للمِحَن أن تمسي عقبةً دون مصيرهم الأبديّ.

إنّ في حياة الناس من المظالم، وفيها من الأسرار المستغلقة، ما يقف حياله المرء عاجزًا حائرًا، وما لا يقوى على علاجه سوى الربّ نفسه، أو أولئك الذين «لبسوه» بحيث باتوا، على مثاله، رحمةً متجسّدةً، يمزّق نورُهم أكثف الظلمات حلَكًا، ويلطّف آلام من يحيقون بهم. أولئك هم أدوات الله لبثّ عزائه في قلوب الحزانى والباكين.

فطوبى لمن لا يفضي حزنهم إلى تصلّب القلب، فيهم، وتشتُّت الروح، بل يكشف لهم حقيقة حجم هذا العالم وأموره التي تفنى معه، وكذلك حجم ما يسمو فوق هذا العالم: النور والفرح الأبديَّين. فمن هذا الاكتشاف يستمدّون العزاء.

إنّ يسوع يشفي القلوب الكسيرة، قلوب أولئك الذين يبسطون بين يديه شدائدهم، وغمّ قلوبهم الدفين، وكلّ ضروب همومهم. والذين يحزنهم نأي العالم عن الربّ، وعصيان مشيئته المقدّسة، فهو يفيض في قلوبهم عزاءه.

طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، فإنّهم يُشبعون

(متّى ٥ : ٦)

يحدّد الإنسان ذاته بما يجوع ويعطش إليه.

ولقد ضلّ سواء السبيل، وحكم على نفسه بالبؤس، كلّ من زعم الظفر بالعزاء والفرح في مُتَعه الآنيّة، ووجد الاكتفاء في ماله ومقتنياته، ونَعِم بالشبع في سعة موارده، وموائده العامرة، وبالمجد في مديح الناس وتملّقهم له.

إنّ عدوّ الإيمان والسعادة الأوّل هو توهّم الإنسان أنّه، بما ملك من ثروةٍ، وعلمٍ، وشهرةٍ، قد أمسى في غنًى عن الله. وإن كان يسوع قد ناصب الغنى العداء، فلأنّ الغنيّ يخادع نفسه، محاولاً اكتشاف عزائه في ذاته، بفضل ماله. ومن ظنّ أنّه لقي عزاءه في ذاته، عجز عن اكتشاف الله، إذ إنّ على من يبتغي اقتفاء أثر يسوع، أن يحمل صليبه، كلّ يومٍ، ويتبعه.

وسنظلّ عاجزين عن إدراك الله، ما دمنا نفتقر لما يدفعنا إلى نشدانه، لأنّ جوع القداسة لم يعضّنا، بعدُ، بقسوة، ولأنّ الظمأ إلى المحبّة والعدل، لم يتلظَّ، بعد، في أحشائنا. وإنّما يسوع يتلهّف إلى إرواء العطاش إليه، وهو الذي قال: «**من كان ظمآن، فليأتِ إليّ ويشرب**».

«**طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ**». أمّا الذين لا ينهشهم الجوع، ولا يلهبهم العطش، الذين يرفضون الدعوة إلى الوليمة ريثما يفرغون من مشاغلهم الطارئة، وموائدهم الفاخرة، فأولئك لا مكان لهم في الملكوت. وما حلّة العرس التي يقتضيها ربّ البيت سوى الجوع إلى القداسة، والبذل، والرغبة الجامحة في انتهاج درب الملكوت الوعر؛ جوع القلب إلى التواصل، وعطشه إلى المحبّة.

البرّ الذي طوّبه يسوع هو سعيٌ جاهدٌ دائبٌ إلى القداسة، وهو، كالبرّ بالوالدين، عرفانٌ بجمائل الله علينا، وحرصٌ على إرضائه، والعمل بمشيئته. وقد عرّف

الكردينال «جوزف راتسنغر» (البابا بينيدكتس السادس عشر، الحاليّ) في هذا الشأن البرّ بقوله: «البرّ هو أسلوب الحياة الذي يتّخذ من كلام اللّه معيارًا، وينغرس في هذا الكلام، وفي وصايا الربّ. ويمكن القول إنّ البرّ هو الحياة وفقًا لرغبة اللّه».

قال يسوع: «**من آمن بي لن يعطش، بعدُ، أبدًا**». فمن آمن بيسوع فقدت رغباتُ الدنيا قدرتَها على استثارته، واستعباده، والسيطرة على ذهنه، واستنفاد جهوده، وتوجيه حياته بعيدًا عن بؤرة النور، عن الجوهر الخالد.

يسوع لا يمحو الجوع، ولا يروي العطش، بل هو يثير جوعًا أسمى، ويلهب عطشًا لبرٍّ أبديٍّ لا متناهٍ. فيسوع ليس عامل اطمئنانٍ واكتفاءٍ، بل هو يشفينا من شقائنا البشريّ، كي يُنشب فينا مَرضًا من نمطٍ آخر، هو الجوع والظمأ إليه. إنّه «ماء الحياة» الذي يعد به، ماءٌ هو عطشٌ أبديٌّ محيٍ، لا يقوى على الاستغناء عنه من نهل منه مرَّةً، وتذوّق عذوبته. وهذا ما عبّر عنه پاسكال بقوله: «ما كنتَ لتبحث عنّي لو لم تجدني».

إنّ يسوع يستقرّ في هوّة جوعنا، ويحفزه، ويشحذه، ويدفعه إلى المزيد، وإلى الأسمى. وإن نحن مضينا قُدُمًا في نشدان اللّه، فلأنّ حبّه هو غذاؤنا الأبديّ، ولأنّه يطعمنا، ولأنّه يبحث عنّا أكثر ممّا نبحث عنه، ويستفزّ فينا جوعًا لا يكتفي: الجوع إليه. وما كنّا لنبحث عنه لو لم نكن قد وجدناه.

ولكن هل يَنشد اللّه، حقًّا، من يَنشده ويَنشد شيئًا آخر معه؟

إنّ الإنسان يُقاس بما لا ينفكّ يتطلّع إليه بعد أن يمتلئ، وبمقدار الجوع الذي يظلّ ينهشه، لأنّ تطلّعه يشدّه صوب اللّه، ولأنّ عطشه إلى اللّه لا يرتوي. فالجوع والعطش إلى البرّ هما جوعٌ وعطشٌ إلى القداسة. وما القداسة سوى التمثّل بيسوع. فالإنسان يصبح، شيئًا فشيئًا، شبيهًا بمن يحبّ، وبمن يتّخذهم قدوةً ومثالاً، فلا عجب إن ظلّ جوعنا وعطشنا إلى البرّ يؤرّقاننا، فالتمثّل بيسوع بعيد المنال، ويستلزم جهودًا لا تنتهي. فالبرّ والقداسة الكاملان لا وجود لهما على الأرض، ومن ثمّ فالطوبى لمن يعتمل في نفوسهم جوعٌ وعطشٌ إليهما، لا يرتويان أبدًا. إنّ الراضين عن أنفسهم، المتخومين بذواتهم لا يعرفون لذيْنك الجوع والعطش معنًى. أمّا الذين سبروا عمق افتقارهم فجوعهم ملتهبٌ، وظمأهم متلظٍّ، أبدًا.

ولا يصبح المساكين والفقراء والجياع أهلاً للطوبى، حتّى يلتقوا يسوع، ويغدوا عاجزين عن الاستغناء عنه، ويدركوا رغبته في اللحاق بهم، في تلك الهوّة الكامنة في أعماقهم حيث يرتبط مصيرهم به ارتباطًا لا فكاك عنه.

إنّ كرامة الإنسان المميّزة هي أنّه ليس مدفوعًا إلى البحث أبدًا عن فريسةٍ، بل هو قادرٌ على تحويل حاجته إلى رغبةٍ، وحبّه إلى التزامٍ. وعلى نقيض البهيمة التي يهمد جوعها بعد أن تمتلئ معدتها، يستمدّ الإنسان كرامته من أنّ جوعه إلى البرّ يتفاقم كلّما هو امتلأ.

* *

ويسوع لم يطوّب فقط الجياع والعطاش إلى البرّ والقداسة، بل وعد الجياع إلى الخبز بالشبع، والعطاش إلى الماء بالارتواء، لأنّ الذين تغذّوا بحبّه، وانتعشوا بماء الحياة، سيكونون ذراعيه في إطعام الجياعِ وإرواء العطاش، ماديًّا، الذين لا تكفّ أعدادهم تتضخّم وطوابيرهم تتمادى طولاً.

إنّ أبناء التطويبات يؤمنون بأنّ الخبز وُجد كي يُقتَسم، وهم، على غرار معلّمهم الذي كثّر الخبز كي يطعم الجماهير الجائعة، لا يضنّون بمالٍ أو بجهدٍ كي يوفّروا لكلّ جائعٍ فيضًا من خبز العيش وخبز الكرامة.

ما من حقبةٍ تفاقم فيها عدد ضحايا الجوع كحقبتنا، حيث أمسى الجوع صيحةً وجيعةً تتفجّر من أحشاء البشريّة، وقلقًا ووجعًا يحاصراننا بصُوَرٍ وأرقامٍ مريعةٍ.

ولكنّ جوع المِعَد ليس سوى مظهرٍ من مظاهر الجوع الناشب بالبشر. فثمّة أَنماطٌ من الجوع أنفذ حدّةً، وأشدّ إيلامًا: جوع الفكر والقلب، جوع عجزنا عن أن نكون كما يريدنا الله، وهو ما دعاه يسوع الجوع والعطش إلى البرّ.

فلينشبْ لدينا جوعٌ وعطشٌ إلى العدل الكامل، ولنمُسِ، لإخواننا الجائعين، أصدقاء شديدي الاهتمام، بالغي الكرم، منفتحي الذهن لابتكارِ كلّ ما من شأنه إزالة الحيف الناشب بالكثيرين. ولتدوِّ صيحات المقهورين، جارحةً، في ضمائرنا، ولنستمدّ من جميع مآسي الأرض دعوةً إلى عدل الحبّ اللانهائيّ.

هذا الجوع وهذا العطش إلى العدل تزيدهما الأيّام لدى القدّيسين اضطرامًا، في حين تُخمِد الأيّام همّة الناس ورغباتهم، بعد أن يظفروا من الدنيا بأوطارهم

الرخيصة. فعلى غرار القدّيسين، ليزدَدْ جوعنا وعطشنا إلى العدل توقُّدًا، إلى أن تتحقّق على الأرض جميع طلبات «أبانا».

ولا يكوننَّ عدلنا عدلاً بشريًّا يقيس كلّ شيءٍ بالقسطاس، ويثأر لكلّ أذًى يأتيه من الغير، بل فليكن عدلَ الله الذي هو صفحٌ، وعطاءٌ بلا حسابٍ، ومقابلة الشرّ بالحبّ.

وإذا ما نجحنا في تحويل الجشع إلى جوعٍ وعطشٍ إلى المصالحة مع الله ومع جميع إخوتنا، فإنّنا نشرع نسمع، في أعماق ضمائرنا، صيحات الفرح، مرحبّةً بنا: «**طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ**».

* *

رغم المظالم التي ما برحت سائدةً، لا ريب أنّ تطويبات يسوع قد أسهمت في إرهاف الضمائر، وهي بإثارتها توتّرًا بين إرادة الله، وطاقات الإنسان، أيقظت، في هذا الأخير، جوعًا وعطشًا إلى البرّ والعدل.

وعندما يرجو الإنسان، بصدقٍ، ومن خلال شتّى ضروب جوعه، شفاء كيانه بأسره، يكون قد راح يَنشد الماء الحيّ، وينضمّ لجماعة المدعوّين إلى وليمة يسوع.

* *

وما أحلى أن نختم بقول جان ڤانييه: «لقد وهبنا يسوع ذاته، نحن الجياع، بعد أن اكتشف كم كنّا على جوعٍ، وكم كنّا على عطشٍ...». والعطاش وحدهم يستطيعون الارتواء بيسوع!

طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، فَإِنَّهُمْ يُرحَمُونَ

(متّى ٥ : ٧)

الرحمة قلبٌ مشرعٌ على شقاء الآخرين. والرحيم هو من يتألّم لألمهم، ويبتئس لبؤسهم، ويكابد في قلبه معاناتهم، ويتبنّاها، فيهبّ لتلطيف الألم، وإزالة البؤس، وتخفيف وطأة المعاناة، على غرار يسوع الذي أخذ على عاتقه شقاء البشر أجمعين، وما كان يطيق رؤية الألم، بل سارع، أبدًا، إلى شفاء السقماء، وتعزية المفجوعين، ولم يتردّد في تبنّي شقائنا، وفي مدّ يده إلى بَرَصنا.

فالرحمة ليست مجرّد كلامٍ رقيق، ومجاملاتٍ جوفاء، ولا هي شفقةٌ سطحيّةٌ باردةٌ تقطر تعاليًا واستصغارًا، ولا هي تأثّرٌ عابرٌ، وبعض دموعٍ سرعان ما يجفّفها النسيان واللامبالاة؛ بل هي تعاطفٌ داخليٌّ صادقٌ، يأخذ بالأحشاء، ويدفع إلى العمل المجدي. هي التي عبّر عنها الرسول بولس بقوله: «**من يضعف، ولا أضعف أنا، ومن يعثر ولا أحترق أنا؟**» (٢كور ١١ : ٢٩).

هي الإيمان بأنّ البشريّة جسدٌ واحدٌ، إن تألّمُ أحد أعضائه، تألّمت معه الأعضاء كلّها.

هي صفحٌ من أعماق القلب، منزّهٌ من أيّ شعورٍ بالتفوّق، ومن أيّ رواسب حقدٍ؛ صفحٌ بلا حدودٍ ولا تحفّظٍ، يُعتق المذنب من عبء الخطيئة والخزي. ولكم انتشل يسوع نساءً ورجالاً من وهاد الدنس إلى قمم الطهر، وإلى حظوة اتّباعه عن كثبٍ!

هي التي ينبغي أن تحكم العدل وترشده، لأنّ العدل، بمعزلٍ عن الرحمة، يصبح قسوةً، والرحمة، بمعزلٍ عن العدل، تغدو تراخيًا، وليبراليّةً عاطفيّةً منحلّةً تلقّن كلّ ضروب الفساد.

الرحيم هو من يُطيح بكلّ اعتبارٍ دينيٍّ، أو اجتماعيٍّ قد ينهض حاجزًا في وجه الرحمة، ومن يُزري بكلّ انشغالٍ أو مصلحةٍ ذاتيّةٍ قد يحولان دون أعمال عطفه.

هو السامريّ الذي أسعف غريبًا مرميًّا على قارعة الطريق، أعرض عنه كاهنٌ ولاويٌّ. أمّا هو فأنفق من جيبه على علاجه.

و هو، أيضًا، الأب الذي أقبل على الابن الذي عقّه، ومزّق قلبه بفراقه، وبدّد أمواله في الخلاعة. ولمّا رآه عائدًا، نادمًا، كان هو المبادر إلى الارتماء والبكاء على عنقه، فانتشى بتقبيله... ومحا كلّ ماضيه دفعةً واحدةً، وأسرف في تكريمه، ولكأنّه وليدٌ جديدٌ يُرزق به.

* *

من تحرّكت أحشاؤه رحمةً حيال الآخرين، أُتيحت له معرفة حنان اللّه حياله، ونَعِم بفرح العطاء وغبطته، إذ إنّه يواصل أعمال رحمة اللّه، في هوّة عالمنا.

فإنّ اللّه يستوعب، في قلبه، من استوعبوا شقاء الآخرين، ويستوعب، في ذاته، بؤس الجميع، وكلّ ألمٍ بشريّ.

ولئن عجز الرحيمون عن إزالة ألم الآخرين، وعن سكب كلّ ما يحتاجون إليه من عزاءٍ في قلوبهم، إلاّ أنّهم بمشاركتهم مآسيهم وهمومهم، يسمون، ويرتقون، فيبادر اللّه إلى أخذهم في قلبه، هم وآلامهم، وهمومهم.

وطوبى لمن يأخذه اللّه في قلبه!

طُوبى لأنقياءِ القَلب، فإنّهُم يُعاينُونَ الله

(متّى ٥: ٨)

القلب هو سريرة الإنسان، ونيّته، وصميم إرادته.

وأنقياء القلوب هم الذين أحكموا ضبط ذواتهم، وكبحوا حواسّهم، وتحرّروا من قبضتها الخانقة، وانعتقوا من سيطرة الجسد التي تعمي الروح عن رؤية الله، وتشدّه بقسوةٍ نحو الدركات السفلى.

هم الذين يمارسون على فكرهم، وخيالهم، وميولهم، رقابةً صارمةً مستمرَّةً، لا تتراخى لحظةً واحدةً. فنقاء النفس فضيلةٌ لا تُكتَسَب إلاّ بفضل نضالٍ شاقٍّ متواصلٍ.

فلا شيء خارجيًّا يقوى على تدنيس الإنسان، إن هو لم يدنّس نفسه بما يُفرزه قلبه من عهرٍ وفسقٍ، وشهوةٍ، وحقدٍ أو بُغْضٍ. فمن القلب يخرج كلّ دنسٍ (متّى ١٥: ١٧- ٢٠).

أنقياء القلوب هم المقيمون في الحبّ، الذين لا يُصمّهم ضجيج رغباتهم، وتطلّعاتهم، وهمومهم، ومُتَعهم، وأحزانهم، ولا شيء يمنعهم من سماع الصوت الخافت الذي يهمس في محراب ضمائرهم، وفي أعماق قلوبهم.

هم الذين يحسنون الإصغاء إلى صمتهم، فيلتقطون الهمسة الرقيقة، ويبصرون الشعاع الهادي المنبعث من النور الثاوي في أغوار نفوسهم.

أنقياء القلوب هم المشرَعون، أبدًا، عل الحقّ والحقيقة.

الذين لا يعرف الرياء والنفاق إلى نفوسهم سبيلاً. يفعلون ويقولون ما يفكّرون به، ويفكّرون وفق ما يفعلون ويقولون، وهم عالمون أنّ كثيرين ممّن يمقتون الحقيقة قد ينبذونهم، وينأون عنهم. لا يساومون على الحقيقة، بل يجاهرون بها، ويذودون عن حياضها، ولو كلّفهم ذلك حياتهم، متسلّحين بيقين المطران روميرو الذي أعلن، قُبَيْل مصرعه: «قد يقتلونني، ولكن سيتعذّر عليهم قتل الحقيقة».

هم الأبرياء السديدو الرؤية، لأنّ الميول الشرّيرة لا تلقي حُجُبها على بصيرتهم، ولا تُسدل الأفكار الدنسة ستارًا صفيقًا بين الله وبينهم؛ هم الذين لا يجهلون الوقائع الدنيويّة، ولكن لا يقوى على اجتذابهم وإقناعهم، سوى الجوهريّ، وهو من خارج هذه الدنيا. هم، كما يقول المطران جورج خضر، من «لا يرتضون ما كان دون الله جمالاً، ودونه نورًا».

القلوب النقيّة هي التي يقطنها الله وحده، وينيرها، ويتجلّى فيها، منذ هذا العالم.

هي التي، على غرار قلب يسوع، لا اعوجاج فيها ولا خداع، بل بساطةٌ وحقٌّ صافيان، ونورٌ مشرقٌ مشعٌّ.

وفي هذه القلوب جوعٌ وعطشٌ إلى مشاهدة الله، الذي تعكس جمالاتُ الكون بعضًا من صورته. وهذه المشاهدة تقتضي صفاءً لا عَكَر فيه، وشفافيّةً تحاكي أشعّة الشمس، وتنزُّهًا من حمأة الخطيئة، ومن لوثة الأفكار الدنسة، ومن وقر هموم العالم وأسر مطامعه.

أنقياء القلوب هم صانعو الخير، غير ملتمسين أيّ جزاءٍ؛ لا ينتظرون إذنًا لعمل الخير، بل يتخطّون البرامج الباردة الجامدة، ويندفعون، تلقائيًّا، إلى أعمال المحبّة؛ هم الذين يحدوهم الحبّ والرحمة، التوّاقون إلى الله وبرّه. هؤلاء سيرتوي توقهم عندما يعاينون الله، وحينئذٍ سيتعذّر وصف سعادتهم.

إنّ النور بانتظارك، فنظّف عينيك كي ينفذ منهما إلى قلبك.

طُوبى لِصانِعِي السَّلامِ، فَإِنَّهُم أَبناءَ اللهِ يُدعَوْن

(متّى ٥ : ٩)

إنّ اللّه إله سلامٍ، وفيه ملء الحياة. ولكنّ، في جماعات البشر، صراعاتٍ، وصليل خلافاتٍ مزّقت وحدتهم، ودمّرت سلامهم.

السلام قيمةٌ من مستوًى سامٍ، قيمةٌ إلهيّةٌ كالعدل والحقيقة. إنّه نعمة الخلاص، وعلى كلّ فردٍ أن يبلّغها لسواه.

حاجتنا، إذن، هي إلى سلامٍ قائمٍ على اللّه، حيث يتّحد البشر في ما بينهم ومع اللّه. إذ حيث يغيب اللّه، من شأن الشقاق أن يفصل الأب عن ابنه، والأخ عن أخيه، ويجعل من ساكني البيت الواحد أعداءً أحدهم للآخر.

لقد دأب يسوع على إحلال السلام، أوّلاً، بين تلاميذه المتبايني الطباع، المتنافسين على المناصب الأولى، فحوّل عدوانيّتهم إلى مقارعة أهوائهم الأنانيّة، وتنمية طاقاتهم على حبّ الآخر المختلف، وعلى التمثّل بالآب الذي يسكب غيثه، ويُطلع شمسه على الصالحين والأشرار، بلا تمييزٍ، والذي يدعو إلى الفرح، فرح الاستسلام بين ذراعَي الآب، وفرح العودة إلى أحضانه بعد عقوقٍ وتيهٍ، وفرح المشاركة والاقتسام.

وقد حرص يسوع على أن يكون كلّ إنسانٍ في سلامٍ مع ذاته، فللخاطئة الرازحة تحت وقر الخزي والازدراء قال: «امضي بسلامٍ»، وتلاميذه الذين أوقعهم تنبُّؤه بآلامه ومهانته الوشيكة في بحرانٍ من الغمّ والاضطراب، استفاض في إطلاعهم على ما سيحدث، وخلص إلى القول: «قلتُ لكم هذا، لكي يكون لكم، فيّ، السلام» (يوحنّا ١٦ : ٣٣). إذ لا يستطيع إحلال السلام من حوله، من لم يُحلّه، أوّلاً، في قلبه، وذهنه.

السلام هو انتباذ كلّ ما أَدانه يسوع من أطماعٍ، وتعالٍ، وتمييزٍ، وأحقادٍ، وعداوةٍ،

وتناحرٍ، وتنافسٍ، وأنانيّةٍ؛ وهو التزامٌ بكلّ ما دعا إليه من محبّةٍ، وإيثارٍ، ورحمةٍ، وصفحٍ.

هو، على حدّ قول البابا يوحنّا الثالث والعشرين، «نزع سلاح النفوس».

هو المبادرة إلى مصالحة الخصم، ولو كلّفت المصالحة، تنازلاتٍ باهظةً؛ وتجنّب اللجوء إلى القضاء والشرطة؛ هو التخلّي عن المعطف، أَيضًا، لمن يقاضيك مطالبًا بقَبائك؛ هو التضحية بالحقوق الشخصيّة، أحيانًا، صونًا للمحبّة؛

هو تقديمك الخدّ الأيسر لمن يلطمك على الخدّ الأيمن؛

هو السير ميلين مع من سخّرك لميلٍ واحدٍ؛

هو التوغّل في الحبّ، حتّى حبّ الأعداء؛

وهو السعي إلى إزالة أسباب الصدام بين البشر والأُمم.

هو التمثّل بيسوع الذي بذل نفسه كي يصالح البشريّة مع الله، ويصالح الإنسان مع نفسه، وكي يشيع سلامًا مبنيًّا على العدل والمحبّة؛

هو سلامٌ داخليٌّ قائمٌ على الإيمان، لا يتهرّب من مسؤوليّةٍ، ولا يتعارض مع المعاناة، والكفاح، ومقتضيات الالتزام الباهظة، أحيانًا. فالسلام يُصنع وطوبى لمن يصنعونه.

صُنع السلام فعلٌ، بل سلسلة أفعالٍ. إنّه جهدٌ يستلزم تعاون العقل والإرادة، ووضوح الرؤية، والجرأة. لا تكفي الدعوة إليه بعباراتٍ عذبةٍ أو رنّانةٍ، بل ينبغي ابتداعه، والانغماس في العمل من أجل تحقيقه وإقراره. فمن يبتغي السلم، حقًّا، عليه استخدام الوسائل المؤدّية إليه، و«**كلٌّ يسعى لولوج الملكوت عنوةً**» (لوقا ١٦ : ١٦). ويسوع أهاب بتلاميذه أن يكونوا فاعلين: «**فليكن فيكم ملحٌ، ويسالم بعضكم بعضًا**» (مرقس ٩: ٥).

هناك المسالمون المنكفئون في داخل قوقعتهم لكيلا يصطدموا بأحدٍ، ويتجنّبوا كلّ خلافٍ. هؤلاء لا يصنعون سلامًا. وهناك من يفرضون السلم الذي يخدم مصالحهم بأسلحتهم المدمّرة. هؤلاء هم أعداء السلام.

ولكن طوبى لمن يحدوهم روح المحبّة، الذين يشيعون السلام، ويصالحون

المتحاربين، ويزيلون الأحقاد، ويلمّون شمل المنفصلين. طوبى لمن يفعلون ذلك كلّ يومٍ، بمبادراتٍ بسيطةٍ، بكلمة مصالحةٍ، بقلبٍ مفعمٍ بالله. طوبى لمن يحاصرهم هاجس إحلال السلام بين الشعوب، والذين يعملون لهذه الغاية بنوايا طاهرةٍ، مجرّدةٍ. وطوبى، خاصّةً، لمن يعقدون السلام بين الله والبشر، «**للمؤتَمَنين على خدمة المصالحة، لأنّ الله الذي صالح، في المسيح، العالم مع نفسه...، أودعنا كلمة المصالحة**» (٢ كورنثس ٥: ١٨– ١٩).

إنّ الذي يشعّ السلام القائم بين الله وبينه، لا يحتاج إلى إلقاء خطاباتٍ، لأنّه يصبح للآخرين، بذاته، دربًا يُفضي إلى السلام، ويحقّق الصلاة المنسوبة إلى القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ:

«إجعلني، يا ربّ، أداة سلامك،
فأُحلّ الحبّ محلّ البغض،
وأحمل الصفح إلى حيث الإهانة،
والوئام إلى حيث يسود الخصام،
والإيمان إلى حيث يسود الشكّ،
والحقيقة إلى حيث يسود الضلال،
والرجاء إلى حيث يسود القنوط،
والفرح إلى حيث يسود الحزن،
والنور إلى حيث يخيّم الظلام.
ويا معلّمي، هبني ألاّ ألتمس لنفسي الكثير:
فلا أوثر عزائي على تعزية الآخرين،
ولا فهم الآخرين لي، على فهمي للآخرين،
ولا حبّ الآخرين لي على حبّي للآخرين،
فالمرء ينال بالعطاء،

ويجد نفسه عندما ينساها،

ويظفر بالصفح عندما يسامح،

وبالموت يقوم إلى الحياة الأبديّة».

أمّا مكافأة صانعي السلام فهي ملء الشراكة مع الله، حبٌّ شخصيٌّ كالحبّ الذي يجمع الأب بابنه، حميميّةٌ مع ربّ الكون، علاقة قربى مع الله الكلّيّ القداسة، تبدأ على هذه الأرض، وتكتمل في السماء. إنّها نعمةٌ سنيّةٌ تجعل من ينالها يهتف مع القدّيس يوحنّا، في رسالته الأولى (٣: ١): «**انظروا بأيّة محبّةٍ خصّنا الآب، كي نُدعى أولاد الله! ونحن، في الواقع، كذلك**».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

طوبى لك إن أنت كرّست ذاتك لبناء السلام، وإشاعة المصالحة، فالله يعمل في هذا العالم من خلالك.

طوبى للمضطهدين من أجل البرّ

(متّى ٥: ١٠ – ١٢)

قُبَيْل صلبه صلّى يسوع من أجل تلاميذه، فقال: «**لقد أَعطيتُهم كلمتك فأبغضهم العالم، لأنّهم ليسوا من العالم، كما أنّي، أنا، لست من العالم. ولست أسألك أن تخرجهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرّير. إنّهم ليسوا من العالم، مثلما أنّي لستُ من العالم، فقدّسهم بالحقّ. إنّ كلمتك هي الحقّ. ومثلما أرسلتني أنت إلى العالم، أُرسلهم، أنا، إلى العالم، ولأجلهم أُقدّس نفسي لكي يكونوا، هم أيضًا، مقدَّسين بالحقّ**».

فقد كان يسوع عليمًا بما سيتعرّض لـه تلاميذه الذين يعيشون في العالم، مناقضين لشرائع العالَم، ومُثُله، وأعرافه، من مقاومةٍ واضطهادٍ، أو أقلّه، من سخريّةٍ ونبذٍ.

إذ لا بدّ لمن يلتزم الإنجيل، ويُخلص لـه، من السباحة في عكس تيّار العالم، ولا بدّ لمن يناصر العدل والحقّ، من أن يقاوم مغتصبي الحقوق، ومنكري الحقيقة، المستبدّين بسلطتهم، المزدهين بما يدّعونه من علمٍ وذكاءٍ.

ولا بدّ لمن يسعى إلى إرساء السلام على أسس المحبّة واللاعنف، من مصارعة دعاة الحرب، ومضرمي الفِتَن، وموغري الصدور بمشاعر البغضاء والشحناء؛

ولا بدّ لمن يعبدون الله وحده، من الاصطدام بعَبَدة المال والقوّة؛

ولا بدّ للمحرِّرين من مقارعة الطغاة المستبدّين.

المضطَهَدون يمتُّون بصلةٍ وثقى إلى أسرة الفقراء، والجياع، والحزانى، والباكين، الذين وعدهم يسوع بعزائه وسعادته. فوجود الفقر، والمرض، والنبذ، والحزن، إهانةٌ

لعدل الله وحبّه. وقد تعهّد هو نفسه بسكب عزائه في نفوس ضحايا ظلم البشر، ودعا أصدقاءه إلى تصحيح الوضع الجائر، وإقامة موازين العدل. ولذلك يواجَهون بالمقاومة.

ولا غروَ في ذلك، فمُناصِرو المنبوذين يُنبَذون، ومساندو المضطهَدين يُضطَهَدون، ومن تعارضت أفكارهم ومبادئهم مع أفكار المجتمع ومبادئه عُدّوا مجانين.

يسوع نفسه، بمقدار ما كان يوضح مبادئه، فيرفع الأخيرين إلى المقام الأوّل، ويدعو إلى تساوي الجميع، كان مجتمعه ينأى عنه، ويناصبه العداء. ولكنّه مضى قُدُمًا في الإزراء بالتقاليد والمفاهيم التي أجمع عليها القوم، فلم يُعرض عن تلبية دعوة عشّارين، ولم يردع امرأةً سيّئة السمعة من سكب العطر على قدميه ومَسحهما بشعرها؛ ورحّب بعودة ابنٍ عاقٍّ هدر مال أبيه في الفسق والعربدة، ونفَحَ عامل الساعة الحادية عشرة مثل أَجر من عملوا النهار كلّه، وضرب من السامريّ، الملعون لدى اليهود، مثالاً للرأفة والمحبّة، وقلب كلّ المصطلحات رأسًا على عقبٍ. ولكلّ ذلك استحقّ الصلب. وهكذا اضُطهد جميع الأنبياء من قبله.

وما انفكّ العالم يقاوم من يشذّ عن دروبه ومبادئه ويضطهده، ويكرّم من يلتزم بسننه، ويعنو لتقاليده. ولذلك قال يسوع: «**ويلٌ لكم إذا قال فيكم جميع الناس قولاً حسنًا، فهكذا فعل آباؤهم بالأنبياء الكذبة**» (لوقا ٦: ٢٦).

المسيحيّون الذين يتبنّون شرائع العالم وتطلّعاته الجائرة، ويرتكبون ما يرتكبه سواهم من مظالم، ويوظّفون أنفسهم في خدمة المال والسلطة، ويغضّون الطرف عن الحَيْف، إنّما هم يخونون الإنجيل، ويضطهدون يسوع في إخوته.

أمّا تلاميذ يسوع الأوفياء، الذين يشذّون عن سنن العالم ومناهجه، لكي يكونوا لمعلّمهم شهودًا مخلصين، فلا يخشَون سخريَّةً أو هزءًا، أو حتّى اضطهادًا. وهم موقنون أنّ عليهم التكفير عمّا ارتكبه وما انفكّ يرتكبه مسيحيّون زائفون من خيانةٍ ليسوع وللبشر.

مصير المسيحيّ أن يُضطهَد، أبدًا، لأنّ سلوكه إدانةٌ للجشع، والجبن، والأنانيّة والطغيان. ولكن الله يسكب في نفسه سلامًا لا يوصف.

ويسوع نفسه هو زعيم المضطَهَدين من أجل البرّ. فقد واكبه الاضطهاد والتشهير

منذ مطلع رسالته حتّى الجلجلة، واتُّهم بالتجديف، والاحتيال، والخداع، والتواطؤ مع رئيس الشياطين، وأُنكرت عليه صفة الحقيقة التي عمل باسمها، وبنوّة اللّه التي كانت ميزته وجوهره، ونُكِّل به، ومات ميتة هوانٍ؛ لم يُطعَن في جسده فحسب، بل أيضًا في قلبه، وسمعته، ومصداقيّته.

ولكنّ الاضطهاد آتاه المجد، إذ نهض من القبر في اليوم الثالث مثبتًا تفوّقه، وصدقه، وألوهته.

لقد ضرب لتلاميذه المثل الحيّ في احتمال شتّى صنوف الإهانات، والافتراءات، والاضطهاد، والتعذيب، ولا بدعَ إن لقي تلاميذه الأوفياء مثل مصيره، وتعرّضوا لقوى الشرّ، والافتراء، والعداء، «**فحسب التلميذ أن يكون مثل معلّمه**» (متّى ١٠ : ٢٥)، ولكن ليس ذلك للتلاميذ مدعاة حزنٍ، ومرارةٍ، وغضبٍ، بل إنّ يسوع يدعوهم إلى الفرح: «**افرحوا وابتهجوا، فإنّ أجركم عظيمٌ في السماوات**».

والقدّيس بطرس يقول لجميع الذين آمنوا بيسوع: «**افرحوا، بالحريّ، بمقدار ما تشتركون في آلام المسيح، حتّى تفرحوا، أيضًا، وتبتهجوا في تجلّي مجده. إذا ما أُهنتم من أجل اسم المسيح، فطوبى لكم! لأنّ روح المجد، روح اللّه، يستقرّ عليكم**» (١ بطرس ٤ : ١٣ –١٤)، ويسوع نفسه أنذر تلاميذه ووعدهم: «**الحقّ الحقّ أقول لكم إنّكم ستبكون وتنوحون والعالم يغتبط. أجل، إنّكم ستحزنون، ولكنّ حزنكم سينقلب فرحًا...**» (يوحنّا ١٦ : ٢٠).

كيف لا، والمكافأة الموعودة هي المكوث في ملكوت اللّه، ومشاهدته وجهًا لوجه، والتنعّم ببنوّته؟

تَطْوِيبَاتٌ عَمَلِيَّةٌ

مغبوطون هم الذين يضحكون على ذواتهم، فهم أبدًا مَرِحون.

مغبوطون هم من يميّزون بين الجبل، وكومة التراب التي يحدثها الخُلْد، فهم يُنقذون أنفسهم من مصاعب جمّةٍ، نافلةٍ.

مغبوطون هم الذين يستطيعون الإخلاد إلى الراحة والنوم، من غير حاجةٍ إلى التماس عذرٍ، لأنّهم سيصبحون حكماء.

مغبوطون هم الذين تمرّسوا بالصمت والإصغاء، لأنّهم سيكتسبون معارف جديدةً.

مغبوطون هم من تحلَّوا بقسطٍ وافٍ من الذكاء، بحيث لا يغالون في تقييم ذواتهم، لأنّهم سيظفرون بتقدير محيطهم.

مغبوطون أنتم، يا من يأخذون الأمور الصغيرة مأخذ الجدّ ويواجهون، بسكونٍ، الأمور الجدّيّة، لأنّكم ستمضون في الحياة، بعيدًا.

مغبوطون أنتم إذا طربتم لبسمةٍ، وأغضيتم عن تكشيرةٍ، فستغمر الشمسُ دربَكم، حتّى عندما يفسّر الآخَرون موقفكم تفسيرًا سلبيًّا؛ فقد يعدّونكم سُذَّجًا، ولكن هذه هي ضريبة المحبّة.

مغبوطون هم الذين يُعملون فكرهم قبل أن يعملوا، ويضحكون قبل أن يفكّروا، لأنّهم سيجنّبون أنفسهم الكثير من الحماقات.

مغبوطون أنتم إذا لزمتم الصمت، وابتسمتم، عندما يقاطعون كلامكم، ويعارضونكم، ويضايقونكم، لأنّ الإنجيل قد شرع يتغلغل إلى قلبكم.

مغبوطون أنتم، خاصّةً، إذا توسّمتم الربّ في جميع من تقابلونهم، لأنّكم عثرتم على النور الحقّ، وعلى الحكمة الحقّة.

(جوزيف فولّييه Joseph FOLLIET)

«أنتُم مِلْحُ الأرْض»

(متّى ٥: ١٣)

في جميع الحضارات والأَديان كان الملح عنصرًا جوهريًّا من مقوّمات الحياة، فهو الذي يقاوم الفساد ويطهّر، وهو الذي يُكسب الأطعمة التافهة نكهةً مُستساغةً؛ وهو، إلى ذلك، رمزٌ لذوبان «الأنا» في الكلّيّ، وعربونٌ للمحبّة، والصداقة، وحسن الضيافة، ونبذ العداوات، والمصالحة.

الملح يمتزج بالطعام ويذوب فيه، فيُشيع طعمه في كلّ أجزائه. هكذا أراد يسوع تلاميذه أن يكونوا حاضرين في مجتمعهم، وأن يتغلغلوا حيث الناس يعملون، ويتألّمون، ويجهدون في بناء المستقبل، فيبثّوا في قلوبهم «طعم الله».

قال يسوع ذلك في أعقاب «التطويبات»، وهو، إذن، بقوله «أنتم» يعني الفقراء بالروح، الودعاء، المتواضعين، أنقياء القلوب، صانعي السلام، وقد طلب منهم أن يكونوا «ملح الأرض»، لكي يُسبغوا على الحياة والوجود طعمًا خاصًّا مستساغًا، يطغى على المرارة والتفاهة الشائعتَيْن، طعم حياة الروح، وطعم الله.

فأن يكون المرء ملح الأرض هو أن يضفي عليها نكهة الاستقامة، والفضيلة، والانتماء إلى الربّ. هو التميّز عن الضحالة والتفاهة.

الإيمان بيسوع، وحياة التطويبات، هما ملح المسيحيّ، وإلاّ عاش كما تعيش القطعان البشريّة في التفاهة، والبلادة، والرتابة. وعلى المسيحيّ أن يُسيل في أوصال مجتمعه، عوضًا عن هذه كلّها، الفرح، وجرأة المغامرة، والاندفاع، وأن يُضفي معنًى على الوقائع العاديّة التي فقدت طعمها، ويطعّمها بنكهة الملكوت. وعليه مقاومة شتّى المحاولات الجاهدة في إفراغ الحياة من غاياتها وأهدافها، مبشّرًا بالملكوت. فمع يسوع كلّ شيءٍ يستعيد معنًى وطعمًا، حتّى الألم، والاضطهاد، والوهن، والشيخوخة، والموت، بل حتّى الفشل الذي قد ينقلب عامل بناءٍ.

* *

الملح يذوب في الطعام فيُضفي عليه نكهةً، والخميرة تهب العجين ذاتها فتُنضجه، والنور يتسرّب إلى العين فيتيح لها أن ترى. ويسوع غزا العالم بتقديم ذاته طعامًا، وعلّم أنّ الملكوت خدمةٌ، لا سيطرةٌ.

ولكنّ الكارثة هي عندما يكون من انتُدبوا للإنارة، والقيادة، وبثّ النكهة في حياة الآخرين، دونهم طعمًا، ونورانيّةً، ومناعةً. فمجتمعٌ بلا نخبةٍ محكومٌ عليه بالموت.

يُفترض، إذن، في من دُعي إلى العطاء أن يملك، ومن ثمّ فعلى من انتُدب لإرواء الآخرين أن يقيم صلةً وثيقةً بالنبع. إذ وحده الاتّصال المستمرّ بمن هو النور والحياة يوفّر موارد العطاء.

ولكن هل ما زال المسيحيّون يملّحون الوجود، كي يغدو مستساغ المذاق، جذّابًا؟ وهل ما يزال، لدى تلاميذ يسوع، نكهة حياةٍ يفتقر إليها الآخرون؟ وهل ما برحت الكنيسة، في صميم العالم، خميرةً تنضجه؟

يبدو أنّ المسيحيّين، منذ سنواتٍ، يتّبعون حميةً خاليةً من الملح، وأنّ الكنيسة غدت، في نظر الكثيرين، كئيبةً، خائفةً، سجينة عاداتٍ دهريّةٍ، عاجزةً عن بثّ أيّ نورٍ في ثقل العالم الراهن، وعن لعب أيّ دورٍ في تصادماته، ولكأنّها انسحبت منه، وعزفت عن مهمّة التمليح، وباتت تستخدم، بحذرٍ محسوبٍ، توابل كيميائيّةً خاليةً من حذق الملح.

وكان يسوع قد حذّر من خيانة الملح هذه، فقال: «**إنّ الملح شيءٌ حسنٌ، ولكن إذا فسد الملح، فبماذا يُردُّ إليه طعمه؟ فليكن فيكم ملحٌ، وليُسالم بعضكم بعضًا**» (مرقس ٩: ٥٠).

الملح، إذا فسد، يمسي نفايةً لا تصلح لشيءٍ، بل تُرمى وتداس بالأرجل. لذلك يطالب يسوع تلاميذه بالحفاظ على أصالتهم، وملح عمادهم، لكيلا يفتقروا إلى «طعم الله»، ويفقدوا، بذلك، قيمتهم الذاتيّة، ويغدوا لا جدوى منهم.

وعلى ملحهم أن يظلّ مؤثّرًا، حذقًا، كاويًا، وإلاّ استأهلوا قول پول كلوديل: «الإنجيل ملحٌ، فلمَ حوّلتموه سُكّرًا؟».

كثيرون منّا، في أعقاب فترة سخاءٍ، واندفاعٍ، يتراخَون، ويفقدون زخمهم

وطعمهم وحكمتهم، ولكنّ القدّيس بولس يحذّرنا: «**اسلكوا بحكمةٍ... وليكن كلامكم لطيفًا على الدوام، مُصلَحًا بملحٍ...**».

ولئن طغت علينا التفاهة، فلأنّنا جعلنا حرافة الإنجيل اللاذعة، في حياتنا، تفقد زخمها، ولأنّنا استعضنا عن تعاليم الإنجيل البركانيّة، بيُسر تعاليم مجتمع الاستهلاك، ولأنّنا أصبحنا كالحرباء نصطبغ، على التوالي، بمختلف ألوان محيطنا، فأمسينا مادَّةً مُبهَمةً، لا لونَ لها، ولا رائحةَ، ولا طعمَ. ولكأنّ يسوع ينذرنا: لئلاّ يفسد ملحكم، شذّوا عن سنن العالم، وحيدوا عن مناهجه، وانبذوا تعاليمه ومعاييره، وتميّزوا عن الراضين بالرداءة، والضحالة، والتفاهة.

والويل لمن، بعد أن كان للعالم ملحًا، فقد مذاقه في ذاته، وبات عاجزًا عن بثّه في ما حوله. وبعد أن انتهج درب الإنجيل تخلّف عنه، ومع ذلك ما انفكّ يوهم الآخرين بأنّه ما برح ملحًا ونورًا!

أمّا من ظلّ وفيًّا لمهمّة التمليح، فلا يتكبّر، ولا يدّعي، بل يعترف بتواضعٍ، أنّ كلّ ما لديه إنّما هو ثمرة ما صنعه الله فيه. فالملح يذوب كي يفعل ويؤثّر، ويختفي كي تظهر نكهته.

إنّ الملح يهب ذاته كي يذكي نكهة الطعام. ولكن إن طغى طعم الملح أفسد الطعام. فعلى من يخدم ألاّ يسحق حرّيّة الآخرين، بل أن يساعدهم على إنماء شخصيّاتهم.

أَنْتُم مَرَحُ الأرض...

قيل: «كلّ مسيحيٍّ هو رجلٌ مبتهجٌ». فعلامَ هذا الفرح الذي لا يتزعزع؟ لأنّنا ماضون، بثباتٍ، نحو بلاد الله، أيّةً كانت مفاجآت الطريق وتعرُّجاتها.

مرحٌ؟ أجل، لأنّه بوسعنا، دائمًا، أن نصعّد، وليقيننا بأنّ ما من ظرفٍ يقوى على تقييدنا، ولأنّ الملكوت الموعود ثاوٍ في فكرنا وقلبنا. ومهما حدث، نحن مدعوّون إلى وليمة العرس، إلى غد اليوم الأخير.

حتّى لو كانت الطريق شاقّةً ووعرةً ومؤلمةً، وحتّى لو حجب الألمُ الضحكةَ أو البسمةَ، حسبُنا أن نذكر المآل، حتّى تنطلق الفتاة الصغيرة المدعوّة «الرجاء» تتوثّب جذلاً.

فرحنا ليس قائمًا على سذاجةٍ حمقاء، فالقدّيس بولس ما انفكّ يردّد أنّ العالم يجتاز آلام المخاض، وفي كلّ لحظةٍ تتعالى من الأرض تنهّداتٌ وآهاتٌ. ولكن، في كلّ لحظةٍ، أيضًا، تسهم الشجاعة، والطيبة، والبطولة في إشراق الوجود وتجلّيه.

الإنسان أكبر من الإنسان، وتسكنه آفاقٌ فسيحةٌ بلا حدودٍ. تطلّعاته، وتوقّعاته، وأبحاثه تتخطّى، أبدًا، الحاضر. والتفاوت الشاسع بين الحاضر الماثل، والمستقبل المرتجى، يولّد، بلا انقطاعٍ، مَرَحًا منيع الجذور.

مرح الأرض، هو دعابة الله...

أنــتمُ نوُرُ العَـالَمِ...

(متّى ٥: ١٤– ١٦)

أيّ طموحٍ في هذا القول الذي عَقِب قول: «أنتم ملح الأرض»! لو لم يصدر هذان المطلبان عن يسوع، لبدَوا ادّعاءً مشبعًا غرورًا وجنونًا.

لا يكفي أن تكونوا للأرض ملحًا، بل كونوا لها شمسًا!

بمعزلٍ عن الشمس، لا لون، ولا رُواء، ولا حياة. الشمس هي مصدر كلّ طاقةٍ، وعنصرٌ جوهريٌ لكلّ حياةٍ. والله، مذ خلَقَ الكون، غمره بالنور.

يسوع قال: «**أنا نور العالم**» أي حياته. والرسول بولس دعا الفيليبيّين إلى أن يضيئوا العالم كنيّراتٍ، ببذلهم له كلمات الحياة (فيليبي ٢: ١٥ –١٦).

يا لجسامة مسؤوليّة أن يكون المرء شمسًا، ولا سيّما إن هو كان، على غرار رسل يسوع، من عامّة القوم، فقيرًا، ضئيل زاد العلم، خاطئًا!... وأيّة ثقةٍ يوليها الله أولياءَه، بانتدابهم لمهمّة أن يكونوا للعالم شمسًا، مع أنّ نورهم لا ينبع من ذواتهم، بل من إيمانهم بيسوع!

ويضيف يسوع: «**المدينة الجاثمة على مرتفعٍ لا يمكن أن تخفى. والسراج إذا أُوقد فليس ليوضع تحت المكيال، بل على المسرجة، فيضيء لجميع الذين في البيت. وهكذا، فليضئ نوركم قدّام الناس، ليرَوا أعمالكم الحسنة، ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات**».

لم تكن تلك دعوةً إلى التظاهر، إذ إنّ يسوع ما لبث أن أوصى: «**احترزوا من أن تصنعوا برّكم قدّام الناس، لكي ينظروا إليكم**» (متّى ٦: ١).

نور الله وحده هو الكفيل بإضاءة العالم. ولكنّ الله شاء أن يشعّ من خلال المؤمنين به، وأوليائه، على نحو ما أكّد الرسول بولس (٢ كورنثس ٤: ٦ – ٧): «**لأنّ الإله**

الذي قال: «ليُشرق من الظلمة نورٌ، هو الذي أشرق في قلوبنا، لكي تسطع فيها معرفة مجد الله المتألّق في وجه المسيح. إلاّ أنّ هذا الكنز نحمله في آنيةٍ خزفيّة، لكي يتّضح أنّ هذه القدرة الفيّاضة هي لله، وليست منّا».

النور الذي ينبغي أن يُشعّ هو نور الأعمال النيّرة، الصادقة، الكفيلة بدعوة الآخرين إلى الإشادة بمجد الله. هي الأعمال التي لا تحدوها حسابات المغانم، بل تلتمع بألَق الخدمة؛ التي لا تشوبها ولو رغبةٌ مكتومةٌ في الظهور، فنور يسوع لا يقيم حيث تقيم الرغبة في الظهور؛ وليست هي الأعمال المخطّط لها بدرايةٍ وإحكامٍ لكي يتناولها الإعلام ويركّز عليها أضواءه، بل هي تلك التي تنبجس من القلب لكي تروي البشريّة، في مثل صفاء مياه النبع التي تروي الأشجار، والنباتات، والزهور.

الشاهد الحقّ، مهمّته الشفافيّة، وإلاّ غدا شاشةً معتمةً تحجب مصدر النور. ولا يسع الإنسان أن يكون للعالم نورًا، ما لم تغمر أعمالَه حقيقةُ الله.

تُرى، هل نور يسوع فينا يضيء العالم؟ أم إنّنا تقاعسنا عن الإصغاء إلى صوت الربّ، فانقلب نورنا ظلامًا؟ وهل فينا من الماء الحيّ ما ينقع عطش العالم، أم إنّنا آبارٌ مشقّقةٌ لا تحتفظ بمائها؟

* *

إنّ كرامة المسيحيّ ومسؤوليّته بأن يكون للأرض ملحًا، وللعالم نورًا، لا يستهدفان مجده الخاصّ، بل تمجيد أبيه السماويّ. فيسوع نفسه لم يلتمس سوى مجد الآب؛ وكم بالأحرى إن كنّا، نحن الخطأة، وإلى حدٍّ ضئيلٍ، «ملحًا» أو «نورًا»، فإنّما ذلك بفضل الآب، ومن أجل تمجيده!

فإن كنتَ ضعيفًا يبثّ الله فيه قوّةً، وإن كنت خاطئًا يخلّصه الله، وإن كنت ملوَّثًا لا يني الله يطهّره، وإن كنت حقودًا يلقّنه الله الغفران، وإن كنت جشعًا إلى المال وأَعتقك الله من ربقة ممتلكاتك، وإن كنت أحد عاثري الحظّ الذين فشلت معظم مشاريعهم، ومع ذلك تنعم بسعادة «التطويبات»... حينئذٍ سيكون مثالك، لإخوتك، حافزًا يهبهم الرجاء في النهوض والشفاء. وعندما يشهدون ما تحقّقه من خيرٍ، مع وهنك، سيستطيعون تمجيد أبيك السماويّ.

وليحذر من كان، يومًا، نورًا، أن يصبح ظلمةً! فمن سار في نور يسوع، ثمّ حاد عنه لا يُهلك نفسه فحسب، بل يصبح عامل ضلالٍ وانحطاطٍ للآخرين.

ومن تخلّى عن درب نور يسوع، أصبح، لا محالة، ضحيّة أمير الشرّ، وقوى العالم المادّيّة.

* *

وما علينا أن نهتمّ بأنْ يشهد الناس نورنا، فالنور الحقّ لا شيء يقوى على حجبه. وكلّما تعالى أَلَقه، أضاء، أكثر فأكثر، كلّ البيت. حسبُنا، إذن، أن يكون داخلُنا نيّرًا، وأن يشعّ النور من خلالنا، كي يتبيّن الناس أنّه نور الروح الذي رُصِّعت به نفوسنا، ويرى كلٌّ منهم ذاته على ضوئه، وحينئذٍ سيدركون أنّ بمكنتهم، هم أيضًا، امتلاك هذا النور، والتحرّر من قبضة العالم وظلماته.

ولا نقلقنّ إن لم يعترف العالم بنورنا، فنحن، مع ذلك، ومع يسوع، نور العالم.

دُعـــابَة(*)

(متّى ٦: ٢٥-٣٤)

يا لَدعابة يسوع!

فقد كان يرى، من حوله، قلق الناس، وخوفهم من الغد، وبؤسهم، وجوعهم، ومع ذلك يدلّهم إلى العصافير العابثة، والزهور المتألّقة الألوان!

وحين كانت الهواجس والهموم تطغى على نفوسهم، وتُعميهم عن كلّ شيءٍ، كان يشدّ انتباههم إلى مكانٍ آخر، ويرفع إصبعه إلى السماء، قائلاً: «**انظروا....**».

ولكنّه، هو نفسه، بعد ذلك، كان يدأب على شفاء الناس، ولا يقف مكتوف اليدين، شارد الأنظار في اللازورد.

العصافير نفسها تسعى، سحابة النهار، بحثًا عن طعامها، ولكنّها، بغريزتها، تعرف أنّه يكفي كلَّ يومٍ جهدُه وهمُّه.

وماذا عن الثياب؟ تذكّر يسوع ما قيل عن بذخ سليمان، فابتسم وقال: «**راقبوا زنابق الحقل كيف تنمو... فسليمان، في عزّ مجده، لم يلبس كواحدةٍ منها**». لا بدّ من ثوبٍ يستر العري، على ألاّ يُنسي الاهتمامُ به وقائعَ أخطر شأنًا: الحياة التي لا تنضب، ومغامرتها المدهشة، والله وما يسبغه علينا من نِعَم.

وعندما كان أوائل المسيحيّين يُسامون الاضطهادات، ذكّرهم الإنجيليّ متّى بقول الربّ إنّ الآب قد أحصى، بحبٍّ، شعر رؤوسهم، وأنّهم، في نظره، أثمن، بلا قياسٍ، من طيور السماء التي لا يسقط واحدٌ منها من غير إذنه؛ وأنّ الأطفال هم طليعةُ سكّان ملكوته، بفضل ثقتهم العذبة التي تطرد كلّ خوفٍ.

ألسنا، بانحنائنا على هوّة الله التي تبدو خاويةً، وفي نور أقوال يسوع الساطع، نجد توازننا الأرشق والأمنع؟!

مِن حُبِّ الشريعَةِ إلى شَريعَةِ الحُبّ

اعتقد اليهود أنّ الوصايا التي تلقّاها موسى من الله كفيلةٌ بتنظيم كلّ جوانب الحياة الجماعيّة والفرديّة. غير أنّهم اختلفوا عندما اصطدموا بقضايا مستجدّةٍ، نابعةٍ من دقائق الحياة اليوميّة، فأضحت لهم الشريعة علّة انقسامٍ. فالصدّوقيّون لايؤمنون إلاّ بالنصوص المكتوبة، الموحاة لموسى؛ والأسّينيّون يمارسون الشريعة وفقًا لإيضاحات مؤسّس حركتهم، وبدقّةٍ تتجاوز دقّة الفرّيسيّين. والفرّيسيّون أضافوا إلى الشريعة المكتوبة مجموعةً من التفسيرات والتأويلات، اقتضتها أحوالٌ طارئةٌ، ودعوها الشريعة الشفويّة، أو التقليد، وأضفَوا عليها صفة الإلزام كالشريعة المكتوبة، بل جعلوها فوقها، وقد رفضها الصدّوقيّون.

وجاء يسوع فأعلن أنّه لا يبتغي نقض الشريعة، ولكنّه رفض تفسيرات الفرّيسيّين، وفهم الصدّوقيّين لها، وأبى الاستعباد لحرفها، بل استبقى روحها كما فهمه الأنبياء، وهو محبّةٌ ورحمةٌ؛ وأبرز هذا الروح، وأحلّه محلّ الحرف الجامد المميت، فإذا به يؤتي العالم شريعةً جديدةً، فالشريعة القديمة تدين القتل، والزنى، والحنث بالقسم، ولكنّ يسوع ارتقى بهذه الوصايا، فلم يقتصر على إدانة تلك الأفعال، بل أدان النوايا الشرّيرة التي تقود إليها. أدان الغضب، والبغض، والحسد والازدراء وكلّ المشاعر التي تريد بالآخر سوءًا، والتي قد تؤدّي إلى القتل؛ وأدان الشهوة، والنظرة الشرّيرة اللتين قد تمهّدان للزنى؛ وأدان الكذب، والنفاق، وانعدام الثقة، التي تستدعي التستّر بالقسم، ودعا إلى الإقلاع عنها بحيث يغدو القسم نافلاً، والأقوال صريحةً صادقةً.

لقد شنّ يسوع حربًا على المظاهر والطقوس التي حلّت محلّ العبادة الحقّة، وعلى الهيكل الذي يخفي الله عن أنظار المؤمنين، وحيث يُقتل كلّ غريبٍ يقترب من قدس الأقداس، وعلى الشريعة القاسية، الضنكة، الخاوية من المحبّة، والتي لم تعُدْ خليقةً بأبناء الملكوت الأحرار. كبرياء الدم والعرق كانت عدوّه الأوّل، فهو قد جاء كي يعلن حقوق كلّ إنسانٍ، لا ليكرّس حقوق بني إسرائيل.

في قلب كلّ عملٍ أقام النيّة المتعبّدة، وفي قلب كلّ فعلٍ دينيٍّ أقام الحبّ، وفي قلب كلّ فعل حبٍّ أقام المطلق. لقد حسر اللثام عن روح الشريعة، وبعد أن كانت الشريعة قد بعثرت الدين في طقوسٍ خاليةٍ من الروح، غرس يسوع الحبّ في صلب كلّ عملٍ. فاللّه لا يعبأ إلاّ بما يثوي في خفايا القلوب حيث تضرب الأعمال جذورها. ومن ثمّ، فليس لمقتضياته حدودٌ ومعايير، إذ إنّه يقتضي المطلق والكمال، والكمال لا يتهيّأ إلاّ به، لأنّه المرسل والرسالة معًا.

ومثلما شوّه الفرّيسيّون الشريعة بتحويلها إلى فرائض وطقوسٍ، يشوّه رسالةَ يسوع كلُّ من يجعل منها أقوالاً مكتوبةً منفصلةً عن الكلام الحيّ، أيْ عن يسوع نفسه.

أَرقى ما بلغته حكمة الأقدمين سنّة المعاملة بالمثل: «عينٌ بعينٍ، وسنٌّ بسنٍّ»، التي ما انفكّ يهتف بها الإسرائيليّون لتبرير وحشيّتهم؛ أمّا يسوع فنفى مبدأ الانتقام من جذوره، وحذّر من مقابلة الشرّ بالشرّ، إذ إنّ من ينهج هذا النهج يفقد زمام إرادته ونفسه، ويُمسي أُلعوبةً في يد أشرارٍ يحرّكونه كما يشاؤون؛ ودعا يسوع إلى المسامحة، وإلى مقابلة الشرّ بالخير، وإلى لجم الشرّ وإخزائه بالوداعة والمحبّة، لا بل سما إلى ذرًى من الكمال لم تتخيّلها، قطّ، نفسٌ بشريّةٌ عندما قال: «**أحبّوا أعداءكم...**» (متّى ٥: ٤٣– ٤٨).

سئل يومًا رسول اللاعنف، غاندي، الذي استمدّ جوهر رسالته من عظة الجبل: هل لديك ما تضيف إلى الإنجيل؟ فأجاب: «وهل ثمّة ما يمكن إضافته إلى من قال: «أحبّوا أعداءكم»؟

لم يكن يسوع راضيًا عمّا انتهى إليه الدين من زيفٍ وجمودٍ، فقال لتلاميذه، ومن خلالهم لكلّ صابٍ إلى الكمال: «**إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين، فلن تدخلوا ملكوت السماوات**» (متّى ٥: ٢٠). برّ الفرّيسيّين تظاهرٌ أجوف، يستلفت أنظار البشر؛ وبرّ يسوع نقاء قلبٍ لا يسبر غوره سوى اللّه.

الشريعة، عندهم، نصوصٌ، وحروفٌ، وطقوسٌ؛ والشريعة، عند يسوع، روحٌ وحياةٌ؛ الشريعة عند الفرّيسيّين تأويلاتٌ، وتخريجاتٌ، وتحايلٌ على الحرف للخروج على الروح؛ وشريعة يسوع الوحيدة هي حبٌّ بلا حدودٍ، لا يستثني حبّ الأعداء. إنّها فتحٌ لا يُجارى في عالم الروح.

من أخطر الشرائع التي كان يتشبّث بها الفرّيسيّون قدسيّة السبت، وقد دبّجوا، في ما يجوز، وما لا يجوز فعله يوم السبت، أَسفارًا لا تحصى، انطوت على تأويلاتٍ فيها من السخافة ما لا يُعقل.

الفرائض المتعلّقة بالسبت، لدى اليهود، تساوي، وحدها، جميع الشرائع الأُخرى، حتّى قيل لو أنّ بني إسرائيل بأجمعهم نفّذوا شريعة السبت بحذافيرها، مرّةً واحدةً، لتمّ الزمن الموعود.

لقد أُحصي تسعةٌ وثلاثون عملاً لا يجوز الاضطلاع بها في السبت، فلا بدعَ إن كثرت أساليب التحايل عليها، كما لا عجب إن ثار عليها يسوع، فهي غلوٌّ في الظواهر، خالٍ من أيّ روحٍ.

لم يتردَّ يسوع إلى ترّهاتهم، بل تحدّاها، ولم يُحجم عن إجراء شفاءاتٍ كثيرةٍ أيّام السبت. ولمّا اتّهموه بخرق الشريعة فضح زيفهم، وأماط اللثام عن روح الشريعة في ما يتعلّق بالسبت، فاستجوبهم: «**من منكم إذا كانت له شاةٌ واحدةٌ، وسقطت في حفرةٍ، يومَ سبتٍ، لا يمسكها ويرفعها؟ وكم الإنسان أفضل من الشاة؟ أيحلّ، في يوم السبت، فعل الخير، أم يتعيّن فعل الشرّ؟ هل الأَولى إنقاذ الحياة، يوم السبت، أم قتلها؟**». لم يكن بوسع الفرّيسيّين الإجابة على هذه الأسئلة المحرجة، فاستفحل حقدهم على يسوع، أمّا هو فأعلن الحكمة الأبديّة التي تحكم كلّ شريعةٍ: «**إنّ السبت جُعل للإنسان، لا الإنسان للسبت**»، ثمّ أسفر عن سلطته الإلهيّة الخليقة بتطوير الشريعة، وبإبراز روحها، وبالترقّي بها. فأضاف: «**وابن البشر هو ربّ السبت، أيضًا**» (مرقس ٢ : ٢٧–٢٨).

بعض الفرّيسيّين الليبراليّين كانوا يفتون بجواز خرق الراحة السبتيّة في حالاتٍ محدّدةٍ، أمّا يسوع، فلا تحفّظ لديه، لأنّ مُطلَقه الأوحد هو الحبّ الذي ينبغي أن يحكم سلوك البشر. لم يخرق شريعة السبت عبثًا، أو لمجرّد الرغبة في خرقها، بل بُغيةَ الإعلان أنّ هناك مُطلقًا يتخطّى السبت، وأنّ الهدف الأسمى هو خدمة الحياة، وإنقاذ البشر. لم يُلغِ الشريعة، بل أضاءها بنورٍ قشيبٍ، نور الحبّ، والرأفة، والعدل.

إنّ موقف يسوع من الشريعة واضحٌ لا لَبْس فيه: إنّه حرٌّ حيالها، لأنّه إله الحبّ، والحبّ يسمو فوق الشرائع كلّها. والمؤمن إنسانٌ حرٌّ، حرّره الحبّ. وهذا لا يعني أنّه

فوضويٌّ، مناهضٌ للقانون. ولكن إن كانت غاية الشريعة تأمين الانسجام والتوافق بين البشر، فعليها أن تخضع للحبّ، وتكون أداةً لتحقيقه. ومن ثمّ يغدو السبت في خدمة الإنسان، لا الإنسان في خدمة السبت.

إن كان المُبتَغى من الراحة السبتيّة هو الانصراف إلى تمجيد الله، فلا ريب أنّ عمل الخير، ومساعدة الغير هما أكثر تمجيدًا له من التواني، والكسل، والثرثرة. فالسبت وطقوسه وُجدت لتذكير الإنسان بأنّه يخصّ الله، وينتمي إلى عالَمٍ آخر، ويحمل في ذاته «بذور» طبيعةٍ روحيّةٍ تميّزه تمييزًا واضحًا عن العالم الحيوانيّ الذي أُقحم فيه بعمقٍ. وهذا التذكير يفقد معناه وجدواه، إن لم يصبح ضربًا من التنفّس بالروح، ومن الانفتاح على قوى النور التي تحجبها هموم المعيشة اليوميّة.

الطقوس وحدها لا تفتح لنا أبواب الملكوت، ما لم نفتح نحن أنفسنا على كلّ صيحات العالم المحيق بنا. كما أنّ العمل الدؤوب لا يوصد دوننا أبواب الملكوت، إن كان يشرق عليه نور الله، مضيئًا حناياه، ومرشدًا خطاه، وملهمًا تطلّعاته.

وكذلك كان موقف يسوع من التقادم التي كان يرى فيها اليهود ذروة العبادة، والوسيلة المثلى لاسترضاء الله. ولكنّ يسوع جعلها ثانويّةً، لا قيمة لها إن افتقر مقدّمها إلى المحبّة، وقد قدّم عليها واجب المصالحة والسلام: «**إن جئت بقربانك إلى المذبح، وتذكّرتَ هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا، فدع قربانك هناك، قدّام المذبح، وامضِ، أوّلاً، فصالح أخاك. وحينئذٍ ائتِ وقرّب قربانك**» (متّى ٥: ٢٣– ٢٤).

وكذلك كان موقفه من النجاسة التي أسهب الفرّيسيّون في تعداد أوجهها ووسائل التطهّر منها، فيما رأى يسوع أنّ كلّ تلك التفسيرات لغوٌ باطلٌ، وأنّ لا نجاسة في مأكلٍ، أو ملمسٍ، أو مشهدٍ، بل النجاسة الوحيدة هي التي تنبع من قلبٍ فاسدٍ، ومن فكرٍ شرّيرٍ، ولا شيء خارجيًّا قادرٌ على تدنيس إنسانٍ طاهرٍ.

وكذلك كان موقفه من محبّة القريب الذي أوضحه من خلال مثل السامريّ الرحيم، فلم يعد من مبرّرٍ للتساؤل عمّن هو القريب الذي يتوجّب حبّه، إذ على كلّ امرئٍ أن يكون قريبًا لكلّ إنسانٍ، ولا سيّما المحتاج إلى عونٍ. وقد أوجز يسوع الشريعة في وصيّةٍ واحدةٍ: حبّ الله وحبّ القريب. حبٌّ بلا حدودٍ، وصفحٌ بلا قياسٍ، لا سبع مرّاتٍ بل سبعين مرّةً سبع مرّاتٍ، أي إلى ما لانهاية له.

لقد انطلق من الشرائع القديمة إلى ما يتخطّاها بلا قياسٍ، وارتقى بها إلى قممٍ من السموّ شامخاتٍ. لقد مزّق غلاف الشريعة الذي كان الحَكَم على التقوى، وأشاحَ بوجهه عن الظواهر المموّهة الخدّاعة، وتسرّب إلى أعماق الدواخل والنوايا، فإذا بنظرة الشهوة فعل زنًى، وبالكلمة الجارحة جريمة قتلٍ؛ ولم يتحرّج من تقويض بعض أحكام الشريعة، كالقسم، والطلاق.

لقد انقضّ على العقليّات المتحجّرة، وزلزلها، وقوّضها رأسًا على عقبٍ، قطّع أوصال الشرائع والأنظمة والقوانين الجامدة، الحسيرة البصر. ودعا إلى التطلّع نحو الآفاق الرحيبة المشرعة، لأنّه كان يعلم أنّ تطلّعات الإنسان تحمله إلى أبعد من نفسه، صوب اللامحدود، وأنّ طاقاته الكمينة الغافية تتخطّى كلّ التخوم عندما هي تتّكئ على الثقة باللّه، وتعمل بهدي روحه وحبّه.

«**سمعتم أنّه قيل للأقدمين.... أمّا أنا فأقول لكم**»، أنتم أَبناء العهد الجديد...

قالها بسُلطة المشرّع، بسُلطة اللّه نفسه، بسلطة ابن البشر الذي يؤمن بشريعة القلب العليا، ولا يغفل شريعةَ العقل. ولم تعُد بالناس حاجةٌ إلى استفتاء علماء الشريعة، بل حسبُهم رائدًا وهاديًا شريعة المحبّة.

بهذا القول سما يسوع بنفسه فوق موسى الذي بلّغ إسرائيل الشريعة، وجعل من الحبّ المُطلَقَ الأوحد، مهمِّشًا نظام الوصايا الذي كان يقوم عليه وجود إسرائيل. لقد خلخل أُسس كلّ قديمٍ، فساد انطباعٌ بأنّ دينًا جديدًا يولد. لقد أعاد يسوع النظر في كلّ شيءٍ، وأخضع كلّ المسلّمات اليهوديّة للتساؤل.

خصوم يسوع كانوا يصرّون بعناد على القول: «الشريعة، كلّ الشريعة، ولا شيء سوى الشريعة» وهو، الذي سيصفه كثيرون، من بعد، بالحالم الساذج، كي يتهرّبوا، خلسةً، من دعوة رسالته، يجيب: «أجل، الشريعة، كلّ الشريعة، ولكن أكثر من الشريعة».

هم يقيسون كلّ شيءٍ بقياس «حبّ الشريعة»، وهو يقيس كلّ شيءٍ بمقياس «شريعة الحبّ»، حبٍّ، على غرار حبّ اللّه، بلا حدودٍ.

« مَا جِئْتُ لأنقُضَ، بَل لأتمِّم »

يسوع يتمّم الشريعة، ويكمّل الوحي، فيجعله يتجاوز ذاته.

الشباب، في الإنسان، لا يقضي على الطفولة. ولا الكهولة تقضي على الشباب. بل كلّ عمرٍ يحقّق الثروة الكامنة في العمر السابق.

الحياة جهدٌ متواصلٌ للتجاوز، وهي، في الآن عينه، وفاءٌ لمكاسب السنين التي تهيّأت فيها تطلّعات الحاضر نحو المستقبل...

لقد تمّم يسوع في مجالاتٍ شتّى:

فالضحايا المتعدّدة في الهيكل اكتملت بتضحية يسوع بنفسه، «ذبيحةً حيّةً، مقدّسةً، مرضيّةً عند اللّه»، وبمنحه ذاته للعالم غذاءً.

الهيكل المادّيّ قُوِّض، وحلّت محلّه الكنيسة، جسد المسيح، وأصبحت الأجساد المقدّسة هياكل للروح.

العدل تخلّى عن الانتقام، وعن شريعة «العين بالعين». وبات يُثأر للشرّ بالحبّ في أقصى درجاته، وتصالح اللّه والإنسان على الجلجلة.

القداسة أمست اتّصالاً مؤلِّهًا بين النعمة، والروح القدس، والنفس، اتّصال النار بالمعدن الثمين.

الشريعة المؤقّتة تحوّلت إلى شريعة حبٍّ أبديّةٍ محفورةٍ في القلوب، شريعةٍ لا نهاية لمقتضياتها، مثل الحبّ.

الحرف الميّت المميت تحوّل، بيسوع، روحًا حيًّا ومحييًا، ووثّق روح الإنسان بروح اللّه، وقذف به، حرًّا، في لا نهاية مشيئة الآب، الذي يعبّر عن ذاته بحبٍّ للقريب، بلا حسابٍ.

المؤقّت تحوّل إلى لانهائيّ، ولكن من غير حدٍّ. إكمالٌ لا ينتهي. النعمة تكمل

الطبيعة بتأليهها. الزواج يصبح سرًّا عظيمًا. والبتوليّة تصبح جاهزيّةً بتصرُّف الله، من غير حدٍّ. المعلّم يُمسي أبًا. والكنيسة، بنموّها، تتمّم وتكمل مسيحًا هو، منذ البدء، كاملٌ، ولكن لا بدّ من إكماله في أتباعه، وفي الخليقة كلّها.

ويسوع الابن، الكلمة، يكمّل المحاولات الناقصة، ويدفع البدايات نحو نهاياتها. يبلغ بالإنسان إلى الله، حتّى منذ هذه الأرض، ويفتح أبواب الفردوس المغلق.

معه، وبه، ينتشر النور إلى كلّ إنسانٍ ويضيئه، حالاًّ محلّ أنوار الفلسفة والديانات، الشحيحة.

الحرّيّة التي أقرّها هي حرّيّة ترقٍّ وتجاوزٍ، لا حرّيّة انحناءٍ تحت نير الالتزامات العاديّة.

معه، مقتضيات الأخلاق بلغت أقصاها.

يسوع يطهّر ويعمّق، ويرقّي، ويمضي، حتّى الكمال، بعطيّة الله وما ينجم عنها من التزاماتٍ.

لم يعد الابن ملزمًا، مثل الخادم المأجور، بل إنّ شريعته مسجّلةٌ في قلبه، وطبيعته تضعه فوق الواجب، والخدمة الإلزاميّة.

ومقتضيات الإنجيل الأخلاقيّة أسمى من كلّ الالتزامات الحقوقيّة، التي تكتفي عمومًا، بالحدّ الأدنى.

مشيئة يسوع هي الشريعة المُشرَعة، أبدًا، على واجباتٍ جديدةٍ، هي واجبات الحبّ.

ضمان الخلاص هو الوحدة الحقيقيّة مع الآب، ومع الإخوة، في المسيح.

البرّ حبٌّ، وعطاءٌ، وغفرانٌ، على غرار الآب، وابنه يسوع.

دِين يسوع ليس شريعةً، أو نظامًا، أو تقيّدًا بمثالٍ للكمال رسميٍّ.

بل إنّ البرّ والقداسة، في المسيحيّة، جهدٌ متّصلٌ لتجاوز الذات، وذلك عن طريق عطاءٍ لا نهاية له، لما يملك المرء، ولكيانه.

برّ يسوع يتجاوز كلّ نموذجٍ إنسانيٍّ في الاستقامة والأخلاق.

وهذا البرّ يحرّر الروح الذي يحاول الحرف خنقه بحجّة حمايته.

وعلى هذا البرّ أن يغمر كلّ مجالات الحياة البشريّة، لأنّه تجسيدٌ للروح.

به ندخل الملكوت، ويدخل الملكوت فينا. وبمعزلٍ عنه لا ندخل الملكوت، لأنّه ملكوت الحبّ الذي هو الله.

الحبّ يخلق عدلاً أسمى، وواجبًا أسمى، ونظامًا أسمى من نظام «الحقوق والواجبات». والأعمال ذاتها لا تعود تُقيَّم بذاتها، بل بقدر ما هي من وحي الحبّ.

«مَن ضَرَبَكَ عَلى خَدِّكَ الأيْمَن...»

... حوّل لـه الأيسر، لا لكي يصفعك ثانيةً، بل لكي يخجل من ذاته، ومن جبنه. فما العنف سوى جبنٍ مقنّعٍ، وإنّما الصمود هو البسالة.

إنّ الخدّ الذي يقدّم نفسه للضرب أعظم، بلا قياسٍ، من اليد التي تصفع. ويسوع، إله الشجاعة التي لا تعرف حدودًا، والتي تدهش بردّ فعلها، هو، وحده، الذي قال: إن صفعك أحدٌ، فاقتل فيه جبن الصفع ببطولة الصمود.

لم يقل: من صفعك فاهرب منه، فالهرب أكثر جبنًا من العنف. ولم يردّد ما قيل من قبله: «ردّ الصاع صاعين» أو «العين بالعين، والسنّ بالسنّ»، فمثل هذا الردّ، الذي قد يبدو عدلاً، إن هو إلاّ تبريرٌ للجبن.

حيال فعل عنفٍ جسديٍّ أَو أَدبيٍّ، الضعيفُ والجبانُ يستسلمان، ولا يجرؤان على الردّ. ومن لا يُحكِم قيادة نفسه ينتقم، ويردّ على الأذى بأذىً مماثلٍ أو أشدّ منه. وإن هو صبر ريثما تتهيّأ لـه فرصةٌ مثلى للانتقام، فليس في صبره قوّةٌ، إذ إنّ طبق الانتقام الذي يؤكل باردًا هو أشدّ ضروب الانتقام خبثًا. وفي جميع الحالات ليس المنتقم سيّد نفسه، فالمعتدي هو الذي يفرض عليه سلوكه، وانتقامه.

أمّا من يُحكم قيادة ذاته، ومن يتّخذ من الحبّ رائدًا، فلا يقوى المعتدي على تحطيم اتّزانه الداخليّ، ولا يسلبه سيطرته على سلوكه، ولا يدفعه إلى ما لا يرضى به ضميره؛ فيجابه القسوة بالحبّ، والأذيّة بالإحسان، والخيانة بالصفح؛ وإن كان العنف شأن الآخرين، فالحبّ هو دينه.

ومن يحيا في الحبّ، بطبيعته الروحيّة، يقيس «نسبيّة» أمور هذا العالم ب «مُطلَق» الملكوت الذي يحدّد نهج حياته، فلا يحني ظهره جبنًا، ولا يجترّ غضبه وبغضه تحفّزًا للانتقام، ولا يردّ على بشاعةٍ بأبشع منها، ولا يفعل سوى ما يوحيه لـه الحبّ، ويقدّم الخدّ الآخر.

ومن يحيا في نور الله، يبقى نورُ الله فيه، ولا يغرب عن باله أنّ من يؤذيه، ويُسيء إليه، ويخونه، ينطوي، هو أيضًا، في أعماقه، على مثل ذلك النور، وإن هو كان مقنّعًا.

إنّ مقابلة من يجرحك، بأدبٍ وعطفٍ، هي ضربٌ من تقديم الخدّ الآخر؛ وهي الامتناع عن الانزلاق إلى لعبة الشرّ التي تحدو المسيء، وإعتاقه منها، وشدّه إلى دوافع الخير والحبّ التي يشهدها فيك.

ويمضي يسوع، في الدعوة إلى التنازل عن الحقوق المشروعة، دفعًا لاستفحال الشرّ، حتّى القول: «**من أراد أن يقاضيك ليأخذ قَباءك، فتخلَّ له عن الرداء أيضًا...**». يسوع يدعو، في سبيل المحبّة، إلى التخلّي عن كلّ شيءٍ: الثوب، والمعطف، والقميص، حتّى العري التامّ...

وكم أثارت هذه الدعوة من اعتراضاتٍ، فعُدَّت انتصارًا للعنف، وتنازلاً عن العدل، بل «أخلاقيّة عبيدٍ»! أفلا تقتضي الكرامة البشريّة أن تُحترَم في حقوقها الأساسيّة؟

ولكنّ يسوع يطيب له استخدام المفارقة التي تصدم، وتوقظ، وتدعو إلى ردّ فعلٍ، وإعمال فكرٍ. إنّه يبتغي الانطلاق بالبشر إلى ما يتخطّى كثيرًا المظاهر، والشهرة، والمواقع الاجتماعيّة، وإلى أبعد ممّا يتيح للإنسان أن يلبس، ويتّقي، ويتخفّى أحيانًا. إنّه يقودنا إلى عُرْينا الأوّل، إلى ذلك المكان القفر حيث نحن، دائمًا، في حال ولادةٍ، واختيارٍ لمصيرنا، في حالة رفضٍ أو تقبّلٍ لإنسانيّة الآخرين، التي هي، أيضًا، إنسانيّتنا.

بيد أنّ أقوال يسوع ليست مجرّد صِيَغٍ تُحدِث صدماتٍ: فذات يوم جمعةٍ تقاسم الجند ثيابه، واقترعوا على ردائه، بعد أن سمّروه، عريانًا، على الصليب.

«أَحِبُّوا أَعْدَاءَكم...»

(لوقا ٦: ٢٧ – ٣٥)
(متّى ٥: ٣٨–٤٨)

ينزع الإنسان، فطريًّا، إلى الانتقام ممّن ألحق به إهانةً أو أذيَّةً، ويجهد في أن يكون ردّه أشدّ وقعًا، وأبلغ أثرًا من الإهانة نفسها. وقد جهد الحكماء الأقدمون في جعل الانتقام بحجم الإهانة أو الأذى، لا يتخطّاها، فكانت مقولة «العين بالعين، والسنّ بالسنّ»، ولكأنّها قمّة الحكمة.

ولكنّ يسوع تصدّى لمبدأ الثأر نفسه، وسعى إلى تقويضه، داعيًا إلى التنازل عن الحقّ الذي يفترض إيذاء الغير، حتّى لو كان في حدود القانون وإطاره، وإلى الإعراض عن مقاومة الشرّ بالشرّ، والعنف بالعنف، والاستعاضة عنها بالصفح السمح النابع من المحبّة. فالشرّ يظلّ هو السيّد، طالما استخدم من تعرَّض له أسلحة خصمه للردّ عليه. ولكنّه يفقد سلطانه وسمّه عندما يقابَل بالصفح والمحبّة، فيغدو سيفًا يصارع الهواء. إنّ الحبّ يتخطّى الحقّ المادّيّ الشخصيّ، وهو وحده كفيلٌ بقهر الشرّ.

في جوٍّ مشحونٍ بالبغض للمحتلّ الرومانيّ، وبالعداء للغرباء، كم كانت جرأة يسوع بالغةً كي يعلن على الملأ: «**سمعتم أنّه قيل: «أحبب قريبك، وأبغض عدوّك». وأمّا أنا فأقول لكم: «أحبّوا أعداءكم، وأحسنوا إلى من يبغضكم، وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم... والذين يفترون الكذب عليكم... وباركوا لاعنيكم»!**

مثل هذا الكلام الخطير لا يتجرّأ على التفوّه به سوى مجنونٍ أو إلهٍ. وقد كان فعلاً قول إلهٍ، فلا عجب إن اتُّهم قائله بالتجديف.

ربّما لم يَرِدْ نصٌّ صريحٌ في كتب اليهود يدعو إلى بغض الأعداء، غير أنّ هذه الكتب تزخر، بل تفيض بهذا البغض؛ فحتّى مزاميرهم وصلواتهم تضجّ التماسًا للانتقام من الأعداء والتنكيل بهم، وإبادتهم. ولكنّ يسوع تجرّأ فأهاب بمن يصلّون لدمار الأعداء، أن يصلّوا لخلاصهم، لكي يتحوّل عداؤهم حبًّا.

وتتجلّى، أيضًا، جرأة يسوع في صيغة كلامه: «قيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم...».

المجهول في فعل «قيل» هو التوراة، والشريعة المقدّسة المكلّلة بمجد سيناء، التي لا يسوغ مسّها أو التعرّض لها، ولكأنّ يسوع يقول: «قال الله لموسى... أمّا أنا فأقول...».

جدّة يسوع الكبرى هي قرنه بين العدوّ والحبّ، قرنًا يجفّل سامعيه، الذين يمكننا تخيّل كثافة صمتهم وذهولهم، وهم يسمعون كلمتين كبيرتين يبدو جمعهما مخالفًا للطبيعة: «أحبّوا... أعداءكم». كما يمكننا تصوّر ما يثور في قلوب من مزّقتهم الحروب والعداوات المتوارثة، وهم يسمعون قولاً ينزل كالصاعقة: «**أحبّوا أعداءكم**».

كان يحلو ليسوع اللجوء إلى المفارقة كي يهزّ، ويوقظ، ويثير التفكير. ولكن بدا لمستمعيه، في هذه النوبة، أنّه تخطّى الحدود، إذ لم يُسمع، قطّ، في تاريخ اليهود، بمثل هذه الدعوة، التي قد تُفسَّر انتهاجًا لدرب الاستسلام، والسلبيّة، و«أخلاقيّة العبيد».

ولكنّ يسوع إنّما جاء ليعلن عهدًا حديثًا، ويُرسي عقليّةً جديدةً، قوامها الحبّ، تفجّر طاقاتٍ هائلةً، وتقتضي سيطرةً تامّةً على الذات، وتجرّدًا؛ جاء يسوع كي يؤسّس أخلاقيّاتٍ لا سابق لها، ولا مثيل لها من بعد، لا متّسع فيها لمفهوم العداء والبغض، قائمةً على تضامنٍ إنسانيٍّ شاملٍ لا يستثني أحدًا، ومحبّةٍ تلفّ البشر أجمعين، وتحسن إلى العدوّ والمبغض كي يتحرّرا من كلّ بغضاءَ وعداوةٍ.

لقد توخّى يسوع إشاعة مناخٍ جديدٍ في القلوب والنفوس، قوامه مقابلة البغض بالحبّ، والإساءة بالإحسان، والصفح بلا حدود، مناخٍ كفيلٍ بتغيير علاقات البشر تغييرًا جذريًّا. فقد استبدل ردود الفعل العدائيّة الفطريّة بزرع نبتةٍ هشّةٍ: محبّة كلّ إنسانٍ، ولو كان عدوًّا. وبمقدار ما تتحقّق رغبة يسوع، تولد إنسانيّةٌ جديدةٌ، إنسانيّة «أبناء الله»، وتغزو الرحمةُ قلوبَ البشر على غرار رحمة أبيهم السماويّ. وبما أنّ حبّ الله مجّانيٌّ، فعلى أبنائه أن يحبّوا بلا مقابل، غير متوقّعين أيّ تعويضٍ، وكلّما أمعنوا في العطاء المجّانيّ، تشقّقت الشرنقة التي كانت تسجنهم، متيحةً لهم التحليق صوب الله.

في عهد يسوع كان أسمى ما وصل إليه حكماء اليهود قول رابّي هلّيل: «ما تكرهه لنفسك، لا تفعله لقريبك». ولكنّ يسوع انتقل من السلب إلى الإيجاب، من التحاشي عن فعل الشرّ إلى وجوب المبادرة لفعل الخير، ومن احترام الغير، إلى محبّة الأخ، فقال: «**ما تودّون أن يفعله الآخرون لكم، فافعلوه أنتم لهم**».

لم يكتفِ يسوع بمبدأ مقابلة الخير بالخير، بل تخطّاه إلى ما لا حدود له؛ والحبّ الذي دعا إليه مُحرَّرٌ من كلّ حسابٍ، منزَّهٌ من كلّ مصلحةٍ: «**إن أحببتم من يحبّكم فأيّ فضلٍ لكم، فإنّ الخطأة، أيضًا، يحبّون الذين يحبّونهم، وإن أحسنتم إلى من يحسن إليكم، فأيّ فضلٍ لكم، فإنّ الخطأة، أيضًا، يفعلون ذلك. وإن أقرضتم الذين ترجون الاستيفاء منهم، فأيّ فضلٍ لكم، فإنّ الخطأة، أيضًا، يُقرضون الخطأة لكي يستردّوا منهم المثل. ولكنّ أحبّوا أعداءكم، وأحسنوا وأقرضوا غير راجين شيئًا، فيكون أجركم عظيمًا، وتكونوا بني العليّ، فإنّه، هو، يرفق بالجحودين والأشرار. فكونوا رحماء كما أنّ أباكم رحيم.... وكونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل**».

غاية يسوع، إذن، هي أن يتمثّل تلاميذه بأبيه السماويّ، ويتطلّعوا إلى الكمال على مثاله. فالمقياس هو الله، والهدف هو الصفح بلا حدود، والحبّ بلا حدودٍ، والقداسة بلا حدودٍ، على غراره، بعيدًا عن تحديد الشريعة، وقيود القانون. فيسوع يأبى حبس الضمائر وتعنيتها، ولذلك لم يُصدر شرائع محدَّدة الأُطُر، ولم يُخضع لفرائض يتعيّن الالتزام بها بدقّةٍ وإحكامٍ، ولكنّه أشرع للبشر درب الكمال اللانهائيّ، لأنّ مثاله الأسمى هو كمال الله نفسه، والكامل هو من يدع الله يكمله بتمثّل برّه وحبّه.

وقد ضرب يسوع نفسه، على هذا الحبّ، أبهى مثالٍ، فعلى حدّ قول الرسول بولس (روم ٥: ٨– ١٠): «**لا يكاد أحدٌ يموت عن بارٍّ، وقد يُقدم أحدٌ على الموت عن صالحٍ، وأمّا الله فقد برهن عن محبّته لنا بأنّ المسيح قد مات عنّا، ونحن، بعد، خطأةٌ**»، أي أعداءٌ له.

وليس الحبّ الذي يدعو إليه يسوع عاطفةً مبهمةً مجرّدةً، وليس هو حبًّا نظريًّا، حبّ لامبالاةٍ، لا عداء فيه ولا لهفة. ولكي يؤكّد واقعيّته وفاعليّته، استقى من الواقع أمثلةً ملموسةً: فمن لطمك على خدّك الأيمن حوّل له الأيسر؛ ومن أراد أن يقاضيك

أَعطِه أكثر ممّا يطالب به، ومن سخّرك مسافة ميلٍ، واكبه مسافة ميلين، ومن ضايقك بطلبات اقتراض مالٍ لا تُدِر لـه ظهرك، ومن يضطهدك صلِّ لأجله.

قال يسوع هذا وهو مدركٌ لما يتربّص بتلاميذه والمؤمنين به من اضطهادٍ شرسٍ. ومع ذلك دعاهم إلى هذه البطولة كي يكونوا جديرين بمن صفح عن صالبيه، وبالآب السماويّ الذي يحبّ مبغضيه فيطلع شمسه، ويُفيض غيثه، بلا تمييز، على من يُنكرونه ويجدّفون عليه، وعلى من يعبدونه؛ ويسوع يريد أن يَبلُغ تلاميذُه مثل كمال الآب وحبّه.

وقد تجسّدت رغبة يسوع في الكثيرين من تلاميذه، على مدى التاريخ. فهو خرق تقاليد زمانه وفرائض الطهر، ولمس أبرص. ولكنّ تلميذه فرنسيس الأسّيزيّ اجتاز شأوًا أبعد، فتحدّى كلّ مشاعر النفور والاشمئزاز التي كانت تعصف بكلّ كيانه، وقبّل فم أبرص.

والأب مكسيميليان كولبي، تمثّلاً بمعلّمه، صفح عن جلّاديه.

والقسّ مارتن لوثر كنغ قال للعنصريّين الذين كانوا يضطهدون السود الأميركيّين: «إفعلوا بنا ما تشاؤون، فسنظلّ نحبّكم، زجّوا بنا في السجون، فسنظلّ نحبّكم، أرسلوا مقنّعيكم في منتصف الليل كي يسوموا جماعاتنا أبشع جرائم العنف، ويتركونا بين أحياءٍ وأمواتٍ، فسنظلّ نحبّكم».

كلّ ذلك تمثّلاً بمن بذل نفسه، على الصليب، حتّى في سبيل من كانوا يبغضونه.

«**أحبّوا أعداءكم...**». أحلمٌ أم وهمٌ، إذ إِنّ شتّى ضروب العنف ما انفكّت تواكب تاريخ البشر؟ أم إنّها رؤيةٌ طَموحٌ إلى مستقبلٍ يتعيّن بناؤه، باستمرارٍ، إلى بشريّةٍ مؤلّهةٍ لا تني تئنّ في مخاضٍ لن ينتهي؟

حُبٌّ بلاَ قِياسٍ: حُرِّيَّةُ أبناءِ الله

في عهد يسوع كانت الشريعة تحكم سلوك البشر كلّه، في أدقّ جزئيّاته، وتحدّد، بإحكامٍ، علاقاتهم بالله، وعلاقاتهم بالناس. وإنّه لمن اليسير، نسبيًّا، العيش في إطار القوانين والفرائض التي تتوقّع وتنظّم كلّ شيءٍ: ما ينبغي عمله، وما ينبغي التنكّب عنه. ولكن من غير اليسير أن يستلهم المرء، من كلّ مناسبةٍ من مناسبات الحياة اليوميّة، سلوكًا يمليه الحبّ، فالحبّ لا يعرف حدًّا، ويقتضي تأهّبًا دائمًا، وخلقًا مستمرًّا.

ويسوع يرفض سجن الضمائر في أُطُر الشرائع الضنكة، بل يُشرع للبشر دربًا لانهائيًّا صوب الكمال، لا حدود لـه سوى كمال الآب. شعاره: «**كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ هو كاملٌ**». معيار سلوككم الوحيد هو الله: فكونوا أبرارًا على مثاله، واصفحوا نظير صفحه، وأحبّوا على غرار حبّه، بلا حدودٍ ترسمها قاعدةٌ أو وصيّةٌ، سوى السعي نحو كماله اللامحدود.

لقد استعاض يسوع عن حكمة العين بالعين، بوصيّةٍ: «**من ضربك على خدّك الأيمن فحوّل له الأيسر**»، درءًا لانتقال عدوى الشرّ، لكيلا يصبح من يقابل العنف بالعنف عنيفًا، ومن يردّ على الظلم بالظلم ظالمًا، ولكيلا تفسد العداوة نفس المعتدى عليه. هذا ما فسّره بولس بدعوته إلى التغلّب على الشرّ بالخير.

كم مدهشٌ هو يسوع الذي دعا إلى مدّ الخدّ الأيسر لمن يصفعك على الخدّ الأيمن، وإلى التنازل عن معطفك لمن يسرق قميصك، وإلى أن تساير، بلا هوادةٍ وبلا تذمّرٍ، المزعجَ الذي يسألك مواكبته، وأن تدع كيس نقودك مباحًا، بلا حيطةٍ ولا تحفّظٍ! بل، أكثر من ذلك، أن تحبّ أعداءك، وتصلّي من أجل مضطهديك. ربّما لم يكتنه أحدٌ أبعاد هذه الوصايا، ولم يَزُنْ وِقْرَها، مثلما فعل المسيحيّون الأوّلون الذين تعرّضوا لأدهى عداوةٍ ولأشرس اضطهادٍ.

يُظهر لنا يسوع، بأعماله، أنّ الله هو «أبونا»، فعلينا أن نحيا كأبناءٍ يخلّدون حبّ ذلك الأب الذي لا ينضب له معينٌ.

مقتضيات يسوع، التي تبدو مستحيلةً، تنير دربنا، فهي تأتي ممّن «**يطلع شمسه على الأشرار والصالحين**»، وعلينا يقع واجب الترحيب بشمس الله، والحفاظ عليها، واقتباس طاقاتٍ منها تغيّر كيان العالم.

حبّ الآب، مقرونًا بحبّ القريب، في حبٍّ واحدٍ، ذلك هو مفتاح الملكوت الذي بشّر به يسوع.

«الوَصِيَّةُ الكُبْرى وَالأولى»

(متّى ٢٢: ٣٤-٤٠)

كان اليهود مقيّدين بـ **٦١٣** وصيّةً، منها **٣٦٥** عملاً محظورًا، و**٢٤٨** أمرًا واجبًا. وإذ كان من المتعذّر الوفاء لها جميعًا، كانوا يتساءلون أيّةٌ من هذه الوصايا هي الأخطر شأنًا، ولا محيد عن التقيّد بها. وطرح بعضهم هذا السؤال على يسوع، فأجاب: «**تُحبّ الربَّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ ذهنك**». **هذه هي الوصيّة الكُبرى والأولى. والثانيةُ مثلها شأنًا:** «**تحبُّ قريبك مثل نفسك**». **إلى هاتين الوصيّتين مرَدُّ الشريعة كلّها والأنبياء**» (متّى ٢٢: ٣٧- ٤٠).

جواب يسوع تفجّر، تلقائيًّا، من أعماق وجدانه، ومن خلاله، باح بسرّ حياته، وأسفر عن جوهر تعليمه.

فحبّه الأوّل والأكبر هو لله أبيه، وقد عبّر عنه ببذل ذاته وحياته في سبيل إخوته، أبناء أبيه.

صليبه تألّف من عارضتَيْن: إحداهما عموديّةٌ مشرئبّةٌ نحو السماء، والأُخرى أفقيّةٌ تعانق البشريّة جمعاء. حتّى في تضحيته القصوى قرن يسوع حبّه للآب بحبّه لإخوته البشر. حبٌّ واحدٌ في اتّجاهين.

كلّ حبٍّ موقوفٍ على الله، ومُهمِلٍ للبشر، أو متّجهٍ نحو البشر، ومُشيحٍ عن الله، هو مخالفٌ لفكر يسوع، ومناقضٌ لمثال حياته.

فيسوع يقتضي حبًّا للقريب يثبت مجّانيّته وشموليّته بوقفه فسحات وقتٍ مجّانيّةً على عبادة الله، وحبُّ الله يثبت مصداقيّته بخدمة الآخرين. هذا ما عبّر عنه الرسول يوحنّا في رسالته الأولى «**إن قال أحدٌ:** «**إنّي أُحبُّ الله**»، **وهُوَ يبغضُ أخاهُ، فهو كاذب. فمَن لا يُحبّ أخاهُ وهو يراهُ، لا يستطيع أن يُحبّ الله**

وهُو لا يراه. أجل، هذه هي الوصيّةُ التي لنا منهُ: من أحبَّ اللّه فليُحبّ أخاهُ أيضًا» (يوحنّا ٤ : ٢٠–٢١).

حبّان متلازمان، لا يتعارضان، ولا يصدق أحدهما بمعزلٍ عن الآخر. وكم قاد هذان الحبّان يسوعَ بعيدًا!

بل حرّيٌّ بالقول إنّهما حبٌّ واحدٌ، إذ يتعذّر حبّ اللّه بمنأًى عن حبّ من تمثّل بهم الربّ، أي مهمّشي هذا العالم، ومنبوذيه، ومعذّبيه. ومن أحبّ هؤلاء، وهبّ لغوثهم، وغمرهم بعطفه، فإنّما هو، بذلك، يُثبت حبّه للّه، فالموقف من القريب هو دليل الموقف من اللّه.

ثمّة من يتوهّمون أنّ حبّ اللّه عائقٌ دون حبّ البشر، ولكنّ يسوع يؤكّد أنّ حبّ اللّه لا يتحقّق إلاّ بحبّ أبنائه.

وثمّة من يمنحون ضمائرهم شهادة حسن سلوكٍ، لمجرّد قيامهم بزيارة الكنائس، وتلاوة الصلوات، والتزامهم بالوصايا العشر، ولكن غاب عن بالهم أنّهم، في يوم الحساب، سيُدانون أوّلاً، عمّا لم يفعلوه، أيّ عن حبّ القريب الذي تقاعسوا عنه، وحبسوا عنه قلوبهم. قد يدّعون حبّ اللّه، ولكنّ اللّه ماثلٌ بينهم، في وجوه الجياع، والعطاش، والباكين، والمظلومين. وإن هم أعرضوا عن هؤلاء كان حبّهم للّه ادّعاءً كاذبًا.

إنّ اللّه المتجلّي في بشرٍ محرومين، يستجدي حبًّا واحدًا له ولهم.

* *

إنّ في جواب يسوع تأكيدًا على حبٍّ كلّيٍّ، من خلال تكرار لفظة «كلّ»: كلّ القلب، وكلّ النفس، وكلّ الذهن، أي كلّ الكيان.

فهل هكذا نحبّ اللّه، أم فقط بجزءٍ من قلوبنا، وشطرٍ من وقتنا؟ وهل هكذا، نحبّ قريبنا؟

* *

اليهود استوضحوا يسوع عن كبرى الوصايا، حسب الشريعة، فأجابهم بنصَّين من الشريعة. ولكنّ الجديد في جوابه أنّه ساوى بين حبّ الله وحبّ القريب، وجعلهما متلازمَيْن، وأضفى على مفهوم «القريب» بعدًا مسكونيًّا يتخطّى، بلا قياسٍ، «القرابة» التي كان يعنيها اليهود.

وبذلك أسبغ على هذه الوصيّة المزدوجة صفة وصيّةٍ جديدةٍ، تُغني عن كلّ ما سواها، فلا حاجة، بعد، إلى التيه في شعاب ٦١٣ وصيّةً.

على جميع جهود البشر أن تنبع من جذرٍ واحدٍ، وتستهدف غايةً واحدةً: الحبّ. فالإنسان لم يُخلق، فقط، كي يخضع لله خضوعه لسيّدٍ وربٍّ، بل، أيضًا، لكي يحبّه، حبّ ابنٍ لأبيه. والله لا يبتغي عبيدًا يرعبهم الخوف، بل أبناءً أحرارًا. وطاعة الأبناء لا تصبح حقيقيّةً إلاّ بالحبّ، ولا تكون تقواهم صادقةً إلاّ إذا نبعت من الحبّ.

ومن المنبع عينه ينبغي أن يصدر حبّ القريب.

مُقتَضَيَاتُ يَسُوع

(متّى ١٠: ٣٧- ٤٢)

يسوع كثير الاقتضاء لأنّه حبٌّ، وكلّ حبٍّ كثير الاقتضاء.

يسوع يقول: «**من أحبّ أباه، أو أمّه، أكثر منّي، فليس خليقًا بي**». قسوةٌ لا تصدّق، تصدم للوهلة الأولى، وقد تقود إساءة فهمهما إلى أوخم العواقب. من المحقّق أنّ يسوع لا يدعو إلى مخالفة الوصيّة الرابعة، وإلى عقوق الوالدين، فهو نفسه كان خاضعًا لوالدته وليوسف.

ولكنّه يضع في الميزان وجوب اتّباعه بلا تحفّظٍ، مقابل أقدس الواجبات الإنسانيّة، كي يُسبغ على واجب اتّباعه أولويّةً مطلقةً. ما عناه، إذن ليس إهمال الوالدين من أجله، بل وجوب إيثاره حتّى على الوالدين، إن هما كانا عقبةً دون اتّباعه. فاتّباع يسوع يستلزم عقليّةً واستعدادًا نفسيًّا، قد لا يشترك فيهما أعضاء الأُسرة الواحدة. وحينئذٍ تتعيّن التضحية بالعواطف الأسرويّة المشروعة، في سبيل تلبية دعوةٍ ساميةٍ. وقد يكون الانسلاخ بليغ الإيلام، ولكنّ درب الملكوت مزروعٌ بالأشواك.

انتهاج درب يسوع قد يعني التعرُّض لمعارضة الأهل، والأصدقاء والمحيط، ولتهكّمهم، أو لنبذهم. وقد يعرّض، أيضًا، لتنكيل السلطة. إنّه إدخال المأساة إلى حيث كان يسود السكون والرفاه، والتغيير إلى حيث كان يسود النظام.

ويضيف يسوع تأكيدًا لفكرته: «**ومن أحبّ ابنه، أو بنته أكثر منّي، فليس خليقًا بي**».

في سلّم حبّنا، لا يرضى يسوع بأقلّ من المقام الأوّل. ولو لم يكن هو اللّٰه لكان مطلبه تبجّحًا لا يُطاق.

غير أنّ يسوع لا يقتضي منّا إلاّ ما يؤول إلى خيرنا. وما اقتضاؤه إيلاءَنا حبّه المقام

الأوّل، إلاّ لكي يوسّع قلوبنا، ويذكي فينا حبّنا لذوينا ولجميع البشر، وليسمو به. فمن وهب اللّه قلبَه، أهّله لكي يُترَع قدرةً إلهيّةً على الحبّ.

ويصعّد يسوع، أعلى فأعلى، في سلّم التضحية، فيقتضي نكران الذات، ويعلن: «**ومن لم يحمل صليبه ويتبعني، فليس خليقًا بي**».

لو لم يكن يسوع قد حمل صليبه، حبًّا بنا، لما حقّ لـه أن يدعونا إلى حمل الصليب حبًّا به. بيد أنّ كلّ من حمل الصليب إكرامًا لـه، وسار في إثره، تلبيةً لدعوته، فهو إنّما يسير على درب آلامه، وقيامته.

قد ننزع، اليوم، إلى تجريد الصليب من قسوته وهوله، بعد أن أَلِفنا أن نجعل منه حليةً تزيّن الأعناق، أو قطعةً فنيّةً تُعلَّق على الجدران، أو كنايةً عن المنغّصات الصغيرة أو الكبيرة التي تحفل بها كلّ حياةٍ. ولكن، عندما أطلق يسوع قوله هذا، وعندما دوّن متّى إنجيله، كان الصليب أداة إذلالٍ وتعذيبٍ مريعةً، تتجرّع عليها الضحيّةُ أَرهب ضروب الاحتضار، تحت أنظار الجموع الشامتة.

وقد برّر يسوع مغالاته في الاقتضاء بمفارقةٍ مذهلةٍ: «**من حفظ حياته خسرها، ومن خسر حياته من أجلي حفظها**». هذا القول كفيلٌ بصدم جيلنا أكثر من أيّ جيلٍ آخر. فأقصى ما نتطلّع إليه، اليوم، هو «تحقيق الذات»، و«الازدهار»، وإذ بيسوع يقتضي أن نخسر ذاتنا، لنربحها، وأن نكون له تابعين.

إنّ الدليل الأكيد على صدق الحبّ، هو التأهّب للموت في سبيل من نحبّ. وإن لم يكن الجميع مدعوّين إلى الاستشهاد، إلاّ أنّ الجميع مدعوّون إلى موتٍ يوميٍّ عن كلّ ما يحول دون اتّباع يسوع. وما الموت عن الذات سوى التخلّي عن الأنانيّة، والأثرة، والجشع، وسوى تخطّي الذات نحو اللّه، وفقدان الذات في اللّه، في سبيل الظفر بحياة اللّه.

إنّ مقتضيات يسوع التي تبدو «مستحيلةً»، تضيء نفوسنا، فهي صادرةٌ عمّن يطلع شمسه على الأشرار، والأبرار، وعلينا تقبّل شمس اللّه، كي نجعل منها طاقةً تغيّر العالم.

كلام يسوع كحدّ السيف، ينفذ إلى نخاع العظام، ويفصل، في داخلنا، كلّ تطلّعاتنا الزائفة عن حبّ اللّه الحقّ. وإن نحن أمعنّا التفكير فيه، نكتشف أنّه ينطوي

على أسمى سنن الحياة الجوهريّة. فالإنسان العاجز عن إنكار ذاته في سبيل الغير، هو إنسانٌ عاجزٌ عن الحبّ. وقد علّمتنا التجارب أنّ التضحية بالذات هي شرطٌ لازدهار الحبّ ونموّه. وقد أضفى سرُّ الفصح على هذه المفارقة أنوارًا متألّقةً: فبموته على الصليب، اكتسب يسوع للعالم حياةً أبديّةً.

أقوالٌ تنطوي على مفارقاتٍ مذهلةٍ. ولطالما جهد المسيحيّون في إخماد نيرانها، وتقليم أشواكها. ولكنّ يسوع قالها كي يخرجنا من الدروب المطروقة، ويدخلنا إلى حياةٍ جديدةٍ، عبر الظلمات والآلام التي قد تنشأ عن اتّباعه.

أقوالٌ وقّعها يسوع بدمه، ولكنّها لا تتّسم بأيّ طابعٍ سلبيٍّ حزينٍ. بل إنّها تفيض إيجابيّةً، وفرحًا، ونورًا. وغايتها حفظ الحياة وكسبها. إنّها دعوةٌ إلى الموت عن الحياة الزائلة، في سبيل حياةٍ حقّةٍ، لا تزول. أو لم يصرّح يسوع بأنّه أتى عالمنا، لكي تكون لنا الحياة، ولتكون لنا وافرة؟ أمّا الانكفاء على الذات، والسعي إلى ازدهارها، في سبيل الذات، وبمعزلٍ عن الآخرين، فهو الطريق الأكيد المفضي إلى إفشال الحياة.

ليست دعوة يسوع، إذن، حلمًا عدميًّا انتحاريًّا. بل هي دعوةٌ إلى حبٍّ يوميٍّ يوفّر الازدهار الأقصى. وهذا الازدهار يَخْبُرُهُ، بفرحٍ، كلّ من يضحّي برفاهه، ووقته، وماله، في سبيل الغير، ويجزل له العطاء.

وما أروع وجوه الذين لبّوا هذه الدعوة، أمثال الأمّ تيريزا، وما أكثرهم!

أعطِنا، ربّ، البصيرة لفهم قولك، والقوّة على العيش بمقتضاه، فنموت معك، كي نحيا معك، وبك.

كَيفَ نُحسِن، وَكَيفَ نُصَلِّي

(متّى ٦: ١ – ٦)

«احترزوا من أن تصنعوا برّكم قدّام الناس، كي ينظروا إليكم، وإلاّ فلا أجر لكم عند أبيكم الذي في السماوات...».

«البرّ» هو مجمل الفضائل والعبادات، ويشمل الصدقة، والصلاة، والصوم. هذه الأعمال جيّدةٌ في ذاتها، ولكن إِن فسدت الدوافع إليها، فقدت قيمتها وثوابها، فإنّ ما نفعل أدنى شأنًا من الطريقة التي نفعل بها، ومن النيّة التي تحدونا إلى الفعل. النيّة التي تحرّكنا هي التي تفتح لنا أبوابًا جيّدةً أو سيِّئةً، تُفضي إلى واقع الملكوت أو إلى وهم الخيال. هي التي تفتح لنا الملكوت أو تُغلقه.

أفكارنا، مثل أفعالنا، تولّد فينا طاقاتٍ تتوافق مع محتواها، فهي سلبيّةٌ، إن كانت أفكارنا سلبيّةً، أو خاليةً من الحبّ، وهي بنّاءةٌ وضّاءةٌ إن كانت أفكارنا التماسًا للملكوت، وخدمةً للحبّ.

فمن استهدف من أعمال البرّ كلّها: الصوم، والصلاة، والصدقة، التظاهرَ، وانتزاعَ احترام الناس وتقديرهم، فهو يعمل لنفسه، ولا يستأهل أيّ جزاء. أمّا من يعمل بدافع العبادة الصادقة، والمحبّة المخلصة، فكلّ عملٍ من أعماله خطوةٌ تُدنيه من الخلاص، والكمال، والملكوت.

وعندما يتكلّم يسوع عن هذه الأمور تتداخل جُمَلُه، وتتدافع، وتتراكم، مثل ضربات مطرقةٍ، دعوةً إلى ممارسة الإيمان في داخل الذات أوّلاً، وتنديدًا عنيفًا بمن يحرصون على التظاهر عند ملتقى الطرقات، وفي الساحات العامّة، وحتّى في معابد الصلاة، مستلفتين الأنظار، مبوّقين بما يقدّمون من إحسانٍ.

ولكلّ طالب برٍّ يُسدي يسوع هذه النصيحة الثمينة: «**أمّا أنت فلا تعرفنّ شمالك**

ما تصنع يمينك، لكي تكون صدقتك في الخفية، وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك».

فمن ابتغى الوفاء لتعاليم يسوع لا خيار لديه بين الإيمان الداخليّ الراسخ، والتظاهر الخارجيّ الباطل. ومع ذلك غالبًا ما يخدعنا بريق الظاهر، ويغوينا أثره.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

ويؤكّد يسوع تأكيدًا خاصًّا على الصلاة فيقول: «**ومتى صلّيتم، فلا تكونوا كالمرائين: فإنّهم يحبّون أن يصلّوا قيامًا في المجامع، وفي ملتقيات الطرق، لكي يظهروا للناس. فالحقّ أقول لكم إنّهم قد استوفَوا أجرهم. وأمّا أنت فمتى صلّيت فادخل حجرتك، وأوصد الباب، وصلِّ لأبيك الذي هو هناك في الخفية، وأبوك الذي في الخفية هو يجازيك»**.

فالعابدون الحقيقيّون لا يحتاجون إلى ارتياد معابدَ خاصّةً، إلاّ لكي يفيئوا إلى أغوار نفوسهم، ويغرقوا في لجّة الصمت، ويحقّقوا اللقاء مع من يقرع باب قلبهم.

وقد ضرب لنا يسوع، في الصلاة، أروع مثالٍ. فهو، فضلاً عن صلاته في المجامع، كان يحمل، في ذاته، فسحات صلاةٍ مشرعةً، أبدًا، وكانت العزلة، والليل، والصحراء، والتلال، مسارحَ لصلاته، وغالبًا ما كانت صلاته صمتًا.

كان يصلّي بجرأة الحنان والتوق، ولم يكن يخاف من الله، بل يدعوه «أبّا»، «بابا»، في حرّيّة الابن الوحيد الذي يناجي أباه.

كان يصلّي باستمرارٍ ولا يملّ. كلّ شيءٍ فيه كان صلاةً. وقد دعانا إلى الصلاة في كلّ وقتٍ، ولكأنّ الصلاة هي النبع الذي علينا، دائمًا، الاستقاء منه، مثلما دعانا إلى اللجاجة في السؤال.

كان يصلّي، وهو يبذل حياته، في مسائها الأخير، وهو يقتسم مع أحبابه الخبز والخمرة. وكلّ صلاةٍ هي صدًى لذلك العشاء.

كان يصلّي في بستان العرق الممزوج بالدم، وكان يصلّي في ضباب الاحتضار. ومات وهو يصلّي، بل يجأر بالصلاة.

كان يصلّي مع شعبه، ولكنّه كان، في داخله، متحرّرًا من شبكة الفرائض المرهِقة. كان يصلّي صلاة رجلٍ حرٍّ، وكان يرقص وسط القيود. وكانت الصلاة تنفتح فيه مثل عمق الليالي التي كان، غالبًا، يعتكف فيها، وحيدًا مع أبيه. قبل اتّخاذ قراراته الخطيرة، كان يعتزل، في الصمت، مع الله. وقُبَيْل القبض عليه جعل من وجبة عشاءٍ مقدّسةٍ صلاةً لا تنضب، ودعا جميع البشر إلى هذه المائدة المشرعة، أبدًا. هنا، في بساطة الإفخارستيّا، ينبض قلب الصلاة المسيحيّة.

الصلاة هي ملح الحياة وخميرتها، هي نورٌ في صميم مسؤوليّاتنا، هي طاقةٌ لا تنضب. قديمًا كانوا يقولون: «العمل هو صلاة»، معبّرين بذلك عن وحدة الحياة الإنجيليّة التي لا تفصل النظرة إلى الله عن همّ البشر.

الصلاة هي الدهشة أمام عظمة الله، وهي تمجيده، وهي استبيان مشيئته، وحاجات البشر الملحّة. وهي، حسب روح يسوع، صلاةٌ مسؤولةٌ، وهي الدافع المتين للالتزامات الحاسمة. وإنّما يشوّه الصلاةَ كلُّ موقفٍ متعالٍ، والرغبةُ في تخدير الضمير، ورفض الله، والتذرّع بالله حجّةً لكلّ ذلك.

ومن ثمّ يترتّب علينا أن نراقب ذواتنا ونحن نصلّي، لكيلا تكون صلاتنا معكوسةً. وهي معكوسةٌ، حتمًا، عندما ننكفئ على ذواتنا، عوضًا عن تعريضها لريح الصحراء، ولنار الله.

فالصلاة إنّما هي استيعاب العالم أجمع، والتقدّم صوب الله مع الجميع، والانضواء إلى «محور البؤس». وإلاّ فأيّة قيمةٍ لصلاة من يُغفل مآسي العالم الدامية، والمظالم والآلام المحيقة به، وكلّ ما يفرزه عالمنا من عظمةٍ، وهشاشةٍ، وبؤسٍ؟ وهل يستطيع أن يصلّي من لا يسمع أنين يسوع: «كنت جائعًا، كنت عطشانًا، كنت سجينًا، عريانًا...».

الصلاة هي أن نكون مع الجميع، فالله يقطن الجماهير، والصلاة تنتزعنا من ذواتنا، ومن رفاهنا وهنائنا، وتدفعنا إلى التوغّل في صميم البشريّة. إنّها جهدٌ يستهدف تغيير البشريّة فينا ومن حولنا.

الصلاة هي أن نتّصل بالله بكلّ حياتنا، وحينئذٍ تحوّل الصلاة حياتنا وتخصبها،

وتسمو بها، وتوثّق علاقاتنا الطيّبة بالآخرين، وتؤهّلنا للتأثير في مصير العالم الذي يرين عليه وقر المال، والكبرياء، والشهوات.

والصلاة الصحيحة هي أن نصحّح نظرتنا إلى اللّه. فما أكثر وجوه اللّه المشوَّهة التي نتوجّه غالبًا إليها، بعد أن نوشّحها بثيابنا، ونسبل عليها صفاتنا، ومعاييرنا، وصغاراتنا! إنّ سعينا إلى السيطرة على اللّه عنوةً، واستعادته إلينا، هو قتلٌ للّه وقتلٌ لإنسانيّتنا. وإنّما الصلاة مخاطرةٌ، وصراعٌ حتّى الموت؛ وعلى الإنسان أن يرتضي الموت عن ذاته كي يقتحمه البشر، ويقتحمه اللّه. فبمعزلٍ عن هذا الموت، لن نرى اللّه، ولن نحبّ البشر.

إنّ ما يجعل المسيحيّ مسيحيًّا حقًّا، هو مدّه اليد التماسًا لعون اللّه، وإغداقًا لعون البشر.

* *

يقول ڤيكتور هوغو: «صلاتكم تعرف أكثر ممّا تعرفون...» إنّها تعرف، بالسليقة، أَنّ الإنسان ليس كائنًا محكومًا عليه بالانغلاق والتحطّم. وهي تستشعر أنّ الحياة هي أكثر من الحياة. إنّها تنحني فوق الفراغ، ومن الدوّار تخلق الاتّزان الأمنع زخمًا.

والمرء الذي يصلّي يحاكي شجرةً تغامر في الفضاء، من غير أن تدري جذورها، ناشدةً الأوكسجين المنعش غير المرئيّ. إنّه يشبه شجرةً عمياء أمام الشمس التي تنمّيها.

والمصلّون يشبهون عميانًا يتحرّكون بحرّيّةٍ وفرحٍ، يحدوهم الشعور بأنّ يدَي اللّه على أكتافهم. والقدّيسون هم الذين يركضون في الظلام. النور يتراقص في داخلهم ويشعّ على وجوههم. «هل شاهدتم النور، أحيانًا، يشعّ على وجوه بشرٍ لا تبصر عيونهم النور؟».

قديمًا كان من يصلّي «يلمس» اللّه، ويتّصل به، ويستدرّ عطفه، ورحمته، ويظفر به. كان حسبه أن يخشع، ويرقى قليلاً، إذ إنّ الصلاة هي سموّ النفس صوب اللّه، والظفر بالسلام.

ولكن يبدو أنّنا، اليوم، فقدنا هذه الصلة المباشرة باللّه.

إنّ اللّه يقطن الليل، أو بالحريّ، الليل هو دربنا نحو اللّه. والصلاة تدوّي في

ثنايا الليل، وفي أعماق السرّ، وتفتح يدَي الإنسان وناظرَيْه على المشهد الذي سينبعث، في الصباح الأخير، ممزِّقًا صفاقة ضبابنا، متخطّيًا دهشتنا، وحينئذٍ سنتبيّن أنّ الصمت كان أكثر من علامةٍ، وأنّ الفراغ كان الرؤية الحقيقيّة، والنواة الأساسيّة.

الصلاة تكتشف الصمت وسط الضجيج، وفي الصمت تلتقي أصواتًا حبيبةً. ومن خلالها يغدو الغياب باب الحضور، والفراغ موئل المنتَظر اللامحدود. والحياة التي يهبها الكائن الأكثر حضورًا في تاريخنا تسري في فراغ الغياب.

وفوق كلّ ذلك، تجمعنا الإفخارستيّا حول الغائب الحاضر. وجهه الملموس هو وجه البشر الملتئمين، ووجه الخبز والخمر.

* *

من يقطنه روح الصلاة، يُنشد حتّى في الحزن، فالنشيد، ولو كان حزينًا، يظلّ نشيدًا. ولكن حذارِ من الصلاة الكئيبة، ولكأنّها سُخْرةٌ مفروضةٌ، أو مهمّةٌ ثقيلةٌ، أو سداد دَيْنٍ منفّرٍ. فالله لا يستأهل منّا هذا العبوس. وخيرٌ لنا أن نرجئ الصلاة إلى حين نشعر أنّنا نودّ الانعتاق من ذواتنا، ونحيي مهرجان فرحٍ، وجهدٍ، واندفاعٍ.

الصلاة تَفجُّر حياةٍ، ولذلك لا يمكن الاستقرار فيها، وتحويلها إلى عباراتٍ تُكرَّر تلقائيًّا، بلا شعورٍ. بل لا بدّ من إعادة خلقها باستمرارٍ، ومن الجهد في استنباطها من الأعماق، حيث يستمدّ المرء كيانه، في ما يتخطّى البشر.

الصلاة حجٌّ دائمٌ، وارتحالٌ مطّردٌ، وانطلاقةٌ متجدّدةٌ أبدًا.

وإن لم تسهم الصلاة في تغيير الحياة فهي وهمٌ.

«أبــانــا»

(متّى ٦: ٩–١٤)
(لوقا ١١: ١–٤)

لطالما شهد التلاميذ يسوع يصلّي، كلّما تسنّت لـه فسحةٌ من وقتٍ، على غير تقيّدٍ بالأزمنة والأمكنة التي كرّستها التقاليد: في وحشة الصحراء، أو على ضفاف البحيرة، أو على التلال والدروب، وسط الكروم أو تحت أشجار السنديان والزيتون. واجتاحتهم رغبةٌ عارمةٌ في التمثّل به، فالتمسوا منه أن يعلّمهم الصلاة بطريقته، ووفق أسلوبه. ففعل ذلك بعباراتٍ موجزةٍ، كثيفةٍ، خالدةٍ، ولكأنّه، بها، يسمو بنا إلى عالمٍ آخر.

الدهشة تتفجّر منذ اللفظة الأولى. فنحن نخاطب خالق كلّ شيءٍ، كما يخاطب طفلٌ أباه قائلاً: «بابا». بساطةٌ خارقةٌ، ولقاءٌ بين المفرط في الصغر، والكبير بلا حدودٍ، بين الموغل في الوهن، والقادر بلا نهايةٍ، لقاءٌ يرقى بالصغير إلى مستوى العليّ، ويُضفي على الضعف البشريّ قوّة الكلّيّ القدرة. ويرحّب أَحدهما بالآخر، في حميميّة كائنَيْن يثق أحدهما بالآخر ثقةً مطلقةً.

الأب الذي يشير إليه يسوع هو وجهٌ قشيبٌ لله، أماط هو اللثام عنه، والأب يذود عن حياض أبنائه، ويُعنى بهم في شتّى المجالات. هو، طبيعيًّا، موضع ثقة الأبناء، واحترامهم المفعم تواضعًا. إنّه يمثّل سلطةً لا جدال فيها، ولكنّه، في الآن عينه، أليفٌ، رقيقٌ، ونجيٌّ جاهزٌ للإصغاء. قد يلجأ إلى القسوة، ولكنّه لا يتخلّى، أبدًا، عن الحبّ.

والأب الذي ندعوه، مع يسوع، هو «**في السماء**»، أي إنّه فوق الواقع الأرضيّ، ويتخطّى عالمنا المرئيّ، ويريدنا أن نسمو إليه. إنّه أبٌ مختلفٌ مدهشٌ، ولكنّه على مقربةٍ وثيقةٍ منّا، بحيث يسعنا أن ندعوه «بابا».

لقد تميّز تعليم يسوع بإعلانه الله أبًا يُطلع شمسه على جميع خلائقه بلا تمييزٍ،

يُلبس الزنبقة أزهى حلّةٍ، ومنه نحن نلتمس كلّ شيءٍ، وبصفحه وكماله نتمثّل. لم يكن اليهود يَرون في اللّه سوى الديّان، الخالق الكلّيّ القدرة، المنحاز لشعبٍ واحدٍ، وأظهره يسوع قدرةً رقيقةً، محبّةً للبشر أجمعين.

وبفضل هذه الرؤية أصبح كلّ البشر إخوةً عليهم أن يتعاملوا تعامل الإخوة. يسوع هو ابن اللّه الحقّ الوحيد، والبشر أجمعون أبناء اللّه بالتبنّي. وهذا ما يتجلّى منذ العبارة الأولى: «**أبانا**».

حكمة الأقدمين لم تدرك أنّ البشر هم «بعضهم لبعضٍ أعضاءٌ». وقد عدّوا التأمّل في الإلهيّات متعةً شخصيّةً موقوفةً على نخبةٍ، والاقتراب من اللّه امتيازًا فرديًّا. أمّا إله يسوع، فهو، في المقام الأوّل، أبٌ لجميع خلائقه. ولا يسوغ لنا دعوته «**أبانا**» إلاّ بصفة كلٍّ منّا عضوًا في الأسرة البشريّة الكبرى، وأخًا لكلّ فردٍ فيها.

أليس مثار ذهولٍ أن نخاطب، ببساطةٍ وثقةٍ، إلهًا سماويًّا ندعوه «**أبانا**»؟ هذه الدهشة هي التي تنهد بنا إلى ذرًى شامخاتٍ من حيثُ نكتشف مشاهد الحياة اللامحدودة منبسطةً أمام نواظرنا. وفي هذا العلوّ الذي يُشيع الدوار والرعشة يتنفّس كلّ كيان الإنسان: فنظره يتلقّى النور ويشعّه، وإرادته ويداه تخلق الرجاء حيث تزمجر العاصفة، وهو يغدو يحمل، في داخله، مستقبل العالم البشريّ والإلهيّ.

ألا يجدر بنا أن نسأل، أحيانًا: «أبانا، أعطِنا، اليوم، دهشتنا اليوميّة»؟

وإذ ندعو أبًا على هذا القدر من السموّ، يحبّنا ويثق بنا، فنحن قومٌ منتصبون، رافعو الهامات؛ إنّ اسم أبينا هو كنيتنا، وموضع فخارنا، ولذلك ما إن نهتف «**أبانا الذي في السماوات**» حتّى نسارع إلى الإعلان عن رغبتنا في أن يتقدّس اسمه. ودورنا في هذا التقديس جوهريٌّ؛ فنحن نقدّس اسم الآب، عندما ننفّذ مشيئته، ونسلك سلوكًا لائقًا به، وبذلك نضرب للآخرين مثلاً لما يتأهّل له من يعي كرامة كونه ابن اللّه، ويحافظ على هذه الكرامة، حافزًا الآخرين على تقديس ذلك الاسم أيضًا.

كان الاسم يعني حميميّة الكيان، والقدّيس هو الذي يخصّ اللّه، وينفصل عن العالم. وقدسيّة اللّه تُبرز الهوّة السحيقة بين المحدود واللامحدود، وبُعد اللّه عن كلّ نجسٍ، ملوّثٍ، بشريٍّ. ومنذ تلفّظنا: «**ليتقدّس اسمك**»، يندمج في قلبنا الحبّ والعبادة، وهما سرّ الحياة البشريّة.

وعندما نطلب من اللّٰه أن يتقدّس اسمه فلكأنّنا نقول: «فلنتوغّل في إدراك لانهائيّة كمال ما هو جوهر كيانك، سرّك، ذاتك، حميميّتك!».

ورغبتنا في تقديس اسم الآب لا تنفصل عن الرغبة في مجيء ملكوته، وعن إيلائنا الأولويّة لازدهار ذلك الملكوت الذي لا يسع أعضاءه إلاّ أن يكونوا إخوةً عالميّين، إخوةً ليسوع، وإخوةً في ما بينهم، وأبناءً لأبٍ واحدٍ، إذ إنّهم مدعوّون إلى الهتاف معًا: «**أبانا**»، ذلك النداء الذي يشقّ طريقًا لانهائيًّا نحو الحبّ الأبويّ والأخويّ. وهل من نشوةٍ أشدّ وقعًا في النفس من هتاف: «**أبانا، ليأتِ ملكوتك**»! هذا الملكوت الذي انتظر البشر مجيئه، مثل اقتحامٍ، وتفجيرٍ، مثل ولادةٍ فريدةٍ تعقب الجمّ من الدموع، والغمّ، والتشنّجات.

«**ليأتِ ملكوتك**»: خمرة عيدٍ تفيض نشوةً وانتعاشًا. ولكنّ البشر، مع كرّ الأيّام، خلطوها بماء الوجود العاديّ، وحاولوا ترويضها. ولكنّها ما برحت ماثلةً، حارقةً، تَنشد، في مواجهة سيطرة المال، والقوّة، والعنف، أرضًا جديدةً، أرض الحبّ، ومدينة اللّٰه.

«**ليأتِ ملوتك**». إنّه التعبير الأقوى عن مقاومة الوضع الراهن. ولئن كانت «سفينة «أبانا» الثقيلة» على حدّ قول الشاعر پيغي، ما انفكّت تمخر البحار منذ عشرين قرنًا، في لأيٍ وشرودٍ أحيانًا، إلاّ أنّها غالبًا ما يمّمت شطر أعالي البحار، وسط العواصف البشريّة، تساندها ريح اللّٰه. فصلاة «**أبانا**»، هي صلاة الأمداء البعيدة، لأنّها تستشفّ، وتتوقّع، وتنشد شاطئًا في عالمٍ آخر.

وعندما تبحر سفينة الكنيسة برشاقةٍ، فهي تَنشد آفاق الوعد والانتظار، ويتوسّم ملاّحوها ما ينتظرهم على أرض الموعد: الفرح، والسلام، والرفعة، والحبّ، ويُضفون كلّ الأسماء المحبّبة على ملكها المتواضع الفقير؛ ويدركون أنّ اللّٰه ينفخ، برقّةٍ، ريحه على هشاشة رحلاتهم الطموح.

فعلى حدّ قول شكسپير «أقلَّ المركبُ الريحَ على كتفه المصنوعة من قماش»، ولكنّ مركب الروح لا يُقلّ من الركّاب سوى من كان كلّ متاعهم هوى المستقبل.

ونحن بصفتنا تلاميذ يسوع، وحريصين على إتمام رسالته، نسأل أن يترسّخ

الملكوت الذي أسّسه ابن الله، أخونا الأكبر. وإنّما مبتغانا أن يكون أبونا السماويّ سيّد الكون بلا منازعٍ، وعلينا أن نسعى إلى هذا الهدف بكلّ طاقاتنا.

إنّنا نهتف: «**ليأتِ ملكوتك**»، ونحن نئنّ تحت سيطرة القوّة، والطمع، والمال، لأنّنا نتطلّع إلى عالَمٍ أسمى، وأقدس، وأجمل.

طلبة «**ليأتِ ملكوتك**» تعيدنا إلى الزمن التاريخيّ، إلى الخليقة غير المكتملة، إلى أنين الصيرورة. هذه الطلبة تلتمس اختزال الفترة التي تنتهي بحلول ملكوت الله، حيث يتجلّى تعالى في حقيقته، وحميميّته، ومجده، وحيث تتواصل ضمائر البشر. فلتأتِ سريعًا تلك الساعة التي يصبو إليها كلّ روحٍ، حيث سينتفي قلق الوجود، تلك الساعة التي ستكون نهاية كلّ تطوّرٍ، والثورة الحقّة.

«**أبانا**»، ملكوتك الذي حلّ على الأرض بمجيئك، وتعليمك، فليتجلّ، أخيرًا، بكلّ مجده.

إذن، عندما نصلّي كما علّمنا يسوع، يكون كلّ كياننا مشدودًا صوب المستقبل، صوب الملكوت الذي وعد به الآب السماويّ. وهذه النظرة إلى الأمام، وإلى العلاء، معًا، تؤكّد كرامتنا كأبناء الله.

مجيء الملكوت مرهونٌ بتنفيذ مشيئة الله على الأرض مثلما هي منفَّذةٌ في السماء؛ وهذا يقتضي منّا السعي إلى تبيُّن تلك المشيئة، وإخضاع مشيئتنا لها.

كان الأبرار يُعرَّفون بأنّهم من يهبّون لتنفيذ مشيئة الله، ويسوع نفسه قال: «**لست أعمل بمشيئتي، بل بمشيئة الذي أرسلني**».

وكم التزم يسوع إرادة أبيه بحبٍّ جمٍّ، وكم ارتعش فرحًا لرؤية تحقيق مخطّطه الإلهيّ المفضي إلى المجد، لا بوسائل القوّة، بل بالتواضع والبذل! ولا ريب أنّ صلاة الالتزام المحبّ والفَرِح بإرادة الآب تشمل كلّ حياة يسوع على الأرض.

بوسع الله، مع احترامه لحرّيّات البشر، إخضاع إراداتهم، بنعمته، لمشيئته، وذلك لخير البشر أنفسهم. وعندما نطلب أن تتحقّق مشيئته، إنّما نتنازل عن إرادتنا الضالّة، التي تسعى، أحيانًا، إلى ما لا يشاؤه الله، ونسأله أن يُلزمها بإرادته، فإرادتنا البشريّة قد تتمرّد على أحكام الله التي قد تبدو، أحيانًا قاسيةً، بل جائرةً. ويسوع نفسه،

على الصليب، أظهر أنّ لـه إرادةً خاضعةً بالكامل لمشيئة الآب، وأُخرى متمرّدةً على هول الآلام. ولكنّه كان يسارع إلى لجم تمرّده، كي يُخضع كلّ ذاته، وكلّ مصيره، لمشيئة أبيه.

وكذلك كلّ الخلائق الحرَّة ممزّقةٌ بين رغباتها الجامحة، وأهدافها العليا. وما من شيءٍ يغمر النفس رضًى مثل شعورها بأنّها لم تعمل بموجب نزواتها ورغباتها، بل وفق إرادةٍ عليا، هي إرادة الله.

* *

أمّا قولنا: «**كما في السماء، كذلك على الأرض**»، فهو ينسحب على الطلبات الثلاث أي أن يتقدّس اسم الله، ويترسّخ ملكوته، وأن تنفّذ مشيئته بين بني البشر كما هي الحال في السماء، حيث اسمه محاطٌ بتسبيحٍ دائمٍ، وملكوته ثابت الأركان، بمنأًى عن أيّة مقاومةٍ، ومشيئته سائدةٌ، منفَّذةٌ بحبٍّ وبتبجيلٍ.

الطلبات الثلاث متداخلةٌ متلازمةٌ.

اسم الله يتقدّس عندما يحلّ ملكوته، ملكوتٌ يشترك الجميع في خيراته كلّها، ويجعلنا نملك معه عندما نتمّم مشيئته على الأرض، كما هي متمّمةٌ في السماء. وعندما نصلّي «**أبانا**» لا بالشفاه، بل بالقلب، وبكلّ استعدادات النفس نقول: «أنت إلهي، في كلّ الظروف التي أُوجد فيها: في الفرح، والمِحَن، والعمل، والوحدة، والعلاقات البشريّة، والصحّة، والمرض، وأخيرًا في الموت. أنت إلهي، وستبقى إلهي، أبدًا. إنّني أريد أن تكون الله فيّ ومن أجلي، للجميع، وفي الجميع، في العالم أجمع، ومن أجل العالم أجمع».

* *

هذا الجزء الأوّل من صلاة: «**أبانا**»، يضعنا أمام السرّ الإلهيّ، طالبًا من الله أن يكون الله، ويظلّ الله دائمًا، وأكثر فأكثر، إن أمكن، ويطالب الامتلاء أن يكون أكثر امتلاءً.

وهكذا تصبح هذه الصلاة، على حدّ قول الكردينال كونغار (CONGAR): «تواصلاً مع سرّ الله ومشيئته، وانفتاحًا على الله، وتقدمةً لـه، لكي يكون الله ليس

فقط في ذاته – فهو دائمًا كذلك – بل، أيضًا، فينا، وفي الآخرين وفي العالم. لا يستطيع البشر أن يُنقصوا شيئًا من مجده الجوهريّ، ولا أن يُضيفوا إليه شيئًا. غير أنّ الله يريد أن يشعّ في الخلائق التي دعاها إلى الوجود، وأن ينفث فيها انعكاسًا لحياته الخاصّة: حقيقته، وعدلـه، وحبّه... هذه الصلاة هي تواصلٌ في الفرح، والخضوع، والشكر، في سرّ الله هذا، الكامن في ذاته، وفينا. هي التواصل مع النبع الواحد، والتأهّب لما يُعدّه لنا النبع من كيانٍ، وامتلاكٍ، وفعلٍ، وأيضًا لنكون، إن شاء الله، النهر الذي يوصل ما أعدّه للآخرين. وهكذا تصبح الصلاة اشتراكًا في مجد الله، في ذاته، وفي خليقته، بفضل هذا الإشعاع الذي يقرن مجد الله بحياة البشر».

وبعد التماسنا مجد أبينا السماويّ، نطلب ما نحتاج إليه لخوض حياتنا الأرضيّة بما يجعلنا أهلاً لبنوّته.

لا نطلب الثروة، والبحبوحة، والامتلاك، وضمان المستقبل، بل مجرّد خبز كلّ يومٍ، الطعام اليوميّ الضروريّ لعيشنا، وعيش من نحن مسؤولون عنهم. وبما أنّنا نرفع هذه الصلاة باسم جميع البشر، فإنّنا، تلقائيًّا، نطلب الخبز اليوميّ لألوف إخوتنا المحرومين منه، أي من الحدّ الأدنى لمقوّمات الحياة.

علينا أن نلتمس من الله كلّ شيءٍ، في كلّ يومٍ، وفي كلّ ساعةٍ، وألاّ نبني ثقتنا على أيّ شيءٍ ممّا تمتلكه أيماننا. وللشاعر شارل بيغي، في هذا السياق قولٌ مخيفٌ: «لا يستطيع أن يكون مسيحيًّا من أمِن الحصول على خبزه اليوميّ».

طلب الخبز هو طلب الطفل الفقير، الذي لا يملك احتياطًا للغد، وينتظر أن يُنزَل لـه خبزه كلّ يومٍ، على نحوٍ غير متوقّعٍ، ولكن أكيدٍ.

الخبز هو ثمرة الحنطة، وهو كلّ غذاءٍ للجسد،. هو، أيضًا، كلّ غذاءٍ للروح، هو الكلمة التي تهب الحياة، وهو، للمسيحيّ، الإفخارستيّا، جسد الربّ، خبز الحياة.

ليتنا نعود إلى الترجمة القديمة التي تقول: «**أعطِنا اليوم، خبزنا الجوهريّ**»، فهي أكثر دقّةً، وأرحب شمولاً.

ثمّ نستغفر أبانا، ملتمسين منه مسامحتنا بما يرهق ذمّتنا. الإنجيليّ متّى يسمّي هذا العبء الوجدانيّ دَيْنًا لله علينا، فهذا التعبير أقرب إلى عقليّة اليهود الذين توجّه

متّى بإنجيله إليهم، أمّا لوقا الذي توجّه بإنجيله إلى وثنيّين يونانيّين، فقد سمّاه خطايا وذنوبًا. تعبيرٌ مختلفٌ، ولكنّ المعنى واحد. ومن يطلب المسامحة بهذا الدَّيْن يعي تمامًا أنّ تلبية طلبه مرهونةٌ بمبادرته، أوّلاً، إلى مسامحة إخوته، وإبرائهم من كلّ دَيْنٍ معنويٍّ له بذمّتهم.

يقول جان غيتّون، بشأن التماسنا الغفران: «يسأل الإنسانُ اللّه أن يفعل له باستمرارٍ، ما لا يحسن فعله، هو نفسه، للآخرين».

ونحن علينا أن نصفح، لأنّ علينا أن نكون محبّين أكثر من أعدائنا، ولأنّ علينا أن نختار، بوضوحٍ، موقفنا: فإمّا أن نكون ممّن يحبّون، أو ممّن يبغضون.

هذا الدعاء هو من أثمن ما قد نطلبه، لأنّ لا شيء يرهق نفوسنا، ويكدّر حياتنا مثل الشعور بوقر الخطيئة، وليس، كغفران اللّه، ما يحرّرنا من هذا العبء. وليس كغفراننا للآخرين ما يريح نفوسنا.

ولا ريب أنّ غفران البشر المتبادل، المستوحى من غفران اللّه للجميع، يضمّخ بعطره كلّ العلاقات البشريّة.

ثمّ نلتمس من أبينا ألاّ يدعنا ننزلق إلى غواية التجربة. إنّ التجربة من عمل الشرّير، وهي ترافق كلّ مراحل حياتنا. إنّها تحطّمنا إن نحن عنَوْنا لها واستسلمنا لإغراءاتها، ولكنّنا نكبر ونقوى بمقاومتها والتغلّب عليها. وبما أنّنا عليمون بوهننا نلتمس من أبينا السماويّ ألاّ يدعنا وحيدين في مصارعتها، بل أن يقف إلى جانبنا، ويشدّ عضدنا، ويزوّدنا بقوّته، كي «**ينجّينا من الشرّير**»، ومن مكائده وخبثه.

إنّ تقديس اسم الآب، وتنفيذ مشيئته، ومجيء ملكوته، تقتضي منّا التغلّب على التجارب، وتدمير حواجز إبليس وصدّ هجماته، ولذلك نسأل اللّه بحرارة أن «**ينجّينا من الشرّير**».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

أيُّ خلقٍ جديدٍ تنبض به صلاة «**أبانا**»، وأيّ استنفارٍ لكلّ طاقات الذات في سبيل تغيير المسيرة وتصعيدها! ولكن هل يخفُق، في صلاتنا، روح «**أبانا**»، حقًّا، وهل تحدوها رغبتنا الخالصة في مجد اللّه، والأخوّة الإنسانيّة الشاملة؟

الصلاة تقول: «**أبانا... ليتقدّس اسمك**». ولكن كم من أسماءٍ أخرى كثيرةٍ هي التي تخفق لها قلوبنا!

الصلاة تقول: «**ليأتِ ملكوتك**». ولكنّنا نعيش في ملكوت الأرض، ولكأنّه الوحيد، ولكأنّنا فيه خالدون!

الصلاة تقول: «**لتكن مشيئتك**». غير أنّ مشروع الله، والحبّ الذي يريد رؤيته منتصرًا، لا يحفزان إرادتنا، بقدر ما تحفزها رغبتنا العارمة في النجاح، والسيطرة؛ وما أبلغ قنوطنا إذا ما فشلنا في إصابة هذين الهدفين!

الصلاة تقول: «**أَعطِنا، اليوم، خبزنا، كفافنا**». ولكنّنا ننفق حياتنا في التماس المزيد، غارقين في القلق والهموم.

الصلاة تقول: «**اغفر ذنوبنا كما نحن نغفر...**»، ولكن ما أبعدنا عن التمثّل بصفح الله!

أَلم يقل يسوع: «حتّى الآن لم تسألوا باسمي شيئًا. فاسألوا تُعطَوا، فيكون فرحكم كاملا»؟ (يوحنّا ١٦: ٢٤)

إنّنا غالبًا ما «نستخدم» صلاة «**أبانا**» لأغراضٍ سخيفةٍ، مع أنّ يسوع لقّننا إيّاها لتمجيد أبيه، واستعجال ملكوته، وتنفيذ مشيئته. إنّها فَيَضان صلاةٍ، وبركانٌ يهدر في داخلنا. فهل يخطر لنا استخدام بركانٍ عندما نفتقر إلى عود ثقابٍ؟

لو غامرنا، مرَّةً واحدةً، وتوغّلنا في أعماق «**أبانا**»، مخاطرين بحياتنا، لانقلبت حياتنا إلى الأبد، ولربّما فقدنا الجرأة على ترديد هذه العبارات الناريّة، ولكنّها، هي، لن تكفّ عن إخصاب كلّ نوايا وجودنا.

فكم يلزمنا من الجرأة لكي نخاطب الله، بقول «**أبانا**»، هكذا، ببساطةٍ، بمثل الثقة التي تلفّظت بها «شفتا حنان» يسوع! بل كم يلزمنا من جرأةٍ، لكي ندخل محراب الله، ولكأنّه منزلنا، وأن نحدّثه، ولكأنّه أخٌ لنا!

* *

وستظلّ صلاة «**أبانا**» تحدو رجال المستقبل، لأنّها صلاةٌ تضجّ نفاد صبرٍ، وتحرّض،

وتبني، ولأنّها «طاقة الرجاء الأساسيّة» فينا، ووسيلة صلتنا بالله الذي هو، دائمًا، قياس الإنسان الإلهيّ اللامحدود.

* *

إنّ الصلاة عملٌ في منتهى البساطة، وفي منتهى التعقيد؛ بها يقف الإنسان، في آنٍ واحدٍ، في الأبديّة وفي الزمن. الإنسان يشعر أنّه أبديٌّ، ومع ذلك يواكبه الشعور بأنّ مستقبله مجهولٌ، وبأنّه محاطٌ بالريبة، ومسكونٌ بالقلق، والرغبة، والحاجة. إن كانت الصلاة هي العمل الذي يوجز كلّ فكرٍ، وكلّ حياةٍ إنسانيّةٍ، فما العمل كي يقف المرء، عندما يصلّي، في رؤيةٍ إلهيّةٍ، ورؤيةٍ بشريّةٍ؟

هذا الإشكال تحلّه صلاة «**أبانا**» التي تبدأ فتضعنا أمام السرّ الإلهيّ، ثمّ تنحدر بنا إلى المستوى البشريّ اليوميّ. طلباتها تبدأ بالسامي، وتنتهي بالمألوف، كما يتعيّن على كلّ فكرةٍ رفيعةٍ، وعلى كلّ صلاةٍ صافيةٍ.

بها، يسوع المقيم «في السماوات» يرقى بنا، أوّلاً، إلى حياته الحميمة، وإلى أبديّته، ثمّ ينحني على همومنا الأرضيّة.

إنّها مصدر تجدّدٍ روحيٍّ مطّردٍ، وقد قال عنها القدّيس أوغسطينُس إنّها «معموديّةٌ يوميّةٌ».

أجل، ينبغي أن نصلّي باستمرارٍ ولجاجةٍ. ولكن هل سيهبنا الله ما نطلبه منه؟ ربّما سيهبنا ما هو أكثر وأفضل: روحه القدّوس.

هذه الصلاة، إن أحسنّا تلاوتها، هي، حقًّا، معموديّةٌ يوميّةٌ لنا.

أوفيــاءُ لِلــنُّور

يقول بولس الرسول إنّنا نحمل كنز النور في آنيةٍ خزفيّةٍ، سريعة العطب. ولكي نظلّ أوفياء للنور ينبغي أن نكون يقظين لهذه الهشاشة.

النور من الانتشار بحيث لا نفكّر فيه حتّى نفقده، وكذلك هو يسوع الذي لا نفكّر بحضوره الفاعل في حياتنا حتّى نفقده. وغالبًا ما نفكّر فيه متأخّرين!

إنّنا نوقن أنّنا نملك النور، فهل نعرف الحفاظ عليه، والاهتداء به؟

لكي تظلّ الشمعة مضيئةً، ينبغي أن تحترق بأكملها. ونحن، كي نحتفظ بالنور، علينا أن نُعطي كلّ شيءٍ. ولكن، في الواقع، ما أبرعنا في اقتصاد ذواتنا، وفي الضنّ بطاقاتنا وممتلكاتنا، وفي إحصاء كلّ ما يسعنا ألاّ نعطيه، وأن نُبعده عن النور! وما أصدق المثل الصينيّ القائل: «أحمق هو من يَنشد الله، وفي سبيله يهب كلّ شيءٍ، ما خلا الفلس الأخير، فبالفلس الأخير يُشترى الله»!

فلنتجرّأ على التضحية بالفلس الأخير، حفاظًا على النور، ولنتخلَّ عن كلّ شيءٍ، لكي نمضي ونقتبس النور عندما يتجلّى لنا. وقد يحرق النور حامله، ولكن لن يخيب، يومًا، أمل طالبه، لأنّ الله هو الذي يعطيه.

ولكنّ النور، مع هشاشته، قويٌّ لأنّه يمكّن من رؤية الواقع، ويمكّن الأشياء والعالم من الوجود، ويجعلها تتجلّى وتبلغ مِلأها.

ومن دلائل قوّة النور أنّه يتوزّع ولا ينقص منه شيءٌ، بل كلّما انتشر عَظُم. كلٌّ ينعم به، ولا أحد يقوى على إمساكه أو احتكاره. ووسيلة الاحتفاظ به، هي إشعاعه.

والنور من القوّة بحيث لا يدافع عن نفسه، لأنّ الحقيقة لا تخشى شيئًا، بل علينا، نحن، أن نخشى فقدان النور، إذ إنّ في هذا الفقدان دينونتنا الأبديّة، كما

قال يسوع (يوحنّا ٣: ١٩ -٢١): «**وأمّا الدينونة فهي أنّ النور قد جاء إلى العالم، وأنّ الناس آثروا الظلمة على النور، لأنّ أعمالهم كانت سيّئةً. ذلك بأنّ من يعمل السوء يُبغض النور، ولا يأتي البتّة إلى النور لئلاّ تفتضح أعماله. وأمّا الذي يعمل في الحقّ، فإنّه يُقبل إلى النور، لتظهر أعماله، لأنّها في الله قد عُمِلت**».

مَن هُوَ الأعمى؟ القَشّةُ وَالعَارِضَة

(لوقا ٦: ٣٩ – ٤٢)

لا يدَّعِيَنّ حسيرُ البصر هدايةَ الآخرين! ولا يتجرّأنّ من عمَّت الفوضى بيته على التنديد بالجار، من أجل هناتٍ تافهةٍ.

ليست أقوال يسوع هذه مجرّد تعليم حسن السلوك، بل هي تندرج في سياق انقلاب القلوب الجوهريّ الذي أحدثه. ففي هذه الأقوال، وما سبقها، وما تلاها، تتردّد لفظة «الأخ» باطّرادٍ، ترداد لازمةٍ. لقد أسّس يسوع جماعةً لا تني تخاطب اللّه بهمسها، على غراره،: «أبّا»، «بابا». ومن كان أبوهم واحدًا، كانوا إخوةً، ويتعيّن عليهم أن يكونوا جديرين بأبيهم.

أقوال يسوع هذه تعارض النزعة الفطريّة إلى الانضواء في مصافّ الأبرار للتميّز عن الأشرار، وإثبات التفوّق عليهم. وهي تنتزع سمّ العنجهيّة والكبرياء والرياء، إذ طالما أفضى عمى الزعماء، وتجبُّرُهم ومطامعُهم، إلى دفع الشعوب نحو الحروب والكوارث.

لدى الكبار نزعةٌ إلى اتّهام «الآخرين»، وإلى تصنيف ذواتهم في فئة الصالحين، في مواجهة الأشرار، ولكأنّهم، بهذه المواجهة، يؤكّدون عظمتهم. ولكأنّ الجماعات والأُمم تحتاج إلى أعداءٍ كي تحقّق وحدتها وتماسكها!

عمى البصيرة والعُجْب بالذات شرّان متلازمان. فعلى المكلّفين بالقيادة أن يتحلّوا بصواب التمييز، وسداد الرؤية، ووضوح البصيرة، ومعرفة الذات بصدقٍ. وعلى الإخوة ألاّ يدين أحدهم الآخر، وألاّ يدّعي أحدهم إلقاء دروسٍ على أخيه، قبل أن يكون قد نزّه ذاته من كلّ عيبٍ.

* *

إنّه أعمى ومُدَّعٍ من يتغاضى عن نقائصه من أجل الإمعان في تحقير الآخر، وتذوّق إدانته؛ ومن يُسبغ على ذاته، وعن ذاته، صُوَرًا متألّقةً لكي يضاعف قتام صُوَر من يصاحب، وبالحريّ من لا يصاحب؛ ومن يدّعي وضوح الرؤية، وهو حسيرها، وبدافع محبّةٍ زائفةٍ، يمسك بيد من يتّهمهم بالعمى، كي يقودهم على دروب حقيقةٍ مزعومةٍ.

* *

وما انفكّت دعوة يسوع إلى نظرةٍ أخويّةٍ، وإلى سلوكٍ متبصّرٍ، تواكب القرون، بحيث أمست مقولات «أعمى يقود أعمى»، ومحاولة من تحجب بصرَه عارضةٌ في عينه إزالةَ القشّة عن عين الغير، أقوالاً مأثورةً، يكرّرها حتّى من غدا يجهل مصدرها الأصليّ، فتنبّهه إلى واجب معرفة الذات، قبل إدانة الغير، وإلى انتباذ كلّ رياءٍ، وإلى التزام التواضع والواقعيّة.

* *

يسوع هو النور الذي دعا إلى التحرّر، وإلى توسيع آفاق الحبّ لدى من أوصاهم بحبّ الأعداء أَنفسهم، ممزّقًا كلّ ضروب الانغلاق، ومولّدًا بشريّةً جديدةً تتألّف من «بني العليّ»، رفيقةً بالجحودين والأشرار. ولادةٌ هشّةٌ ينبغي أن تتجدّد بلا انقطاع، وأن تتكرّر بلا هوادةٍ ولا توانٍ.

خرجَ الزارعُ ليزرَع ...

(متّى ١٣ : ١-٩)

كانت رسالة يسوع، في مستهلّها، قد فتنت جماهير الجليل، واستثارت اندفاعًا عارمًا. ولكن، بعد أن شرع يسوع يؤكّد أنّه ليس المسيح السياسيِّ الوطنيّ الذي ينتظره اليهود، بل مسيح ملكوت الروح، وبعد أن قدّم جسده مأكلاً روحيًّا، وخبز حياةٍ، ارفضّ عنه كثيرون، وحتّى الذين كانوا قد التحقوا به، تخلّى عنه معظمهم.

وقد أوحى له ذلك مَثَل زارعٍ خرج لينثر بذاره في حقله. وذات يومٍ، إذ كان جالسًا على ضفّة البحيرة، احتشد من حوله جمعٌ كثيفٌ، فصعد إلى سفينةٍ كانت راسيةً هناك، بحيث بدا وكأنّه يكلّمهم من شاطئٍ آخر، وروى لهم مثل ذلك الزارع.

بذاره كان جيّدًا وطيّبًا، ولكنّه لم يبلغ كلّه غايته من النموّ والنضج والإثمار. فبعضه وقع على حافّة الحقل التي اتّخذها المارّة دربًا، فصَلُبت. ولذلك بقي البذار على سطحها. فانقضّت عليه الطيور ونقرته. وبعضها وقع على أرضٍ صخريّةٍ، تكسوها طبقةٌ رقيقةٌ من التراب، فنبت بسرعة، ولكنّه لم يستطع أن يضرب في الصخر جذورًا، وسرعان ما أحرقته الشمس فذبل. والبعض وقع وسط أشواكٍ، فنبت ولكنّه لم يقوَ على النموّ، لأنّ الشوك خنقه.

وأخيرًا وقع البعض، وربّما القسط الأكبر، في أرضٍ جيّدة الحرث، يحيطها صاحبها بكلّ عناية، فنما ونضج، وأخصب، فآتى ثمرًا وفيرًا، تراوح بين ثلاثين مِثْلاً ومئة مِثْلٍ، وعوّض عن فشل البذور الأُخرى.

هكذا كان مصير رسالة الملكوت، وهكذا سيظلّ.

يسوع يلقي أقواله، ولكنّ المستمعين فئاتٌ:

– فثمّة من لا يُجيدون الإصغاء، فينساب الكلام على مسامعهم، انسياب الماء على صخرٍ، ولا ينفذ إلى نفوسهم. ومنهم من يسمعون ولا يحاولون الفهم، فيخطف

إبليس ما زُرِع في قلوبهم. كلام الربّ يقع على سطح نفوسهم، ولا ينفذ إلى أعماقها، ويظلّ بمتناول كلّ مارٍّ، وكلّ رأيٍ عابرٍ، وكلّ من يحاول إغراءهم أو تحدّيهم.

– وثمّة من يتلقّون الكلمة بفرحٍ، ولكن لا ثبات لهم ولا جذور. إنّهم أبناء لحظتهم، فما دامت الأمور تجري على هواهم، يندفعون ويمجّدون الله. وحالما تلوح المصاعب والمِحَن، والاضطهادات، ينسون كلّ ما سمعوا، ويُنكرون الله.

– وثمّة من تسقط الكلمة في نفوسهم، ولكنّهم ينصرفون عن رعايتها وسقايتها إلى أمور الدنيا، وهموم العالم، التي تخنق فيهم الكلمة، وتمنعها من النضج والإثمار.

ذلك هو شأن من يولون الاهتمامات المادّيّة، والمُتَع العابرة، الأولويّة على واجباتهم حيال نفوسهم، وحيال الله. وهم من تطغى على أذهانهم وقلوبهم ملذّاتهم، وصخبهم، ومرارتهم، ومطامعهم، وخزيهم، وزهوهم بأنفسهم. وهذه كلّها من الحدّة بحيث تخنق بذور الروح.

حالات الفشل متعدّدة الأشكال والأسباب. ولكنّ الكلمة تنتصر في نفوسٍ كثيرةٍ، والملكوت ينهض ويترسّخ رغم كلّ مواطن الفشل.

وما أكثر النفوس الطيّبة، المنيعة، اليقظة، التي تولي الكلمة اهتمامًا، ورعايةً، وفهمًا، واستيعابًا، وتعمل بوحيها، فتؤتي ثمار خلاصٍ لها ولسواها!

هذا المثل هو رسالة رجاءٍ، فرغم الفشل الجزئيّ، ورغم الإخفاقات المتعدّدة، سينتصر ملكوت الله. وإلى جانب الفشل الذريع، والبذار الضائع، وعدٌ بحصادٍ وفيرٍ، وفي مقابل الاندفاع العابر العقيم، خصبٌ محقّقٌ.

الملكوت تحقّق، ولكن لم يتقبّله الجميع. وليس الذنب ذنب الملكوت، بل ذنب القلوب غير المستعدّة، التي أفسح لها الربّ مجالاً للحرّيّة رحبًا، بحيث نستطيع أن نقول له: «نعم» أو «لا». فالله لا يفرض ملكوته عنوةً. فضلاً عن أنّه لا بدّ، دائمًا، من انقضاء فترةٍ زمنيّةٍ بين حضور الملكوت، وتحقيقه في النفوس، بين التقاء البذرة والتربة وتفجّر هذا اللقاء.

ويسوع هو الزارع، وهو ربّ الحصاد. هو يبذر، وبحضوره يُشرق الأمل. إنّه مبدأ النبت، ومبدأ الحصاد، إنّه الألف والياء.

* *

أحاديث الحصاد تعكس فرح يسوع: ثقةٌ جمّةٌ بالآب، سيّد المستحيل، الذي سينتصر على الإخفاق والدموع. فشل البذار لن يحبط الثقة بالحصاد. ولا شيء يمكن أن يحول دون حلول ساعة الحصاد، ويسوع يرتعش فرحًا لأنّ الآب أذن بحلول هذه الساعة.

لقد تسنّى للتلاميذ أن يشهدوا، بعد القيامة والعنصرة، جزءًا من بذار رسالة يسوع يعطي مئات الأضعاف، حيث لم يكن الحصاد متوقّعًا، في حين هلك الكثير منه حيث زُرِعَ أوّلاً.

قد يرين شعورٌ بالخيبة على من يعلنون بشرى الملكوت، عندما يشهدون الحجارة والأشواك، والكواسر، وجميع قوى الشرّ تتحالف وتتآمر على البذار الهشّ. ولكنّ يسوع يُنعش فيهم الرجاء، ويدعوهم، مع عدم الاستخفاف بأسباب الفشل، إلى تلافيها، وإلى الإيمان بوجود أرضٍ طيّبةٍ قادرةٍ على إخصاب البذار، بحيث تؤتي مئة مِثْلٍ. وقد لا يكونون هم من نثروا البذار، ولكنّ الروح، في السرّ، بذرها.

وقد أنهى يسوع مثله بقوله: «**من له أذنان فليسمع**»، كي يعني أنّ إثمار الكلمة يخضع لحسن الإصغاء إليها، ولاستيعابها، من أجل العمل بموجبها، فالاستعدادات النفسيّة هي العامل الأساسيّ في نموّ الكلمة، وما فشل هذا النموّ سوى نتيجة تخاذل المسيحيّين أو تفاهتهم.

هذا المثل الذي قيل منذ ألفي عام، ما برح نضرًا، معاصرًا، وعوامل إماتة بذور الحياة ما زالت كثيرةً، فاعلةً، مؤثّرةً. ولكن، في حقل الربّ، ما برحت الحياة تتفجّر، مواسم رائعةً، وما زالت الثمار تتخطّى وعد البراعم.

دَعُوهُما يَنمِيانِ كِلاهُما مَعًا حَتّى أوانِ الحَصاد

(متّى ١٣ : ٢٤–٣٠)

ربٌّ حقلٍ بذره بذار قمح جيّدًا. ولكنّ جارًا حقودًا تسلّل ليلاً، وألقى فيه بذار زؤانٍ. فنبتا معًا. وكانا، في أوّل عهد نبتهما، متشابهَيْن يعسر تمييزهما. وما إن نميا حتّى تبيّن عمَلةُ الحقل اختلاطهما. فاستأذنوا السيّد بالمسارعة إلى اقتلاع الزؤان، ولكنّهم فوجئوا برفضه، لئلاّ يُنتزع القمح مع الزؤان، وبإيثاره التريّث حتّى موعد الحصاد، وحينئذٍ يكون الفرز أيسر، وأوفر سلامةً.

إنّ اللّه يصنع كلّ شيءٍ على خير نسقٍ. وتتعقّبه قوى الظلمة والشرّ كي تفسد ما فعل. ومثلما أدهش العاملين في الحقل وجودُ الزؤان، مع أنّهم بذروا بأيديهم البذار النقيّ، كذلك نحن نُصدَم حيال كلّ ما نشاهد من مظالم تطال أبرياء، ومن كوارث مدمِّرةٍ، رغم يقيننا بأنّ اللّه الذي خلق العالم، يسهر عليه، ولا يصنع إلاّ كلّ جميلٍ، ولا يبتغي لخلائقه إلاّ كلّ خير.

للّه عدوٌّ كان قد خلقه حرًّا، جميلاً، وقديرًا، كي يحيا الحبّ، ويعمل الخير، ولكنّه عصى وتمرّد، وبات يستخدم حرّيّته وقدرته كي ينشر الفوضى حيث يسود التناغم.

عَمَلة الحقل استأذنوا صاحبه بانتزاع الزؤان في الحال، مثلما نحن ننزع إلى اجتثاث الشرّ، كي نعيد إلى الكون تناغمه ورونقه، مخاطرين بالنبتة الطيّبة الملاصقة له.

ذلك أنّنا نافدو الصبر، نزّاعون إلى العنف والانتقام، على نقيض اللّه الصبور، الغفور. إنّنا غريزيًّا ميّالون إلى اللاتسامح حيال من لا يروقون لنا، وحيال من يرفضون التفكير على غرارنا، ويأبون اعتناق ما نؤمن أنّه صحيحٌ وجيّدٌ للجميع.

وحينئذٍ، فلنتأمّل صبر اللّه الذي أودع الكون بذوره، واثقًا بطيبها وقدرتها على

الإثمار. من المحقّق أنّه لا يرضى بأيّة غلالٍ، وأنّه سيُجري الفرز، لا محالة، ولكن في أوان الحصاد. أناتُه بلا حدودٍ، وهو يصبر على الزؤان لأنّ جذوره معقودةٌ بجذور القمح الجيّد، ولأنّه يخشى على القمح من اقتلاع الزؤان قبل الأوان.

اللّه يعمل بتؤدةٍ وأناةٍ، فلنقتدِ بأناته وصبره!

واللّه لا يخشى انتصار الشرّ على الخير، لأنّه واثقٌ بقدرة نبتته الجيّدة على المقاومة. وهو يرى، في قلب من يبدو شرّيرًا، بذور خيرٍ قادرةً على النموّ، والتغلّب على عوامل الشرّ.

فلنتحرَّ، نحن أيضًا، مواطن الخير، ولنحدّق إلى سنابل القمح التي تزكو، معرضين عن الزؤان. ولا نُتِح للقلق الناجم عن وجود العشب الضارّ أن يطغى على أذهاننا ولندع الفرز والإدانة للّه، فهما من شأنه.

في أيّام يسوع كثيرون كانوا يتوقّعون تدخّلاً إلهيًّا مزلزلاً، ويأملون أن يُعمل الربّ منجله في العالم. المعمدان نفسه صوّره ماسكًا «**بيده المذرى، فينقّي بيدره، ويجمع القمح إلى أهرائه، أمّا التبن، فيحرقه بنارٍ لا تنطفئ**». ونفرٌ من تلاميذه طالبوه بإنزال النار على الأشرار، إذ كانوا يعدّون أنفسهم «أطهارًا».

ولكنّ يسوع رفض تلك الرؤية بالأبيض والأسود، وذلك العنف الحسير البصر، وذكّر كلاًّ منّا بأنّ الشرّ والخير ممتزجان في داخلنا، حيث لا يكفّان يتصارعان.

أوَلم يعترف الرسول بولس بنبرةٍ تقطر أسًى: «**بوسعي أن أريد الخير، وأمّا أن أفعله، فلا. لأنّ ما أريد من الصلاح لا أفعله، وأمّا ما لا أُريد من الشرّ، فإيّاه أفعل**»! (روما ٧: ١٨– ١٩)

ومن منّا لا يصطدم بمشكلة الشرّ: في جسده الذي يعاني الآلام، وفي قلبه الذي يجرحه الحبّ، وفي ضميره الذي تلدغه الخطيئة؛ في أسرته، وفي عمله حيث يواجه مشاقّ العلاقات البشريّة، وفي العالم الحافل بكلّ ضروب القهر والظلم؟

إنّ نظرة يسوع واقعيّةٌ: فالبشريّة مزيجٌ من خيرٍ وشرٍّ، من نِعمةٍ وخطيئةٍ. وفي قلبنا يلتقي الجيّد، والأقلّ جودةً. وتلك هي حال كلّ إنسانٍ.

ألا يختلط، أحيانًا، في داخلنا العطف بالفوقيّة، وألا تشوب محبّتنا غريزةُ

السيطرة؟ ما من إنسانٍ طيّبٌ طيبةً مطلقةً، أو شرّيرٌ شرًّا مطلقًا. ولا أحد يستأهل تأييدًا بلا تحفّظ، أو إدانةً لا رجوع عنها. بل وحده اللّه الذي يسبر الكلى والقلوب، يعرف حقيقة كلّ فردٍ. وإن كنّا نجهل حقيقة ذواتنا، فكيف لنا أن ندين الآخرين؟ فلندع الربّ يفعل ما يشاء، ومتى يشاء!

ولا يغربنّ عن بالنا أنّ من بذر القمح الجيّد، بذره في وَضَح النهار، وأمّا من بذر الزؤان، فقد بذره في الظلمة، تحت جنح الليل. وإذن، ليس الشرّ الذي فينا هو وجهنا الحقيقيّ، بل إنّه يتسلّل، خلسةً، في غفلةٍ منّا، من خلال ثغرات لاوعينا، ووهن تراخينا.

فلنحلم، مع يسوع، فرِحين، بذلك الملكوت، حيث لن يبقى للشرّ وجودٌ، وحيث سيكون كلّ شيءٍ حقيقةً، وحبًّا، وسعادةً بلا حدودٍ. ومع يقيننا بهذا المآل، فلنجهد في بلوغه بكلّ وسعنا، وكلّ يومٍ، واثقين، ثقةً تامّةً، بربّ الحقل الذي يحلم بالسنابل، وبالخبز للجميع.

وفي هذه الأثناء، فلنقبل الآخر، أخًا، كما هو، ولنساعده على استثمار البذرة الطيّبة الدفينة فيه. وبممارستنا محبّةً على صورة محبّة يسوع، وصبره حيالنا، صبرِ إلهٍ بطيء الغضب، وغنيّ الرحمة، سنحقّق، في داخلنا، ومن حولنا، سلام الملكوت الحقّ.

البـــذرَةُ العَنـــيدَة

(مرقس ٤ : ٢٦– ٣٢)

منع الفرّيسيّون يسوع من التعليم في المجامع، ومن تفسير الأَنبياء، لأنّه كان يضعضع تعليمهم، ونفوذهم، وسلطتهم، فانطلق يعلّم في الهواء الطلق، أو من على متن مركب صيدٍ.

لم يكن يسعى إلى إصدار وصايا، وإلى إخضاع مستمعيه لها، بحذافيرها. بل كان يوقظ الضمائر، ويحرّك القلوب، ويدفع الإِرادات صوب اللّٰه. وفي هذا السياق روى مثلَيْن:

المثل الأوّل يشير إلى الحبوب التي تُلقى في التربة وتُترَك، فتنبت، وتنمو، وتنضج، إلى أن يحين حصادها.

من يشهد، في مطلع الصيف، حقول القمح المتموّجة تحت هبّات النسيم، هل يذكر، بعدُ، التربة المقرورة طيلة فصل الشتاء؟ فتحتَ السطح المتجمّد، تواصل البذور التي غُرست في الخريف تحوُّلَها السرّيّ. بين البذر والحصاد، عملٌ خفيٌّ، وسرّ الموت والحياة.

يتحدَّثون عن الكيمياء والبيولوجيا، ولكن، في ما يتخطّى ذلك، ما هو سرّ الطاقة الأولى، التي تجعل الزرع ينبت ويزكو، سواءٌ نام الزارع أو سهر، وهو لا يعلم كيف يتمّ ذلك. ثمّة قوّةٌ خفيّةٌ تفعّل المختبر الأرضيّ الجسيم، حيثُ يُعَدّ الحصاد والبذار القادمان.

«الجوهريّ لا تبصره العين»، على حدّ قول «سانت إكسوپيري». واللّٰه هو الذي يفعل كلّ شيء، ولكنّ حضوره وعمله لا يظهران للعيان، فلكأنّه غير موجودٍ، ولكأنّه لا يفعل شيئًا؛ ومن تخفّي اللّٰه هذا، يستخلص من حسرت بصيرتهم أنّ اللّٰه مات.

كلّ ما هو إلهيٌّ في العالم يشبه البذور التي تنمّيها قوًى خفيّةٌ، لا تُرى، ولكنّها

فائقة القدرات، وذات حيويّةٍ مدهشةٍ لا تلحظها إلاّ القلوب البسيطة التي تؤمن بما يكشفه لنا يسوع عن الله.

فلنبذر، ولنصبر، ولندع البذار يموت، وينبعث، وينضج بتؤدةٍ، ولا نقنط إن كان النضوج بطيئًا.

وثمّة بذورٌ مفرطةٌ في الصِّغَر، قد تصبح أشجارًا وارفة الظلال، تجد الطيور في أَفنانها ملجأً وتبني فيها أعشاشها. وقد تتّفتّق بذرةٌ صغيرةٌ عن سنديانةٍ، أو دلبةٍ، أو أرزةٍ... خلاصة حياةٍ كثيفةٍ، مدهشةٍ، متأهّبةٍ للانطلاق نحو السماء، حيث سترتعش ذؤاباتها في الهواء، والدفء، والضوء الصافي.

* *

لقد زرع الله كلمته في تربة الإنسانيّة، فصار الكلمة جسدًا، وراح يلقي بذاره الخاصّ في حقل البشريّة، وفي صبرٍ جمٍّ، يراقب نموّ نبتاته.

كم يجيد يسوع مراقبة تلك المعجزات اليوميّة، وهو يجيل الفكر في حقولٍ أُخرى، وبذارٍ آخر، وهو لا ينفكّ يلقي في التربة البشريّة بذور حياةٍ جديدةٍ، واثقًا من أنّ حتّى أكثرها إمعانًا في الصغر سيواصل، عبر أيّام التاريخ ولياليه، نموّه الصامت العنيد!

الملكوت هو حيثما يُرحَّب بالكلمة، وحيث الكلمة تنبت وتنمو في خفايا القلوب، وفي سرّ الحياة.

وكم من بذورٍ صغيرةٍ: كلمةٍ رقيقةٍ، مصافحةٍ، بسمةٍ، خدمةٍ، تؤتي ثمار حُبٍّ وفيرةً! فلا نتطلّعنّ فقط إلى «مهامّ عظيمةٍ»، بل فلننفّذ المهامّ «الصغيرة» على أنّها عظيمةٌ في عين الربّ.

ألم تشهد، يومًا، عشبةً أو زهرةً، وقد شقّت طريقها إلى النور والحياة، من صميم صخرةٍ، أو في رمل الصحراء؟

بـــذارُ الله

خرج يسوع ليلقي بذاره الهشّ والواعد، في آنٍ واحدٍ. كثيرٌ منه هُدِر، وبعضه آتى حصادًا وفيرًا.

وما زلنا لا ندرك سبب وجود كلّ ذلك الحقد القاتل، وكلّ ذلك الصَلَف والكبرياء، وكلّ حسر البصر والعمى، في عالَمٍ ما انفكّ اللّه يودعه بذاره، منذ عشرات الألفيّات، وفي إنسانيّةٍ نبت فيها يسوع مثل زهرةٍ حاملةٍ خصبًا إلهيًّا. فهل اللّه يبدّد ذاته عبثًا كي يبعث الإنسان، ويملأه بروحه!

كلّ بذرٍ هو فعل ثقةٍ في الحياة. أسابيعُ وأشهرٌ تتوالى، في موكبٍ من أمطارٍ وبردٍ، قبل أن تنبثق عشبةٌ خضراء، وترتعش في الهواء...

وعلى امتداد أثلام التاريخ لا يني اللّه يلقي بذاره، بعناد... ومع ما تتعرّض له البشريّة، أحيانًا، من فصول شتاءٍ مريعةٍ، لا يُقلع اللّه عن البذر المتواتر. فهو أشدّ حرصًا على مستقبل العالم من أكثر الفلاّحين صبرًا وجلَدًا.

لقد بذر يسوع كلمته الإلهيّة عبرَ التطويبات وعظة الجبل، وأقوالٍ أُخرى أبديّة الخصب. وهو يبعث في الإنسان الأعمى، والمشلول، والمبتلى بشتّى أشكال الموت، نظرًا قشيبًا، وحركةً رشيقةً، والحبّ والحياة، ويُخصب البشر ببذار اللّه.

ولطالما شهد يسوع الحصاد الوفير، واستنفر حصدةً... وشاهد الزؤان والحَبَّ الطيّب ينموان جنبًا إلى جنبٍ، في حقل التاريخ. وشهد النبتة تنمو، ليلاً، عندما يكون الفلاّح مستسلمًا للسبات.

ولكنّ يسوع لا يزرع أقوالاً، وأفعالاً خارجةً عنه، بل إنّه يبذر ذاته، في ثلم الجلجلة الدامي. ومنذُ هو طُحِنَ، وأصبح دقيق حنطة اللّه، يحمل المسيحيّون بذاره في العالم، ويحملون مصيره التاريخيّ. فهم، أيضًا، باذرون وبذارٌ، وحملةٌ واهنون لبذار اللّه الخالد.

ولكي لا يظلّ الغد صورةً عن الأمس، لا يني اللّٰه يفرز، بيديه الرقيقتين، الحازمَتيْن، أفضل الحبوب، لكي يجعل منها بذار المستقبل.

قيل: «رجاء الإنسان هو جسد اللّٰه». وقد طلب الشاعر الفرنسيّ العبقريّ، پول كلوديل، أن يُحفَر على شاهدة قبره: «هنا ترقد بذرة اللّٰه».

كَنزُ المَلَكوت

(متّى ١٣: ٤٤- ٤٦)

لقد شاع، في الشرق، دفن نقودٍ ذهبيّةٍ، ومقتنياتٍ نفيسةٍ، في الحقول، لحمايتها من السرقة والسلب، ولا سيّما في حال الاضطرار إلى الهجرة أو الغياب، أو في أزمان الاضطرابات. وغالبًا ما كان يموت صاحب الكنز، ويموت معه سرّ كنزه المدفون. ثمّ يتّفق أن يصطدم محراث أحد ورثته، أو محراث من ابتاع من الورثة الحقل، بجرّةٍ تنطوي على الكنز.

وغدا اكتشاف الكنوز حلمًا برّاقًا يداعب المخيّلات. وما أكثر الذين يغامرون بكلّ شيءٍ في سبيل امتلاك كنزٍ يقلب أزهى أحلامهم واقعًا، ويلوّن بالسعادة أيّامهم!

وشبّه يسوع ملكوت الله بحقلٍ استأجره مزارعٌ، فعثر فيه على كنزٍ، أعاد طمره في مكمنه، ومضى فباع كلّ ما يملك كي يشتري الحقل، فيصبح الكنز حقًّا له.

الملكوت، إذن، كنزٌ كمينٌ، ومشتهًى، يتضافر العقل والطاقات كلّها على اكتشافه واستخراجه، للتمتّع به. هذه الرغبة فيه تضرم فرحًا لا يوصف، واستعدادًا لأداء الثمن الأعلى في سبيل امتلاك ما لا يُقدَّر بثمنٍ. وعندما تستحوذ نشوة الظفر بالملكوت، لا يعود من السائغ التحدُّث عن تضحيةٍ، فإزاء كنز الملكوت كلّ خيرات الدنيا عديمة القيمة.

في ثنايا هذا المثل يسري فرحٌ عارمٌ، لا يوصف، ناجمٌ عن الظفر بالكنز. وهذا الفرح يدفع دفعًا إلى التخلّي عن كلّ شيءٍ، بعيدًا عن الحسابات الباردة، للاكتفاء بالكنز، أو الالتزام به، بكلّ قدرات الكيان. فكلّ ما يملك المرء، وما قد يستطيع الحصول عليه، يبدو زريًّا، عديم الشأن، إزاءه. وليس لقيمته علاقةٌ أو مقارنةٌ بأيّ شيءٍ آخر، لأنّه من مستوًى آخر، ومن طبيعةٍ أُخرى. وكلّ الأشياء، وكلّ القِيَم تغدو ثانويّةً وتافهةً بالقياس إلى هذا المقتنى الأوحد الذي يستأهل أن تنفق في سبيله الحياة.

كلّ إنسانٍ يضحّي في سبيل هدفٍ مرغوبٍ فيه، وحينئذٍ ليست التضحية مصدر حرمانٍ، بل منبع اغتناءٍ. ويسوع عليمٌ بسعادتنا الحقّة، ويدعونا إلى أداء ثمنها، والسعي إليها بجدٍّ وجهدٍ. فما من فرحٍ حقٍّ، راسخٍ، خارج الاتّحاد بالله، أو ما يدعوه يسوع ملكوت الله. ومن وجد الله، بفضل رسالة يسوع، يسهل عليه أن يهب كلّ شيءٍ بفرحٍ، لأنّه وجد الحقيقة والحياة. ومن كان لديه الله، كان لديه كلّ شيءٍ، والله حسبه.

قد لا يكون ما باعه الفلاّح ثروةً طائلةً. ولكنّه باع كلّ ما يملك. وهذا ما يعنيه يسوع: التجرّد عن كلّ شيءٍ، وإعطاء كلّ شيءٍ، من أجل نَيْل هذا الخير الثمين الحقّ الأوحد. فكنز الملكوت يقتضي ويستأهل أن يرهن الإنسان كلّ ما يملك بل أن يرهن ذاته، في سبيله.

غير أنّ ذهنيّتنا الدنيويّة، وخشيتنا من فقد أيّ شيءٍ، أو من حرمانه، وبرنامج حياتنا الذي أعددناه بنفسنا، وبمعزلٍ عن أيّ مرجعٍ سوى ذواتنا ستصطدم، دائمًا، بهذه المعطيات الجوهريّة.

وتأكيدًا لهذا المثل ضرب يسوع مثلاً آخر يحمل مغزًى مماثلاً:

رجلٌ يتعاطى تجارة الأحجار الكريمة، عثر، ذات يومٍ، على جوهرةٍ فريدةٍ طالما حلم بمثلها وسعى إليها، فباع كلّ ما يملك كي يقتنيها.

هكذا هو ملكوت الله، لا شبيه له، ولا يُقدَّر بثمنٍ. إنّه الكنز الوحيد الخليق بأن يعشقه القلب، وتصبو إليه النفس، وكلّ ما سواه باطلٌ. أوَ لم يحذّرنا يسوع بقوله: «**لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيثُ السوسُ والعُثُّ يلتقيان، وحيثُ اللصوصُ ينقُبون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيثُ لا سوسٌ ولاعُثٌّ يُتلفان، وحيثُ لا لصوصٌ ينقُبون ويسرقون. فإنّه حيثُ يكون كنزُك يكون قلبُك أيضًا**» (متّى ٦: ١٩-٢١).

الجوهرة رمزٌ لما هو ثمينٌ، وجماله خالٍ من كلّ لوثةٍ. وملكوت الله ليس فقط الخير الأسمى، ولكنّه، أيضًا، الجمال الأبهى، والواقع الأكمل.

والتاجر الذي باع كلّ ممتلكاته للظفر بالجوهرة الفريدة، كان على قسطٍ وافرٍ من الثراء، ومع ذلك لم يتوانَ عن بيع ممتلكاته كلّها، حالما عَثَر على الجوهرة التي كانت

تصبو إليها نفسه، والتي لم يشهد لها مثيلاً. فتجربته علّمته أنّ جوهرةً كهذه تستأهل المخاطرة بكلّ ما يملك في سبيل اقتنائها. ربّما عدّه معارفه مجنونًا. ولكنّهم كانوا، جميعهم، مخطئين، فهو كان موقنًا أنّه، ببيعه كلّ مقتنياته، لم يكن يخسر شيئًا، لأنّه كان يدرك قيمة جوهرته.

القلب البشريّ يظلّ قلقًا حتّى يعثر على كنزه المنشود، وحريٌّ به، عندما يكتشفه، أن يتخلّى عن كلّ شيءٍ سواه، ويلتزم به التزامًا لا شرط فيه ولا قيود.

إنّ كلاًّ منّا يبحث عن السعادة، ولكنّ أكثرنا يَنشدونها في المتع الرخيصة، الزائفة، فيخطئون هدفهم، ويظلّون بعيدين عن السعادة الحقّة. قد تكون المُتع العابرة برّاقةً كالجوهرة الزائفة، ولكنّها عديمة القيمة، ولا يُخدَع بها سوى الجهلة.

الفرق بين المَثَلَينْ هو أنّ الفلاّح عثر على الكنز صدفةً، أمّا تاجر الجواهر فكان يبحث جاهدًا عن الجوهرة الفريدة.

ثمّة من لا يثير يسوعُ أيَّ اهتمامٍ لديهم. ولكنّهم حالما يعثرون عليه يستحوذ على قلوبهم بقوّةٍ لا تقاوَم.

وثمّة من يستشفّون الملكوت استشفافًا مبهمًا، فيسعون دائبين للاطّلاع عليه. وحيال كنز الملكوت الجوهريّ موقفان: موقف بولس، وفرنسيس الأسّيزيّ، وشارل دي فوكو، الذين ما إن عثروا عليه، حتّى تخلّوا عن أغلى ما لديهم ومضوا في سبيله باندفاعٍ يتحدّى كلّ شيءٍ.

وهناك من ترعبهم مقتضياته، فيعرضون عنه، جارّين جُبنهم وحزنهم، كما فعل الشابّ الغنيّ الذي لم يقوَ على الانسلاخ عن مالٍ زائلٍ، في سبيل كنزٍ أبديٍّ.

إنّ كنز الملكوت ماثلٌ في شخص يسوع، فلنبحث عنه بلا هوادةٍ ولا كَلَلٍ، وإذا ما اكتشفناه، فلنلتزم به بلا فكاكٍ، وحينئذٍ سنعهد فرحًا عارمًا، واندفاعًا لا يفتر، وسعادةً لا قِبَل لقوى الأرض على انتزاعها منّا.

مَلكوتُ اللهِ في مَا بَينَكم

عندما نسمع، اليوم، قول يسوع: «**إنّ ملكوت الله في ما بينكم**» تساورنا الرغبة في أن نقول: «هذا غير صحيح، فملكوت الله ما برح بعيدًا عن البشريّة»! أو لم يقل يسوع نفسه أمام بيلاطس: «**ملكوتي ليس من هذا العالم!**» أو لم يعلّمنا أن نطلب كلّ يومٍ: «**فليأتِ ملكوتك**»؟

ولكن ألم يُنذرنا يسوع بأنّ الحبّة التي تُدفن في التربة، والخمير الذي يُدَسّ في العجين، يبدوان وكأنّهما قد تلاشيا، في حين يكون نشاطهما الكثيف قد ابتدأ، نحو الحصاد، ونحو الخبز الناضج؟ أو لم ينذرنا، أيضًا، بأنّ القمح والزؤان قد ينبتان معًا، وبأنّ الشبكة قد تأتي بالجيّد والسيّئ من السمك، فلا بدّ من السهر؟

هل من عالَمٍ يبتدع فيه أطفالٌ – من كلّ عمرٍ – نضارة الحياة، مستعينين بكلّ شيءٍ، ورغم كلّ شيءٍ؟ عالمٍ يصرّ فيه البشر على الحبّ رغم عبسات الشرّ الذي يلبس ألف وجهٍ ووجهٍ، بل حتّى وسط كثافة الظلمات؟ هذا العالم موجودٌ في عالمنا وأرضنا. ملكوت نورٍ هشٍّ، متخفٍّ، ممتزجٌ بكلّ الوقائع البشريّة. غير أنّه موجودٌ، ليس فقط في سِيَرِ أبطال العدل والمحبّة، بل أيضًا في عيون جماهير البشر، وفي أيديها.

فلا ندعنّ تجلّي الشرّ الذي تضخّمه وسائل الاتّصال المعاصرة يُعمينا عن تجلٍّ آخر يتراءى في حبّة القمح التي تنمو، في العجين الذي يختمر، في قوّة الحياة التي لا تُقهر، المتوارية تحت أكثر المظاهر بعثًا على القنوط. كان يسوع يرى الملكوت في أبسط الأحداث اليوميّة. وكلّ مظهر حياةٍ كان يحدّثه عمّن هو الحياة. كان يرى ما رآه الشاعر: «**ثمّة عالمٌ آخر، ولكنّه في هذا العالم**».

وكان يسوع يدعو إلى ولوج هذا الملكوت بتغيير مسيرة الحياة، ويشير إلى مكان الملكوت في قلب البشريّة؛ وفي حين كان البشر، من حوله، يتوقّعون عمل الله من الخارج، كان يسوعُ يُلمح إلى نشاطات كلّ فردٍ، وإلى الأحداث اليوميّة الضئيلة،

لكي يفهم الجميع أنّ اللّه ينساب في أعمالهم اليوميّة. إنّه إلهٌ خفيٌّ، كَلِفٌ بكلّ قبس نورٍ يتفجّر من الإنسانيّ، إلهٌ طفلٌ، ربيع كلّ حياةٍ، ومنبع كلّ حبٍّ عنيدٍ؛ بل محيطه.

عندما يدلّنا يسوع إلى ملكوت اللّه، الماثل أمامنا، وسطنا، وعندما يقول لنا إنّ هذا الملكوت هو بذرةٌ وخميرةٌ، صبرٌ وهوىً، حياة الحقل وحياة المدن، فهو إنّما يحدّثنا عن اللّه. فاللّه هو دم دمنا، وقلب قلبنا، إنّه البذرة الأكثر تخفّيًا والأشدّ حيويّةً. إنّه الطاقة التي لا تُقهَر، والتي توقظ، لدى جموع البشر، الظمأ إلى العدل، وطعم التحليق والتخطّي، الطاغي. إنّه هو الذي شهدنا إنسانيّته، على الوجه المتدفّق قوّةً ورقّةً، والضاجّ ألمًا ومجدًا، وجه يسوع.

النّائمُ الذي يُخرسُ العَاصِفَة

(مرقس ٤ : ٣٧– ٣٩)

من خلال رواية مرقس، نستطيع استشفاف القبطان بطرس، الذي انحفرت أدقّ التفاصيل في ذاكرته وقلبه. غير أنّ مرقس لم يبتغِ مجرّد سرد حدَثٍ جرى، ذات يومٍ، في بحيرة طبريّا، أو مجرّد الإدهاش بمعجزةٍ أُخرى من معجزات يسوع، بل رمى إلى إضاءة موقف الربّ من العواصف التي تهبّ على الكنيسة، والمجتمع، ونفس كلّ مؤمنٍ، ومن سلطات الموت الناشطة في كلّ مكانٍ.

العاصفة في ذروة هياجها، والأمواج الصاخبة تعبث بالمركب وتكاد، في كلّ لحظةٍ، تطيح به، ويسوع غارقٌ في سباتٍ عميقٍ.

وكم يبدو لنا اللّه مستغرقًا في السبات، أو غائبًا، عندما تصارعنا الأمواج، وتجتاحنا العواصف! وكم يخيّل إلينا أنّه غير موجودٍ، وغير عابئٍ بعجزنا، وبما نتعرّض له من مهالك!

وقد يتسرّب إلى نفوسنا الشكّ بحضوره، عندما نشاهد الشرّ منتصرًا، «والبؤس البريء» شائعًا، والكوارث تنقضّ على الأبرياء، والمساكين.

ولكن حتّى في أكثر حالاتنا حرجًا، وأكثر مشاهداتنا صدْمًا، لا ينام اللّه بقدر ما نتخيّل، بل هو يتظاهر بالإغفاء، كي يوقظ إيماننا، ويرسّخه، وينمّيه. وما علينا، نحن، سوى إيقاظه بصلاتنا.

كتب القدّيس أوغسطينس في أحد تأمّلاته: «ترى الأشرار يزدهرون، والصالحين يتألّمون. هل هذا هو عدلك، يا اللّه؟ ويجيب اللّه: وهل هذا هو إيمانك؟ وبمَ أنا وعدتك؟ وهل أنت مسيحيٌّ لكي تنجح في هذا العالم؟».

«**لمَ خوفكم هذا؟ أَحتّى الآن لا إيمان لكم؟**». قول يسوع هذا هو مفتاح هذه الصفحة من الإنجيل. ولا يني يسوع يُنحي باللائمة على تلاميذه وعلى المؤمنين به،

بسبب وهن إيمانهم. فمن منّا يؤمن إيمانًا كاملاً، راسخًا، بمحبّة الله القصوى، وبقدرته الكلّيّة؟ ألا نشهد كثيرين من الكهنة والأساقفة، اليوم، ينكرون على يسوع قدرته على إجراء معجزات، ويستحيون من ذكر عجائبه؟!

كان حَسْب التلاميذ أن يستجيروا بيسوع، حتّى هبّ طيفه الضئيل، وأمر الطبيعة، فقضى على قوى الشرّ فيها. ذات يومٍ أمر شيطانًا كان يسكن رجلاً قائلاً له: «**اخرسْ**» (مرقس ١: ٢٥)، فانسلّ وفرّ خاسئًا؛ وها هوذا يقول للبحر: «**اسكتْ! اخرسْ**»، فتسكن الريح، ويسود هدوءٌ عظيمٌ.

لقد نهض يسوع، ساكنًا، ساجي النفس، وانتصب في وجه هياج الأمواج، كما سينهض في صباح الفصح، خارجًا من اللحد، مشرقًا عذوبةً وسلامًا، إثر أهوال الآلام والموت. انبعث من صميم صمتٍ مجدِّدٍ للطاقات، وفرض الصمت على الاصطخاب الجامح، والأمواج المكلّلة بالزبد، فهزم قوّات الشرّ القاطنة في أحشاء البحار، والتي تعصف كي تهزّ الكون وتخلخل أركانه.

كان اليهود يرون، في البحر، موطن قوى الشرّ والرعب. وها إنّ أمواج العنف والشراسة والمظالم، والبؤس، تعصف بالعالم كلّه؛ وقوىً جبّارةً، غشيمةً، عمياءَ، لا وجه لها، تسحق جمًّا من البشر، على امتداد كوكبنا. ولا بدّ من تحريك جبالٍ، كي يتزحزح هذا الوضع ولو قليلاً. فلا بدْعَ إن تسرّب السأم، والإحباط، واللامبالاة، إلى الضمائر، وإن غدت الشياطين، اليوم، تهمس: «وما جدوى الجهد؟»، «ليس ما يمكن فعله»...

فلنحدّق، إذن، إلى ذلك الطيف الهشّ، الذي ينتصب في وجه الرياح والأمواج، ويمضي، ثابت الجأش، إلى «الضفّة الأُخرى»، كي يحقّق المستحيل.

يسوع هو الحياة المنتصبة في وجه تلاطم قوى الموت. هو السلام للمبتلَين بشتّى ضروب الصرع، وللمشاغبين المتوتّرين، ولمن تقطنهم أهواءٌ جامحةٌ، وللأزواج الذين تدمّرهم أمواج اللاتفاهم، وللعنيفين الذين يُشهرون، بلا رويّةٍ، خناجر العبارات القاتلة، والشتائم.

«**من هو هذا الذي يخضع له البحر والرياح؟**». الإجابة على جانبٍ من البساطة بحيث تدهش. لفظةٌ واحدةٌ تعرّفه: الحبّ، الحبّ المنتصر على كلّ العواصف.

لمستان

(مرقس ٥ : ٢٥-٤٢)
(متّى : ٩ : ١٨- ٢٦)
(لوقا ٨: ٤٠-٥٦)

سبق أن التمس ضابطٌ وثنيٌّ من يسوع شفاء غلامه، وها إنّ رئيس مجمعٍ يهوديٍّ يفزع إليه، لأنّ ابنته قضت نحبها للتوّ، حسب ما جاء في إنجيل متّى، أو هي على آخر رمقٍ، ومشرفةٌ على الموت، حسب الإنجيليَّيْن مرقس ولوقا.

كم كانت لهفة ذلك الرجل على ابنته حارقةً، وكم كان إيمانه بيسوع منيعًا، بحيث أيقن أنّ مجرّد لمسةٍ من يده التي طالما أغدقت المعجزات، كفيلٌ بإعادة الحياة إلى الجثّة الحبيبة الهامدة! وحيال هذا الإيمان لم يتردّد يسوع في الاستجابة لملتمسه، وشخص معه إلى بيته.

يسوع يسير، ومعه يسير رئيس المجمع، وجمعٌ غفيرٌ، والجميع يتوقّعون حدَثًا عجيبًا. ووسط الجمع اندسّت امرأةٌ كاد نزف دمٍ مزمنٌ، ابتليت به منذ اثنتي عشرة سنةً، يقذف بها إلى هوّة اليأس، إذ إنّ تلك العلّة وصمْتها بالنجاسة، وحكمت عليها بالنبذ دينيًّا واجتماعيًّا، فعاشت أُنوثتها عارًا عليها، وأمضت اثنتي عشرة سنة في الأسى والإقصاء. وقد أنفقت كلّ ما ملكت على وصفات الأطباء، والدجّالين، والرابّيّين الذين غالبًا ما يمارسون المداواة بأساليب فيها من الشعوذة أكثر ممّا فيها من الطبّ، وانتهت إلى فقدان مالها وصحّتها معًا.

وتنامت إليها، يومًا، أنباء قدرات يسوع الشفائيّة الخارقة، وأمسى أملها الوحيد الاستشفاء على يده. ولم تطمح إلى أكثر من لمس هدب رداء ذلك الكائن الذي يشفي، ويحرّر، ويبعث إلى حياةٍ متجدّدةٍ. وانتهزت فرصة الازدحام الشديد المحيق بيسوع كي تشقّ طريقها إليه، متحدّيةً الشريعة التي تعدّها نجسةً، وتفرض عليها النأي

عن المجتمع. إنّ تلك التي لم يكن أحدٌ يلمسها، اتّقاءً لنجاستها، راودتها رغبةٌ عارمةٌ في لمس المخلّص، أو، أقلّه، لمس هدب ثوبه. وجاهدت حتّى انتهت إلى مقربةٍ منه، فلمست هدب ردائه خلسةً، بحيث لم يلحظها أحدٌ، وفي يقينها أنّ هذه اللمسة قمينةٌ بإسالة البرء في أوصالها. وقد صدق حدْسها؛ وأصاب إيمانها مرتجاه، فقد سرت في كلّ كيانها طاقةٌ خارقةٌ أشاعت فيه البرء، وحياةً جديدةً تزخر بالعافية.

لم يخفَ الأمر على يسوع، الذي استعذب إيمانها الواثق، الصامت، البسيط، المطلق، وابتغى أن يجعل منه مثالاً للآخرين، في كلّ زمانٍ. فتوقّف، وسأل: «**من لمسني؟**»، واستهجن التلاميذ سؤاله. عشراتٌ من البشر تدفعه من كلّ صوبٍ، فكيف يخطر لـه أن يستوضح من لمسه! ولكنّ يسوع كان يسأل عن لمسةٍ خاصّةٍ، لمسةِ استغاثةٍ استجابت لها قدراته الإلهيّة. صحيحٌ أنّ الجمع كان يزحمه ويدفعه، ولكنّ المرأة «لمسته». واتّضح للمرأة أنّ سرّها قد اعتلن، فاعترفت بما فعلت. ولكيلا يخالط الحاضرين، الذين طالما أُخذوا بأساليب الشعوذة، أيّ تفسيرٍ خاطئ لما حدَث، قال للمرأة التي اطّرحت مرتعدةً عند قدميه: «**اطمئنّي، يا ابنتي، إيمانك خلّصك، فامضي، في سلام**»، إلى حياةٍ معافاةٍ مزدهرةٍ. وبذلك أكّد الربّ أنّ الإيمان هو الذي يشفي، لأنّ إرادته لا تقوى إلاّ على الاستجابة له.

لقد امتدح يسوع إيمان المرأة، ودفعه نحو آفاقٍ بعيدةٍ. فقد يكون الإيمان بدائيًّا، وقد يكون صوفيًّا، ولكنّه، في جميع الأحوال، ليس جامدًا، نهائيًّا، بل عليه أن ينمو باستمرار، ويتجدّد، ويُعاش بصدقٍ ووفاءٍ متناميَين.

في تلك الأثناء جاء من أبلغ رئيس المجمع أنّ ابنته قضت نحبها، فلا داعيَ لإزعاج المعلّم. غير أنّ هذا النبأ، الذي كان الرجل يتوقّعه، لم يزعزع إيمانه بقدرات يسوع الخارقة، وقد دعّم يسوعُ هذا الإيمان بقوله: «**لا تخفْ، آمنْ فحسب**». فالإيمان هو الشرط الأساسيّ للخلاص. لم يردع نبأ موت الفتاة يسوعَ عن متابعة مسيرته إلى بيت رئيس المجمع، حيث كان قد تقاطر النوّاحون والنوّاحات، والطبّالون والزمّارون، جريًا على التقاليد.

لم يستسغ يسوع ذلك الضجيج المدوّي، والحزن الصاخب، والنحيب الذي غالبًا ما يكون مصطنعًا، وكلّ تلك المظاهر الصارخة، حيال موت إنسانٍ. فهو ربّ البساطة

والصمت، الذي، إن حزن بكى قلبه قبل عينيه. فأمر بإخراج الجميع، وبإخراس الصخب، فالفتاة نائمةٌ وليست ميتةً، ولا يسوغ إقلاق راحتها.

سخر القوم من قوله هذا، لأنّهم يحكمون بما تعاينه عيونهم البشريّة، وهو يحكم بما تراه عيناه الإلهيّتان، ولأنّ الموت، في نظره، لا يختلف عن السبات، وليس قوّةً لا تُقهَر، ولا يفصله عن الحياة سوى خيطٍ رفيعٍ.

بين نظرة اللّه، وخبرة البشر بوْنٌ شاسع. ولن تستقيم رؤيتنا حتّى نألف رؤية الأمور بعيني الربّ. وحينئذٍ سيفقد الموتُ كلّ ما يخيفنا فيه.

وفي هذه النوبة، يسوع هو الذي مدّ يده ولمس الفتاة، فانتصبت حيّةً. وقد تمّت قيامتها في بساطةٍ كلّيّةٍ، ولكأنّه أمرٌ طبيعيٌّ مألوفٌ. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يذكر فيها الإنجيل إقامة يسوع لميتٍ.

والد الفتاة لم يكن يتطلّع إلاّ إلى شفاء ابنته، ولكنّ يسوع، فضلاً عن تلبية رغبته، وطّد، في قلبه، الإيمان به، وبالقيامة.

* *

معجزتان متداخلتان، متشابكتان، تُظهران، في ما تظهران، اهتمام يسوع بالنساء اللاّئي كنّ شبه منبوذاتٍ في عهده.

إحدى المعجزتين مرَّت عبر هدب ردائه، وتمّت بفضل إيمانٍ منيعٍ متلهّفٍ. والثانية برهنت عن سيطرة يسوع على الموت، الذي يقهره بمجرّد لمسة يدٍ، وكلمةٍ رقيقةٍ. ففي الحالتين لا تعزيمات ولا مظاهر شعوذةٍ، ولا شرط سوى الإيمان. الإيمان بيسوع يعيد الحياة، ويُشرع دروب عالمٍ جديدٍ.

الإيمان هو أن تمدّ يدك للمس يسوع، وأن تدع يسوع يلمسك.

لا شيء يقاوم قدرات يسوع، لا العواصف الهوجاء، ولا الأمراض المستعصية، ولا الموت. لا يقاومها سوى رفض الإيمان. فالإيمان هو شرط المعجزة: «**إيمانك خلّصك**»، «**لا تخف، آمن فقط**»، «**علامَ تخافون يا قليلي الإيمان؟**». ولكأنّ يسوع يعترف بأنّ حرّيّة البشر برفض الإيمان هي الوحيدة الكفيلة بصدّ قدراته،

والحؤول دون معجزاته. إنّه حبٌّ، ويأبى أيّ قسرٍ أو إكراهٍ، ويكتفي بعرض الشفاء والقيامة على من يرغبون فيهما، ويؤمنون به. والإيمان هو الاستجابة الحرّة لعرض الله. وبمعزلٍ عنه، من الواضح أنّ الإنسان المعرَّض طبيعيًّا للموت، لا أمل له في قهر الموت. ولكن، مع الإيمان، كلّ شيء ممكن: «**من آمن بي، وإن مات، فسيحيا**».

* *

طلب يسوع من ذوي الفتاة كتمان أمر المعجزة. لمَ؟ تجنّبًا لأيّ لَبْسٍ حول هويّته، واتّقاءً لاندفاعٍ أجوف يبتغي تنصيبه زعيمًا يحقّق مطامع أرضيّةً عنصريّة. ويسوع يؤثر تعميق التساؤل عن هويّته: «**من هو هذا الرجل؟**»، وسيأتي الجواب عليه، ويسوع معلّقٌ على الصليب: «**حقًّا كان هذا الرجل ابن الله**».

وَصيّةُ يسُوع لِرُسَليه

(مرقس ٦: ٧ –١١)

قبل أن ينطلق أحدنا في سفرٍ، يتحقّق، بعنايةٍ، من استصحابه كلّ ما يلزمه، وقد يشاركه أهل بيته في التثبّت من أنّه لم يُغفِل شيئًا.

ولكنّ يسوع ناقض كلّ حيطةٍ بشريّةٍ، عندما أنفذ رُسُله، في مهمّةٍ طويلةٍ، شاقّةٍ، فأوصاهم ألاّ يعيقوا مسيرتهم بأيّ حملٍ نافلٍ؛ فلا كيس أمتعةٍ، ولا جراب زادٍ، ولا هميان نقودٍ يسهرون عليه بحرص. لا شيء سوى ما يرتدونه. لقد أرادهم خفافًا، «ينتعلون الريح»، وأوكلهم إلى سخاء قلوبٍ مشرعةٍ لاستضافة مبعوثيه.

أوصاهم بتجرّدٍ تامٍّ يتيح لنبع الكيان العميق أن يتفجّر ويُخصِب، ويُؤَهِّل لمقابلة الآخرين بكلّ صدقٍ وحرّيّةٍ. وهذه الحرّيّة تحرّض الآخرين على الانطلاق والنضج.

على التبشير أن يخلو من كلّ ما يوحي برغبةٍ في الكسب والامتلاك، ومن أيّ صَلَفٍ وتعالٍ. فيسوع يهب كلّ شيءٍ مجّانًا، ولا بدّ من نشر عطاءآته، بأسلوبه عينه. ويسوع يقتضي من رسله زهدًا مطلقًا، والاقتصار على ما لا غنى عنه، كي يتأهّبوا للشهادة لإلهٍ مجّانيٍّ، إلهٍ يبذل ذاته، ولا يفرضها فرضًا، ولا يضنّ بها.

وهل يقوى على الشهادة لإلهٍ كهذا من كان منتفخًا عُجْبًا بذاته، مزهوًّا «بحقيقته»، يستخرج من حقيبته حججًا لا تُدحَض، ولا تُقاوَم؟ بل لا مفرّ للشاهد من أن يكون متجرّدًا، نزيهًا، صفر اليدين، متواضعًا، مرهف الإصغاء، مشرع القلب، كي يعتلن الله من خلاله.

ولا بدّ للرسول، قبل مضيّه على دروب رسالته، من المكوث مع يسوع، والتملّي من حضوره، ومعرفته عن كثبٍ، وتوثيق عُرى صداقةٍ معه، فالرسول ليس داعيةً لنظريّةٍ، بل هو شاهدٌ على شخصٍ، ولا مفرّ له من أن يكون على علاقةٍ وثيقةٍ بمن

يشهد لـه، ومن أن يقتسم الخبز معه. هذه الصداقة المتينة العذبة هي التي يتوجّب عليه التزوّد بها، متجرّدًا من كلّ وسيلةٍ سواها، فهي ثروته وغناه.

قد يبدو التجرّد الذي اقتضاه يسوع من رسله مفرطًا في الشدّة، فلمَ لم يُتح لهم، أقلّه، اتّخاذ عصًا للذود عن أنفسهم، أو كسرة خبزٍ جافٍّ يرمّمون بها قواهم، أو أربعة فلوسٍ، يبتاعون بها حفنة تينٍ يابسٍ؟ لأنّ أولئك المتشرّدين كانوا يحملون ثروةً مجنونةً، كنزًا فريدًا، الجائزة الكبرى. وكان لا بدّ من ألاّ يملكوا شيئًا، لكي يتجلّى للجميع أنّهم يملكون كلّ شيءٍ.

لقد غالى يسوع في اقتضاء التجرّد، مغفلاً توصياتٍ أُخرى أساسيّةً، مثل استقامة التعليم، ونصاعة السلوك، للتدليل على ما يوليه من خطير شأنٍ لروح الفقر، والزهد في كلّ نفوذٍ اجتماعيٍّ، وكلّ وسيلةٍ بشريّةٍ، وللاعتماد على الله وحده، وعلى نعمته. «**هذا الكنز الذي نحمله في آنيةٍ خزفيّةٍ، لكي يتّضح أنّ هذه القدرة الفيّاضة هي للّه، وليست منّا**» (٢ كور ٤: ٧).

لا يظنّنّ، إذن، أيُّ رسولٍ أنّ ضآلة الموارد عائقٌ دون البشارة، فوفاؤه للرسالة وتجرّده كفيلان بأن يفتحا لـه الخزائن والمحافظ. وإنّنا لنشهد متطوّعين تُلهب نفوسهم نار الرسالة، ينطلقون في مثل التجرّد الذي أوصى به يسوع، على دروب رسالتهم، بجرأةٍ لا تهاب. فلا يُبَرِّرَنَّ أحدٌ تخاذله، متذرّعًا بهزال الوسائل المادّيّة، ولا يتخيّلنّ الرعاة أنّ رعايتهم لا تستقيم إلاّ بامتطاء سيّارة مرسيدس من أحدث طرازٍ.

لقد كان مجرّد الاتّصال برسُل يسوع يغيّر مجرى الحياة. وكانت «الأرواح الشرّيرة»، وكلّ ما يلتهم القلوب ويقوّض دعائم المجتمعات تتلاشى في حضورهم؛ كانوا شفاة العالم، حقًّا، لأنّهم ما كانوا يملكون سوى إنسانيّتهم المجرّدة، الشفّافة في عين الله، المشعّة به.

وما زال بيننا – حمدًا للّه – أناسٌ شفّافون، لا يحجب سنى نفوسهم أيُّ دثارٍ صفيقٍ، ومجرّد حضورهم يفتح، بغتَةً، العيون على نور الله العذب، وعلى الحياة الحقّة.

سَلامٌ لِهذَا البَيْت

(لوقا ١٠: ٥)

لقد أوكل يسوع لتلاميذه رسالة سلام: «**أيّ بيتٍ دخلتم، فقولوا، أوّلاً، سلامٌ لهذا البيت**». بشرى يسوع بأكملها مختزلةٌ في كلمةٍ واحدةٍ: «السلام»: أُمنيّة صحّةٍ وسعادةٍ؛ بركةٌ إلهيّةٌ؛ خلاصٌ، طعمٌ مسبّقٌ للملكوت حيث يبلغ كلُّ شيءٍ ملأه. كلّ ذلك تنطوي عليه لفظة السلام.

التكرار والاعتياد غالبًا ما يُفرغان الرمز من روحه، والكلمة من وزنها، والإشارة من مدلولها.

غير أنّ السلام الذي أوكل يسوع إلى تلاميذه إلقاءه، ليس مجرّد تحيّةٍ عابرةٍ تفرضها الآداب العامّة، بل هي بشرى مجيء الخلاص، وهي قدرة ملكوت الله المعجزة، تلج، مع الرسل، البيوت التي يحلّون فيها. وهي سلام الله الذي يغمر تلك البيوت، شرط أن تكون متأهّبةً لاستقباله. أمّا البيت الذي يأبى استقبال الله ومرسليه، فهو لن يردّ على تحيّة السلام بالفرح والجاهزيّة، وسيتعذّر على الرسل فعل أيّ شيءٍ لخلاصه، وسيرتدّ إليهم السلام الذي تمنّوه.

رفض السلام هذا خَبَره يسوع نفسه في الناصرة، وخَبَره الرسول بولس في أماكن عديدةٍ من ميادين رسالته.

مجيء الله وملكوته قلّما يتكرّر، فويلٌ لمن يرفضه ويردّه، منذ الوهلة الأولى.

لقد شاء يسوع أن يكون تلاميذه رجال سلامٍ، ورُسُل سلامٍ، وصانعي سلامٍ، يستقبلون في ذاتهم سلام الله، ويشيعونه في العالم. سلامهم الداخليّ مع ذواتهم ومع الله، والسلام الخارجيّ الذي يشعّونه، وحدةٌ لا تنفصم. فالسلام الداخليّ، بمعزلٍ عن السلام الخارجيّ، أنانيّةٌ ونفاقٌ. والسلام الخارجيّ، بمنأىً عن السلام الداخليّ، رياءٌ خبيثٌ.

جاء يسوع بالسلام، وجسّده، وعلى تلاميذه أن يجسّدوه وينشروه، حيثما ذهبوا.

مَأْدُبَةُ الصَّحْرَاء

(لوقا ٩: ١١– ١٧)
(يوحنّا ٦: ٥ – ١٤)
(متّى ١٤: ١٣–٢١)

أبحر يسوع مع تلاميذه إلى الجانب الآخر من البحيرة، كي ينعم معهم بفسحة هدوءٍ، ويُكمل تثقيفهم. ولكنّ الجماهير تبيّنت مقصده فسبقته إليه، ولمّا رآها بانتظاره، تحرّكت أحشاؤه شفقةً، أحشاء أمٍّ حيال وليدها. وكان لقاء حنان الله بتوقّعات البشر. يسوع شفى جميع من أتوه بهم من مرضى. وهم جلسوا، ساعاتٍ، ينصتون إلى تعليمه، مفتونين.

وحلّ المساء، موعد العشاء الإفخارستيّ، والإفخارستيّا هي رمزٌ لأسرار صحارينا، ولياليناء حين تضيء أنوارٌ قدسيّة ظلمات نفوسنا.

«**إصرف هؤلاء الجمع**». بشريًّا، اقتراح التلاميذ هذا، حلٌّ حكيمٌ. ولكن يُلاحظ أنّ لهجتهم تتّسم بالسلطويّة، ولكأنّهم يريدون معلّمهم أن يأمر فيُطاع. غير أنّ يسوع يأبى أن يكون الزعيم الذي يتخيّله ويترقّبه كثيرون، وهو يستعيض عن موقف السلطة بعلاقة التراحم والعطاء، والمشاركة. فضلاً عن أنّه يرى ما يخفى على تلاميذه، ويفكّر على غير ما يفكّرون، فهو لا يرضى إسكات مِعَد الشعب، في حين تبقى نفوسه تتضوّر جوعًا. فأولئك الذين توافدوا وتزاحموا لرؤيته وسماعه كان يحدوهم جوعٌ غير الجوع إلى الطعام المادّيّ، وهو كان حريصًا على أن يلبّي ملتمسهم، لأنّ الخبز الذي قد يبتاعونه هنا وهناك، في القرى، سيظلّ عاجزًا عن إشباع جوعهم الحقّ.

الحلّ الصحيح ليس بعيدًا عن يسوع، ولا هو في القرى المجاورة. ولا حاجة بالقوم إلى المضيّ إليها. بل «**أعطوهم، أنتم، ما يأكلون**». أليست هذه هي مهمّة التلاميذ، وخلفائهم من بعدهم، ومهمّة كلّ مسيحيٍّ: إشباع كلّ ضروب الجوع، الروحيّة منها والجسديّة؟

بحث التلاميذ فوجدوا لدى فتًى خمسة أرغفة شعيرٍ وسمكتين. ولكن كيف لهذه أن تُطعم ما يربو على خمسة آلاف نفرٍ، ما لم يذهبوا، هم أنفسهم، ويبتاعوا ما يُطعم كلّ هذا الجمع، وينفقوا، في هذا السبيل، ما لا طاقة لهم على إنفاقه؟

مرّةً أُخرى، يسوع يفكّر غير ما يفكّرون، ويرى ما لا يرَون: هو يفكّر بالعطاء، وهم يفكّرون بالمال، يحدوهم اقتصاد السوق، وتُرعبهم فكرة الإنفاق على خمسة آلاف رجلٍ.

ويفاجئهم يسوع بقوله: «**أجلسوهم**»، أي ادعوهم إلى المائدة. وأمر بالأرغفة الخمسة والسمكتين، فأتَوه بها. من المحقّق أنّه لم يكن في حاجةٍ إليها، فهي «لا تقدّم ولا تؤخّر»، ولا تغيّر في الأمر شيئًا، سواءٌ وُجدت أم غابت. ولكنّ الربّ يستعين بأصغر ما في الوجود كي يُجري معجزاته، ويستعين بأصغر الناس كي يُشبع جموع الجياع.

فتًى هو الذي قدّم جرابه بكلّ ما يحتوي، وغالبًا هم الشباب الذين يهبون بلا حسابٍ. لقد أعطى كلّ شيءٍ، ولم يستبقِ لنفسه شيئًا، وانضوى إلى فئة المعدَمين الذين لا يملكون شروى نقير. ولكنّه سيكون واحدًا من الذين سيُفيدون من المشاركة: خمسة أرغفةٍ وسمكتان مقسّمةٌ على خمسة آلافٍ! ولكن الجميع شبعوا، وفاض الكثير.

لم يجعل يسوع من الحجارة أرغفةً، كما عرض عليه إبليس في صحراء أُخرى. وإنّما اقتصر على تكثير وجبة الفتى، وعلى مضاعفة عطائه ألوف الأضعاف.

لم يذكر الإنجيليّ أنّ يسوع «كثَّر» الخبز والسمك، بل قال إنّه رفع عينيه إلى السماء و«**أخذ، وبارك، وكسر، وأعطى**». وهي الألفاظ ذاتها التي وصف بها تأسيس سرّ الإفخارستيّا، والتي تُكرَّر كلّما احتُفل بذكرى العشاء الأخير، فهذه الأحداث جميعها تسبح في نورٍ واحدٍ.

يسوع يقتسم، ويُطعم، ويعطي حياته غذاءً للجماهير، ويدعو أتباعه إلى الاقتسام، والإطعام، بشتّى الوسائل، وإلى العطاء، حتّى عطاء الذات.

وقبل أن يعطي، «بارك» أباه، لأنّه هو الذي يمنح كلّ جوهريّ، وبمعزلٍ عنه لا حياة. فَلَوْ لم يُنبت اللّه من حبّة الحنطة سنابل، لما توفّر للعالم غذاءٌ.

وكلّف يسوع تلاميذه بالتوزيع، لأنّ خلفاءهم سيتولّون، من بعدهم، مهمّة توزيع خبز الحياة. وشبع الجميع، وفضل اثنتا عشرة قفّةً مملوءةً، ترمز إلى سخاء الله الذي يعطينا أكثر ممّا نطلب؛ ومنه نستمدّ الحبّ الذي لا ينضب، وخبز الحياة الأبديّة، التي جاء كي يغدقها بوفرةٍ، كما قال.

هل أصاب يسوع نصيبه من الطعام العجيب؟ لا يذكر الإنجيل شيئًا، في هذا السياق، ولكن يبدو أنّ يسوع ما برح ينتظر نصيبه، من خلال مليارات الرجال، والنساء، والأولاد، الذين تلتهمهم شتّى ضروب الجوع. هم أيضًا «تكاثروا»، وتعالت صيحات جوعهم من قارّات الفقر، وحتّى من بلدان البحبوحة حيث المعدمون يرقدون عند أبواب الأغنياء، ولكأنّ البسيطة جمعاء قد أمست، للكثيرين، صحراء فقرٍ وجَدْبٍ، وصحراء حبٍّ.

ومن قلب هذا الجوع الفتّاك، يدوّي قول يسوع: «أعطوهم، أنتم، ما يأكلون». ولكن أين هو الفتى الذي أعطى جرابه ومؤونته كلّها وباركها الله؟ أين هم من تتحرّك فيهم أحشاء الرحمة كما تحرّكت أحشاء يسوع، فيكفّون عن التخزين والإتلاف بغية تضخيم مرابحهم؟ أين هم العلماء والمخترعون الذين يؤمنون أنّ مهمّتهم هي إكثار الطعام لإشباع الجياع، لا إكثار وسائل البذخ والرفاه والإفساد والتدمير؟

لقد أشبع يسوع بضعة آلافٍ، شبعًا عابرًا مؤقّتًا. بيد أنّ، من حولنا، جوعًا مزمنًا، مقيمًا، يَنفق، من جرّائه، كلّ عامٍ، عشرات الملايين من إخوتنا البشر. أفلا نفعل كلّ ما يسعنا فعله، كي نشبع بضعة بطون؟ أوَلا يتحتّم على كلّ مسيحيٍّ البحث عن وسائل تسهم في حملةٍ شاملةٍ على الجوع؟ إنّه لا يحلّ لنا أن نشبع بثمار الأرض، بخبز الإفخارستيّا، وأن ننعم بالنور، والفرح، والسلام، من غير أن يهزّنا همّ ملايين البشر، الجياع إلى الخبز والحقيقة، ومن غير أن نذكر أنّهم إخوةٌ لنا، وأنّ جوعهم يجب أن يكون جوعنا.

وليتَ الجميع يدركون أنّ الله يمدّ يده مستعطيًا من خلال كلّ إنسانٍ محتاجٍ، وأنّ من يعطي فقيرًا يقتسم مع الله طعامه.

إنّ يسوع الذي وفّر لبضعة آلافٍ من البشر الجياع، في القفر، ما يشبعهم من الطعام المادّيّ، ضرب لتلاميذه، في كلّ جيلٍ، مثالاً وقدوةً، ووفّر لهم «خبز

السماء»، خبز المحبّة، الذي يؤهّلهم لمواجهة مشكلة الجوع في العالم، وأوكل إليهم واجب حلّها.

فالجياع كُثُرٌ، في كلّ حينٍ، وكلّ مكانٍ، وعلى تلاميذه أن يكونوا يديه وقلبه، ويتضامنوا في مهمّة إطعامهم.

* *

ويروي الإنجيل أنّ الجموع، في أعقاب تلك المعجزة، راودهم حلم تنصيب يسوع ملكًا، لعلّه يوفّر لهم الطعام بلا عناءٍ؛ لقد أرادوه ساحرًا يغدق الطعام مجّانًا؛ وفاتهم أنّ تلك ليست مهمّته. فهو إنّما جاء لكي يؤتيهم «خبزًا سماويًّا»، خبز المحبّة الذي يجعل البشر يتضامنون، ويتوحّدون لكي يحلّوا، معًا، مشاكل الجوع والحياة، الناشبة بمجتمعاتهم.

لقد أبى تضليل الناس بمعجزاته، ورفض أن يجعلوا منه ما لم يأتِ من أجله. فنأى عنهم، وتوقّل الجبل يصلّي، كي يرفع أبصارهم إلى فوق، ويشدّ أنظارهم إلى أبعد، ولكيلا يفيئوا إلى التواني والتخاذل، ويقبعوا ينتظرون من يُعيلهم.

* *

مأدبة الصحراء تلك كانت آيةً، وإشارةً إلى سرٍّ.

الآية، في قاموس اليهود، تعني المعجزة، والعمل المدهش، الناجم عن قدرةٍ عليا. ولطالما أبى يسوع أن يظهر بمظهر صانع المعجزات، لئلاّ ينتزع الإيمان عنوةً. ولكنّه كان يُجري المعجزات استجابةً لحاجة إنسانٍ بائسٍ، أو لإيمانٍ واثقٍ صادقٍ، غير أنّه كان يمسكها عمّن يجعلونها شرطًا للإيمان أو إرضاءً لفضولٍ.

المعجزة علامةٌ توقظ الضمائر، وتضع الإيمان على السراط القويم، وتُظهر يسوع متفوّقًا على كبار الأنبياء، موسى، وإيليّا، وسواهم. وقد ذكّر تكثيرُ الخبز اليهودَ باستنزال موسى المنّ من السماء، لإطعام الشعب الجائع في الصحراء. بيد أنّ يسوع ارتقى بهم من مفهوم الطعام المادّيّ الذي يُشبع المِعَد، إلى حينٍ، ولا يقي من الموت، إلى خبزٍ حيٍّ يهب الحياة الأبديّة.

هذا الخبز هو الإفخارستيّا، أكبر الأسرار، لأنّه يوجزها جميعها. والأسرار هي،

أيضًا، علاماتٌ وخوارق تستخدم عناصر وحركاتٍ بشريّةً متواضعةً، كي تُشرع لنا آفاق الحياة الأبديّة.

يهبنا يسوع جسده لأنّه يدرك جوعنا إلى الحقيقة، واليقين، والمطلق، ويلمس جوعنا إلى حبّه وحضوره، «لكيلا تخور قوانا في الطريق». إنّه خبزٌ للطريق، ودعمٌ لقوانا، يومًا فيومًا، وليس تَرَفًا، أو حلوى، أو مكافأةً.

وهو يهبنا، أيضًا، كلمته، من خلال الإنجيل، وهي التي، في القدّاس، تسبق المناولة. مائدة الكلمة تتقدّم مائدة الإفخارستيّا، وتُعدّ لها، بشحذ الإيمان، والرغبة في تناول الربّ.

مَـأدُبَـةُ الصَّحْـرَاء

في تنّور اللّه،
حيث يضطرم الحبّ،
ينضج خبز البشريّة،
خبز معاناتها،
وخبز أفراحها، وآمالها،
خبز مأدبة اللّه.

(جيرار بيسّيير)

أشفقَ يَسُوعُ عَلَى الجُمُوعِ

(متّى ٩: ٣٦)

«**ولمّا رأى الجموع أشفق عليهم، لأنّهم كانوا متعبين، مرهقين، مثل غنمٍ لا راعي لها**».

وهو، اليوم، وغدًا، وفي كلّ يومٍ، يرقب الجموع فيشفق عليها. يرى جماهير عمّال المصانع والمؤسّسات، والعاطلين عن العمل، وطلاّب المدارس، والمعاهد، والجامعات الحائرين، والمزارعين المعزولين في قراهم النائية المهمَلة، والمسنّين الذين يكابدون الوحدة، والمرضى الذين يؤرّقهم همّ التشخيص، وثمن العلاج، ومصير العمليّة، والمستهلكين الحائرين بين دهاليز الحوانيت المكتظّة بكلّ مغرٍ يستهويهم، وتردعهم أثمانه؛ وسكّان ضواحي البؤس التي تحيق بالمدن كالحزام.

علّة الجموع أنّها جموعٌ وليست شعبًا، وأنّها مُغفَلَةٌ، معزولةٌ، كئيبةٌ، تفتقر إلى رعاةٍ يقودونها إلى المراعي المخضلّة المنعشة. جموعٌ قوامها صمٌّ كُثُرٌ لا يسمعون نداءات الآخرين وتوسّلاتهم؛ وعميانٌ كُثُرٌ لا يرون وجوه جيرانهم؛ وبكمٌ كُثُرٌ سُلبوا حقّ الكلام، أو فقدوا الجرأة على استخدامه؛؛ وعرجٌ كُثُرٌ لا يقوون على مقابلة إخوانهم؛ وقُطعٌ كُثُرٌ لا يستطيعون مدّ أيديهم نحو الأيدي الممدودة إليهم.

واليوم، يسوع يرمق هذه الجموع، وعيناه مغرورقتان بالدموع، تعاطفًا مع كلّ ضروب الفقر والبؤس، ومع البشريّة الواقفة على شفا القنوط. وما انفكّت أحشاؤه تتحرَّك رأفةً على قومٍ منهكين، منهارين، مشمئزّين من سخافة حياةٍ خلت من المعنى والهدف، لأنّها خوت من الله، فتاهوا، بلا هادٍ، يذرعون، عبثًا، دروبًا لا تُفضي إلى أيّ مكانٍ.

كان الله، بصوت النبيّ حزقيال (٣٤: ٢ الخ) قد أنحى باللائمة على رعاة إسرائيل لأنّهم أهملوا القطيع الموكل إليهم، واهتمّوا برعاية أنفسهم، وتنبأ بأنّه، هو

نفسه، سيتولّى مهمّة رعاية البشر. وها قد «ظهر رئيس الرعاة» كما دعاه القدّيس بطرس، في رسالته الأولى (٥ : ٤) وها هوذا يهيب بأصدقائه القلائل أن يرَوا بعينيه، وأن تأخذ الرحمة بأحشائهم كما هي آخذةٌ بأحشائه، فالرسالة ليست دعاوةً، ولا هي سجالٌ فكريٌّ، بل هي موقفٌ من القلب. فعليهم، إذن، أن يمضوا إلى المقهورين، المتألّمين، اليائسين، ويبشّروهم بأنّ ملكوت الله قريبٌ.

أجل، يُصبح ملكوت الله قريبًا جدًّا، عندما يُحرَّر السجناء، ويُعتَق المقيّدون؛ وعندما يتوفّر الطعام للجياع، والكرامة للمهانين المقهورين، والمحبّة للمنبوذين، ويشرع العرج يركضون، والصمّ يتكلّمون، والعميان يبصرون، ويتصالح اليائسون مع الله، وتستعيد حياتهم معنًى، ومبرّرًا.

أصدقاء يسوع رُسُل رجاءٍ، يُرشدون التائهين إلى درب الملكوت الحاضر، الغائب.

أنا خبز الحياة

(يوحنّا ٦ : ٢٤–٥٧)

في أَعقاب تكثير الخبز، كرّر الجمع الذي شبع تجربةَ إبليس، فحاول دفع يسوع إلى إعلان نفسه ملكًا. ولكنّ يسوع نأى بنفسه عنهم، وعن غوايتهم، وبعد أن انتحى ليناجي أباه، انتقل إلى ضفّةٍ أُخرى من البحيرة، وإذا بالجمع عينه يقتفي أثره، ويلحق به. فأخذ عليهم الدافع إلى ملاحقته، ألا وهو الظفر بمزيدٍ من الطعام المجّانيّ.

لم يستسلم يسوع لحماسهم، ولرغبتهم في تنصيبه ملكًا، كي يوفّر لهم، دائمًا، خبزًا مجّانيًّا. فهو لم يأتِ ليحلّ مشكلة الجوع التي يعانيها أكثر من نصف سكّان البشريّة، لأنّ على البشر أن يتعاونوا ويتضامنوا على حلّها. بل هو جاء كي يوفّر لهم طعامًا لا قِبَل للبشر على إنتاجه، «خبزًا سماويًّا»، «خبز الحياة»، خبز المحبّة الذي يؤتيهم من القوّة ما يمكّنهم من تنظيم طاقاتهم، في سبيل حلّ مشاكلهم الاجتماعيّة.

لقد فاتهم أنّه إنّما ابتغى، من معجزته، أن يولّد، في نفوسهم، إيمانًا يغنيهم عن كلّ طعامٍ مادّيٍّ، وغاب عن أذهانهم، من المعجزة، مغزاها الحقّ. فهم، عوضًا عن أن يتوسّموا في الخبز رمزًا، لم يروا في الرمز سوى الخبز، شأن عامّة الناس الذين لا ينظرون إلى هبات الله السنيّات، إلاّ من خلال علاقتها بمصالحهم الدنيا.

ولذلك أَهاب بهم أن «**اعملوا لا للطعام الذي يفنى، بل للطعام الذي يبقى للحياة الأبديّة، الذي يعطيكموه ابن البشر، فإنّه هو الذي ثبّته الله، الآب، بختمه**».

وتحدّاه اليهود قائلين إنّ موسى أعطى آباءهم المنّ أيّامًا طويلةً، أمّا هو فأطعمهم خبز شعيرٍ، مرّةً واحدةً. ولكنّه رفض هذه المقارنة؛ فهو لم يأتِ كي يوفّر لهم طعامًا

ماديًّا يقيم رمقهم، أيّامًا معدوداتٍ، بل جاء كي يهب ذاته طعامًا يضمن الحياة الأبديّة. لطالما قال عن نفسه إنّه النور، والطريق، والراعي، وها هوذا ينفذ إلى صميم سرّ الأسرار بإعلانه: «**أنا خبز الحياة. من يأتِ إليّ، فلن يجوع أبدًا، ومن يؤمن بي، فلن يعطش أبدًا**».

* *

ما أوسع الجوع انتشارًا! ثمّة جوعٌ إلى الخبز ما زال يعضّ أحشاء قطاعاتٍ رحبةٍ من سكّان كوكبنا في هذه الألفيّة الثالثة، التي طفرت طفرًا في ميادين التقنية، ولكنّها لم تبالِ بحلّ معضلةٍ اجتماعيّةٍ على هذا القدر من الخطورة، والبساطة، في آنٍ واحدٍ.

وهناك جوعٌ إلى اللقاء، إلى المودّة، إلى بذل الذات. فمن يُحِبّ، ويُحَبّ، يتلقّى، ويهب طعامًا سائغًا، وهو متأهّبٌ لحرمان نفسه في سبيل ذويه، وهذا الحرمان يوفّر له فرحًا متألّقًا.

هذه الأنماط من الجوع تدفعنا نحو بحثٍ جوهريٍّ عن هدفٍ لوجودنا، عن غايةٍ لشوط مسيرتنا، عمّن لا نكفّ نتمتم اسمه: الله.

وفي مواجهة أنماط الجوع هذه، يعلن يسوع بأقواله، وبأفعاله، وبخطّ النور الذي رسمه في أفق العالم، وبحضوره في جماعاتنا وضمائرنا: «**أنا، خبز الحياة**».

لقد ارتقى بجوع الإنسان إلى خبزٍ أسمى جوهرًا، وأوفر غذاءً من الخبز الذي تتوق إليه معدته.

في زمن يسوع، كان الخبز هو أساس الغذاء، ويسوع جعل نفسه خبز النفوس.

قيمة حياتنا تعتمد على ما نتغذّى به، وما تتطلّع إليه شهيّتنا، فللحياة مستوياتٌ ثلاثةٌ: جسديٌّ وفكريٌّ وروحيٌّ. وفي هذا المجال يقول پاسكال: «من كلّ الأجساد مجتمعةً، لا يمكن استنباط فكرةٍ ضئيلةٍ، ومن جميع الأجساد والأفكار لا يمكن استخراج مبادرة محبّةٍ حقّةٍ. إنّ ذلك مستحيل، لأنّه من مستوًى آخر، يفوق الطبيعة».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

على إحدى ضفاف البحيرة أعطى يسوع خبز الحصاد الأرضيّ الذي يملأ المعدة، ويهدّئ الجوع، ويُشبع. وعلى الضفّة الأُخرى، أعطى خبز السماء الذي يحفر جوعًا أبديًّا.

هناك خبز الاستهلاك، وهنا خبز الرغبة. هناك يشيخ المرء، ويتضاءل، وهنا تتغيّر القلوب والأرواح، وتولد من جديد، وكلّ شيءٍ جدّةٌ ونضارةٌ.

هناك ضفّة الاقتصاد بمنتجيها، ومستهلكيها، وهنا ضفّة المجّانيّة.

لكي نفهم، بعض الفهم، مغزى خبز السماء، ولكي نتذوّقه، علينا أن نمضي إلى الضفّة الأُخرى، محتملين عناء الانتقال، وإلاّ استحال علينا التقدّم نحو مستقبل الله.

علينا الانتقال من الضفّة حيث تتكاثر الأرغفة، إلى الضفّة الأُخرى حيث الخبز هو امتلاءٌ إلهيٌّ.

* *

تكلّم يسوع عن الأكل والشرب أمام قومٍ أخذ بهم دوار الجوع، وألهب أحشاءهم لظى الظمأ. ولكنّه عرض عليهم طعامًا مذهلاً، جسده، أي كيانه كلّه، ومن خلاله، وفّر لمن يعانون الجوع، للجياع الأبديّين، وحدةً حيويّةً مع الله، وحدةً ليست مع إلهٍ ناءٍ لا سبيل إليه إلاّ بمعارف سرّيّةٍ، وطقوسٍ معقّدةٍ، بل إلهٍ يتمثّل بكسرة خبزٍ، ورشفة خمرٍ، ويؤكل؛ إلهٍ يحبّ الصغار، ويُزري بالمتكبّرين، ويبتكر حياةً جديدةً؛ إلهٍ لم يغِبْ، في أعقاب مرورٍ خاطفٍ، مخلّفًا مجرّد ذكرياتٍ، بل خلّد حضوره بتقديمه ذاته خبزًا طيّبًا، وخمرةً منعشةً لمن يودّون التواصل معه، والتغذّي به، على مدى تعاقب الأجيال، خبزًا وخمرًا في متناول أشدّ الناس فقرًا وإملاقًا.

وهو، من خلال الجياع، والمضطَهَدين، والمنبوذين، والذين يحدوهم هوى البرّ والعدل، يقدّم، كلّ يومٍ، جسده الذي سيم الهوان والعذاب، ودمه الذي فجّرته حربةٌ رومانيّةٌ، وكلمته التي لا تني تزعج وتخلق.

وعلى من يبتغي استضافته أن يقتفي أثره، ويقتسم نِعمَه، وصراعاته، وتطلّعاته إلى هزّ العالم وتغييره.

يسوع النائم وسط هياج العاصفة

(بريشة مينييه)

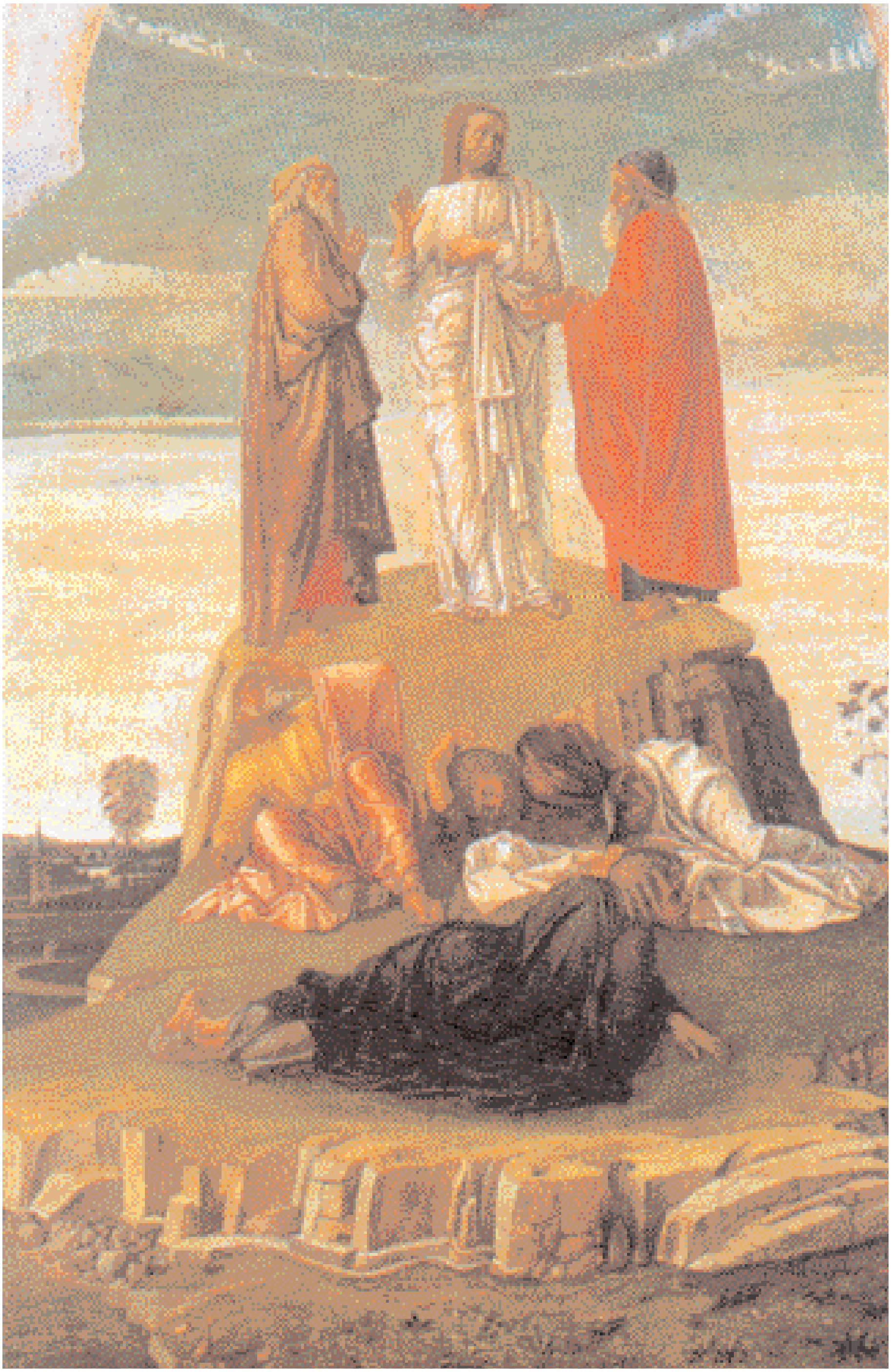

التجلّي (بريشة بيلّيني)

مَن كان منكم بلا خطيئة...

(بريشة تينتوريه)

مرتا ومريم

(بريشة ڤيلاسكيز)

عودة الابن الضالّ (بريشة رامبرانت)

شفاء أعميَي أريحا (بريشة پوسّان)

إنزل يا زكّا

(بريشة ستروتسي)

شفاعة العذراء (بريشة روبنس)

الخبز والخمر يرمزان إلى عطاء اللّه وسخائه. وإنّ اقتسام الخبز، وتبادل الدم أفعالٌ توثّق الوشائج بين البشر، للحياة وللموت.

* *

جاء في سفر الأمثال، على لسان الحكمة الإلهيّة: «**هلّموا كلوا من خبزي، واشربوا من الخمرة التي مزجت، واتركوا الغرارة، واحيَوا**». وعندما يقدّم لنا يسوع جسده خبزًا حيًّا، ودمه شراب حياةٍ أبديّةٍ، فهو يمثّل حكمة اللّه، ويبتغي توطيد اتّحادنا بكلمته، وبتعليمه، وبكمال حياته التي تحقّقت بموته وقيامته.

وإنّما التغذّي بحكمة اللّه المتجسّدة في يسوع يعني المغامرة على دروب الجنون التي شقّها الإنجيل. ونحن، عندما نتلقّى، مع جسد يسوع ودمه، «الحياة الأبديّة»، نشترك معه، ومع رسالته، ومع اندفاعه الذي يخلّده القدّيسون في كلّ عصرٍ، ونتّحد باللّه.

* *

في الأديان البدائيّة كان أفراد العشيرة يأكلون قلب البطل، ودماغه، كي يتمثّلوا شجاعته، وحكمته، وخصاله. ويسوع يعطينا جسده كي نأكله، ونشربه، تحت أعراض الخبز والخمر، كي نتمثلّ ألوهته. وتأكيدًا لذلك قال: «**من يأكل جسدي، ويشرب دمي، أَقام فيّ، وأقمت فيه**» (يوحنّا ٦: ٥٦). وفي مكانٍ آخر قال: «**من ثبت فيَّ وثبتُّ أنا فيه أتى بثمرٍ كثير، لأنّكم، بمعزلٍ عنّي، لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا**» (يوحنّا ١٥: ٥).

مصطلح «الإقامة» عزيزٌ على قلب الإنجيليّ يوحنّا، وهو يعني السكن في ذهن من نحبّ، وفي قلبه، وهذا ما ابتغاه يسوع: أن نحيا به، فيصبح، هو، جزءًا من كياننا، ونصبح، نحن، جزءًا من كيانه.

كثيرون ممّن سمعوه يقدّم ذاته طعامًا وشرابًا عدّوا قوله ضربًا من الجنون. ولكنّه، عوضًا عن تلطيف وقع كلامه، عاد فأكّد، بقسمٍ، ولكأنّه يجهد في غرس مسمارٍ عنيدٍ، أنّ أكله وشربه هما شرطٌ أساسيٌّ لنيل الحياة: «**الحقّ، الحقّ، أقول لكم، إنّكم، إذا لم تأكلوا جسد ابن البشر، وإذا لم تشربوا دمه، فلا حياة لكم**

في أنفسكم» (يوحنّا ٦: ٥٣)، مع أنّه كان عليمًا بما يعنيه شرب دم الضحايا من نفورٍ واستفظاعٍ لدى اليهود. غير أنّ الدم هو، من جهةٍ أُخرى، رمز الحياة، والحياة الروحيّة هي التي ابتغى إسالتها في أوصال البشر.

ويستخدم الإنجيليّ يوحنّا، على التوالي، في النصّ اليونانيّ، فعلَيْ «يأكل»، و«يمضغ» كي يضفي على قول يسوع مزيدًا من الواقعيّة، وللتأكيد على أنّ الطعام الذي يقدّمه ابن اللّه لا بدّ من تمثّله، بعنايةٍ، للإفادة منه.

لطالما خاب رجاء البشر في تطلّعاتهم ورغباتهم، وخارت قواهم رغم وفرة الأطعمة والأشربة التي يتناولونها، ورغم تنوّعها. بيد أنّ يسوع يقدّم ذاته طعامًا وشرابًا حقيقيّين يمنحان الحياة المزدهرة الحقّة: «**إنّ جسدي مأكلٌ حقّ، ودمي مشربٌ حقٌّ**» (يوحنّا ٦: ٥٥).

مثلما يتغذّى الابن بالآب، وبذلك يصبح وإيّاه واحدًا، ومثلما يستمدّ الجنين الغذاء من جسد أُمّه، ويتكوّن على صورتها، كذلك علينا التغذّي بجسد يسوع ودمه، كي نتحوّل إليه، ونتّخذ شكله.

يسوع يرمي إلى إيقاظ وعي الروح لدى بني الأرض، الذين، من جرّاء السقطة، كفّوا عن كونهم أبناءَ للّه، ومن ثمّ ذهِلوا عن المكان الذي منه أتوا، وهم إليه صائرون.

إنّ «بذرة» اللّه ما برحت كامنةً في ذاتهم العميقة، ويسوع يحاول أن يبعث فيهم نبع الحياة، ويوقظ فيهم المعرفة والحبّ. بحيث يذكرون من هم، ومن أين أتَوا، وإلى أين منتهاهم. بمعرفتهم ليسوع تتجلّى عندهم معرفة الآب. يعرفون الحقّ، والحقّ يحرّرهم من سقطتهم ومن أرضيّتهم.

يسوع هو «الكلمة أصبح جسدًا»، وهذا الجسد هو خبز الحياة.

* *

قبل مغادرته كوكبنا ورّث يسوع أجيال البشريّة ذاته، مصدر غذاءٍ وحياةٍ.

لقد ألغى ضحايا البهائم التي لا ترضي اللّه ولا تنقذ البشر، واستهلّ تضحيةً جديدةً. قدّم ذاته ضحيّةً عن البشر أَجمعين، وغذاءً للنفوس، يرمز إليه الخبز والخمر.

وعلى الذين يتقبّلون هذه الحياة الآتية من الله، أن يجعلوا من وجودهم تقدمةً على غرار يسوع.

اليوم، وكلّ يومٍ، يهبنا يسوع الحياة، كلّما دعانا إلى بذل ذواتنا غذاءً لإخوته الصغار. ونحن نفشل في الاتّحاد به، ونخون تقدمته ذاته لنا، كلّما أعرضنا عن إخوته هؤلاء.

* *

القَلبُ وَالأيـدِي

(مرقس ٧: ١–٢٣)

لحظ السنهدرين أنّ تعليم يسوع يشذّ، أحيانًا، عن تعليمهم، فأنفذوا وفدًا من الفرّيسيّين والكتبة، بُغيَة استبيان الأمر وتقصّيه، فإن هم وقفوا على ضلالٍ، منعوه من التعليم. وراحوا يراقبونه، فاستلفت انتباههم أنّ تلاميذه يُقبلون، أحيانًا، على الطعام، غير متقيّدين بفريضة الاغتسال المسبّق. تلك الفريضة كانت مقصورةً، أصلاً، على الكهنة، وعمّمها شيوخهم على الجميع. وهم رأَوا، في هذا السلوك، نقضًا للسنّة، تقع تبعته على يسوع، لأنّه هو المسؤول عن تثقيف تلاميذه. فجاؤوه مُتّهمين، وسألوه، ونظراتهم تقطر سُخطًا، وغضبًا، وازدراءً: «**لمَ تلاميذك يتعدَّون سنّة الشيوخ؟ فإنّهم عند تناولهم الخبز لا يغسلون أَيديهم؟**».

لقد نصّبوا أنفسهم حماةً لسنّة الشيوخ، أسلافهم، الذي أثقلوا الشريعة الأصليّة بفتاواهم، وإضافاتهم، وفرائضهم، فأرهقوا كواهل العامّة وضمائرهم، وغالبًا ما سخّروا هذه الفتاوى والفرائض لخدمة مصالحهم.

في مواجهة «سنّة الشيوخ» انتضى يسوع سيف شريعة الله، وأقوال النبيّ أشعيا فيهم وفي شيوخهم، فأجاب: «**لقد أصاب أشعيا في ما تنبّأ به عليكم، أيّها المراؤون، فإنّه مكتوب: إنّ هذا الشعب يكرّمني بشفَتَيْه، وأمّا قلوبهم فبعيدة عنّي. باطلةٌ هي عبادتهم، وما تعاليمهم سوى وصايا بشرٍ**».

لقد جعل من متّهميه متَّهَمين. ومنذ الكلمة الأولى فضح ريائَهم وازدواجيّتهم، ونفاق سلوكهم المتشبّث بسنّة الشيوخ، المتنكّر لسنّة الله، وأبرز للعيان التناقض بين أقوالهم، وأفكارهم، بين مظهرهم وواقعهم.

وأهوى يسوع بالمشرط عميقًا في صميم ريائهم فقال: «**إنّكم تتركون جانبًا وصيّة الله، وتتمسّكون بسنّة الناس. أجل إنّكم تنقضون وصيّة الله لتقيموا سنّتكم**».

وضرب مثلاً لهذا التعدّي إبطالهم وصيّة الله ببرّ الوالدين، بـ«فتاوى» من عندهم تراعي مصالحهم.

فقد فرض الله على البنين إعالة والديهم بما يملكون، ولكنّ الشيوخ أفتوا أنّه حَسْبُ البنين أن يقولوا لوالديهم إنّ ما ينتفعون به منهم قد غدا «قرباناً»، أي وقفًا على اليهكل، حتّى يُحبَس عن الوالدين الانتفاع به، ويتحلّل البنون من واجبهم تجاههم، ويظلّ الأبناء ينعمون به طيلة حياتهم، ثمّ يؤول إلى الهيكل وسدنته.

ذلك مثالٌ من الأساليب الملتوية التي تنقض بها، «سنّةُ الشيوخ» شريعةَ الله.

بذلك أفهم يسوع مسائليه أنّه، وتلاميذه، ملزمون بوصايا الله، متحرّرون من سنّة الشيوخ، لأنّها من صنع البشر، ومن ثمّ، باطلةٌ: «**كلّ غرسةٍ لم يغرسها أبي السماويّ تُقلَع**».

ولكأنّي بيسوع يقول للفرّيسيّين وأحفادهم على مدى العصور: «إنّكم تدّعون خدمة الله، في حين أنّكم تخونونه كي تفرضوا فتاواكم المعوجّة. لقد أغفلتم الجوهريّ، أي نظافة القلب والسريرة، وتشبّثتم بغسل الأيدي، وبالطقوس. الإشارة الخارجيّة وُضعت كي تقود إلى صميم الداخل، وأنتم جعلتم منها غايةً في ذاتها، فغدت علامة انتماءٍ إلى جماعةٍ، وصَبغةً غاشّةً. لقد خُنتم الله، وأنتم تدّعون الدفاع عنه، وتمثيله، وتولّي السلطة نيابةً عنه.

* *

ما أكثر الذين يغسلون أيديهم، نظير بيلاطس، ويأنفون من تلويثها، وهي مدسوسةٌ في جيوبهم، أو معقودةٌ وراء ظهورهم! إنّها أيدٍ نظيفةٌ، دائمًا، بل يمكن القول إنّ هؤلاء لا أياديَ لهم. إنّهم يشهدون ولا يخاطرون، ينأون بأنفسهم، ويحسبون ذواتهم في نظافةٍ زائفةٍ، وفي تلك الأثناء تجفّ قلوبهم.

هذا الحرص على التعقيم يقتل نفوس الأفراد، ونفوس الشعوب بل قلوب الديانات، فهؤلاء القوم يتوخّون سلامة نفوسهم، والانكماش على ذواتهم، وإغلاق الحدود. ويكتفون بالطقوس القديمة بمنأًى عن التفجّرات، ويذهلون عن أنّ الحياة إنّما هي الجاهزيّة، والمضيّ نحو الآخرين، ونحو المستقبل، واستنباط جوابٍ لكل حدَثٍ.

الخطر لا يكمن في الخارج، بل إنّ الخطر الأكبر ثاوٍ في قلوب البشر. هذا ما أعلنه يسوع صراحةً، وبلا مداورةٍ: «**ما يخرج من الإنسان، هو ما يدنّس الإنسان**». لقد توغّل إلى الأغوار، إلى ما يتخطّى المظاهر، والشكل، والتقدير الاجتماعيّ.

علّمنا أنّ الله الثاوي في أعماق قلوبنا يريد منّا أن نفتح أيدينا ونمدّها.

ذلك الوضع المعوجّ قوّمه يسوع، بسنّةٍ جديدةٍ، لم يبتغِ وقفها على نخبةٍ تتولّى ترويجها بتؤدةٍ وحذرٍ، بل وجّهها إلى الجميع كي يأخذوا بها، في الحال، ولذلك يقول الإنجيليّ: «**ثمّ دعا الجميع وقال لهم: «اسمعوا، وافهموا...»**». هذه المقدّمة تشير إلى أنّ ما سيقوله جديدٌ وخطيرٌ، وبعيدٌ كلّ البعد عن تفسيرات الرابّيّين، بل ينقضها ويُطيح بها من جذورها. إنّه مفهومٌ جديدٌ للطهارة لا يمتّ بصلةٍ إلى طقوس الاغتسال والتطهّر الخارجيّ التي يحرص عليها الفرّيسيّون، ويجعلون منها ركنًا من أركان الدين: «**لا شيء ممّا هو خارج الإنسان، إذا دخل الإنسان ينجّسه؛ بل ما يخرج من الإنسان ينجّسه**». أي إنّ الظروف الخارجيّة لا قِبَل لها على تنجيس النفس، وليس الاغتسال هو الذي يطهّرها، بل إنّ الطهر والنجاسة يثويان في القلب، والفكر، والنوايا.

ولئن أخذ الفرّيسيّون على تلاميذ يسوع إهمالهم غسل أيديهم قبل الطعام، إلاّ أنّ يسوع أجابهم أنّ الأَوْلى بهم غسل قلوبهم من كلّ خبثٍ ونفاقٍ.

إنّها عقليّةٌ جديدةٌ لا تناقض «سنّة الشيوخ» فحسب، بل كلّ الطقوس التي تزعم تلك السنّة جعلها صميم العبادة. فثمّة خرقٌ للدين والعبادة كلّما طغى الظاهر على الباطن، والمظهر على القلب، والاحتفال على العبادة، والضجيج على الخشوع، والشريعة على الروح.

فالإنسان ليس زيًّا، ولا نموذجًا لانتماءٍ اجتماعيٍّ، ولا تقيّدًا بعادات؛ بل إنّه يولد ويحيا في الفجر الذي لا ينفكّ ينبثق من قلب ظلماته الداخليّة، فجر الإنسانيّة، وفجر الله.

والسُنّة الوحيدة التي يجدر الوفاء لها هي التي تنساب من قلب الله إلى قلب الإنسان.

طُهْـرٌ وَنجَـاسَـةٌ

(مرقس ٧: ١-٢٣)

من أورشليم، معقل النفاق والبغضاء، جاؤوا تحدوهم نوايا عدائيّةٌ، ونفوسهم تفيض خبثًا. لم يجسروا على التعرُّض ليسوع مباشرةً، بل أخذوا على تلاميذه إهمالهم غسل أيديهم قبل الطعام، ولكأنّ فعلتهم هذه هي أُمّ الكبائر، إذ إنّها تخالف «سنّة الشيوخ». وحمّلوا يسوع جريرة ذنب تلاميذه.

وليس كالنفاق والرياء ما يثير استنكار يسوع وغضبه، فرشَقَهم بقول نبيّهم: «**هذا الشعب يكرّمني بشفَتَيْه، أمّا قلوبهم فبعيدةٌ عنّي. إنّهم بالباطل يعبدونني، لأنّ التعاليم التي يعلّمونها ليست سوى وصايا بشرٍ**». إذن، «سنّة الشيوخ»، التي يتشدّق بها الفرّيسيّون، إنّما هي بدعةٌ بشريّةٌ، وليست من صلب الدين في شيءٍ. ولذلك ليس تلاميذ يسوع، ولا سواهم، مُلزَمين بها.

ففي الأصل كان الاغتسال مفروضًا على الكهنة قبل أدائهم الطقوس، وعمّم علماء الشريعة هذه الفريضة على الجميع، قبل تناول الطعام، معتبرين الطعام طقسًا مقدّسًا، يقتضي غسلاً وتطهّرًا.

غير أنّ مأخذ يسوع على أولئك المنافقين هو تعنّتهم في هذه المظاهر، وإغفالهم ما هو جوهريٌّ، وتشبّثهم بوصايا «الشيوخ»، وإزراؤهم بوصايا الله، وقد أكّد أنّ كلّ ما هو من صنع البشر إلى زوال، ولا يبقى إلاّ ما وضعه الله. وما أروع قوله: «**كلّ غرسةٍ لم يغرسها أبي تُقلَع**»!

وقد بيّن يسوع لأولئك المنافقين كيف يتلاعبون بوصايا الله، من خلال فتاواهم التي لا تتوخّى سوى مصالحهم. وكانت تلك له فرصةً كي يرسي مبدأً خالدًا للعبادة الحقّة، وكي يزوّد الأجيال بدرسٍ أبديٍّ حول ما هو طاهرٌ، وما هو نجسٌ، لا في نظر علماء الشريعة، بل في نظر الله.

فبإيراده قول النبيّ كان يسوع كمن يقول: باطلةٌ هي صلاتكم عندما تصدر عن شفاهكم فحسب، وباطلةٌ هي عبادتكم عندما لا ترافقها أعمال محبّةٍ ورأفةٍ، ففي عمل الرحمة يكمن روح الله، وقداسته تقدّس كلّ ما تمسّ. إعملوا، إذن، أعمال رحمةٍ، ولو بأيدٍ متّسخةٍ، ولو في أيّام السبت، تطهر نفوسكم! إنّكم تدّعون خدمة الله، في حين أنّكم تخونونه بأقوالكم وأفعالكم.

ما الطقوس الخارجيّة سوى دعوةٍ إلى إيقاظ النفس، وشدّها نحو الله. ولكنّها تفقد وظيفتها حالما تغدو غايةً في ذاتها، وتُغفل ما ترمز إليه. وهناك تزييفٌ وتشويهٌ، كلّما تغلّب الظاهر على الباطن، والحرف على الروح.

لقد ندّد يسوع بنفاق الفرّيسيّين الذين يضعون الصلاح كلّه في حركاتٍ وطقوسٍ خارجيّةٍ. وكم نحن فرّيسيّون عندما نسعى إلى الظهور بأبهى حلّةٍ، ولو كانت نفوسنا تعجّ بالرذائل والأقذار، ونحرص على ألاّ تظهر على أجسام أبنائنا وعلى ثيابهم أيّة لوثةٍ، ولا يقلقنا تلوّث أرواحهم!

وكم من أعمالنا باطلٌ عندما لا يتوافق فيها الباطن مع الظاهر!

وبعد أن ندّد يسوع بنفاق الفرّيسيّين والكتبة، أعرض عنهم، إذ إنّهم سادرون في عماهم، وقال: «**اتركوهم: إنّهم عميٌ قادة عميانٍ. وإن كان أعمى يقود أعمى، فكلاهما يسقطان في حفرةٍ!**». وما قسوة يسوع هذه، إلاّ لأنّ أولئك الذين نصّبوا أنفسهم معلّمين للشعب، إنّما يقودونه إلى الضلال والتهلكة.

وحينئذٍ التفت يسوع إلى الشعب، ودعاه. ولكي ينبّهه إلى خطورة ما سيعلنه، مهّد بقوله: «**اسمعوا وافهموا**». إنّه لن يُدلي بتفسيرٍ للشريعة مغايرٍ لتفسير الرابّيّين، بل سيعلن حقائق أساسيّةً جديدةً كفيلةً بنسف كلّ العقليّة اليهوديّة القديمة، وكلّ النظام الفكريّ الذي تقوم عليه فرائض التطهّر، التي وضعها الرابّيّون. سيعلن مقتضًى جديدًا، وطهرًا جديدًا، لا يمتّ بصلةٍ إلى حرف الشريعة.

وأطلق يسوع مبدأه الخالد: «**ما من شيءٍ ممّا هو خارج الإنسان، إذا دخل الإنسان ينجّسه، بل ما يخرج من الإنسان ينجّسه**» (مرقس ٧: ١٥).

هذا القول كان من الجدّة، والاستغلاق على العقليّات اليهوديّة، بحيث التمس بطرس، باسم رفاقه، تفسيره. ومرّةً أُخرى، أحزن يسوعَ بطءُ فهم تلاميذه لبديهيّات

تعليمه. فقد عوّدتهم تعاليم الرابّيّين على التلهّي بالقشور، والعزوف عن الجوهر. وتعبيرًا عن ضيقه فسّر لهم قوله تفسيرًا واقعيًّا، فجًّا، لا لَبْس فيه: «**أفأنتم أيضًا بلا فهم؟ ألا تفهمون أنّ ما يدْخُل الإنسان من خارج الإنسان لا يقدرُ أن ينجّسه لأنّه لا يدخُل في قلبه بل في جوفه ثمّ يذهب إلى الخلاء؟**» **بهذا الكلام أعلن أنّ جميع الأطعمة طاهرة. ثمّ قال لهم**: «**إنّ ما يخرُجُ من الإنسان هو الذي يُنجّسُ الإنسان. لأنّه من الباطن، من قلوب الناس، تنبعث النيّاتُ الشرّيرة: الفسقُ والسَّرقةُ والقتلُ، الزنى والطمع والخُبث، المَكرُ والفجور والحَسَد، الاغتيابُ والكبرياءُ والسفهُ. كلّ هذه القبائح من باطن الإنسان تخرجُ وهي تنجّسُه**» (مرقس ٧: ١٨- ٢٣).

بهذه الأقوال لم يكتفِ يسوع بإعلان أنّ جميع الأطعمة طاهرةٌ، بل أكّد أنّ القلب وحده هو مركز كلّ طهرٍ ونجاسةٍ، فهو مصدر الأفكار، والإرادة، والمشاعر، وهذه، وحدها، تتّسم بالطهر والنجاسة، وكلّ ما سواها خارجيٌّ لا يمسّ جوهر الإنسان.

الكَنْعَانِيَّة

(متّى ١٥ : ٢١-٢٨)

لا نعرف اسمها، فقد اكتفى الإنجيليّ متّى بوصفها «كنعانيّة». ولطالما مقت اليهود الكنعانيّين، إذ إنّهم لم ينسَوا ما بينهم وبين هذا الشعب من حروبٍ وعداواتٍ؛ ويصفها الإنجيليّ مرقس بأنّها سوريّةٌ فينيقيّةٌ. أي إنّها وثنيّةٌ، واحدةٌ ممّن يزدري اليهود ديانتهم وعباداتهم. ولا ريب أنّها لعبت دورًا جوهريًّا في اعتناق الوثنيّين للمسيحيّة، ويمكننا اعتبارها جدّتنا في الإيمان المسيحيّ.

كان يسوع يجتاز جنوب لبنان، كي ينأى بنفسه عن تعنّت زعماء اليهود، وإذا بها تلحق به، وهي تصيح: «**ارحمني، يا سيّدي، يا ابن داود! إنّ ابنتي بها شيطان يعذّبها عذابًا شديدًا**».

هي دعته، عفويًّا، «**ابن داود**»، في حين أنّ زعماء شعبه الدينيّين أنكروا عليه هذا اللقب! فهو لم يلقَ منهم سوى العداء والمهاترات، وتلك الوثنيّة رفعت إليه صلاةً حارّةً، ألهمها إيمانٌ واثقٌ، صادقٌ! ومع ذلك «**لم يجبها بكلمة**».

لمَ تصمت، يا يسوع، أحيانًا، عندما نلتمس منك تحريرنا، وتحرير أحبابنا من الشياطين التي تعذّبهم وتعذّبنا؟!

صمتَ يسوع لأنّه كان يأبى أن يظهر بمظهر صانع معجزاتٍ فحسب، في حين أنّه، قبل كلّ شيءٍ، مولّد إيمانٍ، ومحوّل نفوسٍ.

وغالبًا ما يصمت يسوع كي يوفّر لنا فسحةً من الوقت والحرّيّة، كي نؤكّد له أنّ إيماننا ثابتٌ رغم صمته.

تجاهُل يسوع للكنعانيّة لم يردعها، ولم يثبّط عزيمتها. بل ظلّت تلاحقه بصياحها وتوسّلاتها، إلى أن ضاق تلاميذه ذرعًا بها. فسألوه أن يلبّي طلبها ويصرفها، كي ينعتقوا من مضايقتها.

ما كان أبعد التلاميذ عن معلّمهم الطويل الأناة، المتمادي الصبر! فهو لا يصرف أحدًا إلاّ بعد أن يحاوره ويُعدّ نفسه للإيمان.

ألسنا ننزع، غالبًا، على غرار التلاميذ، إلى رفض الحوار، أو بتره، التماسًا للراحة، وهربًا من الإزعاج؟

وردّ يسوع على تلاميذه، بحيث تسمعه المرأة: «**إنّي لم أُرسَل إلاّ إلى الخراف الضالّة من بيت إسرائيل**». فعبور يسوع بأرضنا من الإيجاز والقصر بحيث آثر حصر رسالته في شعبه، على أن يستنفر منه من ينشرونها في كلّ أرجاء المعمورة. غير أنّ هذا الواقع لا يسوّغ صدّ امرأةٍ مستجيرةٍ، خلافًا لكلّ ما علّمه يسوع، وما برهن عليه طوال حياته، من رحمةٍ، وعطفٍ، ومحبّةٍ. وما شأن تلك الأمّ الملهوفة بتدبيرٍ يخصّه وحده!

هذا ما استشفّته تلك المرأة، بحَدْسها الثاقب، وبدافع حبّها لابنتها، فجاءت، وسجدت أمام المخلّص قائلةً: «أغثني يا سيّدي»، ولكأنّها لم تسمع اعتراضه.

حينئذٍ فقط كلّمها يسوع مباشرةً، ولكنّ قوله لها، اتّسم، ظاهريًّا، بقسوةٍ ما برحت، حتّى اليوم، تصدم الكثيرين، وتثير دهشتهم. فقد قال لها: «**لا يحسن أن يؤخذ خبز البنين، ويلقى للكلاب الصغيرة**».

وصفُ إنسانٍ بالكلب، في الشرق، إهانةٌ بليغةٌ، غير أنّ يسوع آثر عبارة «**الكلاب الصغيرة**» التي تعيش مع الأسرة، وتقاسمها طعامها، وتُعَدّ من «أهل البيت». ويبدو أنّه تعمّد استخدام هذه العبارة للتخفيف من قسوة جوابه، ولكي يفسح للمرأة سانحةً لجوابٍ مقنعٍ.

من سياق النصّ يتجلّى أنّ تلك القسوة لم تكن هي موقف يسوع الفعليّ، فكلّ حياته أثبت أنّه ربّ الرأفة والرقّة، وهو الذي علّم أنّ من ينعت أخاه بالأحمق يستأهل نار جهنّم. ومن ثمّ، فمن المحقَّق أنّه لم يتعمّد، بجوابه، جرح المرأة، ولكنّه تكلّم بلسان شعبه، كي يفضح موقفهم الصَّلِف والمتعالي من غير اليهود، ويُظهر، بالمثل الحيّ، خطَله.

فلا عجب، بالتالي، إن لم تنفر المرأة من ردّ يسوع، بل تذرّعت به وسيلةً لإقناعه بالاستجابة لمطلبها، وقد أكّد لها شعورها الداخليّ أنّ جفاء يسوع الظاهر كان يُخفي

رأفةً بلا حدودٍ، ورغبةً في تلقين اليهود درسًا في الإيمان الحقّ. وقد ردّت ببساطةٍ، وبراءةٍ، وثقةٍ: «**أجل، يا سيّدي! ولكنّ الكلاب الصغيرة تأكل من الفتات الذي يتساقط من موائد أصحابها**».

هل كان بوسع من أشبع الألوف خبزًا وسمكًا أن يضنّ على أمٍّ مستغيثةٍ ببعض فتاتٍ؟ وهل كان بمكنة من طالما دعا إلى الصلاة بلا كَلَلٍ ولا ملَلٍ، وعلّم: «**اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم**»، أن يمسك عن تلبية من صلّت بكلّ حرارة نفسها، وأن يوصد الباب دون من قرعته بكلّ طاقاتها؟ وهل كان بمقدور من أكّد لتلاميذه أنّ إيمانًا لا تشوبه ريبةٌ كفيلٌ بتحريك الجبال، أن يظلّ جامدًا حيال إيمانٍ لم يهزّه صمتٌ متجاهلٌ، ولم تثنِه قسوةٌ ظاهرةٌ، ولم يثبّطه رفضٌ مبدئيٌّ؟!

يسوع لا يفرض الإيمان، احترامًا لحرّيّة البشر؛ ولكنّ انعدام الإيمان يقيّد يديه فلا يقوى على إغداق نعمه على من يرفضونه. ولكنّه ضعيفٌ حيال الإيمان الوطيد الصادق، ولا مفرّ له من تلبيته.

وتلك الكنعانيّة زادها صمته إلحافًا في الطلب، وضاعف ردّه القاسي ثقتها ورسّخ إيمانها. ثلاث مرّاتٍ توسّلت. وثلاث مرّاتٍ صُدّت. ولكنّها لم تقنط، وبفضل ثباتها ورسوخ إيمانها، ظفرت بكلّ ما التمسته، وأصبحت للإيمان مثالاً وقدوةً.

لطالما نعى يسوع على اليهود جحودهم، وأخذ على تلاميذه وَهَن إيمانهم، ولكنّه، حيال تلك المرأة، لم يستطع إلاّ أن يعلن إعجابه بإيمانها، وتلبيته لملتمسها: «**يا امرأة عظيمٌ إيمانك! فليكن لكِ كما تريدين**». **ويضيف الإنجيليّ**: «**فشفيت ابنتها من تلك الساعة**».

تظاهر يسوع بالجفاء حيال توسّلات الكنعانيّة، مستخدمًا أقسى ما في لغة شعبه من ازدراءٍ للشعوب الأُخرى، كي يبيّن عقم اعتداد اليهود بأنفسهم، وافتقارهم إلى ما يبرّر امتيازاتهم؛ وكي يبرز صلابة إيمان تلك الوثنيّة. ثمّ أعلن إكباره لإيمانها، ناسفًا الحواجز والتخوم بين الأُمم والشعوب، ومؤكّدًا أنّ الله هو لجميع خلائقه، متخطّيًا آفاق شعبه الضيّقة، ومشرعًا شموليّةً لا حدود لها، ستندفع، من خلالها، رسالته، كي تغمر الكون.

* *

مرَّةً أُخرى أزرى يسوع بكلّ تقاليد الأسلاف. فما من آراءٍ مسبّقة تقيّده. تلك المرأة المتألّمة، المولّهة، الواثقة بقدرات يسوع، كانت أقوى من كلّ تقاليد اليهود وادّعاءاتهم. فتقبَّلَها الربُّ على مائدةٍ لا تنضب، حيث فتاتٌ من خبز الله، أثمن، وأغنى غذاءً من كلّ طعامٍ بشريٍّ، محطّمًا حدودًا دهريّةً، وراسمًا صورةً للعالم الجديد الذي جاء يشيّده، حيث «لا يهوديّ ولا وثنيٌّ».

لنا، نحن المسيحيّين، كلّ إنسانٍ هو أخٌ، وكلّ إنسانٍ دعاه يسوع إلى ملكوت الله الذي لا يحتكره أحدٌ، وكلّ إنسانٍ هو مختار الله.

يسوع تخطّى الحدود بلا رجعةٍ. ولكن كم من الحدود ما زال يتوجّب علينا تخطّيها، اليوم!

هذه الكنعانيّة جديرةٌ بأن تُدعى بطلة الإيمان، بفضل ما أبدته من عنادٍ في الثقة، ومن إصرارٍ في الالتماس. ولكنّها لو استُوضِحت عن الإيمان لما استطاعت الردّ بأيّ شيءٍ. كذلك كان شأن ذلك الضابط الرومانيّ الذي قال عنه يسوع إنّه لم يجد لدى أحدٍ في إسرائيل مثل إيمانه. فالإيمان، قبل أن يكون نصًّا، و«قانونًا»، واعتناقًا لمجموعة عقائد، هو، جوهريًّا، المضيّ نحو يسوع، والمراهنة عليه، بكلّ حياتنا.

يسوع يفرح بتلبية ملتمساتنا، على أن نقدّمها له ببساطة الإيمان، وجرأته، وثباته، وإصراره. وعندما يصبح طلبنا، على هذا النحو، تقدمةً، نوفّر ليسوع فرصةً لإظهار حبّه، ولمنحنا خلاصًا مجّانيًّا.

إنّ آلام من نصلّي من أجلهم، والتي نقدّمها لحبّه الرؤوف، يعرفها الآب، فهي محفورةٌ في جسد ابنه الحبيب، فكيف لا يبادر إلى شفائها، بسكبه عليها روحه المعزّي، الذي أنهض يسوع من الموت؟

فلنقل له: «**ليكن لي حسب قولك**» كي نسمع منه: «**ليكن لك ما تريد**»!

«مَنْ أنا؟»

(لوقا ٩: ١٨-٢٤)
(مرقس ٨: ٢٧-٣١)
(متّى ١٦: ١٣-٢٠)

إنّها من المرّات النادرة التي ينفرد فيها يسوع برسله، بمنأًى عن الجموع. وقد انتهز تلك السانحة كي يتقصّى إيمانهم، إذ إنّه على هذا الإيمان سيُقيم دعائم كنيسته، وعليه يعتمد استمرار رسالته.

إنّنا غالبًا ما نعايش قومًا ونظلّ نجهل دخيلة سرائرهم. وإن كان يتعذّر علينا التوغّل إلى طوايا البشر، فكيف للتلاميذ البسطاء اختراق سرّ إلهٍ متجسّدٍ وإنسانٍ إلهيٍّ؟

ويسوع، بعد نحو سنةٍ ونصفٍ من التبشير والمعجزات، أجرى استبيانًا: «**ماذا يقول الناس عنّي؟**» وإذ بعامّة الشعب الذين شاهدوه، وشهدوا معجزاته، وسمعوا أقواله، يعترفون انّه ليس إنسانًا عاديًّا، ويرون، فيه، تجسيدًا لأحد الأنبياء الأقدمين، بل لأعظمهم، إيليّا، الذي كان يُعتقد أنّ عودته إلى الأرض ستمهّد لمجيء المسيح.

إلاّ أنّ سؤاله هذا لم يكن سوى تمهيدٍ لسؤاله الآخر الموجّه إلى تلاميذه: «**وأنتم من تقولون إنّي هو؟**» بُغيةَ التأكّد من أنّهم أعمق فهمًا له من عامّة الشعب، وبُغيةَ تحريضهم على إعمال الفكر والقلب، والاستنتاج والفهم. إذ ليس من اليسير على إنسانٍ من لحمٍ ودمٍ، وبمجرّد أنوار عقله، أن يستشفّ إلهًا، وابنًا لله، في جسدٍ بشريٍّ. فالعقل البشريّ عاجزٌ عن الإلمام بالله، الذي يتخطّى كلّ شيءٍ: «**لا أحد يعرف الله إلاّ الابن، ومن شاء الابن أن يكشف له**» (متّى ١١: ٢٧).

كان يسوع قد أمضى ليلته مناجيًا أباه، شأنه كلّما اعتزم الإقدام على عملٍ جسيمٍ، ممّا يشير إلى أنّه كان يعلّق على جواب تلاميذه أهمّيّةً قصوى. فهو اقتصر على نثر بذور رسالته، وعلى تلاميذه أن يرعوا نموّها وانتشارها، ويواصلوا ما بدأ به. فلا بدّ من إلمامهم بحقيقة هويّته ورسالته. وقد تفجّر سؤاله من صمته، وتأمّله، وصلاته.

وكان قد وجّه سؤاله للرسل جميعهم، ولكنّ بطرس هو الذي انبرى للإجابة، لأنّه الناطق باسمهم، وأكثرهم عفويّةً واندفاعًا.

الإنجيليّ مرقس يقتصر، من جواب بطرس، على قوله: «**أنت المسيح**»، فهذا القول يعني كلّ شيءٍ: أي إنّه مفوَّضٌ بكلّ قدرات الله وسلطته، وآخر مرسليه، وليس بوسع أحدٍ ممّن قد يأتون بعده مضاهاته؛ كلامه هو آخر ما يتوجّه به الله إلى البشر؛ وهو الآية الكبرى التي يظهرها لهم.

أمّا الإنجيليّ متّى فيورد جواب بطرس كاملاً: «**أنت المسيح، ابن الله الحيّ**». لم يعنِ بطرس أنّ يسوع هو ابن الله بالمعنى المجازيّ الواسع الذي يشمل جميع البشر، بل عناه بالمعنى الحصريّ، أي ابن الله الوحيد، كما يُستدلّ من قول يسوع له: «**طوبى لك، يا سمعان بريونا! لأنّه ليس اللحم والدم كشفا لك ذلك، بل أبي الذي في السماوات**». فاعتراف بطرس لم يكن استنتاجًا منطقيًّا، بل كان لا بدّ من وحيٍ إلهيٍّ يكتشف، في إنسانٍ من لحمٍ ودمٍ كسائر البشر، ابن الله الوحيد.

جواب بطرس اعترافٌ بأنّ يسوع هو مركز تاريخ البشريّة، ألفها وياؤها، وأنّه هو الذي يقود الأجيال إلى الاكتمال في الله، لأنّه، هو، آتٍ من الله، إنّه ابن الله، حقًّا، وليس أحد الأصنام الجامدة الخرساء، التي يصطنعها البشر لكي يكلّموا أنفسهم من خلالها، بل هو الله الذي لا ينفكّ كلامه فاعلاً في الأحداث التي تصنع التاريخ، مؤثّرًا فيها.

إنّ اعتراف بطرس، بما له من أثرٍ حاسمٍ على مصير البشر، لا يمكن أن يأتي إلاّ من الروح. وقد شكر يسوع لأبيه هذا الوحي، وبارك سمعان بن يونا، وأطلق عليه اسم «صخرٍ»، لأنّه على الإيمان الذي أعلنه سيشيّد جماعة مؤمنيه، وسيبني كنيسته، وسيحصّنها ضدّ شتّى هجمات الشرّير، وقوى الجحيم، وسيوكل إلى زعيم رسله مفاتيح ملكوته، وسيوليه صلاحيّة الحلّ والربط، ومسؤوليّةً تتخطّى قوى البشر. إنّه إيمانٌ فائق القدرة يُشرع أبواب السماء كي ينحدر منها الروح، ويشرع قلوب البشر كي يسكنها هذا الروح.

اعتراف بطرس كان صدًى لإعلان الآب، لدى اعتماد يسوع على يد يوحنّا، في الأردنّ: «**هذا هو ابني الحبيب**». وردًّا على هذا الاعتراف، أطلق يسوع على زعيم

رسله اسمًا جديدًا، اسم عمادٍ واعتمادٍ، علامة ولادةٍ جديدةٍ، يصبح بها اللّه قِوام حياة العالم. فيسوع ليس فقط، مثلاً يُحتذى، أو زعيمًا يُشرك أتباعه في سلطاته، بل هو النسغ الإلهيّ الذي يروي شجرة البشريّة الوارفة الظلال.

لقد توسّم بطرس المسيحَ في وجه يسوع، يوم كان يسوع ما زال يذرع دروب الجليل، وكان ذلك بوحي من اللّه. غير أنّ نظرته الذاتيّة إلى المسيح كانت ما زالت مشوبةً بذهنيّة شعبه المتطلّعة إلى مسيحٍ أرضيٍّ، سياسيٍّ، عنصريٍّ، يعيد للأمّة اليهوديّة سطوتها السياسيّة، ونصاعتها الدينيّة، ويوفّر لها الازدهار المادّيّ؛ ولذلك، تبديدًا لهذه الأوهام، وتقويمًا لهذا الضلال، سارع يسوع إلى الإعلان، أمام تلاميذه، أنّ عليه أن يُسام العذاب، ويُهان، ويُصلب، قبل أن يُثبِت ألوهته بالقيامة. واستفظع بطرس هذا القول، وحاول محوَه، وحَمْلَ يسوع على الرجوع عنه، فأنّبه المعلّم بعنفٍ، ووصفه بأنّه إبليس، لأنّه يقاوم مخطّط اللّه الخلاصيّ، وقال له: «**إنّ أفكارك ليست أفكار اللّه، بل أفكار البشر**». ولكأنّه كان يسمع، في اعتراض بطرس، صدًى لتجربة إبليس في الصحراء، يوم عرض عليه ممالك الدنيا كلّها وأمجادها، مقابل تخلّيه عن فكرة الصليب.

لفظة «المسيح» ملتهبةٌ، حارقةٌ. فلطالما انتظر اليهود هذا المرسل، وتراكمت حول اسمه أهراماتٌ من أحلامهم. وكانت شحنة الأمل العالقة به، على قدرٍ جمٍّ من الطاقة المتفجّرة. وها هوذا ماثلٌ أمامهم، وبوسعهم تأمّله، ولمسه، وتخمين القدرات المعجزة الكامنة فيه.

وإذ به يتحدّث عن الألم، والموت المهين، ويوقع تلاميذه في بحرانٍ من الحيرة.

بطرس تعرّف المسيح في شخص يسوع، ولكنّه أخطأ في تعرّف أوصافه!

كان إيمان بطرس ما زال هشًّا، ولكنّه كان انطلاقةً إلى إيمانٍ جمٍّ، راسخٍ، نيّرٍ، لأنّ مهمّته أن يكون صخرًا، وحجر أساس الكنيسة. وقد يُعذَر بطرس لأنّه كان ما برح يجهل أنّ الخلاص يتحقّق عبر الصليب، الذي سيُسبغ على حياة يسوع ملء معناها. ولكن ما عذرنا نحن، وقد شهدنا الصلب، والقيامة، وحلول الروح القدس، وما زالت أفكارنا أفكار بشرٍ لا أفكار اللّه؟ أوَلا يستأهل كلٌّ منّا سماع تأنيب يسوع: «ابتعد عنّي، يا شيطان، أنت عقبةٌ في طريقي»؟ فكم، منّا، من ينفرون من

الصليب، ويأخذون على الله ما يرونه فيه عجزًا وصمتًا؟ وهل إلهنا هو إله الإنجيل، أو إلهٌ يصانع أهواءنا؟ هل هو إله يسوع، أو إله الدروب السهلة التي نخطّها لأنفسنا؟ ألسنا نجد إله الصليب لا يُطاق، ونجد يسوع مزعجًا، كثير الاقتضاء؟

أوَلم يكن يسوع عندما سأل تلاميذه: «وأنتم من تقولون إنّي هو؟»، يسألهم، أيضًا، ويسألنا، من خلالهم: «وما تعتقدون أنّكم، أنتم؟ ما هو معنى حياتكم، وما هو هدفها؟ أَمتعةٌ، وعبثٌ، وأنانيّةٌ، تفضي إلى التهلكة، أم صليبٌ، وبذلٌ بلا حدودٍ، يؤدّيان إلى القيامة؟».

سؤالٌ يجتاز العصور، ويسائل مليارات الضمائر: **«وأنتم من تقولون إنّي هو؟»**.

عبر التاريخ لم يُحَبّ أحدٌ كما أُحِبّ يسوع، فقد أشادت القارّات الخمس باسمه، وسكن وجهه قلوب الأفراد والجماهير. ولكن من يُمعن في اكتناه شخصه؟ اسمُه يُبجَّل، بيد أنّ أقواله وأعماله قلّما تهزّ الضمائر، وتزعزع الأوضاع الشاذّة الراهنة. يُنتظر منه كلّ شيءٍ في الدنيا والآخرة؛ ولكن ما أقلّ الذين يناضلون من أجل تغيير العالم، ودفعه في تيّار الإنجيل! يُلفظ اسمه بشَغَف، ولكن، كم هم الذين ينهجون الدرب الذي اشتقّه؟

كلٌّ يحاول، اليوم، احتكار يسوع، كي يدعم به مذهبًا أو بدعةً، بحيث بات يسوع جمعًا، والإنجيل أناجيل، كثيرٌ منها حربٌ على يسوع الحقّ، وعلى تعليمه.

فكم من التشويهات والخيانات، وكم من الخطوط غير المقروءة تموّه وجه يسوع، قاهر الموت، الذي يقوّض جدران المدى، ويُشرع الزمن على المستقبل، ويتخطّى جميع الإيقونات مجتمعة!

منذ عشرين قرنًا ما انفكّ البشر مكبّين على الحجر واللوحة، وعلى صلصال الفكر، كي يستنبطوا منها صورةً تعكس وجه الإله الإنسان. ولكنّ البشر عجزوا، حتّى اليوم، عن الاهتداء إلى إجابةٍ نهائيّةٍ على سؤاله: «من أَنا، في نظركم؟». وما انفكّ هذا السؤال يُطرح على كلّ جيل؛ وكلُّ جيلٍ يسعى إلى الردّ عليه، ولكن لم يُفلح أيّ جيلٍ في التعبير، تعبيرًا كاملاً، عن هويّة يسوع التي لا تنضب. بل إنّ كلّ حقبةٍ تتبيّن أنَّ يسوع أكبر من إنجازاته. وعندما تأتي أزمنةٌ جديدةٌ كي تعيد صوْغ حياة البشر، يستعيد سؤال الناصريّ نضارته وإدهاشه: «من أنا، في نظركم؟» ولكأنّه

جاء، ويجيء باستمرارٍ، خميرةً، وأفقًا، وتنبّؤًا بما سيحدث، كائنًا يوسّع آفاق الإنسان.

لقد لاقى يسوع نجاحًا، وفي الآن عينه، قوبل بالشكّ والبغض، وكان الجميع يتساءلون عمّن يكون. أمّا هو فدأب على إعلان «ملكوت اللّه» الذي سيغيّر وجه الأرض، فكان يحيا، ويتكلّم، ويعمل، ملتفتًا إلى هذا المستقبل، وجلّ مبتغاه أن يتلاقى البشر مع اللّه، «أبيه».

لم يستكن، يومًا، إلى مظاهر الاندفاع الشعبيّ، فلا بدّ من وقتٍ طويلٍ لاكتشافه، والاعتراف بفرادته، ولا بدّ من السير معه، مسافاتٍ متماديةً، قبل الشروع بمعرفته.

كان اليهود يرون فيه أحد أنبياء العهد القديم، وقد جاء لكي يعيد الملك لإسرائيل، قادمًا من الماضي، ولا شخصيّة خاصّةً له، ولم يَجُلْ بخَلَدهم احتمال وجود مستقبلٍ جديدٍ كلّ الجدّة، ونشوء عهدٍ قشيبٍ. غير أنّ بطرس أجاب: «**أنت المسيح، ابن اللّه الحيّ**»، ولو أنّه لم يكن، بعدُ، مستوعبًا أبعاد جوابه، ومكتنهًا معناه الحقّ.

وسيكون يسوع فعلاً «المسيح، ابن اللّه الحيّ»، ولكن بطريقة لم يتوقّعها حتّى رسله. فبين اعتراف بطرس، وتجلّي هويّة يسوع الحقّة، امتدّ درب الصليب، وكانت الجلجلة هي السبيل إلى المستقبل، وظهر يسوع، في أصيل يوم جمعةٍ ربيعيٍّ، أكبر من الموت، وأكبر من الحياة.

وسرعان ما أدرك الجيل المسيحيّ الأوّل أنّ صلب يسوع لم يكن فشلاً، بل تحقيقًا لمشروعٍ إلهيّ مُعَدٍّ منذ الأزل، أعلنه الأنبياء، وصوّر بعضهم بدقّة «رجل الآلام» المخلّص. وتبيّنوا، في مسلك يسوع، طريقَ نورٍ يدعو البشر إلى تجاوز ذواتهم باستمرارٍ، وإلى بذل حياتهم، في سبيل إنجازاتٍ ساميةٍ.

ولكن هل يدرك، اليوم، أتباع يسوع حقيقة هويّته؟ ألا يُسندون إليه مصالحهم وأهواءهم، كي يستمدّوا من اسمه ضمانًا؟ ألا يدّعون حضارةً «مسيحيّةً»، وهم يتوغّلون في العنف والاستغلال؟ أوَلا يقودون حركاتٍ يصفونها بالمسيحيّة، في حين أنّ غاياتها ووسائلها بعيدةٌ عن الإنجيل؟ ألا يتوجّب علينا أن نتعلّم، من جديدٍ، مَن هو يسوع؟

لقد عرّف يسوع عن نفسه بعباراتٍ من حياةٍ وموتٍ، وقيامةٍ. ووحدها حياتنا المسترشدة بحياته كفيلةٌ بأن تُسبغ على شهادتنا ليسوع صبغة الصدق.

فوحدهم القدّيسون هم الذين بلوروا، وما برحوا يبلورون، ملامح سنيّةً وأصيلةً لوجه يسوع، تشعّ بأنوارٍ متألّقةٍ.

على غرارهم، علينا اليوم أن نسجّل في صلصال البشريّة، وعلى دروب الوجود، جوابنا على سؤال يسوع، الذي ما فتئ حضوره، بعد ألفَين من السنين، ينمّي إنسانيّتنا ويخصبها. وعلينا أن نمضي، أبدًا، قُدُمًا في اكتشاف وجهه، وجه الإله الإنسان، في خضمّ الاضطرابات السياسيّة، وفي قلوب أكثر البشر اتّضاعًا، وفي محيط بشريّةٍ لم تبلغ، يومًا، ما بلغته، اليوم، من كثافةٍ، وتفجّرٍ سكّانيٍّ، وقلقٍ.

لو سألَنا يسوع، اليوم: «في نظركم، أفرادًا وجماعاتٍ، من أنا؟» لتفادينا الردّ، بمزيجٍ من الكسَل والخوف، خوفٍ من تبيّن كم يسوع مختلفٌ في أذهان الناس وقلوبهم، وخوفٍ من أن نواجه أنفسنا، فالإجابة الصادقة على سؤال يسوع، توجب التساؤل عن الذات.

وإن كان يسوع لا يهزّنا إلاّ قليلاً، فلأنّنا لا نتساءل عن هويّته، ولأنّنا لا نعيد النظر في الصورة التي كوّنّاها عنه. وإن كان لا يُحدث فينا سوى تغييرٍ طفيفٍ، فلأنّنا لا نتبيّن، بصراحةٍ ونزاهةٍ، نوع العلاقة التي نعقدها معه.

من هو يسوع؟ من هو شخصه؟ ما هي هويّته التي لا يُسبَر لها غورٌ، ولا يُعبَّر عنها بكلماتٍ مهترئةٍ، محتضرةٍ؟ سؤالٌ منعشٌ مخصبٌ، إن نحن أصغينا إليه، بحياتنا وسلوكنا، وفي صمتنا الداخليّ الذي يمهّد للقاءٍ في رحاب الحقّ.

التّجلّي

(متّى ١٧: ١–٩)
(مرقس ٩: ٢–٩)
(لوقا ٩: ٢٨–٣٦)

كان طيف الصليب قد شرع يلوح في الأُفق، ويسوع يجهد في إكمال تثقيف تلاميذه. هويّته قد اتّضحت لهم، إثر اعتراف بطرس، بوحيٍ سماويّ: «**أَنت المسيح ابن الله الحيّ**».

غير أنّ مفهوم التلاميذ للمسيح كان ما برح مصطبغًا بالمفهوم اليهوديّ الذي يرى المسيح قائدًا سياسيًّا، وفاتحًا لا يُقهر، يسحق الأعداء، ويغمر بني إسرائيل بالأمجاد والازدهار المادّيّ.

وحاول يسوع محو هذا التصوّر، فأَلمح، فور اعتراف بطرس، إلى ما سيتعرّض، هو، له من مهانةٍ وصلبٍ. ولكنّ التلاميذ، بلسان بطرس، رفضوا مجرّد تصوّر ذلك المآل.

ولكيلا يطيح الصليب بإيمان تلاميذه به، استصحب الثلاثة منهم، الأوثق قربًا منه، أولئك الذين كان قد اختارهم ليشهدوا إقامة ابنة يئير من الموت، والذين سيختارهم ليشهدوا نزاعه في جبل الزيتون. وتسنّم معهم قمّة جبلٍ، قد يكون هضبة طابور، وقد يكون إحدى هضاب الحرمون. والجبل غنيٌّ بالرموز اللاهوتيّة، فعلى جبالٍ جرت الأحداث العظمى في حياة يسوع، وفي حياة الأنبياء.

نأى يسوع عن السهل والجموع، وسرعان ما أزال نسيم الجبل المنعش نَصَب التصعيد تحت وطأة القيظ. واستولى السبات على التلاميذ، في حين انتحى المعلّم ليصلّي، في صمتٍ بكرٍ يقطنه الله.

وبغتةً، استيقظ التلاميذ على نورٍ ساطعٍ غمر المكان، كان ينبعث من محيّا يسوع، ومن ثيابه، ومن كلّ كيانه، ولكأنّه إنسانٌ آخر. فقد أشرق شيءٌ من طبيعته الإلهيّة، محطِّمًا القناع الذي فرضته عليه الطبيعة البشريّة التي اعتنقها، ممّا يفسّر ذهول التلاميذ، وحيرة الإنجيليّين في وصف ما حدث. ذلك التجلّي كان تأكيدًا للطبيعتين الإلهيّة والبشريّة في يسوع. وقد عبّر عنه الإنجيليّون بالنور الساطع. فهذا النور هو علامة الألوهة، يشعّ ممّن يمسّهم الله، وممّن يقيم في داخلهم.

وإلى جانب يسوع، رأى التلاميذ موسى وإيليّا، ممثّلَيْ العهد القديم، ممثّل الشريعة، وممثّل النبوّة، و«**تحدّثا بانتقال يسوع المزمع أن يتمّ في أورشليم**»، ذلك الانتقال الذي سيستهلّ العهد الجديد. لحظةٌ فريدةٌ في سناها وبُعد معناها، تمنّى بطرس لو يلجمها، ويوقفها في مكانها إلى الأبد. وفي عفويّته واندفاعه قال للمعلّم: «**إنّه لحسنٌ أن نكون ههنا، يا ربّ، فإن شئت صنعتُ ههنا ثلاث مظالّ، واحدةً لك، وواحدةً لموسى، وواحدةً لإيليّا**». وربّما خيّل لبطرس أنّه لو فعل ذلك، لأبطل إلى الأبد فكرة صلب المعلّم. لقد أراد ترويض حَدَثٍ إلهيٍّ بما يتلاءَم وخفقات قلبه، وذهل عن أنّ الله لا يمكن سجنه في مكانٍ، فهو يقطن غمامةً مرتحلةً، وهو، دائمًا، يضرب على دروب الحياة والموت، والنور والظلمة، نحو نواة الوجود.

وما لبثَ بُطرس أن فطن إلى هذا الواقع، إذ «**فيما هو يتكلّم ظلّلتهم غمامةٌ نيّرةٌ، وإذا صوتٌ من الغمامة يقول: هذا هو ابني الحبيب، الذي به سررت، فله اسمعوا**».

الغمامة هي رمزٌ لحضور الله. والمفارقة أنّها غمامةٌ تظلّل، وهي في الآن عينه نيّرةٌ. إشارةٌ وحجابٌ معًا. هكذا هو الله، نستطيع أن ندرك منه شيئًا، وتظلّ تغيب عنّا أشياء.

ولا بدع إن استولت الرهبة على التلاميذ «**فسقطوا على أوجههم، وخافوا خوفًا شديدًا**». فقد لمسوا حضور الله وسمعوا صوته، وهم قد نشأوا على الاعتقاد بأنّ من يرى الله يموت. وسارع يسوع إلى لمسهم، وإنهاضهم، وتهدئة روعهم، وإفهامهم أنّ الألوهة حبٌّ ورقّةٌ، وخلاصٌ، وحياةٌ، وليست ترويعًا، وإرهابًا، وموتًا.

لقد كان التجلّي دليلاً على التحوّل الجذريّ من عهدٍ إلى عهدٍ، وعلى تبدّلٍ عميق

الغور في النفوس والعقول. فالنور الذي كان يشعّ من موسى كلّما شاهد الله، كان انعكاس نور الله عليه. أمّا النور الذي أشعّ من يسوع، في تجلّيه، فكان ينبعث من كيانه.

وموسى تلقّى الشريعة وسط البروق والرعود، أمّا يسوع فأعلن شريعته في وداعةٍ وسكونٍ، وعذوبةٍ، وقد خلا تجلّيه من الرعب الذي وسم لقاء موسى بالله في سيناء، مبرزًا سجوّ ابن البشر المغمور بالتواصل مع الآب. لقد تجلّى مجده في الخلوة والصمت، بعيدًا عن كلّ جلبةٍ.

وصوت الآب أعلنه وريث الماضي، وسيّد المستقبل.

* *

لقد حوّل تجلّي يسوع نظرتنا إلى الله والألوهة تحوّلاً جوهريًّا. فقبله كان الله قوّةً خفيّةً تستخدم، أحيانًا، ناطقين باسمها، أو إشاراتٍ معبّرةً عن إرادتها. وكان على البشر أن يستعطفوها بالتوسّل والأضاحي. أمّا يسوع فقد أعلن إلهًا لا يطالب بأضاحٍ، ولا يساوم البشر، ولا يطالبهم إلاّ بالمحبّة، ويهبهم كلّ شيءٍ حبًّا بهم.

لقد أسبغ يسوع على نظرتنا إلى الله وجهًا بشريًّا، وجه قربٍ وحميميّةٍ، خلا منه العهد القديم.

لقد تجلّى إلهًا حقًّا، وإنسانًا حقًّا، إيقونةً مطلقةً، جوهريّةً، تضفي على اللامرئيّ وجهًا، وعلى فائق الوصف اسمًا. به تأنّس الله، وبه تألّه الإنسان.

وجاءت قمّة التحوّل في صوت الآب وأمره. فبعد أن أكّد قوله السابق في أثناء عماد يسوع، : «**هذا هو ابني الحبيب، الذي به سررت**»، أضاف أمرًا حوّل مجرى التاريخ، إذ قال: «**فله اسمعوا**».

«**له اسمعوا**»، أي إنّ يسوع هو ابني، ذاتي، يتكلّم بسلطةٍ تفوق، بلا قياسٍ، تلك التي كانت لموسى وإيليّا. قديمًا كان الأنبياء، المرسلون من قِبَلي، هم الذين يبلّغونكم إرادتي. أمّا وقد وافاكم ابني هذا، فمنه ستستمدّون، منذ الآن، كلّ معرفةٍ. ووفقًا لتعليمه ستنهجون، وستعبدوني. ها إنّي أقول ذلك بحضور موسى وإيليّا معلنًا

أنّ العهد القديم قد أدّى دوره وانطوى، وأنّ على المؤمنين أن ينتقلوا إلى مرحلةٍ جديدةٍ من العبادة والسلوك، يرسم معالمها ابني نفسه. فعلى كلّ ملتمسٍ للخلاص الالتزام بتعاليمه.

بعد ذلك لن يتكلّم اللّه، فقد أوكل الكلام لابنه، وما على البشر أن يتوقّعوا من اللّه سوى كلام ابنه.

لقد جلجل صوت الآب معلنًا: «هذا هو ابني الحبيب، فله اسمعوا». أمرٌ إلهيٌّ يترجّع صداه جيلاً فجيلاً. أمرٌ مطلقٌ، أسمى، كلّ ما سبقه وما سيليه إن هو إلاّ صدًى لـه. يسوع هو كلمة اللّه. فيه تتمّ وتتحقّق كلّ نبوّةٍ. ويصبح الدين مقتصرًا على الإصغاء إليه، والعمل بوصاياه.

فقد تحقّق الوعد والرجاء، وباتت مشيئة اللّه هي سماع هذه الكلمة، والعمل بها.

«**إسمعوا لـه**» يقول الآب. فلم يعد لديّ ما أعلنه. هو كلمتي كلّها، وكلّ جوابي على تساؤلاتكم مدى العصور. لقد وعدتكم به، وها إنّي قد نفّذت، به، وعدي. من كان يرجو فقد تحقّق رجاؤه. ومن كان يَنشد الحكمة، فها هي ذي الحكمة المطلقة. والحكيم هو من يصغي إليها، ويعمل بهديها.

«**له اسمعوا**»: له أَصغوا بانتباهٍ، فهو مصدر الحقّ والحياة. فآمنوا به، وبتعليمه التزموا. «**له اسمعوا**»: وسدّوا آذانكم عن نقيق غربان الفناء.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

يقول الإنجيليّ متّى: «**أخذ يسوع معه بطرس، ويعقوب، ويوحنّا أخاه، وصعد بهم وحدهم على جبلٍ عالٍ، وتجلّى قدّامهم**».

كلماتٌ على جانبٍ كبيرٍ من البساطة. غير أنّها تنتقل بأصدقاء يسوع من عالم الحزن والغمّ إلى عالم البسمة الداخليّة، والبهجة؛ من العتمة الكثيفة المرهقة إلى النور الرقيق المشعّ، لا النور الذي يبهر ويُعمي، بل النور اللطيف الشفّاف، الذي يبدّل النظر، النور الدافئ الذي يغمر القلب، ويضيئه من الداخل، ويرسم على المحيّا قسمات جمالٍ بلا حدودٍ.

لحظةٌ فريدةٌ، حيث الجزء اللامرئيّ من الكائن الأسمى يتجلّى في أسنى جوهره. لحظةٌ يغدو فيها الوجه انعكاسًا مضيئًا للكلمة التي لُفظت في صمت الجبل، وهي، بالطبع كلمة حبٍّ، فبالحبّ وحده يتجلّى الإنسان.

لقد كان التجلّي، للتلاميذ، فسحة نورٍ وفرحٍ في جوٍّ مكفهرٍّ أشاع فيه الاضطرابَ إنباءُ يسوع بموته المهين الوشيك. لقد شاء المعلّم أن يحصّنهم من الخيبة والشكّ اللّذين قد يغزوان نفوسهم، لدى رؤية مذلّته وصلبه. لقد تجلّى قدّامهم وجهه وجسده قبل أن يُشوَّها، لكي يؤمنوا بأنّ موت معلّمهم لن يكون نهاية مغامرةٍ عابرةٍ، بل بداية حياةٍ جديدةٍ للخليقة، فاللّه الثاوي في ذلك الجسد، كفيلٌ بقهر الموت.

لقد توخّى أن يُظهر لمن سيكونون، بعد أيّامٍ معدوداتٍ، شهود نزاعه، في ما بعد، ثمّ، أعمدة كنيسته، حقيقة هويّته ومجده، وقدراته الإلهيّة. فكلٌّ منهم سيواجه مِحَنًا مضنيةً، ولكنّهم سيتخطّونها بفضل ذكرى تلك اللحظات الخاطفة التي عاينوا، فيها، مجد يسوع، وسمعوا صوت الآب.

لهم أيضًا قال الآب: «**له اسمعوا**»، أي لا تعترضوا على آلامه وصلبه، ولا يكونا لكم عثرةً ومبعث شكٍّ، ففيهما فداء البشر.

ولكيلا تغشى أمجاد التجلّي أنظارهم، وتولّد لديهم الأوهام، بادر يسوع إلى تذكيرهم بأنّه ماضٍ إلى أورشليم لكي يتمّم مهمّته، ويلقى مصيره المأساويّ. فالتجلّي والآلام يتقاطعان: الرهبة عينها، والاستسلام عينه لمشيئة الآب، والشهود أنفسهم الذين شاء المعلّم إعدادهم لصدمة الصليب بمجد تجلّيه.

وفيما كانوا منحدرين من الجبل فرض يسوع على تلاميذه إبقاء ما شاهدوه طيّ الكتمان. فعلى أقوال اللّه وأفعاله أن تنفذ إلى أغوار النفوس حيث تختمر وتنضج في الصمت والتأمّل، وتنحفر ذكراها في الأعماق، لكي تظلّ فاعلةً مدى الحياة. بيد أنّ يسوع اقتضى صمتًا مؤقّتًا، ريثما يتجلّى مجده، نهائيًّا، بالقيامة. وحينئذٍ لن يعود مباحًا لهم أن يصمتوا. فبعد تواري ممثّلي العهد القديم، بات على بطرس، ويوحنّا ويعقوب، ورفاقهم، وخلفائهم، أن يسيروا، ثابتي الأقدام، على درب العهد الجديد، في إثر يسوع، وإشعاع أنوار تجلّيه وقيامته في كلّ أصقاع المسكونة.

تجلّي يسوع كان توطئةً لتجلّي البشر، كي يشعّ منهم روح اللّه. فحفرة القبر ليست

نهاية الإنسان الذي أُعطي أن تتجلّى نفسه في الله، إلى الأبد، على حدّ قول الرسول بولس: (فيليبي ٣: ٢٠ – ٢١) «**أمّا نحن فموطننا في السماء، ومنها ننتظر مخلّصنا الربّ يسوع المسيح الذي سيحوّل جسد هواننا إلى جسدٍ على صورة جسد مجده، بتلك القدرة التي تمكّنه من أن يُخضِعَ لنفسه كلّ شيءٍ**». وقال أيضًا: «**نحن جميعًا، والوجه سافرٌ، نعكس كما في مرآةٍ، مجد الربّ، فنتحوّل إلى تلك الصورة بعينها المتزايدة البهاء، بحسب فعل الربّ، الذي هو روحٌ**». «**لأنّ الإله الذي قال:** «**ليشرق من الظلمة نورٌ**»، **هو الذي أشرق في قلوبنا، لكي تسطع فيها معرفة مجد الله، المتألّق في وجه المسيح**» (٢ كورنثس ٣: ١٨ و٤: ٦).

في هوّة وهننا، وفي ضعة هواجسنا، وخطيئتنا، وجسدنا، كلّ إنسانٍ هو سنى الله، في ابنه الوحيد يسوع، وهو محبوبٌ في حبيب الآب، الذي يرى، في كلّ إنسانٍ، بشريّة ابنه، ولكلّ مؤمنٍ يعلن: «**أنت ابني الحبيب**».

فلنكتشف هذا السنى، وهذا الحبّ في ذواتنا، وفي من يحيقون بنا، ولنتأمّل وجه الله بتسلّلنا إلى عينيه.

ولننصُب، فوق رتابة حياتنا اليوميّة، جبلاً صغيرًا مقدّسًا، نستسلم، عليه، للتجلّي، بتأمّل المتجلّي.

تأمّلاتٌ في التّجلّي [1]

١ - شمسٌ داخليّةٌ

(لوقا ٩: ٢٨-٣٦)؛ (متّى: ١-٩)

هناك شمسٌ أُخرى يجهلها الكثيرون، شمسٌ داخليّةٌ، تتخطّى كلّ شيءٍ، قريبةٌ بقدر ما هي بعيدةٌ. قد نستشفّ قربها في ألق نظرةٍ، وفي وجوهٍ معرَّضةٍ لإشعاعها. والذين يتوجّهون إليها، في الصلاة، غالبًا ما يتحوّلون، ويتجلّون، حتّى جسديًّا، وكلّما أمعنوا في الإصغاء إلى اللّه اكتسب كيانهم مزيدًا من تجلٍّ. نورٌ سرّيٌّ يسكن بسمتهم، وعيونهم، وأيديهم، ومنهم يشعّ شبابٌ مدهشٌ.

كان يسوع يصلّي عندما أخذ يشعّ، ولكأنّه لم يعد يقوى على حبس فيض اللّه.

لقد أشعّ اللّه منه عندما قرّر بذل حياته، وتقديم ذاته، حرًّا، متجرّدًا، شفّافًا. وتألّق، بنورٍ إلهيٍّ، وجهُه الذي سيصفعه الرعاع، وسيبصقون عليه، مسفرًا عن الحضور السامي الذي يقطنه.

ومدى لحظاتٍ، انحسر قناع المظاهر اليوميّ، وفَتَن الأنظارَ والقلوبَ الحضورُ الإلهيّ المتجلّي على وجه إنسانٍ إلهٍ. ومنذئذٍ بتنا نعلم أنّ الإنسان يحمل، داخله، الشمس الأشدّ تألّقًا وخصبًا. ولكم شوهد، على مدى التاريخ، على وجوه من أحبّوا بلا حدودٍ، إشعاع مجد اللّه، ووجه الإنسانيّة الأصيلة!

* *

لقد بشّر التجلّي بالجمعة الحزينة، وبصباح الفصح. وقد أَلهَم طائفةً من كبار الفنّانين الذين فتنهم تفجّر النور الإلهيّ. ولكنّه، فوق ذلك، أنار، على كرّ القرون،

(١) عن الأب جيرار بيسّيير (Gérard BESSIERE).

حياة أعدادٍ غفيرةٍ من المسيحيّين، وسط الألم والجوع، والاضطهاد والعذاب، وحتّى عند عتبات الموت الكالحة. فكم من رجالٍ ونساءٍ وجدوا القوّة والنور، في تأمّل يسوع المتجلّي، الذي كان، وسيظلّ، اللّه المتألّق في الإنسان، والإنسان الذي يعكس مجد اللّه، اعتلان اللّه، واعتلان الإنسان، المتّحدَين إلى الأبد!

٢ – نورٌ للمستقبل

(مرقس ٩: ٢ – ١٠)

هل علينا التسليم بواقع هشاشة البشر، وأنانيّة الأمم، وسيطرة المال الضارية، وجنون الطغاة؟

إنّنا، في مواجهة المخاطر، والالتباسات المتعذّرة الحلّ، ونذُر اليوم والغد، نحمل، في ذاكرتنا، ملاذًا متواضعًا لا ينضب. إنّه مشهدٌ رقيقٌ، هيوليٌّ، عند تخوم الأرض والسماء: «تجلّي» يسوع نورٌ أشعّ من داخله، فحوّل كيانه، وأبرز للعيان حقيقته العميقة الدفينة، ومستقبله المتألّق، وإنسانيّته الإلهيّة...

تجلّي يسوع واحدٌ من بروق المستقبل التي مزّقت ظلمات التاريخ. والصوت السماويّ: «**هذا هو ابني الحبيب**»، أورد أناشيد الخادم المتألّم التي جاءت على ألسنة الأنبياء، في وصف كائنٍ وديعٍ مسالمٍ، شقّ لشعبه الدرب، بآلامٍ مبرّحةٍ. لم يَنشُد يسوع الطُرقَ السهلة، بل هبّ في وجه كلّ ما كان يسحق البشر، ويحطّ من شأنهم، ويفرّقهم. لقد عهد قسوة الحياة السياسيّة: فالسلطات القائمة لم تغفر له مآخذه عليها ونأيه عنها، وتضافرت على ذلك المزعج الذي أخضع كلّ شيءٍ للنقاش باسم اللّه، أبي الجميع.

لقد كان التجلّي إشراقة شمسٍ في جوٍّ مدلهمٍّ، وتلتها الآلام، بكلّ ضراوتها. ويذكر الإنجيليّ مرقس أنّ يسوع، فيما كان منحدرًا من الجبل كي ينهج الدرب المفضي إلى أورشليم، تحدّث لتلاميذه عن قيامته. أمّا هم فكانوا يتساءلون عمّا تعني القيامة من الموت. ونحن، أيضًا، حيال ضروب الموت الكثيرة، وفي ظلّ الحاضر القاتم، نتساءل كيف ستكون «القيامة».

بيد أنّ صانعي السلام، والمتعطّشين إلى العدل والبرّ، سيفجّرون، بعون اللّه، من أيديهم، كلّ أصناف القيامات.

ونلحظ أنّ حتّى أنوار التجلّي الساطعة لم تكن كافيةً كي يرى التلاميذ الحقيقة كلّها. فعلى كلّ مسيحيٍّ أن يجهد، كلّ يومٍ، في التحديق والتأمّل، كي يميّز دروب يسوع غير المتوقّعة.

٣ – عندما يُشعّ الإنسانُ اللّه: «لـمّا استيقظوا شاهدوا مجد يسوع» (لوقا ٩: ٢٨– ٣٦)

عندما كان المسيحيّون الأوّلون يُحتقَرون، ويطارَدون، كانوا يتزوّدون بالشجاعة، بمجرّد تذكّرهم ذلك الحدث المذهل: يسوع المتجلّي الذي يُشعّ نور اللّه، المنبعث من داخله.

صحيحٌ أنّ البشريّة يشوّهها العنف، والأنانيّة، والرداءة، وأنّ تاريخ الفظائع لم ينتهِ بعد. ولكن، صحيحٌ، أيضًا، أنّ البشريّة جميلةٌ، لأنّها قادرةٌ على التألّه.

فكم من الرجال والنساء المشهورين أو المُغفَلين، الذي يُشعّون اللّه من خلال جرأتهم، وطاقات حبّهم، وبذل ذواتهم المتواصل! إنّه تجلٍّ يتكرّر كلّ يومٍ، في كلّ بقاع الأرض. إنّه طاقة التاريخ القصوى التي تتيح للبشر مواصلة المسيرة.

بتجلّي يسوع، أقرّ ممثّلا العهد القديم البارزان، موسى وإيليّا، بانصرام حقبةٍ طويلةٍ، وانبلاج عهدٍ جديدٍ.

وكم تمنّى التلاميذ الثلاثة المقرّبون أن يستقرّوا، ويخيّموا في النور الساطع، ويبنوا مدينة الأمجاد المتألّقة! ولكنّ التجلّي طريقٌ طويلٌ، ولن تتّضح كلّ فحواه إلاّ عبر قرونٍ وقرونٍ.

فعندما تجلّى يسوع كان ميمّمًا صوب أورشليم، صوب المواجهة والمحاكمة والموت، وصوب تمزيق آفاق العالم بواسطة الصليب. وسيظلّ هو البشرى السعيدة، خميرة الضمائر، وداعي جميع المجتمعات إلى التطوّرات الجذريّة.

يسوع، رجل الآفاق، المثل الأسمى، وجه بشريّتنا الإلهيّ، وتجلّيه هو تجلّي الحياة، إلى الأبد.

كان قد تنبّأ بموته. ولكنّه، قبل الشخوص إلى أورشليم، قاتلة الأنبياء، استصحب تلاميذه الثلاثة الذين سيستغرقون في السبات، وهو يتجرّع كؤوس النزاع. تسلّق جبلاً ليصلّي وفي لحظات الحميميّة مع الله، «تبدّل» منظر وجهه. وأسفر ذاك المقبل على الموت، عن كلّ كيانه العميق.

لن تكون، إذن، آلامه ومهانته دليل تخلّي الآب، فقد فجّر، عشيّة صلبه، مجد صباح الفصح.

٤ - الله المشرّد

(متّى ١٧ : ١- ٩)

خفتت أنوار التجلّي، ورفع التلاميذ الثلاثة أعينهم «**فلم يروا إلاّ يسوع وحده**». وسيكون يسوع وحده، طيفًا هشًّا على درب آلامه، وموته، وقيامته، ولن يكون له، يومًا، مأوًى ثابتٌ.

بذله لحياته سيُشرع، نهائيًّا، ذلك العالم «الآخر» الذي طال انتظاره، من غير حاجةٍ سوى إلى مسيرة يسوع الجريئة التي ستدفع العالم كلّه على الدرب.

لطالما حاول اليهود سجن الله في خيمةٍ أو في هيكلٍ، ولكنّه أعلن، دائمًا، رفضه المكوث في أيّ مكانٍ. وظلّ تلاميذ يسوع، عقودًا، يذكرون مسيرته المهيبة، بخطًى ثابتةٍ، نحو مصيره الرهيب، فورًا عقب تجلّي مجده المدهش. وسيعجز البشر، أبدًا، عن حصره في مقامٍ ثابتٍ، لأنّه، دائمًا، على الدرب الذي يجتاز الحياة والموت، والنور والظلمة، صوب نواة الوجود المعتمة والوضّاءة، معًا.

لا مقام ثابتًا لله، ولا للمسيحيّين، ولا للبشريّة، فنحن، جميعنا، على سَفَرٍ، وأبدًا تحدو الأفراد، والمجتمعات، والعالم، رغبةٌ في حياةٍ أُخرى. وكلّما أسفر وجهٌ نيّرٌ، أو حدثٌ جماعيٌّ مضيءٌ، مدى لحظةٍ، للبشر، عن عمق الحياة الساحر، يظلّون، سنين طويلةً، يتغذّون بتلك الذكرى، وبطعم السماء ذاك. إنّ لمبادرة حبٍّ، أو لاندفاع

شعبٍ، دويًّا متماديًا، في النفوس، وعونًا على اجتياز مسافات الحياة الوعرة. «حَسْبُ شقٍّ في أكثر الجدران صفاقةً للإشارة إلى النور».

في إشعاع يسوع بالنور الإلهيّ، على درب العطاء الكامل، الوعر، تجد أحلام البشر أسمى تحقيقٍ لها. إنّه تجلّي الله، وتجلّي الإنسان.

٥ - وجه الله

في مغامرتهم الدينيّة الدهريّة، ما فتئ البشر يُسبلون على وجه الله أقنعةً تلائم رغباتهم، واحتياجاتهم الاجتماعيّة، ولكأنّهم يتّقون ذلك الوجه المتألّق الذي يقول عنه الكتاب إنّ كلّ من يشاهده يموت.

طيّ هذا التلمّس حيث يَنشُد الله ويتّقيه، في آنٍ واحدٍ، ينصب الإنسان جميع أوثانه، تلك التي نحتها في الحجر أو في الخشب، كذلك آلهة الكلمات والآراء، والنظريّات والنُظُم التي ابتدعها.

وكم خَلَط المسيحيّون، عبر تاريخهم، بين الله وأساليبهم في تعريفه بالألفاظ والأفعال! مع أنّ القدّيس توما الأكوينيّ قد أكّد بحزم: «إنّ غاية الإيمان ليست في ما يُعلن عنه، بل في واقعه». وواقع الله لن يُحبس، أبدًا، في كلماتٍ، وطقوسٍ، وصِيَغٍ فكريّةٍ، بل إنّه يتخطّاها أبدًا، تخطّيًا بلا حدودٍ.

وهذا يذكّر بالمثل الصينيّ: «عندما تشير إصبعٌ إلى نجمٍ، يحدّق الأحمق في الإصبع...» عوضًا عن تسديد النظر إلى اللانهائيّ، إلى النجم الذي ينتهي إلينا نوره مثل صيحةٍ صامتةٍ، والذي يسعنا، أبدًا، تأمّل تألّقه الكتوم الذي لا ينضب.

عن هذه المسيرة الليليّة نحو الله، يقول، أيضًا، الأكوينيّ: «حينئذٍ يظلّ الفكر غارقًا في نوعٍ من الجهل المطبق. وبفضل هذا الجهل الذي يميّز كائنًا يتلمّس دربه، تتوثّق وحدتنا بالله. تلك هي الظلمة الصفيقة التي يُقال إنّ الله يسكنها».

خلق الله الإنسان على صورته وشبهه، ولكنّ هذه الصورة ليست خاتمًا مدموغًا جامدًا، بل هي دعوةٌ مغروسةٌ في قلب الإنسان تدفع إلى السعي الدائم نحو التشبّه بالله، وإلى إبراز صورته في كلّ ما ينجزه البشر: في الوجه الذي يضعونه على

مؤسّساتهم، ومجتمعهم، وأرضهم. صورة اللّه نموذجٌ ديناميكيٌّ فاعلٌ في صميم البشريّة.

صورةٌ وشَبَهٌ قد يكونان رائعين أو مشوَّهَين، متجلّيَين بالاستقامة والحبّ، أو متردِّيَيْن في الحقارة والبغض.

كلّ حقبةٍ تضيف إليهما ملامح جديدةً. فكما أنّ الوجه البشريّ لا تكتمل ملامحه ولا يني يتطوّر مادام حيًّا، كذلك صورة اللّه وشبهه يختمران في البشريّة، ولا ينفكّان يُبرزان صورتهما المتطوّرة مع الزمن.

ويظلّ الإنسان هو صورة اللّه الوحيدة. ويخطئ من يظنّ أنّه يصوّب وجهه نحو اللّه، مع انصرافه عن البشر، ومع تغاضيه عن البؤس، والانحطاط، والقهر التي تلحق بأيّ إنسانٍ. إنّ اللّه يأبى أن يُشاهَد إلاّ على وجوه البشر.

ومن وجوه البشر أجمعين، ثمّة، وجهٌ يحاصر ذاكرة الناس منذ عشرين قرنًا، وجه من تلقّى الصفعات والبصاق، ومع ذلك هو وجه «أجمل بني البشر» لأنّه، بحياته وموته، أبرز وجه الإنسان الحقّ، ووجه اللّه الحقّ، الوجه الذي تخيّله عندما خلق البشر.

هذا الوجه يتجلّى في الجائع، والفقير، وصانع السلام، والمضطَهدين في سبيل البرّ، والعنيدين في حبّهم.

إنّ وجه اللّه ينساب في الإنسان، مختلجًا وهشًّا مثل حياةٍ مقبلةٍ على الولادة وعلى النور. ووجه يسوع، أيضًا، ممنوحٌ للبشر، منتشرٌ في الجماهير، مثل خميرةٍ، مثل نارٍ تضيء وتحرق، مثل انتظارٍ.

الذين يحيَون بقلبٍ نقيٍّ يبصرون اللّه، والذين يعتقون السجين، ويروون ظمأ العطشان، ويطعمون الجائع، هم أيضًا يقابلون اللّه.

أولئك الذين يَنشدون وجه اللّه سيستطيعون معرفة ما هو هذا الوجه، وقد لا يجد الذين يعرفون ما هو اللّه ويجهلون الحبّ، السبيل إلى العثور عليه.

هلاّ نستطيع أن نقول مع القدّيسة تيريزا الأڤيلاّويّة: «وجهكَ هو وطني»!

٦ – خيمة

أين كانت الخيام
التي ابتغى بطرس نصبها؟
ربّما بضع أغصانٍ يابسةٍ
بعثرتها الريح...
لم يكن ليسوع من خيمةٍ
سوى لازورد السماء،
وجسده الهشّ،
جسد حضوره.

في مساء الجمعة،
ستكفهرّ السماء،
عندما سيُثبَّت بالمسامير
النبيُّ الجوّال.

ولكنّ الليل سيزهر،
في صباح الفصح.
وسيخفق علم السماء
بريح الروح.

وسيتجلّى كلُّ يومٍ
من أيّام درب البشر،
إلى الأبد.

عَطفٌ مجنونٌ : النَّعجَةُ الضَّالَّة

(لوقا ١٥ : ٣– ٦)

لم تمعن النعجة في الثغاء، استدعاءً لراعيها، ولا هي توسّلت إليه أن يقلّها على منكبيه، بل هو اتّخذ المبادرة، وقلبه هو الذي فاض حبًّا. ويبدو أنّ السماء الراضية عن القطيع المطيع تختلج فرحًا، عندما ينهض إنسانٌ ضالٌّ من وهدته، ويستأنف سيره نحو النور والخلاص.

إنّ يسوع يُفيض نِعَمَه على المستقيمين كي يزيدهم برًّا ويقودهم إلى الكمال، ولكنّه يهرع توّاقًا إلى نجدة المنبوذين، والمحتقَرين، والضعفاء، ويخفق قلبه فرحًا عندما ينقذهم.

ولكن يبدو أنّ المجتمع، ومعلّمي الأخلاق، لا يستسيغون سلوك الله، فهم يُشيدون بالأشخاص العاقلين، الجدّيّين، ويكرّمونهم، ولكنّهم يشيرون بأصابع الاتّهام والازدراء إلى النعاج الضالّة، وكأنّه لا بدّ من النبذ والتحقير، من أجل سلامة القطيع، ونظافة الحظيرة.

لطالما اتُّهم نبيّ الناصرة الشابّ، وهو على أرضنا، بإشاعة الفوضى، لأنّه كان يحسن وفادة الخطأة، ويشاركهم الطعام، ولكأنّه يؤثر بحبّه الذين واللواتي ينظر إليهم وإليهنّ رجال النظام بصرامةٍ متعاليةٍ، أو لكأنّه يتوخّى صدم المتكبّرين، وتشكيك المعجبين بجمال نفوسهم.

تُرى لو عاد يسوع، اليوم، أفلا يجلس إلى مائدة البغايا، والمبتلَين بداء الإيدز، ويشارك أخوات الأمّ تيريزا العناية بالبرص، والمحتضَرين، والمنبوذين، ويمدّ يد العون لزبّالي الأب پيير، والأخت إيمّانويل، ويخدم المعاقين عقليًّا مع جان ڤانييه؟

يبدو أنّ يسوع، أيضًا، نهج منطق الفرز الذي ينهجه منتقدوه، ولكن بمفهومٍ

معاكسٍ. وهو أيضًا يتكلّم عن الأبرار والخطأة، ولكن بمعايير مقلوبةٍ، مؤكّدًا أنّه إنّما جاء من أجل هؤلاء. فالنعجة الضالّة هي التي تستنفر الراعي!

سبق لنا أن سمعنا هذا الراعي يقول لنا إِنّ الأب السماوي يُطلع شمسه على الأخيار والأشرار. وما أبعد هذا القول عن الفرز الجازم، والأحكام المبرمة! فثمّة عطفٌ مجنونٌ يتجلّى، مبتغيًا تجديد كلّ شيءٍ.

صَفحٌ بلا حِساب: (سَبعُونَ مَرَّةً سَبعَ مَرّاتٍ)

(متّى ١٨: ٢١- ٣٥)

ناقش الرابّيّون عَدَد المرّات التي يتعيّن فيها الصفح، وحدّدوا سقفها الأعلى بأربع مرّاتٍ. واستوضح بطرس رأي المعلّم في ذلك، وإذ كان يعلم فرط سخائه، زايد على الرابّيّين وقال: «**ربّ، كم مرّة، يخطأ إليّ أخي وأغفر له؟ أإلى سبع مرّاتٍ**». فقال له يسوع: «**لا أقول لك إلى سبع مرّاتٍ، بل إلى سبعين مرّة سبع مرّاتٍ**».

جواب يسوع أطاح بسؤال بطرس، فالصفح، لدى يسوع لا حدود له، ولا تُحسَب «مرّاته». فيسوع يريد الاستعاضة عن فيض العنف بدفق الحبّ والعطف.

أيُّ انقلابٍ في الأعماق البشريّة! فقد كان رقم السبعة يمثّل الملء، لدى الأقدمين، وسبعون مرّةً مضروبةٌ بسبعةٍ، هي الامتلاء مضروبًا بعشرات أضعافه، هي الامتلاء اللامحدود. مع يسوع يتجلّى موقفٌ جديدٌ في العلاقات بين البشر، حيث ينبغي أن ينتفي كلّ حسابٍ للعطاء، وكلّ حدٍّ للصفح. أوَ ليس هو من دعا إلى حبّ الأعداء؟!

لقد اتّخذ الله مبادرة التجسّد المذهلة، ومن خلال شخص يسوع، وأفعاله، وأقواله، ومن خلال الروح المنتشر بلا حدودٍ، جاء يزرع في قلوب البشر صفحًا بلا حسابٍ، جاء يقدّم حنان الأب الحارّ، حيث كان البشر يتوقّعون شدّة الدائن الصارم، ويدعو البشريّة جمعاء إلى كَرَمٍ سمحٍ.

إنّ الله يحرّر الإنسان من قيوده الداخليّة، ويدعو المحرَّرين إلى تحرير إخوتهم، ويشيع عدوى الصفح، ويسرّع جريان النور، ويُطلع على تاريخ العالم نهارًا جديدًا.

إنّ الذين يصفحون يشفون البشريّة من أسقامها. لا يجترّون ما لحق بهم من إهانةٍ أو أذًى، ولا يحلمون بالاثّئار والانتقام، بل يقفون حاجزًا دون تفشّي الشرّ، ويُبطلون

سُمّه. لا يضمّون قبضتهم، بل يفتحون أيديهم لعطاءٍ سخيٍّ، وفي بوتقة قلوبهم يذوب الألم والحقد ويغرقان في المحبّة والعطف.

الصفح هو أمنع عملٍ قوّةً أُعطي البشرُ القدرةَ على تحقيقه. وهو الخليق بجعل الحدث الذي كان من شأنه مضاعفة البهيميّة في العالم يخدم نموّ الحبّ. إنّ الأشخاص المجروحين الذين يصفحون يرتقون بجرحهم ويغتنون، ويشفون، في جذوره، الجرحَ الذي يشوّه وجه البشريّة، أي العنف.

الإنسان الذي يصفح هو صورةٌ ليسوع.

والإنسان الذي يصفح يُشيع حضور الله.

ولكي يدعّم يسوع قوله، ويؤكّد واجب الصفح المتبادل ضرب مثل «**رجلٍ ملكٍ أراد أن يحاسب عبيده. فلمّا شرع في المحاسبة قُدِّم إليه واحدٌ عليه عشرةُ آلاف وزنةٍ. وإذ لم يكن لـه ما يُوفي أمرَ سيِّده أن يُباع، هو وامرأته وأولادُه وكلّ ما له، ويُوفى عنه. فخرَّ العبد على قدميه وسجد له قائلاً: أمهلني فأوفيك كلّ ما لك. فرقّ سيّدُ ذلك العبد له، وأطلقه وترك له الدَّين.**

«**وما إن خرج ذلك العبدُ حتّى وجد واحدًا من رُفقائه العبيد له عليه مئة دينارٍ. فانقضّ عليه وأخذَ بخناقه قائلاً: أدِّ ما عليك. فخرّ صاحبُه على قدميه وسأله قائلاً: أمهلني فأوفيك. فلم يُردْ. ومضى وطرحه في السجن حتّى يوفي الدين. فلمّا رأى أصحابُه ما حدث استاءوا كثيرًا وجاءوا وأخبروا سيّدهم بكلّ ما جرى. حينئذٍ دعاه سيّدُهُ وقال له: أيّها العبد الشرّير، لقد تركت لك كلّ ذلك الدَّين لأنّك تضرّعت إليّ، أفما كان ينبغي لك، أنت أيضًا، أن ترحم صاحبك كما رحِمتُك أنا؟ وغضب سيّدُه ودفعه إلى الجلاّدين حتّى يوفي كلّ ما لهُ عليه – فهكذا أبي السماويّ يفعل بكم إن لم تغفروا كلٌّ واحدٍ منكم لأخيه من كلّ قلبه**» (متّى ١٨ : ٢٤– ٣٥).

كرم الملك يتجلّى في إعفائه عبده من كامل دينه، مع أنّ العبد استمهل، فقط، كي يوفي ما عليه؛ ويتجلّى، أيضًا، في ضخامة هذا الدين. فرقم العشرة آلافًا كان أكبر رقمٍ مستخدمٍ، آنذاك، والوزنة كانت أكبر وحدة حسابٍ، وهي تعادل أربعةً

وثلاثين كيلوغرامًا ذهبًا، أي، بعملة اليوم، أكثر من خمسة مليارات دولارٍ. صفحٌ لا محدودٌ، لدينٍ تخطّى كلّ الحدود.

بيد أنّ جسامة هذا الصفح تُبرز جسامة حقارة العبد الذي، مع ما منّ به عليه سيّده، لم يتردّد في زجّ زميلٍ له في السجن استمهله من أجل وفاء دينٍ لا يساوي واحدًا من مئة مليونٍ من الدين الذي سامحه به سيّده.

إنّ ذاك الذي تلقّى الكثير، لم يتعلّم حتّى عطاء القليل، فأُدين، وكان عقابه مريرًا.

نَفحَةُ الرّوحِ المُدهِشَة: مَن لَيسَ عَلَينا فَهوَ مَعَنا

(مرقس ٩: ٣٨-٤٠)

«قال له يوحنّا: «يا معلّم رأينا واحدًا يخرج الشياطين باسمك، ولا يتبعنا، فحاولنا أن نمنعه لأنّه لا يتبعنا»، فقال يسوع: «لا تمنعوه، لأنّه ليس أحدٌ يصنع معجزةً باسمي، ويقدر، بعدها، أن يقول فيّ سوءًا. إنّ من ليس علينا، فهو معنا».

* *

لقد أحسن يسوع صنعًا بإطلاق لقب «إبنَيْ رعدٍ» على ابنَيْ زبدى، يوحنّا ويعقوب، فحبّهما ليسوع كان، أحيانًا، استئثاريًّا، ويولّد لديهما غيرةً تناقض الفطنة والمحبّة.

عبر هذه الحادثة لقّنهما يسوع، ومن خلالهما لقّن أجيال المؤمنين، انتباذ كلّ محاولة استئثارٍ بعمل الخير، وكلّ تعصُّبٍ ينكر على من ليس من الجماعة أو الطائفة، حتّى الإيمان والفضيلة.

كان التلاميذ ما برحوا تحت سيطرة أوهام الغد المجيد، لا تحدوهم رغبة تحرير البشر، بقدر ما تحدوهم الرغبة في احتكار هذا التحرير. ولكنّ يسوع أطاح بهذه النظرة الضيّقة، الأنانيّة، لأنّه أبى أن يكون، يومًا، أسير أتباعه، الذين قد ينزعون إلى ادّعاء احتكاره، وقد يحولون دون نفاذ نعمته إلى البشر أجمعين.

ردّة فعل يوحنّا وسائر التلاميذ كانت بشريّةً، تعبّر عن رغبةٍ في الاستئثار بالعمل الرسوليّ. أمّا ردّة فعل يسوع فهي إلهيّةٌ: لا تمنعوا فعل الخير، ولا تُعيقوا من يكافح روح الشرّ، حتّى إن لم يكن منتميًا إلى فريقكم. حسبه أن يكون عدوًّا للشرّ، كي يكون لكم صديقًا ورفيقًا ونصيرًا.

في كلّ عهدٍ برز أنبياء نيّرو البصيرة، يندّدون بالخطأ، ويُشرعون طاقات نورٍ، ويناضلون في سبيل العدل، والسلام، والتضامن، ويطردون شياطين العنف، والبغضاء، والقهر، والتمزّقات العرقيّة، والاجتماعيّة، والإيديولوجيّة. فإن كانت أقوالهم صادقةً، وأفعالهم بنّاءةً، فلتُمَدّ لهم يد التعاون والتآزر، ولا يُسألنّ عن هويّاتهم، فالروح يهبّ حيث يشاء، ولا يمكن حبسه. إنّه يَنشد نفوس الجماهير، كما يَنشد خفايا القلوب. إنّه نفّاذٌ كالنور. إنّه مبادرةٌ، واكتشافٌ، وخيالٌ، يمضي نحو الجميع، ينبض في أسمى تطلّعات البشر، مؤثرًا المنسيّين، والمنبوذين.

لقد نفخ يسوع روحه في الجماهير، وبوسع أيٍّ كان، حتّى الطفل، والفقير، والمريض، أن يُعير الروح شفتَيْه ويديه. ولكن ليس بمكنة أحدٍ أن يرسم له حدودًا. والروح، غالبًا، موجودٌ، حيث لا يُتوقَّع وجوده، يدهش، ويزعزع، ويدفع إلى الأمام، ويعمل على الجمع، والبناء، وتنمية الحبّ، ويزوّد كلّ إنسانٍ بقوّةٍ تأتي من الله.

فلنبحث عنه، ولنرحّب به أينما لقيناه. فهو ما زال يرفرف فوق اليمّ، كي ينتشل من الفوضى عالمًا قشيبًا.

نفحة الروح مدهشةٌ، ومغامراته مذهلةٌ، أمس، واليوم، وغدًا.

غير أنّ الانفتاح على الخير، أيًّا كان صانعه، لا يعني التغاضي عن الشرّ ومروّجيه.

وليسوع قولٌ آخر، يبدو، للوهلة الأولى، مناقضًا للقول الآنف الذكر، حيث يعلن: «**من ليس معي، فهو عليّ**» (متّى ١٢: ١٣)، أي من لا يعمل بروحي، ووفقًا لتعليمي، فهو عدوٌّ لي. ويضيف يسوع: «**ومن لا يجمع معي فهو يفرّق**»، أي إنّ كلّ ما نجمعه بمعزلٍ عن يسوع، الذي يعيدنا إلى ذاتنا الأصيلة، وإلى جوهرنا الحقّ، يشتّت كياننا، وهذا يحدث لنا كلّما تعاملنا مع العالم الخارجيّ مغفلين عالمنا الداخليّ، في حين أنّ الإنجيل يُعيدنا إلى واقعنا الجوهريّ المضيء.

إنّ وسائل بلوغنا عالم الروح، هي غير وسائل التعامل مع العالم الخارجيّ؛ فأكوام المعارف لا تدنينا، قيد أنملةٍ، من المعرفة الحقّة، وتأليه العقل إنّما يُقصينا عن الله الحقّ.

ولاريب، أيضًا، أنّ يسوع يشير إلى أولئك الذين إحدى أذنيهم مشدودةٌ إلى غوايات العالم، وإلى موسيقى خصومه المغرية، فيما الأذن الأُخرى تحاول الإصغاء له. وهو لا يطيق هذا التشتّت، وهذا التأرجح، ويحذّر من هذه اللامبالاة الوبيلة، إذ إنّ الحياد، حياله، مستحيلٌ، بل هو خطيئةٌ قاتلةٌ.

فلا خيار سوى الانضواء تحت لواء يسوع واحتذاء مثله، أو معاداته.

نَـارٌ تُطَـارِدُهم

(لوقا ٩: ٥٧-٦٢)

(متّى ٨: ١٩-٢٢)

«تقدّم كاتبٌ وقال له: «يا معلّم، أتبعك حيثما ذهبت». فقال له يسوع: «إنّ للثعالب أوجرةً، ولطير السماء أوكارًا. وأمّا ابن البشر، فليس له موضعٌ يسند إليه رأسه».

«وقال (يسوع) لآخر: «اتبعني». فقال: «ائذن لي، يا سيّدي، أن أمضي أوّلاً وأدفن أبي». فقال له: «دع للموتى أن يدفنوا موتاهم. وأمّا أنت فامضِ ونادِ بملكوت الله».

«وقال آخر: أتبعك، سيّدي، ولكن ائذن لي أوّلاً أن أودّع أهل بيتي». فقال له يسوع: «إنّ من وضع يده على المحراث، ونظر إلى الوراء، ليس بصالحٍ لملكوت الله».

* *

للحظاتٍ خلت، كان يسوع قد أَنّب ابنَيْ زبدى لأنّهما طالبا باستنزال نار السماء على السامريّين الذين رفضوا استضافة المعلّم وصحبه. وواصل الموكب مسيرته، مدفوعين إلى الأمام، ولكأنّ نارًا تطاردهم، على الطريق الترابيّة، لا يُعيقهم ولا يستوقفهم شيءٌ، بل يشدّهم، بقوّةٍ، الملكوتُ الذي يحثّون الخطى صوبه، حيث لا مكان لعنفٍ أو لانتقامٍ.

وفي أثناء الطريق جاءه «كاتبٌ»، أي عالمٌ ضليعٌ بالشريعة، وخاطبه باحترامٍ، ودعاه معلّمًا، معربًا عن رغبته في الانضمام إلى جماعته، ومواكبته أينما ذهب. ولكنّ يسوع لا يسعى إلى تجنيد جمهور تلاميذ من حوله، ولا يُزيّن للراغب في اتّباعه العيش معه، بل يصارحه بأنّ دربه وعرٌ، وحياته شاقّةٌ. ولذلك لم يردّ على

الكاتب بسلبٍ أو بإيجابٍ، بل اكتفى بأن بيّن له «**أنّ للثعالب أوجرةً، ولطير السماء أوكارًا، وأمّا ابن البشر، فليس له موضعٌ يُسند إليه رأسه**». فعليه أن يروز طاقاته، قبل أن يوطّن عزيمته، فتلميذ يسوع ليس، فقط، من ينتمي إلى مدرسته كي «يتعلّم» شيئًا، بل هو من يقاسمه حياته، ويتبنّى أسلوب عيشه، ويرتضي ألاّ يكون له مكانٌ يُسند إليه رأسه.

لكلّ امرئٍ منزلٌ يسكن فيه، ويسكن إليه، يحنّ إليه إذا غاب عنه، ويتطلّع إلى امتلاكه إن لم يكن له منزلٌ. حتّى الحيوانات تفيء إلى ملجأٍ خاصٍّ بها. ولكن مع يسوع الأمر مختلفٌ. فهو، مذ هجر بيت الناصرة، زهد في دفء البيت والأسرة، وامتهن الترحال من أجل نشر البشرى، وأَلِف التشرُّد، والتعرُّض لكلّ المفاجآت، وقبول ضيافة الأصدقاء.

وربّما عنى يسوع، أيضًا، بقوله هذا، أنّه قد قطع كلّ صلةٍ تربطه بالأرض، فهو ميمّمٌ صوب أورشليم، مقبرة الأنبياء والمرسلين، حيث ينتظره حتفه، فلا يرجونّ أتباعه أيّ مغنمٍ أرضيٍّ من اللحاق به.

ثمّ دعا يسوعُ آخرَ إلى اتّباعه، فلقيت هذه الدعوة، من نفس الرجل، استجابةً متردّدةً، فاستمهل: «**ائذن لي، يا سيّدي، أن أَمضي، أوّلاً، وأدفن أَبي**». فردّ عليه يسوع ردًّا ما انفكّ مثار دهشة الكثيرين: «**دع للموتى أن يدفنوا موتاهم، وأمّا أنت، فامضِ ونادِ بملكوت الله**».

من المرجّح أنّ والد ذلك المدعوّ كان يحتضر، وأمد احتضاره طويلٌ، وقد يستغرق موته وتشييعه، وإكمال مراسيم العزاء، أسابيع أو أشهرًا، في حين أنّ أيّام يسوع معدوداتٌ، وإعلان حلول الملكوت لا يحتمل تسويفًا أو تلكّؤًا.

لا مراء أنّ احترام الأموات، ولا سيّما الآباء والأجداد، محفورٌ في أعماق القلوب وثنايا التقاليد، وأنّ كلّ إنسانٍ ينحني أمام سرّ الحياة والموت. ولطالما ناهض يسوع مناورات الفرّيسيّين الرامية إلى إعفاء الأبناء من واجباتهم تجاه آبائهم، إن هم أعلنوا أنّ ممتلكاتهم هي تقدمةٌ للهيكل بعد مماتهم.

ولذلك يبدو قول يسوع موغلاً في الإدهاش والقسوة. وما هذه القسوة الظاهرة

سوى تأكيدٍ على أنّ من انتُدب لعملٍ روحيٍّ سامٍ، لا وقتَ لـه يهدره في مهمّاتٍ أرضيّةٍ، يستطيع النهوض بها أبناء الأرض. فالوقت ملحاحٌ، ولكلّ لحظةٍ وزنها. والأحياء لا يتوقّفون عن السير.

أمّا شؤون الدنيا، فيتولاّها أبناء الدنيا، ويصفهم يسوع بالأموات لأنّهم لا يعيشون إلاّ بغرائزهم، ومشاعرهم السطحيّة، بمنأًى عن قوى الحبّ والمعرفة الروحيّة المدفونة في أعماقهم. إنّهم أمواتٌ قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة.

أمّا الأحياء الحقيقيّون، فهم الذين يعون أنّهم يحملون، في ذواتهم، قوىً أعظم شأنًا من قواهم الجسديّة، فيحيون بعمق، وهم متّجهون صوب الملكوت، خاشعين. لاشيء يشيع فيهم الاضطراب، لا الحياة، ولا الموت، ولا الأَحياء الأموات المحيقون بهم، والذين يجهدون في ثنيهم عن متابعة مسيرتهم صوب إعلان ملكوت اللّه.

فلا يستطيع الإعلان عن الملكوت سوى من يحياه بكلّ أوتار كيانه، ويحمله في ذاته، ويعي أنّه يحمله، وتنيره، من الداخل، قوى الإيمان التي، وإن كانت في ضآلة حبّة الخردل، تقوى على تحريك الجبال.

* *

وتقدّم ثالثٌ لاتّباع يسوع، ولكن بعد أن يكون قد ودّع ذويه، ورتّب أموره. وأجابه يسوع: «**إنّ من وضع يده على المحراث، ونظر إلى الوراء، ليس بصالحٍ لملكوت اللّه**». فمن ابتغى العمل في حقل الملكوت، لا يحقّ لـه الالتفات إلى الخلف، فالملكوت في الأمام، ولا يحتمل السعيُ إليه اعتراضًا، أو تردّدًا، أو تحفّظًا، أو شرطًا. بل ينبغي نسف كلّ ما يحول دونه، بعزيمةٍ وتصميمٍ. إذ لا يقوى على التقدّم صوب الملكوت إلاّ من تحرّر من كلّ عبءٍ، وانعتق من كلّ عائقٍ، ولا يستطيع الإبحار إلى العرض إلاّ من فكّ كلّ وثاقٍ يشدّه إلى اليابسة.

تلميذ يسوع هو رجل الدرب الداخليّ الذي يحثّ الخطى كي يتجاوز ذاته. إنّه عابر السبيل الذي لم يبقَ لـه أيّ مأوًى ثابتٍ يفيء إليه، خفيف الحمل، متّقد الصدر، حرٌّ، طليقٌ لا يربكه عائقٌ.

* *

هذه المواقف الثلاثة تعني، بكلماتٍ حازمةٍ، أنّ عالَمًا برمّته قد انتهى، لأنّ الربّ قد جاء، ودعا إلى حياةٍ جديدةٍ كلّ الجدّة. فعلى تلميذ يسوع أن يبتر كلّ الوشائج التي تشدّه إلى الدنيا وعقليّتها، ويتخلّى عن كلّ ما فيها، مُشرِعًا أشرعته على المجهول، مثلما تخلّى يسوع عن كلّ شيءٍ، وأقام في المستقبل، ومضى، مستعجلاً، وعيناه شاخصتان إلى أصيل يوم جمعةٍ دامٍ، وفجر يوم أحدٍ متوهّجٍ.

* *

دعوة يسوع ما فتئت تدقّ، بعمقٍ، وعنفٍ، أبواب قلوبٍ كثيرةٍ، وتوري فيها نارًا تحرق كلّ القيود والقشور، فتنطلق حرّةً، متجرّدةً، بلا تردّدٍ ولا ندمٍ، ويغزو لهيبها الأرض، ناشرًا في جنباتها دفئًا ونورًا.

المَـرْأَةُ الزَّانِيَـة

(يوحنّا ٨: ١– ١١)

كان يسوع يعلّم في أحد أروقة الهيكل، والقوم يوافون، كُثُرًا، للإصغاء إليه. وزعماء اليهود الحاقدون يلتمسون ذريعةً للإيقاع به، والقضاء عليه.

فذلك الدخيل خطرٌ عليهم وعلى مناصبهم. وهو لا يني يفضح زيفهم، وينبش قبورهم المكلّسة. وقد باتت الجموع تنصرف عنهم، وتسعى متلهّفةً إليه، بعد أن رأت فيه، على نقيضهم، سلطانًا يتيح لـه أن يقول ما لم يقله، من قبلُ، أحدٌ، ويسنّ، على غرار الأنبياء، شرائع كانوا سيحكمون عليها بأنّها بِدَعٌ مستنكَرَةٌ، لولا أنّ اللّه قد دعّمها بمعجزاتٍ يُجريها على يديه، كما لم يتهيّأ لنبيٍّ من قبل.

كان يسوع قد أعلن أنّ لـه سلطان الدينونة. وتوخّى الكتبة والفرّيسيّون امتحان ذلك السلطان وتحدّيه. وقد عثروا على ضالّتهم في تلك المرأة التي قبضوا عليها في جرم زنًى. ففي الأعياد الكبرى تعجّ أورشليم بالغرباء، وتُفلت الغرائز من عقالها، بمنأًى عن الرقابة.

بغتةً داهمه موكبهم اللجب، تحيق به عصابةٌ نابحةٌ من الفضوليّين، وممّن يستمرئون نشر الفضائح، والتشهير بمن زلّت أقدامهم، الوُلوغ في دماء الضحايا العاثرة.

لقد كانت مكيدتهم حافلةً بالخبث، وكان شَرَكُهُمْ منصوبًا بإحكام: فإن خالف يسوع الشريعة، وحال دون رجم الزانية، عدّوه عدوًّا للشريعة، وبالتالي خاضعًا للعقاب؛ وإن هو أفتى برجمها، ارتدّ دمها عليه، وكانت فتواه تكذيبًا لكلّ ما يتبجّح به من رحمةٍ، ورأفةٍ، وصفحٍ عن الخطأة، وحدبٍ على المنبوذين. على كلمةٍ منه، كان يتوقّف موتها أو حياتها، وموته في كلّ حالٍ.

جاؤوه بتلك المرأة، وهم يتلمّظون، مسبّقًا، عذوبة انتصارهم. وقد غرب عن خَلَدهم أنّ الربّ فوق صغارات البشر، وحساباتهم الحسيرة، وأنّه لا يلتمس لنفسه

مخرجًا في تمحّكاتٍ سخيفةٍ. إنّه ربّ الضمائر والقلوب، وهو يُشرع، في ضمائر القضاة، محاكمةً ذاتيّةً، تحوّل المدّعين إلى متّهَمين؛ يدعوهم إلى التحديق في أعماقهم، حيث تولد الخطيئة وتنمو، أكثر ممّا هي تتمثّل في الأعمال. وفي تلك الأعماق الكمينة، من يجرؤ على ادّعاء البراءة؟

كم كان الفرّيسيّون قَرِمين إلى دماء الضحيّتين، وإلى التهامهما: يسوع والزانية، وقد جمعوا بينهما بحقدٍ واحدٍ، وبازدراءٍ واحدٍ، ولاسيّما، وقد باتا، في نظرهم، أعزلَيْن، معرَّضَيْن، واهنَيْن: هي في عري خطيئتها، وهو في عجزه عن مواجهة موقفٍ ظنّوه مسدود المسالك.

* *

كان من شأن أيّ معلّمٍ سواه، الاسترسال في الاستفسارات القانونيّة. فهل الشهود مؤهَّلون وصادقون، وهل المرأة متزوّجةٌ أو مخطوبةٌ، وهل هي تعرّضت لضغطٍ أو لإكراهٍ، إلى ما هنالك من تفاصيل تستفيض فيها الشريعة، إذ إنّ لكلِّ حالةٍ عقابًا.

وكان بوسع يسوع التملّص من شباك الفرّيسيّين بالتيه في دهاليز الشريعة، وإرباك مجرّبيه؛ وكان بوسعه أن يقول، ببساطةٍ، مثل أيّ حكيمٍ: حقًّا يتعيّن رجمها تنفيذًا لوصيّة موسى، ولكنّ الحكم الرومانيّ يحظر علينا تنفيذ أيّ حكم إعدامٍ، وأنتم أنفسكم قد كففتم، منذ زمنٍ طويلٍ، عن تنفيذ شريعة موسى، في هذا المجال. غير أنّ يسوع تجاوز كلّ هذه الحذلقات، وأزرى بها، ونفذ مباشرة إلى الجوهر، إلى كوامن الوجدان.

لقد حلّق عاليًا فوق صغارات علماء الناموس ومماحكاتهم، وفوق حبائل الشريعة وحرفها القاتل، ولم يلتمس في اجتهاداتها مخرجًا. فشريعته هي شريعة الحبّ، ومحكمته تنصب قوسها في الضمائر والأفئدة. إنّه يدعو الحاكم إلى البدء بمحاكمة نفسه، وبمعالجة الخشبة التي تغشّي بصره، قبل محاكمة الآخرين، والتنديد بالقشّة في عيونهم. وسواءٌ لديه من ارتكب فعل الزنى، ومن زنى بنظره، أو بقلبه، أو بشهوته، ومن قتل أو من تمنّى الموت لأخيه، فمقرّ الخطيئة هو النيّة والسريرة. لقد توخّى يسوع شحذ الحسّ الأخلاقيّ بين البشر وصقل وجدانٍ جديدٍ فيهم، به يتحرّر الإنسان من خشية القانون، ولا يعود يخشى سوى الشرّ الذي يشوّه صورة الله في ذاته.

ولكي يعبّر لأولئك المرائين عن قلّة اكتراثه بهم، وربّما كي ينذرهم بأنّه مطّلع على كلّ ما يُخفون من أسرار في مظانّ نفوسهم، أكبّ على الأرض، وراح يخطّ بإصبعه على الرغام.

ردّ عليهم بصمتٍ طويلٍ، وإطراقةٍ ساخرةٍ، وعبثٍ، ولكأنّه مضى بعيدًا، بعيدًا، عمّن كانوا يحيقون به، وعن كلّ ما عهدوه، وما كان يجول بخواطرهم.

وسط جوّ الإثارة الذي أشاعه علماء الناموس، ولغط العصابة النابحة، كم كان صمت يسوع جليلاً، مهيبًا!

وفي إطراقة يسوع رهافة شعورٍ عذبةٌ: فقد تفادى التحديق إلى المرأة المتّهَمة، الماثلة أمامه، لأنّ الخطيئة، في مواجهة البراءة المطلقة، ترتعد. فقد كانت أنظار الجميع تنهش تلك المرأة المسكينة، وكأنّها أنظار كلابٍ مسعورةٍ، تحاصر ضحيّةً مضرَّجةً بدمها؛ وهي ترتعد خزيًا، أكثر من ارتعادها خوفًا، وتختلس النظر إلى ذلك المجهول الذي نصّبوه عليها قاضيًا، وأشدّ ما تخشاه أن يقع نظره الصافي على قتام عارها.

وهو، ربّ القلوب، يدرك أنّ، ثمّة لحظاتٍ، أكثر ما يُرهب فيها المذنبَ نظراتُ الأبرياء. ولكي يجنّب المرأةَ مزيدًا من حَرَجٍ ومهانةٍ، وبدافع إحساسه المرهف، أشاح بنظره عنها، وأطرق أرضًا، وتشاغل بالكتابة بإصبعه على التراب. ففي مثل تلك اللحظات الحرجة يعمد الحبّ إلى إغضاء النظر.

تلك هي المرّة الوحيدة التي ذكر فيها الإنجيل أنّ يسوع كتب شيئًا، ولكنّها كتابةٌ على التراب سرعان ما ذرتها الريح. وربّما هو لم يكتب شيئًا، واقتصر على رسم خطوطٍ لا معنى لها. فالقرطاس الذي يودّ التدوين عليه هو صفحات الأفئدة، وبرديّ الوجدان.

تباينٌ صارخٌ: ففي جانبٍ، صياحٌ وزعيقٌ يُطلقهما الكتبة والفرّيسيّون، الذين يحدوهم خُبثٌ حافلٌ بالازدراء والبغض، وتزمّت الشريعة الأجوف الشرس. وفي الجانب الآخر، إشاراتٌ زاخرةٌ باللغز تُرسَم على الرملِ الأبكم، وصمت يسوع المؤثِّر، تأثيرًا من قوّة الأسْر بحيث كانت بضع كلماتٍ كافيةً كي يرتدّ المدّعون إلى ذواتهم، وينأَوا مغمورين بالخزي.

وظلّ يسوع، برهةً، مكبًّا بإصبعه على التراب، وكأنّه يبتغي المضيّ في النأي إلى أبعد ما يستطيع، عن أولئك المرائين، وإسفافهم، ونفاقهم، إلى أن ضاقوا ذرعًا بصمته، وألحفوا في مطالبته بقرارٍ. حينئذٍ استقام، وسقط عليهم حكمه بسيطًا، قاطعًا، مدهشًا، مخيفًا، من خلال واحدةٍ من الحِكَم التي يمتلك هو سرّها، الكفيلة بقلب الجدال رأسًا على عقب، والتي تظلّ أصداؤها تترجّع في الضمائر حتّى آخر الأزمان: «**من كان منكم بلا خطيئةٍ، فليبدأ ويرمِها بالحجر الأوّل**».

قال قوله هذا، وأكبّ، من جديدٍ، يخطّ بإصبعه في التراب، ولكأنّه يذكّر كلاًّ من الحاضرين بآثامه الخفيّة، ويدوّن بها ثبتًا إن هم كانوا قد تناسَوها، ويُنذرهم بفضح ما يكتم كلٌّ منهم في أغوار ذاته. وإذ بضمائرهم تهتزّ، وبالرعدة تنتابهم.

بهذه العبارة المقتضبة حفر يسوع الدوار في وجدان المدّعين على المرأة. كان على الشاهد أن يلقي الحجر الأوّل، مستثيرًا هيستيريا جماعيّةً رعناء، تفيض حقدًا، وشراسةً بهيميّةً. ولكنّ يسوع اقتضى منه، قبل ذلك، شهادةً أُخرى، شهادة ضميره، أمام اللّه، بأنّه منزّهٌ من الخطيئة. وقد يكذب المرء على الآخرين وعلى ذاته، ولكن من يستطيع الكذب على اللّه؟! وبقوله هذا، شلّ يسوع يد الشاهد، وأيدي المدّعين جميعًا. فقد اتّضح لحاملي لواء الذود عن حياض الشريعة والفضيلة، أنّهم، هم أيضًا، خاطئون، ويستأهلون الرجم.

لم يرافع يسوع في الدعوى المقامة أمامه، بل أقام دعوى جديدةً على المدّعين الساعين إلى هلاكه، وعلى العديد من البشر الذين يسارعون إلى فضح أخطاء الآخرين، ويُغضون عن أخطائهم الخاصّة، وعلى البشريّة النهمة إلى الإدانة.

عبارةٌ واحدةٌ مقتضبةٌ حوّلت القضاة إلى متّهمين، واكتشف، معها، المنتقمون للشريعة أنّهم جناةٌ مذنبون. لقد أهاب بالمدّعين أن يتفحّصوا ضمائرهم، وبالقضاة أن يقاضوا نفوسهم. فشريعة يسوع لا تتوقّف عند مظاهر البشر، بل تستهدف صوغهم في الأعماق. يسوع يتخطّى الشريعة، ويسبر أغوار القلوب. أوَ ليس هو من قال: «**سمعتم أنّه قيل: «لا تزنِ». أمّا أنا فأقول لكم إنّ من نظر إلى امرأةٍ، نظرة شهوةٍ، فقد زنى بها في قلبه**»؟

إنّ يسوع يمقت الزنى، وهو يمقت، بنفس القدر، حقارة الوشاة، وتصلّب القساة،

وفجور المرائين الذين ينصّبون أنفسهم قضاةً على خطايا الآخرين، متسلّحين بحرف الشريعة، وقد نضبت نفوسهم من كلّ رحمةٍ وخُلُقٍ.

ومثلما شقّت عليه خطيئة المرأة المتّهَمة، شقّت عليه إدانتها من قِبَل من لا يملكون الحقّ لا في دينونتها، ولا في حياتها. فمن حقّ الأبرياء وحدهم الحكم على الآخرين. وإن كان، ثمّة أبرياء، فالرحمة هي شريعة حكمهم الوحيدة.

ترك يسوع لقوله أن يهمي إلى أعماق ضمائر من جاؤوه مقاضين، وهيمن صمتٌ ثقيلٌ. فهل سيدوّي الحجر الأوّل، وتجرح الجوَّ صيحات المرأة المذعورة، وتنفلت غرائز القتل؟...

يبدو أنّ أولئك الذين كانوا يتستَّرون تحت مظلّة الشريعة، عرّاهم ضميرهم في مواجهة خطاياهم السرّيّة. فتريّثوا، لحظاتٍ، حائرين، حانقين، ثمّ لم يجدوا مفرًّا من التراجع. وأدركوا أنّ ذاك الذي جاؤوا للإيقاع به، قادرٌ على قراءة كوامن ضمائرهم، وعلى تعرية كلّ من تُسوّل لـه نفسه التصدّي لتحدّيه، بفضح مخازيه، بكلّ دقائقها وبشاعتها. وسمع يسوع وقع أقدامهم تتسحّب خجلاً: «**فانسلّوا الواحد تلو الآخر، ابتداءً من أكبرهم سنًّا**».

كم كان حضور يسوع الصامت جبّارًا لا يُقاوَم، بحيث لم يقوَ عليه من كان قلبهم مفعمًا ضغينةً وحساباتٍ خسيسةً! لا حاجة لحكم الله وحكم الحقيقة إلى بلاغةٍ وإعلاناتٍ، بل حسبهما أن يمسّا بحدّهما اللاهب الصارم أغوار الضمائر حتّى تقرّر الفرار أو التوبة. وقد تزلزل وجدانُ المتآمرين ففرّوا، وارفضّ أولئك الذين كانوا متكالبين على إدانة المرأة، وولّوا الإدبار، مثقَلين بالخزي الذي حاولوا إغراقها في مستنقعاته، بعد أن ألبسهم يسوع هذا الخزي.

وعندما خرس وقع الأقدام المتسلّلة، رفع يسوع ناظريه فلم يجد أحدًا سوى المرأة التي لم تبرح مكانها. لقد كان بوسعها، بعد أن توارى متّهموها، أن تنجو بنفسها، وتلتمس لها مخبأً. ولكنّ قوّةً طاغيةً كانت قد أسرتها، واعتملت في أغوار ذاتها، وزلزلت كيانها، وبعثتها إلى حياةٍ جديدةٍ، فلم تطق الفكاك عمّن أنقذها.

لهنيهاتٍ خلت، كانت ترزح تحت وقر الفضيحة، وها هي ذي الآن تبكي خطاياها بمرارةٍ وندامةٍ. كانت ترتعد من حكم الناس، فغدت تواجه حكم ضميرها.

بيد أَنّ سكينةً عميقة الغور هيمنت على نفسها، لأنّ ذاك الذي كانت تقف أمامه هو الوحيد القادر على مغفرة أوهان الجسد، وتحرير الإنسان من عبوديّتها.

وكم كانت تتحرّق توقًا إلى غرس ناظرَيْها في عينَي مخلّصها، الذي لم ينقذها من براثن جلاّديها الشرسة فحسب، بل أعتقها من ضعفها، ومن أغلال الخطيئة التي كانت تكبّلها.

وكانت ترنو، بمزيجٍ من حبٍّ ومهابةٍ، إلى ذلك الإنسان الذي لا يشبه أحدًا من البشر، فهو يمقت الخطيئة، ويحبّ الخاطئ كي يحرّره. إنّه، وحده، يمتلك قدرةً خارقةً على انتشال كنوزٍ ثمينةٍ من دمَن القلوب النتنة، ومن مزابل العالم.

وكم كان سنيًّا التقاء نظرات الأعزلَيْن: الخاطئة المثقلة بخزيها، ويسوع في بساطة رحمته الإلهيّة! من خلال تلك النظرات، أدركت الخاطئة، دفعةً واحدةً، ما لم يدرك مثله، يومًا، لاهوتيٌّ أو صوفيٌّ. استشفّت أعماق يسوع عبر رحمته اللامتناهية، وعبر غفرانه الذي يحرق، ويطهّر، ويحرّر، على نحو ما خبرته السامريّة، واللصّ على الصليب.

نظرته طهّرتها، وكلماته قلبت كيانها، فوعت، فجأةً، تلك التي كانت، لساعاتٍ خلتْ، ملكًا مشاعًا، أنّ هناك حبًّا أسمى، وأشدّ أسرًا من كلّ متعةٍ، وأنّ هناك غنًى يفوق كلّ مالٍ.

لقد استطاع ذلك الإنسان الإله ما يتعذّر على سواه: إعتاق المرأة من أسر الشهوة، وجموح اللحم والدم. وفي لحظاتٍ أصبح هو السيّد الأوحد لنفس من كانت زانيةً، والتي تعاقبت عليها أحداثٌ سريعةٌ مذهلةٌ، كومضات برقٍ متلاحقةٍ: ففي غضون دقائق معدوداتٍ ارتكبت جرم الزنى، وقُبض عليها، فباتت على خطواتٍ من الموت رجمًا، ثمّ تفجّر نورٌ مباغتٌ، ووُلدتْ من جديدٍ.

في مثل تلك المواجهة، في مثل تلك المصالحة يُتاح لنا أن نعرف يسوع ونتحرّر! وحتّى عندما نشمئزّ من ذواتنا الملطّخة بحمأة الخطيئة، وينتابنا منها الغثيان، فلنذكر حبّ يسوع للخطأة التائبين الذين تردّوا إلى أعمق دركات الرجس، فانتشلهم وطهّرهم. إنّ الله، في عظمة رحمته وحنانه، لم يتقزّز، يومًا، من نفسٍ ثابت إليه، مهما كانت نجاسة الدِّمن لاصقةً بها، والروائح المنفّرة فائحةً من كلّ كيانها.

منِ هذا الصمت القدسيّ نبعت كلمةٌ إلهيّةٌ، كلمةٌ بلا ألفاظٍ ولا خطاباتٍ، سرت خفيفةً، رقيقةً، وانطوت على تبادلٍ سرّيٍّ بين من تتوقّع أن تُحَبّ، ومن يدين بالحبّ، بين حبّ الندم، وحبّ الغفران؛ تواصلٌ مطهِّرٌ ومجدِّدٌ. كان حسبهما تبادل النظرات الصامتة كي يتفاهما، وقد تمّ كلّ شيءٍ قبل أن تستعيد الشفاه حقوقها، وأن يحين حوار الكلمات.

حرص يسوع على تجنّب إذلالها، وإثقال كاهلها بمزيدٍ من وقر الخطيئة، بل اكتفى بسؤالها: «**أين هم؟ ألم يحكم عليك أحدٌ؟... وأنا أيضًا لا أحكم عليك**». لم يرهقها بعبء الماضي، بل أشرع لها باب مستقبلٍ نظيفٍ: «اذهبي، ولا تعودي إلى الخطيئة». إنّه يرفض الخطيئة، ويدينها، ولا يصانعها، ولكنّه يرأف بالخاطئ، ويدعوه إلى ولادةٍ جديدةٍ. وانطلقت المرأة على دربٍ جديدٍ، وقد أشرق على نفسها نورٌ قشيبٌ، فاستعادت بعض كرامتها.

* *

ما عسى انتهت إليه تلك المرأة التي حوّلتها نظرة يسوع المفعمة رأفةً؟ من المحقّق أنّها ظلّت، طيلة عمرها، تذكر يسوع، وتذكر ذلك اليوم المصيريّ الذي التقته فيه. ومازال العالم يتحدّث عنها، بعد ألفين من السنين، مع أنّ الذين قبضوا عليها، وجرّوها إلى يسوع، ما كانوا آبهين بها، ولا بخطيئتها، ولا حتّى بشريكها في الزنى، المُعفى من أيّ عقابٍ؛ فهي كانت مجرّد ذريعةٍ وشركٍ للإيقاع بيسوع.

تلك المرأة التي ما زلنا نتكلّم عنها، بعد ألفَيْ سنة، ونجهل هويّتها، هي إنسانيّتنا الممزّقة بين أخطائها وحكّامها، والتي نتساءل، متوجّعين، هل سيبعثها حبّ اللّه إلى حياةٍ جديدةٍ.

* *

جديرٌ بالملاحظة أنّ بعض نسّاخ الإنجيل، في القرون المسيحيّة الأولى، قد أغفلوا هذا الفصل من إنجيل يوحنّا، لأنّهم لم يغفروا ليسوع غفرانه خطيئة زنًى، وارتأَوا أنّه قد غالى في تسامحه!

الـــرَّاعي الصّـَالِح

(يوحنّا ١٠: ١ – ٣٠)

الراعي، في بلاد يسوع، رجلٌ حادّ العينين، لوّحت الشمس والرياح بشرته، رحّالةٌ لا يستقرّ، فهو، أبدًا، وراء قطيعه أو أمامه، يقوده، بلا هوادةٍ، إلى المراعي الجديدة، وفقًا للمواسم والأمطار، التي توشّي الصحراء ببساطٍ أخضر.

وكلمة الراعي، في مفهوم اليهود، ترتدي مهابةً، وتنضح بذكرياتٍ مجيدةٍ: فإبراهيم، وموسى، وداود، كانوا جميعهم رعاةً، وأصبحوا زعماء، فضلاً عن أنّ مهنة الراعي تذكّر بالعناية الإلهيّة التي تُعنى بشعبها، وتقوده، وتغذّيه، وتحميه.

الراعي شجاعٌ، ومتأهّبٌ أبدًا لمحاربة الحيوانات المفترسة التي تتربّص بالقطيع شرًّا. وهو رجل ثقةٍ ووفاءٍ، لا يتوانى عن ترك التسع والتسعين نعجةً، بحثًا عن واحدةٍ ضلّت؛ يُقاسي قيظ النهار الحارق، ويتحدّى مخاوف الليل، ولا يحجم عن بذل حياته، في سبيل إنقاذ قطيعه.

ولكم هو مختلفٌ عن الرعاة الزائفين، العميان والقتلة، زعماء العصابات، والبِدَع، والمذاهب! فهل هو، حقًّا، راعٍ صالحٌ، يتوخّى مصلحة قطيعه، ذاك الذي يطيب لـه أن يجمع، من حولـه، في صفوفٍ متراصّةٍ، قطيعًا لا رأي لـه، يكتفي بالثغاء، إعجابًا؟ أو ذاك الذي يدعو النعاج والخراف إلى التراصّ من حوله، كي تتملّقه، عوضًا عن المضيّ بها إلى المراعي النضرة المنعشة، وعوضًا عن ورود المناهل التي تروي، وتزوّد بالطاقة.

مهمّة الراعي الصالح هي اكتشاف المراعي الحافلة بالكلأ، والمناهل الخيّرة، وسَوْق القطيع إليها، وحمايته من كلّ مفترسٍ؛ فلا يهجر الخراف، ولا يلوذ بالفرار، عندما يتسلّل اللصوص، أو تهجم الذئاب، بل يدافع عن قطيعه، حتّى الموت.

الراعي الصالح هو من يدخل من الباب، في وَضَح النهار، ويدعو كلاً باسمه، ويسير في طليعة مدعوّيه، إذ قد جاء ليهبهم الحياة بوفرة.

والمدعوّون يسمعون نداءه، ويتعرّفون صوته، فيتبعونه، ويجدون الخلاص.

أمّا الراعي المزيَّف، فلا يدخل من الباب، بل يتسلّل، ويأتي بُغيةَ السرقة، والنهب، والقتل، والتدمير، فعلى القطيع الإعراض، والنأي عنه، لأنه غريبٌ، ومشبوهٌ.

ويسوع، الراعي الصالح، لا يني يمضي بخرافه ونعاجه إلى الأعشاب الطريّة، ومياه الواحات، ويدفعها قُدُمًا صوب أبيه، مصدر الحقّ، ومنبع الحياة الأوحد.

إنّه ليس كالرعاة الدائبين على الخداع والاستغلال، فهمّه الأوّل هو نموّ كلٍّ من خرافه وسلامته، والخراف تميّز صوته، وتتبعه، بثقةٍ وانقيادٍ، وتواصل مسيرتها، معه، آمنةً، مطمئنّةً. فقد وصف نفسه بالطريق، وأعلن أنّه إنّما جاء لكي تكون للبشر الحياةُ وفيرةً؛ ووصف نفسه بالباب المشرع على النور، وعلى الهواء المنعش. إنّه يفتح عيون البشر، ويُنهضهم مستوين على أقدامهم، ويتيح لهم التكلّم بحرّيّة، ويدعهم يسيرون نحو خلاصهم. ولكأنّ ما نتنشّقه من كلامه، هو نسمة الله نفسه.

في زمانه، حارب يسوع الفرّيسيّين الذين جعلوا، من حظيرة ممنوعاتهم وفرائضهم، سجنًا تتضوّر فيه النفوس جوعًا وهزالاً، وتسلّلوا إليه كاللصوص، كي يُجهزوا على تلك النفوس، التي جاء يسوع كي ينقذها، ويوفّر لها الكلأ، ويهبها وفرة الحياة، ببذل حياته في سبيلها، غذاءً وخلاصًا. ثمّ أرسل تلاميذه كي يأتوا، من بعيدٍ، بقطيعٍ آخر، ينضمّ إلى قطيعه ذاك، فيؤلّفان، معًا، قطيعًا كبيرًا، موحّدًا، لا يني ينمو جيلاً فجيلاً.

لطالما ندّد يسوع بالرعاة المأجورين الذين لا يشغلهم همّ القطيع. وأعلن نفسه الراعي المثاليّ الذي لا يُطيق فقدان نعجةٍ واحدةٍ من نعاجه المئة، بل يسعى في إثرها حتّى يعثر عليها. وقد بذل نفسه، فعلاً، عن قطيعه.

ولكنّ يسوع لا يريد قطيعًا يُساق بالعصا، ويتبع كلٌّ من خرافه الآخر، وهو لا يعلم إلى أين يمضي. فقد دأب على إيقاظ الحرّيّة لدى كلّ من يلقاه، وعلى دعوة كلّ فردٍ، أينما وُجد، إلى أن يكون مسؤولاً مع سائر البشر، مسؤوليّةً تناسب طاقاته.

وما برح ذلك الراعي الأعظم يستنهض رعاةً مخلصين يتأثّرون خطاه.

وما برح يسوع يحارب الرعاة الزائفين، القادة والزعماء الذين يقيمون، من أنفسهم، أصنامًا، ويسلبون أفراد رعاياهم حرّيّاتهم، ويدمّرون نفوسهم، ويخنقون فيهم الحياة الحقّة، باستخدامهم لتنفيذ مآربهم ونزواتهم، وبإخضاعهم لسلطتهم الجائرة، العمياء.

وطوبى لمن كان راعيه صالحًا، ويستجيب لندائه!

* *

وفي هذا السياق ضرب يسوع الراعي مثلاً قال فيه: «**من منكم إذا كان له مئةُ خروفٍ فأضاع واحدًا منها لا يترُكُ التسعة والتسعين الأُخرى في البرّيّة ويمضي في طلب الضالّ حتّى يجده؟ فإذا وجده حمله على منكبَيْه فرحًا، وعاد به إلى البيت، ودعا الأصدقاء والجيران وقال لهم: افرحوا معي فإنّي قد وجدتُ خروفي الضالّ. وأقول لكم إنّه على هذا النحو يكونُ الفرحُ في السماء بخاطئٍ واحدٍ يتوبُ أكثر من الفرح بتسعةٍ وتسعين بارًّا لا يحتاجون إلى توبة**» (لوقا ١٥: ٤– ٧).

كثيرةٌ هي نصوص العهد القديم التي تتحدّث عن بحث الإنسان عن الله، ولكن قليلةٌ هي التي تتحدّث عن بحث الله عن الإنسان الضالّ، وفرحه بالعثور عليه، كما فعل يسوع. ذلك الفرح الذي يشبّهه، أيضًا، بفرح امرأةٍ فقيرةٍ، أضاعت درهمًا من عشرة دراهم تحتفظ بها ضمانًا للأيّام السوداء، فقلبت بيتها بحثًا عنه، ولمّا عثرت عليه، دعت جاراتها لمشاركتها فرحتها.

لقد رأى بعض المفسّرين أنّ الدرهم يرمز إلى الخطأة، فهو، وإن فُقد، ما برح داخل البيت، بانتظار أن تلتقطه ربّة البيت. كذلك هم الخطأة الذين لا يبارحون بيت الآب الذي يسارع إلى ضمّهم إلى صدره، حالما يتوبون، ويفرح بعودتهم.

« مَن هُوَ قَريبي ؟ »

(لوقا ١٠ : ٢٩–٣٧)

لطالما أصدر الرابيّون فتاوى بشأن «القريب» الذي يتعيّن حبّه، ولا هدَف لهم سوى تبرير بُغضهم الوطنيّ والدينيّ لكلّ غريبٍ عن اليهوديّة. وعالِم الشريعة الذي استفتى يسوع: «**من هو قريبي؟**» كان على درايةٍ بتعاطف الناصريّ مع الوثنيّين، والعشّارين، والخطأة، وكان استفتاؤه ماكرًا يرمي إلى إثبات خيانة يسوع لليهوديّة. ولكنّ جواب يسوع كان أنفذ حذقًا، وحكمةً، إذ إنّه أكره ذلك العالم اليهوديّ، الماكر، على الاعتراف بأنّ بَطَل حبّ القريب، هو سامريٌّ تقطن الرحمة قلبه، مع أنّ اليهود يضمرون للسامريّين الازدراء، وبغضًا منقطع النظير. وبذلك أثبت يسوع انتصار وداعته التي تنتزع الاقتناع انتزاعًا، وجدوى فنّه العذب، ورقّته المرهفة التي كان يضيء بها النفوس ويهزّها، ويُعتقها من تشويه العلم الباطل.

سؤال عالِم الشريعة: «**من هو قريبي؟**» دليلٌ على جهله رحمة الله. ولكنّ يسوع حمله على الإجابة بنفسه على سؤاله، وعلى نقض كلّ ما تعلّمه من أنّ ثمّة من يجب عدّهم أقرباء، وآخرين ينبغي اعتبارهم غرباء، وبغضهم.

لا تصنيف، إذن، ولا حواجز بين البشر، بل جميعهم، أيًّا كان دينهم وجنسهم، ووضعهم الاجتماعيّ، خاضعون لسُنّة الألم عينها، فعليهم أن يحبّ بعضهم بعضًا، ويخدم بعضهم بعضًا؛ والقريب هو، في آنٍ واحدٍ، البائس المحتاج إلى عونٍ، والإنسان الطيّب الذي يُجيد ممارسة الرحمة.

«القريب» هو من يقترب من المحتاج، وليس قريبًا من يرى أخاه المحتاج ويبتعد عنه. اليهود كانوا ينفرون من السامريّين، ويأبَون الاقتراب منهم، ويضمرون لهم مقتًا سحيقًا، وقد قال أحد زعمائهم فيهم: «هذا الشعب الأحمق المقيم في سيخيم، والذي تمقته نفسي». غير أنّ كهنتهم نأَوا حتّى عن اليهوديّ الجريح. أمّا السامريّ

فدنا منه بلا نفورٍ، وضرب أروع مثالٍ في القرابة الحقّة. فالقرابة لا تولّد، دائمًا، الحبّ، ولكنّ الحبّ يولّد دائمًا قرابةً صادقةً.

والآب هو النموذج الأسمى للمحبّة والإخاء، فقد اقترب من جميع البشر المثخنين بالجراح، وتوغّل في اقترابه بحيث جعل ابنه يلبس جسدًا مثلهم.

ما من فلسفةٍ، وما من ديانةٍ لقّنت ذلك كما فعل يسوع. الطبيعة البشريّة تستشفّ هذه الحقيقة، ولكنّها تحتاج إلى أن يحرّرها ابن الله من أنانيّتها ومن أحكامها المسبّقة، بشعاعٍ من ضيائه، وبنفحةٍ من روحه، كي تتجرّأ على الجهر بهذه الحقيقة، وكي تمتلك القدرة على ممارستها.

رواية السامريّ الرحيم، هي رواية كلّ يومٍ، وكلّ مكانٍ. وهي تأكيدُ بأنّ المحبّة هي القاعدة الأولى، بل الوحيدة، التي تخضع لها كلّ الشرائع، وسنن الأديان جميعها.

بموته على الصليب، حبًّا بالبشر، ألغى يسوع كلّ ما يحدّ المحبّة، وأشرع أُفقًا كفيلاً بافتتان أبصار الأجيال. إنّ حبّه يُلفت، ويدفع إلى العمل، وهو الحبّ الذي افتقر إليه الكاهن واللاويّ، فأشاحا بوجهَيْهما، وتابعا مسيرتهما، غير عابئَيْن، أمّا الفرّيسيّ الذي كان قلبه ينبض بهذا الحبّ، فنظر، وتوقّف، وأسعف.

الحبّ الذي يلقّنه يسوع، يقرّب من كلّ إنسانٍ، إذ إنّ كلّ إنسانٍ يحتاج إلى إنسانٍ آخر، كي يكون إنسانًا، ولكي يُثمر خير ما في داخله، وينمو في الإنسانيّة.

في كلّ مكانٍ، في الشارع، في الحانوت، في وسائل النقل، نلتقي من يسعنا أن نجعل منه قريبًا لنا، بفضل نظرةٍ، أو بسمةٍ، أو مبادرةٍ، أو كلمةٍ.

غير أنّ القريب الأشدّ حاجةً إلى محبّتنا هو ذاك الذي لم نتوقّعه، والذي تُلزمنا حاجته الملحّة بإفساد خُطَطنا وبرامجنا، وهدر وقتٍ كان موقوفًا على مشاغل أُخرى؛ هو الذي ينتزعنا من راحتنا، ورفاهنا، وعاداتنا، على غير موعدٍ.

الكاهن واللاويّ كانا يخدمان الهيكل، وكان كلّ شيءٍ في حياتهما بنظامٍ وقسطاسٍ، وما كانا ليتوقّفا من أجل ذلك الجريح، الذي قد يكون قضى نحبه، وفي هذه الحال لا يجوز لهما لمسه، فجثّة الميت مصدر نجاسة، كما تعلّما، وإن كان موته موضع شكٍّ، فالنأي عنه أولى...

أمّا السامريّون الذين كانوا موضع ازدراء اليهود، فكانوا أقلّ تقيّدًا بالشرائع. وذلك السامريّ الطيّب، لم يجتز إلى الجانب الآخر، بل دنا، وعالج، وهدر وقته، وبذل ماله، وأخذ على عاتقه كلّ نفقات الجريح، مهما كان مبلغها.

كلٌّ من الكاهن واللاويّ طرح على نفسه السؤال الخاطئ: «ما سيحلّ بي، لو أنا توقّفت؟». والسامريّ هو الذي طرح السؤال الصحيح: «ما سيحلّ بهذا الجريح، إن لم أتوقّف وأُسعفه؟».

الكاهن واللاويّ شاهدا بعيونهما، ولكنّهما نفرا، وفرّا. أمّا السامريّ فقد رأى بقلبه وأحشائه، فتوقّف، وآسى، واهتمّ، وعرّض نفسه للخطر.

لم يتحرَّ هويّة الجريح ودينه، وطائفته، بل رأى فيه إنسانًا، أخًا محتاجًا فحسب، واستجاب لواجب الرحمة، على غرار الله، بلا منّةٍ ولا مصلحةٍ.

اليهود يضعون الواجبات الطقسيّة فوق الواجبات الأخلاقيّة. ولكنّ السامريّ استخدم العناصر الطقسيّة، الزيت والخمر، لأداء عمل رحمة. ولم يكن خدّام الهيكل هم الذي يمثّلون رأفة الله، بل الغريب المزدرى. ورأفته لم تكن شعورًا عابرًا، بل إحساسًا راسخًا بالمسؤوليّة.

لم يكن يعرف عن الجريح الضحيّة سوى أنّه ينتمي إلى جماعةٍ تمقته مقتًا قلبيًّا. ومَنْ كان لامه لو هو حثّ الخطى كما فعل الكاهن، واللاويّ من قبله، ولو بدافع الحرص على سلامته الشخصيّة؟

ولكنّ ذلك الغريب الممقوت هو القريب الحقّ. وهل كان سيفعل أكثر ممّا فعل لو كان الجريح أخًا لـه، أو صديقًا عزيزًا؟ وربّما كان واثقًا من أنّ ذلك الجريح اليهوديّ، بعد أن يشفى ويتعافى، لن يوجّه له كلمة شكرٍ.

* *

بعد أن استخلص الكاتب الذي استفسر يسوع مجرّبًا، العبرةَ التي ابتغى يسوع تلقينه إيّاها، قال له: «**اذهب، واعمل، أنت أيضًا، هكذا**».

ولكأنّه يقول لـه: «وإن كنت يهوديًا، وتتبوّأ مركزًا دينيًّا رفيعًا، لا ضير عليك إن

تمثّلت برجلٍ عطوفٍ احتقرتَه حتّى الآن»، مذكّرًا إيّاه بقول النبيّ هوشع: «**إنّي أريد الرحمة لا الذبيحة**».

الخطيئة في حقّ المحبّة هي خوفنا الأنانيّ على أماننا الشخصيّ، وعلى رفاهنا، الخوف من التضحية بأيّ شيءٍ.

وللتغلّب على الخوف لا بدّ من التمرّس بالثقة. فمن يثق بالآخر يمارس المحبّة، ومن يثق بالحياة والمستقبل، يمارس الرجاء، ومن يثق بالله، يحيا الإيمان.

ولكم سلكنا، ألوف المرّات، على غرار الكاهن واللاويّ، ونادرًا ما تمثّلنا بالسامريّ، حرصًا على رفاهنا، وأماننا، ومالنا، صامّين آذاننا عن صراخ المستغيثين!

أوَ ليست الخطيئة البشريّة الكبرى هي إغفال من يستغيثون ويبكون؟

ربّما يحسن إضافة إيضاحٍ على الوصيّة العظمى، التي تُشرع جادّة الحياة الأبديّة، فتصبح: «أَحبب الله بكلّ كيانك، وأحبب قريبك «غير المتوقّع» مثل نفسك».

وحينئذٍ تعني محبّة الله والقريب الدخول في زمن الله، في الملكوت الماثل والملكوت الآتي، والغوص في عباب القيامة، والنهل من النبع الذي يتفجّر حياةً أبديّةً.

* *

إنّ خريطة حبّ يسوع لا حدود لها، ولا حواجز فيها، بل هي مشرعةٌ في وجه جميع من يتحرّكون في إطارها.

ولا غرابة إن رأى المسيحيّون الأوّلون، في السامريّ الطيّب، يسوع نفسه. فمن خلال مبادرة السامريّ يتجلّى ملكوت الله.

مَـرْتا وَ مَـرْيَم

(لوقا ١٠: ٣٨–٤٢)

أُختان، وطبعان متباينان، وسلوكان متميّزان. ففي جانبٍ، الدائبة على العمل، المكافحة، التي قد لا يتّسع لها وقتٌ للصلاة، والتأمّل؛ وفي الجانب الآخر، تلك المنقطعة للصلاة، المتأمّلة، التي يشعّ منها جاذب الروح، وبالتالي التي لا تستغرق في العمل.

ليس في الإنجيل أيّ تفضيلٍ لإحداهما على الأُخرى. بل فيه تحذيرٌ من الاستغراق في الهموم المادّيّة الذي قد يصرف عن الجوهريّ.

ولا ريب أنّ، ثمّة، من هم مدعوّون إلى حياةٍ تأمّليّةٍ، ومن هم مدعوّون إلى حياةٍ عمليّةٍ، ولكن لا يحقّ لأيٍّ منهم أن يستصغر الآخر أو يزدريه.

ليس بين موقفَيْ مريم ومرتا أيّة علاقة تفوُّقٍ أو تدنٍّ؛ غير أنّ ثمّة أولويّةً للإصغاء، فهو جوهريٌّ للمتأمّل، مثلما هو جوهريّ للعامل. الأوّلويّة للكلمة، ففي البدء، في أصل كلّ شيءٍ، كانت الكلمة الخلاّقة، الكلمة التي تهب الحياة، الكلمة التي تهب الوجود.

واجب الخدمة واللقاء، وواجب الإصغاء والتأمّل، كلاهما ضروريّان. ولكنّ واجب الخدمة لا يستقيم ولا يكتمل إلاّ بالإصغاء إلى كلمة اللّه. والذين قاموا بخدماتٍ جبّارةٍ للإنسانيّة، لم يقوَوا على الاضطلاع بها، إلاّ بمثابرتهم على الإصغاء إلى همس اللّه، في داخلهم. فوحده من يُحسن الإصغاء إلى كلام الربّ، وإلى همسه، يستطيع تغيير العالم.

الإصغاء هو أولويّةٌ لكلّ فردٍ، مؤمنًا كان أو غير مؤمنٍ، الإصغاء إلى الصوت في حميميّته العميقة، قبل التحرّك والعمل. وعندما يدع المرء الكلمة الإلهيّة تدوّي في أغوار ذاته، يؤنس أنّه قد خُلِق من جديدٍ، وبُعِث، وهبّ واقفًا كي يتقدّم، ويعمل، ويخدم على نحوٍ أفضل.

ربّما، إثر سماع جواب يسوع، قبعت مرتا عند قدميه، وعكفت مريم على شؤون المطبخ.

« وَضَرَبَ لَهُم يسوع مَثَلًا فِي أَنَّهُ يَنبَغِي أن يُصَلُّوا باستِمرَارٍ، وَلَا يَملُّوا »

(لوقا: ١٨: ١–٨)

مغزى المثل واضحٌ: ينبغي أن نصلّي بمثابرةٍ عنيدةٍ تحاكي لجاجة تلك المرأة المهضومة الحقوق. فإن كان القاضي الباغي الذي لا يقيم للعدل قسطاسًا، ولا يرتجف له ضميرٌ، قد استجاب، بعد لأيٍ، للمطالبة المتكرّرة العنيدة، فكم، بالأحرى، الأب المحبّ، جوهر العدل، لا يستجيب لصرخات من يجأرون إليه بسؤالهم! «**تُرى، أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه ليلَ نهار؟ أيتوانى في أَمرهم، أقول لكم إنّه ينصفهم سريعًا...**». ولكن عليهم، حتّى إذا تمادى الانتظار، ألاّ يقنطوا، وألاّ يتخاذلوا ويفقدوا الرجاء، بل أن يظلّوا راسخين في الإيمان.

إنّ امرأة المثل جديرةٌ بأن تكون معلّمتنا، نحن الذين اعتدنا أن نحصل على كلّ شيءٍ في الحال. فأطعمتنا سريعةٌ، ومشروبنا فوريّ الذوبان والتحضير، وسلوكنا يتّصف بنفاد الصبر، في حين أنّ القِيَم التي يدعونا إليها يسوع لا تتحقّق في الحال، ويقتضي بلوغها الكثير من الدأب والصبر والمثابرة. والخطر الذي يهدّد جيلنا هو أنّنا سريعو الاستسلام.

أرملة المثل تعلّمنا، أيضًا، ألاّ نخاف ذوي النفوذ، وألاّ نتخاذل أمام الفاسدين الذي يحكموننا، وألاّ نقنط، بل أن نتمسّك بالتزاماتنا، بعنادٍ. وهي تحرّضنا على توظيف وقتنا وطاقاتنا في ما نراه حقًّا، وأن نواجه الخطأ بجرأةٍ وثباتٍ، حتّى إذا اضطررنا إلى مخالفة التقاليد الشائعة. إنّها تلقّننا فنّ الاعتراض ولكأنّها تصيح: «لا تكفّوا عن المطالبة بالعدالة، إلى أن تنهكوا سلاطين العدالة».

* *

يوم دوّن لوقا إنجيله، كان كثيرون من المسيحيّين قد شرعوا يفقدون الرجاء، لأنّهم كانوا قد ظنّوا أنّ يسوع سيعود سريعًا لتدشين الملكوت الذي أعلنه. ولكن لا شيء أتى، لا الربّ، ولا الأزمنة الحديثة. كانوا يتوسّلون إلى الله، فلا يلقَون جوابًا. أفيكون الله أكثر صممًا، حيال أدعيتهم، من القاضي الذي لجّت المرأة المظلومة في استعطافه؟

* *

وينبغي، أيضًا، أن تكون صلاتنا سليمةً، وأن نتساءل أيّ إلهٍ ذاك الذي نؤمن به، وما الذي نطلبه منه؟ وعلينا أن ندع هذه التساؤلات تؤرّقنا قبل تلفّظنا بصلواتنا، وأن نمهّد للصلاة بفسحة خشوعٍ تحول دون جعلنا من الله «شيئًا»، إلهًا وثنيًّا، عليه الخضوع لمشيئتنا، وتلبية رغباتنا، عوضًا عن عملنا بمشيئته، هو.

إنّ الله الذي دعانا يسوع إلى توجيه صلاتنا لـه، هو الذي علّمنا أن نقول لـه: «**أبانا... لتكن مشيئتك، وليأتِ ملكوتك**»، مشيئتك لا مشيئتي، وملكوتك لا ملكوتي.

مشيئة الله؟ سرّ حبٍّ لا ينضب له معينٌ، ولا يمكن حصره في «احتياجاتٍ» تافهةٍ.

يقتضي يسوع، أيضًا، من مؤمنيه الصبر والصمود، حتّى إن راودهم الشكّ في حضوره، ورأَوا الظلم يستشري، وعبادة المادّة تطغى، والكبرياء تُعمي الأذهان والقلوب، ويتساءل يسوع، في قلقٍ وأسىً، هل سيقوى كثيرون على هذا الصمود، وهل سيجد ابن البشر الإيمان على الأرض، يوم يعود؟

فحتّى عندما يتمادى الانتظار، لا يسوغ أن نزجّيه في التواني السلبيّ، بل علينا ملؤه بالعمل الناشط المجدي، الذي يذكيه الإيمان والصلاة التي لا تملّ. فالزمن الذي يبدو لنا طويلاً إنّما هو لحظةٌ في عين الربّ، وبذرة الملكوت بطيئة النضوج.

إنّنا، اليوم، نتطلّع إلى حلول يسوع في قلوب البشر، وإلى تحوّل العالم إلى مزيدٍ من العدل واحترام كرامة الإنسان. فهل تواكب هذا التطلّعَ صلاتُنا المتّصلة، وإيماننا الفاعل؟

يدعونا يسوع إلى الصلاة بلا كَلَل، ولكنّه، في الآن عينه، يحذّرنا من اجترار عباراتٍ أُفرغت من حرارتها. إنّه عليمٌ باحتياجاتنا، ولذلك يريد منّا، أكثر من الكلام، الثقة، والإيمان، والتحوّل الدائب إليه. وهو، أكثر من تلبية احتياجاتنا المادّيّة، يهبنا روحه، كي ننقاد إليه، ونحيا به.

ولا تستقيم الصلاة ولاتصمد، ما لم تتغذَّ بكلام الله. وبالمقابل يتعذّر تمثّل كلام الله إلاّ في حياةٍ قائمةٍ على الصلاة.

الصلاة التي لا تغيّر ملامح الحياة، إنْ هي إلاّ وهمٌ.

الصلاة ذهولٌ في الله. ولكنّها، في الآن عينه، نشدان إرادته، ورؤية حاجات البشر بوضوح.

الصلاة، في مفهوم يسوع، مسؤوليّةٌ: إنّها الدافع القويّ نحو التزاماتٍ حاسمةٍ. وإنّما يتّصل الإنسان بالله، بحياته كلّها.

غالبًا ما نصلّي على نحوٍ معكوسٍ، منكفئين على ذواتنا، عوضًا عن تعرّضنا لرياح الصحراء، ونار الله.

بالصلاة نستشفّ أنّ الحياة هي أكثر من الحياة، بحيث تبدو وكأنّها إطلالةٌ على الفراغ. بيد أنّها، من هذا الدوار، تستمدّ أكثر توازناتها ثباتًا.

الصلاة التي تُبعد عن الله و القريب، تقتل، على نحو ما كانت صلاة الفرّيسيّ.

فعلى الصلاة أن تقضي على صورة الله الشوهاء التي رسمناها بأنفسنا، مستمدّين ملامحها من رغباتنا. لطالما حاول البشر السيطرة على الله، وصوغه على صورتهم، هم، وبذلك ينتهون، لا محالةَ، إلى قتل الله والإنسانيّة في ذواتهم. أمّا عندما يُميتون ذواتهم، طوعًا، ويُشرعونها على الآخرين، وعلى الله، فهم، حينئذٍ يعاينون الله، ويحبّون البشر.

ليست الصلاة دخولنا في موقعٍ ضبابيٍّ تختلط فيه مخاوفنا وأحلامنا، وليست إلقاء رسالة في «صندوق بريد الأبديّة»، بل هي تجرُّدنا التامّ أمام الله، ومناجاته بألفةٍ وبساطةٍ، في اتّحادٍ مع جميع إخوتنا، فعندما هو علّمنا الصلاة، دعانا إلى قول «**أبانا**».

الصلاة هي الإبحار صوب الله، ووضعُ ذواتنا بتصرّفه، وهمسُنا المتكرّر بلفظة «**شكرًا**».

مَن لَيسَ أَصَمَّ وَأَبْكَمَ، اليَوم ؟

(مرقس ٧ : ٣٢–٣٧)

جمعٌ صاخبٌ يدفعون أمامهم رجلاً أصمّ أبكم، ويلتمسون من يسوع أن يضع يديه عليه، علّه يتحرّر من عاهته.

وقد أَلِف يسوع إشراك المرضى في معجزات شفائهم، بتحريض إيمانهم. ولكي يحرّض الإيمان لدى ذلك الأَصمّ الأبكم، لجأ إلى لمسه: «**فوضع أصابعه في أذنيه، ثمّ تفل ولمس لسانه**»، ولكأنّ عافية يسوع كانت تنساب إلى ذلك المسكين وتصيبه بعدواها. ورفع يسوع عينيه إلى السماء، مؤكّدًا مشاركته الآب في كلّ ما يفعل، وتنهّد أسىً على عاهات البشر، وقال «**افّتح**». ما أجمل هذه الكلمة التي انحفرت في نفس بطرس، وطالما ردّدها وهو يروي تلك المعجزة، ونقلها مرقس، بلهجتها الأراميّة الأصليّة العذبة! وسمع الرجل في الحال، وطفق يتكلّم.

كان يسوع قد انتحى بالرجل بعيدًا عن عيون الجمع وفضولهم. ثمّ بعد أن تمّ الشفاء، أوعز إليهم ألاّ يذيعوا أمره، وأن يظلّوا بكمًا حول المعجزة، لكيلا يُخيّل إلى الجماهير أنّه هو المسيح السياسيّ الذي يتوقّعونه، إذ إنّه على نقيض توقّعاتهم وتطلّعاتهم، إنّما يبتغي تحرير نفوس البشر، بالتألّم والموت على الصليب، من أجلهم.

ولكنّ الجمع عجزوا عن حبس ألسنتهم، وقد رأَوا، في ما حدث، تحقيقًا لقول الأنبياء في المسيح المخلّص، ولاسيّما قول أشعيا: «**حينئذٍ يطفر الأعرج كالأيّل، ولسان الأبكم يترنّم، وتنفتح آذان الصمّ، وعيون العمي**». وقد أخذ بهم الدهش والإعجاب كلّ مأخذٍ، فراحوا يردّدون: «**إنّه أحسن في كلّ ما فعل، وجعل الصمّ يسمعون، والبكم يتكلّمون**».

إنّه عالَمٌ يُخلَق من جديدٍ!

إنّ عالم المسيح يتحقّق كلّما انتقل بشرٌ من بابل الفوضى حيث يسود اللاتفاهم،

إلى العنصرة حيث يفهم كلّ فردٍ الآخر، أيًّا كان لسانه، وجنسه، وحضارته؛ حيث لا تجاهُلَ لكلام الآخرين، ولا احتكارَ له؛ حيث يتحرّر لسان العاجزين عن التعبير عمّا يصطرع في صدورهم، ولا يدّعي أحدٌ الانفراد بالتكلّم بصوتهم؛ حيث يتيقّظ كلّ فردٍ لخير تطلّعات القلب، وإلهامات الروح، في الذات ولدى الآخرين؛ حيث تتّسم العلاقات بين البشر باللين والرفق، وتتيسَّر ظروف العمل والعمّال؛ حيث يقوم توازنٌ بين الكلام الذي يعبّر، والصمت الذي يصغي؛ وحيث يسري بين الأُسر، والجماعات، والجموع، تيّار اتّصالٍ ينقلب مشاركةً؛ وحيث، من خلال كلام البشر، يتبيّن المؤمنون صوت الله، وحيث أصدقاء يسوع لا يتلعثمون، وهم يعلنون البشرى، ويُشيدون بعجائب الله.

من هم الصمّ والبكم، اليوم؟ أو بالحريّ من ليس أصمّ أبكم على كوكبنا الذي أصمّه دويّ العنف، وأخرسه الخوف، والانكماش على الذات؟ ومن سيهب الجميع - أفرادًا وشعوبًا - السمع، والإنصات، والكلام؟ في طقوس العماد، لدى الكنيسة الغربيّة، هذه الصلاة: «فليهبْك الربّ يسوع الذي جعل الصمّ يسمعون، والبكم يتكلّمون، أن تسمع كلامه، وتعلن إيمانك به، تسبيحًا وتمجيدًا لله الآب».

فماذا لو تركنا يسوع ينتحي بنا... شيءٌ من لعابه، ولمس أصابعه التي عجنت الطينة البشريّة، كفيلان بمنحنا الإنسانيّة الحقّة، وبإسماعنا «**افّتَح**»، التي تجعل من كلٍّ منّا، إنسانًا جديدًا، متعافيًا من صممه وبكمه، منفتحًا، ينشر، بإصغائه، وبنظرته، وببسمته، النور والسعادة عند كلّ من يلتقيه.

يَصيرانِ جَسَدًا وَاحِدًا

(مرقس ١٠: ٢- ٩)

التطوّرات العميقة التي انطلقت في منتصف القرن العشرين، وما انفكّت ماضيةً في اتّساعٍ، والتي أشاعت الإباحيّة، وجعلت من الجنس سلعةً، ألحقت بمفهوم الزواج ضررًا جسيمًا، فكادت تقوّض أركانه، وتحوّله إلى تجربةٍ تنتهي في أيّ وقتٍ. من قبلُ، كان الزواج، في مذاهب كثيرةٍ، خاضعًا لنزوات الرجل، الذي يملك حقّ تطليق زوجته متى شاء، لسببٍ أو لغير سببٍ.

وكان موسى قد أتاح الطلاق، على أن تُمنح الزوجة المطلّقة كتابًا يُثبت أنّها أمست طليقةً، قادرةً على الزواج من رجلٍ آخر. ثمّ اختلف الرابّيّون في تفسير هذه الوصيّة وبرز تيّاران متناقضان: فمدرسة رابّي شامّاي حظرت الطلاق إلاّ إذا سلكت الزوجة سلوكًا مشينًا وارتكبت خيانة، (ولا غضاضة على الرجل إن هو ارتكب مثل ذلك)، في حين أنّ مدرسة رابّي هلّيل أباحت الطلاق التعسّفيّ، لأتفه الأسباب، مثل إفساد طبخة أو حرقها، أو لمجرّد اشتهاء الرجل امرأةً أُخرى.

وجاء فرّيسيّون يستفتون يسوع في الأمر، وغايتهم نصب شركٍ له: فأيًّا كان جوابه سيُصنَّف في إطار أحد الفريقين: المتزمّتَين أو المتراخيَين. ولكنّ يسوع يستعصي على التصنيف، ولا يردّ على سؤالٍ سخيفٍ مغرضٍ بجوابٍ سخيفٍ يوفّر له التملّص. بل هو يسمو عاليًا، وفي الآن عينه يوغل في العمق، حتّى منشأ الحبّ، حتّى الكلمة الخالقة التي تهمس، في آذان الرجل والمرأة، دعوتهما المشتركة.

وحيال ما انطوى عليه استجواب الفرّيسيّين من ضيق أفقٍ وسوء نيّةٍ، تفجّر غضب يسوع وقال: «**إنّه بسبب غلاظة قلوبكم كتب لكم موسى هذه الوصيّة...**». غلاظة القلب قد نسمّيها، اليوم، تصلّب شرايين القلب، أو تحجّر القلب، وهي داءٌ واسع الانتشار. فبسبب «الضعف البشريّ»، بات يُحكَم بالطلاق لكيلا تُطلَق الحرّيّة،

بلا قيودٍ، للأقوى، وللأسوأ. وبسبب «الضعف البشريّ»، غدا الزواج يتمّ بموجب عقودٍ رسميّةٍ، مفصّلةٍ، موثّقةٍ، ولكأنّ الخلافات متوقَّعةٌ في الغد.

ولكنّ يسوع لا يُساير هذا الضعف لكيلا يزيد الإنسان إسفافًا وانحطاطًا، بل يسعى إلى رفع أنظاره إلى أعلى، والسموّ بقلبه وبنواياه، وإلى تطهيرها من الصغارات والغايات الوضيعة، ويبتغي أن يقيم على الأرض - كما في السماء - ملكوت سعادةٍ مبنيًّا على الحبّ الصادق النقيّ. وإنّما الخطر يكمن في «تصلّب» القلب، بحيث يعجز عن الخفقان على وتيرة قلب الله.

وارتقى يسوع بمستمعيه إلى مقصد الله، منذ البدء، عندما خلق الإنسان رجلاً وامرأةً، كي يُكمل أحدهما الآخر، ويُسعد أحدهما الآخر، ويُنجبا ذريّةً سعيدةً. وأرادهما جسدًا واحدًا، يجمعهما قلبٌ واحدٌ، وحبٌّ كاملٌ يدوم الحياة كلّها، حبٌّ مبنيٌّ على حنان القلب، لا على علاقات القوّة، حبٌّ يحيا وينمو في التبادل والمساواة.

إنّ الذي خلق الزواج هو الذي حدّد هدفه وطريقة استعماله. وكلّ ما يحيد عن هذين الهدف وأسلوب الاستخدام، يُفسد الزواج. والعاملان الرئيسيّان، في إفساده، هما «غلاظة القلب»، وادّعاء أحد الزوجين تفوّقه على الآخر، وفرض سلطته الاستبداديّة عليه، في حين لا يملك أحدٌ من الزوجين حقّ إيذاء الآخر. وكلّ اختلالٍ في هذا التوازن هو تفريقٌ لما جمعه الله.

لم يؤخذ يسوع بشَرَك التشريع، إذ إنّ لكلّ حقبةٍ مشاكلها وتدابيرها القانونيّة، ويسوع أبى التكلّم بلسان رجل القانون، فأطاح بفخّ المتحذلقين، ولكنّه رسّخ المبدأ الإلهيّ الخالد، المتمثّل في الحبّ البشريّ المولود من حبّ الله. وتطاولت أنظاره إلى أعلى وأبعد، إلى الرهان السنيّ الذي يضيء لقاء الرجل والمرأة، القائم على تبادل حبٍّ صافٍ، واحترامٍ صادقٍ، وتساوٍ في الحقوق والواجبات، تحتاج ممارستها اليوميّة إلى نعمة الله، وأَزْرِهِ، والتملّي بروحه.

طُفُولَــةُ

الطفولة التي يحبّها يسوع ويقتضيها ليست الطفولة الطبيعيّة، التي قد تكون، أحيانًا، من الشفافيّة، بحيث يرى الله انعكاس وجهه فيها؛ وأحيانًا أُخرى يخالطها العَكَر، وتسفر، منذ الحداثة، عن بذور الشرّ الكامنة في حناياها.

فليس المهمّ أن يكون المرء طفلاً، بل أن يصبح طفلاً، بفضل ولادةٍ جديدةٍ.

الطفولة التي يحبّها يسوع ويؤثرها هي التي نشأت عن سيطرةٍ شاقّةٍ، وئيدةٍ، داميةٍ، على جميع نزعات الطبيعة السفلى. هي أرضٌ بكرٌ تمّ انتزاعها، شبرًا فشبرًا، من قفر الأهواء الهائجة، ولجج الشهوات الجامحة، الصاخبة، النهمة. إنّها ثمرة عمرٍ من النضال ضدّ أعداءٍ قابعين في أغوار الذات.

وهذه الطفولة هي من جليل الشأن، في نظر يسوع، بحيث إنّه يُنذر بأرهب عقابٍ، وبنار جهنّم التي لا ينطفئ لها سعيرٌ، كلَّ من يسهم في اغتيالها في النفوس، أو في تلويث حديقتها النضرة، أو في إلقاء اضطرابٍ مميتٍ في بحيرتها الساكنة.

في مواجهة عالَمٍ يُفسد الطفولة، ويستثير الشهوات والتعطّش إلى إشباعها، ويؤلّه الرغبات الدنيئة، يخلع يسوع قيمةً مطلقةً على العفّة، ونقاء القلب والجسد، و يستنّ شريعةً مغرقةً في البراءة والاقتضاء، شريعةً تجهل أنصاف الحلول، والمهادنات، ولا تتوانى عن بتر كلّ عضوٍ قد يقود إلى الدنس.

* *

الطفولة رمزٌ للرجاء. والرجاء طفلةٌ غالبًا ما توسَع ضربًا، ولكنّها تستعيد، دائمًا، بسمتها، وتحدّق إلى الناس بعيون المستقبل.

يسوعُ وَالشّابُّ الغَنِيّ

(مرقس ١٠ : ١٧–٣٠)

ليسوع أسلوبٌ فريدٌ يجمع الدعابة إلى الوقار والإدهاش، فيُسقط، برقّةٍ، الأقنعة المستعصية، ويشقّ، بلطفٍ، آفاقًا لا نهاية لها، يجهد الفكر في استشفافها، مذهولاً.

أتاه، يومًا، شابٌّ تجمّعت لديه كلّ عوامل تقدير الناس واحترامهم، من يُسرٍ، وجاهٍ، فضلاً عن سلوكٍ قويمٍ لا غبار عليه، وحفظٍ للوصايا يُضيف إلى هيبة الثراء هالَة تبجيل. جثا الشابّ عند قدمي يسوع، وحيّاه، وسأله: «**أيّها المعلّم الصالح، ماذا عليّ أن أعمل لأرث الحياة الأبديّة؟**».

تُرى هل كان يعرف هويّة ذاك الذي جثا أمامه، والذي وصفه بالمعلّم الصالح؟ هل ساوره الظنّ أنّه في حضرة كائنٍ يفوق البشر، أم إنّه دعاه على هذا النحو عملاً بتقليدٍ شائعٍ يُطلق الألقاب جزافًا، ويدعو كلّ رجل دينٍ «معلّمًا صالحًا»؟

أمّا يسوع فيسخر من تلك الألقاب ويُزري بها، ويودّ القضاء عليها: «**لِمَ تدعوني صالحًا؟ ليس من صالح إلاّ الله وحده**». إنّ أوصاف الصلاح، والحقّ الأسمى، والتعليم، والأُبوّة، تعود إلى الله وحده، وقد يغفل عن تلك الحقيقة حتّى ممثّلو الله على الأرض، فيختلسون ألقابه، ويتباهَون بها. ومن ثمّ لم يتوانَ يسوع عن تحذير تلاميذه: «**لا يدعُ أحدٌ منكم نفسه أبًا ومعلّمًا ومدبّرًا**»، فإنّما ذلك اغتصابٌ لحقوق الله.

في نظر الناس، كان ذلك الشابّ الغنيّ الذي قرن المال بالكمال، مغمورًا ببركات الله الذي أغدق عليه خيراته بسخاء، وهداهُ، ولم يُمسك عنه شيئًا. أمّا هو، وقد ظفر بكلّ ما يطمح إليه إنسانٌ على الأرض، فقد ابتغى أن يدعّم تلك الخيرات الأرضيّة بإرثٍ في الآخرة، بحيث يمسك بالحبل من طرفيه.

ربّما كان يطمح في سماع تأكيد يسوع بأنّ الآخرة مضمونةٌ له، مثلما ضُمنت له

الدنيا؛ أو ربّما كان، مع كلّ ما حظيَ به، يتلمّس في أغوار ذاته فراغًا مقلقًا لا يدرك لـه سرًّا، ويودّ الوقوف على كنهه. ولذلك أحبّه يسوع الذي يؤثر بحبّه من يُقرّ بفقره، ويعترف بفراغه؛ أَحبّه لأنّ الثروة لم تغشّ تمامًا بصيرته، ولم تُغنِه عن حاجةٍ أسمى كان يتوق إلى إدراكها.

بادئ الأمر، ردّ يسوع على سؤال الشابّ، وفقًا لمنطقه، وعلى غرار «معلّمي إسرائيل»، في شيءٍ من الشرود، ولم يرَ فيه إلاّ صورةً لوجوه الكثيرين من اليهود الذين صاغتهم الشريعة والتقاليد، فقال له: «**أنت تعرف الوصايا...**»، فعلامَ تسألني؟

غير أنّ معظم وصايا الشريعة نواهٍ، وهل الامتناع عن الخطأ والخطيئة كافٍ لمن يضجّ في صدره توقٌ إلى الحياة الأبديّة؟

منذ صباه، كان الشابّ قد التزم بالوصايا كلّها، ولكن، لا الشريعة سرّبت إلى نفسه السلام، ولا المقتنيات المادّيّة أشبعت تطلّعاته، ولا تعاليم الكتبة المعلّبة نقعت غليل عطشه، فراح يبحث عن هدفٍ أسمى يضيف إلى إرثه المادّيّ، وضميره المطمئنّ، مقتنىً آخر، حاسمًا، نهائيًّا، يضمن لـه، إلى جانب الثروة، إرث الحياة الأبديّة.

واتّضح ليسوع أنّه أمام نموذجٍ مختلفٍ، يُصغي إلى هاتفٍ داخليٍّ يوحي لـه أنّ، ثمّة، ما هو أغلى ثمنًا من الثروة، وأرفع قدرًا من فضيلة الفرّيسيّين.

وقد أكّد لـه يسوع هاجسه، إذ قال لـه: «**أمرٌ واحدٌ ينقصك**». لا ريب أنّ الدهشة استولت على الحضور. فما عساه ينقص ذاك الذي أُعطي الثراء فائضًا، وحفظ الوصايا كاملةً؟ وترقّب الشابّ، في رهبةٍ، بيان ما ينقصه. ولا جرَم أنّ الدُّوار قد لفّه عندما انقضّ عليه الحكم انقضاض السيف الصارم: «**امضِ، وبع كلّ ما لك، وأعطِه للفقراء، فيكون لك كنزٌ في السماء، وتعالَ اتبعني**».

قاطعًا كان القرار، وصارمًا الحكم، ومذهلاً الطلب. عندنا يقولون: «المال يعادل الروح»، فكيف الانسلاخ عنه؟ ثمّ أليس المال «زينة الحياة الدنيا»؟ وأليست الثروة علامة رضى اللّه، وهبةً سخيّةً منه، كما يعلّم فقهاء اليهود؟ فعلامَ التخلّي عنها؟

كان ذلك الشابّ صادقًا في قوله إِنّه حفظ الوصايا منذ صباه، ولكنّ حفْظه لها

كان، كما علّمه الكتبة، التزامًا بحرفيّتها. فهو، مع نصاعة سلوكه، كان يعبد المال، إلى جانب عبادة الله، والشريعة لا ترى في ذلك غضاضةً، بل هي ترى، في الثروة، دليل بركة الله ورضاه. والواقع أنّه، بكَلَفه بالمال، عبد ربّين، وخالف الوصيّة الأولى، أمّ الوصايا: «لا يكن لك إلهٌ غيري». ولذلك تعذّر عليه اتّباع يسوع.

يسوع لا يُساوِم، ولا يرتضي بالحلول الرخوة. بل يقتضي كلّ شيءٍ، كي يهب كلّ شيءٍ. ومن كانت الأثقال المادّيّة ترهق نفسه، وتعيق خطاه، لا يقوى على التصعيد في معارج الكمال. فعلى ذلك الغنيّ، إذن، أن يتخلّى عن كلّ ممتلكاته للفقراء، كي يظفر بما تصبو إليه نفسه.

ولو استجاب ذلك الشابّ لدعوة يسوع، لَوَلَجَ السعادة، من أرحب أَبوابها، ولمضى، بعزيمةٍ، في مناهج الحياة الحقّة، الديناميّة، ويدُه بيد المخلّص. ولكنّه تخاذل، وعجز عن الانعتاق من ربقة مقتنياته؛ فتجهّم، واغتمّ، وارتدّ، وسكن الحزنُ قلبه. لقد قدّم له يسوع عرض استثمارٍ طويل الأجل، في المصارف السماويّة، ولكنّه آثر استثمارًا أكثر ضمانًا، في المصارف الدنيويّة، سيفضي به إلى خسران رأسماله كلّه.

مضى الشابّ حزينًا، ولكنّ حزن يسوع كان أعمق غورًا، فقد تبيّن، بأَسًى، كم كان ذاك الشابّ الذي أحبّه أسير غناه وسجينه. ورأى، من خلاله، كثيرين من البشر، سجناء ما يملكون، فيجتازون بجانب الملكوت، ولا يقرعون بابه. وقد عبّر، بقوّةٍ، عن المأساة التي يتخبّط فيها الأغنياء، في سعيهم نحو الحياة الأبديّة التي تقتضي منهم التخلّي عن كلّ ما ملكت أيمانهم، ومعظمهم يُحجمون!

لقد آلمته رؤية ما يولّد حبّ المال من إعراضٍ عن شروط الملكوت: السلام، والفرح، وبساطة العيش، واقتسام اللقمة، والتضامن، والعدل، والمحبّة، والثقة، والتسامح، وانفتاح القلب؛ وآلمه ما يسفر عنه هذا التخاذل من سلب الكثيرين حظّهم من خيرات الأرض، ومن سلامة النفس والجسد، ومن الحؤول دون بدء الملكوت على الأرض، واستمرار نموّه في الأبديّة

* *

إنّ يسوع ينسف المفاهيم الرائجة، ويقلب كلّ الموازين المصطلح عليها، ولا يقبل

أن يكون تابعًا لـه، وتلميذًا، إلاّ من وهب ماله من هم في حاجةٍ إليه، ومن تخلّى عن كلّ شيءٍ كي يختاره وحده. فليس بالخبز وحده يحيا أتباع يسوع، ولا هم يلتمسون في المال أمانهم. فالمال لا يغنيهم عن الله، ولا يُعفيهم من التزاماتهم تجاه الآخرين، لا بل إنّه، على النقيض من ذلك، يجعل من ذلك الالتزام مسؤوليّةً باهظةً.

وعلى من ابتغى اتّباع يسوع أن يكون حرًّا متحرّرًا، ولا يتمّ لـه ذلك إلاّ إذا انعتق من ربقة المال والرفاه، وكرّس وجوده لتغيير العالم من حوله إلى الأمثل، وأَوْلى أولويّة اهتمامه للخدمة، ولإضفاء وجهٍ أكثر سنًى على المجتمع.

يسوع يريد أتباعًا رشيقين، طليقين، مثل طيور السماء وزنابق الحقل، وعلى حدّ قول كيركيغارد: «الإنجيل المفعم رأفةً يحيل الإنسان إلى زنابق الحقل وطيور السماء، فإلى جوار أولئك المعلّمين الزهيدي الكلفة، والذين لا يقبضون أجرهم مالاً ولا إذلالاً، يتعذّر الشطط».

أمّا الذين يحرصون على اختزان المنّ للغد، وينشدون في المال ضمانًا وأمانًا، فهؤلاء قد هووا إلى أسفل دركات الجبن والصغارة، وخانوا الله وإخوانهم. ومن لا يعيد لله ماله طوعًا، تعلّقًا بالمال، أو خشيةً على ما يوفّره من مستقبلٍ آمنٍ، لا ثقة بالله فيه، ولا يرتضيه يسوع تلميذًا.

غالبًا ما يكون المال امتحانًا لمدى قدرتنا على التضحية والعطاء، وإيثار الله والآخرين؛ ومن فشل في هذا الامتحان كان لـه المال نقمةً لا نعمةً، وحاجزًا دون الملكوت، وحائلاً دون بلوغ الله.

في نظر يسوع، ونظر كلّ من يعرف حقيقة الإنسان، وحقيقة المال، ليس التخلّي عن الثروة تضحيةً أو خسارةً أو غُرْمًا، بل هو ربحٌ لا يُثمَّن، وكنزٌ في السماء. إنّ مكافأة العطاء تكمن في الفرح الداخليّ الذي يغمر المعطي؛ وإنّ التضحية بالمال تعني مقايضته بالطهر والقناعة، كما أنّها شرطٌ للتطلّع إلى القمم، والاكتفاء بكلّ جوهريّ.

إنّ قلب ابن الله ما انفكّ ينشد الفقير الطوعيّ، الغنيّ الذي يتجرّد من كلّ ماله، ويفتقر حبًّا به، ونادرًا ما وجده في عالمنا الماضي توغّلاً في عبادة المادّة.

هذا ما أكّده يسوع عندما تخاذل الشابّ الغنيّ، حافظ الوصايا كلّها، عن التضحية بخيراته الكثيرة، ومضى حزينًا، خائبًا، فقال الربّ: «**ما أعسر على ذوي الأموال أن يدخلوا ملكوت الله!**».

ويقول الإنجيليّ مرقس إنّ التلاميذ بُهتوا لهذه الأقوال؛ ولا عجب في ذلك، فهم ما برحوا متأثّرين بما تعلّموه من قبل، من أنّ اليُسر الزمنيّ إنّما هو دليل بركة السماء، فكيف توصد دون الأغنياء أبواب الملكوت؟

كان لا بدّ من مزيدٍ من التأكّد يزيل شكوكهم، ويرسّخ تعليم يسوع الجديد في أذهانهم. وقد فعل يسوع ذلك في رقّةٍ وحزمٍ، وبعبارةٍ استخدم فيها صورةً تقرع الفكر والخيال، فأضاف: «**يا بنيّ، ما أصعب الدخول إلى ملكوت الله! إنّه لأسهل أن يعبر جملٌ في ثقب إبرة من أن يدخل غنيٌّ ملكوت الله!**».

تحدٍّ قمّةٌ في الصعوبة: دخول ملكوت السماوات مرهونٌ بالتجرّد من المال، والتخلّي عن الخيرات الأرضيّة، اللّذيْن يدرك يسوع مشقّتهما، فهما، غالبًا، أقسى من سلخ الجلد عن اللحم، على حدّ قول غاندي، رغم ما يؤتيانه، في ما بعد، من شعورٍ بالرشاقة والانعتاق والحرّيّة والفرح.

ومع ذلك، لا مفرّ من ذَيْنك التجرّد والتخلّي، رغم مرارتهما، وقسوتهما؛ فمن تشبّث بغناه، كان عبور الجمل في سُمّ الإبرة أيسر من دخوله الملكوت.

ولكنّ ذلك التأكيد ما أفاد تلاميذ يسوع إلاّ مزيدًا من الارتباك والحيرة. فإن كان الذين منّ عليهم الربّ بخيرات الأرض مقصيّين، هكذا، عن ملكوته، فمن، إذن، سيدخله؟

وربّما تخيّل التلاميذ، آنذاك، طوابير الذين كان الناس يعتقدون أنّهم محظيّو الربّ، الذين أغدقت عليهم الدنيا خيراتها، وقد تراصّوا على أبواب الفردوس مثل جِمالٍ مُنيخةٍ، يقرعون، وما من مجيبٍ.

صحيحٌ أنّ تلاميذ يسوع كانوا فقراء، غير أنّ أقواله تتعارض مع كلّ ما تعلّموه من دين أجدادهم. أتراه يأتيهم بدينٍ جديد؟

أَجل، إنّه لكذلك، وهو دينٌ لا يحكم بحسب الظاهر، بل بحسب العدل. إنّه يقلب المعطيات والمعايير المتوارثة، ففي الملكوت يصبح الأوّلون أخيرين، والأخيرون

أوّلين. إنّه يغبط الفقراء والمرذولين، والذين، بدافع التراحم والتعاطف، يتخلّون للمحتاجين عن كلّ شيءٍ. يرفع الضعفاء والمُهمَلين، ويحطّ المتعالين والعظماء إلى الدركات السفلى؛ يدين بقسوةٍ المرائين والصلِفين، ويبرّر الذين يُقبلون إلى الربّ مصفري الأيدي، متضرّعين، يبكون وَهنَهم وهوانهم، ويفتح لهم مصراعي باب ملكوته؛ يسلب المدّعين ما يدّعون امتلاكه، ويُفيض خيراته على من يُقرّون بفراغهم، وعلى من أفرغوا ذواتهم من كلّ شيءٍ سواه تعالى.

تلك الرؤية كانت بدعةً استغربها التلاميذ، وتعذّر عليهم استيعابها، فازدادوا ذهولاً، وقال بعضهم لبعض: «**إذن، من يستطيع أن يخلص؟**» إن كان من ظنّوهم مغبوطين ومباركين، هم، في الواقع، ملعونون، وإن كان ما ظنّوه نعمةً، هو نقمة؟ وهل ستُسمَّر البشريّة على صليب هذه الاستحالة؟ أوَ لم يأتِ يسوع كي يحرّر، لا لكي يدين؟

في الأسطر القليلة السابقة، أشار الإنجيليّ مرقس مرّتين إلى تحديق يسوع: فهو قد حدّق إلى الشابّ الغنيّ وأحبّه؛ ثمّ، إثر انصرافه، أجال نظره في من حوله، قبل أن يخاطب تلاميذه، ويبلّغهم تعليمه الجديد؛ وها هوذا، للمرّة الثالثة، يقول إنّه حدّق إلى تلاميذه وقال لهم: «**ذلك يستحيل عند الناس، لا عند الله؛ فإنّ كلّ شيءٍ مستطاعٌ عند الله**».

نظرات يسوع، مثل كلماته، تخترق النفوس، وتمزّق الأقنعة، وتتخطّى الزمن، وتشقّ الآفاق الفسيحة القشيبة، وتسكب فيضًا من النور والحنان والأمل.

حيال قمّة الملكوت الشاهقة التي أشرع آفاقها، وارتدّت عنها عيون التلاميذ حسيرةً، أيّة هوّة نورٍ ورجاءٍ، فسحها أمامهم قوله: «**ما يستحيل على الناس، مستطاعٌ عند الله**».

هل من جوابٍ أكثر تحريرًا، وأبلغ أثرًا؟ ومَن من البشر تكلّم، يومًا، بمثل هذه اللغة الخلاّقة، وشدّ، بمثل هذا العزم، قوس الرجاء، وهمس، في قلب البشر، كلماتٍ بمثل هذا الطموح؟

«**من يستطيع أن يخلص؟**» سؤالٌ جمٌّ، حارقٌ، مأساويٌّ، بيد أنّ ما يتعذّر على الناس، يحقّقه ابن الله بقوّة كلمته المنقذة، كلمته التي تجرح وتوقظ، وتضع كلّ

إنسانٍ حيال مسؤوليّاته. وفي كلّ جيلٍ، ثمّة من يسمع هذه الكلمة، ويدعها تتفاعل في أعماقه، ويعمل بها، فينهج، لنفسه ولإخوته، درب الخلاص.

ما كان أجدرنا بالقنوط لو أنّ كلمة الله الحيّة انطفأت جذوتها، ولو أنّ روح يسوع عجز عن استنهاض شهودٍ! إلاّ أنّ الكلمة ما زالت متّقدةً، والشهود ينهضون هنا وهناك، ويبذلون، في سبيل نشرها، حياتهم، بلا تحفّظٍ.

أجوبة يسوع تدمّر كلّ شيءٍ، وتبني كلّ شيءٍ، في انقلابٍ مذهلٍ. إنّها، دائمًا، تتخطّى الحدود المعروفة للأخلاق، والتقاليد، والدين؛ تقوّض المصطلحات، وتستعصي على كلّ قيدٍ.

لا المال، ولا الممتلكات، ولا الفضائل توفّر أيّ ضمانٍ لدخول الملكوت. بل إنّ الضمانة الوحيدة التي تكفل حياة اليوم، وحياة الأبد، هي الله. عليه الاتّكال، ومنه تُستمدّ الحياة.

والملكوت هو موطن ما يستحيل على البشر، هو الوطن الذي جاء نبيّ الناصرة كي يفتتحه باسم الآب، والذي يلجه المرء صفر اليدين، بعد أن ينسلخ عن ذاته، وينطلق شطر الله، وشطر إخوته. من يستسلم ليسوع ولمقتضياته يظفر به، ومن يُعطِه كلّ شيءٍ، عبر الفقراء، يتلقّ كنزًا، ويغيّر نهجه، ويدخل بخطًى وئيدةٍ، ولكن ثابتةٍ، في الحياة الأبديّة.

إنّ موقفنا من المال هو معيار حياتنا المسيحيّة، في إثر يسوع: فكلّ ما يحول بنا دون اتّباعه يستعبدنا. وعلى كلٍّ منّا أن يكتشف الخيط، أو الحبل، أو القيد الغليظ، الذي يغلّه، ويُعيق تقدّمه، كي يبتره، وينطلق. وفي هذا السياق يقول القدّيس يوحنّا الصليبيّ: «سيّان إن كنت مقيّدًا بحبلٍ ثخينٍ أو بخيطٍ رفيعٍ، ما دام هذا القيد يسجنك، ويمنعك من التقدّم».

إنّ المال، في ذاته، حسنٌ، ما دام خادمًا، أي أداةً طيّعةً للخدمة وعمل الخير؛ ولكنّه يصبح مصدر وبالٍ، إن هو أمسى سيّدًا مستعبِدًا. المال خيرُ عبدٍ، وأسوأ سيّدٍ.

إنّه ليتعذّر تقبّل الله، عندما يكون المال غازيًا الأفكار والقلوب، ويحتلّ المكانة العليا. يقال: المال مَلِكٌ، والمال مجنونٌ. ولكن أليس، بالأحرى، الإنسان الذي يزعم تنصيب نفسه ملكًا، بفضل المال، هو الذي يفقد صوابه، ويُشيع في حياته الجنون؟

ففي الواقع تصبح حياته مختلّة التوازن، فاقدة المعنى، فوضويّةً، تائهةً، تدير ظهرها للأفق الذي يشرق منه النور.

ليس المال شيطانًا، ولا هو إلهٌ. بل البشر هم الذين يُفسدونه، ويحيدون به عن هدفه: أي المشاركة بين البشر، لا الاحتكار الأنانيّ. البشر هم الذين يفقدون إنسانيّتهم، وينحطّون إكرامًا للمال، ويصبحون له عبيدًا.

وإن كان قول يسوع: «**لا يستطيع إنسانٌ أن يعبد ربّين، الله والمال**» يصلح لكلّ إنسانٍ، فهو للمؤمن شرطٌ جوهريٌّ. ورفض هذا المبدأ إنّما هو رفض الله نفسه.

غنى المال يبعد عن الملكوت لأنّه يوهم صاحبه بأنّه في غنًى عن الله، وعن كلّ شيءٍ آخر. بيد أنّ تطلّع الفقير إلى امتلاك الثروة، بأيّ ثمنٍ، هو أفدح خطرًا، لأنّه يجعل من المال الإله الأوحد والهمّ الأكبر.

لم يدِنْ يسوع غنى المال فحسب، بل كلّ ما يحوّلنا عن الزهد بذواتنا، وعن اتّباع يسوع، في حرّيّةٍ مطلقةٍ، كالكبرياء والأثَرة، وإيثار الإرادة الذاتيّة على إرادة الله.

وما أكثر الذين، على غرار ذلك الشابّ، يرفضون دعوة الربّ! إنّهم يعدّون أنفسهم ناجحين، مؤهّلين، منتجين، فيحرصون على بناء مصيرهم بطاقاتهم، وقدراتهم الخاصّة، ولا يسألون أنفسهم إلاّ عن مدى نجاحهم الشخصيّ. يعيشون في الوهم، لأنّهم يزعمون أنّ مواهبهم، ومكتسباتهم هي من صنع أيديهم، وأنّهم يحتكرون ما تجمّع لديهم، فما عليهم سوى تنظيم حياتهم على وقع مصالحهم ومغانمهم.

وإنّما هم فقراء يجهلون فقرهم. وما أحراهم بتأمّل قول القدّيس يوحنّا في رسالته الأولى (٣: ١٧): «**فمن كانت له خيرات هذا العالم، ورأى أخاه في فاقةٍ، فحبس عنه أحشاءه، فكيف تثبت فيه محبّة الله؟**».

وإنّما دعوة يسوع إلى الشابّ، وإلى أمثاله، هي دعوةٌ إلى عقليّةٍ جديدةٍ، وروحٍ مختلفٍ، وموقفٍ أوفر عمقًا وجدًّا حيال ذواتهم، وحيال الله والآخرين، موقفٍ قائمٍ على روح الفقر الذي يعترف بأنّ كلّ شيءٍ هو آتٍ من الله، بحيث لا يحقّ لأحدٍ الافتخار بإنجازاته، وموقفٍ قائمٍ على روح المحبّة يُقرّ بأنّ كلّ ما نحن عليه، وما نعمل، وما نملك، ينبغي أن يوظّف لصالح الجميع، لا لمصلحتنا الشخصيّة، فحسب.

جميعنا بحاجةٍ إلى هذا التحوّل، لأنّنا جميعنا ندّعي ضربًا من الغنى عندما نستسلم للربّ. ولكن هل بوسعنا إجراء هذا التحوّل في عاداتنا، مخالفين روح العالم الذي نعيش فيه، وردود فعلنا التلقائيّة الراسخة في أعماقنا، وطبيعتنا النزّاعة إلى احتكار كلّ شيءٍ، والسيطرة على الجميع، مستندةً على قدراتها الخاصّة؟

على هذا التساؤل يجيبنا يسوع: «**ما يستحيل على الناس مستطاعٌ عند الله**». فالله يساعدنا على تحقيق التحوّلات النفسيّة التي تؤهّلنا للملكوت الذي يدعونا إليه. إنّه حيٌّ فينا، وهو حياتنا، ونورنا وقوّتنا، وبواسطة ابنه يلتحم بنا التحامًا حميمًا، ويطهّرنا، ويمكّننا من التشبّه به، ويدخلنا إلى حميميّته.

كلّنا ندّعي الغنى في أمورٍ قد تصرفنا عن الله وملكوته، وتحجب فقرنا الداخليّ: الشباب، الجمال، القوّة، الصحّة، العلم، الحذق، الذكاء، المركز، العلاقات العاطفيّة، التي قد تدفعنا إلى الإسراف في الادّعاء والخيلاء.

ولا ريب أنّ يسوع، عندما أدان الأغنياء، عنى أيضًا الكتبة والفرّيسيّين، الذين اتّخذوا من علمهم، ومركزهم، وممارساتهم، إلهًا يضعهم في مستوىً أعلى، ويغنيهم عن الله نفسه. وجميعنا، في هذا المجال، كتبةٌ وفرّيسيّون إلى حدٍّ ما، عندما نغالي في تقدير آرائنا، ونظريّاتنا، وعلمنا، ونجعلها موضعَ فخارنا وكرامتنا، فنقيم، منها، حاجزًا بين معارفنا و«المعرفة» الحقّة، في حين كان عليها أن تقود إلى هذه «المعرفة»، لو هي بقيت ضمن حجمها الحقيقيّ.

غالبًا ما نحصر «كياننا» بهذه أو تلك من الآراء التي نتمسّك بها، ونتماهى بها، بحيث نعمى عن كلّ نورٍ آخر، ولن نستعيد حرّيّتنا الكفيلة بإقحامنا في تيّار الحياة الحقّة، إلاّ عندما نثوب إلى ذاتنا الداخليّة المجرّدة من كلّ تمويهٍ، وننطلق في إثر من هو نور العالم، والطريق، والحقّ، والحياة.

إنّ سرّ رحمة الله سحيقٌ لا يُسبَر له غورٌ، فهو يقيم وزنًا حتّى لأدنى تعبيرٍ عن التعاطف بين البشر، حبًّا به، ويكافئ بسخاءٍ حتّى كوب الماء البارد الذي يُقدَّم لعطشان، باسمه.

تلك الكلمات الحانية أيقظت التلاميذ من ذهولهم، وأشاعت في صدورهم الأمل، فطفق بطرس، الذي يبرز الإنجيل عفويّته واندفاعه، يسأل: «**ها نحن قد**

تركنا كلّ شيءٍ وتبعناك»، وربّما أضاف: «فما عساها تكون مكافأتنا؟». وجاء جواب يسوع يحمل البشرى مغلّفةً بالتحدّي: «**الحقّ أقول لكم: إنّه ما من أحدٍ يترك بيتًا، أو إخوةً أو أخواتٍ، أو أبًا أو أُمًّا، أو بنين، أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل، إلاّ يأخذ، الآن، في هذا الزمن، مئة ضعفٍ من بيوتٍ، وإخوةٍ، وأخواتٍ، وأمّهاتٍ، وبنين، وحقولٍ، حتّى ما بين الاضطهادات، وفي الدهر الآتي، الحياة الأبديّة...**».

وعودٌ مسرفة السخاء، غير أنّها لا تموّه الواقع، ولا تغفل ما ينتظر أتباع يسوع، وسط عزائهم، من اضطهاداتٍ، فعلى حدّ قول بولس الرسول: «**إنّه بمضايق كثيرة ينبغي لنا أن ندخل ملكوت الله**».

أتباع يسوع لا قرار لهم ولا استقرار، بل عليهم الارتحال الدائم والمضيّ أبدًا إلى الأمام، بلا هوادةٍ ولا توانٍ. إنّهم، وقد تحرّروا من حكر بيتٍ واحدٍ، وأُسرةٍ واحدةٍ، وأسر ملكٍ خاصٍّ، وأشرعوا قلوبهم للحبّ والعطاء، واندمجوا في الجماعات التي تقودهم إليها عناية الربّ، يصبح كلّ بيتٍ لهم بيتًا، وكلّ رجلٍ أخًا، وكلّ فتاةٍ أُختًا، وكلّ أمٍّ لهم أُمًّا، وكلّ ولدٍ ابنًا، وتُمدّ لهم موائد الجماعة مجّانًا.

كم من أتباع يسوع المخلصين مَن سعدوا، في هذه الدنيا، بتحقيق هذا الوعد فوق ما توقّعوا، فكان لهم ألوف الأبناء والبنات والأمّهات والإخوة والأخوات، والبيوت، وفيضٌ من الحبّ المتبادل الذي يغمره ويسمو به حبّ يسوع! ولا ريب أنّ الربّ سيشرع لهم، في الآخرة، أبواب ملكوته، مرحّبًا، مكافئًا.

ولنا في القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ أروع مثال على ما توليه الاستجابة لدعوة يسوع إلى بيع كلّ شيءٍ واتّباعه، من تحرّرٍ، وتسامٍ، وفرحٍ، وانفتاحٍ على الوجود كلّه، في غمرٍ من الحبّ.

إنّ يسوع، بدعوته الشابّ الغنيّ إلى التخلّي عن كلّ شيءٍ واتّباعه، يحطّم مفاهيمنا الضيّقة، ويبدّد أوهامنا، ويُشرع أمامنا آفاقًا بلا حدودٍ، مؤكّدًا أنّ الإنسان أكبر، بلا قياسٍ، ممّا يستطيع أن يمتلك، فهو مرشّحٌ لمصيرٍ إلهيٍّ، وحسبه أن يحطّم القوقعة التي تحبسه كي ينطلق. حسبُه أن يدرك ما يعيقه، فينعتق منه، ويمضي حرًّا من كلّ قيدٍ أرضيٍّ نحو أجواء اللانهاية.

مِئَةُ ضِعْفٍ

(مرقس ١٠: ٢٨ - ٣٠)

في أعقاب انصراف الشابّ الغنيّ حزينًا، وإدانة يسوع للغنى، استفسر بطرس، باندفاعه المعهود: «**ها نحن قد تركنا كلّ شيءٍ وتبعناك...**» فأجاب يسوع، مداعبًا: «**الحقّ أقول لكم إنّه ما من أحدٍ ترك بيتًا، أو إخوةً، أو أخواتٍ، أو أمًّا أو أبًا، أو بنين، أو حقولاً، من أجلي، ومن أجل الإنجيل، إلاّ أخذ، في هذه الدنيا، مئة ضعفٍ من البيوت، والإخوة، والأخوات، والأمّهات، والبنين، والحقول... مع الاضطهادات، وفي الآخرة، الحياة الأبديّة**».

مئة ضعف من كلّ شيءٍ خلا الآباء، فالذي يهجر أبًا جسديًّا، ينال، عوضًا عنه، أبًا واحدًا، يسوع الذي يغني عن الكلّ، والذي لا نملّ ندعوه، ليلَ نهار: «**أبانا الذي في السماوات**». أمّا مئات الأمّهات، والإخوة والأخوات، فهي علاقات المحبّة التي تنسج حياة المسيحيّين حيث كلّ فردٍ يلقى جمًّا من الإخوة والأخوات، والأمّهات، والبيوت المشرعة، المرحّبة، بل يلقى أسرةً مضاعفةً مئات المرّات. وفضلاً عن كلّ ذلك، وعد يسوع تلاميذه بالاضطهادات.

أوَ لم يسبق له أن قال: «**طوبى لكم إذا اضطهدوكم من أجلي**»؟

وفي أيّام الاضطهاد، أكثر من أيّ يومٍ آخر، يدرك الإنسان، بعمقٍ، ما يعني بابٌ مشرعٌ، ويد صديقٍ ممدودةٌ، وتفاني أختٍ وأمٍّ!

حينما يتحرّر المرء من أسر بيتٍ واحدٍ، وأُسرةٍ واحدةٍ، وملكٍ خاصٍّ، ويُشرع قلبه للحبّ، ويندمج في جماعةٍ يتبادل معها الحبّ، يصبح كلّ بيتٍ له بيتًا، وكلّ رجلٍ له أَخًا، وكلّ فتاةٍ له أختًا، وكلّ أمٍّ له أُمًّا، وكلّ ولدٍ له ابنًا، وكلّ أملاك الجماعة تهبه نتاجها.

وما انفكّ يسوع، بدعابته، يهزّ كياننا، ويسمو بحياتنا، هامسًا في قلوبنا: «**واحدةٌ تنقصك، بعد...**» وعندما تبهظنا أعباؤنا، وتصدمنا المستحيلات، يقول باسمًا: «**كلّ شيءٍ ممكنٌ لدى الله...**» ولكأنّه يبثّ قوّته الرقيقة في وهننا، ويخصب عقمنا البشريّ، ويشرع أبواب الملكوت لمن يبسط يديه، ويتخلّى عن التملّك، ويرتضي أن يحبّ.

يسوع يُزري بكلّ مقتنياتنا، وبكلّ حِكَمنا، وكلّ علاقاتنا الأُسرويّة، لأنّه يبتغي انفتاحنا على ما هو أرحب، ويشقّ لنا آفاقًا بلا حدودٍ. فالإنسان أكبر من مكاسبه، ومن تمنّياته، وممّا تملك يمينه. ومصيره الإلهيّ يقتضي تحطيم القشرة التي تسجنه، وتبقيه متقوقعًا داخلها. وقد رأى يسوع، في الثروة، أخطر عائقٍ على درب الكمال، إذ كيف الدخول إلى محراب الكائن الأقدس، محراب المجّانيّة، والعطاء المطلق، والتواصل، عندما يكون المرء مقيّدًا بأغلال مقتنياته، وسجن امتلاكه؟ فلا أحد يدخل الملكوت مزوّدًا بقسيمةٍ أو بشيكٍّ، بل يدخله عاريًا، بما جادت يداه، وبما انطوى عليه قلبه.

دعوةٌ إلى الانعتاق يوجّهها قول يسوع إلى جميع الملتصقين بممتلكاتهم، ومعتقداتهم، وآرائهم المسبّقة، وإلى المعجبين المكتفين بأنفسهم، كي ينفضوا عنهم كلّ ثقلٍ وقيدٍ، ويتلقّوا من الله أكثر صنوف الرجاء جنونًا، ويقامروا بكلّ شيءٍ، علّهم يظفرون بمئة ضعفٍ: فكم يكبر القلب بأن يصبح له إخوةٌ وأخواتٌ، وبيوتٌ في كلّ مكانٍ، ويعيش الجماعة المسيحيّة على أنّها الأسرة التي يهبناها الربّ!

دعوةٌ إلى الحذر من السلطة التي يوليها المال، ومن غريزة الامتلاك، ومن غزو الجشع الذي يكبّل الأرجل، ويغلّ الأيدي، ويوصد القلوب.

و قد ضرب لنا يسوع، في ذلك، المثل الأروع، إذ هجر كلّ شيءٍ، وقدّم كلّ شيءٍ حتّى حياته، كي يبلغ ملء قيامته، هذا الملء الذي يتحدّى سجلاّت حساباتنا، وميزانيّاتنا، ونِسَب فوائدنا، ومعايير ممتلكاتنا، وما نفخر به من فطنةٍ، وذكاءٍ، ومنصبٍ.

صلاة كاهن

«يا يسوع، لقد قامرتُ بكلّ شيءٍ، وكسبتُ. فالبيوت المشرعة لاستقبالي أكثر ممّا أستطيع معه إرضاء جميع أصدقائي؛ ولي من الإخوة، والأخوات، والأمّهات، والأبناء، ما يملأ قلبي. والأرض كلّها متعةٌ لعينيّ.

«يا يسوع، قد يزداد ربحي، لو توغّلت قُدُمًا في التخلّي، فأنت، حتّى الآن، لم تهبْني «الاضطهادات». ومن المحقّق أنّ هذا يعني أنّني ما زلت حذِرًا، محتاطًا، تجاه إنجيلك الملتهب، وأنّ عليّ أن أراهن بأكثر ممّا راهنتُ عليه، حتّى الآن. وهذا ما أقرأه في النظرة الحانية التي ترمقني بها».

(عن جيرار بيسّيير)

عُمّالُ السّاعَةِ الحَادِيَةَ عَشْرَة

(متّى ٢٠: ١–١٦)

«فإنّ مثل ملكوتِ السماوات كمثَل ربّ بيتٍ خرج مع الفجر ليستأجر عَمَلةً لكرمه. فاتّفق مع العملة على دينارٍ في اليوم، وأرسلهم إلى كرمه. ثمّ خرج نحو الساعة الثالثة فرأى آخرين قيامًا في الساحة متعطّلين. فقال لهم: «اذهبوا أنتم أيضًا إلى كَرْمي، وأنا أُعطيكم ما يحقُّ لكم». فذهبوا. وخرج أيضًا نحو الساعة السادسة ثمّ نحو التاسعة، وصنع كذلك. ونحو الساعة الحادية عشرة خرج أيضًا فوجد آخرين قائمين هناك فقال لهم: «ما بالُكم تُقيمون ههنا النهار كلّه على غير عملٍ؟» فقالوا له: «إنّه لم يستأجِرنا أحدٌ». فقال لهم: «امضوا أنتم أيضًا إلى الكرم».

«ولمّا كان المساء قال ربُّ الكرم لوكيله: «ادعُ العملة وادفع لهم الأجرة مبتدئًا من الآخرين إلى الأوّلين». فتقدّم أصحابُ الساعة الحادية عشرة فأخذوا كلُّ واحدٍ دينارًا. فلمّا جاء الأوّلون حسبوا أنّهم سيأخذون أكثر. فأخذوا هم أيضًا كلُّ واحدٍ دينارًا. وفيما هم يأخُذون تذمّروا على ربّ البيت قائلين: «إنّ هؤلاء الآخرين لم يعمَلوا إلاّ ساعةً واحدةً وأنت تُساويهم بنا نحنُ الذين حَمَلوا ثقل النهار وحَرَّه!» فأجاب وقال لواحدٍ منهم: «يا صاحِ، ما ظلمتك. ألم تكُن على دينارٍ وافقتني؟ فخُذ مالك وانصرف، فإنّي أريد أن أُعطي هذا الأخير مثلك. ألَيس لي أن أتصرّف في مالي كما أُريد، أم عينُك شرّيرةٌ لأنّي أنا صالح!»».

«على هذا النحو يكون الآخرون أوّلين والأوّلون آخرين» (متّى ٢٠: ١–١٦).

هذا المثل مستمدٌّ من واقعٍ مأسويٍّ ما برح جرحًا نازفًا في مدننا. فما أكثر العمّال «المياومين» الذين يغشون ساحاتها، منذ الفجر، بحثًا عن عملٍ يوفّر لهم ولأسرهم

لقمة العيش! وغالبًا ما لا يظفرون لا بالعمل، ولا باللقمة. وعندما تأخذ الشمس ترتفع في قبّة السماء، يشرعون يتنقّلون من ساحةٍ إلى أُخرى، علّهم يعثرون على من يستأجر سواعدهم.

مطلع هذا المثل، إذن، يبدو كأنّه يعالج قضيّةً اجتماعيّةً. ولكن سرعان ما يتّضح أنّه ينتمي إلى عالم الروح، عالم ملكوت الله.

وإلاّ فأيّ ربّ عملٍ، إن هو لم يكن يبتغي سوى مصلحته الخاصّة، يستأجر عمّالاً، ساعةً واحدةً قبل الغروب، ويطوف بالساحات خمس مرّاتٍ كي يستأجر من لم يتوفّقوا إلى عملٍ يضمن لهم رزقهم؟

وأيّ ربّ عملٍ يكافئ مَن عَمِل ساعةً واحدةً، في برودة الأصيل وطراوته، مثل مكافأة من كدّ النهار كلّه تحت شمسٍ من هجيرٍ، ولا يبدأ بتأدية أجر من عملوا النهار كلّه، وبصرفهم، قبل أن يُظهر سخاءَه لمن عملوا ساعاتٍ قليلةً، فيوفّر على نفسه النقاش والتذمّر؟ ولكنّه بدأ بالأخيرين لأنّه كان حريصًا على تأكيد أنّ سُلّم قِيَمِه هو غير سلَّم قِيَم البشر.

هذا المثل هو، في الواقع، صورةٌ معكوسةٌ للعالم الذي نعيش فيه، لأنّه صورةٌ لملكوت السماوات. وهذا الملكوت هو على نقيض مجتمعاتنا، أو، بالأحرى مجتمعاتنا هي التي تنهج أسلوب عيشٍ يتعارض مع مقتضيات الملكوت الذي يدعونا إليه يسوع، ومع مفاهيمه.

لا شيء مشتركٌ بين دوائر المحاسبة، في ملكوت الله، وأساليب محاسبتنا. فمحاسبة البشر قائمةٌ على المال والجدوى، ومحاسبة الله قائمةٌ على الحبّ.

مرجع القِيَم، هنا، هو ما يمكن تسعيره بالدولار واليورو، والينّ، وقياسه بالجدوى. أمّا عند الله، فكلُّ شيءٍ يُقاس بمعايير الحبّ، والمجّانيّة، والعطف.

بعض الذين يقيسون بمقياس المال والجدوى، علّلوا استئجار عمّالٍ في ساعاتٍ مختلفةٍ من النهار، وبعضهم ساعةً واحدةً قبل الغروب، بأنّ نُضج العنب لم يعد يحتمل تأخير قطافه، أو بحدوث ذلك عشيّة يوم سبتٍ، وضرورة الفراغ من القطاف قبل حلول أوان الراحة السبتيّة. ولكن، ليس في النصّ الإنجيليّ ما يشير إلى هذه الضرورة الملحّة. والأرجح أنّ ربّ الكرم تصرّف بدافع الرأفة على من لم يتوفّقوا،

في ذلك اليوم، إلى عملٍ، ومن شأن ذلك أن يُضطرّوا، هم وأفراد أُسرهم، إلى النوم على الطوى. وكان راغبًا في أن يوفّر لكلٍّ حاجته الأساسيّة بمنأًى عن أيّ حساب منفعةٍ ذاتيّةٍ.

وعندما حان موعد المحاسبة، خرج المثل عن كلّ ما هو، بشريًّا، مألوفٌ، وبلغ ذروة إدهاشه، مظهرًا إزراء يسوع بمعايير العدل البشريّ الضيّقة. إنّ خمرة تعليمه الجديد تفجّر الزقاق العتيقة، وإلهه يفاجئ ويزعزع معتقدات البشر الراسخة.

مع الأوّلين تمّ الاتّفاق على مبلغ الأجر، وهو الأجر العادل الشائع. أمّا الآخرون فوُعدوا بمكافأةٍ لم يُحدّد مقدارها. وفي نهاية الشوط نال الجميع أجرًا واحدًا.

تصرُّف ربّ الكرم قد يبدو نزوةً، أو لامبالاةً، أو ظلمًا اجتماعيًّا. ولكنّه لم يغمط عمّال الساعات الأولى حقّهم، ولم يُنقِصْ شيئًا ممّا اتّفق عليه معهم. وبالتالي لم يحقّ لهم أن يتظلّموا. ومع ذلك لم يُطيقوا أن ينال من عملوا أقلّ منهم مثل أجرهم. وإذن، لم يقم اعتراضهم على ظلمٍ لحق بهم، بل كان قائمًا على الحسد. كانت عيونهم شرّيرةً لأنّ ربّ الكرم كان طيّبًا، وأدّى لمن لم يتسنّ لهم سوى عمل سُويْعاتٍ، ما يمكّنهم من العيش الكريم. لم يسئ إلى الأوّلين، ولكنّه لم يبخل على الأخيرين بما يحتاجون إليه.

للجميع قال: «**امضوا إلى كرمي**»، والكرم، في لغة العهد القديم، يعني ملكوت الله. وربّ الملكوت أبٌ يهب كلاًّ من أبنائه ما يحتاج إليه، ويقيس عطاءه بمقياس الحبّ والعطف، لا بميزان المؤهّلات، وجدوى الأداء. إنّه يهب المؤمنين به الحياة الأبديّة التي لا يستحقّها أحدٌ بجهده، بل هي نعمةٌ مجّانيّةٌ.

لا حقّ، إذن، لأحدٍ أن يحسب استحقاقاته، بناءً على أدائه. ولا أن يحدّد لله ما يتوجّب عليه إعطاؤه، ولا لمن يتوجّب عليه إعطاؤه، فعطاؤه ينبع من عطفه، ومجّانيّة نِعَمه.

وما كان أتعسنا لو كان عطاء الله يعتمد على أفعالنا فقط!

* *

بهذا المثل أكّد يسوع أنّ الله يغدق عطاءه بسماحةٍ، ويستجيب لكلّ دعاءٍ، في

كلّ حينٍ. لا يجلس في المساء يحاسب كلاًّ بمقياس ساعات العمل وكميّة الإنتاج، بل يعدّ جميع من يدعوهم إلى كرمه إخوةً متساوين في حبّه لهم. مكافأته هي بمستوى كرمه، لا بمستوى استئهال كلّ فردٍ.

لا ريب أنّ عمّال الساعة الحادية عشرة قد دهشوا من كَرَمٍ لم يتوقّعوه. والمسيحيّون هم من لا يني يدهشهم حبّ الله. فهو، دائمًا، المبادر إلى حبّهم، وباستمرارٍ يغفر لهم أخطاءهم، ويدعوهم، في ساعةٍ حادية عشرة دائمةٍ، إلى العمل في كرمه.

* *

بالإجمال، إنّ ما توخّى يسوع إبلاغه من خلال هذا المثل هو أنّ أباه:

– إلهٌ يحبّ البشر أجمعين، وعلى نحوٍ خاصٍّ المهملين، الذين يودّ إدخالهم إلى «كرمه» وإلى «فرحه»؛

– إلهٌ يغدق آلاءه بسخاءٍ، وأبٌ يدعو أبناءه إلى كرمه وملكوته، في كلّ ساعةٍ، وكلّ عمرٍ، وفي كلّ وضعٍ؛

– إلهٌ لا يُخضع عطفه لحدود استحقاقاتنا، بل يتخطّى ما استأهلناه بجهودنا.

– إلهٌ يردّ كلّ من يدّعي لنفسه حقوقًا وامتيازاتٍ، ويأبى مشاركة الآخرين بها.

هذا ما أكّده بولس في رسالته إلى العبرانيّين: «**فقد اعتلن برّ الله... بالإيمان بيسوع إلى جميع الذين يؤمنون، إذ ليس من فرقٍ. فالجميع قد خطئوا فأعوزهم مجد الله، والجميع بنعمته يُبرَّرون مجّانًا... ومن ثمّ فعلامَ الافتخار؟....**».

ولم يكتفِ يسوع برواية هذا المثل، بل عاشه عندما استصحب إلى الفردوس لصًّا صُلب معه، عقابًا عن جرائمه، وتاب في اللحظة الأخيرة.

فعوضًا عن استنكار «اللاعدل» الذي يلحظه البعض في هذا المثل، فلنبتهج بكرم الله اللامحدود، وبرأفته التي تزري بكلّ حسابٍ، ولنجهد في أن نكون رحماء كما إنّ أبانا السماويّ هو رحيمٌ.

لقد تقدّم العالم بضع خطواتٍ على درب العدل، وحان له أن يتقدّم على درب الحبّ، ودرب القلب.

وما أجمل قول البابا يوحنّا بولس الثاني في هذا السياق:

«إنّ تجربة الماضي، وتجربة حاضرنا تثبتان أنّ العدل، وحده، غير كافٍ، ما لم نُتِحْ لتلك القوّة الأخرى، والأوفر عمقًا، المتمثّلة في الحبّ، أن تصوغ الحياة البشريّة».

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

عاملني، يا ربّ، بموجب عطفك، لا بموجب عدلك!

وَليمَةُ المُخَلَّعين

(لوقا ١٤: ١–١٤)

كان يطيب ليسوع الجلوس إلى مائدةٍ، وسط أصدقاء، ولم يكن يحجم عن قبول دعوةٍ. وقد أسّس أعظم أسراره، عشيّة صلبه، حول مائدة عشاءٍ مع تلاميذه، ودعاهم إلى تخليد تلك الذكرى، فكانوا يتحلّقون حول مائدةٍ، وكان هو، دائمًا، حاضرًا، فاعلاً في أثناء إحيائها، تأهبًّا لمأدبة «اليوم الأخير»، في ملكوت الله.

ودُعيَ، ذات يومٍ، إلى عشاءٍ في بيت أحد زعماء الفرّيسيّين، فلبّى الدعوة، لأنّه كان يأبى سجن نفسه في إطار فئةٍ معيّنةٍ، ويتوقّع إشعاع نورٍ، وتقويم معوجٍّ، حيثما مضى، لأنّه، حيثما مضى، كان يحمل حرّيّته، وجرأته، مُحدِثًا الهزّات، مندّدًا بكل ادّعاءٍ أجوف، مزعجًا المزهوّين بأنفسهم.

كان قد حذّر تلاميذه من الكتبة الذين «**يحرصون على التجوّل بالحلل الفضفاضة، ويحبّون تلقّي التحيّات في الساحات، وصدور المجالس في المجامع، والمتّكآت الأولى في المآدب...**».

وراح يراقب، وعلى شفتَيْه بسمةٌ ساخرةٌ، تنافسَ الضيوف، ومعظمهم من الفرّيسيّين والكتبة، على المتّكآت الأولى. وما إن استقرّ الجميع في أماكنهم حتّى لقّنهم، في التواضع وحسن السلوك، درسًا قيّمًا: «**إذا دُعيتَ إلى عرسٍ، فلا تتبوّأ المتّكأ الأوّل، إذ لعلّه دُعي إليه من هو أكرم منك، فيأتي الذي دعاك وإيّاه، ويقول لك: أَخلِ المكان لهذا. حينئذٍ، تتحوّل إلى الموضع الأخير وأنت خجلٌ. بل إذا دُعيت فامضِ وخذ لك المتّكأ الأخير حتّى إذا جاء الذي دعاك، يقول لك: ارتفع، أيّها الحبيب، إلى فوق. حينئذٍ يعظم شأنك عند جميع المتّكئين معك. ذلك بأنّ كلّ من رفع نفسه وُضع، ومن وضع نفسه رُفع**».

ربّما كان الحضور ينتظرون من يسوع خطابًا لاهوتيًا، وإذ به يُسدي بنصيحةٍ سلوكيّةٍ تجنّبهم الخزي. غير أنّ خطاب يسوع الذي يزخر، دائمًا، بالرمز، كان يحمل، في طيّاته، عِبَرًا أسمى شأنًا. فهو يحذّر من العُجْب بالذات، ومن الحرص على إظهار التفوّق على الآخرين، فملكوت الله مشرعٌ للمتواضعين، ومغلقٌ دون المدّعين المتكبّرين، لأنّ الله «**يشتّت المتغطرسين بأفكار قلوبهم، يحطّ الأعزّاء عن عروشهم، ويرفع المتواضعين؛ يُفيض على الجياع الشبع، ويصرف الأغنياء فارغين**»، على حدّ قول العذراء.

إنّ نظر يسوع يمتدّ إلى بعيدٍ، إلى مأدبة الملكوت، مأدبة قران الله بالبشريّة. وهو يشجب ادّعاء بعض الوجهاء الدينيّين بأنّهم، فيها، الأوّلون، وبأنّها وقفٌ عليهم وعلى مشايعيهم الذين يشاركونهم الرأي والسلوك؛ أمّا يسوع، فيولي الأولويّة للشاة التائهة، للابن الضالّ، للآتين من بعيدٍ، للمنبوذين والمهمّشين، والمرضى، والمبتلَين بشتّى ضروب الفقر. وهو يعلن أنّ من الأوّلين من سيُدحَرون إلى الدرك الأخير، ومن الأخيرين من سيُرفَعون إلى المرتبة الأولى.

* *

ومن النصيحة الساخرة قفز يسوع إلى النصيحة المزعجة، عندما التفت إلى ربّ البيت، وأخذ عليه دعوته أصدقاءه، وأقرباءه، وجيرانه الأغنياء، الذين سيردّون له المثْل، وسيجعلونه من مدعوّيهم، عاجلاً أو آجلاً. وكان الأجدر به، والأوفر ثوابًا له، أن يدعو من لا يدعوهم أحدٌ، ولا هم يستطيعون دعوة أحدٍ: الفقراء، والقُطْع، والعُرْج، والعميان، فيتولّى الله مكافأته عنهم، «في قيامة الصدّيقين».

لقد جاء في وثيقةٍ لجماعة قمران، أولئك اليهود المغالين في تقواهم، وجوب إقصاء «كلّ شخصٍ مصابٍ في جسده، أو مشلول الساقين، أو اليدين، وكلّ أعرج، وأعمى، وكلّ أصمّ وأبكم»، من اجتماعاتهم العلنيّة، في حين حرَّض يسوع على دعوة هؤلاء، إلى الولائم، دون سواهم.

أمّا يسوع فهو يُدخل، عنوةً، إلى المأدبة، الفقراء، والمقعدين، والعميان، والعرج... إنّه يأبى كلّ ضروب التفرقة، وهو يعلن أنّ كلّ إنسانٍ مدعوٌّ الله، أيًّا كان وطنه، ودينه، وسواءٌ كان غنيًّا أو فقيرًا، سليمًا أو مدمَّرًا في جسده، أو فكره، أو

قلبه. لا بل إنّه يؤثر المهانين، المرذولين، المحتاجين إلى «طبيبٍ»، ويمضي نحو البشريّة التي تحتاج إلى إنعاشٍ، ودفعٍ، ومواساةٍ.

لم يعد بوسع المسيحيّ، اليوم، حصر المحبّة – وهي دفق حبّ الله المتفجّر – في بضع مبادرات سخاءٍ محسوبةٍ، بل عليه أن يقف كلّ حياته على التقدّم البشريّ.

ليت الأغنياء والوجهاء يأخذون بهذه النصيحة، الكفيلة بكسر شوكة الجوع، وبجلوس الجميع إلى مائدة الله العامرة، مائدة الجميع؛ وبذلك، يحين، منذ الآن، عهد «قيامة الصدّيقين».

المدعوّون كثيرون والمختارون قليلون

(لوقا ١٤: ١٥–٢٤)
و(متى ٢٢: ١–١٠)

مع يسوع انتهت حقبة التنبّؤ والترقّب، وأَزِفَ عهد الملكوت، ووُجّهت الدعوة إلى ولوجه، فالمائدة قد أُعدّت.

المأدبة تمثّل دعوة يسوع إلى ملكوته. إنّها دعوةٌ عامّةٌ، مفتوحةٌ، كما نقول. فالمائدة عامرةٌ لا تنضب، والأماكن متوفّرةٌ لجميع القادمين. غير أنّ ولوج الملكوت لا يتيسّر، في الواقع، إلاّ لمن وضع فيه كنزه، واستغنى عن كلّ كنزٍ آخر. أمّا الذين اتّخذوا لذواتهم كنوزًا أُخرى، زاعمين أنّها تغنيهم عن ملكوت اللّه، فقد نفَوا ذواتهم عنه. لقد جعلوا من رقعة أرضٍ، أو من فدادين بقرٍ، أو من امرأةٍ، أو من عِلْمٍ، أو من مركزٍ اجتماعيٍّ مرموقٍ، أو من ثروةٍ ينمّونها، ممالك استقرّوا فيها، وغرب عن أذهانهم أنّهم سرعان ما سيفقدون كلّ هذه، وسيفقدون معها نفوسهم، ساعةَ لا تفتدي لهم كلُّ ممتلكات الدنيا نفسًا.

وما أكثر الذين تجتذبهم، وتفتتنهم، وأخيرًا تصعقهم شهيّة الخيرات المادّيّة، وتوهمهم أنّهم، بها، يكبرون، ويستغنون عن اللّه، فيُخيّل إليهم أنّهم هم الواقعيّون لأنّهم امتلكوا المحسوس، وغاب عن بصيرتهم أنّ واقعهم قد خنق كلمة الروح التي زرعها اللّه في تربة نفوسهم، وأعماهم عن شمس الحقّ، وعن خلاصهم!

الامتناع عن الحضور إلى مأدبةٍ قُبلت الدعوة إليها سابقًا، إهانةٌ ذريعةٌ للمضيف. والاعتذار عنها «أقبح من ذنبٍ»، ولا سيّما إن كان كذبًا وبهتانًا.

فمن يبتاع حقلاً قبل أن يتفحّص كلّ شبرٍ فيه؟ ومن يشتري فدادين بقرٍ قبل أن يجرّبها؟ ومن يتزوّج فجأةً، في قريةٍ، قبل أن يعلن عن زواجه، ويعدّ له؟ وهل يتمّ عرسان في يومٍ واحدٍ؟

المدعوّان الأوّلان اعتذرا، والثالث لم يعتذر وكان وقحًا.

وليمة الملكوت أُعدّت من زمانٍ طويلٍ، ودعا إليها الأنبياء، ولمّا حان موعدها اعتذر المدعوّون المميّزون إليها، بحججٍ واهيةٍ، بل بقحةٍ، وهذا ما فعله اليهود، وبخاصّةٍ، زعماؤهم الدينيّون، الذين لم يدركوا أنّهم، برفض يسوع، كانوا يرفضون ملكوت الله.

* *

وما برحت الدعوة إلى الملكوت تُوجَّه كلّ يومٍ إلى الجميع. وما أكثر الذين يرفضونها، لأنّ مشاغل كثيرةً أُخرى تستغرق كلّ وقتهم، فلا حاجة بهم إلى مشاغل ثانويّةٍ إضافيّةٍ لا تعني لهم الكثير! يظنّون أنّهم مدعّوون إلى عملٍ يضاف إلى أعمالهم، ولا يروق لهم. يقارعونه بمشاغلهم الأُخرى، في حين أنّه من مستوًى آخر مختلفٍ.

إنّ باب الملكوت ضيّقٌ، ويتعذّر عبوره على من أثقل ذاته بالمتاع النافل. ولا يجتاز عتبته إلاّ من امتلك جرأة التجرّد الكلّيّ، والمخاطرة بكلّ شيءٍ، حتّى بحياته، في سبيل اقتفاء خطى يسوع.

الدعوة إلى الملكوت هي دعوةٌ إلى التحوّل نحو عقليّةٍ أُخرى، وروحٍ مختلفٍ، وموقفٍ جديدٍ من الذات ومن الله، ومن الآخرين.

إنّنا، جميعنا، نحتفظ بغنىً من نمطٍ ما، سيظلّ يعيقنا عن ملكوت الله، حتّى نزهد بكلّ شيءٍ، موقنين بأنّ الله لا يتخلّى عنّا. ألم يسأل يسوع تلاميذه: «**لمّا أرسلتكم بلا كيسٍ، ولا مزودٍ، ولا أحذيةٍ، هل أعوزكم شيءٌ؟ فقالوا: لا**»؟.

بيد أنّ مائدة الملكوت تظلّ مشرعةً، تنتظر من يجلس إليها، وهي ترحّب، خاصّةً، بمن هم في حاجةٍ إليها، لأنّهم لا يملكون سواها. ورَبُّ الملكوت يؤثر هؤلاء الذين لا يدعوهم أحدٌ في العالم سواه، بل الجميع ينبذونهم، ويظلمونهم. وهو يؤثر المضيّ إلى أولئك الذين يفتقرون إلى سندٍ، ومؤاساةٍ، هؤلاء هم نخبة المدعوّين إلى مأدبة ملكوته، ونخبة عملائه، وهو لهم الملجأ، والعدل، والنصير، والأخ الأكبر الذي لا يني يجتذبهم إليه، عنوةً، بعطفه عليهم، وحبّه لهم.

وعندما يلمس هؤلاء حبّ الله لهم، تكون قد نفذت إليهم بُشراه، وانبثق لهم فجر الملكوت.

لو علم البشر مطمح الله لهم، وبأيّ جدٍّ، وبأيّة لهفةٍ، يدعوهم الأب إلى مأدبة عرس ابنه، لاشتدّ ازدحامهم عند باب الملكوت.

ولكن لا يسير في موكب عرس الابن، الذي وهب كلّ شيءٍ، حتّى حياته، سوى الذين يضحّون بحياتهم.

* *

ثمّ أليس هذا المثل صورةً لرسالة يسوع التي وجّهها، أوّلاً، لليهود، لأنّهم آمنوا بوحدانيّة الله، ولأنّ أنبياءهم توقّعوه وأسهبوا في وصفه، ولأنّه اختار إحدى عذاراهم كي يتجسّد في أحشائها، ولكن، لّما رذله شعبه، انصرف عنه إلى الأمم التي خفّت إلى ملكوته، ألوفًا وملايين، من كلّ حدبٍ وصوبٍ، ومن كلّ فجٍّ عميقٍ؟

أقـــوالٌ وأفعـــالٌ

(متّى ٢١: ٢٨ – ٣٢)

«ماذا تريدون؟ كان لرجُل ابنان. فدنا إلى الأوّل وقال لـه: «اذهب اليوم، يا بُنيَّ، واعمَل في الكرم». فأجاب وقال: «لا أريد». ثمّ إنّه ندِمَ وذهب. ودنا إلى الآخر وقال لـه القول نفسه. فأجاب وقال: «هاءَنذا أذهبُ، يا سيّدي». ولكنّه لم يذهبْ – فأيّهما عَمل بإرادة أبيه؟ قالوا لـه: الأوّل. فقال لهم يسوع: «الحقّ أقول لكم، إنّ العشّارين والبغايا يسبقونكم إلى ملكوت الله. جاءَكم يوحنّا بطريق البرّ فلم تُصدّقوه. وأمّا العشّارون والبغايا فقد صدّقوه. وقد رأيتم أنتم ذلك ولم تندموا من بعدُ فتصدّقوه» (متّى ٢١: ٢٨–٣٢).

الأب، هنا، يمثّل الله، والأبناء يمثّلون اليهود الذين كان يسوع يجادلهم، فاضحًا زعماءهم الدينيّين، الذين يقولون لله «نعم» بشفاههم، ثمّ لا يحرّكون إصبعًا للعمل بمشيئته. إنّهم منكفئون على معتقداتهم، وطقوسهم، وأخلاقيّاتهم، ويقابلون رسالة المعمدان، وجدّة تعاليم يسوع بقوقعة ما يدّعونه من فضائل، واستقامة رأيٍ، واحتكارٍ للحقيقة، مُتحصّنين بها ضدّ ندى فجر الإنسانيّة الجديد. بشفاههم يقولون للّه «نعم»، وعندما يأتي الله بلحمه وعظمه، ويدعوهم إلى ملكوته، يظلّون متجمّدين في صَلَفهم، وعُجبهم بذواتهم.

غير أنّ يسوع يجد قلوبًا مشرعةً، ونفوسًا متأهّبةً لتلبية دعوته، لدى من لفَظَهم الزعماء الدينيّون، وصنّفوهم في فئة الخطأة. ليس اسم اللّه، دائمًا، على شفاههم، ولا يهتمّون بإظهار تقواهم للعيان، ولكنّهم، في السرّ، ينفّذون مشيئة الربّ.

لقد ابتغى يسوع إبراز موقفَيْن متباينَيْن من مشيئة اللّه، ولم يهتمّ بالتفاصيل، والاستثناءات. فليس جميع الزعماء الدينيّين مرائين، بل فيهم من صدقت نواياهم، وتوافقت معها أعمالهم. وليس باب السماء مشرعًا لجميع الزواني والعشّارين، بل

فقط لمن ندموا على كلّ ما اقترفوا من معاصٍ، وعادوا إلى الآب مستغفرين كي ينفّذوا مشيئته.

لقد دمغ يسوع بحديدٍ حامٍ أعماق النفس، حيث يتقبّل الإنسانُ اللّه حقًّا، أو يرفضه، غير حافلٍ بما يعلنه ويظهره، ولا بما ينتمي إليه. أَوَ ليس هو من قال: «**ليس كلّ من يقول لي: «يا ربّ، يا ربّ، يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يعمل بمشيئة أبي الذي في السماوات**» (متّى ٧: ٢١)؟

* *

هذا المثل يثبت أنّ حقيقة المرء لا تُقاس بما يقول أو يدّعي، بل بما يفعل، وأنّ المرء ليس محكومًا بقَدَر ماضيه، ولا بقيود ما تلفّظ به. بل بوسعه، دائمًا، كلّما تبيّن خطأً في ما فعل، أو خللاً في ما قال، أن «يرتدّ» و«يتحوّل» إلى السراط السويّ، وأن يسير على دروب الحقيقة.

إنّ تيّارات الفكر السائدة في عالمنا، ووسائلنا الإعلاميّة المهيمنة، تحاول إيهامنا بأنّنا «معلّبون»، ومسجونون، نهائيًّا، في حتميّاتٍ تسلبنا كلّ حرّيّةٍ وكلّ مسؤوليّةٍ. ولكم هو سهلٌ أن نلقي بكلّ إخفاقاتنا، وتقاعساتنا، على عاتق المجتمع، وعلى جيناتنا الموروثة!

ولكنّ يسوع يذكّرنا بحرّيّتنا التي لا يقوى أحدٌ على انتزاعها منّا، وبمسؤوليّتنا عن كلّ ما نفعل، مؤكّدًا أنّ لا شيء محتّمٌ. فأيًّا كان ماضينا، ومهما أمعنّا في الرفض، ففرصة الرجوع عن الخطأ مفسوحةٌ لنا أبدًا.

يسوع هو من لا يسجن أحدًا في ماضيه، وهو الذي يوفّر لكلّ إنسانٍ، مهما جسمت خطيئته، فرصةَ التوبة والتطهّر، والانطلاق، من جديدٍ، على دروب النور والرجاء. إنّه لا يرانا مجمّدين، بل في صيرورةٍ دائمةٍ.

فلنقتدِ به، ولا نسجننَّ أحدًا في ماضيه، وفي سمعته!

وويلٌ لمن يقول بشفاهه «نَعَم»، في حين أنّ كلّ سلوكه يجأر بـ «لا» وقحةٍ، كما

فعل الابن الثاني، في هذا المثل. فله ولأمثاله قال يسوع: «**الحقّ أقول إنّ العشّارين، والبغايا، يسبقونكم إلى ملكوت الله**».

ولكم غالبًا ما نحاكي هؤلاء: ندّعي أنّنا مؤمنون، ومع ذلك نفخر بأنّنا لا نمارس واجبات إيماننا! نقول لله «نعم» بشفاهنا، و«لا» بأفعالنا. نعلن قانون إيماننا، وينهض كلّ سلوكنا تكذيبًا لـه. نقول: «**ليأتِ ملكوتك، ولتكن مشيئتك**»، ولا نفعل شيئًا لتحقيق هاتين الطلبتَيْن. وحاشا لله أن يُخدَع بأقوالٍ كاذبةٍ!

الابنُ الشاطِرُ[1] أم الأبُ المُسرِف ؟

(لوقا ١٥: ١١-٣٢)

وسط جمعٍ متباين المشارب والمواقف، يلوح طيف يسوع. الأنظار كلّها محدّقةٌ إليه. منها المفتون به، ومنها المراقب الصارم لـه. فثمّة القوم البسطاء، وثمّة نخبة العلم، والتقوى: الفرّيسيّون والكتبة المزهوّون بعلمهم وفضائلهم، والمتسائلون: ما لهذا النجّار الناصريّ يعبث بالله وشؤونه؟ أثوريٌّ مدمّرٌ هو، أم ديماغوجيٌّ، أم مأفونٌ؟ أوَ ليس هو من يحسن وفادة الخطأة، ويجلس إلى موائدهم؟...

ويسوع ساكنٌ، واثقٌ، يروي قصصًا لم يتخيّل أحدٌ من مستمعيه أنّها ستظلّ تُروى، فتثير الدهشة، وتُشرع آفاقًا رحبةً للتأمّل، بعد آلاف السنين. يتحدّث عن حنان الله، ذلك الراعي الذي يجري وراء النعجة الضالّة، فإذا ما عثر عليها، أقلّها على كتفيه، وآب ليحتفل بعودتها.

وها هوذا يخفض صوته، كي يكون الإنصات أعمق، وأشدّ اهتمامًا، فيقول: «كان لرجل ابنان...

لمَ هجر الشابّ المنزل الأبويّ؟ ربّما دفعه إلى ذلك طيش الشباب، والانسياق لإغراءاته، ووسوسة رفاق السوء، وعدم الرغبة في العمل؛ وقد يكون الهجر فرارًا من تسلّط أبٍ استعاض، بفرض السلطة، عن الحبّ والحنان، ومن عجرفة أخٍ أكبر وازدرائه؛ وقد يكون الدافع التماس سعادةٍ يكتشف هو أسرارها، بنفسه، ويهندسها بيديه، بعيدًا عن أوامر الأب ونواهيه، وعن مراقبة الأخ الجافّ القلب.

(١) لقد درج استخدام هذا الوصف الذي يوقع الكثيرين في سوء الفهم، لظنّهم أنّ «الشاطر» يعني الحاذق، الأريب، الذي يحسن انتهاز الفرص. وربّما أُطلق على شابّ المثل هذا الوصف لأنّه قسّم ثروة الأسرة و«شطرها». وكان الأجدر أن يدعى الابن المبذّر، أو الضالّ.

وعلى أيّة حالٍ، فإنّ ما يبتغي المثل التدليل عليه، ليس سلوك الابن الشاذّ، بل رحمة أبيه الواسعة وصفحه المدهش، وحبّه المسرف.

وقد يكون يسوع قد استوحى هذا المثل من واقعٍ اطّلع عليه أو تنامى إلى سمعه. فليس تمرّد الأبناء على الآباء من اختصاص بعض شبابنا الرافض لكلّ سلطةٍ والتزامٍ، اليوم.

هذا الهجر كان، للأب، صدمةً أيقظته، فقاسى بُعاد ابنه في صمتٍ وجيعٍ، وهمٍّ مقيمٍ، وراز ثقل فقدانٍ كان هو، إلى حدٍّ ما، سببه، فازداد للغائب حبًّا. واكتسب حبُّه عمقًا، وواقعيّةً، واهتمامًا. كان الشابّ الضالّ يتقلّب من تجربةٍ إلى تجربةٍ، إلى أن اضطُرّ، وهو الذي كان قد ضاق ذرعًا بالعمل في حقول أسرته مع أخيه وأبيه، إلى رعاية خنازير رجلٍ غريبٍ، لقاء حفنة طعامٍ تكاد لا تكفي لإبقائه حيًّا، وحتّى انتهى إلى يأسٍ مسدود المسالك. في تلك الأثناء، كان الأب يطوّر حبّه، ويعمّقه، بحيث رحّب بابنه، لّما عاد، مشرع القلب والذراعين، بلا كلمة عتابٍ واحدةٍ، ولا استفسارٍ، بل لم يفسح له فرصةً للاعتذار.

لم تكن عودة الابن رجوعًا إلى الماضي، بل كانت انطلاقةً جديدةً في حياةٍ مشتركةٍ دافئةٍ، تكسبها خبرة الفراق وآلامه مزيدًا من الصدق والوفاء. فالإنجيل يقول إنّه «**رجع إلى نفسه**»، قبل أن يرجع إلى أبيه.

لا ريب أنّ الإفلاس، وازورار الأصدقاء الزائفين، والجوع، والمهانة، كانت، كلّها، دوافع ضاغطةً، وراء عودته. أمّا العامل الأخطر والحاسم، فقد لخّصه الإنجيليّ بقوله المثقل مغزىً عميقًا: «**فرجع إلى نفسه**». فما كان الشابّ ليتمرّد على أبيه، ويعتزم الابتعاد عنه، والتيه في شعاب المجون والاستهتار، لو لم يهرب، أوّلاً، من ذاته، ولو لم يتغرّب عنها، وعن مُثُل الخير الكامنة فيها، بل عن الربّ الراقد في أعماقها. وهذا ما اعترف ببعضٍ منه عندما قال: «**يا أبتاه، قد خطئت إلى السماء وإليك**».

ما من شيءٍ كان كفيلاً بردعه، وهديه، وإعادته إلى السراط السويّ سوى رجوعه إلى ذاته، وإلى كلّ ما يضجّ في أعماقها من ينابيع الخير.

وقد لاقى في صدر أبيه حيّزًا جديدًا، حارًّا، لم يستطع الأخ الأكبر حتّى تخمينه، لأنّه لم يحزن لغياب أخيه، ولأنّه ما انفكّ مقيّدًا بالتقاليد والأصول الاجتماعيّة، ولذلك استنكر سلوك أبيه.

حدّث الابن الضالّ نفسه قائلاً: «**كم من أجيرٍ لدى أبي يفضل عنه الخبز، وأنا ههنا أهلك جوعًا!**». وما أجدرنا، عندما يمزّق الجوع قلوبنا، وتتلظّى ظمأً، وعندما تنوء بوقر الفقر الروحيّ نفوسُنا، أن نشخص بأبصارنا، إلى بيت الآب، الزاخر بكلّ الخيرات!

كي يستعيد أبناءه الضالّين إلى أحضانه، ارتدى اللّه، في يسوع، وجه إنسانٍ جوهره الحنان، والرحمة، والحبّ. وما أَشسع البَوْن بين مواقفه ومواقف البشر، عندما يهجر ابنٌ بيت أَبيه، أو عندما يؤوب إليه!

فعندما يهجر ابنٌ البيت الأبويّ نلحظ، لدى الأبوين، المواقف التالية :

– استخدام السلطة بحجّة الوقاية، والحفاظ على كيان الأسرة. فما عساه يحدث لو طالب كلّ ابنٍ بحصّته من الميراث، قبل الأوان؟

– أو الانتقام من الإهانة الناجمة عن رغبة الابن في هجر البيت الأبويّ، بحرمانه من أيّ موردٍ، وتركه وشأنه، يتدبّر أموره بنفسه، ويقتلع أشواكه بيديه.

– أو عتابًا مريرًا: «أهكذا تفعل بنا، بعد كلّ ما فعلناه من أجلك؟».

أمّا لدى الأب، في المثل، فلا شيء من ذلك؛ لا عتاب، ولا شكوى، ولا انتقام، ولا استخدام للسلطة الوقائيّة، بل إفساح المجال للحرّيّة، وصمتٌ، وتنازلٌ، ومعاملة الابن العاقّ معاملة الندّ والشريك، ومنحه ما لا يستحقّ من ميراثٍ، على غير اكتراثٍ بالعواقب الأُسرويّة.

لم يندرج سلوك الأب في إطار الحقوق البشريّة، وتطبيق النظام، وفرض العقاب، والمطالبة بتعويضٍ. كلّ ذلك كان بعيدًا عنه كلّ البعد، بل إنّه تصرّف بوحي عطفه اللامتناهي الذي يتنكّب على كلّ ألمٍ وعتابٍ، ومحبّته الجمّة التي تغفر كلّ خطأ، وتمحوه.

أَوَ ليس هذا ما فعله، مع تلاميذه، يسوع الذي أوكل الكيس إلى يهوذا، وهو عالمٌ بجشعه إلى المال؛ وانتدب بطرس لإدارة دفّة الكنيسة، وقد عهده رعديدًا، متقلّبًا؟ هكذا هو يسوع حيال كلٍّ منّا: لا شكوى، ولا عتابٌ، بل عذوبةٌ تندّ عن الوصف، واحترامٌ لحرّيّتنا.

* *

ولدى عودة المهاجر، ردود الفعل البشريّة المتوقّعة هي:

– رفضٌ عنيدٌ لعودة الابن الذي تمرّد، وهجر، وقطّع الأوصال؛

– الغضب حيال الإهانة المزدوجة: المطالبة بالميراث وهجر المنزل؛

– إقامة العدل بفرض التعويض، والكدّ حتّى وفاء كامل الدين؛

– الموقف الأسمى هو الغفران: طيّ صفحة الماضي، وبدايةٌ جديدةٌ.

ولكنّ موقف الأب، في المثل، يتخطّى كلّ ذلك. فلقد أثبت ضعفه حيال حبّه لابنه، وكان ضحيّةً طوعيّةً راضيةً لذلك الحبّ. كان نموذجًا لحبّ الأب المنزّه من كلّ أَثَرةٍ، الذي يغدق عطاءه بلا حسابٍ، غير متوقّعٍ، لقاءه، أيّ مقابلٍ أو ثوابٍ.

كان صورةً للأب السماويّ الذي، احترامًا لحرّيّتنا ومسؤوليّتنا، غالبًا ما يدعنا نبدّد ثروة الحياة والمواهب التي حبانا بها، وهو يرقبنا حزينًا، متحرّقًا إلى توبتنا، وعودتنا إلى رشدنا، وإلى أحضانه، نادمين.

وكم قد عانى من لوعة فراق صغيره، ومن جَزَعه عليه، لا خوفًا على مالٍ جمعه، هو، بعرقه وتقتيره الصبور الطويل، فيما راح ابنه الماجن يهدره في سعة الوارث العابث، بل خشيةً على فلذة كبده من ضياعٍ وهلاكٍ!

وكم قد هبّ من نومه مذعورًا، يعضّ القلق أحشاءه! وكم قد ذرع الطرقات، في سَحَرٍ وغروبٍ، ويده مكوَّرةٌ فوق حاجبيه يستطلع الأفق القصيّ، لعلّ طيفًا مبهمًا، يلفّه غبار الطريق، ينبئه بعودة الحبيب!

كم تفطّر قلبه شوقًا وانتظارًا لعودة الغائب، وكم توثّب بين أضلاعه جذلاً عندما لمحه قادمًا! وأيّة عباراتٍ أرقّ من هذه، في وصف هذا التوق: «**إذ كان لم يزل بعيدًا، أبصره أبوه، فتحرّكت أحشاؤه، فركض، وألقى بنفسه على عنقه، وقبّله طويلاً**»!

لم يُقِم أيّ وزنٍ لما يدعوه الناس كرامةً، وحقًّا، وهيبةً. ولم يُطِق الصبر ريثما ينتهي ابنه إليه، بل جرى هو نحوه؛ لم يتريّث حتّى يجثو ابنه عند قدميه، ملتمسًا العذر والصفح، ولم يقتضِ منه الاستذلال والاستغفار، ولم يطالبه بأداء الحساب،

فقد قرأ استعداده لكلّ ذلك في مجرّد إيابه، ومن ثمّ ألقى هو بنفسه على كتفه منتحبًا، وكأنّ عليه التماس الصفح عن كلّ ما ألمّ بابنه من هوانٍ وبؤسٍ وتعاسةٍ.

على نقيض عواقب الصفح المعهودة بين الناس، حيث المذنب هو الذي يتأثّر ويتحرّر، انقلبت هنا الأدوار. فالأب هو الذي تحرّر، والابن هو الذي نزع عن كاهل أبيه عبئًا كان يُرهقه. الابن المذنب هو الذي أغدق الفرح، وبدّد الكربة. وهنا يكمن جوهر الوحي المسيحيّ: إنّ ضحيّة الخطيئة الأولى هي الله، لا الخاطئ، فالله هو المتأثّر الأوّل بخيانتنا.

إنّ أقصى ما تمنّاه الابن هو صفح أبيه، ولكنّ فرح الوالد يبدو لنا هو الأعظم، بلا قياسٍ، لأنّه استعاد دور الأب، ومتعة الحبّ الخالص. هذا الفرح هو أكثر تجلّيًا، في المثل، من سعادة الابن. كان الأب هو الذي ركض وانكبّ على عنق ابنه العائد، ولم يُتِحْ له فرصة إكمال خطاب التوبة الذي أعدّه، وكرّره في نفسه طيلة الطريق، فقد كان الأب على عجلةٍ من بدء الاحتفال.

لم يتلفّظ بأيّة كلمةٍ. ولكنّ جريه نحو ابنه، ومبادراته كلّها كانت تعبيرًا بليغًا عن صفحه وحبّه، وبذلك وقاه من لوم الخدم والجيران، ومن شماتتهم.

الابن العاقّ لم يكن يطمح إلى أكثر من العمل خادمًا في بيت أبيه، لأنّه لم يعد يستحقّ أكثر من ذلك. ولكنّ الأب لم يحفل بأيّ حقٍّ أو حسابٍ، واستعاده ابنًا كامل الحقوق. وما كان الشابّ الضالّ قد فشل في الحصول عليه بكدحه أسبغه عليه والده، مجّانًا، وبسخاءٍ تخطّى كلّ توقّعاته.

لقد تناسى أنّ ابنه هذا، الماثل أمامه، في قذارته وبؤسه، كان قد استوفى كامل حقوقه، فأمر له بأثمن خاتمٍ، وأفخر حلّةٍ، وبذبح العجل المسمّن الذي كان يحتفظ به لمناسبةٍ فريدةٍ، ودعا جميع أهالي بلدته إلى مشاطرته فرحه الغامر، فإنّما الفرح يكتمل ويعظم في المشاركة. وقد برّر الأب بذخه بقوله: «**ولنأكل ونفرح، لأنّ ابني هذا كان ميتًا فعاش، وكان ضالاًّ فوجد**». «كان ميتًا» لأنّه بانفصاله عن أبيه، وبنأيه عنه، نشدانًا لأوهام السعادة، مات عن أُسرته، وذاته، وقريته، وتقاليده الدينيّة، وأخيرًا أشرف على الموت جوعًا.

لقد كان ذلك الأب الحنون صورةً مصغّرةً للأب السماويّ الذي يمحو ذنوبنا

الجسيمة، وآثامنا الجمّة، لقاء دمعة توبةٍ صادقةٍ، وعودةٍ مخلصةٍ إلى أحضانه للمكوث فيها.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

مذ شرع البشر يكتبون، هل كُتبت صفحةٌ واحدةٌ، أو جملةٌ واحدةٌ، في وصف حبّ الله، وموقفه من البشريّة الواهنة، بمثل جمال هذا المثل؟ فبه أعلن يسوع أنّ مبادراته حيال المنبوذين، والمحتقرين، والخطأة، إنّما هي مبادرة الأب السماويّ الذي يسعى وراء النعجة الشاردة، والابن الضالّ. وهل كان بين مستمعيه من يتخيّل إلهًا يقطنه جنون الحبّ، وتراوده أحلام عالمٍ يسوده الإخاء، ويخفق قلبه بفرحٍ جيّاشٍ يودّ سكبه على كلّ مخلوق؟ في دنيا البشر، يتعذّر تصديق هذه الحكاية. فقد يرضى أبٌ، مكرهًا، محو الماضي، ومحاولة نسيانه، شيئًا فشيئًا، أمّا أن يرقص طربًا، ويقيم مأدبةً وعرسًا، ابتهاجًا بعودة ابنٍ ماجنٍ، مبذّرٍ، ضلّيلٍ، فهذا ما يصعب تخيّله. ولكنّ يسوع يتكلّم عن الله، ذلك الأب المسرف في التبذير، الذي يجري للقاء ابنه التائب، ويوسعه تقبيلاً، ممسكًا عن أيّ لومٍ، أو تأنيبٍ، أو استفسارٍ.

من قبل، كان إله اليهود يقبع في أعلى سماواته، ديّانًا صارمًا مرعبًا، وإذا بإله يسوع يناقضه تمامًا.

في صغرنا علّمونا أنّ الله هو روحٌ سرمديٌّ، أَبديٌّ... إلى ما هنالك من تعريفٍ لم نكن نفقه له معنًى. ولكن، لو سُئِل يسوع من هو الله لأجاب: «كان لأبٍ ابنان...» ولمضى في روايته حتّى نهايتها المذهلة، ولعرّف الله بأنّه حبٌّ بلا حدودٍ.

لقد استمدّ يسوع سائر أَمثاله ممّا كان يشهده من حوله: فرحة الراعي بالعثور على الخروف الضالّ، وفرحة المرأة بالعثور على الفلس الضائع. أمّا فرح الأب بعودة الابن العاقّ، فقد استقاه من قلبه، ومن إحساسه بالفرح الطاغي لعودة الخطأة، تائبين، إلى أبيه.

ربّما لم يشهد يسوع، بين البشر، مثيلاً للأب «المبذّر»، ولكنّه شهد خطأةً يُصغون إلى صوته. شاهد متّى وزكّا يقيمان المآدب إكرامًا لدعوته لهما، وشاهد عشّارين وزواني يرحّبون بإعلان ملكوت الله، وعددًا غفيرًا من المرذولين والمنبوذين، والهامشيّين يتقاطرون صوبه. وتوسّم في هذا الجَيَشان حدَثًا إلهيًّا. عودة الابن الضالّ

شهد نماذج لها في آلاف الوجوه، في دساكر الجليل واليهوديّة، وعلى دروب السامرة، وفي شوارع أورشليم. مبادرة الأب للقاء الابن العائد من غيابه، كان يحياها في توق نفسه إلى جميع الأبناء الضالّين. وكان يحيا هذا «المثل» بكلّ جوارحه.

* *

ولئن كان الأب العطوف يمثّل سموّ الرحمة الإلهيّة، وغناها اللامحدود، فموقف الأخ الأكبر يمثّل ثورة العدل البشريّ، ورياء أدعياء الاستقامة والقداسة. إنّه صورةٌ للكتبة والفرّيسيّين، والكهنة والمفتين، المزدهين بعلمهم وفضائلهم، الذين لم يضنّوا على يسوع بالنقد اللاذع لتسامحه تجاه الخطأة، وترحيبه بهم. كثيرون منهم كانوا قد سجنوا اللّه في تفسيرهم للشريعة، وخُيّل إليهم أنّ لهم على اللّه حقوقًا، من جرّاء حرصهم على الوصايا، ولأنّ فضائلهم لا يلوّثها غبارٌ، فادّعَوا حقّ حظر جنون الحبّ على اللّه، ونزع صفة الأخوّة عن الأخ الذي رذلوه.

ولطالما قرّعهم يسوع، وفضح زيفهم إذ إنّهم بالتزامهم بالشريعة والتقليد، تخيّلوا أنّ الفضيلة وقفٌ عليهم، وأنّ رضى الربّ وثوابه محرَّمان على سواهم. معاييرهم هي معايير الظواهر التي تتخطّاها أنظار الربّ، وموازينهم هي موازين الحساب التي يُزري بها منطقُ حبّ اللّه.

ربّما تميّز الأَخ الأكبر باستقامةٍ لا غبار عليها، وبسلوكٍ قويمٍ يعظّمه الناس. ولا ريب أنّه جدَّ، ودأب على حفظ ثروة الأسرة وتنميتها، وبرَّ بوالديه. غير أنّه افتقر إلى الخصلة الجوهريّة التي من شأنها أن تجعل منه إنسانًا حقًّا، وعظيمًا في عينَي الربّ. لقد افتقر إلى المودّة والتراحم، ولو هو امتلكهما، ولو هو تعاطف، نظير أبيه، مع أخيه العاثر، ولو هو شارك أباه فرحته بعودته، لكان هو ربّ الوليمة ونجمها، ولفاض فرحًا، وشاطر القوم أفراحهم، ولتذوّق من السعادة ما لا تهبه كلّ خيرات الأرض. ولكنّه أوصد قلبه دون كلّ تراحمٍ، فأقصى نفسه عن الوليمة، وحكم على ذاته بسمّ الحقد الزعاف.

* *

الابن الضالّ الذي هجر أباه، حنّ إليه، وكان واثقًا من حنانه. غير أنّ الأخ الأكبر الذي لازم أباه، كان بعيدًا عن فهمه، وأساء الحكم فيه. ردُّ فعله حيال مأدبة عودة

أخيه يُظهر أنّه كان يجهل حبّ أبيه جهلاً مطبقًا، وأنّه لم يحاول، يومًا، التسلّل إلى خفايا سريرته. انغلاق نفسه دون الحميميّة، ورفضه الثقة، أوجعا قلب أبيه أكثر، بما لا يُقاس، من حماقات الابن الضالّ.

وأخطر ما في الأمر أنّه قسا على أبيه وأخيه، بدافع ادّعائه الكمال. قلبه الجافّ، الموصد، لم يعهد، قطّ، للحبّ وللمجّانيّة معنًى، فلم يهتزّ، ولم تلن له عاطفةٌ حيال توسّلات أبيه: «**أنت معي في كلّ حينٍ، وكلّ ما هو لي، فهو لك**»؛ إنّ مساكنةً، مدى عمرٍ بأكمله، لا تحمل قلبًا موصدًا على إقامة علاقةٍ حميمةٍ، قد تولد، في القلوب المنفتحة، منذ اللقاء الأوّل، أو لمجرّد دمعة عودةٍ غير متوقّعةٍ.

لقد أخذ على أبيه أنّه لم يُعطِه جديًا يتنعّم به مع أصدقائه، وهو موقنٌ بأنّه، لو طلب، لأغدق عليه أبوه كلّ ماله بلا حسابٍ. ولكن، هل لمثله أصدقاء، حقًّا؟ ويُستشفّ من كلامه أنّه يطالب أباه بأجر تعبه عن كلّ ما فعل، مغفلاً أنّ أباه وضع بتصرّفه كلّ شيءٍ، وأنّه إنّما هو كان يعمل لنفسه. ولم يقدّر، يومًا، ميزة العيش إلى جانب أبيه، وفي ظلّ حبّه، وحنانه، وبركته.

لقد رأى يسوع صورة الابن الأكبر في اليهود الذين أبَوا الاعتراف بالقادمين إلى الله، من بعيدٍ، إخوةً لهم، وأوصدوا دون «الخطأة» قاعة المأدبة التي حجزوها للأطهار، أمثالهم، دون سواهم. إنّ الحلّة الأولى، والخاتم، والحذاء الجديد، والمأدبة العامرة، كلّ ذلك دليلٌ على الاحتفال بعهدٍ جديدٍ. فهل سيستسلم ورثة العهد القديم لإسراف الله، أم سيقيمون الحواجز في وجه رحمته؟!

في أعقاب عودة الابن الأصغر أصبح الابن البكر هو الضالّ التائه في صحراء عدائيّته، وحقده، وأنانيّته، المنقطع عن أبيه وأسرته. لم يقدّر كونه سيّدًا ابن سيّدٍ، بل طالب بحقوقه مطالبة عبدٍ بأجره. أخوه الأصغر أراد أن يُعَدّ خادمًا في بيت أبيه، ولكنّ أباه استقبله ابنًا محبوبًا. وشاء الأب أن يوقظ لدى ابنه البكر الشعور بأنّه الابن الأثير، ولكنّه أصرّ على أن يعدّ نفسه عبدًا مأجورًا، يطالب بحقوقه.

لقد عاتب أباه عتابًا وقحًا، حتّى إنّه تجنّب إطلاق صفة الأب عليه، واتّهمه بالافتقار إلى الحكمة، والبصيرة، والعدل، كما أنّه امتنع عن وصف أخيه بالأخ، وأشار إليه بقوله: «ابنك هذا». وكم يفيض هذا القول ازدراءً!

ذنب الأخ الأكبر حيال أبيه لا يقلّ عن ذنب الأخ الأصغر إيلامًا. واستنكاره سلوك أبيه أشدّ قسوةً من مطالبة الأخ الأصغر بحصّته من الميراث!

لقد تعمّد تحطيم قلب أبيه، مفتخرًا بأنّه لم يخالف أوامره قطّ. وفي ذلك دليلٌ على أنّ علاقته بأبيه كانت دائمًا سطحيّةً، «شرعيّةً»، خاليةً من العاطفة والمحبّة. فهو، مع إقامته تحت سقف بيت أبيه، كان، بعواطفه، بعيدًا عنه، أكثر من بعد أخيه، جغرافيًّا، عنه. وما قوله لأبيه، مشيرًا إلى أخيه «ابنك هذا» إلاّ دليل انفصاله العاطفيّ عن الأُسرة كلّها.

أخوه كان خاطئًا مقرًّا بخطيئته، نادمًا عليها، وهو ادّعى القداسة، ولكنّ قداسته كانت زيفًا، ورياءً، ونفاقًا.

أخوه كان ميتًا، ولكنّه بندامته وتواضعه استعاد الحياة، وهو دفع بنفسه، طوعًا، نحو موت الروح.

* *

هذا المثل يعلّمنا أنّ الصفح لا يُستَحَقّ، ولا يُشترى، بل يوهب مجّانًا وطوعًا، ويُقبل بحرّيّةٍ، وتواضعٍ، وفرحٍ.

ويُظهر هذا المثل، أيضًا، رحمة اللّه اللامحدودة، فالأب هو الذي جرى نحو الابن الأصغر الذي أهانه، حالما أبصره عائدًا، وهو الذي خرج يتوسّل الابن الأكبر الذي أهانه برفضه مشاركته في الوليمة التي أقامها ابتهاجًا بعودة أخيه، وباسترساله في تعداد مآخذه عليه، وفي انتقاد ظلمه.

وفي الحالتين اتّضع الأب، وتقبّل الإهانة، محبّةً ورأفةً بابنيه المذنبَيْن.

* *

كثيرون هم الذين يتولّون الذود عن حياض الابن الأكبر، بذريعة الدفاع عن النظام الاجتماعيّ. ففي حين قوّض الابن الأصغر نظام البيت واستقراره، باستيفائه حصّته من الميراث، وبنزوحه، وببتره الأواصر الأُسرويّة، ظلّ الابن البكر وفيًّا، جادًّا، دؤوبًا، مطواعًا، يبذل العرق والدم، من أجل ازدهار ثروة الأسرة. ومع ذلك أُقيم

الاحتفال تكريمًا لمن بدّد جزءًا من هذه الثروة في المجون والعربدة. وتكريمًا لهذا الضلّيل، أيضًا، ذُبح العجل الذي كان يسمَّن للاحتفال بعرس الابن البكر، وهو غافلٌ عن كلّ ما يجري، ولم يُستَشَر في أمرٍ، ولكأنّه غريبٌ عن البيت الذي كان يشقى في سبيله.

لقد توجّس الأخ الأكبر خشيةً من أن تُشيع عودة أخيه الفوضى إلى المنزل ثانيةً. ولو أنّ أباه قَبِل اقتراح العائد، وعدّه واحدًا من الخدَم، لكان رضي بهذه التسوية؛ ولكنّ حبّ الأب أباها، وفرحه العارم بعودة الغائب وبتوبته أفسدا كلّ نظامٍ، فصدحت الموسيقى، وعُقدت حلقات الرقص، ومُدّت المائدة، حتّى قبل عودة الابن البكر من الحقل.

كان الأب قد أَزرى بالحقوق والأعراف عندما أقطع ابنه الأصغر حصّته من الميراث التي لا تحقّ له ما دام هو على قيد الحياة، وها هوذا يزري بها ثانيةً، باحتفاله الباذخ بعودته. حقًّا، لقد تخطّى حبّه كلّ منطقٍ وأُصولٍ. هكذا يفكّر مدّعو الاستقامة!

* *

وكم كان حريًّا بالابن البكر التمثّل بأبيه، فيرحّب بأخٍ تائبٍ، رغم ماضيه المثقل بالخزي، ويتعلّم معنى الإخاء الحقّ الذي لا ينتج، فقط، عن وشائج الدم، بل توحي به المحبّة! فبمعزلٍ عن هذه المحبّة، تظلّ كلّ الفضائل باطلةً، على حدّ قول القدّيس يوحنّا في رسالته الثانية (٢: ٩–١١): «**من قال إنّه في النور، وهو يبغض أخاه، فهو، بعدُ، في الظلمة. من أحبّ أخاه فهو ثابتٌ في النور، ولا عثار فيه. أمّا من أبغض أخاه، فهو في الظلمة، وفي الظلمة يسلك، ولا يدري أين يتّجه، لأنّ الظلمة قد أعمت عينيه**».

إنّه لم يرَ في أخيه سوى ضلال ماضيه، فيما أبوه لم يرَ فيه سوى عودته التائبة. وإنّ كلّ ما برهن عنه، طوال حياته من دأبٍ، ووفاءٍ، وما حقّقه في سبيل إنماء ثروة الأسرة، لم يولّد فيه روح الأسرة الحقّ، فهو لم يدرك مدى حظوته بمشاركته أباه كلّ يومٍ من حياته، وكلّ ما يملك، فأَنحى عليه باللوم من أجل عجلٍ ذبحه احتفاءً بعودة أخيه، مع أنّ مشاركته لأبيه تسمو قدرًا، بما لا يُقاس، على كلّ ما في الأرض من قطعان عجولٍ وجداءٍ.

فلو هو اعتمد مقاييس الأب القائمة على الحبّ أكثر من قيامها على الحساب، لما حاكى عامل الساعة الثالثة الذي اغتاظ لأنّ ربّ العمل نقد عامل الساعة الحادية عشرة مثل ما نقده من أجرٍ، مع أنّه أدّاه أجره كاملاً، ولم يغمطه حقًّا؛ ولما عدّ ما تكرّم به أبوه على أخيه الأصغر سرقةً لماله الخاصّ، وانتقاصًا من حقوقه.

وكم نحن، غالبًا ما نقاسم الابن البكر موقفه، بسبب عجزنا عن فهم قلب الآب، ولكأنّنا نخشى أن يكون الحبّ هو، حقًّا، شريعة الله الأولى، أو لكأنّه يتعذّر علينا أن ندرك، حقًّا، أنّ الله لا يقوى إلاّ على الحبّ! ولن ندرك هذا الواقع حتّى نؤنس حاجةً حارقةً إلى الله، وصفحه.

محنة الابن الضالّ لقّنته التواضع، وعودة الخاطئ هي، دائمًا، دليل تواضعٍ. والتواضع هو سبيلٌ إلى التوبة، وأساسٌ للحياة مع الله. أمّا المتكبّر، المتصلّب، الذي يرفض الاعتراف بخطئه، فيموت فيه، وبه.

وكم ننزع إلى تحجيم الله بمقياس ضيق قلوبنا! ولكنَّ هذا المثل يذكّرنا بأنّ الآب أكبر من قلوبنا. وحَسْبُنا أن نتأمّل الربيع وتفجّراته التي ترتدي ألوف الجمالات، وأن نراقب الأزاهير التي توشّي حتّى الجبال المهجورة والوديان الضائعة في المدى، وتلك التي تنبت في رمال الصحراء، وبين شقوق الحجارة؛ والطيور المحلّقة بأصنافها التي لا تحصى؛ والسماء المتألّقة بنجومٍ يستحيل عدّها، كي ندرك أنّ الله هو إله بذخٍ، وتبذيرٍ بلا حسابٍ، فلا نعجبنّ إن هو ذبح العجل المسمّن، وأقام الأعراس، احتفالاً بعودة ابنه الضالّ، وإن هو غمر قلوبنا الجريحة برحمته، وراوده طموحٌ مجنونٌ إلى جعلنا، جميعًا، إخوةً.

لم يكن احتفال الأب تأييدًا لضلال ابنه، بل ابتهاجًا بتغلّب الحياة على الموت، وبانتصار المحبّة على الفراق، وبمحو المغفرة للذنوب.

كان الابن الضالّ قد مات، ولكنّه استعاد الحياة في قلب أبيه الذي كان قد صفح عنه قبل أن يعود. ولو لم يصفح عنه أبوه لكان مات مرّتين. ولكنّ الربّ يأبى موت أيّ خاطئٍ، بل يريده أن يعود عن ضلاله، ويحيا.

وتبقى ملاحظةٌ.

فلا ذكر في المثل لامرأةٍ أو لأمٍّ، ما خلا إشارةً بعيدةً إلى النساء اللواتي نتفنَ ريش الطائر المسكين الذي هجر العشّ قبل الأوان.

غير أنّ روح الأمّ يخفق في هذا المثل، فمن، سوى الأمّ، يغمر بالقُبَل شابًّا ملطّخًا بالأقذار، ومن يسعى، قبل أيّ شيءٍ، إلى أن يردّ له منظره الجميل، وأن يضع خاتمًا في إصبعه، وتراوده فكرةٌ مجنونةٌ بإقامة احتفالٍ باذخٍ لمن قضم قسطًا من ثروة الأسرة؟ كلّ هذه هي مبادرات أمٍّ، وقد اضطلع بها الأب الشيخ.

هذا ما أبرزه «رامبرنت» في لوحته الشهيرة «عودة الابن الشاطر»، حيث يتلطّى الابن الضالّ في حنان الأب المنحني عليه، ولكأنّه يودّ العودة إلى رحم الأمّ كي يولد من جديد، ويدا الأب تحطّان، واسعتين، على ظهره، غير أنّ الاكتشاف العبقريّ يكمن في أنّ إحدى اليدين هي يد رجلٍ، والأُخرى يد امرأةٍ.

هذا المثل هو من أكثر أمثال يسوع بساطةً، ونُبلاً، وشمولاً، وعمقًا، وهو يهزّ أركان دينٍ بكامله، ومجتمعٍ برمّته. ففي مواجهة الإله الفظّ المتزمّت، الذي كان خصوم يسوع يستمدّون منه قسوة قلوبهم، أعلن نبيُّ الناصرة السمحُ إلهًا يغفر، وينتشل، ويحبّ بلا مقابل، إلهًا هو أبٌ وأمٌّ معًا.

لعــــازَرُ وَالغَـــنِيّ

(لوقا ١٦: ١٩ – ٣١)

يمتلك الغنيّ كلّ شيءٍ، ولكن لا اسم له: إنّه مجرّد مظاهر برّاقةٍ. فالإنجيل يتحدّث عن ثيابه الفاخرة، ومآدبه الباذخة، ولكن لا أثر للإنسان فيه: إنّما نحن إزاء مالٍ، وإسرافٍ، فحسب. لا ريب أنّ علاقاته الاجتماعيّة واسعةٌ: خمسة إخوةٍ، وأقرباء كُثُرٌ، وأفواجٌ من الأصدقاء والندامى، معظمهم انتهازيّون، يتمتّعون بمائدته، وينتشون بشرابه، ويداهنونه، ولكنّهم في قرارة ذواتهم، لا يقيمون لشخصه وزنًا.

وفي الخارج، عند باب القصر فقيرٌ عليلٌ، مستلقٍ على الأرض، مهجورٌ، مجهولٌ، لا تؤنس وحدته سوى الكلاب الملعونة مثله، النجسة مثله، التي تلحس قروحه. لا يقاسم المترفين شيئًا من طعامهم، ولكن تُلقى أمامه، بين حينٍ وحينٍ، النفايات، وكِسَر الخبز التي مُسحت بها آثار الدسم والمرق عن الأصابع، ثمّ طرحت أرضًا.

غير أنّ هذا الفقير يحمل اسمًا، اسمًا جميلاً، غنيًّا باللّه «إيلعازر»، أي «اللّه يعين».

إنّه لا يملك شيئًا، ولكنّه إنسانٌ. المدعوّون إلى قصر الغنيّ يجتازون على مقربةٍ منه، ولكنّهم لا يلقون عليه نظرةً. إلاّ أنّ، ثمّة، إلهًا يُعنى بشأنه.

كلّ شيءٍ يفصل الرجلَيْن ما عدا القرب الجغرافيّ!

ويأتي يومٌ يموتان فيه كلاهما، الغنيّ المُغفَل الاسم، والفقير المدعوّ لعازر. ولا يغيّر الموت، على الأرض، شيئًا. فيُشيَّع الغنيّ، بمثل ما اتّسمت به حياته من بذخٍ، وتظاهرٍ، وصخَبٍ، وحشودٍ. ولا يواكب الفقيرَ إلى حفرته سوى شخصٍ أو اثنين، ربّما إكراهًا وتفاديًا لروائح تفسّخ جثّته.

ولكنّ الإنجيل يُبرز التباين الصارخ بين نهاية كلٍّ منهما، إذ يقول: «**مات المسكين**

فحملته الملائكة إلى جوار إبراهيم». وتبوّأ مكانه بين الأبرار الخالدين. أمّا عن الغنيّ فيكتفي بالقول: «**ومات الغنيّ، أيضًا، فدفن**»، ولكأنّه يقول إنّه اضمحلّ، ولم يخلّف أثرًا.

عقب الموت انقلبت الأوضاع، وتغيّر كلّ شيءٍ: فاسم لعازر تألّق. إنّه مواطنٌ سماويٌّ، مواطنةً كاملةً مُستحقّةً، وهو جالسٌ إلى مائدة المختارين، إلى الأبد. أمّا الغنيّ فملقًى في وحدةٍ مريعةٍ، ولا أحد يشعر بوجوده، سوى لعازر. بينه وبين الآخرين انحفرت هوّةٌ سحيقةٌ، كثيفةٌ، مظلمةٌ: جهنّم.

أقامت السماء للعازر، بعد موته، مأدبةً تفوق، بلا قياسٍ، المآدب التي اشتهاها على الأرض وحُرِم منها. وأمسى الغنيّ هو المتسوّل.

* *

لم يكن الغنيّ نزيل جهنّم، بسبب غناه فحسب، بل لأنّه حبس عن المحرومين رحمته، واستأثر بالمال لمتعته؛ ولم يكن الفردوس مأوى الفقير، فقط بسبب فقره، بل لأنّه وضع في الله رجاءه.

إنّ ما يحظى به لعازر من تكريمٍ في الأبديّة، يُبرز هول ما انتهى إليه الغنيّ، وبطلان العلاقات القائمة على المال والمظاهر. إنّه صرخةٌ تدعو إلى التحوّل والارتداد، بلا تردّدٍ، ولا إرجاءٍ، وإلى فتح الآذان للكلمة القادمة من السماء، وإلى عيش علاقاتٍ حيث لكلّ إنسانٍ اسمٌ يدلّ على جوهره، لا على ما يلبس، ويأكل، ويملك.

إنّ الإنجيل يزخر بالتأكيد على أنّ الله يذود عن حياض الفقراء، ويعاقب بشدّةٍ من يهملونهم، ويزدرونهم، ويتقاعسون عن استخدام ثرواتهم لتمثيله على الأرض، في سدّ حاجاتهم، وفي مساندة ضعفهم، لأنّ المال الذي أوتوه يفرض عليهم أن يكونوا يد الله وقلبه، وسط إخوتهم.

ولكم جهد ممثّلو الله على الأرض، في ابتكار التأويلات والتسويات الكفيلة بلجم زخم مثل هذه النصوص المزعجة، وبإخماد نار الإنجيل المتأجّجة، فآثروا بصداقاتهم واحترامهم أصحاب الثروات والنفوذ، وأعرضوا عن الفقراء القابعين عند العتبات،

بل لم يُكلّفوا أنفسهم عناء استيضاح أسمائهم، ومضَوا منتفخي الصدور، غير ملتَفتين إلى اللّه الذي يمدّ للفقراء يده، مستجديًا حبّهم، في صمتٍ!

لقد تخيّل الكاتب كازنتساكي نهايةً سعيدةً لهذا المثل، فتصوّر لعازر يتوسّل اللّه كي يأذن لـه بإرواء غليل الغنيّ، وباستصحابه إلى الفردوس، لأنّه لا يستطيع تذوّق طعم السعادة وهو يرى آخر يتضوّر ألمًا. ويستجيب اللّه لطلبه، كي تكون سعادته كاملةً، ويسعد اللّه به.

البُرْصُ العَشَرة

(لوقا ١٧ : ١١– ١٩)

عشرة بُرصٍ شُفوا، ولكنّ واحدًا، فقط، عاد ليشكر: يا لضآلة النسبة! مع أنّ الداء الذي شُفوا منه كان يُعدّ، في ذلك العهد، هو الأخطر، من جرّاء وباله، وبشاعته، وعواقبه الاجتماعيّة، إذ كان يُحكم على المصاب به، بالنبذ من المجتمع.

لم يشفِهم يسوع، في الحال، إلاّ أنّه، شحذًا لإيمانهم، قال لهم: «**اذهبوا وأروا الكاهن أنفسكم**». ولكأنّه يقول: «أنا قرّرت شفاءكم، فامضوا، وأكملوا الإجراءات الشرعيّة». وفعلاً، «**فيما هم في الطريق طهروا**». بهذه الكلمات المقتضبة أوجز الإنجيليّ لوقا معجزة شفاءٍ جماعيٍّ خطيرٍ.

الأبرص الذي عاد، كان، قبل لحظاتٍ، ضحيّة نبذٍ مزدوجٍ: بصفته أَبرص، وبصفته سامريًّا. وحدهم تقبّلوه، في ما بينهم، رفاقه اليهود التسعة البرص، طالما كان الداء يوحّدهم. ولكنّهم ما إن برئوا حتّى نبذوه، هم أيضًا. شفاؤهم حطّم أخوّة البؤس التي كانت تجمعهم؛ وبمجرّد استعادتهم لون بشرتهم الطبيعيّ السليم، انتصبت فيهم، من جديد، الحواجز العرقيّة، والسياسيّة، والدينيّة، مفرّقةً من كانوا، للحظاتٍ خلت، إخوةً في البؤس واليأس. اليهود التسعة، عقب مثولهم أمام الكهنة، وخضوعهم لطقوس التطهير، عادوا فاحتلّوا مراكزهم في المجتمع اليهوديّ، ولم يعد يعني لهم يسوع شيئًا، بعد أن شفاهم. أمّا رفيقهم السامريّ، الذي لم يكن له كهنةٌ يلجأ إليهم، فيعيدون له أهليّته في المجتمع، فعاد، في نظرهم، الغريب، الزنديق، العدوّ. لقد أعاده شفاؤه إلى عزلته.

العشرة برئوا، ولكنّ السامريّ وحده عاد، فنال، فضلاً عن البرء، الإيمان الذي عبّر عنه عندما خرّ على وجهه عند قدمَيْ يسوع، شاكرًا، ومجّده بصوتٍ عالٍ؛ وكافأه يسوع بالخلاص: «**إنّ إيمانك قد خلّصك**». فالإيمان لقاءٌ وعطاءٌ. عطاء الإنسان ذاته للّه، وعطاء اللّه ذاته للإنسان.

وكان لعودة السامريّ، من منتصف الطريق، بعدٌ آخر. فقد أدرك ذلك الرجل، قبل أيّ إنسانٍ سواه، أنّ المكان الذي يمجّد فيه الله، ليس هيكل أورشليم الحجريّ، بل هو في يسوع، هيكل العهد الجديد، الكاهن الأسمى، طبيب الأجساد والنفوس، ومخلّص البشر أجمعين.

فنجّار الناصرة كان يسمو فوق الخلافات والاختلافات، ويدعو إلى عالمٍ يعترف فيه الإنسان بكلّ إنسانٍ، متحرّرًا من قيود المال، والطائفيّة، والعبادة، والجنس، والأمّة... والبَرَص. وإنّما البَرَص الأخطر والأدهى، هو احتِقار أيّ إنسانٍ.

وقد كان الإنجيليّ لوقا، الذي روى هذا الحدث، أكثر تأهّلاً لاستيعاب روح يسوع هذا، وتعليمه الجديد، ممّن دُعوا «يهودًا مسيحيّين»، يهودًا بالنشأة التي لم يستطيعوا الانعتاق تمامًا من أسرها، ومسيحيّين بانضوائهم تحت لواء يسوع، الذي رأى في كلّ إنسانٍ كائنًا محبوبًا من الله.

علينا، إذن، أن نعود، أبدًا، إلى يسوع لنظفر بالمزيد من الشفاء، على ألاّ يكون لدينا، حيال أيّ إنسانٍ، مثلُ نظرة اليهود إلى السامريّين، والبُرْص، والغرباء. بل فلنرحّب بكلّ إنسانٍ ونحترمه، لكي نرحّب بالله، ونجلّه.

الفـرّيسيُّ وَالعَشـّـار

(لوقا ١٨: ٩-١٤)

يقارن يسوع بين نمطَيْن من البشر، كان اليهود يرون، فيهما، متناقضَيْن.

ففي جانبٍ، الفرّيسيّ، يمثّل الأبطال والأَطهار، الذين طالما ذادوا عن حياض الهويّة الوطنيّة والدينيّة، واستأهل لهم سخاؤهم، وبسالتهم، وفضائلهم احترام الأمّة، واعترافها بجمائلهم.

وفي الجانب الآخر، ممثّل المتعاونين مع المحتلّ الذين يجبون، لحسابه، الضرائب، ويحتفظون بهوامش دسمةٍ، بمثابة عمولاتٍ عن عمالتهم. هؤلاء في نظر الأمّة، عملاءُ خَوَنةٌ ولصوصٌ، جديرون بالنبذ والازدراء؛ ولا شكّ أنّهم بعيدون عن اللّه.

ولكنّ اللّه لم يكن في الجانب الذي تخيّله اليهود.

الفرّيسيّ يتغرغر بصَلاته متلمّظًا، ويهنّئ اللّه، لأنه، هو، فاضلٌ تقيٌّ، ويحقّ له أن يتبوّأ، في منزل اللّه، مكانةً مميّزةً، وأن يمثُل إلى الهيكل رافعًا الهامة، بصَلَفٍ، ويحتلّ منه الصفّ الأماميّ، محدّقًا بثقةٍ واعتزازٍ إلى عينَيْ الخالق، مزدريًا العشّار المثقل بالخطيئة والخزي، الذي انتحى زاويةً مظلمةً، مطرقًا، خاشعًا، قارعًا صدره ندمًا، غير متجاسرٍ على رفع أبصاره نحو اللّه. وبما أنّ اللّه أوصى بالوفاء للشريعة، والفرّيسيّ هو من حُماتها، بل ومن المغالين في الالتزام بها، فلا ريب أنّ اللّه راضٍ عنه، بل مدينٌ له. إنّه كاملٌ، فلا غضاضة في أن يُظهر نفسه نموذجًا جديرًا بالاحتذاء.

لقد انتحى جانبًا لكيلا يتنجّس بمخالطة عامّة الشعب الذين يزدريهم، ولاسيّما ذلك العشّار الحقير الذي تجاسر فتخطّى عتبة الهيكل. الفرّيسيّ يرى ذاته قمّة التقوى، ويرى في الآخرين قمّة الخطيئة. وقد شكر اللّه لأنّه خيرٌ من سائر البشر، وبذلك أضاف إلى خطاياه الكثيرة خطيئة الكبرياء التي يمقتها اللّه أشدّ مقتٍ.

أمّا العشّار، الذي ربّما اضطرّ إلى امتهان الجباية كي يعيل أسرته، والذي ربّما انزلق إلى بعض اختلاساتٍ، فلا يُخفي ندمه، واحتقاره لنفسه، أكثر من احتقار الفرّيسيّ لـه. ويسأل اللّه الغفران، قارعًا صدره.

* *

من يُنعم النظر في هذا المثل يتبيّن أنّ بطله ليس الفرّيسيّ، ولا هو العشّار، بل اللّه، الحَكَم الأعلى، الذي يخترق الظواهر إلى أغوار القلوب؛ فهو يبرّر من يزدريه الناس، ويدين من يجعل نفسه نموذجًا للتقوى والكمال.

إنّ اللّه متحرّرٌ من معايير البشر وأخلاقيّاتهم، فهو يغمر بالجمال نفسَ العشّار التائب، ويُغدق عليه نعمه. ولطالما بدا مسرفًا، مبذّرًا، فاقد الرشد، لأنّه لا يتردّد في ترك القطيع الآمن، كي يسترجع نعجةً ضلّت؛ في حين أنّه ينبذ من ظنّ أنّ وظيفته تؤهّله لنبذ الآخرين.

* *

لقد شخص الفرّيسيّ إلى الهيكل كي يصلّي، ولكنّ صلاته كانت وبالاً عليه، وإدانةً لـه. فقد شوّهها وأفسدها موقفه المتعالي، ومحاولته تخدير ضميره، ورفضه الحبّ، وتستّره بالتقوى، والشريعة، واللّه، لتبرير كلّ ذلك.

فالصلاة نفسها، إن هي لم تكن تعبيرًا عن الثقة المطلقة باللّه، والتماسًا لعونه، وتمجيدًا لـه، وانكسار قلبٍ معترفٍ بأوهانه، وحتّى إن هي ارتدت لباس شكرٍ، قد تمسي خطرةً، بل مميتةً. إذ قد تُفضي إلى عزل الإنسان عن إخوته البشر وإلى ازدرائهم، وإلى العُجْب بالذات، والهزء باللّه.

ففي محراب الهيكل، وفي صميم فعل الشكر، انتصب الفرّيسيّ الفاضل الوقور، مزهوًّا بذاته، وبدت عبارات شكره نفسها ولكأنّها مطالبةٌ للّه بدينٍ له عليه. فحتّى في مخاطبته اللّه، لم يتحدّث إلاّ عن ذاته. وفي حين كان من شأن الصلاة الصادقة أن ترتقي به صوب اللّه وأنواره، توغّلت به صلاته الباطلة في سراديب سجنه الداخليّ الرهيب المظلم.

لو صفت نفسه، واستنارت بصيرته، لاستصغر ذاته، وعاد إلى الوراء، ووقف

خلف العشّار، ولقرع، مثله، صدره، هاتفًا: «لطفك، اللهمّ، اشملنا، جميعنا، برأفتك العذبة، وأعطِنا أن نحبّ بعضنا بعضًا».

لم تكن صلاة الفرّيسيّ تبريرًا لـه، بل كانت إدانةً، لأنّها أقصته عن الله، وسجنته في ذاته، وكثّفت بصيرته عمًى؛ لقد فصلته عن سائر البشر، فخلّفهم وراءه، ورفضهم. نأى بنفسه عن البشر، فنأى بها عن الله. وعوضًا عن التماس مشيئة الله، أراد أن يفرض على الله ذاته ونظرته.

في نظر الناس، وفي نظر ذاته، كان الفرّيسيّ نموذجًا للصحّة الدينيّة، فقد وقى نفسه من السرقة، والظلم، والزنى؛ وأدّى كلّ فرائض الشريعة، بل غالى في أدائها؛ ومع ذلك شخّص فيه يسوع العلّة التي لا يرجى منها برءٌ: الانفصال عن الله. فحتّى صلاته جعلت منه إنسانًا هالكًا، ميتًا في عينَي الله، لأنّها أغلقته على كبريائه، فشكر الله لأنّه وجد ذاته فرّيسيًّا صالحًا متميّزًا عن البشر.

لقد وضع ثقته في ذاته، لا في رحمة الله، وهو موقنٌ أنّ نجاحه الأدبيّ، المتمثّل في تنفيذ فرائض الشريعة، يجعله بمنأًى عن كلّ لومٍ، ويضمن له رضى الله، لا بل يوهمه، أحيانًا، أنّ الله مدينٌ له. وقد وُلدت لديه هذه القناعة إزدراءً لجميع من لا يتشبّهون به.

لقد ادّعى الكمال، ذاهلاً عن أنّ الكمال صيرورةٌ مستمرّةٌ، مستمَدّةٌ من عطف الله، وأَزره، وعن أنّ الحياة ولادةٌ مطّردةٌ، تلتمس كلّ عناصرها من الله، مثلما يلتمس الطفل مقوّمات حياته من والديه. ويسوع قال: «**من لا يقبل ملكوت الله كمثل طفلٍ، فلا يدخله**» (لوقا ١٨: ١٧).

لقد تعاطى شؤون الله، لحسابه الخاصّ، ورضي عن استقامته، وامتدحها أمام الله، متجاهلاً أنّ عليه أن يتلقّى كلّ شيءٍ، كلّ يومٍ، وفي فقرٍ مطلقٍ، من نعمة الله المجّانيّة، المفعمة رأفةً وعطفًا. فلم يكن الله، له، نبع الحياة المتدفّق، بلا انقطاعٍ، ماءً حيًّا منعشًا، ولم يكن الله، لـه، ذاك الذي يتجلّى بوجه الحنان، بل إله الميزان، على نحو ما تخيّله، وتمادت به القحة بحيث زعم تلقين الله دروسًا في العدل.

* *

خليقٌ بالتنويه أنّ صلاة فرّيسيّ المثل، التي تقطر كبرياء، والتي استنكرها يسوع

لم تكن حكرًا عليه وحده، بل درج على مثلها أترابه من الفرّيسيّين وتقاة اليهود الذين نصحهم التلمود بتلاوة هذه الصلاة:

«أشكرك، أيّها الربّ الإله، لأنّك اخترتني لأقوم بين من يسكنون «بيت المدراش» (أي بيت الدراسة) ولم تضعني وسط المتسكّعين في زوايا الطرقات. أنا أنهض باكرًا، وهم كذلك، ولكنّني، أنا، أستيقظ لأتلو أقوال التوراة، وهم يستيقظون كي يتلفّظوا بالأباطيل. أنا أكدح، وهم يكدحون. ولكن أنا أظفر بجزاء كدحي، وهم لا يتلقّون أيّة مكافأة. أنا أجري، وهم يجرون. ولكنّني أنا أجري نحو زمن حياة الآخرة، وهم يجرون نحو هوّة التهلكة».

لطالما أعلن يسوع أنّ عشّارين وبغايا كُثُرًا سيتقدّمون، في ملكوت الله، على مرائين ادّعَوا القداسة، وازدهوا بأنفسهم. فقد كان الربّ يتوسّم في بعض الخطأة والزواني من براءة القلب، وسلامة الطويّة، ما لم يجده لدى أساطين الهيكل، وعلماء الشريعة.

إنّ ما يقطع السبيل عن الحبّ والقداسة، هو كبرياء النفس والعقل. وحَسْبُ خطواتٍ داخليّةٍ على درب التواضع، لردم الهوّة بين الفرّيسيّ والعشّار، في عينَي الربّ.

كم كان يسوع جريئًا ومتحدّيًا بتعرّضه لواحدٍ ممّن يرى فيهم اليهود المثال الأعلى للتقوى! وبذلك علّم أنّ كلّ دينٍ يحصر التقوى في ممارسة الطقوس والفرائض، وفي الجهد الشخصيّ، مغفلاً فضلَ النعمة الإلهيّة، هو، في الواقع، حاجزٌ دون الله.

وكم يطيب لمن تلقّى نعمة حنان الله، ودهِش لفيض حبّه، أن يغيّر سلوكه، حبًّا به!

«يَا لعَـازَر، هَـلُمّ خَارجًا»

(يوحنّا ١١: ١-٤٤)

«بيت عنيا» قريةٌ قريبةٌ من أورشليم، طالما راق ليسوع أن يقيم في أحد منازلها، منزل أصدقاء، يغمره الحبّ، كان استراحةً لقلبه. إنّه بيت لعازر وشقيقتيه مرتا ومريم.

وكان يسوع، في الأسابيع التي سبقت موته، قد نأى عن اليهوديّة كلّها، حيث كان زعماء اليهود يحيكون مكيدة قتله، وإذا برسولٍ يأتيه من قِبَل شقيقتَيْ لعازر، وقد اقتصرت الرسالة على القول: «**يا سيّد، إنّ الذي تحبّه مريض**». وكان معنى هذا التبليغ: «ليتك تسرع إليه فتشفيه».

ولكنّ يسوع يولي الأولويّة لرسالته ولمشيئة أبيه، حتّى على أسمى مشاعره، وأرقّ صداقاته. ومن ثمّ، فرغم حبّه الشديد للعازر وشقيقتَيْه، تريّث حيث كان، قائلاً: «**هذا المرض ليس للموت، بل لمجد الله. فبه يتمجّد ابن الله**».

لبث يسوع يومَيْن حيثُ كان، وبعدئذٍ قال للتلاميذ: «**لنعد إلى اليهوديّة... إنّ صديقنا لعازر قد رقد، ولكنّني أذهب لأوقظه**».

استغراق المريض في النوم غالبًا ما يُعدّ استعادةً للعافية، ولذلك قال التلاميذ: «**يا ربّ، إذا كان راقدًا فإنّه يخلص**». **حينئذٍ صارحهم يسوع: «إنّ لعازر قد مات»**.

لقد سمّى يسوع الموت رقادًا لكي يغيّر نظرتنا المرتعدة إلى واقع الموت الذي لا مفرّ منه، فنراه غفلةً عابرةً تمهّد لاستيقاظٍ أبديٍّ، و«اختراعًا إلهيًّا»، يشركنا يسوع، عبره، بسعادة حياته الأبديّة. هكذا فهمه بولس الذي هتف: «**استيقظ أيّها النائم، قمْ من بين الأموات، فيضيء لك المسيح**» (أفسس ٥: ١٤).

لم يهرع يسوع إلى فراش صديقه المحتضر، لكي يعلّمنا أنّه لم يأتِ كي يقصي عنّا الألم والحداد، بل لكي يحوّل الآلام والموت إلى قيامةٍ.

وقد كان موت لعازر، وإعادته إلى الحياة، مناسبةً لتدعيم إيمان التلاميذ، وإيمان مرتا، ولنفث الإيمان في قلوب الكثيرين. ولذلك قال يسوع لتلاميذه: «**إنّ لعازر قد مات. ويسرّني، من أجلكم، أنّي لم أكن هناك**».

طيلة ثلاثة أيّامٍ ظلّ القبر مُشرَعًا، ووجه الميت سافرًا، إذ كان الاعتقاد سائدًا بأنّ الروح تظلّ، مدى هذه الأيّام الثلاثة، ترفرف فوق الجثمان. وفي هذه الأثناء، كان الأهل والأصدقاء والمعزّون يزورون اللحد، ويتأمّلون وجه الميت، ويودّعونه بالنحيب والدعاء. بعدئذٍ كان يُسدَل منديلٌ على محيّاه، ويُسدّ القبر بحجرٍ ضخمٍ.

وفي اليوم الرابع وافى يسوع، ولكنّه تريّث عند مدخل القرية، وسمعت مريم بقدومه، فخفّت لاستقباله، وبادرته بعتابٍ رقيقٍ: «**لو كنتَ ههنا، لما مات أخي!**». ولكأنّها تتكلّم باسم كلٍّ منّا. أفليس موت نفوسنا ناجمًا عن غياب يسوع عنّا؟

عندما تدهمنا الخطوب، وترهقنا الوحدة والعجز، ويجتاحنا القنوط، فلنذكر أنّ اللّه عالمٌ بأسقامنا، واحتياجاتنا، وأنّه، لا ريب، آتٍ لشفائنا، إن نحن دعوناه. ولكنّه لا يأتي إلاّ في الساعة التي هو يرتئيها.

عندما نفقد عزيزًا كان يملأ علينا حياتنا، نظلّ، أيّامًا عديدةً، نرجو أن نراه، من جديدٍ، حيًّا بين ظهرانينا. ولدى مرتا، رغم انصرام أربعة أيّامٍ على موت أخيها، كان يعتمل أكثر من هذا الرجاء، إذ كان يحدوها إيمانٌ راسخٌ بقدرات يسوع، فقالت له: «ولكنّني، حتّى الآن أعلم أنّك مهما سألتَ اللّه، فاللّه يعطيك».

وامتدّ حوارٌ مستفيضٌ بين مرتا ويسوع، كان بمثابة مسيرةٍ وئيدةٍ نحو ملء نور الإيمان، واستهدف إزالة كلّ ضروب سوء التفاهم حول هويّة يسوع الإلهيّة.

بدأ يسوع فأكّد لها: «**أخوك سيقوم**». وخُيّل إليها أنّ هذا القول يندرج في سياق أقوال العزاء الجوفاء، فقالت: «**إنّي أعلم أنّه سيقوم في القيامة، في اليوم الأخير**»، مع جميع الأموات. ولكنّ يسوع كان يريد أن تؤمن بأنّه، هو، القيامة، اليوم وهنا. فقال لها: «**أنا القيامة والحياة، فمن آمن بي، وإن مات، يحيا. ومن كان حيًّا وآمن بي، فلن يموت أبدًا**». تصريحٌ مذهلٌ لا يصدر إلاّ عن مدّعٍ مأفونٍ، أو عن إلهٍ كلّيّ القدرة. كان يعلم أنّه، هو نفسه، سيموت، بعد أيّامٍ معدوداتٍ،

ومع ذلك تجرّأ فصرّح: من يؤمن بي لن يعرف الموتُ إليه سبيلاً، لأنّ الإيمان يُفضي إلى حياةٍ جديدةٍ لا يعقبها موتٌ.

وفّر يسوع لمرتا فسحة تأمّلٍ كي تتمثّل أقواله، ثمّ سألها: «**أتؤمنين بهذا؟**» فأعلنت إيمانها: «**نعم، يا ربّ، أنا أُومن أنّك المسيح، وأنّك ابن الله الآتي إلى العالم**».

و هرعت مرتا كي تستدعي أُختها مريم التي لم يكن أحدٌ قد أنبأها بوصول يسوع. فهبّت وهرعت نحوه، وواكبتها جموعٍ المعزّين الذين ملأوا البيت وجواره. وسجدت عند قدمي المخلّص، وكرّرت، منتحبةً، عتاب أُختها: «**لو كنتَ ههنا، يا سيّدي، لما مات أخي**». وتفشّت عدوى حزنها إلى جميع الحاضرين، بل إلى يسوع نفسه، الذي ارتعش كلّ كيانه.

إرتعاش يسوع وبكاؤه، أمام قبر صديقه ليسا نتيجة تأثّرٍ عاطفيٍّ فحسب، بل هما تألّم الإله الإنسان، حيال كارثة الإنسانيّة التي تدمّر ذاتها بالخطيئة، عوضًا عن أن تظلّ صورة الله المتألّقة حياةً وجمالاً.

من حوله تعالى نشيج النحيب، أمّا هو فقد سكب دموعًا صامتةً. إنّه، حتّى في الحزن، سيّد مشاعره. وسأل: «**أين وضعتموه؟**». وجاءوا به إلى القبر الذي كان يسدّه حجرٌ ضخمٌ، فقال: «**أزيحوا الحجر**». وتغلّبت واقعيّة مرتا على الإيمان الذي كانت قد أعلنته قبل لحظاتٍ، فاحتجّت قائلةً: «**إنّه قد أنتن، يا ربّ، فإنّ له أربعة أيّامٍ...**»، وعاتبها يسوع برقّةٍ: «**أما قلتُ لك إنّك إذا آمنت، ترين مجد الله؟**».

كانت العيون كلّها محدّقةً إلى القبر، أمّا يسوع فرفع عينيه إلى فوق، إلى عالَمٍ آخر، إلى عالم الآب الذي خاطبه قائلاً: «**أحمدك، يا أبتِ، لأنّك استجبتَ لي. إنّي أعلم أنّك تستجيب لي في كلّ حينٍ. وإنّما قلت هذا من أجل هذا الجمع المحيق بي، لكي يؤمنوا أنّك أنت أرسلتني**». قال هذا ودوّى صوته الجهير، وسط الصمت الواجم المذهول: «**يا لعازر، هلمّ خارجًا!**»، فخرج ذاك الذي كان ميّتًا، ويداه ورجلاه مشدوداتٌ بعصائب، ووجهه ملفوفٌ بمنديلٍ. فقال لهم يسوع: «**فكّوه ودعوه يذهب!**».

مرَّةً أُخرى، أشار يسوع، بصلاته، إلى غايته الجوهريّة من خلال تلك المعجزة، ألا وهي تفجير الإيمان وتدعيمه، في قلب تلاميذه الذين ما برح إيمانهم مترجرجًا،

والذي سيتعرّض لهزّةٍ شديدةٍ، في الأيّام القليلة القادمة، عندما سيُرفع على صليب المهانة. كانت نفوسهم الخائفة في حاجةٍ إلى ما يُشيع الثقة في جنباتها؛ وفي قلب مرتا التي ما برح إيمانها في يسوع مبهمًا، وفي قلب الجماهير الحاضرة التي أراد أن يبيّن لها حقيقة رسالته، قبل موته. وقد أصاب مبتغاه، فمرتا أعلنت إيمانها بألوهته، وستكون تلك المعجزة سندًا لإيمان التلاميذ في شدّة المِحَن، فضلاً عن أنّه «**آمن بيسوع كثيرٌ من اليهود الذين كانوا قد جاءوا إلى مريم، وشاهدوا ما فعل**» (يوحنّا ١١: ٤٥).

لقد برهن يسوع لجميع هؤلاء، ولجميع من سيصعب عليهم الإيمان، عبر الأجيال، أنّه هو الآتي من الله، مالكًا كلّ قدرات الله، كي يحوّل الموتَ مدخلاً إلى حياةٍ أبديّةٍ. ومن كان ذاك إيمانه لا يستطيع أن يحيا بلا حبٍّ، وبلا رجاءٍ، وبلا فرحٍ مُقتَسَمٍ. فحياة المؤمن مترعةٌ قيامةً، وحياةً، وفرحًا.

* *

«**أنا القيامة والحياة**». والحياة التي يتكلّم عنها يسوع، ويودّ أن يهبنا إيّاها، هي غير الحياة البيولوجيّة التي يُنهيها الموت. إنّها حياةٌ إلهيّةٌ، حياةٌ بلا موتٍ، يتميّز بها الله، والمؤمنون به.

أكثر من إعادة الحياة إلى لعازر، استهدف يسوع تمكين مرتا، وكلّ من آمن مثل إيمانها، من خوضِ حياةٍ أيقظها الإيمان من سباتها. فالإيمان الحيّ لا يتغذّى بالمدهش، بل بكلام الله.

و بغية يسوع ليست مجرّد خروجنا، يومًا، من القبر، بل عبورنا، منذ اليوم، من الموت إلى الحياة، بواسطة إيماننا بواهب الحياة.

غير أنّ هذه الحياة المتمرّدة حتّى على الموت هي التي ارتعدت لها فرائص زعماء اليهود، القابضين على مقاليد السلطة المقدّسة، والشريعة. فقد ذُعروا وهم يشهدون يسوع يُنبت، في كلّ مكانٍ، هذه الحياة التي تزعزع الحواجز، والمحظورات، والتراتبيّات، وكلّ ما يحول دون حبّ البشر بعضهم لبعضٍ، وكلّ ما يشوّه وجه الله.

لقد كانت إقامة لعازر القطرة التي أفاضت الكأس، ووقّعت قرار إعدام يسوع، ودفعت إلى استعجال إزالته.

غير أنّ هذه المعجزة الكبرى، الأخيرة في حياة يسوع الأرضيّة، كانت حجّته الدامغة في الصراع الناشب بينه وبين زعماء اليهود، بين النور والظلمات، وقد فجّرت إيمان مرتا، وإيمان الكثيرين، بأُلوهة يسوع. فهل إيماننا، في مثل ثقة إيمان مرتا ورسوخه، كي نكون أهلاً لأن يقول يسوع، يومًا، عن كلٍّ منّا: «حُلّوا قيوده، ودعوه يذهب»؟

مَوعِـدٌ مَعَ الذّاتـ

«تعالَوا، أنتم وحدكم، إلى مكانٍ قفرٍ...»

(مرقس ٦: ٣٠-٣١)

* *

القوم في جيئةٍ وذهابٍ لا ينقطع لهما تدفّقٌ، يتراصّون، ويتزاحمون حول يسوع، ترقّبًا لجوابٍ، أو بحثًا عن نظرةٍ تُشيع الاطمئنان، أو التماسًا لشفاءٍ، لعزاءٍ، لبركةٍ، أو بدافع الفضول إلى مشاهدته، والاقتراب منه، ولمسه، ثمّ التفاخر بالقول: «لقد رأيته، لقد نظر إليَّ، لقد كلّمني...».

الجماهير: جَيَشانٌ، تزاحمٌ، فوضى، ضجيجٌ محمومٌ، حيث تعصف الرعشات بالعقول. ويسوع يبتغي إسماع البشرى، الكلام الذي لا يستهدف سوى حراثة القلوب، وإلقاء بذور الحرّيّة والحبّ في أثلامها؛ وهو يأبى السيطرة على أذهان الناس بأيّ مصطنعٍ، سطحيٍّ، غير مألوفٍ، يثير مشاعرهم، ويحول دون إِصغائهم إلى الحقيقة.

والصحراء هي المكان الأمثل للإخصاب الكثيف، والعزلة، بمنأًى عن الضجيج المصمّ، ودويّ الكلمات الجوفاء. هي حيث يقيم المرء الفراغ من حوله، وفي داخله، لكي يكون ذاته، برهةً، بين حينٍ وآخر، في الصباح أو في المساء، أو في أيّة ساعةٍ. فالكلام لا يغيّر ما في القلب والروح، إلاّ إذا كان، ثمّة، موعدٌ مع الذات، حيث يختلي الإنسان في أعماقه، كي يصغي، ويتيح للكلمة أن تُحدث ولادةً جديدةً.

هناك، في حميميّة الله «تُشرَعُ بحارٌ جديدةٌ لمن يودّ الإبحار إلى الأعالي».

إنّنا غالبًا ما نبحث عن الله في الأماكن التي خصّصها له البشر. غير أنّ الله لا يُحصَر في مكانٍ. ولذلك يخيب رجاؤنا كلّما نشدناه حيث لا يسعنا العثور عليه،

مثلما حدث للنبيّ إيليّا، الذي لم يعثر على الله في الريح العاتية، ولا في الزلزال، ولا في لهيب النار، ولكنّه وجَده في همسة النسيم. والرسول بولس لم يجد الله على طريق سيناء، ولكنّه وجده على طريق دمشق. وقد أَعمى الله عينيه، أيّامًا معدوداتٍ، حجب عنه صورة العالم الخارجيّ، وغشّى على المعتقدات التي كان بها مفتونًا، كي يحدّق إلى أعماق ذاته، حيث يقيم الله.

ولا يني الله يُشعر البشر، حقبةً إثر حقبةٍ، أنّ آراءهم، وأقوالهم، ومبادراتهم موغلةٌ في الضآلة، وعاجزةٌ عن استيعابه. فلا يتوهّمنّ أحدٌ حبسه في إطارها، بل فليلتمسْ مشيئته في محراب النفس، وصمتها الخاشع.

لقد لبس الله جسدًا بشريًّا، فبات هذا الجسد هيكلاً له. وكلّما تأمّلنا في يسوع تجلّى لنا وجه الله. ويسوع قد جعل، أيضًا، من صغار الناس، وفقرائهم، ومرضاهم، ومنبوذيهم، هياكل له، ومن أعراض الخبز والخمر جسدًا له حيًّا، وغذاءً للمؤمنين. ولم يكن الله، قطّ، أكثر ألوهيّةً ممّا هو في يسوع المغرق في الإنسانيّة.

فلنمزِّق الأقنعة التي تحجبه عنّا، ولنتعلّم، بخشوعٍ، وتواضعٍ، وصمتٍ، أن نجده حيث هو، حقًّا.

ولا يريعنّنا صمته المقلق أحيانًا، عندما يبدو بعيدًا، غير مبالٍ، فهو، حينئذٍ، يستدعي إيماننا، ويمتحنه. لقد ظلّ يسوع مستغرقًا في السبات، حين كانت العاصفة تكاد تطيح بالسفينة التي كان يستقلّها مع تلاميذه، إلى أن أيقظوه بعنفٍ، متوسّلين إليه أن ينقذهم. ومع أنّ هذا التوسّل، في ذاته، دليل إيمانٍ، إلاّ أنّ المعلّم أخذ عليهم وَهَن إيمانهم. ذلك أنّ المؤمن الحقّ لا يخاف، ولايقنط، ولا تفتر ثقته بأبٍ محبٍّ، كلّيّ القدرة.

قال الشاعر هولديرلين: «يخلق الله الإنسان مثلما تخلق البحار القارّات، بانسحابه». غير إنّ انسحابه ظاهريٌّ فحسب، فهو خير أبٍ، ويواصل عنايته الساهرة، عندما يدفع الإنسان إلى ذاته.

نظرتنا إلى الله تُثقلها رواسب الماضي، وتشوّهها أوهام الحاضر، في حين أنّ أفق الله لا يني يمتدّ، وتتّضح معالمه مع كرّ عمر البشريّة.

واليوم، كما في أيّام إيليّا وبولس، تتحقّق الولادة في جسد التاريخ الدامي، وفي تجدّد القلوب والنفوس.

فلننطلق، بكلّ طاقاتنا، مع النسيم الرقيق الذي يدعونا، مرَّة أُخرى، إلى الارتحال صوب مستقبل الله القشيب، المدهش، مهتدين بمشيئته التي نكتشفها في محراب نفوسنا، وصمتها، وخشوعها، وصلاتها، بعيدًا عن ضوضاء العالم، ودعاواته الخدّاعة.

ولنختلف باطّرادٍ إلى ذواتنا، ولتكن حياتنا، على صورة حياة يسوع، مغلّفةً بالصلاة، ولنكن، في التماسنا الله، حجّاجًا لا يستقرّون.

«مَن أرادَ أن يَكونَ فيكم كَبيرًا، فَليَكن لكم خادمًا»

(مرقس ١٠: ٣٥- ٤٥)

من كلّ حادثةٍ عابرةٍ، كان يسوع يستنبط عبرةً خالدةً. ويوم خطر لتلميذيه، ابني زبدى، أن يلتمسا الجلوس، أحدهما على يمين عرشه والآخر على يساره، في المملكة التي كانا يتوقّعانها، جمع يسوع تلاميذه، وقال لهم: «**تعلمون أنّ الذين يُعَدّون أراكنة الأمم يسودونهم، وأنّ عظماءهم يتسلّطون عليهم. وأمّا فيكم فليس الأمر هكذا، بل من أراد أن يكون فيكم كبيرًا، فليكن لكم خادمًا، ومن أراد أن يكون الأوّل، فليكن للجميع عبدًا. فإنّ ابن البشر لم يأتِ ليُخْدَم بل ليَخدُم، ويبذل نفسه عن كثيرين**».

قلّما تلفّظت شفاهٌ بشريّةٌ بمثل هذه الأقوال التي تحرث في العمق وجدان الإنسانيّة، وتخضّ أنظمة العالم. وقلّما وُصف حكمٌ بشريٌّ بمثل هذه الواقعيّة القاسية.

فالسلطة الأرضيّة تنطوي، دائمًا، على قسطٍ من السحق والقهر. وتتفاقم سيطرة الحاكمين بقدر تفاقم وَهَن المحكومين. وبمقدار ما يكون هؤلاء محرومين من حقوقهم وحرّيّتهم، يزداد الحكم استبدادًا.

فثمّة من يزعمون إثبات سلطتهم بقهر من هم تحت إمرتهم، وبإذلالهم.

وثمّة من يتذرّعون بسلطةٍ إلهيّةٍ مزعومةٍ، كي يسلبوا إخوةً لهم حرّيّتهم وضمائرهم.

وثمّة من يسعَون إلى إظهار سلطتهم بادّعائهم امتلاك الحقيقة، تمهيدًا لاغتصاب الأذهان والقلوب.

وآخرون يتظاهرون بالمودّة، ويدّعون أنّهم يخدمون الشعب، كي يختلسوا السلطة ويسخّروها لخدمة مصالحهم.

وثمّة من يدّعون العمل في سبيل سعادة الآخرين، بفرض إرادتهم، «ويدعون أنفسهم محسنين».

وثمّة، من الزعماء، من يميتون الآخرين، خشية فقدان سلطتهم.

إبليس بذل كلّ مهاراته، وأساليب خبثه، كي يحمل يسوع على التماس السلطة. ولكنّ يسوع رفض، وبرفضه أصبح ضحيّة السلطات الدينيّة والسياسيّة، المتكالبة عليه، ودمغ، بدمه، وصيّته لتلاميذه بألاّ يكونوا كمن يسودون ويتسلّطون.

لا يعني هذا أنّ يسوع يعارض كلّ سُلطةٍ، بل يريد من السُّلطة أن تكون مسخَّرةً للخدمة.

ليست السُّلطة لقبًا فخريًّا، ولا هي قناعٌ لمطامع شخصيّة، إنّها قدرة حياة، منبعها الله. ليست امتيازًا شخصيًّا، بل هي وزنةٌ يتعيّن تثميرها، كي تفيض الحياة في الآخرين.

السُّلطة، كالمال، ليست سيّئةً في ذاتها، ولا بدّ منها لانتظام الجماعات. ولكنّها تصبح سيّئةً، عندما لا تُسخَّر للخدمة، وتنقلب وسيلة تسلُّطٍ، واستعبادٍ، واستغلال نفوذٍ.

السُّلطة المثلى هي المشاركة بين الراعي والرعيّة، بين الحاكم والشعب.

لقد سنّ يسوع لكنيسته دستورًا جديدًا، حيث سلطة أتباعه تتباين، كلّ التباين، عن سلطة البشر. فعلى من يبتغي أن يكون قديرًا. أن يبدأ بالتخلّي عن كلّ سيطرةٍ. وعلى من أراد أن يكون عظيمًا، أن يكون متواضعًا، وعلى من شاء أن يكون الأوّل، أن يكون الأخير.

سنّة يسوع الجديدة هي سنّة بذلٍ كلّيٍّ. والعظمة الحقّة، فيها، هي الاتّضاع، والسلطة فيها هي خدمة. قد يبدو الأمر مفارقةً، ولكن هكذا شاءه يسوع. وقد يخالف ذلك طبيعتنا وميولنا، لأنّنا لا نعي دعوتنا البشريّة الحقّة.

وفي سُنّة يسوع يُنقذ نفسه من يبذلها، ويصبح تلميذًا من يتجرّد، ويتحرّر، من يسخّر نفسه لخدمة الغير، ويصبح لهم عبدًا، على حدّ قول الرسول بولس: «**كونوا، بالمحبّة، خدّامًا بعضكم لبعض**» (غلاطية ٥: ١٣).

وقد جعل يسوع من نفسه مثلاً، معلنًا أنّ «**ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم**». وقد أضفى على أقواله مصداقيّةً ساطعةً، ليلة تأسيسه أعظم أسراره، إذ اتّزر بمئزرٍ، ونهض بمهمّة عبدٍ، وطاف على تلاميذه يغسل أقدامهم، مؤسّسًا ما يمكن تسميته «سرّ الخدمة».

لقد صار يسوع خادمًا، حبًّا بالبشر كي يهبهم الحياة. لم يفرض نفسه بل عرَّضها، وأمسى، في أقصى مراتب الحبّ، «فِديةً» تحرّرنا، وتعيد لنا الحياة، بمنحنا حياة الربّ ذاتها.

رسالته كانت رسالة خدمةٍ، وإرادته إرادة خدمةٍ، والخدمة أفضت به إلى أقصى ما يسع الإنسان إعطاءه، أي الموت عن الآخرين. ليس قدرٌ أعمى هو الذي قاده إلى الجلجلة، بل قوّة الحبّ الآتية من الآب، والمتجسّدة في الابن. حياته لم تُنتزَع منه عنوةً، إذ لا شيء كان أهون عليه من وقايتها، ولكنّه هو أعطاها، عطيّة حبٍّ، بقرارٍ حرٍّ، وارتفع على الصليب طوعًا، كي يرتقي بالجنس البشريّ.

ومع ذلك لم يتعرّض أحدٌ لغواية السلطة أكثر من يسوع. فقد كان يمتلك من القدرات ما لم يملكه إنسانٌ قطّ. ولطالما حرّضه شعبه على تنصيب نفسه ملكًا. إبليس نفسه قدّم له السيطرة على كلّ ممالك الأرض لقاء الخضوع له. ولكنّه لم يقتصر على رفض كلّ تلك الغوايات، بل لم يتورّع عن شجب مظالم السلطات الحاكمة، الدينيّة والمدنيّة، وأساليب حكمها، وقد دمغ بدمه رسالته إلى تلاميذه: «لا يكن حكمكم مثل حكم العالم!».

إنّ يسوع الوديع كان عنيفًا في مقارعة الكبرياء. وبقدر سعة رأفته على المظلومين، كان على الصَّلَف، والاستبداد، والضلال، سيفًا صارمًا. كان ألدَّ خصومه أرستقراطيّو الكهنوت، وأرستقراطيّو السلطة.

لم يدعُ يسوع إلى الإطاحة بكلّ سلطةٍ، فلا معدًى للمجتمع عنها. ولكنّه أعلن أنّ السلطة ليست سيطرةً، وتعاليًا، وتميّزًا، بل هي التزامٌ بخدمةٍ، وإن لم تكن كذلك فقدت مبرّرها وعلّة وجودها. إنّ السلطة الجيّدة هي التي تنمّي حرّيّة الخاضعين لها، وتشجّع مبادراتهم، وتستشيرهم، وتشركهم في الحكم.

يسوع يعلّم أنّ الزعيم الحقّ هو من يحسن الإصغاء إلى الآخرين، وفهمهم،

وتقديرهم، واحترامهم، وليس ذاك الذي يسيطر عليهم، ويُذلّهم، ويتلاعب بمصائرهم، ويدعهم يتعفّنون في اللامسؤوليّة.

ويسوع يدعو الأوائل والعظماء إلى أن يمّحوا، ويتّزروا بمئزر الخدمة، ويصبحوا «عبيدًا للجميع»، بحيث لا يكون الشأن، بعدُ، للمراكز والسطوة، بل يكون كلّ الشأن للخدمة.

لقد ضرب، هو، المثل في السلطة الحقّة، وحرَّض الكنيسة، والجماعات المسيحيّة كلّها، على التمثّل به كي يكونوا، في ذلك، قدوةً للعالم. ولكن كثيرًا ما اقتدت الكنيسة بسلطة العالم، بدلاً من أن تكون صورةً لسلطة يسوع، الذي ما برح يلجّ ويذكّر ويزعج «**فيما بينكم، ينبغي ألاّ يكون الأمر كذلك**».

لابدّ من إبداعٍ لتحقيق مشيئة يسوع. ومن المؤكّد أنّ العالم سيحبس أنفاسه عندما يشرع المسيحيّون، من كلّ المستويات، بدءًا بأبرزهم، يصبحون صغارًا، وخدّامًا، حقًّا.

الأعمى الذي يركض

(مرقس ١٠: ٤٦-٥٢)

«برثيماي» -ابن ثيماي- أعمى يقبع، منتحيًا حافّة طريقٍ، ويستجدي المارّة، ثابتًا، جامدًا، فيما الناس لا ينفكّون يسيرون، مستقيمين، نحو الآخرين، ونحو المستقبل. ولكن أين يستطيع المضيّ متسوّلٌ أعمى، يحيق به ليلٌ أبديٌّ دامسٌ، ولا يلوح لـه، في أيّ أفقٍ، نور مستقبلٍ؟ إنّه لا يسير، ولا يتقدّم، بل يلتزم مكانه بانتظار حسنةٍ، أو كلمة عزاءٍ....

وها إنّ فرصةً فريدةً تسنح له: فقد ضجّ الطريق، بغتةً، بالهَرج، وأَدرك برثيمايُ أنّ شخصًا ذا شأنٍ قادمٌ، وعلم أنّه يسوع، الذي طالما سمع عنه أنّه لا يتوانى عن شفاء العميان والمقعدين، والمبتلَين بشتّى الأَسقام، وأنّ قلبه من الاتّساع بحيث يصغي إلى شكاوى المتألّمين وأصحاب الحاجات. وتفجّر أَمل الخلاص في قلبه، وآمن بأنّ يسوع سيشفيه.

وكانت خطوته الأولى نحو الخلاص صيحةً ضمّنها كلّ ما اختلجت به نفسه من ألمٍ، ورجاءٍ، وإيمانٍ: «**يا ابن داود ارحمني**». تلك الصرخة، راح يردّدها، بلا هوادةٍ، حتّى ضاق تلاميذ يسوع ذرعًا بها، فجهدوا في إسكاته. ربّما كانوا مستعدّين لنفحه قطعة نقدٍ، أو كلمة تعزيةٍ، ولكن عليه أن يصمت، وأن يكفّ عن إزعاج الآخرين، فيسوع على سفرٍ، يواكبه جمعٌ غفيرٌ، وعليه الاهتمام بشؤونٍ كثيرةٍ، فليدَعْه وشأنه.

تلاميذ يسوع أبَوا الإنصات إلى صياح رجلٍ يزعج. فالإنصات يستلزم التضحية بشيءٍ من الوقت، والإتاحة لآخر أن يقتحم راحتنا، ويثقلنا بهمومه، ويشركنا في مأساته. فليسَ، في الأمر، إزعاجٌ فحسب، بل إنّه أمرٌ لا يُطاق. ولا عجب إن «**انتهره الذين في المقدّمة ليسكت**» (لوقا ١٨: **٣٩**). ولكنّه كلما انتُهِر، ازداد صياحًا: «يا ابن داود، ارحمني». قُوّةٌ لا تقاوَم كانت تحدوه، وكانت تقطنه ثقةٌ

مطلقةٌ بأنّ ثمّة من يرغب في سماعه والإصغاء إليه. وكان إيمانه في حبّ يسوع راسخًا، عميقًا، لا يتزعزع، فلا يملّ من ندائه: «**يا ابن داود، ارحمني**».

توقّف يسوع، ولم يعد يعنيه، من الدنيا، سوى ذلك الأعمى المستجير به. ذهل عن كلّ عملٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، وعن الجمع المحيق به، وأولى الأفضليّة لهذا المسكين على جميع الآخرين، وحرص على العناية به بنفسه، فاستدعاه.

صدّه التلاميذ، ولكنّه لم يقنط من رحمة الربّ. جهدوا في خنق صراخه، ولكنّه ازداد صياحًا. وما إن قرع سمعه نداء يسوع، حتّى هبّ واقفًا، «**وطرح عنه رداءه**»، وأتى متوثّبًا إلى يسوع.

ذلك الرداء ذو الجيب العريض الذي كان يجمع فيه كلّ ما يُلقى إليه من صدقاتٍ، كان كلّ ما يملك، وكان علامة التصاقه بواقعٍ ماديٍّ، وبماضٍ يتشبّث به المرء، ويأبى عنه فكاكًا. خلعه ورماه عنه كي يجري نحو الربّ، خلافًا للشابّ الغنيّ الذي حال ماله الوفير دون اتّباع يسوع.

لم يتردّد الأعمى الذي، مذ سمع نداء الربّ، قفز، خفيفًا، لأنّه تخفّف من كلّ ما يملك. أمّا الغنيّ الذي كانت سيرته مثاليّة، والذي أحبّه يسوع لأنّه حفظ الوصايا منذ صباه، فقد لجمه ماله، وأعماه عن رؤية ذاته الخالدة التي تسمو فوق كلّ مالٍ، وعن رؤية طريق الخلاص، فارتدّ عنه حزينًا.

أمّا الأعمى فقفز في لجّة الليل، ليل العمى، دليل البعد عن الربّ، قفز صوب نور الإيمان. لطالما نُبذ، وثوى على هامش المجتمع، سجين عماه ومهانته. وها هوذا يقفز فوق الهوّة التي كانت تفصله عن العالم، وعن الله.

وحرص يسوع، أوّلاً، على تشديد إيمانه، وشحذه، فسأله برقّة: «**ماذا تريد أن أصنع لك؟**»، فجاء جواب الأعمى ضاجًّا بكل ما احتواه صدره من توقّعٍ وجيعٍ، قلقٍ، وأيضًا بالإيمان والحبّ: «**ربّوني، أن أُبصر**». فقال له يسوع: «**اذهبْ، إيمانك خلّصك**».

لم يحمّله يسوع أيّة منّةٍ، فهو إنّما استحقّ الشفاء، بما كان يعمر نفسه من إيمانٍ وحبٍّ. لقد آمن بحبّ يسوع المحيي، الشافي، واستجار بهذا الحبّ، فاستُجيب رجاؤه.

لم يفوّت برثيمايُ الفرصة، عندما مرّ النور من المكان الذي كان قابعًا فيه، فاندفع نحوه، واقتبس منه. ذاك الذي كان سجين الظلمة قفز في الحال، وانطلق يجري، وقد أُشرع الطريق، بلا حدودٍ، له ولجميع من يستجدون الفجر، ويتسوّلون الله.

كلمةٌ من يسوع كانت كافيةً كي تمتلئ عيناه بالعالم المرئيّ: أشجار الموز والنخيل، وصخور الجبال الحادّة، البنيّة اللون، والجموع المصطخبة، في ثيابٍ مزركشة، ودروب حفرتها ملايين الأقدام. بغتةً، غدا برثيمايُ أكثر سكنًا للكون الذي لم يكن يستطيع رؤيته. فأجال فيه عينيه، وتأمّله بدهشةٍ.

ولكن يبدو أنّ الإنجيليّ مرقس، الذي يهوى الإيجاز الكثيف، لم يتوقّف عند وصف دهشة الأعمى أمام النور، بل استعجل في وضعه على خطى يسوع، فقال: «**فأبصر من وقته، وتبعه في الطريق**»، طريق الجدّة، ودرب الرسالة والمغامرة. سار في إثر من هو السراط، ولكن هل كان يعلم إلى أين ستقوده المسيرة؟ وهل الطريق مضيئةٌ بقدر ما كان يظنّ؟ وكم من العقبات سيتعيّن عليه أن يتخطّاها! فيسوع، حينذاك، كان مصعِّدًا صوب أورشليم، حيثُ سيُقبض عليه، وسيُحاكم، وسيُعذّب، وسيُدان، وأخيرًا سيلقى الموت، أكثف الجدران ظلمةً، وأشدّ الحواجز صفاقةً، التي يتعيّن اجتيازها من أجل بلوغ ملء النور.

إنّ يسوع يجتاز الموت، ويقود إلى النور، في ما يتخطّى الموت. وبرثيماي، الأعمى الذي أبصر بكلمةٍ من يسوع، تبعه إلى ما بعد الموت، نحو الفجر الأخير، إلى ما لانهاية له، وأمسى أوضح إبصارًا حتّى من التلاميذ الأثيرين: بطرس، ويعقوب، ويوحنّا.

ومع برثيماي، يقودنا يسوع على دروب الإيمان، ويدعونا إلى رؤًى جديدةٍ، بأسلوبٍ مختلفٍ، إلى اكتشاف حياةٍ غير مرئيّةٍ تغلّبت على الموت؛ يدعونا إلى خوض مغامرة الإيمان، التي يجب خوضها باستمرارٍ، إلى قفزةٍ تدفعنا إليها يد الله، فوق وهادٍ سحيقةٍ، قفزةٍ لا نعرف لها سببًا أو وسيلةً، ولكنّها تدهشنا عندما نقوم بها، ولا بدّ لنا من تكرارها حتّى تفضي بنا إلى الضفّة الأُخرى.

باتّباعه يسوع إلى أورشليم، عرَّض برثيماي إيمانه وحبّه للاصطدام الوجيع بظلام الموت والفشل. غير أنّ السيّر في إثر يسوع يعني الإمعان في التأمّل، وتجاوز خطّ

الأفق المنظور للإطلال على خطّ أُفقٍ آخر، وانتهاج دربٍ لا يقود من العتمة إلى النور، فحسب، بل من المرئيّ إلى غير المرئيّ، ومن النور إلى ما وراء النور.

* *

برثيماي الأعمى المستعطي على حافّة طريق أريحا نموذجٌ لألوف البشر في كلّ زمانٍ ومكانٍ، والذين يصيحون علّ أحدًا يسمعهم، ويُصغي إليهم، ويعتقهم من وحدتهم. فكم هم من يفتقرون إلى كلمةٍ، أو بسمةٍ، أكثر من افتقارهم إلى نقودٍ تريح ضمير من يخشَون التورّط في مآسي الغير! وكم هم من ينشدون المحبّة ولا يعثرون عليها! إنّ المحبّة هي العطاء الأمثل، على حدّ قول الرسول بولس: «إن تصدّقتُ بكلّ مقتنياتي لإطعام الفقراء، وأسلمتُ جسدي للنار، ولم تكن فيّ المحبّة، لما ربحت شيئًا».

المطلوب هو الحبّ، والحبّ يولد من إصغاء القلب، قلبٍ لا يسعى إلى الاتّقاء من اقتحام الآخرين، ولا يبتغي إظهار تفوّقه عليهم كي يطمئنّ.

القلب المصغي، قلبٌ يتقبّل وجود الآخر، ويحترم شخصه بكلّ تطلّعاته، ومواطن ضعفه وسخائه. قلبٌ مشرعٌ على آلام الآخر، وعلى مشاركته هذه الآلام، وعيشها معه، بلا تأفّفٍ، ولا إدانةٍ لما قد يتعرّض لـه الغير من إخفاقٍ أو تخاذلٍ؛ بل يقاسمه أفراحه ونجاحاته، ويفرح لها لأنّ الآخر أخوه، ولا شيء يهمّه أكثر من توغّله في نور الربّ وسلامه. قلبٌ جاهزٌ، حقًّا، ومنفتحٌ لأنّه مفعمٌ بتلك «**المحبّة التي تجد لكلّ أمرٍ عذرًا، وتصدّق كلّ شيءٍ، وترجو كلّ شيءٍ، وتصبر على كلّ شيءٍ**».

إنّ شفاء أعمى أو أعميين ليس بالأمر الجلَل، قياسًا إلى ابن اللّه. غير أنّ في هذا الحدث الذي رواه الإنجيل قدوةً ورمزًا.

فهو قدوةٌ لكلّ من يستطيع أداء خدمةٍ لمحتاجٍ، لكيلا يضنّ بها.

وبرثيمايُ، أيضًا، قدوةٌ. فهو عندما علم أنّ يسوع مارٌّ انطلق يصرخ ملتمسًا الرحمة والشفاء، غير آبهٍ بمن حاولوا إسكاته. فلتكن صلاتنا صرخةً من الأعماق، والتماسًا لخلاصنا وخلاص الآخرين، حتّى لو جهد العالم المحيق بنا في إخراسنا، ومنعنا،

بشتّى وسائله، من الاستنجاد بالله المخلّص. فلو تجرّأنا، مع ذلك، على الصياح: «**يا يسوع ارحمني**»، فلا ريب أنّه سيقول: «**إيمانك خلّصك**».

والعمى رمزٌ إلى أنّنا، جميعنا، في بعض الأحيان، وفي بعض الحالات، مصابون بعمىً روحيٍّ. والأدهى من العمى هو الظنّ بأنّنا نبصر ونحن عميانٌ، وبأنّنا نرى بوضوحٍ، في حين أنّ في نظرنا حسرًا.

"انْزِلْ يَا زَكّا": يَسُوعُ المُحَرَّرُ وَالمُحَرِّر

(لوقا ١٩: ١–١٠)

زكّا رئيس جباةٍ، يعمل لصالح السلطات الرومانيّة المحتلّة. وقد عُهد عن الجباة أنّهم يضيفون إلى الضرائب التي يتوجّب عليهم أداؤها لأسيادهم عمولاتٍ دسمةً يملأون بها جيوبهم وخزائنهم مالاً حرامًا، ويُثقلون بها كواهلَ المكلَّفين. ومن ثمّ، زكّا، في نظر اليهود، خاطئٌ، وعميلٌ حقيرٌ، مقيتٌ. وفضلاً عن ذلك هو موضع سخريّة الناس، من جرّاء قصر قامته.

ولكن لا مكان لكلّ تلك الاعتبارات في حسابات يسوع، فلزكّا نفسٌ توّاقةٌ إلى الخلاص، وهي التي تعنيه.

عند مدخل أَريحا أعاد يسوع البصر لأعمى استغاث به، وفي المدينة كان زكّا يحدّق بعينيه كلتَيْهما، ونفسه كانت تتلمّس النور، وقلبه كان توّاقًا إلى رؤية شافي الأجساد والنفوس. وإليه جاء يسوع.

كان يسوع في طريقه إلى أورشليم، حيث كان يعلم أنّه سيلقى حتفه. ومن حوله كان كلّ شيءٍ يجيش ويختَمر. لم يُشاهَد، قطّ، مثل ذلك الحشد المتراصّ، حشد المرحّبين والمحتفلين به، والمنادين: «يا ابن داود». لقد برهن عن قدراتٍ إلهيّةٍ خارقةٍ، فعلّقوا عليه أشدّ الآمال طموحًا بطرد المحتلّ، وإعادة المُلك والسطوة لإسرائيل. وقد تفشّت عدوى تلك الآمال إلى التلاميذ أنفسهم، فطالب بعضهم، وطالب ذووهم، بأرفع الوزارات في المملكة العتيدة.

وقد حرّر زكّا يسوعَ من ذلك الدور الذي كان اليهود يتطلّعون إلى إسناده له، وسجنه فيه. فربّما كان هو الوحيد في أريحا الذي لم يهتمّ بدور يسوع السياسيّ، ولم يرَ فيه قدرةً تاريخيّةً فذّةً بوسعه استخدامها، بل انحصرت رغبته في معرفة من

هو يسوع. وفيما كان الآخرون يستشفّون فيه وسيلةً لترسيخ مملكة مصالحهم وسطوتهم، لم يرغب زكّا إلاّ في معرفة شخص يسوع، وفي لقائه.

ومثلما حرّر زكّا يسوعَ من الدور اليهوديّ الذي كان يُرسَم له، حرّر يسوعُ زكّا من ماضيه، ومن إزدراء شعبه لـه. ومن بين الحشد العارم المندفع المحيق به لم يبتغِ مكالمة أحدٍ، أو لقاء أحدٍ، سواه.

وكان زكّا، بُغيةَ ضمان مشاهدة يسوع، التي كانت متعذّرةً عليه، مع قصر قامته، وكثافة الحشد، ورغبةً، أيضًا، في اتّقاء سخريّة القوم وإهاناتهم، قد سبق الجميع وتسلّق جمّيزةً على الطريق الذي سيسلكه الربّ، متواريًا وراء أغصانها. ولّما انتهى يسوع إلى ذلك المكان، توقّف، ورفع عينيه، وتشابكت النظرات، وتساقطت كلماتٌ مدهشةٌ، تقرن الألفة بالوقار: «**زكّا أسرِع انزل، إذ ينبغي لي اليوم أن أقيم في بيتك**».

ليس من العسير تخيُّل وقع هذه الكلمات على الجمع المحتفل بيسوع: صدمةٌ، وأمواج استنكارٍ، إذ كيف يرتضي النبيّ أن يدعو نفسه إلى مائدة عميلٍ، خاطئٍ، بمعزلٍ عن أيّ نفورٍ منه، أو إدانةٍ لـه، أو، أقلّه، موعظةٍ موجزةٍ يدعوه فيها إلى التوبة؟ ومن المؤكّد أنّ يسوع كان يتوقّع صدمة اليهود وتذمُّرهم. ففي نظر الفرّيسيّين لا سبيلَ لأمثال زكّا إلى الخلاص.

الجباة منبوذون، ولا يحقّ لهم أن يكونوا قضاةً، لا بل إنّ شهادتهم غير مقبولةٍ. وحتّى في معايير يسوع نفسه كان زكّا من الأغنياء الذين يتعذّر عليهم اجتياز عتبة الملكوت. ولكنّ يسوع أثبت أنّ لا شيء يستحيل عليه.

موقفه من زكّا، المفعم محبّةً وتسامحًا وتحدّيًا للرأي العامّ، هزّ كلّ كيانه، وزعزع أركان نفسه. فأخذ يعيد حساباته، ولكن، هذه المرّة، لا بُغيةَ مضاعفة ثروته، بل بقصد توزيعها، والتعويض عمّن ظلمهم. إنّ ذاك الذي عدّه الفرّيسيّون من زبانية جهنّم تبرّع بنصف أمواله للفقراء، وتعهّد بالتعويض أربعة أضعافٍ لمن ألحق بهم ضررًا، متخطّيًا، بكثيرٍ، مقتضيات الشريعة. فقبل أن يسمع خطاب يسوع عن «مامون»، وعن مال الظلم، أدرك، بنعمةٍ إلهيّةٍ، أنّ مهمّة المال هي أن يوزَّع.

ومثلما استشفّ زكّا في يسوع إلهًا، متخطّيًا الدور الاجتماعيّ الذي كان اليهود

يبتغون حصره فيه، كذلك تبيّن يسوع حقيقة نفس زكّا، متخطّيًا مركزه، ووظيفته، وسرقاته، وخطاياه، وإدانة المجتمع لـه. وعلى مبادرة يسوع ردّ زكّا مضحّيًا بأغلى ما كان يملأ عليه قلبه: المال.

إنّ يسوع يرى في الخطأة، وفي كلّ واحدٍ منّا، الحيّز الذي ما برح بكرًا بريئًا في كياننا، ويستكشف فيه كائنًا نحن نجهله، ولكنّه، هو، يريد أن يعقد معه علاقات صداقة.

ومن يستقبل يسوع يكتشف جوهر ذاته، مثلما اكتشف زكّا كرامته الخاصّة، وحقيقة ذاته الخالدة، عندما التمس معرفة حقيقة يسوع.

في عالمنا الجيّاش حيث لا سلام ولا استقرار، وحيث كلّ شيءٍ يتبدّل ويتغيّر بسرعةٍ، وحيث الحرّيّة المنفلتة من كلّ قيدٍ ليست سوى استعبادٍ، وسوى سيطرة الدعاوة والإعلام والشهرة على تفكير الفرد وسلوكه، لن نتحرّر، ولن نلتقي ذواتنا، إلاّ في لقاءٍ ومعاهدةٍ مع يسوع.

فلنفسح ليسوع فرصة دعوة ذاته إلينا، علّه يغيّر حياتنا، وفرصة دعوة ذاته إلى عالمنا عساه يصلحه ويحوّله.

بَحَثْتُ عَنْكَ

بحثتُ عنكَ، يا ربّ،
وكنتَ، أنت، فيّ، ولكنّي، أنا، كنتُ خارجًا.
كنتَ، أنتَ، معي، ولم أكن، أنا، معك.
دعوتَني، فقهرتْ صرختُك صَمَمي.
تألّقتَ، فقهر نورُك عمايَ.
نثرتَ شذاك، فتنشّقتُه،
وها أَنذا أصبو إليك؛
تذوّقتك، وها أَنذا في جوعٍ إليك؛
لمستني، وها أنذا أضطرم رغبةً في سلامك.

القدّيس أوغسطينُس

«هٰذا الرَّجُلُ يَقبَلُ الخَطأة، وَيأكُلُ مَعَهم»

(لوقا ١٥: ٢)

غالبًا ما ينصح المجتمع الراقي أعضاءه بالتحاشي عن كلّ ما يخرق التقاليد، ويصدم المشاعر المرهفة، ولكنّ يسوع دأب على مخالفة هذه النصيحة، وتعمّد انتهاك التقاليد، بُغية تحطيم قواقع الرياء، واللامبالاة، والعجْب بالذات.

كان يسوع في مواجهةٍ سافرةٍ مع الكتبة والفرّيسيّين، أولئك الذين يفخرون بانفرادهم بمعرفة كلّ الشريعة، وبالتقيّد الشديد بكلّ فرائضها. ومن تلك الفرائض النأي عن الخطأة، تفاديًا لعدواهم الوبيلة. ولكنّ يسوع خالف هذه السنّة، متعمّدًا، وبذلك طرح أسئلةً ستنجم عنها تعاليمه.

وكان الفرّيسيّون يضيقون به ذرعًا، ويَرون فيه مخرّبًا دائبًا على تحطيم إطار بلاده الأخلاقيّ والدينيّ: «**كان العشّارون والخطأة يدنون منه جميعهم كي يسمعوه. فكان الفرّيسيّون والكتبة يتذمّرون قائلين: «هذا الرجل يقبل الخطأة، ويأكل معهم»**»! حثالة القوم، «شعب الحضيض» كما كانوا يدعونهم، ازدراءً، يُقبلون عليه، ويُعرضون عنهم، هم نخبة العلم والتقوى! لا ريب أنّ هذا النجّار الناصريّ يعبث بالله!

قديمًا، لمّا كان اليهود، ما برحوا هشّي الإيمان غير راسخي الأقدام فيه، طُلب منهم أن ينأَوا بأنفسهم عن الوثنيّين والخطأة، واعتبارهم وبالاً ينبغي التحرّر منه، خشية التأثّر بهم، والانزلاق إلى مشاركتهم تقاليدهم ومعتقداتهم، وسلوكهم. وها قد حان الأوان كي يُنظر إليهم كجرحٍ ينبغي الإكباب على شفائه، وكبشرٍ يتعيّن خلاصهم، ولو بالتضحية بالذات. وما أبعد التضحية بالذات، في سبيل الغريب، عن مفهوم اليهود! وعلى هذا الواقع حرص يسوع أن يفتح أبصارهم، قائلاً: لو كان لأيٍّ منكم قطيع غنم، وتاهت واحدةٌ منه، لما تردّد في ترك جميع الأخريات في مأمنٍ، وفي الانطلاق للبحث عن الضالّة. وإنّما يفعل ذلك لأنّها ملكه،

وتخصّه. لو ضلّت نعجة الجار، لما اكترثتم، ولكن عندما تضلّ نعجتكم، فللأمر وجهٌ آخر.

وإنّما أولئك الخطأة الذين أسعى في إثرهم، وهم يُقبلون إليّ، هم خاصّتي، إنّهم نعاجي، وأنا راعيهم. أعرفهم ويعرفونني، وقد جئت لكي أبحث عنهم، وأجدهم، وأخلّصهم. في الواقع، ما الذنب الذي تأخذونه عليّ لأنّي أرحّب بهم، وأُشاركهم طعامهم، إلاّ ذنبكم، فقد أدنتم ونبذتم من كان من شأن الحبّ الأخويّ، لو أنتم عرفتموه، وعملتهم بوحيه، أن يدفعكم إلى العناية بهم، والتماس خلاصهم.

* *

طوبى لمن حرصوا على أن يظلّوا للأرض ملحًا، ولم يخشَوا من ترك النعاج الأمينات الآمنات، ومضَوا في إثر الضالاّت، وارتضوا، في سبيل العثور عليهنّ، أقسى التضحيات، وليست أقلّها نميمة فرّيسيّي كلّ جيل، واستنكارهم، وإدانتهم.

«**إنقاذ ما قد هلك**»: لهذا الغرض تجسّد يسوع، وسكن بين ظهرانينا، ومات على الصليب. ولهذا الغرض نحن، أيضًا، مسيحيّون. فهل نحن نؤثر الحقيقة والعدل، مهما كلّفانا من ثمنٍ؟ وهل يواكبنا همٌّ سعادة الآخرين، وفي المقام الأوّل، الأكثر تيهًا، وتعرّضًا للقدح والنميمة؟ وهل نحن مستعدّون، في سبيل إنقاذهم، وإعادة تأهيلهم، للتضحية براحتنا، ورفاهنا، ومركزنا، وتقدير الناس، وصداقتهم؟ وهل نحن نؤدّي حقوق الله، بلا تحفّظٍ؟

لن نكون مسيحيّين، حقًّا، وتمامًا، بثمنٍ أدنى من هذا.

«أدُّوا ما لقيصرَ إلى قيصر، وما للهِ إلى الله»

(متّى ٢٢: ٢١)

فئات اليهود المتخاصمة اتّفقت على الإيقاع بيسوع، في موضوعٍ هي عليه منقسمةٌ. وكان على يسوع أن ينجو بنفسه، وسط حقلٍ مزروعٍ ألغامًا، ومُناخٍ يقطر حقدًا وشحناء.

فاليهود الوطنيّون المتطرّفون يدعون إلى التمرّد ورفض دفع الضريبة؛ والصدّوقيّون الذين يستمدّون نفوذهم من مصانعة الرومانيّين يدافعون عن واجب دفع الضريبة؛ والفرّيسيّون متأرجحون، يقولون ما لا يؤمنون به، ويحاولون إيجاد تسويةٍ بين النزعتين. وتواطأت الفئات الثلاث المتنازعة على الإيقاع بيسوع، فجاءه مندوبون عنها جميعًا، يستفتونه في هذا الموضوع عينه، بغية أَخذه في شباك مكرهم، وهم موقنون أنّ خطّتهم محكمةٌ، لا مفرّ له من التورّط فيها.

وقد مهّدوا لخديعتهم بالمداهنة، فقالوا: «**يا معلّم، نحن نعلم أنّك صادقٌ، وأنّك تعلّم طريق الله بالحقّ، ولا تبالي بأحدٍ، لأنّك لا تحابي وجوه الناس...**». وربّما آمن بعضهم، فعلاً، أنّه الحكَم الفصْل، لأنّه أسمى من خلافاتهم، ولأنّهم عهدوا فيه إنسانًا حرًّا لا تقيّده أيّة تقاليدَ أو أحكامٍ مسبّقة.

فإن أفتى يسوع لصالح أداء الجزية بدا وكأنّه «متعاونٌ» مع المحتلّين، وفقد «شعبيّته»، وإن هو أفتى بالإمساك عن دفعها، وشوا به إلى السلطات بتهمة التمرّد وإثارة الفتنة.

ولم يخطر ببال الذين راموا الإيقاع به أنّهم سيقعون في شبكة حكمته وعبقريّته. قال لهم: «**أروني نقد الجزية**»، إذ إنّه لا يحمل نقدًا، ولا يتداول به، شخصيًّا. واستلّ أحدهم من جيبه درهمًا على أحد وجهيه صورةٌ للقيصر، وعلى الوجه الآخر شعارٌ يعلن ألوهته. وفُضِح مجرّبوه: فهم يزعمون مقتهم للقيصر، وشجبهم لادّعائه الألوهة، ولا يتحرّجون من حمل نقودٍ نُقشت عليها صورته وإعلان ألوهته، بل لا

يجدون غضاضةً في التكالب على تكديس هذه النقود. لا يرَون في تداول هذه النقود وجمعها نجاسةً، بل النجاسة كلّها تثوي في فقدان هذه النقود عندما تُدفع للقيصر، جزيةً.

وسألهم: «**لمن هذه الصورة، وهذه الكتابة؟**». فحملهم على الاعتراف، بأنّها لقيصر. فردّ عليهم ردًّا لم يتوقّعوه، بات قولاً مأثورًا، تتوارثه الأجيال: «**أدّوا ما لقيصر إلى قيصر، وما لله إلى الله...**». جوابٌ دوّى كالصفعة على وجوه مجرّبيه. إنّه ومضة عبقريّةٍ وجرأةٍ تتخطّى الشريعة والتاريخ. إنّها شرارة مرحٍ تسمو فوق كلّ صغارةٍ، وتتجاوز القرارات الواقعيّة. وإنّما يعجز البشر عن التحليق إلى مثل تلك الأجواء اللازورديّة لأنّهم أَلِفوا صدّ هبوب الروح بمنخل منطقهم القزم.

بدا يسوع وكأنّه يقول لهم: إنّكم تستوضحوني عمّا لا علم لي به. فأنا لست أحمل مثل هذه النقود، و أنتم تحملونها. إذن، أنتم ارتضيتم بسلطة قيصر. أنتم تعلمون ما تعني هذه النقود وما تمثّل، وأنا لا أعلم. ولكن بما أنّكم قبلتم تداولها، وأنتم على بيّنةٍ من مصدرها ومعناها، فأدّوا لصاحبها حقوقه. واستوضحوني، أنا، عمّا يخصّ الله. ولا تدعوا سلطةً تطغى على أخرى. فلكلّ واحدةٍ ما وُجدت من أجله.

ولكأنّي به يقول لهم: إنّ أداء الضريبة لقيصر أمرٌ لا يعنيني، فأنا لا أتداول بنقودٍ قيصريّةٍ، أمّا أنتم فتستخدمونها، ومن ثمّ فعليكم أن تؤدّوا عنها ضريبةً.

إلاّ أنّ ما يهمّني هو أنتم، نفوسكم، إذ إنّكم خاصّة الله، وواجبكم الأسمى هو أن تؤدّوا لله حقوقه، وتضطلعوا بالتزاماتكم تجاهه.

على النقود صورة قيصر وشعاراته، فأدّوا له ضريبة ماله. أمّا أنتم فمصنوعون على صورة الله، وعليكم أن تؤدّوا له ذواتكم.

بجوابه هذا، ردّ يسوع على موقف روما التي ألّهت قيصر، وعلى موقف اليهود الذين «قيصروا» الله.

وفي هذا السياق يقول أوريجينُس: «إنّ النقد الذي يمثّل قيصر مسكوكٌ من ذهبٍ، ومحفورةٌ عليه صورة قيصر. أمّا نقد الله، فهو الإنسان ذاته، وصورة الله مطبوعةٌ

في أعماقه. ولذلك يحقّ لقيصر استيفاء ضريبةٍ على أموالنا الأرضيّة، في حين علينا الحفاظ، بحرصٍ، على وفاء انتمائنا للّه وحده».

إنّ الإنسان، بجسده، مرتبطٌ بأرضٍ ومجتمعٍ، ووطنٍ، ومن ثمّ عليه الاهتمام بشؤون الدنيا. ولكنّه، في جوهره، روحٌ، وروحه هي الأَوْلى بعنايته.

مدهشٌ يسوع: فهو ينطلق من أسئلةٍ محدّدةٍ، إلى أجوبةٍ لانهائيّةٍ، ومن حقوق قيصر إلى حقوق اللّه. لقد ارتقى بالقضيّة المطروحة من نقاشٍ سخيفٍ حول شكليّاتٍ إلى قمّةٍ شاهقةٍ، وإلى تطلّعٍ صوب اللّه، به يكبر الإنسان. لقد تخطّى جوابُه كلَّ رؤيةٍ ضيّقةٍ، ووسّع آفاق البشريّة.

جواب يسوع إلهامٌ ينير، في كلّ زمنٍ، وفي كلّ قضيّةٍ، قرارات البشر، ويمزّق ثوب البشريّة الخلِق. فعلى الإنسان المخلوق على صورة اللّه، اقتسام حياة اللّه، وهو يستحقّ احترامًا مطلقًا، لأنّ مصيره إلهيٌّ.

وقد ضرب يسوع، من نفسه، على ذلك، المثل، فهو قد رفض، أبدًا، أن يلعب دور المسيح الاجتماعيّ السياسيّ الذي أراد شعبه أن يلعبه، وهو عالمٌ بأنّ رفضه سيفضي به إلى موتٍ مُخزٍ. وكان قد أوضح ذلك من خلال مقاومته كلّ إغراءات إبليس بالشهرة، والسلطة، والنفوذ؛ ومن خلال فراره من المحاولات المتكرّرة لتنصيبه ملكًا، ومن خلال تعنيفه لبطرس الذي أبى لـه الآلام والمهانة؛ وقد صرّح لبلاطُس: «أنا ملك، ولكنّ مملكتي ليست من هذا العالم».

ولا يعني ذلك فصل العبادة عن الحياة اليوميّة، بل ينبغي أن يتغلغل تأثير العبادة إلى الشارع، والمدينة، والأُسرة، والشرائع... وليس بوسع أيّ إنسانٍ أن يهب نفسه للّه، إن هو أمسكها عن إخوته، وتجاهل معاناتهم، في عالمٍ تعبث به السياسة.

لم ينكر يسوع أنّ لقيصر حقوقًا، ولكنّه أنكر عليه ادّعاء الألوهة، فالإنسان يعيش في مجتمع، ويحتاج إلى حاكمٍ بشريٍّ يضبط حياة المجتمع وينظّمها. ولكنّ كلّ سلطةٍ بشريّةٍ نسبيّةٌ وزائلةٌ ولا تملك حقّ الطغيان على سلطة اللّه وواجبات الإنسان تجاهه، ولا الهيمنة على الضمائر، ولا الاستئثار بكلّ الإنسان. فالسياسة ليست جوهر الإنسان، ولا هي اهتمامه الوحيد، إذ إنّ الإنسان لا يحيا بالخبز وحده.

على الحاكم ألاّ يُغفل عن أنّه ليس اللّه، وأنّ للّه عليه حقوقًا في حكمه، الذي

لا يتيح له اقتحام وجدان أيّ إنسانٍ، أو السيطرة على روحه، وإلاّ انقلب طاغيةً؛ وقد أثبتت تجارب الدول أنّه حيث لا يُحترَم اللّه، لا يُحترَم الإنسان، مثلما أثبتت أنّ المجتمعات التي أقصت اللّه عنها، هوت إلى الفوضى، وفقدت إنسانيّتها فقدانًا مريعًا.

وعلى الكنيسة، أخيرًا، أن تحترم الحاكم وترشده، نائيةً بنفسها عن إدارة شؤونه، أو التماس حُظْوته، أو الاستعباد لرغباته، أو المساومة على حرّيّة معتقداتها، وألاّ تتّكئ إلاّ على سلطة روح اللّه.

لم يقع يسوع في الشرك الذي نُصب لـه، بل أسفر عن وجهه المشرق، وحقيقة هويّته ورسالته: إحلال ملكوت اللّه. وبذلك أبرز حجم الإنسان اللامحدود.

لو استوضحنا، اليوم، يسوع عن قضيّةٍ تُربكنا، لأدهشنا بتوجُّهٍ لا ترقى إليه أفكارنا. إنّه لا يفرض نهجًا محدّد البنود. وهو ينبعث دائمًا من المستقبل، ويجتذبنا نحو مزيدٍ من العدل، والسلام، والحرّيّة، والإنسانيّة. ولكنّه يدع لكلّ مؤمنٍ حرّيّةَ اختيار الوسيلة المثلى للنهوض بحياة الجميع، وصون كرامتهم، بإلهام النور الذي يُشيعه، هو، في صدره.

* *

فُسّر قول يسوع هذا تفسيراتٍ متعدّدةً، أملتها مصالحُ متقلّبةٌ، فجاءت ضيّقة الحدود، مسدودة الآفاق، في حين أنّ أبعاده بلا حدودٍ. فبه يسوع ارتقى من جَدَلٍ سخيفٍ إلى ذرى اللّه الشامخة، وانطلق من قضيّةٍ آنيّةٍ إلى مستقبلٍ مفتوح الآفاق على اللانهائيّ.

فلا نحاولنّ وقف هبوب الروح بمنخل منطقنا الهشّ؛ بل فلنجعل من أقوال الربّ مصدر وحيٍ يظلّ يوجّه قرارات البشر، بقوّةٍ متجدّدةٍ تحطّم الحدود والسدود، وتُطيح بكلّ صغارةٍ ورداءةٍ.

وسيقدم يسوع، دائمًا، قدوم كائنٍ مزعجٍ، مدمّرًا البنى النَخِرة، والصِيَغ الضيّقة، منيرًا، بضوءٍ قشيبٍ، كلّ مناحي الحياة. وليكن إنجيله خميرًا يُنضج عجين البشريّة، وملحًا يقيها من الفساد، ويُسيل فيها نكهةً سماويّةً مستساغةً.

« لَمْ يُرسِلِ اللهُ ابنَهُ إلى العَالَمِ ليُدينَ العَالَمَ، بَلْ ليُخَلِّصَ بهِ العَالَمَ »

(يوحنّا ٣: ١٧)

ما أعظم حبّ اللّه للعالم!

«أجل، لقد أحبّ اللّه العالم حتّى إنّه بذل ابنه، وحيده، لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة».

كلماتٌ ملتهبةٌ، حارقةٌ؛ كلمات حبٍّ مذهلٍ، حبٍّ حتّى الجنون.

حبٌّ من العظمة بحيث جعل اللّه كلمته بشرًا، في يسوع الناصريّ. ويسوع، تأكيدًا لحبّه وحبّ أبيه، مات مصلوبًا من أجلنا، ثمّ قام لحياةٍ جديدةٍ ممجّدةٍ، وأصبح حضورًا ينشر الحياة في قلوب البشر.

لقد انتهج يسوع درب البشر كي يهديهم إلى درب الآب، من خلاله، إذ «لا أحد يأتي إلى الآب إلاّ بالابن»، وهكذا أمسى يسوع طريق اللّه نحو البشر، وطريق البشر صوب اللّه.

لكي يُنقذ اللّه العالم من الهلاك، ارتضى تسليم ابنه لمهانة الصليب.

مفارقة الصليب تكمن في أنّ إشارة العار هذه، أمست رمزًا للانتصار على الشرّ. والعالم الذي يسوده الموت، والخطيئة، واللامعقول أصبح، بالإيمان، عالَمًا يحبّه اللّه.

إنّ الصليب المنتصب في قلب الحياة المسيحيّة لا يني يعلن أنّ حتّى اللامعقول يصبح معقولاً على ضوء يسوع. فإن نحن اعتنقنا النظرة الإلهيّة، أضحى لآلامنا معنًى آخر، إذ إنّها ستفقد سلبيّتها كي تغدو إيجابيّةً، خصبةً، مع يسوع.

واعتناق نظرة الله يعني الإيمان الذي يهب رؤيةً قشيبةً لكلّ شيءٍ. فهذا العالم الذي غالبًا ما يبدو لنا فاسدًا، قاتمًا، بكلّ ما يزخر به من أحقادٍ، وقهرٍ، وأنانيّةٍ، هذا العالم عينه يحبّه الله، لأنّه يأبى لـه العيش في الخطيئة والشرّ، ويبتغي إنقاذه ودفعه إلى كماله، بحيث يأتي يوم «لا يكون فيه، بعدُ، موتٌ، ولا نَوْحٌ، ولا نحيبٌ، ولا وجعٌ» (رؤيا ٢١ : ٤). وفي سبيل ذلك يفعل الله كلّ شيءٍ.

* *

قد يُخيّل إلينا أنّ الله يراقبنا كي يديننا، ويشوب نظرتَنا إليه شعورٌ بالخوف والذنب. إنّنا نخشاه، مع أنّ إنجيل يوحنّا يدوّي بهذه العبارة الدافئة: «**لقد أرسل الله ابنه إلى العالم، لا ليدين العالم، بل لكي يخلّص به العالم**».

كان بوسع يسوع إطلاق رعود الإدانة، وفصل الزؤان عن القمح الجيّد، وإقصاء الذين يزوغون عن السراط القويم، ولكنّه لم يفعل، وإنّما اقتصر على التشهير بمن يحبسون ذواتهم في عُجب المال، والمعرفة، والسلطة، ويزدرون الآخرين.

أمّا هو فقد اقتسم طعام الخطأة، وحرّر الأجساد المتوتّرة، والأرواح المسلوبة، ودعا إلى الترحيب بكلّ وجهٍ، وإلى اختراع الحبّ.

لقد قوّض حواجز مجتمع زمانه الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والأخلاقيّة، والدينيّة، وأعلن انتماءه إلى أبيه، الله، كي يوقظ كلّ قلبٍ، ويقضي على الفوضى المستشرية، ويُعلن قرب إرساله الروح الذي سيواصل إضرام النار...

لقد آن لنا، بعد عشرين قرنًا، أن ننعتق من رؤية الله الذي تبتدعه مخاوفنا، لكي نستقبل الله، الذي تجسّد حبًّا بنا، والذي يجهد في اجتذابنا إلى إعلانه الأعظم: «**الله محبّة**».

* *

بيد أنّ مأساة الإنسان الحرّ، منذ بدء الخليقة، هي نزوعه إلى اختيار الظلمة، عندما يُعرَض عليه النور، لأنّ «**من يعمل السوء يبغض النور**»، وميله إلى إيثار الموت على الحياة. ولكي يستبدل الله هذا البغض بحبٍّ، ولكي يحوّل نزعةَ تدمير الذات إلى حبّ الحياة، ولفرط حبّه للعالم، أرسل ابنه ليخلّص العالم.

لم يرسل اللّه ابنه كي يدين العالم؛ غير أنّه يقتضي الإيمان بحبّه وبابنه؛ فمن آمن خلص، ومن رفض هذا الإيمان أدان ذاته وقضى عليها بالهلاك. فكلّ من يرفض النور، يحكم على ذاته بالظلمة، وكلّ من يرفض المصير الإلهيّ الذي يدعوه إليه اللّه، يهوي إلى العدم.

لقد أراد اللّه أن يُعتق الإنسان من حدود حياته الأرضيّة، وأن يقدّم له، هديّةً، حياته الخالدة؛ فهو «الحيّ» بامتيازٍ، ويودّ تزويد البشر بحياته ذاتها.

وبوسع الإنسان أن يفتح يديه ويتلقّى هديّة اللّه السنيّة هذه، أو يقبضها ويرفضها؛ كما أنّه حرٌّ بأن ينعم بشمس اللّه الساطعة، أو أن يوصد نوافذه، ويمكث في العتمة والقرّ.

إنّ الإيمان هو المدخل الوحيد إلى الحياة الأبديّة، وهو الوسيلة المثلى لتجاوز فضيحة الشرّ، والألم، والظلم، التي نصطدم بها، في كلّ خطوةٍ.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

إنّ حبّ اللّه الجمّ ما زال يواكبنا. فالآب ما انفكّ يرسل ابنه، ويبعث كلمته في البشر، كلمة سلامٍ، وعدلٍ، وحبٍّ. والابن خلّد حضوره في ما بيننا، وجعل منّا أبناءً له وللآب.

أيّ رجاءٍ كفيلٌ بإنعاش قلوب المؤمنين بأبوّة الآب والابن، وبحضورهما الدائم، وبإشعاع روحهما في العالم، روح الحبّ الذي يجمعهما، ويُشيع بين البشر إخاءً شاملاً!

« أنَا الطَّريقُ وَالحَقُّ وَالحيَاة »

(يوحنّا ١٤ : ٥–٦)

لكي يبدّد حيرة تلاميذه، ويثبّت قلوبهم، عرَّف يسوع نفسه بثلاث كلماتٍ، ترسم، عنه، صورةً مدهشةً.

«**قال له توما: «يا ربّ، إنّا لا نعرف إلى أين تنطلق فكيف نعرف الطريق؟» فقال لهم يسوع: أنا الطريق، والحقّ، والحياة، فلا أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي**».

بطبيعته الإلهيّة هو حياةٌ، لأنّه كائنٌ أزليٌّ أبديٌّ، لا بدء لوجوده، ولا نهاية. وهو الحقيقة. لم يقل: «لديّ الحقيقة. إنّي أمتلكها». بل قال: «أنا الحقيقة». والله، وحده، يملك الإدلاء بهذا القول في شفافيّة اللامحدود. إنّه الحقيقة لأنّه الكلمة، وليس كلامًا. إنّه الحقيقة مثلما هو النور الحقّ، والخبز الحقّ، لأنّه حبٌّ صافٍ، ووحده الحبّ الصافي حقٌّ محضٌ.

وقد تجسّد كي يصبح للبشر طريقًا إلى ذاته، إلى الله أبًا، وابنًا، وروحًا قدُسًا.

إنّه الطريق المؤدّي إلى الآب، لأنّه الابن البكر والوحيد، ولا يستطيع أن يقود إخوته إلاّ نحو أبيه. إنّه والآب واحد، ولذلك لا أحد يأتي إلى الآب إلاّ به. وكلّ من سار معه، ومن خلاله، انتهى إلى الآب.

إنّه الطريق إلى الآب، أوّلاً، بتعاليمه، وبما يفجّر من إيمان، إذ إنّه جاء إلى العالم، «**لتكون، به، الحياة الأبديّة، لكلّ من يؤمن به**». وهو الطريق إلى الآب بقدوته، إذ لا يقوى أحدٌ على المضيّ إلى الآب إلاّ بالاقتداء بالابن؛ وهو الطريق إلى الله بكراماته التي فتحت للبشر أبواب السماء، وبإعلانه الآب الذي يشترك معه بالطبيعة الإلهيّة الواحدة.

حيرةٌ شديدةٌ كانت آخذةً بخناق تلاميذه، فقال لهم: «لا تضطرب قلوبكم... أنا الطريق»... رسالةٌ مفعمةٌ رجاءً.

في عالمنا الذي امّحت صُواه ومراجعه، وتعثّر دليله، وبات قومه يرتطمون بجدرانٍ صفيقةٍ من الشكّ والضياع، أو يقفون حائرين أمام مسالك مسدودةٍ، ما أعذَب سماع يسوع يقول: «**أنا الطريق**»!

فعندما تختلط علينا الدروب، وتتضارب الدعوات إلى مناهج متباينةٍ، فلنتيقّن أنّ يسوع هو الدرب الوحيد الذي لا يقود إلى التيه.

وعندما نلقى مشقّةً في ممارسة إيماننا، وسط محيطٍ فقد الجرأة على عيش الإنجيل، لا بل استنكر تعاليمه واستخفّ بها، فلنذكر أنّ يسوع هو الدرب الوحيد المفضي إلى الآب.

هو الطريق الأوحد الذي يصل الأرض بالسماء. فقد خلّف آثار أقدامه واضحةً، ومحفورةً بعمقٍ على الأرض، بحيث لا يقوى على محوها لا كرُّ السنين، ولا مكر الأعداء.

يسوع يقودنا على طريق حياةٍ، وطريق موتٍ لا يفضي إلى الفناء. فهو طريق حياةٍ خالدةٍ، حياةٍ أبديّةٍ. ولكنّ الحياة الأبديّة لا تبدأ عقب الموت، بل هي تبدأ منذ الآن، عندما نحيا حياة يسوع، ونقتفي خُطاه، مسهمين في بناء ملكوته. الحياة الأبديّة هي حياتنا على هذه الأرض، عندما نحياها، على غرار يسوع، في حبٍّ لا يني ينمو إلى أن يكتمل في الآخرة.

إنّ المسافة التي تفصل الحياة الأرضيّة عن حياة القيامة ليست أبعد من المسافة التي تفصل الابن عن الآب: فالآب يقيم في الابن، والابن يقيم في الآب. ونحن مدعوّون إلى الإقامة في الله، وإلى السير مع يسوع، في آنٍ واحدٍ؛ إلى الضرب في الصحراء، والتمتّع بطراوة الواحة، معًا؛ إلى وفرة الماء، والعطش الدائم، إلى الجوع الذي لا يفتر أمام مائدةٍ عامرةٍ.

ويسوع يفجّر عطشنا ويروينا بفيض مائه؛ يفجّر جوعنا ويغدق علينا خبزه.

«**أنا الطريق**»... رسالة رجاءٍ، ولكنّها كثيرة الاقتضاء. فيسوع هو الطريق، وعلينا،

نحن انتهاجه، حياتنا كلّها، في الحبّ. وما من حبٍّ بلا ألمٍ، وبلا صليبٍ. ولقد قيل إنّ الإيمان يبدأ من القدمين، إذ إنّ على المؤمن أن يُغذّ السير، على «الطريق»، بلا هوادةٍ، ولا توقّفٍ.

ومن اهتدى إلى الطريق عليه أن يرشد إليه كلّ تائهٍ: «**امضوا إلى مفارق الطريق، وادعوا إلى العرس كلّ من وجدتم**» (متّى ٢٢ : ٩). اهتداؤنا إلى «الطريق» يفرض علينا إرشاد إخوتنا إليه.

* *

يسوع هو الطريق لأنّه حقٌّ وحياةٌ. وعندما نسير على الدرب معه تتكشّف الحقيقة، وتتفجّر الحياة بغزارةٍ.

وبانتهاجنا طريق يسوع، بالإصغاء إليه، بالمكوث إلى جانبه، بالإقامة فيه، نتعلّم منه ما نقول، وما نفكّر، وكيف ننهج، كي نصل، عبره، إلى الآب، فيظلّ حاضرًا في أذهاننا، وقلوبنا، وعلى شفاهنا، وفي كلّ أعمالنا، حتّى أبسطها، ويُصبح لنا مصدر معرفة الحقّ، وتدفُّق الحياة.

يسوع هو الحقيقة والحياة لأنّه ابن الله المتجسّد، الذي يعلن حقيقة الآب، ويعلّم العبادة بالروح والحقّ.

وهو الحياة لأنّه أراد إشراكنا في حياته الأبديّة. «**والحياة الأبديّة هي أن يعرفوك، أنت الإله الحقّ وحدك، ويعرفوا يسوع المسيح، رسولك**» (يوحنّا ١٧ : ٣).

وهو الحياة لأنّ آفاقه مشرعةٌ على اللانهائيّ، ولأنّ الحياة لمن يؤمن به ليست فاقدة المعنى. فيسوع هو الذي يفتح للمحدوديّة آفاقًا بلا حدودٍ، وهو الذي يبطل مفعول الموت. بمعزلٍ عنه يظلّ الإنسان سجين حدوده. ولكنّه، معه، ومعه فقط، ينهج دربًا لا يقود إلى حفرة القبر المعتمة، بل إلى بيت الآب.

ولأنّ يسوع يعلن الحقيقة التي تقود إلى الله، وتوفّر الحياة الحقّة لمن يلتزم بها، إيمانًا وممارسةً، فهو يقود من يؤمن به إلى غاية وجوده، إلى الآب، وبذلك يكون طريقًا.

* *

«**أنا الطريق والحقّ**»، وعندما يضيف يسوع: «وأنا الحياة» يكون قد قال كلّ شيءٍ. ولا يبقى علينا سوى الإصغاء، في صمت الصدى: «**أنا الحياة... أَنا...**.».

* *

ملاحظة: ثمّة من يترجم هذا القول على النحو التالي: «أنا الطريق إلى الحقّ، والحقّ هو الحياة».

«أخذ ولدًا، وأقامه في وسطهم، وضمّه بين ذراعيه»

(مرقس ٩: ٣٦)

على الإنسان أن يولد باستمرارٍ، لأنّ الحياة، دائمًا، تفاجئه، ولأنّ وجه اللّه أبدًا جديدٌ، وأبدًا محيّرٌ، وأبدًا يقتضي أن نستقبله على دروب مسيرتنا الفرديّة وعلى دروب حياة مجتمعاتنا الصاخبة.

لقد أقام يسوع ولدًا وسط تلاميذه، وجعل منه قدوةً لهم، متحدّيًا من يحاولون تجميد الحياة، وحبسها في إطار البديهيّات الضيّقة، أو خنقها بواقعيّتهم الحسيرة البصر.

قُبيلْ ذلك كان التلاميذ يتحاجّون حول تقاسم المناصب في ملكوت اللّه، فأومأ يسوع إلى صبيٍّ، كي يُفهمهم أنّ تفجّر الحياة كفيلٌ بتقويض كلّ تدابيرهم، ولكي يؤكّد لهم أنّ عليهم استقبال طفولة العالم باستمرارٍ، في سبيل استقباله هو، واستقبال الذي أرسله.

كم تعاني طفولة العالم من فظاظةٍ!... فكلّما حاول، هنا وهناك، بشرٌ مؤمنون بعث مزيدٍ من العدل والحرّيّة والكرامة، نشطت مقاومة ذوي النفوذ لتحطيمهم؛ وغالبًا ما تفلح، بحيث تبدو الحبّة الثاوية في ثنايا التربة، وقد أخلدت إلى سبات الموت، ولا بدّ من انتظار عقودٍ، بل قرونٍ أحيانًا، قبل أن تنهض، من جديدٍ، التطلّعات الإنسانيّة التي وُطئت. ولكنّها تنبعث، أبدًا، انبعاث ربيعٍ عنيدٍ. قيل: الرجاء طفلةٌ غالبًا ما توسع ضربًا، ولكنّها، دائمًا، تسترجع بسمتها وتحدّق إلى الناس بعيون المستقبل.

إنّه لمبعث رجاءٍ أنّ البشريّة لم تستسلم، قطّ، على امتداد درب صليب التاريخ. بدت، أحيانًا، وكأنّها سُحقت، غير أنّها لم تتهافت قطّ. لطالما قبعت على حافّة

الطريق، راضيةً بمصيرها، متكيّفةً، معه، عازفةً عن ذلك الدافع الذي لا يني يحرّكها إلى الأمام. ولكنّها، حتّى في أحلك الليالي المميتة، كم شاهدت أبطالاً يستقيمون، ويستأنفون مسيرتهم صوب آفاق الإنسانيّة، ولو كلّفهم ذلك بذل حياتهم!

كم يبدو الرجاء غائبًا في أيّامنا، حيث يفرض المال والقوّة نفسيهما بشراسةٍ داخل الأمم، وعبر العالم، وحيث يتهيّأ، في النضال والألم، مستقبلٌ أوفر إنسانيّةً!

غير أنّ الحياة المتفجّرة من الله هي أعمق من مؤسّساتنا، وأمنع من سلطاتنا، وأصفى بصيرةً من وجهات نظرنا. إنّها تدفعنا بعنفٍ، وغالبًا ما تنفحنا حياةً جديدةً.

* *

«**ووضع صبيًّا وسطهم**». إنّ هذه الطفولة التي يستفزّها الله دائمًا وسط البشر، هذا الصبيّ الذي يقيمه وسط الكنيسة، هو يسوع الذي لن يكفّ عن إدهاشنا، والذي سيبقى حجر عثرةٍ، وحجر الزاوية، الناهض من الموت، الإنسان الجديد، الحياة، ونبع الحياة، ذاك الذي لن يني يوقظ البشر، داعيًا إيّاهم للمضيّ إلى الأمام. إنّه يولد، كلّ يومٍ، بيننا، من أحشاء الإنسانيّة التليدة، ومن قلب الله الأبديّ الشباب.

ملكُ القلوب: أحدُ الشّعانين

ذاك الذي هتف لـه الشعب مسيحًا وملكًا، لم يدخل المدينة المقدّسة دخول الفاتحين المنتشين بنصرهم وسطوتهم. قبله، كثيرون من العظماء، والملوك، والقادة اقتحموا أورشليم، ولكنّهم دخلوها على هامات الجموع، فوق عرباتٍ فخمةٍ، وعلى صهوات خيولٍ مطهّمةٍ، ترمز إلى القدرة، والزعامة؛ وأعملوا فيها القتل والتدمير كي يفرضوا عليها سيطرتهم. ويسوع جاءها وديعًا متواضعًا، على متن جحشٍ، رمز السلام، والصبر والوداعة، كي يُرسي عهد الوئام والمحبّة. جاءها متواضعًا فرحّب به المتواضعون، وهلّلوا لقدومه، في حين قاومه المتكبّرون ووطّنوا العزم على قتله.

البسطاء النيّرو القلوب، لم تخدعهم المظاهر، ولم يقلّل دخول يسوع المتواضع، في شيءٍ، من تكريمهم لـه، فألقَوا معاطفهم على متن الجحش الذي استقلّه وفرشوها في الطريق الذي سيسلكه، مثلما يفعلون للملوك، وهتفوا فرحًا بمجيء المسيح المخلّص.

أو لم يكن النبيّ قد قال:

«ابتهجي جدًّا يا بنت صهيون،

واهتفي يا بنت أورشليم.

هوذا ملكك آتيًا إليك،

بارًّا، مخلّصًا، وضيعًا،

راكبًا على حمارٍ، على جحشٍ ابن أتان.

وقد استأصل المركبة من إفرائيم،

والخيل من أورشليم،

ويستأصل قوس القتال،

ويكلّم الأمم بالسلام،

ويكون سلطانه من البحر إلى البحر،

ومن النهر إلى أقاصي الأرض».

ذلك أنّ مُلكَه ليس سيطرةً وطغيانًا، بل هو حبٌّ ووداعةٌ، وملكٌ على القلوب.

وقد اختار جحشًا لم يعلُه أحدٌ بعدُ، ولم يُستخدَم لقضاء مآرب البشر ومصالحهم، لكي يكون جديرًا بحمل المخلّص الزاهد في كلّ متاعٍ أرضيٍّ.

لم يدخل أورشليم كي يحتلّها ويستقرّ فيها، بل دخلها حاجًّا، عابرًا، كي يتألّم ويُصلَب، فداءً للبشر، وعلى حدّ قول القدّيس أوغسطينُس: «لم يجعل يسوع ذاته ملكًا على إسرائيل كي يستوفي الضرائب، ويجنّد جيشًا جبّارًا، بل لكي يسوس النفوس، ويرشدها صوب الحياة الأبديّة، لكي يقود إلى ملكوت السماوات جميع الممتلئين إيمانًا، ورجاءً، وحبًّا».

هكذا يدخل يسوع قلوبنا وحياتنا، بتواضعه ووداعته، فهما باب ملكوته الضيّق، إنّه يرغب في الدخول إلى قلوبنا وحياتنا كي يوسّع آفاقها، ويُدخلنا إلى ملكوت أبيه، ولكي يقضي فينا على كلّ فرقةٍ، وبغضٍ، وكذبٍ، وخطيئةٍ، وعلى عوامل الموت.

الشعب هتف له: «هوشعنا»، أي: بادر إلى خلاصنا؛ خلّصنا، إذن. فلندعُهُ، ولنُفسح له مكانًا، ولنستقبله بحفاوة، كي يكون هو فصحنا الحيّ، ولكي يملأنا بذاته، وبحضوره المحيي، ويُشيع في نفوسنا ملكه، وروح حبّه، الذي هو سلامٌ، وفرحٌ، وطيبةٌ، وصبرٌ، ووداعةٌ، وثقةٌ في الآخرين، ولنكن صغارًا كي يظهر لنا عجائبه وأسراره.

كتب J.ESCRIVA: يروم يسوع أن يكون ملك نفوسنا. ولكن ما عسانا نجيبه إن هو سألنا: وأنت، كيف ستتيح لي أن أملك فيك؟ سأجيبه: «إنّني أحتاج، كي تملك نفسي، إلى فيض نعمك، فهذا هو السبيل الوحيد كي يتحوّل كلّ شيءٍ فيّ: أدنى نَفَسٍ ونظرةٍ، وأبسط كلمةٍ، وأكثر أحاسيسي بدائيّةً، إلى «هوشعنا» للمسيح ملكي».

* *

«ارتجّت» المدينة للحَدَث غير المتوقّع. اضطرابٌ عميقٌ قد يولِّد الإيمان أو الريبة. فلئن رأى الحجّاج في القادم المسيح، إلاّ أنّ يهود أورشليم لم يروا فيه سوى نبيٍّ مُبهَمٍ قادمٍ من ركنٍ مغمورٍ في الجليل. ولاحت في الأفق معالم الصدام الذي سيضع يسوع في مواجهة المدينة، قاتلة الأنبياء. وأذكى يسوع نفسه نيران هذا الصراع، إيذانًا بولادة عهدٍ جديدٍ.

فقد دخل الهيكل، و«**أجال نظره في كلّ شيءٍ**»، إذ إنّه سيّد المكان، بيت أبيه، ذاك الذي يعدّه اليهود مركز نظامهم السياسيّ والدينيّ. وفي الغد شرع بتدمير جميع رموزه، بطرده الباعة والصيارفة، مع أن نشاطهم كان ضروريًّا لإتمام الطقوس، وبذلك ابتغى إفهام الجميع أنّ عبادةً جديدةً ينبغي أن تمارَس، عبادةً بالروح والحقّ. فاللّه لا يُستعطَف بضحايا دمويّة، ورضاه لا يُبتاع بالمال والتقادم، بل بأعمال المحبّة، وبالعبادة النابعة من صميم القلب.

وقد أسبغ يسوع على فعله وقوله بُعدًا عالميًّا عندما أكّد: «**أما هو مكتوب أنّ بيتي يدعى بيت صلاةٍ لجميع الأمم؟**»، أي ليس حكرًا على اليهود، بل هو مشرَعٌ أمام كلّ إنسانٍ يحمل قلبًا طاهرًا، وتحدوه نيّةٌ صافيةٌ.

«**وأقبل عليه، في الهيكل، عميٌ وعرجٌ، فشفاهم**». كان دخول الهيكل محظورًا على أمثال هؤلاء من ذوي العاهات، غير أنّ جرأة سلوك يسوع أشاعت في صدورهم الثقة، وفتحت لهم باب العبادة، بلا حرجٍ ولا قيدٍ، ولا خوفٍ.

وأخذت البهجة بالأولاد فانطلقوا يهزجون هاتفين: «**هوشعنا لابن داود**». فاغتاظ سَدَنة الهيكل وطالبوا يسوع بإسكاتهم، ولكنّه ألقمهم حجرًا، إذ ذكّرهم بالمزمور القائل: «**من أفواه الأطفال والرضّع أعددتُ تسبيحًا**».

أجل، الصغار يسبّحون الربّ، ومدّعو السلطة والعظمة يضطهدونه ويناصبونه العداء.

* *

ألَقُ ذلك اليوم المجيد سرعان ما خبا. ولتمتلكْنا الدهشة عندما نذكر ما انتهى إليه، بعد أيّامٍ معدوداتٍ، بطل تلك التظاهرة الشعبيّة العارمة، وذلك المدّ البشريّ الهائل، وأولئك الذين هتفوا لـه، ثمّ تركوه، على نحوٍ مُخزٍ، لعبث السلطة الغاشمة، وعاد

كلٌّ منهم إلى منزله، مرتعدًا، مرتبكًا. وتشتدَّ دهشتنا عندما نذكر خيانة أحد تلاميذه، وبيعه لـه بثلاثين من الفضّة، ووَجل أولئك الذين كانوا يطالبون بمواقع على يمينه وعلى يساره، وجبن بطرس الذي تحوّل اندفاعه المضطرم إنكارًا.

أعيد الجحش إلى مربطه، وبعض الذين هلّلوا للراكب عليه، راحوا يتفرّجون على يسوع وهو يجرّ صليبه إلى الجلجلة.

* *

وصُلب «ملك اليهود». أمّا ملك القلوب فخالدٌ على عرشها، جيلاً فجيلاً، إلى الأبد.

إلهُ أحياءٍ لا إلهُ أمواتٍ

(لوقا ٢٠: ٢٧– ٤٠)

الصدّوقيّون لا يؤمنون بالقيامة التي لم يرِدْ لها ذكرٌ صريحٌ في التوراة. أمّا الفرّيسيّون والكتبة، فلديهم، إلى جانب التوراة، تقليدهم الذي يعترف بالقيامة.

وبعد أن أفحم يسوع الفرّيسيّين في قضايا عديدةٍ، جاء الصدّوقيّون، بدورهم، يجرّبونه، وهم واثقون بأنّهم سيُحرجونه، وسيسجّلون، على الفرّيسيّين، تفوّقًا. فضربوا مثلاً سمجًا، وتحدَّوا يسوع أن يجد له حلاًّ.

قالوا: «**يا معلّم، كتب لنا موسى: إنّه إن مات لأحدٍ أخٌ عن امرأة، وعن غير ولدٍ، فليأخذ أخوه المرأة، ويُقِمْ عَقِبًا لأخيه. وكان سبعة إخوةٍ، اتّخذ الأوّل امرأةً، ومات من غير ولدٍ، فاتّخذها الثاني، ثمّ الثالث حتّى اتّخذها السبعة، وماتوا، ولم يخلّفوا نسلاً. وأخيرًا ماتت المرأة أيضًا، فهذه المرأة لمن تكون زوجةً في القيامة؟ فإنّ السبعة قد تزوّجوها**».

وندّد يسوع بتفكير الصدّوقيّين المسفّ، الأَرضيّ، البعيد كلّ البعد عن مفهوم الملكوت، حيث الحياة روحيّةٌ صرفٌ، منزّهةٌ من الغرائز، مصفّاةٌ من كلّ ميول الجسد وأوهانه، متحرّرةٌ من تقاليد الزواج والإنجاب، قائمةٌ على تأمّل الله وتسبيحه.

وذكّرهم يسوع بقول الله لموسى إنّه إله إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وكان جميعهم قد لقوا حتفهم. ولا يمكن لله أن يكون إله موتٍ وأموات، إله رفاتٍ بالٍ، وبضع حفنات ترابٍ، بل هو إله أحياءٍ، ومنبع حياةٍ. وإذن، فالذين ماتوا، وكانوا أهلاً للملكوت، يحيَون أبديًا، حياةً جديدةً، لا تشبه، في شيءٍ، حياة الأرض.

خطأنا الأكبر هو تخيُّل السماء في صُوَرٍ أرضيّةٍ. ولكنّ ردّ يسوع ينتزعنا من أسر الأرض، وينأى بنا عن دروبها المطروقة، ويرتقي بنا إلى نمطٍ آخر من الحياة، في مكانٍ آخر، حيثُ لا قِبَل للزمان والمدى على ممارسة ضغوطهما.

ما من نموذجٍ أرضيٍّ كفيلٌ بأن يقرّب إلى الأذهان صورة حياة الآخرة، حيث الله هو كلّ شيءٍ للجميع، بل وحدَها حياة الملائكة كفيلةٌ بأن توحي بصورةٍ عنها.

إنّها تجلٍّ على جبل طورٍ سماويٍّ، لا تقوى عيوننا البشريّة على تأمّل بهائه. بل وحده الإيمان قد يقرّبه إلى أذهاننا. أوَ ليس الإيمان اعترافًا بما لا نقوى على وصفه أو اكتناهه؟

لقد فتح ردّ يسوع على الصدّوقيّين أبواب السماء، وأماط النقاب عن سعادةٍ لم تتطاول إليها أجرأ أحلام البشر.

* *

بعيدًا عن تساؤل الصدّوقيّين، يظلّ التساؤل عن الحياة بعد الموت يؤرّق الإنسان. لطالما جهدت الأديان والثقافات في إلقاء الأضواء عليها. فماذا بعد الحياة الدنيا؟ وهل الموت نهايةٌ، وتردٍّ في العدم؟ وهل الحياة، بعد فناء الجسد، سرابٌ، ووهمٌ، ورجاءٌ أجوَف؟

لقد كان ردّ يسوع على الصدّوقيّين دعوةً إلى الإيمان بإله الحياة. فهو يؤكّد، بقوّةٍ: «**ليس الله إله أمواتٍ، بل إله أحياءٍ**». وهو ليس إلهًا، إن لم يكن إله حياةٍ: وإن نحن آمنّا بهذا الإله، فكيف لا نؤمن بحياةٍ متفجّرةٍ، من جديدٍ، في ما يتخطّى الموت.

وقد برهن يسوع على ذلك بقيامته. وقال رسوله بولس، في هذا السياق: «**إنّ المسيح قد قام من بين الأموات، باكورةً للراقدين. لأنّه، بما أنّ الموت كان بإنسانٍ، فبإنسانٍ، أيضًا، قيامة الأموات. فكما أنّه، في آدم، يموت الجميع، كذلك أيضًا، في المسيح، سيحيا الجميع**» (١ كور ١٥: ٢٠ – ٢٢).

إنّ حبّ الله الجمّ للإنسان الذي براه على صورته، لا يرتضي رؤيته يتلاشى في العدم، والإنسان الذي يحبّ الله الحيّ الأبديّ لا يستطيع تخيّل انصرام علاقة الحبّ التي تربطه به. وعلى علاقة الحبّ المتبادَل، هذه، تنهض القيامة، وحينئذٍ يتجلّى الموت انتقالاً إلى تواصلٍ أبديٍّ مذهلٍ، وإلى معاهدةٍ كاملةٍ، نهائيّةٍ، وتمسي الآخرة نشيد تسبيحٍ أبديٍّ، لا يفتر.

فِلْسَا الأرمَلَة

(مرقس ١٢: ٤١-٤٤)

لطالما أكّد يسوع أنّ اللّه يُزري بالظواهر وأنّ أنظاره تخترق مكامن الصدور، وتستجلي حقيقة النوايا.

ولطالما حرص على فضح العُجْب بالذات، والرياء، والجشع، لدى من يلتمسون الأمجاد والمغانم، متظاهرين بالتقوى الزائفة؛ الذين يعطون العشرة، وهم يبوّقون بعطائهم، كي يسلبوا التسعين، وكي يحصلوا على التقدير الذي لا يستطيعون استئهاله بسلوكهم.

ولطالما حدّق يسوع إلى وجوه الناس، وسبَر أعماق قلوبهم. ويومها، حدّق إلى من كانوا يؤمّون الهيكل. وراقب الكتبة، بثيابهم الفضفاضة، وفضح كبرياءهم، وأكاذيبهم. وها هوذا يراقب قومًا يلقون تبرّعاتٍ في خزانة التقادم بالهيكل، وصدورهم منفوخةٌ خُيلاء؛ يسمع دحرجة النقود ورنينها، ولكنّ أبصاره تغوص في أعماق قلوبهم، فلا ترى فيها سوى الخواء والفساد.

وفي هذه الأثناء تأتي أرملةٌ فقيرةٌ، وتلقي فلسين لا يكاد يُسمع لهما أيّ رنينٍ، ثمّ يتوارى طيفها النحيل بصمتٍ كالظلّ، فتشرق أسارير الربّ، ويرتفع صوته ملفتًا إليها أنظار تلاميذه، وقائلاً: «**الحقّ أقول لكم إنّ هذه الأرملة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة. فالجميع قد ألقَوا من فضالتهم، وأمّا هي فمن عَوَزها ألقت كلّ مالها، كلّ معيشتها**».

لقد فاق فلساها كلّ الدنانير والشواقل التي ألقى بها الأغنياء، لأنّها أعطت كلّ ما ملكت يمينها، وأعطته بكلّ قلبها. هكذا يريد يسوع العطاء، بلا حسابٍ، ولا تحفّظٍ، مثلما هو أعطى، حتّى قطرة دمه الأخيرة، بلا حسابٍ، ولا تحفّظٍ.

اللّه وحده يرى لا ما نعطي فحسب، بل كلّ ما لا نعطي، كلّ ما نحتفظ به

لأنفسنا. لقد رأى أنّ عطاء الأغنياء الذي يبدو وفيرًا وسخيًّا، ليس، في الواقع، سوى قطرةٍ من ثرواتهم الطائلة، في حين أنّ عطاء الأرملة، الذي يبدو ضئيلاً، كان مفرطًا في سخائه، لأنّها ضحّت بما به تعتاش. وهل من سبيلٍ إلى المقارنة بين الفائض وما يقيم أوَد العيش؟

ليس للمال، قلّ أو كثر، أيّة قيمةٍ في نظر الربّ، الذي طالما حذّر من صنمه، ومن عبادته، بديلاً عن الله. ومن ثمّ يمكن إيهام الناس بوفرة المال المتبرَّع به، ولكن لا يمكن إيهام الله، أو خداعه به. فالسخاء لا يحتاج إلى مالٍ وفيرٍ، بل إلى قلبٍ غنيٍّ.

وكان حسب تلك الأرملة أن تعطي شبه لا شيءٍ، ولكنّه كلّ ما كانت تملك، حتّى تتفوّق على أعظم متبرّعٍ، في كلّ جيلٍ. أوَ لم يرد في رسائل الصوفانيّة: «ولا يعيب الإنسانَ ما تثمر يداه، بل ما يثمر قلبه»؟

فأَعطِنا، ربّي، قلبًا لا يتوانى عن الجود بكلّ شيءٍ.

السَّيِّدُ الذي يَخْدِمُ خُدَّامَهُ

(لوقا ١٢ : ٣٥-٣٨)

قبل عهد نوح وبعده، سواد الناس مشغولون باهتماماتٍ يوميّةٍ صغيرةٍ، من أكلٍ وشربٍ، ولباسٍ، وعملٍ، وكسب رزقٍ، ولهوٍ، وزواجٍ... غير آبهين بأيّ شيءٍ آخر، «ولا يتوقّعون شيئًا». يسعَون وراء كلّ سطحيٍّ زائلٍ، ويذهلون عن ذاتهم العميقة، ومصيرهم الأبديّ؛ ويخيَّل إليهم، أحيانًا، أنّهم، بفضل ما يملكون من بحبوحةٍ، وضماناتٍ مادّيّةٍ، لا شيء يضيرهم، وأنّهم في غنًى عن الله.

ولذلك يدعوهم يسوع إلى اليقظة، والحذر، والسهر الدائم، ويُنذرهم بأنّ الساعة التي سيُكرَهون فيها على هجر كلّ شيءٍ، وهجر الأرض التي توهّموا أنّهم عليها خالدون، تأتي في لحظةٍ لم يتوقّعوها، في أوج انشغالهم، أو في ميعة مسرّاتهم. إنّ مجيء الله من البساطة والمباغتة بحيث لا نتوقّعه.

يسوع يستنهض بشرًا واقفين، ساهرين، متوقّعين، وما السهر الذي يقتضيه سوى الدأب على إتمام مشيئته، ومشيئة أبيه، في كلّ حينٍ. وهذا السهر دليل حبٍّ يطيب ليسوع أن يكافئه بما لم يخطر، قطّ، ببال سيّدٍ كريمٍ.

في فيضٍ من الإلهام، والفكاهة، والحنان، والكرم، وصف يسوع مكافأته للساهرين على إتمام مشيئته: «**فلتكن أحقاؤكم مشدودةً، وسُرجكم موقدةً، كونوا كرجالٍ ينتظرون عودة سيّدهم من العرس، حتّى إذا وافى وقرع فتحوا له في الحال. طوبى لأولئك العبيد الذين إذا قدم سيّدهم وجدهم ساهرين. فالحقّ أقول لكم إنّه يشدّ وسطه، ويُتكئهم، ويطوف يخدمهم. أجل، طوبى لهم إذا قدم في الهجعة الثانية أو الثالثة، فوجدهم ساهرين**».

لطالما عوّدنا يسوع على قلب المفاهيم والموازين رأسًا على عقبٍ! وها هوذا يعدنا بأنّه، في أعقاب سهرنا، وتأهّبنا، ودأبنا على إتمام مشيئته، سيعكف هو، على

خدمتنا، وتدليلنا. إنّ ألوهة الله لا تتجلّى في شيءٍ أكثر ممّا تتجلّى في إنسانيّة يسوع.

في ما يتخطّى ليالي هذه الحياة، وظلمات الموت، هكذا سيكون مستقبلنا: وجه الله المشرق حُبًّا متبادلاً.

* *

في مكانٍ آخر ضرب يسوع، كشّاف ينابيع أعماق الحياة الإلهيّة، موعدًا آخر لمن يرومون خدمته: «**كنت عريانًا، كنت جائعًا، كنت غريبًا، كنت مريضًا، كنت سجينًا...**» إنّه، في كلّ يومٍ، يقرع باب انتظارنا ولكنّنا لا نتعرّفه. وهو لا يأبه لعدم تعرّفنا إيّاه، بل يعنيه أن نفتح بابنا «للأصغر».

«انْتَصِبُوا وَارْفَعُوا رُؤُوسَكُم، لِأَنَّ خَلَاصَكُمْ بَاتَ قَرِيبًا»

(لوقا ٢١: ٢٥–٢٨ و٣٤– ٣٦)

لقد وصف يسوع دمار أورشليم، ونهاية العالم بصُوَرٍ مريعةٍ: انقلابٍ شاملٍ، وفوضى عارمةٍ، وتفتّتٍ كونيٍّ، ولكأنّ الكون يغرق ثانيةً في فوضاه البدائيّة كي يُخلَق من جديدٍ. تيهٌ عامٌّ يعصف بالبشريّة، ويدفعها إلى اتّباع أنبياء كذبةٍ مضلِّلين. حروبٌ، ومجاعاتٌ، وزلازلُ، واضطهاداتٌ تنشب بالمؤمنين.

غير أنّ يسوع، وسط كلّ تلك الشدائد، يظلّ متفائلاً، تفاؤلاً عنيدًا، لا يُقهَر، ولا يُصدَّق. إنّه يُظهر سجوًّا مدهشًا ويرى في الدمار خلقًا جديدًا، وفي كلّ تلك الأحداث المقلقة، بشرى انبلاج موسمٍ مشرقٍ قشيبٍ، واقتراب الملكوت. الدمار يفجّر الرجاء، ويعلن عن ولادةٍ جديدةٍ، وعن قرع الربّ على الأبواب. كان كلّ شيءٍ ينهار من حوله، والموت الأثيم يتربّص به، ومع ذلك هو يؤكّد أنّ «الصيف» قادمٌ، وأنّ مشروع الله قد نجح، وأنّ أولياء الله سيجتمعون في سعادةٍ تامّةٍ أبديّةٍ. إنّه يدعو إلى ملكوتٍ سماويٍّ. وحلول الملكوت يقتضي تغيير العالم تغييرًا جوهريًّا، يتحتّم على كلّ فردٍ من أبناء الملكوت أن يسهم فيه.

فذّةٌ ومذهلةٌ هي شخصيّة يسوع، فهو، وسط الكوارث المزلزلة، يُشيع البشرى بتجلّيه المجيد. فحينئذٍ «**تشاهدون ابن البشر آتيًا في الغمام، في كمال القدرة والمجد**». وحينئذٍ ستتفجّر حياةٌ جديدةٌ، وسيقف ابن البشر على الأبواب، أبواب الضمائر والنفوس، وسيكون هو جدَّة الحياة، الحياة التي قهرت الموت.

«**ومتى بدأ ذلك يتمّ، فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم، لأنّ خلاصكم بات قريبًا**». يريد يسوع بشرًا منتصبين بثباتٍ، واضحي الرؤية، شجعانًا، لا تطيح بهم الأحداث مهما اشتدّ عنفها.

عبثًا جهد التلاميذ في استيضاح موعد اليوم الأخير. وقد أفهمهم يسوع أنّ لا جدوى من هذه المعرفة، فالمهمّ هو التأهّب لذلك اليوم في كلّ لحظةٍ، بالنأي عن كلّ ما يُعمي البصيرة، ويُثقل القلوب، من «**سكرٍ، وقصوفٍ، وهمومٍ دنيويّةٍ**»، لئلاّ تطبق الآخرة بغتةً كالفخّ.

غير أنّ من الجوهريّ التيقّظ لعلامات الأزمنة، وقراءتها مثلما يقرأ أيّ خبيرٍ علامات الطقس. فعلى تلاميذ يسوع أن يعيشوا في العالم معيرين انتباهًا يقظًا وكثيفًا لكلّ ما يجري من حولهم، مسترشدين بنور الإيمان الذي يمكّنهم من التمييز الصحيح، والتفسير الصائب لأحداث اليوم، وتوقّعات المستقبل، جاهدين نحو سماواتٍ جديدةٍ، مسهمين في تجديد حياة البشر، معيدين النظر، كلّ يومٍ، في سلوكهم وتفكيرهم، منعتقين من المغالاة في الانقياد لهموم الحياة، متحرّرين من غوايات الجسد، وكبرياء الفكر، حريصين على إبقاء قلوبهم نقيّةً، بالصلاة المستمرّة، والاتّصال الدائم باللّه، ويدهم أبدًا بيد المخلّص. وحينئذٍ لا شيءَ يفاجئهم، ولا شيءَ يرعبهم.

«**فاسهروا، إذن – يقول يسوع – وصلّوا في كلّ حينٍ كي توجدوا أهلاً للنجاة من جميع ما سيأتي، وتمثلوا، وقوفًا، بين يدي ابن البشر**».

إنّ ما نشهده من استفحال ظلم الدول، ومن تسلّط الحكّام وتفاقم جنونهم، ومن استشراء عنف العالم وأنانيّته، قد يسرّب الرعدة والقنوط إلى أوصالنا، ولكنّ يسوع يؤكّد لنا أنّ تلك ليست هي النهاية، بل هي، بالحريّ، بدايةٌ: فابن البشر حاضرٌ، ومعه العالم الجديد. ففي كلّ فصول التاريخ تعيد الحروب، والرزايا، وتفشّي البغي والطغيان، إلى الأذهان، أنّ «**الخليقة تئنّ بآلام المخاض**»، وبأنّها «**تتوقّع اعتلان أبناء اللّه**»، وبأنّ ابن البشر يأتي، بلا انقطاعٍ، في غيمةٍ يختلط فيها النور بالظلمة.

لا يعلن يسوع عن النهاية الرهيبة إلاّ لكي يبشّر بمجيء المخلّص، ويدعو البشر إلى انتظاره، عند العتبة، من أجل استقباله، والترحيب به.

وهو لا يخشى الدمار الذي يبشّر ببناءٍ جديدٍ. لقد دُمّر الهيكل، فنهضت الكنيسة، وغرب العهد القديم، فأشرق، مع يسوع، العهد الجديد.

وهو يذكّر بأنّه عندما تحطّم النبتةُ قشرةَ الحبّة، فليس، ثمّة موتٌ، بل حياةٌ، وعندما تثقب الأوراق والبراعم ظرفها البنيّ، ليس ثمّة كسرٌ أو عنفٌ، بل انبثاق جمالٍ.

فلا نضعنّ ثقتنا في صروحٍ وحجارةٍ تتحدّى الحدثان، ولا في خزائن منيعةٍ توفّر الاطمئنان، بل فلنثق بالحياة فحسب، والحياة تنمو كلّما ازداد العالم حبًّا، وتضامنًا، وعدلاً. هذه حجارةٌ تبني صروحًا لا تُدمَّر.

إنّ دعوة يسوع إلى اليقظة والسهر، إنّما هي دعوة إلى العمل وإلى الرجاء، فعلى كليهما أن يتضافرا في سبيل ولادةٍ للعالم جديدةٍ، وما من عملٍ بلا رجاءٍ، ولا من رجاءٍ بلا عملٍ.

يسوع يعلن النفير، فلنهبّ واقفين، جاهزين، ولنرفع رؤوسنا، فها هوذا قادمٌ، ولا يساورنا أيّ ريبٍ في وعوده، فقد دمغت قيامتُه أقوالَه بخاتم الصدق والحقّ.

اسهروا واستعدّوا، واحذروا أن يضلّكم أحدٌ

(لوقا ٢١ : ٨-١٩)
(متّى ٢٤ : ٧-١٤، ٢٣-٢٨، ٤٠-٥١)
(متّى ٢٥ : ١-٣٠)

لم يُشبع يسوع فضول تلاميذه لمعرفة موعد يوم القيامة العامّة، إذ لا جدوى من هذه المعرفة، ولكنّه دعاهم إلى دوام اليقظة، والتأهّب لليوم الذي يعلن نهاية حياة كلٍّ منهم على هذه الأرض.

لقد بصّرهم بما ينتظرهم في السنين القريبة القادمة، وبما ينتظر المؤمنين في كلّ جيلٍ وعصرٍ. وحذّرهم من كلّ ما قد يوهن الإيمان، ويبعث القشعريرة في أوصال المحبّة. حذّرهم من الكسل المخدِّر، والاضطراب القلِق، والخوف القاتل.

حذّرهم من الاضطهادات التي سيتعرّضون لها، ومن الشقاقات التي ستمزّق الأسرة الواحدة، بين المؤمنين به، والرافضين إيّاه. فقد كان، هو نفسه، غريبًا في العالم، أنكره شعبه، وقتله مواطنوه. لقد خبر بنفسه حقد اليهود، الذي توقّع امتداده إلى تلاميذه، وإلى جميع المؤمنين به في كلّ حينٍ. أوَ لم يقل لأولئك القتلة: «**أيُّها الحيّات، نسل الأفاعي، كيف تُفلتون من دينونة جهنّم؟ من أجل ذلك، أُرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبةً، فمنهم من تقتلون وتصلبون، ومنهم من تجلدون في مجامعكم وتطاردون من مدينةٍ إلى مدينةٍ...**» (متّى ٢٣ : ٣٣ - ٣٤). ألم تتحقّق هذه النبوءة، بحذافيرها، في الرسول بولس وسواه؟

غير أنّ المعلّم الذي لم يُخفِ عن تلاميذه مخاطر الاضطهاد المتربّصة بهم، لم يضنّ عليهم بالسند الكفيل بمساعدتهم على الصمود، فطمأنهم بوعده: «**إنّ شعرةً واحدةً من رؤوسكم لن تهلك**». أيّ عاشقٍ، أو أيّة أمٍّ، يبلغ بهما الحبّ هذا المبلغ

من الحرص والعناية! «**أمّا إذا دفعوكم إلى المجامع والسجون، وساقوكم إلى الملوك والولاة من أجل اسمي، فسيؤول ذلك لكم إلى الشهادة. واجعلوا في أذهانكم أنّكم ليس عليكم أن تهتمّوا، من قبلُ، بما تحتجّون، لأنّي، أنا، أوتيكم كلامًا وحكمةً لن يقوى جميع مناصبيكم على دفعها**».

لقد حذّرهم من الأنبياء الكذبة، ومن المبشّرين المنافقين بمعتقداتٍ باطلةٍ، وإيديولوجيّاتٍ زائفةٍ تروج أيّامًا معدوداتٍ، ثمّ تطردها أخرى، وهكذا دواليك. أمثال هؤلاء يظهرون، فجأةً، في كلّ جيلٍ، ويحظى بعضهم بشهرةٍ خاطفةٍ، ثمّ سرعان ما يطويهم النسيان. وحذّرهم من المسحاء الدجّالين الذين، ببهلوانيّاتهم، قد يضلّلون بعض البسطاء. لقد جاء المسيح، وحلّ بين ظهرانينا، وأجرى المعجزات، وعلّم أسمى القِيَم، ودمغ بدمه وصليبه وقيامته صدق أقواله وأفعاله، وما انفكّ يستنفر شهودًا وأبطالاً يُثبتون، ببذل حياتهم، ومدهش فعالهم، عظمة حبّه، وجلال ألوهته. ومع ذلك، ثمّة من ينتظرون المسيح، أو يبحثون عن مسيحٍ آخر.

الثمار تشهد على الشجرة، والأعمال تشهد على مدّعي النبوّة والرسالة، وكم مَن نادوا بتعاليم وآراءٍ برّاقةٍ، كذّبتهم أفعالهم المغرقة في اللاإنسانيّة والوحشيّة، والقذارة!

وثمّة من يُنذرون بنهاية العالم الوشيكة، فيُروّعون بعض الحمقى وسقماء النفوس، ويجرّونهم إلى الجنون والانتحار!

وتوقّع يسوع علاماتٍ مخيفةً: حروبًا ماحقةً، وكوارث طبيعيّةً مزلزلةً، ومجاعاتٍ، وآفاتٍ. ولكنّ كلّ ذلك لا يعني النهاية. فما تلك الأعراض سوى الدليل على نأي البشر عن شريعة الحبّ.

وحذّر يسوع أتباعه من خطرٍ قد يُلحقونه بأنفسهم، عندما يفتر في نفوسهم الإيمان والمحبّة، فيبغض بعضهم بعضًا، ويسلم بعضهم بعضًا، ويناصب بعضهم بعضًا العداء؛ ويُطيحون برسالة المحبّة التي أوكلها إليهم؛ وتتفاقم آثامهم، فيصبحون مثار عثارٍ للضعفاء منهم. والويل لمن يكون علّة عثرةٍ لهؤلاء!

أمّا الذين يلتزمون بتعليم يسوع ويصمدون حتّى النهاية، فمكافأتهم الخلاص والمجد. لقد عهدت الكنيسة حقباتٍ حالكةً كادت تدفع حتّى أمنع المؤمنين إلى

اليأس، إذ بدت لهم أعمالهم ومحاولاتهم عقيمةً، لا تجدي نفعًا، ولا تقوّم مُعْوَجًّا. ولكنّهم صمدوا، ولم يتهاووا رغم وفرة أسباب القنوط.

وما السبيل إلى الصمود سوى السهر والجاهزيّة اللّذين تتردّد الدعوة إليهما، في أقوال يسوع، ترداد اللازمة؟

وقد ضرب، في هذا السياق، أمثلةً عديدةً، منها مثل «**العبد الأمين الذكيّ الذي أقامه سيّده على أهل بيته ليعطيهم الطعام في حينه. فطوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيّده وجده على عمله هذا. فالحقّ أقول لكم إنّه يقيمه على جميع أمواله. ولكن، إذا كان ذلك العبد رديئًا، فقال في قلبه إنّ سيّدي مبطئٌ في مجيئه، فأخذ يضرب زملاءه العبيد، ويأكل ويشرب مع السكّيرين، فيأتي سيّد ذلك العبد في يومٍ لا يتوقّعه، وساعةٍ لا يعلمها، فيفصله، ويجعل نصيبه مع المنافقين. هناك يكونُ البكاء وصريف الأسنان**».

الواجب، إذن، هو تنفيذ مشيئة اللّه بإخلاص. فإن نفّذ المرء أوامر الربّ بوفاءٍ، نَعِم بالإطمئنان، ونال مكافأةً تفوق كلّ توقّعاته. وسيستأثر الواجب بكلّ وقته وجهده، بحيث لا يبقى لديه مُتّسعٌ للتفكير بنزواته، ولإرضائها. وبالمقابل، الويل لمن يهمل واجبه، وبئس مصيره! تلكّؤ سيّده أوهمه أنّه لن يأتي أبدًا، فأطلق العنان لأهوائه الفاسدة، وكانت عودة السيّد مفاجأةً صاعقةً له.

وضرب يسوع، أَيضًا، مثل العذارى العشر المدعوّات إلى العرس، خمسٌ منهنّ كنّ فطناتٍ، وخمسٌ طائشاتٍ حمقاواتٍ. الفطن هو من يعمل بتعاليم الإنجيل، والأحمق من يهملها. الفطن يأتي باحتياطيٍّ من الزيت، أي بالأعمال الصالحة التي تفتح له أبواب مأدبة الملكوت، والأحمق يأتي صفر اليدَيْن، وبكلمات توسّلٍ لا طائل تحتها، إذ لا جدوى من ترداد قول: «يا ربّ، يا ربّ»، حين لات ساعة مندمٍ.

العذارى الحمقاوات، رغم نفاد مؤونتهنّ من الزيت، استسلمن للكرى، ولم ينتهزنَ فرصة تلكّؤ العريس للتزوّد بما يكفل بقاء مصابيحهنّ مضاءةً. وأيقظتهنّ، بعنفٍ، صيحة إعلان وصول العريس، ولكنّ الأبواب أُغلقت دونهنّ.

وضرب يسوع، أيضًا، مثل الوزنات، التي وزّعها السيّد قبل سفره، على عبيده،

لكلٍّ وفق طاقته، فلواحدٍ خمس وزناتٍ، ولآخر اثنتين، ولثالثٍ وزنةً واحدةً، كي يستثمروها، في أثناء غيابه. وفي هذه الحالة لم يكن مطلوبًا الوفاء فحسب، بل المبادرة، والمسؤوليّة، والجهد الخلّاق المثمر. كلٌّ أُعطي حسب طاقاته كي يؤتي المردود الأمثل. وقد نجح العبدان الأوّلان في مضاعفة الرأسمال الذي أُعطياه، فأُجزلت مكافأتهما. أمّا الثالث فدفن الرأسمال الذي تلقّاه كي يعيده كما هو، وبرّر تخاذله باتّهام سيّده بالاستغلال، وبحصد ما لا يزرع. وفي حين رأى زميلاه أنّ عمل السيّد كان دليل ثقةٍ لا بدّ من مقابلته بالثقة والإخلاص، رأى، هو، فيه، طُعمًا لاصطياد الربح، فأحجم عن أيّ جهدٍ قد يأتي بالخير عليه وعلى سيّده.

كلّ امرئٍ ينال بمقدار ما يستطيع تثميره، ويُحاسَب وفقًا لما يُعطى. مكافأة من يجهد ويثمر هي «**الدخول في فرح الربّ**». أمّا الكسول الذي يُحجم عن الجهد، فيُلقى في «**الظلمات الخارجيّة**».

لا ريب أنّ الله رحيمٌ ومعطاءٌ، ولكنّ خلاصنا يعتمد على أعمالنا، وفعل أيدينا، وطبيعة محبّتنا. وحدَه الإيمان الصادق المعاش مرضيٌّ لدى الله؛ أمّا الاعتراف بالشفاه فلا وزن لـه. ووحده من يستثمر المواهب التي أُعطيها، ومن يُبقي مصباحه مزوّدًا بزيت المحبّة، ومن يرتدي ثوب القداسة اللائق بالعرس، يحقّ له أن يأمل بولوج الملكوت.

* *

إنّ السّهر الذي يدعو إليه الربّ هو خدمةٌ حثيثةٌ، مسؤولةٌ مستمرّةٌ، سخيّة البذل، جاهزةٌ، في كلّ لحظةٍ، لتقديم الحساب.

والطريقة المثلى لترقّب مجيء الربّ هي التأهّب الدائم. فالربّ، كاللصّ، لا يعلن عن موعد مجيئه، وحده السهر اليقظ يرحّب به.

والمؤمن يحيا كلّ يومٍ وكأنّه يومه الأخير.

على التلاميذ إذن، في كلّ جيلٍ، ألاّ يقبعوا كسالى، وَجِلين، في انتظار مستقبلٍ مجهولٍ، بل عليهم العناية بحاضرٍ هم عنه مسؤولون. عليهم ألاّ يرهنوا الحاضر بالمستقبل. وألاّ يبخسوا الحاضر اليوميّ حقّه، مستسلمين لأفيون رؤًى مستقبليّةٍ

مخيفةٍ، بل عليهم ألاّ يكفّوا عن الكفاح في كلّ لحظةٍ، فتجدهم التجربة، عندما تهجم، صامدين، وتجدهم الساعة، عندما تأزف، متأهّبين.

يسوع على خطواتٍ من موته المفجع، ومن أحداثٍ مأساويّةٍ مزلزلةٍ، غير أنّ أمواج التفاؤل تغمر نفسه. أنظاره لا تتوقّف على الدمار والثبور، بل ترنو إلى الأوضاع البشريّة الموجعة، وإلى النفوس الثمينة. وسط الموت السائد يحدّق إلى الأحياء الحقيقيّين الذين يصمدون، وينهضون بالعبء، ولا يضعفون، الذين ينعمون برجاءٍ لا يتزعزع. إنّه يشهد دمار الهيكل، مفخرة اليهود، ولكنّه أيضًا، يشهد، بسعادةٍ، هياكل حيّةً تنشأ في قلوب المؤمنين به، وتصبح بيوتًا للّه.

يسمع دويّ نُذر الرزايا، ومع ذلك يشعّ من كلماته سجوٌّ غامرٌ: «**إذا رأيتم كلّ ذلك يحدث فاعلموا أنّ الأمر قريبٌ**»، وأنّ الصيف يدنو، ومعه مواسم العطاء، وأنّ ابن البشر قد بات عند أبوابكم.

كان يرى ابن البشر الهشّ الذي سيم أفدح ضروب العذاب «**آتيًا في الغمام بملء القدرة والمجد**».

كان يرى كلّ ما سيُلمّ بكنيسته من مِحَنٍ خارجيّةٍ وداخليّةٍ، ومع ذلك أكّد أنّه لن تكون نهايةٌ قبل أن «**يُنادى بإنجيل الملكوت هذا في المسكونة كلّها، شهادةً لجميع الأمم**» (متّى ٢٤ : ١٤). قد يموت، نفسيًّا، كثيرون ممّن أُوكلت إليهم رسالة نشر البشرى، وقد لا يرقَون إلى مستوى متطلّباتها الجوهريّة، وسيُقتَل ويُضطَهد العديدون ممّن سيُخلصون لها، ومع ذلك فإنّ هذه الرسالة ستعمّ العالم، محدّثةً جميع شعوب الأرض عن حبّ الآب. إنّها تدفع كلّ شيءٍ إلى الأمام. إنّها قوّةٌ لا تفتر حتّى تبلغ غايتها. فعمل اللّه لن يفشل، حتّى إن كانت خطواته صغيرةً وبطيئةً، وحتّى إذا كانت نجاحاته المتواترة ضئيلةً.

ومع ذلك لا يعني انتشار الإنجيل، في العالم كلّه، تاريخًا حتميًّا لنهاية العالم. فما زال على الشمس أن توقظ صباحاتٍ لا حصرَ لها.

لا يتشاءم يسوع، ولا يبكي عالمًا يتفتّت بأصنامه، ومظالمه، وعنفه الذي بات مشروعًا، لأنّه يستشفّ، من خلال ذلك التفتّت، عالمًا جديدًا لا يني يولد، ويصارع

للنهوض صوب النور، ولأنّه يرى العالم جميلاً بعيون من لم يولدوا بعد، على حدّ قول الشاعر «أوتّوريني كاستيّو».

لقد توخّى يسوع أن يجعل من أتباعه قومًا ساهرين، دائمي الترقّب والتأهّب. وها نحن قد بتنا نعلم أنّ العريس متلكّئٌ في المجيء، فلندأب على التزوّد بزيت الخير والمحبّة، وإذ غدونا ندرك أنّ معرفة الساعة محظورةٌ علينا، حتّى لحظة المفاجأة، عندما تدوّي صيحةٌ في ثنايا الليل، فلندأب على استغلال كلّ ساعةٍ لتثمير الوزنات التي وُهبناها، خدمةً للفقير، والعليل، والغريب، ولكلّ وجوه البشر التي يتجلّى فيها وجه يسوع.

تَـــرَقُّـــبُ

الجمود موتٌ، والرضى بالواقع الراهن مرضٌ وانحطاطٌ.

الانتظار والترقّب هما ما يدعونا إليه الربّ،

على غرار العذارى الساهرات، اللائي يترقّبن قدوم العريس،

وعلى غرار العبد المتيقّظ الذي ينتظر عودة سيّده، في ساعةٍ لا يعرفها،

وعلى غرار أمّ اللّه، العذراء، التي كانت حياتها كلّها ترقّبًا صرفًا: ثقةً في المجهول، وتوقّعًا لاتّضاح معالمه.

الترقّب هو الوضع الطبيعيّ لحياتنا الروحيّة؛ هو توقّع مشيئة اللّه التي نجهلها. وإنّنا ننال بقدر ما نترقّب، وبقدر ما نُفرغ ذواتنا لاستيعاب فيض اللّه. فلنكن في وضع ترقّبٍ دائمٍ، أي في وضع رغبةٍ وحبٍّ، لا حبّ امتلاكٍ، بل حبّ رغبةٍ.

* *

إنسانٌ لا يترقّب ليس إنسانًا، فالإنسان صُنِع من أجل المستقبل.

ويسوع لا يمكن تفسيره إلاّ بالمستقبل الذي يستهلّه ويبشّر به. إنّه صورةٌ لمستقبلٍ دائم الجدّة، وستظلّ الأجيال، بعد آلاف السنين، تستلهمه كي تحيا المحبّة، والمشاركة، والزهد، ولكي تستأهل أن تدعو اللّه «أبًا». وسيظلّ روح يسوع، إلى الأبد، يقود البشر نحو كمال الحقيقة، داعيًا إلى اتّباعه، والإيمان به، وحمل صليبه، واجتياز كلّ ضروب الموت، حتّى الاستسلام، في اليوم الأخير، لحنان الأب المذهل.

* *

لم يكمل اللّه الخلق، مرَّةً ولكلّ مرّةٍ، في غضون سبعة أيّامٍ، إذ إنّ ابنه يسوع يواصل الخلق، على مدى التاريخ، في أبديّة اللّه.

ويسوع لا يقدّم لنا، من أجل تحقيق مستقبلنا حلولاً جاهزةً، بل يوسّع مساحة حرّيّتنا، مثل وحيٍ لا ينضب لـه معينٌ؛ وباقتفائنا خطاه سندرك أنّنا لن نمسك به أبدًا، لأنّه يدعونا إلى المضيّ قُدُمًا، إلى أبعد فأبعد، ويسبقنا إلى حيث يدعونا.

غالبًا ما نتطلّع إلى رؤية اللّه واستقباله، ولكنّه، أبدًا، عند حواشي الغيوم، أو عند الباب، عند عتبات بيوت البشر، وعند عتبة بيت اللّه. إنّه إنسان الحدود، إنسان العبور، المرفوع على الصليب، الفارّ من اللحد نحو مجد اللّه... إنّه المفارقة الحيّة.

* *

حيال براءة نظرة يسوع لا يمكن أن تظلّ المجتمعات، والأخلاقيّات، والسياسات، والحياة الروحيّة، جامدةً. فنظرته تضرم، في قلوب البشر، الرغبة في تجديد العالم وتغييره.

ففي بلاد البشر ينبغي إنهاض الحياة كلّ يومٍ، ونَحْت المحيّا البشريّ على صورة اللّه، في صخرة المستحيل الصلبة.

والمسيحيّ الحقّ هو من يقارع المستحيل، إذ إنّ وهن الإنسان وعظمته يكمنان في طريقة تصدّيه للمستحيل، وفي التماس اللّه عبر تجاوزٍ دائمٍ للذات. وإنّ قدَر البشريّة الشاقّ والرائع هو في تطلّعها إلى مستقبلٍ يتخطّى طاقاتها.

ومع يسوع تصبح سيطرة القَدَر كابوسًا منسيًّا من كوابيس طفولة البشريّة، ويكافح الإنسان في سبيل ترويض طبيعته، ومن أجل تحطيم كلّ العبوديّات، وتدعيم العدل. وحيثما وُجد ما يرهق البشر من مرضٍ وحربٍ، واستغلالٍ، لن يستسلم الإنسان، بل سيكون موقع سحقه هو ساحة كفاحه، وسيكون كفاحه كفاح اللّه

* *

ثمّة انتظارٌ سلبيٌّ يُفرغ الإنسان من جوهره، في حين أنّ الانتظار الحقّ هو فعلٌ يغيّر الكيان. والخطر الأكبر الذي يتربّص بنا هو وضع رغباتنا في الموضع الخاطئ. فالتوقّع الذي ضلّ هدفه يُصيب الإنسان بالضمور. من الملاحظ أنّ معظم المجتمعات التي وسمتها الكآبة، والتي فقدت طعم الحياة، هي مجتمعات من «لا ينقصهم شيءٌ»، سوى الهدف السامي، والحافز على بلوغه. وإنّ كلّ من ينصّب المال،

والرفاه، والبحبوحة غايةً قصوى، يخدع البشر في توقّعاتهم. فهذه العناصر، وإن كانت ذات جدوى، إلاّ أنّها تبقى، من الإنسان، خارجه.

ترقّب الإنسان الحقّ هو الحبّ. وفي ملكوت الحبّ نحن، غالبًا متخلّفون، وأُمّيّون. وفي كلّ يوم يشير لنا من هم حولنا إلى فقر قلبنا، لأنّ حبّنا قصير الإشعاع، وجذوته لا تضيء إلاّ وجوهًا قليلةً. والذين لا نحبّهم يعلنون لنا، بحزنهم وعدائيّتهم، أنّ الوقت قد حان كي نَعود إلى الله، منبع كلّ دفءٍ.

الانتظار الإنسانيّ الحقيقيّ، عملٌ يكسب البشر وجهًا متجلّيًا.

والمسيحيّون بشرٌ يترقّبون ترقّب الحبّ الخلاّق، يحيون ترقّبًا واحدًا ذا وجهين: عالم البشر الذي يتعيّن تغييره كي يصبح أوفر إنسانيّةً؛ وعالم الله الذي ينبغي استقباله بعد هتك حُجب أسراره الرقيقة. غير أنّ نورًا واحدًا يضيء ذيْنك الأُفُقَيْن كليهما: إنجيل يسوع.

وسيأتي يومٌ سنشاهد فيه وجه يسوع الذي واكَبَنا حبّه، خطوةً خطوةً، والذي كان شعورنا بغيابه هو جرحنا. «**ولن يكون، بعدُ، موتٌ، ولا نَوْحٌ، ولا نحيبٌ، ولا وجعٌ، لأنّ الأوضاع الأولى قد ولّت**» (رؤيا ٢١ : ٤).

بانتظار الفجر

(متّى ٢٤: ٤٣-٤٤)

استفسر التلاميذ عن مجيء يسوع الثاني، وعن اليوم الأخير، فصوَّر لهم أحداثًا مريعةً، لم يبتغِ منها إخافتهم، بل دعوتهم إلى اليقظة، والتأهّب الدائم...

صرَفهم عن معرفة موعد القيامة، إذ لا طائل تحتها. ودعاهم إلى التأهّب لنهاية كلٍّ منهم التي قد تأتي في أيّة لحظةٍ.

«**إعلموا أنّه لو درى ربّ البيت في أيّة ساعةٍ يأتي السارق، لسهر ولم يدع بيته يُنقَب. فكونوا، أنتم أيضًا، على تأهُّبٍ، لأنّ ابن البشر يأتي في ساعةٍ لا تتوقّعونها**».

يسوع يأتينا كالسارق: يسلبنا عُجبنا بأنفسنا، وضماناتنا، وتوانينا، وسكوننا.

قد نتوقّع أن يقرع الباب، فنختلس من فرجته نظرةً، وإذا ما تعرَّفناه، أفسحنا له ركنًا يقيم فيه. ولكنّه غالبًا ما لا يقرع الباب، بل يثقب الجدران، ويخترق الأسوار. فلا جدوى من إحكام مزاليج مخاوفنا، عندما يدنو الناهض من الموت.

إنّه يُشرع ثغرةً في جدار حياتنا، يتدفّق منها النور والهواء، فيتسنّى لنا الانعتاق من عزلتنا، وتعفّننا، كي ننطلق إلى المدى اللامحدود، إلى الآفاق القصيّة.

يسوع يأتينا في كلّ لحظةٍ من لحظات حياتنا. ومجيئه من التواتر والبساطة بحيث يبدو لنا دائمًا غير متوقّع. إنّه زائرٌ دائم التجوال، فلنكن، أبدًا، مستعدّين، مشرِعين له أبوابنا.

من المحقّق أنّ جيلنا لن يشهد نهاية العالم، ولكنّ نهاية كلٍّ منّا قريبةٌ، ولا بدّ من التأهّب لها بيقظةٍ دائمةٍ لا تتراخى. فيسوع يريد تلاميذه واقفين، ساهرين، متأهّبين،

مستنفرين، نابذين كلّ توانٍ، ولامبالاةٍ، غير ملتمسين ضمانًا سواه، مترقّبين «السارق»، في كلّ حين، متشبّثين بيد الله، بلا فكاكٍ.

إنّه يدعونا إلى السهر والتأهّب وكأنّ كلّ شيءٍ سيتمّ في هذا المساء، أو في الليلة القادمة، أو، ربّما، في الحال. والسهر الذي يقتضيه منّا هو المضيُّ معه، وتخلّينا عن كلّ شيءٍ سواه. فهو يسرقنا من ذواتنا، كي يملأنا بذاته.

لا جدوى من الشروع في التأهّب لاستقباله، ساعة قدومه، بل علينا، منذ اللحظة الحاضرة، أن نعوّل عليه وحده، ونتّحد به، كي يتفجّر نوره من مصباحنا الصغير.

* *

لقد أوكل الله إلى كلّ امرئٍ مهمّةً، وأولاه الثقة، ومنحه الحرّيّة، لكي يكون مسؤولاً، والمهمّة تتطلّب دأبًا لا يفتر، وسيعتمد الحساب على جدّيّة الإنجاز ومداه. فطوبى لمن لا يَغفَل لحظةً واحدةً عن إنجاز مهمّته، والويل لمن ينصرف عنها كي يعبث، أو ينام. طوبى لمن يدأب على إطعام الجائع، وإكساء العريان، وإيواء المشرّد، وعيادة المريض والسجين؛ وعلى إضرام الإيمان في القلوب المقرورة، التي تخنقها اللامبالاة، وتمزّقها الشكوك؛ وعلى انتظار مجيئه بتوقٍ، علّه يجد بقيّةً من إيمان على الأرض!

أخذ الله على البشر، في أيّام نوح، إغفالهم الجوهريّ، واستغراقهم في الهموم اليوميّة، والمُتَع الزائلة الزائفة، وذهولهم عن أنّ لهم آخرةً ينبغي التأهّب لها، وعن أنّ عليهم واجباتٍ تجاه من خلقهم، ومن أوكل إليهم مهمّة استحقاق وجودهم.

واليوم، أكثر من عهد نوحٍ، العالم مخدَّرٌ بالتقدّم المادّيّ، والإباحيّة، أو لاهثٌ وراء المزيد من الامتلاك والرفاه، ساهٍ عن غاية وجوده. وسيكون استيقاظه قاسيًا بقدر ما يكون استخفافه بالخطر الداهم بليغًا. وها إنّ الطوفانات تزحف كلّ يومٍ، على أشكالٍ مختلفةٍ: هزّاتٍ ماليّةٍ مزلزلةٍ، انهياراتٍ سياسيّةٍ مريعةٍ، وتسلّط دولٍ كبرى صَلِفةٍ، واستفحال أمراضٍ كانت مجهولةً، وتلاشي ضماناتٍ كانت تبدو منيعةً.

اليوم، أكثر من أيّ يومٍ، تتجلّى هشاشة عالمنا، والآن، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، في هذه الساعة التي تغشى فيها الظلمات التاريخ، المسيحيّون مدعوّون إلى اليقظة،

وإلى العناية بمصير الصغار والمقهورين، وإلى خلق مستقبلٍ مشرقٍ للبشريّة، وإلى توليد النور حتّى في حلك اللامبالاة، والعنف، والتفاهة التي تغزو العالم؛ إنّهم مدعوّون إلى الإسهام في إشراق فجرٍ إنسانيٍّ جديدٍ، ومطلوبٌ منهم ألاّ يكفّوا عن ابتداع الحبّ، وإعادة ابتداعه بلا هوادةٍ.

عليهم ألاّ يصرفهم الماضي عن مسؤوليّات الحاضر والمستقبل، وألاّ تعمى أبصارهم عن مجيء الله، فيبحثون عنه في لحدٍ خاوٍ، في حين أنّه ينتظرهم على جميع دروب عمّاوس التاريخ.

عليهم المضيّ ويدهم بيد يسوع، بثقةٍ وثباتٍ، مستهدين بنوره، متشدّدين بقوّته، منتشين بحبّه.

وفي هذا السياق يقول الكردينال نيومن: «هل خبرتم شعور من لـه صديقٌ ينتظر قدومه، ويقلق لتلكّئه؟ هل خبرتم الرغبة في أن يكرّ الزمن سريعًا، بانتظار مجيء من يخفق له قلبكم؟ هل خبرتم وجود صديقٍ لكم بعيدًا، تترقّبون أخباره يومًا فيومًا، وتتساءلون عمّا يفعله الآن، وتقلقون على صحّته ومصيره؟... كذلك هو الشعور بانتظار يسوع». وهذا ما يفهمه المحبّون أكثر من سواهم.

ثمّة من يدعون إلى التوبة بإثارة الرعب. ولكنّ دعوة يسوع إلى اليقظة هي ساجيةٌ، وواقعيّةٌ، ساجيةٌ كسماءٍ يغمرها النور، وواقعيّةٌ كالأرض التي تعيش بالنور. ورجاؤنا يثوي في هذه النظرة التي تطير بنا إلى ما وراء موتنا، إلى ما يتخطّى هذا العالم.

لا يريدنا يسوع مثل حرّاس الليل المتربّصين بالسارق كي لا يسرق، فحسب، بل يريدنا أن نترقّب الفجر كي نفرح بانبلاجه، ونعلنه، وأن نتوق إلى مجيء الربّ الذي قد يوافي في كلّ لحظةٍ، والذي يضيء نورُه بابنَا في كلّ ساعات الليل.

يسوع يثقب ظلمات الليل، وينهض مع الفجر.

أمّا الذين يحجبون النور عن أبصارهم، ويُكثّفون الأقنعة على وجوههم، فلا يبصرون انبلاج الفجر. والذين يُغمض الخوف عيونهم لا يمضون بعيدًا، والذين ينوحون في العاصفة، متوانين عن مقاومة الأمواج، لن ينتهوا إلى الشاطئ.

فلا بدّ من اشتهاء تأمّل الفجر، كي يتفجّر النور في الأحداق، ولا بدّ من السهر

من أجل مشاهدة كلّ جديدٍ يولد. لا بدّ من التأهُّب للدهشة والإعجاب، للغناء، وللرقص فرحًا بولادة عالَمٍ جديدٍ.

لا بدّ من نظرةٍ تغوص في الواقع وتسبر طاقاته، وتقطن المستقبل، وتُعِدّ له بتفاؤلٍ.

لابدّ من التأهّب لرؤية الله الماثل، هنا، أبدًا، فإن هو لم يتفجّر حبًّا وجمالاً، في كلّ لحظةٍ، لما كان الخالق، ولما كان الحبّ، ولما كان الله.

فهل نحن نترقّب فجره؟

تَوظِيفٌ في المَلَكُوت

(متّى ٢٥: ١٤- ٣٠)

«وذلك كمَثَل رجُلٍ مُسافرٍ، دعا عبيدَه وسلَّم إليهم أمواله. فأعطى الواحد خمسَ وزناتٍ، والآخرَ وزنَتَين، وآخر وزنةً، كلاًّ على قدر طاقته، وسافر. وللوقت ذهبَ الذي أخذَ الخمسَ وزناتٍ فتاجر بها فربح خمس وزناتٍ أُخرى. وكذلك صاحبُ الوزنتَين ربحَ وزنتَين أُخريين. وأمّا الذي أخذ الوزنةَ الواحدةَ فإنّه مضى وحَفَر في الأرض وطمرَ فضّة سيّده.

«وبعد زمانٍ طويلٍ قَدِمَ سيّدُ أولئك العبيد وحاسبهم. فتقدّم الذي أخذ الوزنات الخمس وأدّى خمسَ وزناتٍ أُخرى. قائلاً: «سيّدي، خمس وزناتٍ سلّمت إليّ وهذه خمسُ وزناتٍ أُخرى قد ربحتها». فقال له سيّده: «أحسنت، أيُّها العبدُ الصالحُ الأمين! لقد كنت أمينًا على القليل فسأُقيمك على الكثير. ادخُل فرحَ سيّدك». وتقدّم صاحبُ الوزنتين وقال: «سيّدي، وزنتين سلّمت إليّ وهاتان وزنتان أُخريان قد ربحتُهما». فقال له سيّدُه: «أحسنت، أيّها العبدُ الصالح الأمين! لقد كنت أمينًا على القليل فسأُقيمك على الكثير، ادخُل فرح سيّدك».

وتقدّم الذي أخذ الوزنة الواحدة وقال: «يا سيّدي، إنّي علِمتُ أنّك رجلٌ قاسٍ، تحصُدُ حيثُ لم تزرعْ، وتجمع من حيثُ لم تبذُر، فخِفْتُ فمضيتُ وطمَرْتُ وزنتك في الأرض. فهُوذا ما هو لك عندك». فأجاب سيّدُه وقال له: «أيّها العبد الرديء الكسول، عَلمتَ أنّي أحصُدُ حيث لم أزرع وأجمَعُ من حيث لم أبذر فكان عليك أن تُسلّم فضّتي إلى الصيارفة حتّى إذا قدِمْتُ أستردُّ مالي مع ربًا... فخذوا منه الوزنة وأعطوها للّذي معه الوزنات العشر. فإنّ من له يُعطى فيزداد، ومن ليس له فحتّى ما هو عندَه يُؤخذ منه. وأمّا هذا العبدُ الذي لا يملك نفعًا فألقُوه إلى الظلمة الخارجيّة. فهناك البكاءُ وصريفُ الأسنان» (متّى ٢٥: ١٤- ٣٠).

قصّة السيّد الذي أوكل ماله إلى خدّامه، وسلّم كلاًّ منهم عددًا من الوزنات يتناسب وطاقاته، ثمّ سافر، كي يتيح لهم مبادرة استثمارها، على أن يُجري الحساب لدى عودته، هي قصّة كلّ إنسانٍ.

الوزنة هي سبيكة معدنٍ ثمينٍ يساوي ثمنها ستّة آلاف يوم عملٍ. وفي ذلك الدليل على أنّ ثقة السيّد بوكلائه، واحترامه لحرّيّتهم بلا حدودٍ.

وتمادي غيابه، أيضًا، دليل ثقةٍ بهم، وإفساحُ مجالٍ رحبٍ لمبادراتهم الخلاّقة. وبذلك هو يتميّز عن الذين يراقبون وكلاءهم في كلّ لحظةٍ، ويخنقون حرّيّتهم، ويركمون في دروبهم العقبات.

غير أنّ طول غياب السيّد يجعل الوفاء للأمانة أشدّ اقتضاءً، ويستلزم قدرةً على الثبات والصمود، وشدّة المراس. أمّا من ضعفت نفوسهم، فقد يتوهّمون أنّ صاحب الأمانة لن يعود، فينفضون عن كواهلهم نير المسؤوليّة، ويفيئون إلى التخاذل والتواني، ويسيئون إلى الأمانة.

إلاّ أنّ عودة السيّد محقّقةٌ، وهي كفيلةٌ بتبديد كلّ وهمٍ.

الوكيلان الأوّلان كانا بمستوى الأمانة الموكلة إليهما، وأحسنا استثمارها ففاقت مكافأتهما كلّ ما توقّعا، لقد أُدخلا إلى فرح سيّدهما، ونالا، لقاءَ جهود سنواتٍ معدوداتٍ، سعادةً لا نهاية لها، ولا شيء يكدّر صفوها.

غير أنّ المثل ركّز على الوكيل الثالث الذي تسلّم وزنةً واحدةً، لم يكن من العسير عليه استثمارها، ولكنّه كان يفتقر إلى الاستعداد للجهد، لأنّه كان يفتقد الثقة بمن أَوكل إليه الأمانة. وهذا ما عبّر عنه عندما دُعيَ للحساب، فاتّهم سيّده، اتّهامًا وقحًا، بالقسوة، والاستغلال، ومحاولة الإثراء بفضل جهد الآخرين، وبذلك أدان نفسه بنفسه.

عدّ نفسه مستقيمًا. فهو لم يسرق، بل أعاد الأمانة كاملةً، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، ولكنّه خيّب أمل سيّده الذي لم يؤدِّ لـه وزنةً إلاّ لكي يستثمرها، ويعيدها مع جناها. إهماله كان ذنبًا أفدح تبعةً من السرقة، لأنّه ظنّ في سيّده سوءًا، وصاغ عنه صورةً تناقض واقعه، وبنى علاقته معه على الخوف، وعلى محاسبةٍ ضيّقةٍ. فسيّده برهن

لـه عن ثقةٍ كبرى، كي يؤهّله للمكافأة؛ وهو اتّهمه بأبشع النوايا. ولكأنّه يقول لـه: أنا صادقٌ ومستقيمٌ، ولكنّك أنت ظالمٌ، لأنّك تطالب بما لا حقّ لك فيه.

الوكيل الثالث هذا يمثّل فئةً عريضةً من المؤمنين الذين لا يعون ثقل مسؤوليّاتهم.

أَفلم يوكل إلينا الربّ ثروته، أي نفوسنا التي خلقها على صورته، وهي أثمن ما يملك؟ أَوَ لم يوكل إلينا، أيضًا، ما هو أغلى من كلّ ذهبٍ وفضّةٍ، أي ملكوته الذي كلّفنا بإحلاله وترسيخه، ونِعَمَه التي يتوجّب علينا استثمارها؟

لكلّ فردٍ وُهبت نعمةٌ عليه تنميتها لمنفعة الجميع، على حدّ قول الرسول بولس، في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين: «**لا جرَمَ أنّ المواهبَ على أنواع، إلاّ أنّ الرُّوح واحدٌ؛ وأنّ الخِدَم على أنواعٍ، إلاّ أنّ الرّبّ واحدٌ؛ وأنّ الأعمال على أنواعٍ، إلاّ أنّ اللّه واحدٌ، وهو يعمل كلَّ شيءٍ في الجميع. وكلٌّ واحدٍ إنّما يُعطى إظهار الرُّوح للمنفعة (العامّة). فالواحد يُعطى، من قبل الرُّوح، كلام حكمةٍ؛ والآخر كلام عِلْمٍ، بحسب الرُّوح عيْنه؛ والآخر الإيمان، بذلك الرُّوح عيْنِه؛ والآخرُ موهِبَة الشِّفاء، بالرُّوح الواحد (عينِه)؛ وآخر إجراءَ العجائب؛ وآخرُ النُّبُوّة، وآخرُ تمييز الأرواح؛ وآخرُ أنواعَ الألسنة؛ وآخرُ ترجمةَ الألسنة. وهذه كلّها يفعلها الرُّوح بعينه، مُوزِّعًا، كيف شاء، على كلّ واحدٍ خصوصًا**» (**١كورنثس ١٢: ٤– ١١**).

إذن، لكلٍّ دوره، ولكلٍّ مواهبُ خاصّةٌ، عليه استثمارها. وكلٌّ فريدٌ في عين اللّه، ولا غنى عنه في مكانه، ومهمّته. وعلى كلٍّ منّا الاهتمام بشؤون ملكوت اللّه، والمراهنة عليها بكلّ حياتنا.

فالإنجيل لم نُعطَه كنزًا عقيمًا، كي ندفنه، بل كي نستثمره، ونؤدّي عن استثماره حسابًا. والمحاسبة تعني أنّ اللّه يعدّنا راشدين مسؤولين. فقد وهبنا الحرّيّة، وثمن الحرّيّة المسؤوليّة. وهل أشقّ على المرء من ألاّ يكون مسؤولاً؟

وجديرٌ بالتنويه أنّ هذا المثل سبق الآلام، إذ كان يسوع عازمًا على إيكال مصير ملكوته لرسله وتلاميذه.

كثيرون من المؤمنين لا يبتغون سوى أمانهم، وراحتهم، ويحصّنون أنفسهم دون أيّ تورّطٍ. يعدّون ذواتهم أبرارًا وقدّيسين، إن هم لم يعصوا، حرفيًّا، الوصايا الناهية

عن السرقة، والزنى، والقتل، وشهادة الزور... وقد غرب عن بالهم أنّ الله يديننا عمّا لم نفعله أكثر ممّا يديننا عن أخطاءٍ ارتكبناها في أثناء عملنا.

الخطيئة الكبرى، في نظر الله، هي الإعراض عن واجبات المحبّة، والتواني عن إطعام الجائع، وإكساء العريان، ومواساة العليل، وإيواء الشريد، وغوث الملهوف...

وهي دفن المواهب والنِعَم التي أغدقها الربّ علينا، استسلامًا لهوى الأمان، وتفاديًا لكلّ مخاطرةٍ، في حين أنّ الإيمان مغامرةٌ، وقفزةٌ مجنونةٌ في حضن الله الذي نثق به ولا نراه.

وهي تغليف الإنجيل في صِيَغٍ، ووصايا محكمةٍ، ودفنه فيها، ومنع إشعاع نوره ودفئه، والحؤول دون النفاذ إلى جوهره، وتحويل ما يزخر به من بذور خصبٍ وحياةٍ، إلى مومياءاتٍ جوفاء جامدةٍ.

علاقتنا بالله تشرع تفسد، عندما يوهمنا صمته وغيابه الظاهر، بعدم وجوده، وعندما نفقد الثقة به، ونُعرِض عن دعوته إلى بذل ذواتنا في ميادين المحبّة والخدمة، ولا نعود نرى فيه أبًا يفيض حبًّا، بل منافسًا لنا رهيبًا لا يلتمس سوى مصلحته، ويتوجّس من سعادة البشر خشيةً.

وقد ختم يسوع مثله بتأكيده أنّ من أحسن استثمار ما وُهب من نِعَمٍ يُزاد منها، ومن تقاعس عن استثمارها تُستردّ منه.

«سِرُّ الخِدْمَة»، أو غَسْلُ الأرْجُل

(يوحنا ١٣ : ٤ – ٧)

حدَثٌ مذهلٌ، لأنّه يناقض التقاليد الشائعة، وكلّ ما أَلِفَه البشر، حيث السيّد يجثم على القمّة، والآخرون يقبعون في القاع. هو يُخدَم، والآخرون يخدمونه.

ولكنّ يسوع يقلب التقاليد، ويعلّم أنّ الخدمة مدرجة عظمةٍ، وسبيل كمالٍ. كان قد أَعلن أنّ «**ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم، بل ليخدُم ويبذل حياته...**»، ولم يكتفِ بالإعلان، بل نفّذ ما علّمه، ولم يتورّع، هو المعلّم والربّ، وابن الله، من الركوع عند أقدام تلاميذه، وغسلها بيديه، مضطلعًا بمهمّةٍ تُناط، عادةً، بالعبيد. وقد حَرِص على إيضاح أبعاد فعله هذا، الذي اختزل به تعليمه وحياته، فقال: «**أتفهمون ما صنعتُ بكم؟ أنتم تدعونني المعلّم والربّ، وأنتم على صوابٍ، لأنّي كذلك. فإن كنت، أنا الربّ والمعلّم، قد غسلتُ أقدامكم، كان عليكم، أنتم أيضًا، أن تغسلوا بعضكم أقدام بعض. لقد جعلت من نفسي قدوةً لكي تصنعوا كما صنعتُ بكم. الحقّ، الحقّ أقولُ لكم: ليس العبد أعظم من سيّده، ولا الرسول أعظم من مرسله**».

لقد جاء يسوع بمفهومٍ جديدٍ، ثوريٍّ، للعظمة الحقّة، وللرفعة الراسخة الأركان، ولطالما قال إنّ عظماء الناس هم الذين يسودونهم ويستخدمونهم، في حين أنّ العظماء، في مذهبه وفي نظر الله، هم من يخدمون الأصاغر، ويبذلون ذواتهم في سبيلهم؛ مؤكّدًا أنّ من يرفع نفسه، يُقذف به إلى أسفل الدركات، ومن يتّضع يُرَقَّ إلى أسمى الذرى.

قُبَيْل ذلك كان التلاميذ يتجادلون، ويتنافسون على المراكز الأولى في ملكوت المسيح، الذي تخيّلوه أرضيًّا، ووشيكًا. وكان لا مفرّ من صدمةٍ قاسيةٍ توقظهم، وتنهض بهم إلى مواقع الروح الجديرة بأتباع يسوع. فقام ابن الله نفسه بمهمّة الخادم

والعبد، وغسل أقدامهم، فاضحًا أنانيّاتهم، والتماسهم الباطل للمظاهر الجوفاء، كي يعلّمهم، ويعلّم البشر من خلالهم، روعة الوداعة والتواضع، والتجرّد، وعظمة الخدمة.

وقع الصدمة نلمسه في موقف بطرس الذي استفظع أن يغسل لـه خالقه وربّه قدَمَيْه. ولكن، عندما أفهمه يسوع أنّ بقاءه مع المعلّم مرتبطٌ بهذا الغسل، طالب بغسل رأسه ويديه، أيضًا. هذا الموقف يعكس وجه بطرس المندفع، التلقائيّ، اللامتحفّظ: لا شيء أو كلّ شيءٍ.

كثيرةٌ هي أعمال يسوع التي تصدمنا وتُذهلنا. ولكن حريٌّ بنا أن ننتقل، على غرار بطرس، من الذهول إلى الاتّعاظ.

* *

لقد انفرد الإنجيليّ يوحنّا بذكر تلك الواقعة التي جرت في مطلع العشاء الأخير في حين أغفلها الإزائيّون، كي يستفيضوا في سرد واقعة تأسيس الإفخارستيّا. ذلك أنّ الإنجيليّ الرابع كان قد أسهب، من خلال فصولٍ سابقةٍ، في تفسير سرّ الإفخارستيّا، وعظمة شأنه، وصوفيّته السامية، وحلّق في هذا المضمار كما لم يفعل أحدٌ سواه. ومن جانبٍ آخر كان الاحتفال بالإفخارستيّا، يوم دوّن القدّيس يوحنّا إنجيله، قد غدا طقسًا شائعًا تقوم به الجماعات المسيحيّة كلّما التأمت. وكان الإزائيّون قد أفاضوا في وصف تأسيسه، فآثر القدّيس يوحنّا التأكيد على غسل الأرجل الذي أغفله الإزائيّون، والذي رأى فيه سرًّا لا يقلّ شأنًا عن الإفخارستيّا، سرّ الخدمة الذي لا تكتمل الإفخارستيّا بمعزلٍ عنه.

إنّ في تمثّل يسوع بكلّ صغيرٍ وضعيفٍ ومحتاجٍ، وفي قوله: «**ما تصنعونه لأصغر إخوتي، فلي تفعلونه**»، ما يحاكي تحوّلَ الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. ومن يتناول جسد الربّ، ولا يحفل بخدمة المحتاجين إليه، لا يؤتي تناوله ثمرًا ولا نفعًا.

يقول القدّيس بولس إنّ يسوع اتّخذ، من أجلنا، صفة خادم، فإن رمنا أن نلبس المسيح، فعلينا، أوّلاً، التمثّل به، وأن نصبح لإخواننا خدّامًا، لكي نشترك معه في بنوّة الله. بهذا الثمن، فقط، نتواصل مع الله، ومع إخوتنا، ونتّحد به وبهم. ولن

يتحقّق ذلك إلاّ بعون الروح القدس القادر على ملء نفوسنا بسرّه، فيغدو لنا نورًا يضيء سرّ الابن، وصمتًا نتقبّل في محرابه الكلمة، وامّحاءً يفيض حبًّا، وتواصلاً يقضي على كلّ فُرقةٍ، وحياةً تهب الأموات الحياة.

وتأكيدًا على عظمة شأن سرّ الخدمة مهّد لـه الإنجيليّ بمقدّمةٍ مهيبةٍ: «**إذ كان يسوعِ يعلم أنّ ساعته قد أتت لينتقل من هذا العالم إلى أبيه، وإذ كان قد أحبّ خاصّته الذين في العالم، وقد بلغ به حبّه حتّى النهاية،** (أي حتّى الموت، أو حتّى أقصى تخوم الحبّ)... **وكان يعلم أنّ الآب قد جعل في يديه كلّ شيءٍ، وأنّه من الله خرج وإلى الله يعود، نهض عن العشاء...**». كان ابن الله مدركًا لأبعاد العمل الذي أقدم عليه، ولكأنّه يعلن وصيّته الأخيرة، الأخطر شأنًا. لقد أسّس سرّ الخدمة، وهو على عتبة الموت، كي يُبرز عظمتها.

قد تكون الخدمة هي، أيضًا، أحيانًا، أسلوبًا من أساليب التفوّق والسيطرة. أمّا الخدمة المقرونة ببذل الذات والحياة، فلا يسعها أن تكون كذلك، لأنّ بذل الحياة ينفي كلّ شبهة سُلطةٍ أو سيطرةٍ

* *

بعد أن فرغ يسوع من مهمّته، قال لتلاميذه: «أنتم أطهارٌ». لم يطهروا بالغسل والماء، بل بفضل كلام الربّ، وبفضل ما علّمهم من محبّةٍ، وتواضعٍ وتجرّدٍ، وخدمةٍ، وتضحيةٍ، وتحرّرٍ من كلّ كبرياء، وطمعٍ، وخبثٍ، ورغبةٍ في التفوّق والسيطرة. فهذه الفضائل تنقّي النفس، وتُشيع فيها السلام، والفرح، وسعادةً لا يقوى شيءٌ أو أحدٌ، على سلبها.

لقد طهّرهم المعلّم، كي يُعدّهم لسرّ حبّه العظيم، سرّ حضوره في الإفخارستيّا، غذاءً وحياةً لكلّ من يُقبل عليه ويتناوله.

صُدِم بطرس لمشاهدة الربّ، راكعًا يغسل قدميه، وما أحرانا بأن نرتعد تجلّةً وإعظامًا كلّما تقدّمنا لتناول جسده المكسور غفرانًا لخطايانا، وغذاءً لنفوسنا، ولارتشاف دمه المراق لافتدائنا.

سرّان متكاملان مترابطان، ففي كلّ ذبيحةٍ يسوع هو الخادم، وهو «الحَمل».

بطرس ارتضى، بعد رفضٍ، أن يغسل لـه يسوع قدميه، لكي يكون له حظٌّ مع الربّ. وعلى غراره، فلندنُ من الإفخارستيّا، مع شعورنا المرهِق بعدم استحقاقنا، ولنقبل بأن يكون خالقُنا غذاءَنا، وراعينا حملَ فدائنا، وربُّنا خادمَنا، ولنلبّ رغبته في اقتسام الفصح معه، وفي أن نصبح خدّامًا لإخوته، على مثاله.

«**فإذا علمتم ذلك، فطوبى لكم إذا عملتم به**» (يوحنّا ١٣: ١٧).

«خُذوا فكُلوا، هٰذا هُوَ جَسَدي، وَاشـرَبُوا، فَهٰذا هُوَ دَمي»

بالتجسّد اقترن اللامتناهي الإلهيّ بالمتناهي البشريّ، في شخص يسوع المتأنّس. بيد أنّ ذلك المشروع المذهل، ذلك اللقاء الفذّ، لم يكن ممكنًا أن يظلّ محصورًا في الزمان والمكان، وموقوفًا على قلّةٍ ممّن عايشوا يسوع وعرفوه عن كثبٍ. وكان لا بدّ لله من أن يبتدع أسلوبًا يخلّد هذا الحدَث، ويضمن امتداده وانتشاره، وديمومته، فكان سرّ الإفخارستيّا.

بهذا السرّ تحقّقت، للمرّة الأولى، في هذا العالم، معجزةُ أن يتمثّل المحبُّ حبيبَه، ويمتزج الإنسان بإلهه، ويتغذّى به، فيصبح وجوهره واحدًا، ويتحوّل إلى حبّه الحيّ.

بتأسيسه هذا السرّ، في جوٍّ من الفرح والرجاء اللّذين يرمزان إلى المأدبة الأبديّة الجامعة، أوجز يسوع حياته كلّها، وأبرز غناها وسخاءها. وقد تحقّقت الإفخارستيّا تحقيقًا نهائيًا بصلب يسوع، إذ غدا الخبز والخمر يمثّلان جسد المصلوب الـمُضْنَى، ودمه المراق، وأصبحت ثمار جهد البشر هذه، وسيلة الحياة الأبديّة. إنّها وليمةٌ مفتوحةٌ للكثيرين، لا حدود لغناها، وهي كفيلةٌ بإشباع جميع من يؤمّونها.

لم يقضِ يسوع على الموت بقيامته فحسب، بل بالإفخارستيّا التي جعل منها ذاته خبز حياةٍ لكلّ من ابتغى الحياة، وبها خلّد حضوره المحيي، بين البشر.

في الإفخارستيّا يبلغ حضور الناهض من الموت أقصى كثافته. فيسوع، هنا، وسط ذويه، في كامل سرّه، وفي واقع تجلّيه. وإذ نحن نأكل جسده، ونشرب دمه، فإنّنا نشترك بحياته الخاصّة، في حين يلج، هو، حياتنا. وحينئذٍ نصبح، نحن، شعب الله، وجسد المسيح. الإفخارستيّا هي الوسيلة التي يتوخّى بها يسوع الناهض من الموت أن يحيا هنا والآن، في علاقةٍ حميمةٍ مع ذويه.

* *

الإفخارستيّا احتفالٌ مهيبٌ يرد فيه ذكر الموت، وهي، أيضًا، احتفال فرحٍ سامٍ تختلج فيه حياةٌ تتخطّى الموت، الحياة التي أشار إليها يسوع في التطويبات. والاحتفال بها لا يستلزم سوى الزهيد من الخبز والنبيذ، والبشر. هذا الاحتفال المتقشّف قد يرتدي أكثر التعابير العلنيّة بهجةً، ولكنّه قد يرتدي مزيدًا من الكثافة عندما ينهض به قومٌ فقراء، ودعاء، جياعٌ إلى البرّ.

إنّه احتفالٌ مشرعٌ على الماضي، وأكثر انفتاحًا على المستقبل الذي يؤكّده: مستقبل عالَم جديدٍ، وإنسانيّةٍ ملتئمةٍ حول مائدة الله، وعودة المسيح. وبفضله يستمدّ كلّ فردٍ قوّةً، وتطلّعاتٍ جديدةً، ونفحةً إنجيليّةً قشيبةً.

عيد الماضي والحاضر هذا، القائم على حضورٍ وغيابٍ، على ذكرى وانتظارٍ، يتحقّق، على وقعه، تجدّد المسيحيّين الإنجيليّ، وإحياؤهم بروح الله.

إنّ قوام الحياة المسيحيّة هو الطقس الإفخارستيّ الذي ما انفكّ يتجدّد منذ ألفين من السنين، وما زال دفّاقًا بحياة الروح. وما برحت الإفخارستيّا، التي تقيمها الكنيسة، هي التي تقيم الكنيسة.

* *

مثلما يتغذّى الابن بالآب، فيصبحان واحدًا، ومثلما يستمدّ الجنين الغذاء من جسد أمّه، ويتكوّن على صورتها، كذلك نتغذّى بجسد يسوع ودمه كي نتحوّل إلى جوهره. فكلّ طعامٍ نتناوله نحوّله إلى طبيعتنا، ولكنّنا، بتناولنا الربّ، نتحوّل نحن إلى طبيعته، إلى ملء الحياة، إلى حياةٍ إلهيّةٍ، أبديّةٍ.

فليس التناول عمليّة مضغٍ تنقضي في ثوانٍ معدوداتٍ، بل ينبغي أن يخترق تأثيرها امتداد حياتنا وكثافتها، موفّرًا لنا «إقامةً» حقيقيّةً في يسوع الذي قال: «**كما أنّ الآب الذي أرسلني حيٌّ، وأنا أحيا بالآب، فكذلك من يأكلني، فإنّه يحيا فيّ**». أيّة كثافةٍ في هذا الوعد، وأيّ تأليهٍ للإنسان!

«**من يأكل جسدي ويشرب دمي، فله الحياة الأبديّة، وأنا أقيمه في اليوم الأخير**». بالإفخارستيّا نشترك بالمسيح قاهر الموت، الذي يحيا في مجد الآب، وفي حياته الإلهيّة. ثمار الإفخارستيّا، إذن، هي القيامة إلى حياةٍ إلهيّةٍ أبديّةٍ، والإقامة في يسوع، وإقامة يسوع فينا.

إنّ يسوع يتوخّى إيقاظ وعي الروح لدى بني الأَرض، الذين، بسبب السقطة، غفلوا عن كونهم أبناء اللّه، وعن السماء التي أتَوا منها، وإليها يرجعون. إنّ بذرة اللّه ما برحت كامنةً في ذواتهم العميقة، ويسوع يبتغي أن ينمّيها، ويفجّر فيهم نبع الحياة، ويوقظ لديهم المعرفة والحبّ، علّهم يفطنون إلى من هم، ومن أين أتوا، وإلى أين ينتهون. فبمعرفتهم ليسوع، يعرفون الحقّ، والحقّ يحرّرهم من سقطتهم، ومن التصاقهم بالتراب، ويوصلهم إلى الآب، الذي لا يأتي أحدٌ إليه إلاّ عبر ابنه يسوع.

* *

الإفخارستيّا هي أسمى ما ابتدعه حبّ إلهنا. وعندما أسّس يسوع هذا السرّ أوصى تلاميذه أن يحبّوا بعضهم بعضًا، لا حبًّا بشريًّا محدودًا، بل حبًّا مستمَدًّا منه، يحاكي حبّه، ويغمر البشريّة جمعاء، بلا حدودٍ ولا تمييزٍ، ويدفعهم إلى أن يوزّعوا، في المسكونة كلّها، الخبز والخمر اللّذين يتكاثران إلى ما لانهاية، بقدر ما يُبذَلان.

وما برحت الإفخارستيّا، اليوم، شأنها بالأمس، عرس حبٍّ، يرى كلُّ إنسانٍ من خلالها، في الآخر، أخًا. فبهذا السرّ لمّ يسوع، في جسدٍ واحدٍ، شملَ البشر، المشتَّتين، المتفرّقين، وجمعهم في جسده، حيث لا رفيع ولا وضيع، لا غنيّ ولا فقير، بل إخوةٌ يؤمنون أنّ كلّ شيءٍ هو من اللّه آتٍ، وإليه يعود عن طريق خدمة الآخرين. وفي الإفخارستيّا يُظهر لنا يسوع كيف يكون الحبّ، وما يقتضي من تواضعٍ وتجرّدٍ. فعلينا ألاّ نحتفظ لذواتنا بشيءٍ، كي يستقبلنا، بأكملنا، من يهب ذاته كاملةً.

إنّ الإفخارستيّا، في جوهرها، واقعيّةٌ، تدعو إلى الدأب اليوميّ. إنّها رغبةٌ في منح الذات، بالكامل، للغير، كلّ الغير، لا كالذبائح، في القديم، التي كانت وقفًا على فئةٍ معيّنةٍ. إنّها اقتران اللّه بالبشر أجمعين، اقترانًا مكتملاً، لا تحفّظ فيه، ولا نكول عنه.

إنّها دعوةٌ إلى الحبّ، وإلى أن نمارس، سحابة حياتنا كلّها، بذل ذواتنا للآخرين، على نحو ما فعل يسوع.

إنّها الزاد الذي يساعدنا على اجتياز صحراء الحياة، حتّى أبواب الملكوت، وهي توجز ديناميّة المصالحة، إذ إنّها تستمدّ طاقاتها من عطاء اللّه المجّانيّ. ولكنّها، في

الآن عينه، تقتضي منّا هجر ضلالنا، وعزلتنا الوبيلة، ونبذ أهوائنا وخصوماتنا، لكي نستأهل أن نكون ندماء على مائدة الربّ الذي يكسر لنا خبز تحريره وفرحه.

ومثلما يخفق القلب كي يحيي الدم، ويرسله، عبر الجسم كلّه، مشيعًا الحياة، كذلك يلتئم المسيحيّون حول إفخارستيّا يسوع، ثمّ ينطلقون نحو بذل حياتهم اليوميّ: ذلك هو نبض الوجود المسيحيّ، والاستقبال الدائم ليسوع الحيّ.

فمنذ تأسيسها، غدت الإفخارستيّا محرّك حياة المسيحيّ، ودافعها، وعامل توازنها. وباتت كلّ إفخارستيّا توحّد المسيحيّين حول العمل الأشدّ فقرًا وقوّةً في تاريخ البشر.

* *

غير أنّ البهجة العارمة التي واكبت تأسيس الإفخارستيّا، قد انتهت بنغمةٍ حزينةٍ، بل بإنذارٍ رهيبٍ: «أقول لكم إنّي لا أشرب، بعد الآن، من ثمر الكرمة إلى اليوم الذي أشربه فيه معكم جديدًا، في ملكوت أبي» (متّى ٢٦: ٢٩).

ثمر الكرمة رمز الفرح والسعادة اللّذين لن ترتشف منهما شفتا المخلّص، إلى أن يستقرّ ملكوت الله على الأرض. سيظلّ يسوع، إذن، على هياكلنا، متألّمًا، وسيظلّ يقدّم ذاته ضحيّةً متجدّدةً. وعلى كلّ مسيحيٍّ أن يوفّر له العزاء، بإحلال الملكوت في ذاته، ومن حوله.

أقـوَالٌ في الإفْخارِسْتِيَّا

كتب «ڤرجيل جيورجيو»

«عندما يقيم الكاهن الذبيحة، فهذه الذبيحة تقام، في آنٍ معًا، في السماء، وعلى الأرض...

«جميع الخارجين من الكنيسة، في أعقاب الذبيحة الإلهيّة، كانوا يبدون متجلّين، متحرّرين من كلّ اهتمامٍ أرضيٍّ، مُقدَّسين، بل أكثر من مقدَّسين: متألّهين.

«وكنت أُدرك ما الذي أكسب جميعَ الوجوه جمالاً، وجميع الأنظار تألّقًا. فالنساء الدميمات قد اكتسينَ رواءً، والحطّابون القساة باتوا يحملون على وجناتهم، وعلى جباههم، أنوارًا تحاكي هالات القدّيسين؛ والأولاد غدوا يحاكون الملائكة. في أعقاب الذبيحة الإلهيّة كان كلّ رجال قريتنا ونسائها «حاملي اللّه». فقد تناولوا، وفي عروقهم كان يسري دم اللّه. كانوا أبناء اللّه، ومتألّهين...

«إثر كلّ مناولةٍ، كنت أشعر أنّني لست ابنًا للّه فحسب، بل كنتُ أخًا بالدم لكلّ مسيحيٍّ، في الكون بأسره. كنت أخًا بالدم لكلّ المسيحيّين الذين عاشوا، والذين يحيون الآن، والذين سيُقبلون، غدًا، إلى الحياة. فهم قد حملوا، ويحملون، وسيحملون، في عروقهم، الدم ذاته الذي يسري في جسدي. هذا الإخاء الإنسانيّ الكونيّ، هو الكمال المسيحيّ. لقد اتّحد الجميع في تلك الذبيحة الكونيّة، والكون كلّه بات واحدًا. كنتُ جزءًا من اللّه، وكان اللّه جزءًا منّي. وفي تلك اللحظة كنّا نعيش في الأبديّة. فالأبديّة تبدأ هنا، على الأرض».

وكتب أيضًا:

«لقد أدركتُ ما الذي كان يدفع فرنسيس الأسّيزيّ، عندما كان يلتقي، في الطريق، ملاكًا وكاهنًا يسيران جنبًا إلى جنب، إلى الجثوّ، أوّلاً، أمام الكاهن، ولثم

يده، ثمّ إلى الجثوّ أمام الملاك وتحيّته. فالملائكة هم دون الكهنة، إذ إنّهم لا يقوَون على تحويل الخبز والخمر إلى جسد اللّه ودمه، في حين أنّ يدي الكاهن قادرتان على ذلك».

(من كتاب «من الساعة الخامسة والعشرين حتّى الساعة الأبديّة»)

وكتب «جيلبرت سيسبرون»:

«ينبغي أن ينتابنا ضربٌ من الانخطاف كلّما تناولنا. كان خوري أرس يقول إِنّ علينا أن نموت لشدّة التأثّر بهذا السرّ. فلنحيَ به، على الأقلّ! إنّهم يحيَون به، حقًّا، الصوفيّون الذين لا يُغذّون إلاّ به جسدهم المروَّض، أو الذين، على غرار شارل دي فوكو، يظلّون ساعاتٍ، بل ليالي بطولها، أمام القربان المقدّس، يحدّقون إِلى يسوع، ويحدّق يسوع إِليهم. يا لـه من حوارٍ، ويا له من صمتٍ بحجم الكون! إنّ الأبديّة تلامس هؤلاء بأجنحتها. «**ها إنّ ملكوت اللّه في داخلكم**».

من أقوال لاكوردير:

«يا فم الإنسان، أيّها الإناء السرّيّ، انفتحْ لاستقبال اللّه الذي أبدعك،... كي يعانق نفسك عناقًا جوهريًّا يكتمل في الأبديّة. انفتحْ بلا وَجَلٍ ولا تكبّرٍ: بلا وَجَلٍ، لأنّ القادم إليك وديعٌ ومتواضعٌ؛ وبلا تكبّرٍ لأنّك غير أهلٍ للمسه، هكذا، عن كثبٍ. انفتحْ لتأكل جسد ابن البشر، ولتتجرَّع دمه: تلك هي الكلمات الصريحة التي استخدمها بنفسه، داعيًا إيّاك إلى هذه الوليمة، ولم تخالجه، من ذلك، خشيةٌ، بل راق لـه أن يكون جريئًا في هذا السرّ، أكثر من جرأته في أيّ سرٍّ آخر، لكي يشيع في نفوسنا الاطمئنان....

ولئن أرهبت هذه الدعوة نفَرًا من تلاميذه وجدوها من القسوة بحيث لا يُطاق سماعها، ولئن هجره، من جرّاء ذلك، آخرون، إلاّ أنّ البشريّة لم تقتفِ أثرهم، ولم تتمثّل بفرارهم، بل أقبلت إلى وليمة النعمة، ومدّت الموائد، وشادت الصروح الرائعة، كي تظلّل بالمجد الخبز الذي قال عنه ابن اللّه: «**هذا هو جسدي**».

وأكل الجنس البشريّ، وهو يعبد غذاءه، وشرب، وهو يعبد شرابه، وعادل جنونُ الإيمان جنونَ المحبّة.

من أقوال الأب مونييه

«الإفخارستيّا هي خاتمة كلّ شيءٍ.

– هي خاتمة حبّ يسوع؛

– خاتمة التجسّد الذي لا بدّ أن يُفضي إلى الإفخارستيّا، ولا يستطيع تعدّيها؛

– خاتمة الفداء؛

– خاتمة الليتورجيّا، خاتمة الحياة البشريّة، خاتمة الإنسان والعالم.

الإنسان صُنع من التراب، ولكن ليس من أجل التراب.

هناك نمط حبٍّ لا يمكن تجاوزه: هو أن يأكل المحبّون بعضهم بعضًا، ويسوع وضع كلّ قدرته في خدمة حبّه، فانتهى إلى الإفخارستيّا.

إنّه يأخذني بكلّ بؤسي، وكلّ خطيئتي، يأكلني فأصبح نارًا تُظهره.

الإفخارستيّا تبرهن عن ذاتها بالحبّ. إنّها فعل حبٍّ لا يمكن البرهنة عليه بالعقل. فالحبّ لا يحتاج إلى برهان: إنّه موجودٌ ويكشف عن ذاته النقاب.

الإفخارستيّا هي حبّ الله، متجلّيًا في يسوع».

– «عندما نتناول، يضطلع يسوع بعملنا، ويجعل منه مهمّته، فهو الذي يقدّم للآب حياتنا اليوميّة التي تصبح حياته. إنّه يمضي معنا، في الحياة، صوب الآخرين الذين يلتقيهم من خلالنا.

ليست الإفخارستيّا علاقةً صغيرةً تجمعنا بيسوع وحده، بل هي علاقة إشعاعٍ: إنّها نارٌ وملحٌ ونورٌ، نصطحبها جميعًا لنهبها للآخرين. إنّها خميرةٌ نودعها العجين البشريّ».

– «أكلُنا ابن الله هو الوسيلة المثلى للتشبّه به، ولكي نصبح، على وجهٍ أفضل،

أبناء اللّه. نحن لسنا مسيحيّين إلاّ بمساهمتنا في بُنوّة يسوع. وبقدر ما نلتهمه، يتعاظم إسهامنا في بنوّته، ونصبح أكثر مسيحيّةً. المسيحيّ هو من يأكل المسيح، ويحيا به».

من أقوال القدّيس يوحنّا الدمشقيّ:

– «إنّنا عندما نتناول، فإنّنا نمسك جذواتٍ إلهيةً متّقدةً، بحيث تُسهم نار الرغبة فينا، مقرونةً باضطرام الجذوات، في التهام خطايانا، وإنارة قلوبنا، وبحيث تؤدّي مشاركتنا في النار الإلهيّة إلى تطهيرنا وتأليهنا».

* *

– «لقد مزج اللّه دمه بدمنا، لكي يجعل منّا، نحن البشر، واحدًا معه».

* *

– «أنت لستَ المسيحيّ الوحيد الذي يأسف لعدم رؤية المسيح. فما أكثر الذين يقولون، اليوم: «بودّي أن أراه هو، وان أتأمّل محيّاه وقسماته»! ولكنّكم ترونه وتلمسونه، وتأكلونه. إنّه يهبكم ذاته. فجسد المسيح لم يعد يظهر لنا في المغارة، بل على الهيكل؛ ولم يعد ثاويًا بين يدَي امرأة، بل ها هوذا الكاهن يمسك به. إنّكم لا ترونه فحسب، بل تلمسونه؛ ولا تلمسونه فحسب، بل تأكلونه، وتأخذونه إلى منازلكم.

ويقول، أيضًا، على لسان يسوع:

«إنّني أُغذّي ذويّ، وأُقدّم ذاتي طعامًا لكم. لقد شئت أن أكون أخًا لكم، وبالتالي، أردت أن يكون لي مثل ما لكم من لحمٍ ودمٍ. وها أنذا أهبكم هذا اللحم، وهذا الدم، اللّذين أصبحتُ، بهما، من جنسكم».

* *

«كان التجسّد هو البرهان الأوّل على تواضع اللّه السحيق، ولكنّه شاء أن يقدّم برهانًا آخر أسمى كمالاً، وأعمق انسحاقًا، فكانت الإفخارستيّا». **(جوليان غرين)**

«**برهان الخبز أنّه يغذّي**». **(پول كلوديل)**

«يا خبز الحياة، شعبك البَطِر، العاقّ، كسرك وداسك، ولكنّك، في أصغر فُتاتك، تهب ذاتك غذاءً، فتغمر بالفرح شعوب الأرض». **(پيير إيمانويل)**

في يسوع وحده يمكن لمس اللّه، والقبض عليه، وتمثّله، فيسوع هو اللّه ذاته، والإمساك به هو الإمساك باللّه».

كان **أثيناغوراس** يقول: «عندما أتناول يخامرني شعورٌ بأنّني أضمّ، بين جوانحي، العالم بأسره، لأنّني مع يسوع، وهو العالم كلّه».

«سحابة عشرين قرنًا ما فتئ الباحثون، في العالم، عمّا يُسند وهنهم، يلتهمون جسد يسوع، الذي ما انفكّ للمسافر زادًا، وللمحزون عزاءً، وللفقير الجائع غذاءً حقًّا». **(إرنست پسيكاري)**

«إنّ أكثر الخطأة بؤسًا، حالما يلج الكنيسة التي ينيرها الحضور الفعليّ، يؤنس عزاءً حقًّا يأتيه من يسوع القابع هناك، في صدر الهيكل، بكلّ واقعيّته».
(إرنست پسيكاري)

«إنّ يسوع، الذي هو اللّه، مثل أبيه، ومثل الروح القدس، لم يتردّد في المجيء إليك تحت مظهر الخبز. إنّه ينتظرك، يحتاج إليك، يريدك أن تأكله، أن تلتهمه. لقد أمعن في التواضع، لكي لا يُرعبك، لكي لا يدمّرك، برؤية ألوهيّته الرهيبة».
(پيير ڤان درمير)

وكتب الكردينال ڤيتزنسكي:

«مذ تجسّد الكلمة في أحشاء العذراء، أحبّ الربّ هذا الأسلوب، وبات يعود، بشكل «حبّة قمحٍ» لدى كلّ مناولة، لكي يولد كلّ إنسان في اللّه، ولادةً جديدةً. إنّ يسوع يتوارى في قلب الإنسان، لكي يخلّد ولادة اللّه. إنّ اللّه الإفخارستيّ يبحث دائمًا عن مغارة بيت لحم، فالنزل غالبًا مكتظٌّ، أمّا من يرحّب به، فإنّ مغارته تنقلب هيكلاً مقدّسًا.

«الإفخارستيّا تخلق إنسانيّةً جديدةً، غنيّةً بالله، تلد الله، وتُشيع القلب الأقدس في كلّ زوايا الحياة، وتُدخله حتّى إلى القبور، فالإفخارستيّا قيامةٌ، وتهب النفوس حياةً جديدةً، تنسف سدود العالم المحتضر، النخرة.

«الإفخارستيّا هي جمال الحياة.

«يا مريم، كلّما رغب ابنك أن يولد من جديد في مغارة قلبي، فلتكن ذراعاك متأهّبتَيْن لاستقباله، ووقايته من بشاعات نفسي».

الوَصيَّةُ الجَديدَة : حُبٌّ عَلى مِثالِ حُبِّ الله

(يوحنّا ١٣ : ٣٤)

«إنّي أُعطيكم وصيّةً جديدةً: أحبّوا بعضكم بعضًا. ولكن كما أحببتكم أنا، أحبّوا، أنتم، أيضًا، بعضكم بعضًا».

كثيرةٌ هي الديانات التي أوصت بالمحبّة. ويسوع نفسه ما فتئ، طيلة رسالته، يردّد أنّ حبّ اللّه وحبّ القريب متلازمان، متكاملان، يختزلان الشريعة والنبوءات كلّها. فهو، الإله والإنسان معًا، يرى في حبّ اللّه وحبّ القريب، حبًّا واحدًا.

فما الجديد، إذن، في وصيّته التي أطلقها عشيّة موته، ولكأنّها وصيّته الأخيرة؟ الجديد أنّه اقتضى حبًّا ليس من نمط حبّ البشر الذي لا يسعه إلاّ أن يكون مشوبًا بنقصٍ وأنانيّةٍ، بل حبًّا على غرار حبّ اللّه، على غرار حبّ يسوع، حبٍّ حتّى النهاية، حتّى بذل الذات، حتّى الموت حبًّا. فقد أطلق يسوع وصيّته هذه، وهو مقدمٌ على الآلام، والمهانة، والصلب، والموت، حبًّا بالبشر.

الحبّ الذي أوصى به يسوع ليس حبًّا بقياس قلب البشر، بل بقياس قلبه الإلهيّ، أي بلا قياسٍ. فيسوع هو الحبّ، وقد صار إنسانًا، لكي يضفي على الحبّ وجهًا محدّد الملامح. ويسوع هو الحبّ لأنّه اللّه، واللّه، في جوهره، حبّ. اللّه ثلاثة أقانيم يوحّدهم الحبّ، ويسوع قادم من ملكوتٍ حيث الحبّ هو الواقع الوحيد.

نبع العطاء يهب ذاته أكثر فأكثر. هكذا هو الآب، والابن يستجيب لـه بسخاء استقبالٍ. فالإنجيل يحفل بتمجيد الابن للآب، وشكره لـه، والرغبة في اقتسام حبّه الجمّ مع البشر أجمعين: «**قد عرّفتهم اسمك، وسأعرّفهم إيّاه، أيضًا، لكي تكون فيهم المحبّة التي أحببتني، وأكون، أنا فيهم**» (يوحنّا ١٧ : ٢٦).

ولئن كان الحبّ، لدى البشر، إمكانيةً، أو ميلاً، إلاّ أنّ اللّه بطبيعته حبٌّ. إنّه يحبّ مثلما نحن نتنفّس.

العشاء الأخير

(المدرسة الفرنسيّة)

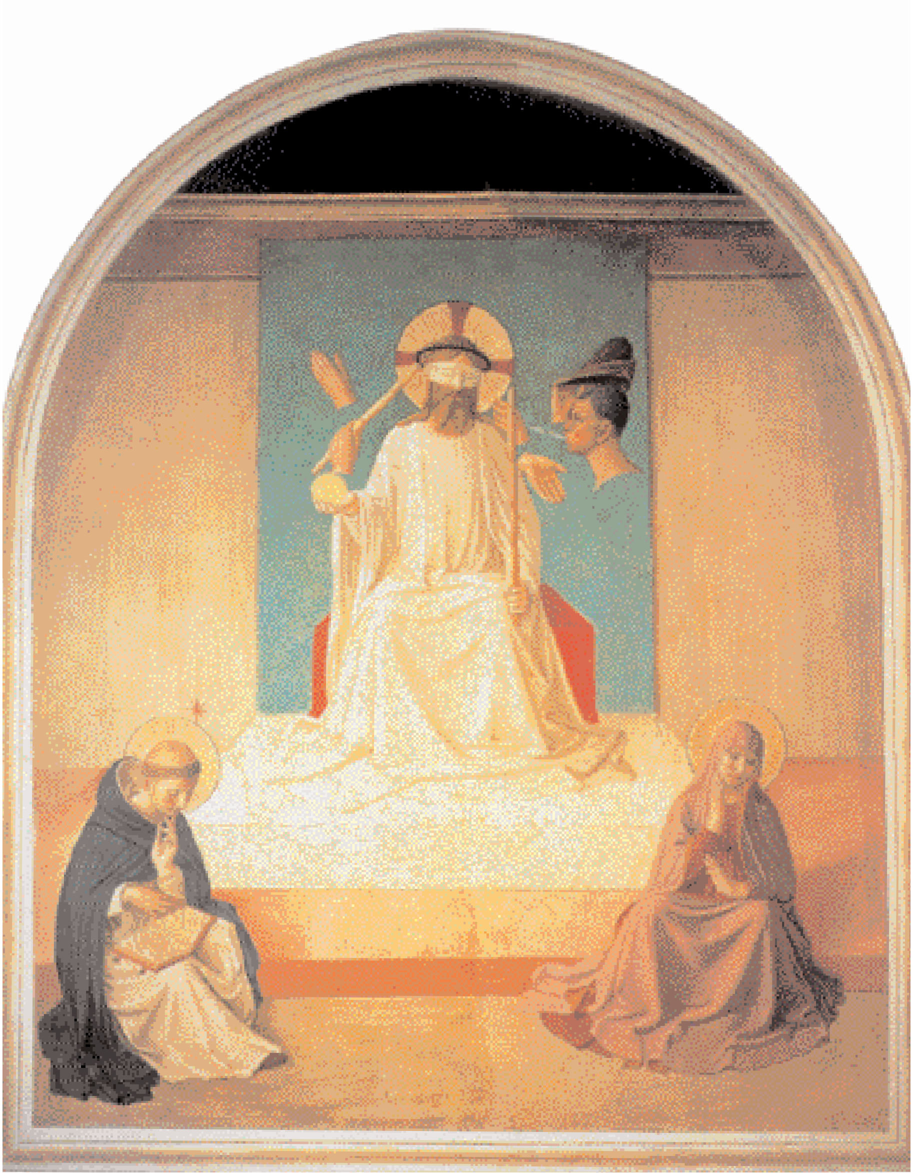

إهانات يسوع (بريشة فرا أنجيليكو)

إنّه ذاك الذي قال عنه القدّيس أوغسطينُس: «إنّه فيّ أكثر ممّا أنا في نفسي»، يسكن فينا، ويدعونا إلى التوغّل في سرّ حبّه، وإلى تأمّل ذلك الحوار الذي يجعل كلاًّ من أقانيم الثالوث يهب الحياة، ويتلقّاها، وإلى الامتلاء بذلك الحنان اللانهائيّ، كي نصبح، بدورنا، استقبالاً وعطاءً.

لقد أحبّ يسوع بلا تحفّظٍ ولا حدودٍ. أحبّ الجميع بلا استثناءٍ، حتّى الأعداء، وبمعزلٍ عن أيّ اعتبارٍ لفئةٍ، أو جنسٍ، أو لفضيلةٍ أو خطيئةٍ، أو لمركزٍ اجتماعيٍّ، لا بل إنّه آثر بحبّه المحرومين من الحبّ: المستصغَرين، والمستضعَفين، ومن ينبذهم البشر. أحبّ الإنسان لذاته، لجوهره الإلهيّ، وأحبّ كلّ إنسانٍ كأنّه ذاته.

حبّه هذا جلب له عداوة زعماء اليهود، وبغضهم، وكيدهم، وانقلاب شعبه عليه؛ وسبّب له الجلد، والبصاق، والشتيمة، والشماتة، وسفاهة الرعاع، وقحة الرؤساء واضطهادهم؛ وأوصله إلى عار الصليب، غير أنّه، في هذا الحبّ، توسّم مجده ومجد أبيه، مجدًا وضيعًا، فقيرًا، خفيًّا في نظر الناس، ولكنّه إلهيٌّ يُغدق على البشر حياةً وخلاصًا.

* *

وَصَف يسوع وصيّته بالجديدة، وليست جدّتها في الزمن والتوقيت، بل في كثافة الحبّ الذي أوصى به، وفي نقائه. فإن كان الحبّ امتثالاً لأمرٍ، أو التماسًا لثوابٍ، وليس للقلب دورٌ فيه، فهو ليس حبًّا. فكم من الجمود، والبرودة، في بعض أعمال التضحية والإحسان، التي تؤدّى بدافع الإرادة، وممارسة الفضيلة فحسب، وبمعزلٍ عن عذوبة نور المودّة الصادقة! فالحبّ الحقّ هو حبّ الآخر لذاته، ومحاولة اكتشاف فرادته.

وصيّة يسوع جديدةٌ، لأنّها ليست إضافةً إلى الوصايا الأُخرى التي تفصّل الواجبات نحو الله، ونحو القريب، ولأنّها تندرج في بُعدٍ آخر للإنسان، ولأنّها دعوةٌ إلى حياةٍ متحوّلةٍ، إلى تجدّدٍ إنسانيٍّ؛ إنّها إيقاظ الكائن العميق في الإنسان، وإضرام النار في أوصاله، وهزٌّ للضمائر الغافية، وتصدٍّ للمظالم، وتقويضٌ للشكليّات النخرة.

الحبّ الذي جعل منه يسوع وصيّته الجديدة، يُفضي إلى ولادةٍ جديدةٍ.

والحبّ الحيّ لا يسعه إلاّ أن يكون، أبدًا، جديدًا، متجدّدًا. فهو نسيج مبادراتٍ جريئةٍ مطّردةٍ، وإبداعٍ لا يفتر. الحبّ دائم الشباب، مثل الله، والمحبّون لا يشيخون.

وصيّة يسوع الجديدة هي الحبّ على مثال حبّه، وحبّه لم يعهد له البشر نظيرًا، لأنّه تماهى بالمحرومين من الحبّ، ولأنّه تخطّى كلّ الحدود البشريّة، وأيضًا، لأنّه قاد إلى معاهدةٍ جديدةٍ بين الله والإنسان، إلى شراكةٍ مع الله لم يرقَ حتّى إلى تمنّيها خيالُ البشر الأكثر جسارةً وطموحًا.

* *

بتبنّيه الطبيعة البشرية، تضامن يسوع تضامنًا فائق الطبيعة مع البشريّة جمعاء. ولذلك اتّخذ من المحبّة العلامة المميّزة لأتباعه: «**فإذا أحببتم بعضكم بعضًا عرف الجميع أنّكم تلاميذي**» (يوحنّا ١٣ : ٣٥).

لقد جسّد يسوع، أروع تجسيدٍ، الطهر، والزهد، والتواضع، والوداعة، وسائر الفضائل، ومع ذلك لم يختر لأتباعه علامةً مميّزةً سوى المحبّة، لأنّه رأى فيها ضمانة خلاص البشريّة، وسلامها.

ومنذ ذلك اليوم تعيّن على الجماعات المسيحيّة أن تكون بُؤَر محبّةٍ، بلا حدودٍ، لأنّها تلقّت حبّ الله اللامحدود، وكُلِّفت بنشره في كلّ أرجاء المسكونة، بحيث يُشرق كلّ يومٍ جديدًا.

وقد نفّذ المسيحيّون الأوّلون هذه الوصيّة بكثافة، بحيث كانوا ينتزعون ممّن يشاهدونهم صيحة إعجاب: «**انظروا كم هم متحابّون!**».

إنّ الحبّ الذي أورى شعلته يسوع هو الدليل الأبرز على عبوره بكوكبنا. فبفضل ذلك الإنسان الاستثنائيّ في ميدان المحبّة، أصبح الله حاضرًا للبشر حضورًا فائقًا، وبات أصدقاؤه يشاهدون وجهه في كلّ مفتقرٍ إلى الحبّ، وينظرون إليه مثل نظرة يسوع إليه، ويسكبون عليه حنانًا مثل حنانه.

حنانٌ على الصغير لمساعدته على النموّ، وعلى الجريح لمساعدته على الشفاء، وللخاطئ لمساعدته على الإنابة إلى السراط السويّ، وعلى المحتضر لإشعاره بحضورٍ مؤاسٍ، في تلك اللحظات العصيبة.

الحبّ يمسي حنانًا عندما يكون قوّة الضعيف، وعينَي الأعمى، ورجاء اليائس، وانتشال القانط من البؤس.

كلّ كلمةٍ، وكلّ حدثٍ في الإنجيل يوضحان ملامح الحنان الذي صار بشرًا: الأب الذي يقيم مأدبةً للابن الضالّ العائد؛ الزانية التي أنقذها من الرجم كي يحرّرها من الخطيئة؛ زكّا الذي قلب جشعه بذلاً سخيًّا، وحوّل مجرى مصيره؛ صفحه عن صالبيه لأنّهم ما كانوا يدركون ما يفعلون. كلّ ذلك عرّضه لاستنكار المجتمع المرائيّ، فالتحالف مع المنبوذين يودي بصاحبه إلى النبذ، غير أنّ الحنان، عند يسوع، مُطلَقٌ، لا يحول دونه شيءٌ.

وبفضل الحنان يتحوّل العنيف رقيقًا، والوحش الكاسر أليفًا.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

وما برحت وصيّة يسوع، منذ ألفي عام، تنسج كلمات حبٍّ يتبادلها البشر، وما زالت تُضرم قلوبًا، نظير قلبه، تفيض حنانًا، وتحقّق المعجزات، وتلد أبطال محبّةٍ في كلّ جيلٍ، وتفجّر قدراتٍ ثوريّةً هائلةً تعيد للمجتمع توازنه وسناه.

وما أحوجنا إلى مزيدٍ من تلك القلوب الملتهبة بحبٍّ نظير حبّ يسوع! فأيّ قشعريرةٍ قاتلةٍ تسري في أوصال المجتمع عندما لا تكون أفراح الآخرين هي أفراح كلّ فردٍ، وأحزانهم أحزانه! وأيّة صحراء موحشةٍ ينقلب كوكبنا عندما يغيب عنه روح المحبّة!

نحن، اليوم، في ملكوت الحبّ، متخلّفون، أمّيّون. وفي كلّ لحظةٍ يفضح من هم حولنا خواءَ قلوبنا، التي، وإن هي احتفظت بأثرٍ للحبّ، فهو حبٌّ باهتٌ قصير الإشعاع، ولا تضيء جذوته سوى وجوهٍ قليلةٍ. والذين لا نحبّهم يعلنون لنا، بحزنهم، أو بعدائيّتهم، أنّ الوقت قد حان لكي نعود إلى الله، منبع كلّ دفءٍ، وبؤرة كلّ حرارةٍ. فمرآة الحبّ الإلهيّ مهما أبلاها البشر، وأمعنوا في تلطيخها وتحطيمها، يظلّ أثر الله ماثلاً بين شظاياها، يمارس سحره ومعجزاته.

لقد علّق القدّيس يوحنّا، بعباراتٍ رائعةٍ، على وصيّة معلّمه الإلهيّ، فكتب، في رسالته الأولى: «**أيّها الأحبّاء، لنحبّ بعضنا بعضًا، فإنّ المحبّة من الله، وكلّ من**

يحبّ فهو مولودٌ من اللّه، ويعرف اللّه. من لا يحبّ لم يعرف اللّه، لأنّ اللّه محبّةٌ. بهذا ظهرت محبّة اللّه في ما بيننا: بأنّ اللّه أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لنحيا به. على هذا تقوم المحبّة: لا أنّنا نحن أحببنا اللّه، بل هو نفسه أحبّنا، وأرسل ابنه كفّارةً عن خطايانا.

«**أيّها الأحبّاء، إن كان اللّه قد أحبّنا إلى هذا الحدّ فعلينا، نحن أيضًا، أن نحبّ بعضنا بعضًا... فإن نحن أحببنا بعضنا بعضًا، أقام اللّه فينا، وكانت محبّته كاملةً فينا.... إنّ اللّه محبّةٌ: فمن ثبت في المحبّة ثبت في اللّه، وثبت اللّه فيه**».

إنّ وصيّة يسوع ما فتئت جديدةً ملحّةً، بعد عشرين قرنًا، بل هي أكثر جدّةً وإلحاحًا من أيّ يومٍ، وهي بارقة الأمل في إصلاح العالم، وفي شفائه من أوصابه. فلعلّها تهزّ قلوبنا، وتوقظ خمولنا، وتدفعنا إلى خلق بشريّةٍ جديدةٍ، سُنّتها الحبّ، كما أحبّ يسوع العالم.

وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي حَيًّا، وَتَحْيَوْنَ...

(يوحنّا ١٤: ١٩–٢٠)

عندما صُلب يسوع، خُيِّل للكثيرين أنّه انتهى، وتوارى، إلى الأبد، في غياهب الماضي. ولكنّ أصدقاءه رأَوه، بعد أن غلب الموت، ونهض منتصرًا، ورسّخ في قلوبهم يقينًا وطيدًا بأنّه حيٌّ إلى الأبد، وحاضرٌ بين ظهرانيهم.

إنّه حاضرٌ في إنجيله الذي ما برح يفجّر النور، وفي سرّ القربان، منبع الحياة الدفّاق، وفي كلّ صغيرٍ، مستضعَفٍ، محتاجٍ، محرومٍ من الحبّ، في أولئك، الذين فيهم تمثّل.

وهو حاضرٌ في علاقة الحبّ الشخصيّة، المباشرة، التي اقتضى من كلّ مؤمنٍ أن يعقدها معه. فهو الكرمة، وكلّ مؤمنٍ به هو الغصن المرتبط به ارتباطًا مباشرًا حيويًّا، كي يستمدّ منه النسغ والنموّ، والخصب.

بالحبّ يقيم يسوع فينا، ويغدو لنا معين حياةٍ، وبالحبّ نحن نحمله في قلبنا وذهننا. فالحبّ الحقّ هو من الكثافة بحيث يجعل المحبوب حاضرًا، بقوّةٍ، حتّى وهو غائبٌ، ناءٍ.

لكلٍّ منّا معلّمون يسكنوننا بلا فكاكٍ. لقد أيقظونا على المعرفة، والحكمة، والحياة، وإثر غيابهم، أمسى حضورهم أكثف في ذاكرتنا، وباتت رسالتهم أشدّ وقعًا في نفوسنا.

سابقًا هم هدونا إلى استقلاليّة الفكر والوجدان، واليوم، هم لا يُملون علينا سلوكنا، بل يُلهموننا، ويحثّوننا، ويواكبوننا، داخليًّا، وما زلنا نتلقّى منهم خير ما عندهم.

إنّهم ينفثون فينا الحياة أكثر ممّا كانوا يفعلون وهم بين ظهرانينا. إنّهم ينشطون فينا،

حتّى ونحن نبتدع أسلوب حياتنا. الصداقة، والمودّة، والمحبّة التي كانت تربطنا بهم، تظلّ خصبةً، بقوّة الروح.

هكذا هو أمر يسوع الذي صعد نحو الآب، بيد أنّه ما انفكّ حاضرًا فاعلاً في قلوب محبّيه، المحدّقين إليه.

إنّه حاضرٌ في صميم الذات، في سرّ القلوب، وفي كلّ عملٍ معطاءٍ.

إنّ الحبّ الذي يقتضيه يسوع، ويغذّيه حضوره، ليس عاطفةً سطحيّةً، مبهمةً، بل إنّه حبٌّ فاعلٌ، يُترجم عملاً: «إن أحببتموني، حفظتم وصاياي»، وتمثّلتم بي.

لقد دعانا يسوع إلى حياةٍ هي ولادةٌ جديدةٌ مستمرّةٌ، وهي يقظةٌ ساهرةٌ، وتجرُّع ماءٍ متفجّرٍ، والتغذّي بخبز الحياة؛ وهي أن ندعه يغسل أقدامنا كي نصبح، على غراره، خدّامًا لإخوته، ويُطهّر أنفسنا كي نعكس نوره.

لقد أشرع لنا وجودًا جديدًا، على غرار وجود اللّه الذي اكتشفناه فيه.

وغدا لنا الدرب الوحيد، منه نتلقّى الحرّيّة، ومعه نبتدع حياةً قائمةً على المحبّة.

ويسوع حاضرٌ فينا بروحه الذي أرسله لنا، لكي يزوّدنا بالنور والمعرفة، وبالقوّة والثبات، فما من إنسانٍ يقوى على حفظ وصايا الربّ، بالاتّكاء على قواه الشخصيّة فحسب، بل لا بدّ له من سند روح الحقّ، المعزّي.

والمعرفة التي يوفّرها لنا الروح ليست معرفةً نظريّةً مجرّدةً، بل هي خبرةٌ إنسانيّةٌ عميقة الغور، وحرصٌ على تنفيذ ما يريده اللّه منّا، وتمهيدٌ لرؤيته وجهًا لوجه. وقد كتب القدّيس أوغسطينس، في هذا السياق: «حينئذٍ ستتسنّى لنا رؤية ما نؤمن به الآن. لا ريب أنّه، اليوم، في ما بيننا، ونحن فيه، غير أنّنا، اليوم، نؤمن به، وحينئذٍ سنعرفه. الآن نعرفه بالإيمان، ويومها سنعرفه بالمشاهدة. ما دمنا نعيش في الجسد الفاني الذي يُرهق نفسنا، فنحن نسير مع الربّ، نسير في الإيمان، لا في الرؤية الواضحة. أمّا حينئذٍ فسنراه مباشرةً، كما هو».

حضور يسوع المحيي لا يلمسه ويحيا به سوى المؤمنين به والمنقادين لروحه. وما أكثر الذين يأبون الإيمان بيسوع! قد يُجلّه بعضهم، ويُبغضه بعضهم، ولا يقيم له آخرون

شأنًا ولا وزنًا. هؤلاء يتامى، محرومون من الحبّ، والرجاء. وما أكثر يتامى الحبّ في عالمنا اللامبالي!

لكيلا يدع يسوع تلاميذه يتامى، بعد رحيله عن أرضنا، أرسل لهم روحه. وبفضل الروح ستكون مسيرة المؤمنين مع يسوع، دائمًا، فاعلةً، معاصرةً، قادرةً على مواجهة كلّ وضعٍ جديدٍ، لأنّ الروح يجعل أقوال يسوع حيّةً، بفضل مبادراتٍ دائمة الجدّة.

ومن خلال الروح سيظلّ المسيحيّون متّصلين مع يسوع بعلاقة حبٍّ متينةٍ، صامدةٍ، عبر الأجيال، مثل نارٍ تُدفئ وتُضيء.

عِندِي أشيَاءُ أخرَى كَثِيرَةٌ أقولُها لكُم...

(يوحنّا ١٦: ١٢ – ١٣)

«إنّ عندي أشياء أُخرى كثيرةً أقولها لكم، ولكنّكم لا تُطيقون الآن حملها، فمتى جاء، هو، روح الحقّ، فإنّه يرشدكم إلى الحقيقة كلّها».

هذا البوح، في ساعة وداعٍ حميمةٍ، لا يعني وجود حقائق لم يُعلن عنها، بعد، بقدر ما يعني استيعاب ما أُعلن عنه، في العمق، في أغوار بحرٍ جمٍّ، ليس الكلام سوى زبده الواهي.

ولكأنّي بيسوع يقول: لا يزال لديّ ما أودّ انتزاعه من أغوار ذاتي الأبعد عمقًا، وأودّ اقتسامه معكم. ليس الوقت هو ما ينقصني، وليس لديّ الكثير ممّا أرغب في إضافته، بل أريد تكرار قول الجوهريّ إلى ما لا نهاية، لكي تكون، دائمًا، لهذا الجوهريّ نضارة الصباح المشرق.

إنّه جَيَشانٌ لا يجد السبيل إلى التفجّر، فما أودّ قوله لا يمكن أن يُقال الآن، لأنّكم ما زلتم غير متمكّنين من فهمه، أو من الشعور به، بالكثافة والوضوح اللّذين أتمنّاهما. ما أرغب في الإعلان عنه هو ذاتي الجوهريّة التي يتعذّر وصفها.

* *

ما كان التلاميذ عاجزين عن احتماله هو تلك المرحلة المريعة، الوشيكة، حيث ستتشابك، بلا رحمةٍ، الاتّهامات، والإدانات، والآلام، والموت، أي تلك العتبة المظلمة الممهّدة للقيامة.

وما كانوا عاجزين عن فهمه هو ملء نور الله، وكلّ الحقيقة عن سرّ أبيه، ولا نهائيّة حبّه.

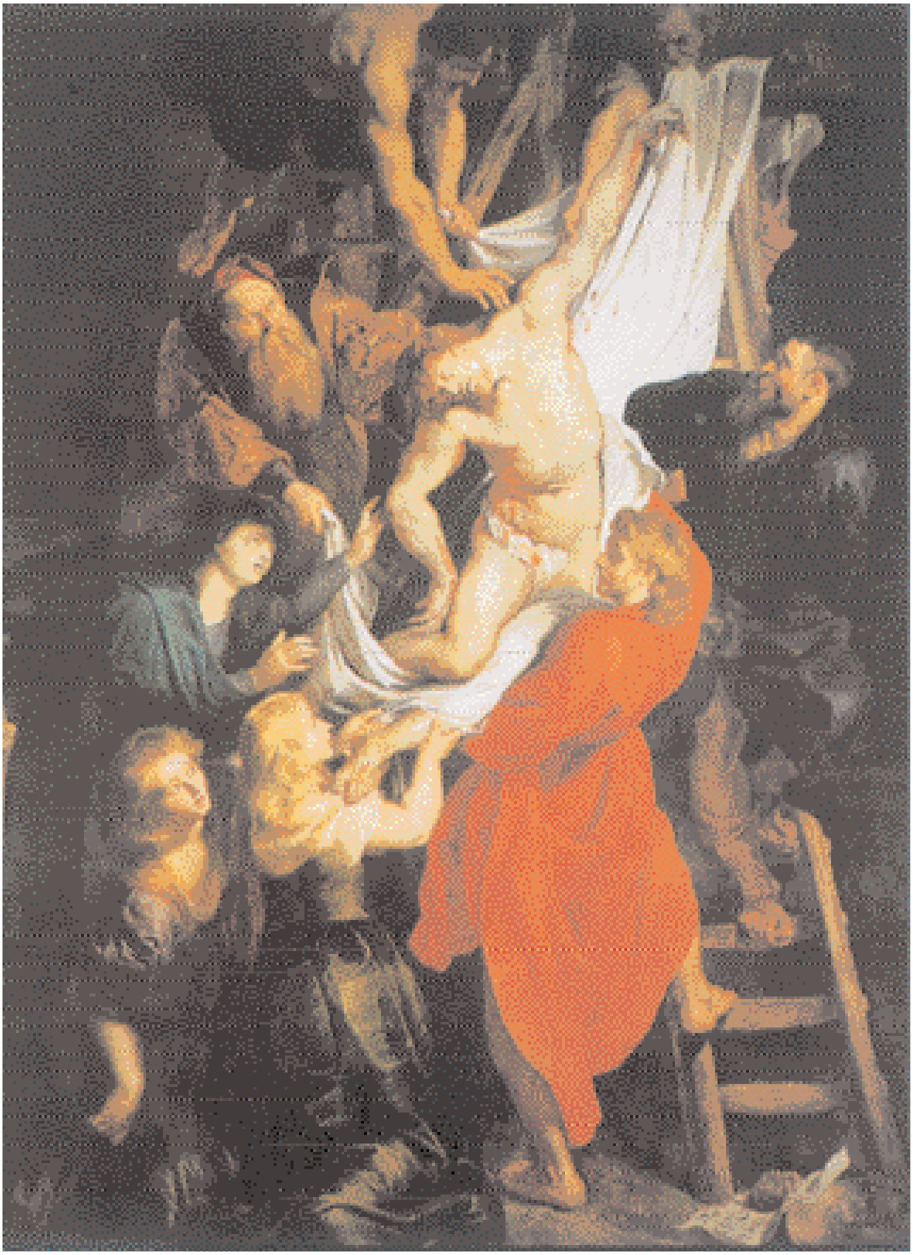

إنزال يسوع عن الصليب (بريشة روبنس)

جسد المصلوب في حضن أمّه (بريشة ڤوارتون)

ولكنّ يسوع لن يدع كلّ شيءٍ مستغلَقًا على مداركهم طويلاً، بل وعدهم بروح الحقّ الذي سيرشدهم إلى الحقيقة كلّها، وسيكمل الوحي، ويتمّمه.

الروح سيهمس بالحقيقة لمن سيعيرونه آذانًا مصغية، شيئًا فشيئًا، حسب طاقة كلّ فردٍ، وسيقطّرها في الضمائر والقلوب، مثل أكسيرٍ محيٍ، وتبعًا للأحداث السعيدة أو المحزنة.

لقد أفضى يسوع بالجوهريّ عنه وعن الآب، ولكنّ هذا الجوهريّ ليس كنزًا يودع، بحرصٍ، في صندوقٍ، أو يُدفَن في غمدٍ فاخرٍ، بل هو نبعٌ دفّاقٌ لا ينضب. والروح الذي لا يني يعرّف بيسوع سيولّد جوعًا وعطشًا لا يرتويان إلى المزيد من معرفته، وسيُشيع، في صدور المؤمنين، حضور قاهر الموت، وسيجلو كنهَ هذا الحضور، وما يعنيه، في الحياة اليوميّة، وفي أحداث التاريخ الكبرى.

إنّه حضورٌ كتومٌ، ولكّنه منيعٌ، حضور سلامٍ وحبٍّ؛ حضورٌ يولّد الحياة.

الوعد الذي قطعه يسوع لأصدقائه بإرسال روح الحقّ أشرع أمام تاريخ البشر، نورًا لا ينضب، وبثّ التلاميذ، الذين كان المعلّم يهمّ بمغادرتهم، رجاءً حارقًا، فالروح سيرشدهم إلى الحقيقة كلّها. سيقودهم، بتؤدةٍ وحزمٍ، إلى استجلاء سرّ الله، وإلى معرفته، لا معرفةً عقليّةً، بل معرفةً عمليّةً، وجوديّةً، تشرع لهم الدرب صوب أسمى تطلّعاتهم الروحيّة.

الروح يضيء سرّ يسوع، ويسوع ينير الحاضر والمستقبل، فهو كلمة الله إلى البشر.

الروح يرشد ويَهدي، لا بأقوالٍ، ولا ببسط حقائق وعقائد جديدةٍ، ولا بتبليغ علمٍ حديثٍ، بل بدفع المؤمنين على الطريق. ويسوع كان قد قال، يومًا: «**أنا الطريق**»، صوب الحقّ، والحياة، الطريق إلى الآب.

ذَاكِرَةُ المُسـتَقبَل

(يوحنّا ١٤: ٢٥ – ٢٦)

«قلت لكم هذه الأشياء، وأنا مقيم معكم، وأمّا البرقليط، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلّمكم كلّ شيءٍ، ويذكّركم جميع ما قلت لكم».

* *

باح يسوع بهذا القول، في لحظة وداعٍ حميمةٍ، مُثقلةٍ بالمستقبل.

كان قد بسط، بوضوحٍ، أمام تلاميذه تعاليمه ورؤاه، غير أنّهم كانوا عاجزين عن استيعابها، لأنّ الفكرة اليهوديّة، الراسخة في أذهانهم، عن المسيح المحرّر، العنصريّ، الذي سيعيد لشعبه أمجاده، ويغمره بالازدهار، كانت تُناقض، تناقضًا كلّيًّا، مخطّط الخلاص الإلهيّ، الذي تجسّد، هو ابن الله، كي ينفّذه.

لم يُمعن يسوع في إرهاق تلاميذه بحقائق لم يكونوا، بعد، مُؤَهَّلين لاكتناهها، ولكنّه كان واثقًا من أنّ قيامته ستهزّ وجدانهم، وستفجّر النور في نفوسهم؛ وكان متأهّبًا، هو نفسه، لكي يرسّخ، بظهوراته، القناعات التي حاول تسريبها إلى أذهانهم، ولكنّها استغلقت على مداركهم، فعجزوا عن تمثّلها. وفضلاً عن ذلك، شرع يُعدّهم لاستقبال روحه، الذي سيكمل تثقيفهم. وسيزوّدهم بالمنعة، وسيمكّن القناعات الجوهريّة من التوغّل إلى أعماق كيانهم، لكي تُخصب حاضرهم، وتضيء مستقبلهم، وتدفعهم، بعزيمةٍ وثباتٍ، على دروب رسالتهم.

وقد ذكّرهم الروح بكلّ ما كان الربّ قد بذره من حقائق في أثلام نفوسهم، وسلّط عليها أنواره الساطعة، وقادهم إلى ملء الحقيقة. وقد تجلّى عمله، من خلال تبشيرهم، وإنجازاتهم المدهشة، وبطولاتهم التي يزخر بها سفر «أعمال الرسل». فبفضل القيامة والعنصرة، واستنارتهم بروح الحقّ، وُلدوا من جديدٍ، وتوطّد يقينهم بتعليم الربّ، فاستطاعوا تبليغه بفهمٍ أعمق، وإقناعٍ أبعد نفاذًا.

* *

وما برح الربّ يذكّرنا به وبأقواله، ويُنفذ لنا روحه الذي يخلق ويعيد الخلق، ويُذكي فينا الفهم والذاكرة.

فالذاكرة هي التربة التي تتوارى فيها البذور المفلتة من يد الزارع، الحبوب المفرطة الصغر، الموعودة بالنموّ الخفيّ، والتي تبدو ميتةً في لحد الثلم. وفي تربة تاريخنا تنضج كلمات يسوع، ومُثُله.

كتب أحد اللاهوتيّين أنّ المسيحيّين، عندما يحتفلون بالإفخارستيّا، «يتذكّرون ما سيحدث». ويا لها من ذاكرةٍ متّجهةٍ نحو المستقبل! إنّها ذاكرة يسوع الذي استبق زماننا بألفيّاتٍ عديدةٍ. وها نحن نقتفي آثاره صوب الأفق الذي أرشدنا إليه. كان يريد أن يعود كلّ إنسانٍ، وأن تعود البشريّة كلّها، إلى الطفولة، إلى ولادةٍ جديدةٍ. مواقفه، ومبادراته، وأجوبته، كانت تُشيع عدوى هذه الحياة غير المنتظرة، حيث تمّحي التشنّجات، والقسوة، والندم، ذائبةً في الحرّيّة الأخويّة التي يتمتّع بها أبناء إلهٍ عطوفٍ يُغدق العطاء والصفح.

أهو حلمٌ طوباويٌّ؟ ربّما، ولكنّه حلمٌ يُخصب التاريخ، ولا يني ينعش البشر.

إنّ الروح يذكّرنا بما سيكون. إنّه، وسط الظلمة التي غالبًا ما نتعثّر في لجّتها، نارٌ تُحرق، وتُشيع الدفء والنور.

وكلّ من يطالع الإنجيل، مستهديًا بالروح القدس، عاملاً بإلهامه، يتجلّى الله في أقواله، وأفعاله.

اختِبارٌ لَا يُدْحَض

«من أحبّني، حفظ كلمتي، وأَحبّه أبي، وإِليه نأتي، وعنده نجعل مقامنا»
(يوحنّا ١٤: ٢٣)

* *

أقوال يسوع الوداعيّة تتدفّق كالسيلِ، وما أحرانا بأن نقيم سدًّا، لكي نحتفظ ببعضها، مدى ساعاتٍ، ونشبعها تأمّلاً. منها قوله: «**من أحبّني، حفظ كلمتي**»، أي التزم بها.

الحبّ والتعبير عنه متلازمان، لا فكاك بينهما. فالحبّ لا يولد ولا يدوم من غير تعبير. والكلام، بلا حبٍّ، لا يُفضي إلاّ إلى العدم، هذا إن لم يتحوّل بغضًا، ولامبالاةً، أو إن لم يصبح أَداة قتلٍ.

الكلام الذي يتغذّى بالحبّ، ينشر الحبّ، والحبّ، بدوره، يُبقي الكلام مضيئًا، محييًا، مثل نارٍ تهمّ بالاضطرام. إنّ كلمات الأشخاص الذين يحبّوننا ونحبّهم، تلتمع بألقٍ متوهّجٍ، وتدفئ القلب، وتدعم العمل.

«**من أحبّني حفظ كلمتي**». وذلك بدَهيّ. فكيف لا أحفظ، مثل جمرٍ متّقدٍ، في أعماق ذاتي، كلمات من أُحبّ ويُحبّني؟ وهل يسعني أن أودع، في زوايا النسيان والإهمال، كلمات المودّة والعطف؟

إنّ الاختبار الذي لا يُدحَض لحبّي ليسوع هو مدى التزامي بأقواله، ومدى ترجمتي لها أفعالاً، في حياتي.

بيد أنّ الكلمة التي طالب يسوع بحفظها ليست مجرّد عاطفة، بل هي، أيضًا، وصايا كثيرة الاقتضاء. وحبّه ليس بالأمر اليسير المنال، والفرح الذي دعانا إليه هو فرح التطويبات: أي فقرٌ طوعيٌّ، وزهدٌ، وبذلٌ، واستقامةٌ، وتضحيةٌ، ودموعٌ؛ إنّه ظمأٌ وجوعٌ إلى البرّ والعدل، وتعرُّضٌ للاضطهاد.

حبّ يسوع هو، أيضًا، عذابٌ ناجمٌ عن الشعور المرهق بعدم الحبّ بقدرٍ وافٍ.

وهو، أيضًا، لااستقرارٌ. فالالتزام بمن قال: «أنا الطريق»، هو السعي بلا هوادةٍ في إثره، على دربٍ تتباعد آفاقه باستمرارٍ.

غير أنّ هذا السعي يستأهل العناء. أوَ لم يؤكّد يسوع أنّ «**من أحبّني وحفظ كلمتي، أحبّه أبي**»؟ وليس هذا فحسب، بل تتوالى النتائج مذهلةً: «**ونأتي إليه، وعنده نجعل مقامنا**». هذا المقام ليس زيارةً عابرةً، أو مساكنةً مؤقّتةً، بل هو سكنٌ دائمٌ داخل الذات، حضورٌ كثيفٌ، حميميّةٌ وثيقةٌ، على نحو ما يقيم الآب في الابن، والابن في الآب، حضورٌ شخصيٌّ في كلّ فردٍ.

قال الرسول بولس: «**إنّا، نحن، هيكل الله الحيّ**».

ويأسف القدّيس أُوغسطينس لتأخّره في اكتشاف هذا الواقع الرائع، فيهتف: «**كم تلكّأتُ في حبّك، أيّها الجمال الموغل في القِدَم وفي الجدّة! لقد كنتَ فيّ، وأنا بحثت عنك خارج ذاتي، أنت كنت معي، وأنا لم أكن معك. كانت تمسكني عنك أشياء ما كانت لتوجد بمعزلٍ عنك. لقد دعوتني وصرختَ حتّى تغلّبتَ على صَمَمي. وقد تألّقتَ، وتوهّجت حتّى شفَيتَني من عماي**».

حبّ يسوع هو ما يميّز المسيحيّ. وثمّة وسيلةٌ وحيدةٌ لحبّه: أن نحمل بشراه في ذواتنا، وندعها تسكننا، ونعمل بمقتضاها. وحينئذٍ سيتحقّق سرّ الحبّ الإلهيّ، إذ سيجعل الآب والابن، فينا، مقامهما.

ساعة يسوع

«رفع يسوع عينيه إلى السماء، وقال: «يا أبتِ قد أتت الساعة، فمجّد ابنك، كي يمجّدك ابنك، ويعطي، بما أوليته من سلطانٍ على كلّ بشرٍ، الحياة الأبديّة لجميع الذين أعطيتهم له. والحياة الأبديّة هي أن يعرفوك أنت الإله الحقّ وحدك، ويعرفوا يسوع المسيح، رسولك» (يوحنّا ١٧ : ١–٣).

* *

رفْعُ العينين إلى السماء هو موقف الصلاة. والصلاة هي نسيج حياة يسوع. وتلك كانت صلاته الأخيرة على الأرض.

عينا يسوع تعبّران عن كلّ كيانه المتّجه نحو الآب. إنّهما محدّقتان، أبدًا، إلى العلاء، لأنّه دائبٌ على الصلاة الكثيفة، ولا سيّما عندما يُقدم على أمورٍ خارقةٍ.

«**أبت**»! بهذا النداء المفعم حنانًا، يستهلّ حواره مع الآب. وفي هذا النداء، يكمن سرّ تجسّده، ومغامرته البشريّة. وفي هذا السرّ يريد أن يقحمنا، كي يشركنا في معرفة الآب، وحبّه، ونِعَمه.

«**أبت**»: الآب يملأ كلّ كيان يسوع الذي تجرّد كلّيًّا عن ذاته، كي يتمركز في الآب، وبذلك تجلّى نموذجًا أمثل للحبّ الكامل الأسمى.

* *

«**قد أتت الساعة**». إنّها «ساعة» يسوع، تلك التي من أجلها تجسّد، وفي سبيلها فعل كلّ ما فعل؛ ولم يزايل طيفُها خاطرَه لحظةً واحدةً، مذ أجرى معجزته الأولى في قانا.

ظاهريًّا توالت أحداث حياته اتّفاقًا، بحكم الظروف، ولكن، في مخطّطه، كان كلّ شيءٍ يسير باتّجاه هدفٍ سيتحقّق في موعده، في يومه، في «ساعته».

ليست ساعة يسوع واحدةً من الساعات التي لا تني تكرّ وتتلاشى، ولا هي فترةٌ من فتراتٍ أُخرى تتعاقب على مدى القرون، بل هي ساعةٌ فريدةٌ في تاريخ الخليقة، لأنّها حاضرٌ أبديٌّ لا انقضاء له. إنّها الساعة التي قُهر فيها الموت، وتحقّق الخلاص. إنّها تتخطّى الموت، ولذلك هي أبديّةٌ، وكلّ لحظةٍ فيها أبديّةٌ.

وفي ساعة يسوع هذه نحن نقيم، وبها نحتفل احتفالاً كثيفًا، لا احتفالاً بحدَثٍ غابرٍ، من الماضي، بل بحدَثٍ نحياه الآن، وهنا. إنّها الساعة حيث حبّ الآب، أبينا، عبر ابنه الحبيب، انتصر على كلّ أشكال موتنا وخطيئتنا. وإن نحن أحسنّا استقبال هذه الساعة، عبرنا، مع يسوع، من الموت إلى الحياة.

علينا، نحن العائشين على سطح الزمن، التوغّل إلى أغوار اللحظة الحاضرة، كي نتلقّى عطيّة الله، أي ساعة يسوع التي تتفجّر في أعماقنا. وعندما يرتكز قلبنا، هكذا، على اللحظة الحاضرة، نتأهّب لمشاركة مشيئة الآب، ولتناول خبز الحياة الذي يوفّر لنا غذاءً جوهريًّا، يغدو بوسعنا اقتسامه مع إخوتنا.

«عطيّة الله» هذه نتلقّاها في صلاة القلب التي تشرعنا على الآخرين، وتُعتقنا من الانكفاء على ذواتنا. يسوع هو الذي نتلقّاه. فيه نقيم، وفي محرابه يحفظنا الآب، ومنه نُشعّ على الآخرين، ونحملهم في قلوبنا، ونخدمهم.

بصلاة القلب نتّحد بصلاة يسوع، ونسمو صوب الآب.

* *

«**فمجّد ابنك، كي يمجّدك ابنك**». من يجسر أن يطلب من الآب تمجيده سوى ابنه؟ يسوع إلهٌ مساوٍ لأبيه، ومن عين جوهره، ولم يكفّ، منذ مولده، يظهر ألوهته التي تجلّت تجلّيًا ساطعًا في قيامته، ممّا أتاح للإنجيليّ يوحنّا أن يهتف: «**وقد رأينا مجده، مجد ابنٍ وحيدٍ آتٍ من الآب**» (١: ١٤).

ومجد يسوع يتحقّق بصلبه وقيامته، المتلازمَيْن بلا فكاكٍ. ومجد الابن هذا يحقّق مجد أبيه، ويبرز عظمة حبّه.

الصليب والقيامة، إذن، هما مجد الآب والابن معًا.

لطالما قيس مجد البشر بمظاهر الفخامة والتعالي الجوفاء، التي يزدهي بها عظماء

الأرض. وما أبعد مجد الله عن ذلك الدخان المتلاشي، وعن ذلك اللألاء الزائف! بل مجده هو الصليب، لأنّ الصليب برهانٌ على الحبّ الأسمى. وبهذا المجد طلب يسوع من أبيه أن يمجّده.

أمّا تمجيد الابن للآب فيتحقّق بخضوعه له، وبتنفيذه مخطّطه الخلاصيّ، وبتجلّي ألوهته التي حُجبت طويلاً، من خلال قيامته، ومن خلال بشريّته التي امتلكت سلطةً إلهيّةً على كلّ خليقةٍ. ويمجّد الابن أباه، أيضًا، بتعريفه البشر به، وبمنحهم قدرة بلوغ الحياة الأبديّة، والمشاركة في المجد الإلهيّ.

لقد طلب يسوع تمجيد الآب له، «**كي يعطي الحياة الأبديّة لجميع الذين أعطاهم الآب له**». يسوع، الذي ستُسلب منه حياته البشريّة، بعد سُوَيْعاتٍ معدوداتٍ، وسيُذاق موتًا زؤامًا، والذي يعلن سلطته على كلّ حيٍّ، يُقبل طائعًا على الآلام والموت، كي يُغدق على جميع المؤمنين به حياةً لا تنتهي ولا تفنى، حياة سعادةٍ أبديّةٍ.

الحياة التي يبتغي يسوع إشراك أوليائه بها، هي حياته الإلهيّة التي يقتسمها مع الآب منذ الأزل. إنّها عطيّةٌ إلهيّةٌ، نعمةٌ، هديّةٌ مجّانيّةٌ، قد ترتدي شكل إلهامٍ، أو كلمةٍ تعرّف بالكائن الأسمى. وشرط الانتفاع بها هو حُسن تلقّيها، والحرص على الحياة بمقتضاها. الحياة الأبديّة هي، إذن، عطاءٌ وتلقٍّ، ومهمّتنا هي أن نتلقّى، ونعترف، ونؤمن، ونحفظ الهديّة المقدَّمة لنا.

* *

ويوضّح يسوع: «**والحياة الأبديّة هي أن يعرفوك، أنت الإله الحقّ وحدَك، ويعرفوا يسوع المسيح، رسولك**». والمعرفة، في مفهوم الكتاب، هي الاتّحاد الحميم بالكائن الذي تتمّ معرفته، ومشاركته مشاركةً كيانيّةً، وإعطاؤه كلّ شيءٍ، وتلقّي كلّ شيءٍ منه، والتزام كلّ الكيان به.

يسوع، وحده، يعرف جوهر الآب، لأنّه جوهره أيضًا، وهو وحده يعلنه، بكلّ كيانه، وبحياته، وأعماله. ويسوع هو وجه الله البشريّ. ومن ثمّ، بتأمّلنا بيسوع، وبإصغائنا إليه، وبالعمل بوصاياه، نبلغ إلى معرفة الآب.

الآب الذي يعلنه يسوع هو الإله الحقّ الأوحد، وما أكثر الذين يجهلونه ويعبدون أصنامًا من صنع أيديهم، وآلهةً زائفةً، ويلتزمون بمقدّساتٍ باطلةٍ!

معرفة اللّه ليست أفكارًا مجرّدةً، مبهمةً، عنه، بل هي معرفةٌ حيّةٌ، بسيطةٌ، غالبًا ما يمتلكها أصحاب القلوب الطاهرة، الذين احتفظوا ببساطة الأطفال. وما حياة الطفولة، في صمت القلب الذي يغمره حضور اللّه، إلاّ التسليم له بكلّ الكيان، جسدًا، وروحًا، وفكرًا، والتوافق مع مشيئته، والفرح بعمل ما يرضيه، وأن يكون فينا من المشاعر والاستعدادات ما في يسوع، وأن نرتدي أحشاء رحمته وحبّه.

بهذا السلوك الملتزم، يتطهّر قلبنا، ويتحوّل بفعل الروح القدس الذي نعطاه كي يسكن فينا، ويوجّه أفكارنا، وأفعالنا، ومشاعرنا، بحيث يغدو اللّه هو مسكننا الآمن، أينما كنّا على وجه الأرض التي تتحكّم بها الجحيم.

* *

ليست صلاة يسوع الوداعيّة صلاةً من الماضي، بل هي صلاة كلّ لحظةٍ، وهي بؤرة نور العالم، ومبعث رجاءٍ، ومعين «حياةٍ أبديّةٍ» تمكّن ملايين البشر من مواصلة السير كلّ يومٍ، بثقةٍ وجرأةٍ، تحت سماءٍ مطبقة الظلمة، وفي عتمات التاريخ التي تواكبهم.

أوَ ليست الحياة الأبديّة هي الاهتداء بهذا النور الهشّ، اللاماديّ، غير المتوقّع، المنبعث، في كلّ يومٍ وليلةٍ؟ أوَليست، أيضًا، أن يقدّم كلّ إنسانٍ ذاته نورًا للآخرين، مثلما أعطى يسوع، عشيّة صلبه، الحياة الأبديّة لكلّ مؤمنٍ؟

«مَمْلَكَتي لَيسَتْ مِنْ هٰذَا العَالَم»

(يوحنّا ١٨ : ٣٣- ٣٧)

أدرك اليهود أنّ بيلاطس لن يعير أيّ اهتمامٍ للتُّهم الدينيّة التي قد يُغرقون يسوع في لجّتها، فعمدوا إلى الافتراء، وادّعَوا أنّه يسعى إلى انتزاع الملك، وإلى إشعال فتنةٍ وطنيّةٍ. ولم يخفَ بُهتانُ هذا الادّعاء على الوالي الرومانيّ، ولكنّه لم يكن بوسعه تجاهله. ودفعه الفضول إلى تقصّي الأمر. فاستوضح يسوع عن التهمة المنسوبة إليه. وفي سكونٍ، ورباطة جأشٍ، وجلالٍ، ردّ يسوع على السؤال بسؤالٍ: «**أمن عندك تقول هذا، أم آخرون قالوه لك فيّ؟**». ولكأنّه يقول لـه: «هل أنت جادٌّ في ما تسأل؟ أَوَهل تبدو عليّ مخايل ملكٍ من ملوك الأرض؟».

في مفهوم البشر، ما أبعد لقب الملك عن يسوع! فالبشر يتعذّر عليهم تخيّل ملكٍ بلا تاجٍ من ذهبٍ مرصّعٍ بالأحجار الكريمة، وبلا عرشٍ يضاهي التاج فخامةً، وبلا بلاطٍ وجيشٍ. وما أبعد نجّار الناصرة، القرية المغمورة، عن سلطان الملوك وبذخهم! هم يولدون في أحضان العزّ والبحبوحة، وهو وُلد في مذودٍ، وكان مهده طبقةً رقيقةً من القشّ. هم يترعرعون في الرخاء، وهو قضى فتوّته وشبابه كادحًا في منجرةٍ ظليلةٍ كي يكسب لقمته، ولقمة أمّه. وما أبعده عن سطوتهم، وهو الذي امتطى، في يوم انتصاره الوحيد، متن جحشٍ! وبعد أيّامٍ معدوداتٍ جُلد، وتُوّج بالشوك، وصُلب خارج أسوار أورشليم! بل كم كان زيّه زريًّا حيال الوالي الرومانيّ الذي كان يحاكمه!

كيف تجرّأ اليهود، إذن، وادّعَوا أنّ ليسوع مطامح في الملك؟ أين هي رموزه وامتيازاته؟ أيّ مَلِكٍ هذا الذي يسخر منه جندٌ لا عهد لهم برحمةٍ، ويغرزون في رأسه إكليلاً من شوكٍ؛ ذاك الذي يسعى دهاقنة الدين والسياسة إلى تسميره على الصليب؛ ذاك الذي توّجت مأساته قمّة المكر والسخريّة، الكتابة الدنيئة: «هذا هو ملك اليهود»؟

بيلاطس نفسه استشفّ، في ذاك الماثل أمامه، نفس مَلِكٍ، من نمطٍ فذٍّ، يسمو

فوق كلّ ملوك الأرض. ولاسيّما بعد أن أعلن، بجلالٍ، أمام ذاك الذي كان يملك أن يميته أو أن يبقيه حيًّا: «**أجل، إنّي ملكٌ، وإنّي لهذا وُلِدتُ، ولهذا جئت إلى العالم: أن أشهد للحقّ**».

* *

لطالما اندفعت الجماهير، في أعقاب المعجزات الباهرة التي كان يُجريها يسوع، إلى محاولة تنصيبه ملكًا، ولكنّه كان يتوارى، ويعتكف على جبلٍ، أو في قفرٍ، وحيدًا مع أبيه، فهو يأبى أن يكون الملك الجبّار العنصريّ الذي يترقّبه اليهود، والذي من شأنه إثارة ريبة بيلاطس وأمثاله؛ وهو يرفض مُلكًا على صورة ممالك «العالم»، قائمًا على القوّة، والفخامة، والسيطرة، ومنعة الجيوش، وسعة الفتوحات.

لقد شبّه الأنبياء ملوك الأرض بالكواسر، والحيوانات المفترسة، لذلك عرَّف يسوع نفسه بأنّه «ابن البشر»، فسلطانه إنسانيّةٌ، وعطفٌ، وحبٌّ. وملكه ينهض على أسس الحقيقة الخالدة، والشهادة لها، والوفاء لمشيئة الآب.

يسوع ملكٌ، لأنّه يشهد لله، ويواكب المؤمنين بلا هوادةٍ. إنّه ملكٌ خادمٌ، محرِّرٌ، ملك الحبّ الذي يهب ذاته، ويعطي كلّ شيءٍ، ويصفح عن كلّ شيءٍ.

«**مملكتي ليست من هذا العالم!**». ملكه يأتيه من خارج الأرض، من حيث جاء، هو الموجود أزليًّا. ملكٌ يتحقّق بنشر بشرى الخلاص، التي تجعل ممّن يرحّبون بها أعضاءً في مملكة الربّ، لا في آخر الأزمنة، بل في الحال. هؤلاء هم من ينتمون إلى الحقيقة، ويُصغون إلى كلمة الوحي.

* *

لقد حرص يسوع على تنزيه رسالته من كلّ مطمحٍ أرضيٍّ أو سياسيٍّ، وعلى تمثّل تلاميذه به في هذا المضمار، فأوصاهم: «**تعلمون أنّ أراكنة الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلّطون عليهم. وأمّا أنتم، فلا يكُنْ فيكم مثل هذا، بل من أراد أن يكون فيكم كبيرًا، فليكن لكم خادمًا...**» (متّى ٢٠: ٢٥– ٢٦).

ومع ذلك، ما انفكّ بعض سلاطين الأرض يحاولون تنصيب يسوع ملكًا أرضيًّا يرعى مصالحهم ويضمنها، ويكونون هم، له، وزراء مفوَّضين. ولطالما جعلوا منه،

عبر التاريخ، ملكًا من كلّ صنفٍ، بفضل أبشع الانحرافات الرامية إلى تمويه العنف؛ مع أنّه، على الصليب، أظهر، بأجلى وجهٍ، وفي أجمل حلّةٍ، الملكوت الذي جاء كي يُقرّه: ملكوت غفرانٍ، وسلامٍ، ومحبّةٍ. لقد مات منتصرًا على ضغائن البشر، وحبًّا بهم. وفي غمرة حرص أعدائه على تدميره، تلفّظ بعباراتٍ تقطر حبًّا صافيًا. فعن جلاّديه قال: «**اغفر لهم، يا أبتِ لأنّهم لا يدركون ما يفعلون**». وللّصّ التائب المصلوب معه أعلن: «**اليوم تكون معي في الفردوس**»! ولا يني يسوع يردّد على مسامعهم: ماذا تبتغون منّي؟ فأنا «**مملكتي ليست من هذا العالم**».

إنّ يسوع ملك مملكةٍ يحتلّ فيها الصفح محلَّ الضغينة، والعطف محلَّ العنف، والخدمة محلَّ السلطة، وكلّ شيءٍ فيها سلامٌ. مملكة يسوع هي مملكة الحبّ.

* *

اليهود نصّبوه ملكًا بجلده، وتتويجه بالشوك، ورفعه على الصليب.

أمّا نحن فننصّبه ملكًا على قلوبنا، بما نوليه من إيمانٍ وثقةٍ، ونكرّمه بالإصغاء إليه، وبتوفيق حياتنا، في كلّ مناحيها، مع الحقّ الذي شهد لـه، حتّى التضحية بالذات إن اقتضى الأمر.

ونُعلنه ملكًا بإنكارنا ملوك الزيف: المال، والرفاه، والحياة السطحيّة، والنجاح الدنيويّ.

لقد قتل اليهود «ملك اليهود» على الصليب، ولكن كم من عرشٍ ملكيٍّ هزّه الصليب! وكم كان نور درب الصليب الملكيّ حارقًا! وكم من ملايين البشر جعلوا من قلوبهم عرشًا للمصلوب، ملك الكون!

لِـمَ صُـلِبَ يَسُـوع ؟

حُكم على يسوع بالصلب قبل محاكمته.

محاكمته بدأت قبل عقدها في السنهدرين، وستستمرّ حتّى آخر الأزمنة.

مذ فتح شفتَيْه بالبشارة بدأت محاكمته، فمنذ الوهلة الأولى كان موضع معارضةٍ، ومصدر إزعاجٍ وخلافٍ.

طالما مكث في الجليل، كان في مأمنٍ من رؤساء اليهود طالبي قتله، وكانت البحيرة تفصل بينه وبينهم. ولكنّه يوم «**ثبّت وجهه للمضيّ إلى أورشليم**»، كان يمضي طوعًا إلى حتفه، وما من مكانٍ، أكثر من أورشليم، يليق بصليبٍ يُطلّ على العالم أجمع.

لقد صُلِبَ، لأنّه انتهج دربًا من الجدّة بحيث كان اتّباعه يقتضي الإيمان بإلهٍ مختلفٍ عن ذاك الذي أَلِف اليهود عبادته، وبدا كلّ سلوكه تجديفًا بحقّ إله الآباء، والتقاليد المستقاة منه.

صلبوه لأنّه التمس مشيئة اللّه العليا، مزريًا بسلطة موسى والتوراة؛

لأنّه لم يأتِ كي يلبّي مطالب البشر بالبحبوحة، بل لكي ينشر كلمة اللّه، فهي غذاؤه، بل الغذاء المطلق. وقد نبذه البشر وصلبوه لأنّه آثر كلمة أبيه على متطلّباتهم؛

ولأنّه أكّد أنّ لديه ما هو أعظم من سليمان، ومن الهيكل؛ ولأنّه وضع روح الحبّ فوق حرف الشريعة، ووضع فتاوى الكتبة في موضع شكٍّ؛ ولأنّه عاشر المنبوذين دينيًّا واجتماعيًّا، مؤثرًا الفقراء على الأغنياء؛

لأنّه عرّى رياء الكتبة والفرّيسيّين، وجرّد الفضيلة من مظاهر التقوى الجوفاء؛

ولأنّه خاطب النساء مخاطبته لمحاورين جادّين، محطّمًا تفوّق الذكور....

صلبوه لأنّه أثبت بمعجزاته، وبسموّ سلوكه الفريد، أنّه إلهٌ، ولأنّه آثر تنفيذ مشيئة

الآب على كلّ اعتبارٍ، وكلّ مجدٍ عالميٍّ، ولم يرضَ بأيّة مساومةٍ، ولم يكن أيّ فاصلٍ بين حياته وموته، فكان الصليب امتدادًا لرسالته؛

لأنّه دعا إلى التحرّر من نير الشريعة الذي يزهق روح الإنسان، ولا يقرّبه من الله، قيد أنملةٍ؛

لأنّه روّج للحرّيّة، وأرسى أسسها حيث كان الأسياد حريصين على المضيّ قُدُمًا في استعباد البسطاء والمستضعَفين؛

لأنّه زعزع كلّ ما تشبّث به زعماء اليهود، وجمّدوه: الله، والدين، والحياة؛

لأنّه خلخل أركان سلطتهم، ومسلّماتهم، وهيكليّاتهم، وامتيازاتهم، وقلب كلّ معايير قِيَمهم، رأسًا على عقبٍ؛

لأنّه، وقد أعلن نفسه ابن الله ومسيحه، لم يتورّع عن مخالطة حثالة المجتمع، في حين كان الفرّيسيّون يرَون في الله الهيمنة، والتعالي، والنأي عن كلّ نجسٍ. فهم كانوا يُجلّونه بشفاههم مردّدين: «قدّوسٌ، قدّوسٌ، قدّوسٌ»، بعد أن أفرغوا قداسته من محتواها، ولم يحافظوا منها إلاّ على مظاهر نافلةٍ، جوفاء؛

صلبوه، لأنّه مذ خرج من قريته، وباشر رسالته، شرع يعلن عن مجيء الملكوت، ولكأنّ الله في متناول أيٍّ كان، بلا قيدٍ، ولا طقوسٍ، ولا اقتضاء شهادة حسن سلوكٍ من الكهنة والعلماء، ولا تبحُّرٍ في تفاسير الكتبة للشريعة؛

معاشرته للعشّارين، ورفضه إدانة الزانية، وتصدّيه الجريء لنفاق الكهنة، ورياء الفرّيسيّين، وضلال الكتبة، كانت الطريق المفضي تلقائيًّا إلى الجلجلة؛

صلبوه، لأنّ الشعب البسيط، بفطرته وحدْسه الثاقب، أَحبّه بصدقٍ، وافتُتِن بسحره وشفافيّته. ولأنّ الذين ازدراهم ذوو النفوذ والعلم، وجدوا لديه القلب العطوف، واليد الشافية، فإذا بالعميان يُبصرون، وبالصمّ يسمعون، وبالبكم يتكلّمون، وبالعرج يسيرون سيرًا سويًّا، وبالمقعدين ينتصبون واقفين ويتوثّبون، وبالبرص يطهرون، وبأمواتٍ يقومون؛

صلبوه، لأنّه روى أمثالاً أخّاذة تُظهر أنّ الله يمضي، بلا تحفّظٍ ولا مقدّماتٍ، نحو النعجة الضالّة، ويستقبل، بلهفةٍ وعناقٍ، الابن العاقّ العائد، ويقيم له المآدب

والأفراح. ولأنّه، هو ذاته كان يجلس إلى موائد العشّارين، ويواسي المرضى المعتَبَرين مضروبين بعقاب اللّه، ويذود عن حياض الخطأة، ويؤكّد أنّ البغايا سيسبقنَ رجال الدين إلى الملكوت؛

صلبوه، لأنه أزرى بطقوس طهرهم الظاهريّ الذي يقنّع عهرهم الباطنيّ، مع أنّهم كانوا يرون طقوس التطهّر قمّة التديّن والعبادة.

صلبوه، لأنّه تحرّر من عنصريّة الشعب اليهوديّ وأبطل وهم تفرّده، وأبى أن يدين بتقاليده الموروثة. فلم يتحرّج من مخاطبة امرأةٍ سامريّةٍ عكرة السمعة، لا بل التمس منها ماءً ينقع به عطشه، ويُروي عطش نفسها، غير حافلٍ بنجاسة طائفتها، ونجاسة المرأة عمومًا، ونجاستها هي المتعدّدة الأزواج. ولهذه المرأة عينها أعلن: «**آتيةٌ الساعة حيث سيُعبد اللّه لا على هذا الجبل، ولا في أورشليم**». لأنّ العبادة الحقّة ستكون بالروح والحقّ، في القلوب، وفي كلّ مكانٍ من العالم؛

صلبوه، لأنّه تمادى، فضرب من امرأةٍ كنعانيّةٍ، ومن قائد مئةٍ وثنيٍّ، ومن عشّارٍ، نماذج للإيمان الحقّ، وجعل من سامريٍّ نموذجًا للرحمة والمحبّة الصادقة؛

وصلبوه لأنه أكّد أنّ أسطورة «الشعب المختار» قد اندثرت، وأنّ اللّه قادرٌ أن يستنهض من حجارة الطريق أبناء لإبراهيم؛

صلبوه، لأنّه فضح خيانتهم باستيلائهم على الكرم الذي أوكله اللّه إليهم، تفرَّدوا بثماره، وقتلوا رسل ربّ الكرم وابنه، فأنذرهم بتسليم الكرم إلى قومٍ آخرين؛

صلبوه، لأنّه تعمّد زعزعة دينٍ جامدٍ، وإلهٍ جمّده علماء الشريعة، فجعلوا من السبت مطلقًا، يتخطّى، بلا قياسٍ، فروض الرحمة والمحبّة. فدأب على إجراء أشفيةٍ في أيّام السبت، ولكأنّها لا تختلف عن أيّ يومٍ من أيّام اللّه، التي تتمّ فيها عبادته بأعمال الخير والعطف. فبدا وكأنّه يعلن أنّ اللّه يُكرَّم بانتهاك فريضة السبت، من أجل عمل الخير، أكثر ممّا يكرَّم بالتقيّد بتلك الفريضة؛

صلبوه، لأنّ الخلاف مستحكمٌ، والبون شاسعٌ، بين الفرّيسيّين الذين يدّعون أنّ الإنسان وُجد من أجل السبت، ويسوع الذي أعلن أنّ السبتَ وُجد من أجل الإنسان؛

صلبوه، لأنّه أوصى بحبّ الأعداء، وهم قد نشأوا على بغض كلّ من ليس يهوديًّا، وعلى مناصبته العداء. ولأنّه صوّب مفهوم «القريب»، الجدير بالحبّ،

والعطف، والغوث فتخطّى حصره باليهوديّ، وشمل به كلّ إنسانٍ ملهوفٍ، جريحٍ، مفتقرٍ إلى العون والمحبّة؛

صلبوه لأنّه لم يرَ في الهيكل سوى بيتٍ للصلاة، فيما القيّمون عليه أهملوا الصلاة، ونسوا حضور اللّه فيه، وعظّموا حجارته، واستغلّوا موارده بقحةٍ؛

صلبوه، لأنّه جعل نفسه الهيكل الحيّ، وجعل من صدر كلّ مؤمنٍ هيكلاً مقدّسًا؛

صلبوه، لأنّه تحدّى الصدّوقيّين بازدرائه الثروات، والسلطان، وفضح اتّخاذهم الدين مطيّةً لتحقيق غاياتٍ خسيسةٍ؛

ولأنّه تحدّى الفرّيسيّين بإماطته اللثام عن ريائهم، وكذبهم، وكَلَفهم بالمظاهر. ولأنّه فضح نفاقهم، وندّد بطقوسهم، وعاداتهم المغرقة في العجرفة، وفي ازدراء المرضى، والجهلة، ومَن عدّوهم خطأةً، و«شعب الأرض». وتحدّى الكتبة المتبجّحين بعلمهم، الذين جعلوا الحرف يطغى على الروح، ولأنّه ابتغى جعْل الشريعة أيسر ممارسةً، وبسّطها، بحصرها في وصيّةٍ واحدةٍ، هي محبّة اللّه والقريب؛

صلبوه، لأنّه مزّق حبائلهم، وجَلَدهم بقسوة صراحته، وعرّى نفاقهم، على الملأ، وكشف تشويههم للّه، واتّخاذهم منه أداةً لاستغلال البسطاء؛

ولأنّه ندّد بكلّ معوجٍّ في الطبقة الكهنوتيّة، وفي نادي الأغنياء، وفي مخازي الاقتصاد؛

لأنّه جسّد مثالاً أسمى، متألّقًا، وفضح صغارات المتسلّطين وزيفهم؛

لأنّه لم ينِ يُهيب بالبشر أن ينفضوا عن ذواتهم غبار التواني والتواكل، ويجهدوا في اقتحام ملكوت اللّه عنوةً، وألاّ يكفّوا عن السعي إلى التمثّل بكمال اللّه نفسه؛

ولأنّه، حتّى النَفَس الأخير، لم يكفّ عن بعث حياةٍ جديدةٍ؛

صلبوه لأنّه لم يساوم، ولم يتواطأ مع النفاق والرداءة، والاستبداد، ودعا إلى تحطيم قيود العبوديّة والاستكانة؛

صلبوه لأنّه رفض أيّة تسويةٍ بين تقاليد باطلةٍ راسخةٍ، وجدّة تعليمه، وأبى رتق الثوب الخَلِق برقعة قماشٍ جديدٍ، لأنّ القديم يخصّ الماضي، والجديد في صيرورةٍ دائمةٍ. هذا ما فهمه حماة القديم، فصلبوه؛

ولأنّه ابتغى إقامة عالَمٍ جديدٍ، ملكوتٍ لله على الأرض، مقوّضًا كلّ بالٍ، نَخِرٍ، فاسدٍ، ولأنّه أشرع باب هذا الملكوت أمام كلّ إنسانٍ حسن النيّة، بلا تمييزٍ؛

ولأنّه، من جرّاء كلّ ذلك، ظهر بمظهر مجرمٍ سياسيٍّ، خطره بحجم صلابة موقفه، وسداد نظرته، وسموّ سلوكه.؛

ولأنّه قاد ثورة الحبّ، فكان موته مكافأة ثورته الجريئة؛

ولأنّه كان يُشيع عدوى خطره، خطر الحرّيّة، والمحبّة، عدوى إلهٍ هو حياةٌ، وخلقٌ، ونورٌ؛

ولأنّ خطره هذا بات شاملاً يهدّد النظام الدينيّ، والاجتماعيّ، والتقاليد الراسخة، ومراكز القابضين على مقاليد السلطات. حينئذٍ ارتأت حكمة المتسلّطين إزالته، بحجّة صون سلامة الشعب.

* *

بسبب كلّ ذلك صلبوه، فمات شهيد حرّيّة الإنسان ورفعته.

وبذراعيه المسمّرتَيْن على الصليب، حطّم قيودًا لا تحصى.

وسيظلّ يبثّ كلَّ جيلٍ عدوى ثورته وحبّه،

ويتعرَّض، في كلّ ساعةٍ، وكلّ مكانٍ، لصلبٍ وحشيٍّ.

كلماتٌ سبعٌ موجَّهةٌ إلى الصَّليب (١)

١ – ثمّة من لا يُطيقون تأمّل الصليب، فيحرمون أنفسهم فيض النعم المتدفّقة من المصلوب. أولئك هم «المارّة» الذين كانوا يهزّون رؤوسهم ويقولون: «**أنت يا من ينقض الهيكل، ويبنيه في ثلاثة أيّامٍ خلّص نفسك...**».

العالم الذي لم يتجدّد يطالب يسوع بالنزول عن الصليب، لأنّه يرفض البذل والتجرّد، ويبتغي دينًا خاليًا من الصليب. وإذ كان يسوع يلتمس لهم الغفران، كانوا يقولون له ساخرين: «**إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب!**».

قسوة الشفاه المستهزئة، تحاكي قسوة الأيدي التي تدقّ المسامير. وكلتاهما جزءٌ من إرث الخطيئة. طالبوا الربّ بأُعجوبة انحداره عن الصليب، ولم يلتفتوا إلى معجزة صفحه عمّن صلبوه، وهي أعظم بما لا يُقاس.

٢ – الخير الأسمى صُلب بين لصَّيْن. وخفق قلب أحدهما، وهو يرى الربّ مصلوبًا إلى جواره، فهتف: «**يا يسوع، اذكرني متى جئت ملكًا**». تلك هي الكلمة الوحيدة الخالية من اللوم والشماتة التي وُجّهت إلى المصلوب. رغم مظهر يسوع الزريّ، وهو على الصليب، آمن ذلك اللصّ أنّه ربّ الملكوت، الكلّيّ القدرة. وفي حين كان الآخرون يقولون، شامتين: «**إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب**»، لم يرَ ذلك اللصّ تعارضًا بين الصلب والألوهة المتجسّدة، في حين عجز كثيرٌ من التلاميذ عن فهم ذلك.

كلمة اللصّ هي الوحيدة التي استأهلت جوابًا. وكان الجواب وعدًا بالفردوس، في اليوم عينه.

٣ – الكلمة الثالثة أتت من اللصّ الآخر الذي كان يشتم المصلوب قائلاً: «**ألست أنت المسيح؟ فخلّص نفسك، وإيّانا أيضًا**»! إنّه نموذجٌ للأنانيّة، ولرفض الاعتراف

(١) مقتبسة عن فلتُن شين.

بالخطأ. الخلاص الوحيد الذي كان قادرًا على فهمه، لم يكن روحيًّا أو أدبيًّا، بل كان جسديًّا. لم يكن يؤمن بخلاص النفس، لأنّه لم يكن يؤمن بأنّ له نفسًا.

كم ردود أفعال البشر، حيال حدَث واحدٍ، تتباين! كانا لصَّيْن ضالَّيْن. أحدهما رأى الربّ، فتحوّل قلبه، ولم يلتمس سوى خلاص نفسه، والآخر تفاقمت قسوة قلبه، فشتم الربّ، ولم يطلب سوى خلاص جسده. ولو كان الربّ استجاب له، لاستأنف مسيرة ضلاله.

٤ – الكلمة الرابعة أتت من النخبة اليهوديّة، رؤساء الكهنة، والكتبة، والفرّيسيّين، الذين كانوا يسخرون قائلين: «**خلّص غيره، ولم يقدر أن يخلّص نفسه! هو، ملك إسرائيل؟ فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به! توكّل على الله! فلينقذه الآن، إن كان راضيًا عنه – فإنّه قال: «أنا ابن الله!»**».

هؤلاء المثقّفون كانوا يعرفون عن الدين ما يكفي لكي يشوّهوه. فاستخدموا ألقاب يسوع الثلاثة: «**المخلّص**» و«**ابن الله**»، و«**ملك إسرائيل**»، كي يهزأوا به. حينئذٍ، فقط، اعترفوا أنّه خلّص آخرين، وأقام موتى؛ ومع ذلك ما برحوا ينتظرون معجزاتٍ تقنعهم! من المحقّق أنّه لن يخلّص نفسه. فالمطر لا يخلّص نفسه لأنّ مهمّته هي إرواء التربة، وإنبات الزرع؛ والشمس لا تخلّص نفسها، إذ عليها أن تنير العالم وتدفئه، والمسيح لا يخلّص نفسه لأنّه عليه خلاص خلائقه.

«**ملك إسرائيل**» لقبٌ أطلقته عليه الجموع عندما أشبع كثيرين بمعجزةٍ، وعندما واكبت دخوله المظفّر إلى أورشليم، فارشةً لـه الطريق بمعاطفها، وبأفنان الشجر. يسوع رفض هذا اللقب، ولكنّ مثقّفي اليهود استخدموه للهزء به: «**هو، ملك إسرائيل؟ فلينزل الآن عن الصليب!...**».

إنّه، على نقيض ملوك الأرض لا يجلس على عرشٍ، بل على الصليب، ويحكم على القلوب بالحبّ، لا بالسلطة والقوّة.

ولو هو نزل عن الصليب لادّعَوا أنّه ببعلزبوب فعل ذلك. فقد رأوه يُنهِض لعازر من الموت ولم يؤمنوا. وعندما سيَنهَض من الموت، سيضطهدون تلاميذه المبشّرين بقيامته!

٥ – عندما غشت الظلمةُ الكون صاح المخلّص: «**إلُي، إلُي، لما شبقتني؟**»،

فقال من كانوا على مقربةٍ منه: «إنّه ينادي إيليّا». إنّهم نموذج لمن يقوّلون الدين ما لا يقول.

٦ – الكلمة السادسة أتت من الجند الذين انضمّوا إلى جوقة المستهزئين، والذين كانوا يقدّمون لـه خلاً ويقولون: «**إن كنت ملك اليهود، فخلّص نفسك!**». على غرار لصّ اليسار، لم يكن الجند يؤمنون إلاّ بخلاصٍ أرضيٍّ، وكان تحدّيهم لـه بالنزول عن الصليب ينطوي على شيءٍ من العُجْب بالذات، إذ خيّل إلى أولئك الجلاّدين أنّ عملهم كان من الدقّة والإحكام، بحيث يتعذّر حتّى على إلهٍ أن يُفلت منه. ولكنّهم سيدركون، صباح الأحد، سبب رفضه الانفكاك عن الصليب، فلو هو خلّص نفسه، لظلّ البشر بلا مخلّصٍ!

كان بوسع أولئك الرومانيّين فهم أن يضحّي أحد قوّادهم بألوف جنوده، في سبيل مجدٍ زائلٍ، وأن يقدّروا ذلك القائد أعظم تقديرٍ. ولكنّهم ازدرَوا زعيم الفداء الذي ارتضى لنفسه الموت، كي يحيا الآخرون.

٧ – لدى موت يسوع احتجبت الشمس، وزُلزلت الأرض، وتصدّعت الصخور، وتفتّحت قبورٌ نهض منها أبرارٌ كثيرون. ولّما رأى قائد المئة ذلك، قال، عقب تفكيرٍ عميقٍ: «**حقًّا، كان هذا الرجل ابن الله!**».

يسوع الذي هجره تلاميذه، ولم يجرؤ أحدٌ على الاعتراف به، اعترف به، أخيرًا، ضابطٌ وثنيٌّ، قسّت قلبه ساحات الوغى، وكان المشرف على صلبه. شيءٌ قدسيٌّ، مدهشٌ، لم يرَه لدى أحدٍ سواه، فتنه. فصلاة يسوع من أجل أعدائه وجلاّديه، والتماسه الصفح لهم، واحتفاظه برباطة جأشه حتّى ساعة موته الطوعيّ، كلّ ذلك كان ينهض برهانًا على أنّه سيّد الحياة والموت. فاعترف ببراءته وألوهته.

انْتِصَارُ المَصْلُوب

ولادة يسوع جاءت بالسلام للبشر، ولكنّها جعلت منه «آيةَ مقاومةٍ». ومع كلّ الخير الذي دأب على نشره، واجهه زعماء اليهود بالمقاومة والتجريح والتكفير، إلى أن أفضوا به إلى الصليب. وبالمقابل كانت جموعٌ كثيرةٌ تلحقه، دهشةً بأفعاله، وأقواله، مأخوذةً بقداسته وسلطته.

بموته صالح يسوع قاتليه مع أبيه، وفي حين كانوا، هم، يقضون عليه، عقد معهم تضامنًا أقوى من حقدهم. لقد تمكّنوا من قتله، ولكنّهم عجزوا عن ثنيه دون بذل حياته في سبيلهم. فقد ظلّ يؤمن أنّ خلاصهم ما برح ممكنًا، وأنّ الحبّ، في قلوبهم، ما زال قادرًا على التغلّب على الخطيئة.

صراع يسوع بين البشر لم يكن ضدّهم، بل من أجلهم.

وتمثّل انتصار يسوع في حفاظه، حتّى اللحظة الأخيرة، على الشراكة القدسيّة التي تربطه بأبيه، وعلى إرادة ارتشاف الكأس المريعة حتّى الثمالة، وعلى الوفاء المطلق لفكر الآب، ولنظرته إلى العالم، وللمخطّط الخلاصيّ الذي كلّفه بتنفيذه. ولكي يظلّ متشبّثًا بأبيه، رغم تخلّيه الظاهر، ولكي يصفح عن البشر، وهم في أوج بغضهم وخطيئتهم، ولكي لا ينفكّ يدعو «أبًا» ذاك الذي كان يتلقّى منه الضربة المميتة، ويسلمه روحه، كان لا بدّ أن يبقى في يسوع، أقوى من الخطيئة، وأقوى من الموت، الحبُّ الأبديُّ الذي يربط الآب بالابن، وعطيّتهما الكاملة المتبادلة: روحهما القدّوس.

ذلكم هو انتصار يسوع، وانتصار الثالوث. انتصار الحبّ على خبث البشر، وبخلهم، وريائهم، وانتصار المخلّص على تجارب إبليس، وهجماته الشرسة.

هذا الانتصار هو الذي يفسّر قرار الله بخلق بشريّةٍ حرَّةٍ، قادرةٍ على هجره

وإنكاره، مثل قدرتها على حبّه وتمجيده. في تلك الساعة، اقتطف الآب على شفتي ابنه المحتضر الـ «نَعَم» الذي من أجله خُلِقت البشريّة. وانتهى صراع الحبّ الذي يخوضه الله مع البشر، في قبلة القيامة وفرحها.

من أجل فرح الله هذا، ولكي يغدو فرح الله فرحنا، كان العالم جديرًا بأن يوجد، وبأن يكون ساحة صراعٍ.

الألَم، عَلَى ضَوءِ الصَّليب

الحبّ والألم هما قلب البشريّة، ولكن يبقى الألم سرًّا مستغلقًا. فيسوع لم يطوّبه، بل عكف على شفائه كلّما تسنّى له ذلك. الألم يدمّر الكثيرين. وقليلةٌ هي «النفوس التي تكبر في أجسادٍ معاقةٍ» على حدّ قول الشاعر پول كلوديل.

ولكنّ المسيحيّ يسعى إلى استقبال الألم عندما يوافيه، فيجعل منه وسيلة تطهّرٍ من الخمير العتيق، وتحوُّلٍ إلى عجينٍ جديدٍ. في هذا السياق يقول القدّيس أفرام: «لقد شاء الطبيب الإلهيّ أن يكون بوسع كلٍّ منّا أن يشفي نفسه بدموعه». المسيحيّ يحتمل الألم لأنّ الربّ احتمله قبله، ولپول كلوديل هذا القول الرائع: «لم يأتِ يسوع كي يزيل الألم، ولا لكي يفسّره، بل ملأه بحضوره».

خليقٌ بنا أن نلقي على الألم نظرةً إلهيّةً، لا نظرةً بشريّةً، فالصليب، بلا يسوع، يرهق الكتف. ويبقى الأكثر إحراجًا محنةُ الصدّيق وألمه. عن هذه المحنة يقول دوستويفسكي، على لسان أحد أبطال رواية «الإخوة كرامازوف»: «أنا لا أفهمها... ولكن ثمّة يسوع». و«ماكس شيلر» قال: «بعد الجلجلة لم يعد ألم البارّ حجر عثرةٍ، بل هو سرٌّ فحسب. ومن حقّ الألم أن يكون بريئًا».

بعد الجلجلة لم يعد الألم وحيدًا، بلا صدًى، بل غدا يدوّي، ويعانق صداه صليب يسوع. فمنذ تألّم يسوع، غدا الألم مقدّسًا، ومُذ هو صُلب قُهِر الموت. وعندما نحن نصارع من أجل انتصار الروح، ولو على الصليب، نؤنس يسوع إلى جانبنا.

من يتألّم وهو يحبّ الله، يتحرّر من عبء ألمه.

لا بل إنّ الصليب عندما يُحمَل في صبرٍ وثقةٍ، يصبح أجنحةً، لأنّ يسوع يشارك في حمله. مرّةً واحدةً استعان يسوع بسمعان القيرينيّ، من أجل حمل صليبه، ولكنّه، منذئذٍ، يحمل صليب كلّ إنسانٍ، كلّ يومٍ.

حريٌّ بنا، إذن، كلّما رسمنا إشارة الصليب، أن نذكر صورة الصليب الأولى التي رسمها الفادي بكلّ جسده، من أجلنا.

منذ عشرين قرنًا ما برح مثال الله المتألّم عونًا للبشر على احتمال آلامهم. وهو، في ساعات الغمّ والاضطراب، حين يقبع اليأس عند الأبواب، يعيد لهم الرجاء في الخلاص.

خير مكانٍ نفزع إليه من الألم هو الجتسماني، ومعناه معصرة الزيت، حيث يُعصر الزيتون فيُعطي خير طعامٍ، ودواءٍ، ومصدر نورٍ.

ليس في الصليب ما ينفي الحياة، أو ما ينفي الفرح وامتلاء الحياة. بل بالأحرى، الصليب يرشدنا إلى الطريق الحقّ الكفيل ببلوغ الحياة. فمن يداري ذاته، ويبتغي الاستيلاء على الحياة، يمرّ من جانبها، ولا يحظى بها. إنّما وحدَها التضحية بالذات هي السبيل إلى العثور على الذات، والعثور على الحياة. وبقدر ما يتجاسر البشر في مغامرة التضحية بذواتهم، وبذلها كاملةً، ونسيانها، تصبح حياتهم خصبةً وعظيمةً.

بآلامه وصلبه، أدخل يسوع إلى البشريّة بذرةً جديدةً لا يمكن القضاء عليها، تسري، من خلالها، حياة الربّ، ويصبح، بفضلها، الحبّ ممكنًا أبدًا، لأنّ هناك من أحبّ، ويحبّ حبًّا مطلقًا... حيث لم يكن حبٌّ، استسلم الحبّ، وبذر ذاته، ومن حبّته التي ماتت انبثق الحبّ.

لم يمت يسوع بحتميّة قَدَرٍ قاسرٍ، بل بملء اختياره، بعد أن راز، بعنايةٍ، ما أقدم عليه، وتأكّد أنّ لا سبيل إلى دحر اللامبالاة، واللاحبّ، إلاّ بالموت.

ذلك الإنسان الذي بدا محطَّمًا، لم يكن، قطّ، أوفر حرّيّةً ممّا كان في تلك الساعة، ولا أكثر ثقةً بالآب. وقد واكبه الآب في آلامه وقيامته.

موت يسوع رمزٌ لكلّ موتٍ نفسيٍّ، وروحيٍّ، وعاطفيٍّ. وقيامته أملٌ في الانبعاث والحياة المتجدّدة. موته لم يكن نهايةً، بل كان فجرًا نديًّا. كان بذرةً مغرقةً في الصغر، أشرعها الموت على خصبٍ لا محدودٍ له.

* *

الرسول بولس هتف: «إنّني أتمّم، في جسدي، ما نقص في آلام المسيح». هذا

لا يعني أنّ آلام ابن الله لم تكن كافيةً لخلاص الجنس البشريّ، بل يعني أنّ يسوع شاء أن يشركنا، نحن الخطأة، في عمله الخلاصيّ.

وكم تألّمت العذراء، شريكة ابنها في الفداء، إذ كلّما التقاها يسوع «حطّم شيئًا فيها، وأحزن، بمزيدٍ من العمق، الحنان الرقيق الذي عُجِن به قلب أعذب الأمّهات، وأقدسهنّ. ولكأنّها لم تتلقّ هذا القلب البشريّ إلاّ لكي يمزّقه الابن الذي، من أجله وحده، كان ذلك القلب يخفق... هذه القسوة المدهشة، المستعصية على الإدراك، ليست سوى أداة رقّةٍ أكثر إدهاشًا، وأكثر استعصاءً على الفهم. إنّها قناعٌ يغطّي سرّ أعذب حبٍّ وأقواه». (Cardinal JOURNET)

* *

منذ يوم الجمعة العظيمة، أصبح الألم أداة خلاص، وارتدى الخضوع لمشيئة الله قداسةً. وما انفكّ الصليب يسحر جماعاتٍ غفيرةً، ولكأنّه انعكاسٌ مقدّسٌ لوضعهم الأليم، وسيظلّ يبعث، بلا توقّفٍ، في شرايين البشريّة المرتحلة، الحياة، والجرأة، والسخاء، واحترام الإنسان، ومحبّة المساكين، واليقظة في صميم الحاضر، والتطلّع نحو الأهداف القصوى، والإيمان في الله الآب. ولكم من المصائر الشخصيّة، ومن الحركات الجماعيّة التي أضاءها، وبثّ فيها الديناميّة، بحيث باتت إشارة الصليب توجز المسيحيّة!

وعلى مدى الأجيال، ما انفكّ الصليب هو التعبير عن انتصار الحياة على الموت، وعن حضور الله في البارّ المضطَهد، الذي يؤثر العذاب على الهزيمة. به أصبح الاحتضار البشريّ معبرًا إلى الفردوس، وارتقى الوضع البشريّ إلى مستوى الإلهيّ.

* *

وقد كتب الفيلسوف الفرنسيّ جاكّ ماريتان (Jacques MARITAIN) في هذا الشأن:

«في الصورة الماثلة من لحمٍ ودمٍ، صورة ابن الله مقاسيًا الموت، وناهضًا منه (ولكن محتفظًا إلى الأبد بندوب جراحٍ باتت مجيدةً) يقترن الشقاء والسموّ، الألم المُعانى، ورفعة النفس، التمزّق وإشراق القلب... في تلك الصورة يطفو السموّ إلى

مستوياتٍ فريدة الشموخ، مع بقائه مرتبطًا بالشقاء، ومرتقيًا به إلى ذرى الفكر الرفيعة.

إنّ إنسانًا لم يثقّفه الألم، لا يعرف شيئًا، وليس بذي شأنٍ. فهو ليس، في الواقع، طفلاً، ولا هو، في حقيقته، إنسانٌ مكتملٌ.

سموّ الألم هذا، يسوع هو الذي أعلنه لوجداننا. فقَبْله لم يكن البشر قادرين على أن يرَوا من الألم سوى ما يكبّدهم إيّاه من عذابٍ، ومن ثمّ رأَوا فيه شرًّا. وقد توخّت البوذيّة تحرير البشر منه بقتل الرغبة، في حين كان الرواقيّون يدّعون الظهور عليه متذرّعين بحكمة تلاشي الألم...

فقط في المناخ المسيحيّ، وبوحي ذكرى آلام يسوعٍ، أدرك البشر، والشعراء منهم قبل اللاهوتيّين، شيئًا فشيئًا، أنّ في ألم المخلوق انطلاقًا إلى الأمام في معراج الكمال الصوفيّ.

لو علم البشر أنّ الله يتألّم معنا، وأكثر منّا، من كلّ الألم الذي يفتك بالأرض، لتبدّلت، ولا ريب، أمورٌ كثيرةٌ، ولتحرّرت نفوسٌ عديدةٌ، إذ ربّما كفّت عن الانغلاق، وأيقنت بالقول إنّ الله، بدافع تلك الرحمة، التي بها يضمّنا إلى قلبه، ويتبنّى شقاءنا، قد أرسل ابنه كي يتألّم ويموت من أجلنا، وأنّه، ولئن تفاقم الشرّ على نحوٍ مريعٍ في العالم، مُرجئًا، يومًا فيومًا، تتميم مرامي الله، إلاّ إنّ نعمة يسوع، بعملها في خفايا القلوب، تُفيض على نحوٍ يندّ عن الوصف، متخطّيةً، في تأثيرها، سموًّا وروعةً، كلّ ذلك الشرّ المرئيّ، في اتّجاه المرامي التي يبتغيها الله، والتي يؤمن بها المسيحيّ، لأنّه يؤمن باللامرئيّ. إنّ آلام المسيح مستمرّةٌ حتّى نهاية العالم، في أصفيائه الذين يدعوهم إلى الإسهام في عمله الفدائيّ، بحيث يتمّمون ما نقص من مضايقه على حدّ تعبير الرسول بولس (كولوسي ١: ٢٤).

على مشكلة الشرّ والألم، بكلّ أبعادها، ليس سوى جوابٍ واحدٍ، هو جواب الإيمان بكلّ حذافيره. وفي صُلب الإيمان، تكمن تلك الثقة التي أكّدها يسوع بكلّ الوسائل: إنّ الله يكنّ لنا مشاعر أبٍ».

* *

نتيجةً لآلام يسوع، جلس الله مع الإنسان، وكسر معه رغيف الألم، لا بل إنّه

ألّه الألم، وأسبغ عليه قدراتٍ خلاصيّةً، فبات على كلّ قداسةٍ أن تُدمَغ بطابع الألم. وغدا الألم البشريّ ينطوي على حضور اللّه. من يطّلع على آلام يسوع يتمنّى لو أنّها لم تحدث، رفضًا لظلم البريء. بيد أنّه، في الآن عينه، يعبّر للربّ عن أعمق شكرٍ، لأنّه تحمّلها طوعًا، ليس فقط من أجل خلاصنا، بل، أيضًا، لكي يُضفي على آلامنا معنًى خلاصيًّا.

لم يبتغِ يسوع تحرير المصير البشريّ من الألم والمِحَن، بل أضفى عليها معنى مشاركةٍ ساميةٍ، هو محورها. فإن كان، هو البريء الأمثل، والعادل الأكمل، والذي كانت حياته القصيرة سلسلةً من الخدمات، والأشفية، والعطاء الدافق، وبَلْسَمَة الجراحِ، قد قاسى آلامًا فريدةً في قسوتها وظلمها، وإزرائها بكلّ مبادئ العدل، فضلاً عن آلامٍ نفسيّةٍ بليغةٍ، من جرّاء الخيانة ونكران الجميل، فلا عجب إن ابتُلينا، نحن بآلامٍ تبدو لنا ظالمةً.

على درب الصليب نكتشف معنى الألم، والقدرة على تحمّله. وقد نقف حيارى أمام تساؤلاتٍ موجعةٍ عن معنى الألم والشرّ، وليس المطلوب منّا الإجابة عليها، بل حريٌّ بنا معاناتها حتّى الرمق الأخير، على أمل العثور على جوابٍ، في الجانب الآخر من الوجود.

عِندَ الصَّليب، حُضُورُ أُمٍّ

«**اغتبطي، أيّتها الممتلئة نعمةً**». إنّ الفرح الذي نتصوّره، دائمًا، فرارًا من الألم، وتعويضًا عن العناء والكمد، هو، لدى العذراء، ألم وقفتها أمام الصليب، ألمٌ حوّله الله، وأسبغ عليه وجهًا جديدًا، سنيًّا.

كان يسوع عاكفًا، دائمًا، على العناية بشؤون أبيه، وكانت مشيئة الآب تفصله عن أُمّه. ولكنّ الآب، عند الصليب، شملها بقبلته لابنه الحبيب، وهو يرحّب به في مجده الأصيل.

مزيجٌ من ألمٍ بلا حدودٍ، ومن فرحٍ صافٍ. ضربةٌ موجعةٌ لحنان الأمّ فيها، وفي الآن عينه، ازدهار قلبها في أُمومةٍ جديدةٍ بحجم العالم. إنّها ساعة وداع الموت، وفصم العلاقات العميقة الوثيقة، والشعور بوحدةٍ مطلقةٍ. فبمَ ينفعها يوحنّا أو سواه؟ أوَ ليس خيرًا لها أن يدعها الجميع وشأنها؟ ولكن، في تلك الساعة، حيث كلّ شيءٍ كان يدعو مريم إلى الانكفاء على ذاتها، تحقّقَ ما يفوق الخيال: فقد اعتراها الشعور بأنّها أصبحت أمّ يوحنّا، وأمّ الكنيسة الوليدة.

في تلك الساعة التي بذل فيها الآب ابنه، وبذل الابن حياته كي يُظهر لامحدوديّة حبّ الآب، أُقحمت العذراء في سرّ هذا الحبّ، وتوغّلت في أغواره، ومع الآب، وبالاتّحاد معه، قدّمت ابنها، وأسلمته للعالم. ولم يعد أيّ إنسانٍ غريبًا عنها. فلا أحد يهب كلّ ما يملك، وأغلى ما يملك، لغرباء. وبما أنّها ضحّت بابنها الوحيد في سبيلنا، فذلك يعني أنّنا، جميعنا، أبناءٌ لها.

في تلك الساعة التي أغدق فيها الآب على ابنه كلّ المجد، أعطاه أن يشمل بالمجد البشريّة التي بذل ذاته لافتدائها، وأقامه سيّدًا على البشريّة كلّها، وأولاه سلطةً قدسيّةً، سطلة حبٍّ، يتخطّى كلّ نفوذٍ، وكلّ حميميّةٍ بشريّةٍ، حبٌّ يضعه على صلةٍ مباشرةٍ بكلّ إنسانٍ، ويمكّنه من أن يجمع، في حبّه، كلّ إخوته، بحيث يصبحون

فيه جسدًا واحدًا. وحينئذٍ تبوّأت العذراء مكانها المميّز الفريد، في جسد ابنها الممجّد، وشملت بحبّها، جميع إخوة يسوع.

مذ هي وضعت يسوع في زريبةٍ مشرعةٍ على كلّ عابر سبيلٍ، وعلى كلّ فقيرٍ ومحتاجٍ، فقدت كلّ وسيلةٍ لوقاية حميميّة وحدتها مع ابنها؛ ومنذئذٍ كان يسوع يُعِدّها لاقتسام حياتهما الحميمة مع جميع إخوته الذين سيُمسون أبناءَها.

منذ عشيّة صلبه لم يبقَ لها أيّ منزلٍ خاصٍّ، بل غدا بيت الآخرين بيتها، ولكنّ ذراعي الآب الممدودتين لاستقبال ابنه المحتضر، ضمّتاها، هي أيضًا، وأحلّتاها في منزل البشريّة الجديد: الكنيسة. ومنذ ذلك اليوم أصبح منزل العذراء، كنيسة يسوع.

لم تقدّم العذراء جسدها ودمها، بل ما هو أكثر منهما. لقد تجرّدت من كلّ ذاتها، وشمل حبُّها الكنيسة جمعاء. لقد غرقت، مثل ابنها، في كثافة الألم، ولكنّها، مثله، باتت تتحسّس كلّ ما يحيق بها: صلاة اللصّ التائب، وفاء يوحنّا، إخلاص المجدليّة وتفانيها، وقرع المارّة صدورَهم. لقد تقبّلت تلك التوبة، وهذا الإخلاص، وضمّتهما إلى تقدمة ذاتها؛ وبها اشتركت الكنيسة بسرِّ الصليب، وبآلام الربّ التي رفدتها بدموع أبنائها، ودماء شهدائها.

آلامُ يَسُوعَ النَّفْسِيَّة

النزاع، أي ألم النفس، لا ألم الجسد، كان، في المقام الأوّل، هو فعل تضحية يسوع الرهيبة التي جعلته يئنّ: «**نفسي حزينةٌ حتّى الموت**».

فهو وإن تألّم في جسده، إلاّ أنّ ألمه الفعليّ قد استقرّ في نفسه. وإنّما كان الجسد ينقل الألم إلى إنائه الحقيقيّ، إلى مركز المعاناة. إنّ إدراك الألم هو الألم، والنفس، لا الجسد، كانت هي مركز آلام الكلمة الأزليّ.

قُدِّم ليسوع على الصليب مزيجٌ من خمرٍ ومُرٍّ، علّه يخدّر لديه الشعور بالألم. إلاّ أنّه رفضه لأنّه كان قد وطّن العزم على معاناة الألم بكلّ مرارته. آلامه كانت طوعيّةً، وما كان أيسر عليه تفاديها، لو تلك كانت مشيئة الآب، مشيئته هو! ولكن إذ كان عليه أن يتألّم من أجل خلاصنا، فقد استسلم للألم...

وإن كانت النفس هي مركز الألم، فيسوع قد عانى الألم الجسديّ، في وعيٍ نفسيٍّ لا قِبَل لإنسانٍ على مثله، وبالتالي، في كثافةٍ تتخطّى حدود خيالنا. عاناه بكلّ إرادته الواعية التي لم يصرفها عنه شيءٌ، عاناه كاملاً في كلّ لحظةٍ.

قد نتألّم، نحن، بفعل عوامل خارجيّة، ومؤثّراتٍ لا نملك السيطرة عليها. أمّا المخلّص فلا شيء كان يطرأ على نفسه بفعل الصدفة. ولم يخالجه، يومًا، شعورٌ لم يكن نتيجة إرادةٍ يقظةٍ واعيةٍ، لم يكن معرّضًا للتأثّرات الطارئة، ولكنّه كان منفتحًا، طوعًا، على مسبّبات التأثّر لديه.

لذلك كان قد اتّخذ جسدًا لكي يتألّم، وصار إنسانًا لكي يتوجّع على غرار بني البشر. وعندما حانت الساعة، قدّم نفسه بكلّيتها، محرقةً. ومثلما قدّم جسده كلّه للصليب، قدّم، أيضًا، لجلاّديه كلّ وعيه ووضوح رؤيته، وإحساسه، في تضامن ملكاته كلّها، وفي نيّةٍ يقظةٍ، لا في استسلامٍ قسريٍّ.

(١) مقتبسة عن الكردينال نيومن.

عندما أَزِفَتْ الساعة، فتح كلّ السدود، فتدفّقت سيول الألم الهادرة، وغمرت كلّ حنايا نفسه.

آلامه كانت عملاً إراديًّا، وطاقاته الحيويّة كانت في ذروتها، عندما كان يعاني ويتهاوى، ويتجرّع سكرات الموت. بل إنّ موته نفسه كان عملاً طوعيًّا. وعندما أمال رأسه، كان ذلك قرارًا وتسليمًا في آنٍ واحدٍ: «بين يديك أستودع روحي». تلفّظ بهذه العبارة، وأسلم روحه، ولكنّه لم يفقدها.

وحتّى لو كانت آلامه جسديّةً فحسب، وحتّى لو كانت دون آلام سائر البشر قسوةً، إلاّ أنّ وعي الألم، وهو مقياسه، قد بلغ لديه، ذورةً، لم يبلغها لدى إنسانٍ، قطّ. وبالتالي، فقد فاقت آلامه، بما لا يُقاس، كلّ ألمٍ بشريّ. ولا غروَ فالله هو الذي يتألّم في طبيعة يسوع البشريّة. وقد تجرّع الآلام واستنفدها حتّى القطرة الأخيرة، لأنّ الله كان هو الذي يتجرّع.

كان يملك عزاءَيْن كفيلَيْن بتخفيف حدّة آلامه: إيمانه الراسخ ببراءته المطلقة، وعلمه بأنّ آلامه لن تطول، وبأنّها ستُسفر عن انتصاره على الموت ذاته. فهو البريء الأوحد الذي لم يستأهل عقابًا، وقد سلّم ببراءته حتّى تلميذه الذي خانه، والذي اعترف بأنّه سلّم دمًا طاهرًا، وبيلاطس الذي تبرّأ من دم الصدّيق، وقائد المئة الذي هتف عندما مات يسوع: «**لقد كان هذا الرجل بارًّا حقًّا**». وإن شهد كلّ هؤلاء له بالبراءة، فكيف، بالحريّ، كان يشهد له بها قلبه! والثقة بالبراءة تهب القدرة على الصمود، وتنفي عبء العار. هذا فضلاً عن أنّه لم تساوره، لحظةً، الريبة في خاتمة مصيره.

إلاّ أنّه، وقد أقدم على الألم طوعًا، فقد أقدم عليه كاملاً، وتخلّى حتّى عن تلك التعزيات، بل تخلّى عن سند الآب السماويّ، فتدفّقت إلى أعماقه أمواج البؤس، والخوف، والقلق، وارتضى أن يرهق كاهلَه عبءُ خطايا البشر الساحق.

عبء الخطيئة هذا أَلِفْناه، نحن البشر، بحيث بتنا نحمله عابثين غير عابئين، فتعذّر علينا إدراك كم كان يبهظ الربّ، وأيّ طعمٍ مسمومٍ كان يُشيعه في أحشائه، ولا سيّما أنّه كان عليه أن يحمل وقر كلّ خطايا العالم أجمع!

ما الخطيئة سوى عدوّ الكلّيّ القداسة اللدود، بحيث يستحيل بينهما أيّ لقاء. وإن

كان من شأن الألوهة أن تتأثّر بشيءٍ، فوحدها الخطيئة قادرةٌ على ذلك. وقد أتاح يسوع لسيول خطايا البشر أن تداهم طبيعته البشريّة. وعندما أزفت الساعة الرهيبة، جثا مخلّص العالم على ركبتيه، وتجرّد من كلّ ضمانات ألوهته، وأقصى جيوش الملائكة المتأهّبة للدفاع عنه، وبسط ذراعيه، وكشف صدره، معرِّضًا براءته لاقتحام العدوّ، عدوٍّ نَفَسُه طاعونٌ، ولَمْسته نزاعٌ.

وكم كان هوله عندما حدّق إلى ذاته، فلم يعرفها، بل انتابه شعورٌ بالرجس، والخطيئة المقيتة، وخامره ذلك الشعور الحادّ بتلك الأكوام من الفساد التي انهمرت على هامته، وسالت على ردائه! وكم كان ذهوله جمًّا عندما شهد أنّ عينيه، ويديه، وقدميه، وشفتيه، وقلبه، وكأنّها أعضاء الشرّير، لا أعضاء الله!

هاتان هما يدا حمل الله النقيّ، اللّتان ما انفكّتا طاهرَتيْن، وقد أصبحتا ملطّختَيْن بألوف الجرائم الدامية البربريّة. وها هما شفتا الحمل، وقد أقلعتا عن تلاوة الصلوات، والتسابيح، والشكر، وبات يدنّسهما الكفر، والتجديف، والتعاليم الشيطانيّة!

وهاتان هما عينا الحمل تنجّسهما الرؤى الخبيثة، وإغراءات الأصنام التي نأَتْ بالبشر عن عبادة الخالق! وها إنّ أذنيه تضجّان بصيحات المجون والمعارك، وها إنّ قلبه ينسكب عليه جليد البخل، والقسوة والإلحاد. وها إنّ ذاكرته مثقلةٌ بجميع الخطايا التي اقتُرفت منذ السقطة، في جميع أرجاء المسكونة، مثل فكرةٍ مسيطرةٍ ببشاعتها، مقيمةٍ بعنادٍ، ولا تمتثل لطردٍ أو لإقصاءٍ. كلّ خطايا الأحياء والأموات، والذين لم يولدوا بعد، المختارين والملعونين، الخطأة والقدّيسيّن. جميع الخطايا ماثلةٌ هنا. وأحبّاؤك، يا يسوع، هم، أيضًا، ماثلون: قدّيسوك ومختاروك، ورسلك الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنّا، لا لكي يعزّوك، بل لكي يرهقوك، مثل أصدقاء أيّوب، ويركموا على رأسك اللعنات! كلّهم حاضرون خلا واحدةً. إنّها ليست هنا، لأنّه لم يكن لها، يومًا، من الخطيئة نصيبٌ. هي وحدها كفيلةٌ بتعزيتك، ولذلك هي غائبةٌ، ستوافيك عندما ستُعلّق على الصليب. أمّا في البستان، فهي عنك بعيدةٌ. لقد كانت لك رفيقةً ونجيّةً سحابة حياتك، وقاسمتك خواطرك الطاهرة، وتأمّلاتك السامية، طيلة ثلاثين عامًا. بيد أنّ أُذنها النقيّة لا قِبَل لها على سماع ما يقرع الآن سمعك، ولا قلبها الطاهر من كلّ دنسٍ قادرٌ على استيعاب ما يتراءى الآن لناظريك. الله وحده كان يقوى على احتمال ذلك الوقر.

لقد أظهرتَ، أحيانًا، يا يسوع، لبعض قدّيسيك صورة خطيئةٍ واحدةٍ، كما هي تتضّح على ضوء نور وجهك. ومع أنّها كانت خطيئةً طفيفةً، لا خطيئةً مميتةً، أخبرنا أولئك الذين أُتيحت لهم تلك الرؤية أنّها كادت تقضي عليهم، لو لم تسارع، أنت، إلى إقصائها عن أنظارهم.

إنّ أُمّ الله، رغم كلّ قداستها، أو بالأحرى، من جرّاء قداستها، كانت عاجزةً عن احتمال رؤية واحدٍ من أعوان إبليس أولئك الكثيرين الذين كانوا يُحيقون بك.

في الواقع، كان تاريخ العالم بأسره ماثلاً هناك، والله وحده قادرٌ على احتمال وقره: آمالٌ خائبةٌ، نذورٌ حُنِثَ بها، أنوارٌ أُطفئت، إنذاراتٌ ازدُريت، فُرَصٌ أُضيعت، أبرياءُ غُرِّر بهم، شيوخٌ تاهوا؛ ترّهات الإلحاد، هياج الأهواء، عناد الكبرياء، حمّى الاهتمامات الدنيويّة؛ قلق العار، مرارة الخيبة، تباريح اليأس. تلك هي المشاهد المضنية، المثيرة للإشفاق، الممزِّقة، المقزِّزة، المقيتة، الوبيلة، التي كانت تتدافع جميعها، نحوه... كي تحلّ محلّ ذلك السلام الذي يندّ عن الوصف، الذي ما انفكّ يسكن نفسه، منذ مولده. تُبهظه، وكأنّه هو صاحبها. ولذلك، هو يضرع لأبيه ضراعة مجرمٍ، لا ضراعة ضحيّةٍ، ويتّسم نزاعه بالذنب والندم، فيستغفر، ويعترف، ويتوب حقًّا، توبةً صالحةً، كما لم يفعل، قطّ، جميع التائبين والقدّيسين مجتمعين. فهو، من أجلنا، الضحيّة الوحيدة، والمحرقة الغفّارة الوحيدة، والتائب الحقّ، مع أنّه ليس بالخاطئ الفعليّ.

وينهض بعناءٍ، ويرنو ليرى الخائن وعصابته، المتسلّلين خلسةً في الظلام المدلهمّ، وإذا بالدم مراقٌ على ردائه، ويدمغ آثار أقدامه. من أين أتت بواكير ألم الحَمَل هذه؟ عُصيّ الجنود لم تمسّ بعد كتفيه، ولا مسامير الجلاّد مزّقت، بعد، يديه ورجليه. أجل، إنّه قد سكب دمه قبل الأوان، ونزاع نفسه قد حطّم هيكل جسده، وفجّر منه الدماء. لقد بدأت آلامه في داخله، وراح ذلك القلب المعنّى، موئل الحنان والحبّ، يخفق بعنفٍ غير طبيعيٍّ...

ولئن لم تقضِ تلك الآلام على الضحيّة، فلأنّ مشيئتكَ القادرة على كلّ شيءٍ، يا الله، قد منعت ذلك القلب من التداعي، ومنعت تلك النفس من هجر جسدها قبل أن يقاسي آلام الصلب.

آلامُ [1]

كلّما اضطُهِد إنسانٌ ظلمًا، سواءٌ كان أبيض، أو أسود، أو نُحاسيَّ اللون، وسواءٌ كان من الشمال، أو من الجنوب، من الشرق أو من الغرب،
سيكون يوم الجمعة الحزينة.

وكلّما مات إنسانٌ كي يعيش آخرون،
ولكي يظلّ البشر يتذوّقون طعم إنسانيّتهم،
تجدّدت ذكرى آلام يسوع.

وكلّما سكب إنسانٌ دمه، في أثلام التاريخ المظلمة،
على الحبّة التي تبدو ميتةً،
فالله هو الذي ينثر البذار، باكيًا.

واليوم، أيضًا، يسوع يتألّم، ويموت، ويهبّ ناهضًا.

(١) عن الأب جيرار بيسّيير.

«اليومَ تكونُ معي في الفِردَوس»

(لوقا ٢٣ : ٤٢– ٤٣)

يرسم الإنجيليّ الفنّان، لوقا، المشهدَ، بواقعيّةٍ تزخر بالمغزى: الشعب ينتظر، حائرًا، وصامتًا، والرؤساء يتقيّأون شماتتهم، منتصرين: هذا الذي ادّعى أنّه المسيحٍ المخلّص عاجزٌ عن خلاص نفسه، وفي ذلك برهانٌ ساطعٌ على بطلان ادّعائه. وأسوةً بالرؤساء، يسخر الجند، ويُمعنون في التجريح. وينضمّ إلى جوقتهم أحد المصلوبَيْن. وينتهره المصلوب الآخر، الذي كان صادقًا مع نفسه، فاعترف بما جنته يداه، وببراءة المصلوب القائم بينهما. ووسط كلّ ذلك يسوع يصفح، ويصلّي، ويفتح باب الفردوس.

حتّى اللحظة الأخيرة، يناصر يسوع الفقراء، والخطأة، والمنبوذين. وها إنّ آخر المؤمنين به، التائبين عن يده، لصٌّ مجرمٌ يصبح أوّل ضيوف الملكوت.

منذ مولده حتّى لفظه أنفاسه الأخيرة على الصليب، لم يكفّ يسوع عن توفير ملاذٍ إلهيٍّ للمنبوذين. فها هوذا يلتمس الصفح لأولئك الذين سمّروه على الصليب: «**يا أبتِ، اغفر لهم، لأنّهم لا يعرفون ما يفعلون**».

* *

اللصّ التائب انضمّ إلى قائمة الشهود ببراءة يسوع، وعلى غرار قائد المئة، توسّم فيه ابن الله. هو وحده، في الإنجيل، دعاه بالاسم الذي أطلقه عليه الملاك، قبل ولادته، فتوسّله: «**يا يسوع، اذكرني متى جئت ملكًا**»، أي في يوم الدينونة الأخيرة. وأجابه يسوع: بل «**اليوم تكون معي في الفردوس**». في ضباب احتضاره الدامي، يعلن يسوع أنّ لحظة موته هي لحظة ولادة الحياة الحقّة.

لقد استخدم لوقا لفظة «اليوم» في بضع مناسباتٍ حاسمةٍ: مناسبة مولد يسوع: «اليوم» وُلد لكم مخلّص»؛ وفي مستهلّ رسالته عندما أعلن، في مجمع الناصرة:

«اليوم» تمّت هذه الكتابة؛ ويوم حلّ ضيفًا على زكّا العشّار: «اليوم» حصل الخلاص لهذا البيت». وها هوذا يستخدمها كي يلبّي ملتمَس اللصّ التائب بأكثر ممّا توقّع وتمنّى: «اليوم تكون معي في الفردوس». لفظة «اليوم» تعني حضور المخلّص الدائم مع كلّ تائقٍ إلى الخلاص.

لم يقتصر كرَم المخلّص على إدخال اللصّ إلى مقرّ الأبرار، في الحال، بل أضاف: «تكون معي»، وحيثما يكون يسوع يكون الملكوت. لقد جعل يسوع من ذلك اللصّ أحد تلاميذه، وعضوًا في ملكوته، وأسبغ عليه امتيازات أبناء العهد الجديد، الذي استهلّه على الصليب ورسّخه بقيامته. ولئن شارك اللصُّ يسوع في الصلب، إلاّ أنّ يسوع أشركه في مصيره الإلهيّ، الأبديّ.

* *

كما فعل، طيلة حياته ورغم كلّ التحدّيات المشكّكة بسلطته، وقدراته، ورسالته، لم يحِدْ يسوع عن المخطّط الخلاصيّ الذي ارتضاه مع أبيه. ومثلما تصدّى لتجارب إبليس، في مطلع رسالته، تصدّى لها بحزمٍ في نهاية حياته الأرضيّة، فرفض تحدّيات رؤساء اليهود بالنزول عن الصليب، ومضى في تصميمه على فقد حياته كي يخلّصها، ويخلّص بها العالم.

ولكنّه رفع تحدّيًا واحدًا فخلّص إنسانًا، لا بإنقاذه من الموت الجسديّ، بل بجعله هذا الموت يتحوّل عبورًا إلى الحياة الحقّة، والسعادة الأبديّة.

* *

حين بدا وكأنّه تردّى إلى هوّة النهاية، كان النبيّ، الذي نبذه شعبه، يصلّي ويصفح. فقد امتصّ كلّ سمّ العنف، وحوّل البغض المحيق به إلى سانحة حبٍّ أقصى، مُشرعًا، أمام البشر، درب حبٍّ لم يعهدوا، قطُّ، نظيرًا لـه. ومنذئذٍ لم يعد بوسع البشر أن ينسَوا أنّ يسوع قد قهر القسوة والموت، بحبّه حتّى النهاية.

* *

إنّ مستقبل البشريّة مرسومٌ على ذلك المحيّا الإلهيّ المشوّه.

«لِمَ تَطلُبْنَ الحَيَّ بَينَ الأمواتِ ؟»

(لوقا ٢٤ : ٤– ٦)

كنّ شاهداتٍ على موته، وراقبنَ دفنه عن كثبٍ. فلا عجب إن اعتراهنّ الذعر والذهول ومزّقتهنّ الحيرة أمام القبر الخاوي من الجثمان الذي وافينَ لإتمام تحنيطه كما يليق به.

وبدّد حيرتهنّ عتاب الملاكَيْن: «**لمَ تطلبنَ الحيّ بين الأموات؟**».

كان يسوع نفسه، وهو في الثانية عشرة، قد عاتب أمّه ويوسف، لأنّ غيابه أقلقهما، فراحا يبحثان عنه بحرقةٍ. فهما يعرفان منشأه الإلهيّ، وما كان عليهما استنكار تريّثه في الهيكل، للاهتمام بشؤون أبيه.

كذلك كان على النسوة، مذ شاهدنَ القبر الخالي، أن يذكرنَ أقوال يسوع ووعوده. فالحيّ، وواهب الحياة، لا قِبَل له على الإذعان للموت، ولا يسع النور أن يظلّ سجين عتمة القبر.

كانت النسوة شاهداتٍ على حياة يسوع، وعلى أقواله، وكانت هذه الأقوال وتلك الحياة كفيلةً بجعلهنّ يتوقّعن قيامته بثقةٍ. أمّا وقد دهشنَ واحترنَ، فقد استأهلنَ اللوم والعتاب. وكان لا بدّ للملاكَيْن من تذكيرهنّ: «**اذكرنَ كيف كلّمكم، إذ كان، بعدُ، في الجليل. فقد قال: «إنّه ينبغي أن يسلَّم ابن البشر إلى أيدي الخطأة، وأن يُصلب، وأن يقوم في اليوم الثالث**». ذكرى الماضي تنير الحاضر وتفجّر الإيمان. بإنعاش الذكرى سيزيح يسوع الأقنعة عن ذهن تلميذَيْ عمّاوس؛ والنسوة، بدورهنّ، سيوقظنَ ذاكرة التلاميذ.

هنّ اللواتي شهدنَ سيرة يسوع، وواكبنَها عن كثبٍ، وشهدنَ موته ودفنه، أصبحنَ شاهداتٍ على قيامته، وقد حرص الإنجيليّون على ذكر أسمائهنّ، وكأنّها توقيعهنّ على شهادتهنّ هذه.

ولكنّ الحَدَث كان من الجسامة بحيث يتعذّر تصديقه، فبدت شهادتهنّ للتلاميذ، وكأنّها ضربٌ من الهذيان، وكان لا بدّ لبطرس من أن يتحقّق بنفسه من خلوّ القبر، وكان لا بدّ أن يظهر الربّ له ويُعلّمه، كي ينفض عن نفسه كلّ ريبةٍ.

لو آمن التلاميذ بكلّ أقوال المعلّم، واكتنهوا معنى حياته، لما انتظروا الشهادة، والرؤية، والجسّ، كي يؤمنوا بقيامته، ولتوقّعوا انبلاج النور في حلك الظلمة. فعشّاق الشمس يعلنون الفجر قبل أن يبسط على الدنيا سلطانه.

من هوّة الحيرة تفجّر إعلان «الحيّ»، وبات يسوع المصلوب، إلى الأبد، إله الحياة.

بموته وقيامته، مات الموت، وتلاشى الزمن، وزها ربيعٌ خالدٌ. وغدا صباح يوم القيامة، نهار اللّه الأبديّ، الذي لا مساء له، والذي يغمرنا بنورٍ يضيء ما هو خالدٌ فينا.

ولكي نحيا هذا النهار يجب أن نحيا حبّ اللّه، وحبّ ابنه الذي صُلب وقام كي يشركنا بحياته.

بتجسّده، وبارتدائه جسدًا مثل جسدنا، التزم ابن اللّه بقسطٍ جوهريٍّ من المادّة التي منها يتكوّن نسيج وضعنا البشريّ والمادّيّ؛ وبقيامته سما بذلك الوضع الجسديّ من غير أن يتخلّى عن جسده وعن العالم. وكما أنّ روح اللّه يملأ الكون، كذلك الناهض من الموت حاضرٌ في صميم البشريّة التي تصارع الموت. وهو معاصرٌ لبني البشر في جميع الأزمان، ومُواطنٌ لهم في جميع البلدان. إنّه ملء الزمان، وهو المستقبل، وغاية الخليقة كلّها.

* *

عاتب الملاكان النسوة لأنّهن بحثنَ عن «الحيّ» في قبرٍ. ونحن أيضًا نبحث، ولكي يكون بحثنا مجديًا، ينبغي ألاّ نحصره في الكتب وفي الماضي، فيسوع حيٌّ، وهو بيننا، في إخوته الصغار الذين تمثّل بهم. فلنبحث عنه، إذن، حيث يتسنّى لنا العثور عليه.

لن نجد يسوع في قبر أحاسيسنا الهشّة، وتخيّلاتنا الحسيرة، بل في سرّ قلوبنا

النابضة بحضوره اللامحدود، وفي هوّة هواننا التوّاق إلى غوثه وخلاصه. فهو، بتسنّمه الصليب، لبس ضعفنا وتبنّى آلامنا. فلنمدّ لـه يدنا، ولنستسلم لـه كما نحن، فهو كفيلٌ ببعثنا إلى حياةٍ جديدةٍ مليئةٍ به.

لقد فعل يسوع كلّ شيءٍ كي تكون حكايته حكايتنا. ولكي تكون قيامته قيامتنا، ينبغي أن نقف كلّ طاقاتنا على اقتفاء نهجه الحيّ المتوثّب على امتداد الإنجيل.

إبقاء قبره خاويًا يقتضي منّا المضيّ معه قُدُمًا، ومعاناة ولادة ربيعٍ مستمرٍّ، ربيع اللّه المدهش، وربيع نفض غبار الموت، والطفْر نحو الحياة.

إيمان الرسل بالقيامة كان انفجارًا، وثغرةً في جدار المستحيل. ولنا، أيضًا، ما انفكّ يسوع وإنجيله يخرقان الجدران، ويفتحان القبور، ويستنهضان إنسانيّة اللّه.

* *

وحيثما قال إنسانٌ نَعَم للخير، والحقيقة، والحبّ؛ وحيثما نشد المزيد من العدل، والتضامن، والمغفرة والمصالحة، فهناك يسوع الناهض من الموت، موجودٌ، متجلٍّ .

عمّاوس

(لوقا ٢٤: ١٣-٢٥)

ينفرد الإنجيليّ لوقا بهذا النصّ الأدبيّ الرائع، الزاخر بالعِبَر.

إنّ موت أيّ عزيزٍ يفجع قلوب محبّيه، ولكنّ موت يسوع فجع شعبًا مقهورًا توسّم فيه مخلّصه.

وذانك التلميذان كانا ممّن هصرت الفجيعة قلبهما، وأَطفأت أنوار الرجاء التي سحرتهما. وسُدَّت الآفاق التي كانت تناديهما، فعادا، مثقَلَيْ الخطى، إلى رتابة الحياة الكئيبة، الخاوية من كلّ لونٍ وألقٍ.

كانا يسيران مطرقَيْن، يندبان حلمهما الصريع، ويشيّعان رجاءً ظنّاه أكبر من الوجود، ويجترّان، بمرارةٍ، خيبتهما وعبثيّة كلّ ما حَدَث. كانت خيبتهما عارمةً بقدر ما كانت عظيمةً آمال السعادة والخلاص التي ولّدتها بشارة المصلوب. واستحال عليهما الإيمان بأنّ فجرًا جديدًا سينبثق بعد ذلك الليل البهيم. فقد انتهى كلّ شيءٍ، ولم يبقَ مكانٌ إلاّ للحزن والقنوط.

غير أنّ الحيّ الذي ظنّوه مات إلى الأبد، هبّ في حلك ذلك الليل، على غير توقّعٍ، ولا أملٍ، وعرَّف ذاته، برقّةٍ، وكتمانٍ، وأناةٍ. فالحياة الحقّة ليست صَخَبًا، بل هي صامتةٌ، كتومٌ مثل النسغ الذي يسري في الغصون، والدم الذي ينساب في الشرايين، ومثل الجنين في أحشاء أُمّه .

انضمّ إلى التلميذين «مجهولٌ»، وسار معهما، ولكنّ عيونهما لم تميّزه، فقد كان الحزن والقنوط يُسدلان عليها غشاوةً صفيقةً.

«**لحق بهما يسوع، وأخذ يسير معهما**». ذلكم هو أسلوبه، فهو يقترب من البشر، ويلج إلى صميم الشؤون والشجون التي تنسج حياتهم اليوميّة، وتشغل أذهانهم. وهو، في كلّ يومٍ، يعرّفهم بذاته، برقَّةٍ، وصمتٍ، وإدهاشٍ.

القيامة (بريشة غرونڤالد)

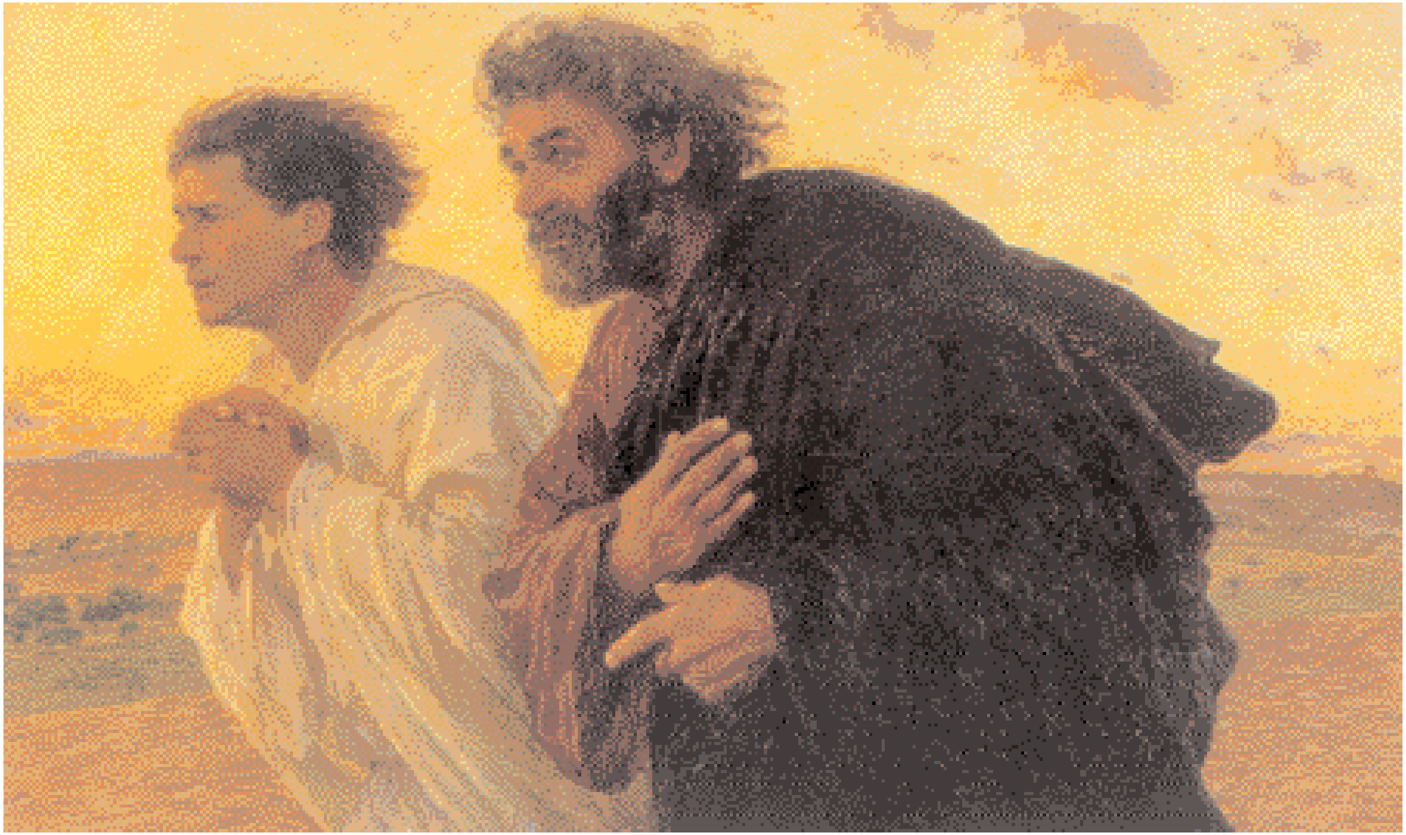

بطرس ويوحنّا يهرعان إلى القبر الخالي

(بريشة بورناند)

ربّما ابتسم يسوع، وهو يسمع روايتهما عنه. كانا يتحدَّثان عن الفشل الذريع، والخيبة المريرة، في حين كان النصر المبين، والرجاء المتألّق يسيران إلى جانبهما. كانا يتكلّمان عن الميت، وهو، الحيّ، كان يكلّمهما.

أبدى يسوع اهتمامًا بهمومهما. فاستغربا جهله للحدَث الجَلَل الذي كان يرين عليهما بكلّ ثقله. وهو، بدوره، استهجن عجزهما عن استيعاب أقوال الأنبياء فيه، وأقواله، هو، المتعلّقة بموته وقيامته، إذ طغت على أفكارهما أوهام المسيح المنقذ الوطنيّ، المادّيّ، كما تخيّله اليهود. ولذلك لم يفقها، في الحال، تلميحات يسوع. كانا يسيران معه ولا يتعرّفانه، يتجاذبان ذكرياته، ولا يجدان السبيل إلى مفتاح سرّه.

كان عليمًا بكلّ ما يخامرهما من شجونٍ. ولكنّه أصغى إليهما بعنايةٍ، حتّى أفرغا جعبة قلبهما، وطرحا رؤيتهما للحَدث. كانا ما برحا يحملان للفقيد التقدير والحبّ، ويسبغان عليه أسمى الأوصاف، ولكنّهما لم يريا من مسيرته سوى مطلعها المتألّق، ونهايتها المهينة.

كانا محيطَيْن علمًا بخلوّ القبر من نزيله، ولكنّ قيامته ما برحت بعيدةً عن ذهنهما، فالإيمان بالمستحيل ليس سهلاً.

لقد سردا أحداث مسيرة يسوع ممّا يُظهر أنّهما كانا ملمَّيْن بأعماله وأقواله، وذكرا إعلان الملائكة قيامته، في ذاك الصباح عينه، ومع ذلك كانت غشاوةٌ مطبقةً على أبصارهما، فلم يتعرّفا يسوع، لأنّهما لم يكونا قد اكتشفا، بعد، الجوهر الكامن في كلّ ما قاله وفعله.

وبسط يسوع رؤيته للأحداث. لم ينكر الصلب، والموت، والدفن، غير أنّه سلّط عليها نور النبوءات كي يُبرز مغزاها الكمين، ويهزّ جمود ذهن محاورَيْه، مؤكّدًا أنّه «**كان ينبغي للمسيح أن يكابد هذه الآلام ليدخل إلى مجده**». لم يعنِ، بذلك، أنّ ما حدث كان نتيجة قدرٍ محتومٍ لا مفرّ منه، بل كان تنفيذًا لمخطّط الخلاص الإلهيّ، المقرّر منذ الأزل.

رجاؤهما الميت كان على القيامة أن تحييه. ولكنّهما ما كانا، قادرَيْن على استيعاب قصّة القبر الخالي، لأنّ وعد يسوع بالقيامة، في اليوم الثالث، لم يكن قد نفذ،

بعد، إلى صميم قناعاتهما، ولأنّ «**أعينهما قد أُمسكت عن معرفته**». ولم يسارع يسوع إلى إزالة الغشاوة عن أعينهما، مؤثرًا أن يدع حضوره يتغلغل إلى أعماقهما أوّلاً. وكان لهذا الحضور أثره الواضح، عندما تمسّك المسافران برفيقهما المرتجَل، وشقّ عليهما انفصاله عنهما، ولا سيّما أنّ الليل أنذر ببسط حلكته، وهما كانا في حاجةٍ حارقةٍ إلى النور.

* *

إنّ أرقى الدروس الكتابيّة قد تفشل في تفجير نور الإيمان. ووحدَه، سرّ الحبّ كفيلٌ بهذا التفجير. وأيّ سرّ حبٍّ أعظم من سرّ الإفخارستيّا؟

فتح يسوع ذهن التلميذَيْن على فهم النبوءات، تمهيدًا لفتح عيونهما على معرفته. هكذا، في الذبيحة الإلهيّة، يحرث الإنجيل النفوس، والإفخارستيّا تُشيع فيها الخصب. ولا غنى للمؤمن عن كلام يسوع وعن خبزه، معًا.

لم يُسفر يسوع للتلميذين عن حقيقته عبر خطاباتٍ، بل من خلال الإفخارستيّا التي بدّدت كلّ الظلال، وأثبتت لهما أنّ الربّ جالسٌ معهما إلى مائدةٍ واحدةٍ، ويشاركهما حياته ومصيره. «**فانفتحت أعينهما وعرفاه**». **ولكنّه** «**توارى عنهما**». كانا يريانه، ولا يتعرّفانه، ولمّا تعرّفاه، توارى عن أنظارهما. توارى جسده، ولكنّه خلّف حضوره الكثيف، الشفّاف، المُعاش في الأعماق. لم يعد شخصًا ثالثًا سار معهما في الطريق، وجلس معهما إلى المائدة. بل إنّه انساب إلى صميم حياتهما وكيانهما، حيًّا، غير مرئيٍّ. وهذا ما عبّرا عنه باضطرام قلبهما، عندما كان يكلّمهما. إنّ الروح يتجلّى دائمًا، بشكل لهيبٍ وأَلسنة نارٍ، نارٍ تذيب جليد القلوب البطيئة الفهم، وتؤهّلها لبطولة الشهادة.

وهكذا، على أطلال الدهشة، والحيرة، والقنوط، يبني يسوع حضوره وسلامه.

انتعش الرجاء لدى التلميذَيْن، فعادا أدراجهما إلى أورشليم، ومرّا بالأماكن عينها التي جاءا منها، ولكنّ كلّ شيءٍ كان قد ارتدى لونًا جديدًا. حتّى المدينة القاتلة بدت مضيئةً. وكم كانوا توّاقين إلى لقاء الآخرين وزفّ البشرى لهم!

ذات يومٍ سيُنسى موقع عمّاوس، والنزل الخافت الضوء حيث كُسِر الخبز. ولكن، لابأس، فعمّاوس في كلّ مكانٍ، إن نحن شئنا، صادقين، أن تكون كذلك.

* *

على درب عمّاوس تجلّى الروح القدس من خلال تشابك مصير تلميذَيْن، ومصير ابن البشر الذي نبذه إخوته، وقتلوه، ولكنّه بقي مقيمًا في ما بينهم، مواكبًا لهم على الطرقات، مصغيًا إلى ما يختلج في صدورهم، وباثًّا فيهم نوره الذي يُضفي على الوجود معنًى. وحسبنا أن نكتشف حضوره في قلوبنا المضطرمة قلقًا، وتوقًا إليه، كي نشترك في مصيره، ونتلقّى روحه القدّوس، ونتبيّن مدى احترامه لحرّيّتنا، فيغمر نفوسنا النور والسلام.

* *

وما انفكّ يسوع يباغتنا، ويُشيع حضوره فينا، على نحوٍ سرّيٍّ، غير متوقّعٍ. وما برح يواكبنا على دروب الحياة، متخفّيًا، ولكن ساهرًا، وقريبًا منّا، حتّى نكسر الخبز معه، ومع إخوته.

مدهشةٌ هي الحياة التي لا يهدّدها الموت!

مدهشةً تجلّت صباح الفصح في القبر الخاوي، وفي مساء اليوم عينه، على طريق عمّاوس. وهي تُدهِش دائمًا، وتغيّر كلّ شيءٍ برفقٍ، بتجلّيها في أعماق الذات، عندما نكون خاشعين في كنيسةٍ، أو متأمّلين في ركنٍ منعزلٍ. وقد تباغتنا في غمرة محنة الفشل والموت.

ومدهشٌ الحيّ، يسوع غير المنتظر، عندما يظهر على درب عمّاوس، الدرب الذي يقود إلى الذات.

قصّة عمّاوس نَخبَرها كلّ يومٍ، في أصغر تفاصيل حياتنا اليوميّة.

* *

اختلف المفسّرون حول تحديد مكان عمّاوس في فلسطين اليوم.

ولكنّ عمّاوس هي أيّ مكانٍ في العالم يكتشف فيه إنسانٌ حضور يسوع الحيّ. وما أكثر الضاربين على دروب عمّاوس!

فكم من رجالٍ ونساءٍ واكب يسوع مسيرتهم على طرقات الخيبة، والحزن، والبحث، وكم مَن اضطرمت قلوبهم، وانقشعت الغشاوة عن أبصارهم، فتعرّفوه، وجرَوا يبشّرون!

وما زال يسوع، كلّما اختلطت الظلال بالنور، وكلّما لطّخت الخيبة ألوان الحياة الزاهية، يواكب السائرين بخطًى ثقيلة. وحيثما يتمّ اللقاء بالناهض من الموت، يتأكّد حضوره بالمشاركة.

* *

منذ أَلفين من السنين ما برحت بذور الإنجيل تنبت في أثلام التاريخ، وتنضج تحت أشعّة شمس الحبّ، ومنها يُصنع خبز المشاركة.

قد تثبّط عزيمَتنا أمواجُ العنف، والقهر، والازدراء، وسيطرة المال، وفقدان معنى الجوهريّ، التي تغزو عالمنا. ولكن لا تغربنّ عن بالنا تطلّعات القدّيسين، ومآثر الشهداء والأبطال، وحضور ذاك الذي يواكب مسيرتنا، ويرتحل بنا من الماضي إلى المستقبل، ومن القنوط إلى أزهى رجاءٍ!

إنّ نبيّ السعادة معنا، ومع كلّ ساعٍ على دروب الحقّ والحرّيّة.

ألم يقل الإنجيليّ يوحّنا: «**إنّ بينكم من لا تعرفونه**» (١ : ٢٦)؟ وألم يؤكّد متّى أنّه يسير «**معكم، كلّ الأيّام، حتّى انقضاء الدهر**» (٢٨ : ٢٠)؟

* *

هناك قيامة حياةٍ كلّما كسر بشرٌ خبز الإخاء، وأنهضوا من أقعدهم المجتمع، وانتشلوا من هوّة البؤس من دفعتهم إليها أنظمة المتسلّطين.

عمّاوس هي حيثما أحبّ بشرٌ في المشاركة، وشاركوا في الحبّ.

«خُذوا الرُّوح القدُس»

(يوحنّا ٢٠ : ٢١-٢٣)

عشيّة الفصح كان الرسل ما برحوا يرتعدون خوفًا، ملتصقين أحدهم بالآخر، مثل خرافٍ هجرها راعيها، داخل عليّةٍ محكمة الإيصاد، وفي صدورهم كانت أبوابٌ أوصدت بمزاليج الخوف، الخوف الذي يلتهم النفس، ويشلّ الطاقات، ويشيع العقم والعمى.

وإذ بيسوع في وسطهم، مخترقًا الجدران والأبواب، يقرئهم السلام، لا سلام البشر الزائف، ولا سلام الحياة الخاملة المستكينة، بل سلام الإيمان الراسخ، والثقة المطلقة، السلام الجريء، الواثق من النصر، سلامًا راسخًا في الأعماق، متجلّيًا على الوجوه. سلامًا يحاكي سلام حياته القصيرة التي كانت اضطرامًا، وصدامًا، ومخاطرةً. وفيما كان يقرئهم السلام أراهم جراحه، فالسلام غالبًا ما يقود إلى الاستشهاد، لأنّه تقبّلٌ لله، وتوافقٌ مع مشيئته، وصراعٌ مع قوى الشرّ.

سلامه هو سلام من بذل حياته، وقهر الخوف إلى الأبد، لأنّ خوف الموت لم يُرعبه، ولم يلجمه، بل دعّم إرادته، وإقدامه، وسخاءه.

زوّدهم بالسلام، فغمرهم الفرح، والفرح فجّر نوره داخل أولئك الرجال الذين كانوا قد نأوا بأنفسهم عن الشمس.

سلامه أحدث فيهم تحوُّلاً مدهشًا، فأولئك الذين كانوا يرتعدون خشيةً، طفحوا بشْرًا وتفاؤلاً وإقدامًا. وتسلّحوا بقوّةٍ إلهيّةٍ. اتّسعت آفاقهم، وتشدّدت قلوبهم، وغدَوا جاهزين للمخاطرة والنضال، والمشاركة .

الفرح الذي غمرهم لم يكن فرحًا سطحيًّا عابرًا، بل هو فرح الفصح، فرح القيامة الذي قهر الموت والخوف، ولم يعد بقدرة شيءٍ استلابه، الفرح النابع من الإيمان بيسوع.

وبعد أن أقرأهم السلام ثانيةً، كي يرسّخ في نفوسهم دعائمه، حسر اللثام عن المستقبل الذي كان يُعدّهم لـه، ويُعدّه لهم: «**كما أنّ الآب أرسلني أنا أُرسلكم**». رسالةٌ تستمدّ زخمها من السماء، من الآب الذي أرسله.

لقد جعل يسوع كلاًّ من رسله والمؤمنين به يسوعًا آخر مرسَلاً إلى العالم. ثمّ نفخ يسوع في رسله وقال لهم: «**خذوا الروح القدس**».

بمنحهم الروح لم يمنحهم مجرّد قدرةٍ سرّيّةٍ عجيبةٍ، بل وهبهم الروح الذي تلقّاه من أبيه، والذي جعله، سحابة حياته، يعمل ويتكلّم بصفته ابن الله المحبوب. وهو، عندما يمنح روحه، يمنح أكثر من كنزه الأغلى، يمنح سرّ كيانه وشخصه.

نفحةٌ من شفتي الله، في فجر الخليقة، فجّرت النسغ الأوّل، وكانت أعظم ريحٍ في الكون، ما زالت نسائمها تهبّ على العالم، وتبثّ في أوصاله الحياة. نفحةٌ استنهضت الأنبياء، وأيقظت الشعوب، وولّدت البشريّة على المستقبل الذي شاءه لها الربّ.

وها إنّ يسوع بحركةٍ من شفتيه يبعث، في تلاميذه المنهارين، حياةً هادرةً، فاقت نتائجها كلّ توقّعٍ، فقد أولاهم، مع روحه، سلطة الغفران، أمنع قدرةٍ في الوجود، إذ إنّها كفيلةٌ بتحويل كيان البشر.

نفخة يسوع تختزل أقواله التي ستظلّ إلى الأبد خميرةً تُخصِب النفوس، وتختزل أعماله الكفيلة بهزّ خمول الأفراد والجماعات، في كلّ حينٍ، وبدفعها على دروب الحياة الفاعلة.

نفخة يسوع هي نَفَس الله الذي يخلق ويُعيد الخلق، ويلد بشرّيّةً متجدّدةً، ويُطلع شمس عالَمٍ قشيبٍ. يخلق ويجدّد الخلق، في الدم والدموع، في بذل الذات، في اندفاع المحبّة، في قلوب وأيدي جميع الذين لا يقنطون، أبدًا، بل دائمًا يحاولون من جديدٍ، لأنّهم يتلقّون نَفَسًا صامتًا، هيوليًّا، متّقدًا، نَفَس الله.

نفخ يسوع في أصدقائه، ولكأنّه، عِبرهم، يُعيد صوغ الخليقة، وصُنع الإنسان من جديدٍ. لقد نفخ فيهم الروح الذي حداه منذ المولد حتّى القيامة، الروح الذي جعله يجتاز الموت، والذي أقامه إلى الأبد. وهو، هو، الروح الذي يقود اجتيازنا الأرضيّ نحو ملء الكمال.

لا يأتي الروح كي يتملّكنا، ولا لكي يجرّدنا من ذواتنا، بل يأتي لكي نكون ذواتنا على نحوٍ أوفر، أحرارًا ومسؤولين، لا بل كي نكون أكثر من ذواتنا.

بقوله للتلاميذ «**خذوا الروح القدس**» بثّهم نَفَسه، وروحه، وحمّلهم الرسالة التي كلّفه بها الآب، والتي عبّر عنها بقوله: «**روح الله عليّ لأنّه مسحني لأُبشّر الفقراء، وأرسلني لأنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر، ولأطلق المرهقين أحرارًا، وأنادي بسنة قبولٍ عند الربّ**» (لوقا ٤ : ١٨-١٩). لقد منحهم الروح المحرِّر، واهب الحياة، الذي يحبّ ويسامح باسم يسوع، ويستبدل قلوبًا من حجرٍ بقلوبٍ من رأفةٍ ومحبّةٍ.

وهو ما برح ينفخ في كلّ مؤمنٍ نسمة حياةٍ جديدةٍ، مفعمةٍ بروحه، كي يجدّد الحياة، أينما وُجد، ويحرّر العالم من الخطيئة، ومن الشرّ، ويبثّ فيه روحًا جديدًا.

إنّ طموحات يسوع للإنسان ولتاريخه تتخطّى أجرأ أحلامنا وتطلّعاتنا!

«إنّك، يا ربّ، في أعماق صدورنا، وفي ما يتخطّى تطلّعاتنا الحسيرة، نسمة الحبّ الكفيلة بتوسيع آفاقنا، وبإشاعة رعشاتٍ كبيرةٍ من الرجاء في الجماهير.

«إنّني أعلم أنّ الحبّ، على مدى المسكونة، يخلق ويجدّد الخلق، كلّ يومٍ. وأسمع لهاث صدورٍ كثيرةٍ تخفق في حناياها قلوبٌ حسَّاسةٌ. ولكنّني أسمع، أيضًا، صمت القهر لدى مليارات البشر. فكيف يسعك، يا إلهي، وأنت الأب والأُمّ، أن تحبس أنفاسك؟». **(جيرار بسّيير)**

القَفـزَة: إيـمَانُ تومــا

(يوحنّا ٢٠: ٢٤ – ٢٩)

في قول توما ما يصدم. أهو، حقًّا، يريد أن يضع يديه، داخل جراح يسوع؟ كيف خطرت له هذه الفكرة المريعة، وغير المستساغة من قبل تلميذٍ، وصديقٍ؟

لزمت توما براهين حسّيّةٌ كي يؤمن، ولكأَنّ الإيمان يتجلّى في أطراف أصابعه، وفي نهاية تفكيرٍ محكم المنطق!

وأَجابه يسوع ببسمةٍ ساخرةٍ، ولكأنّه يقول له: هيّا، ضع يدك، حيث شئت، وسترى أنّ ذلك لن يزيدك إيمانًا!

هوّةٌ انحفرت بينهما، وكان لا بدّ من قفزة الثقة لاجتيازها، وللانتقال إلى الضفّة الأخرى، إلى ما يتخطّى العقل، وإلى ما هو أبلغ إقناعًا من الجسّ واللمس، إلى حيث هتف توما، بكلّ كيانه: «**ربّي، وإلهي!**».

* *

ما الذي دهى توما، وهو الذي، عندما تهيَّب جميع رفاقه مواكبة المعلّم إلى بيت عنيا حيث أقام لعازر من قبره، وحيث كان اليهود يتربّصون به، ويحيكون خطّة قتله، انبرى وحده، مندفعًا، وأهاب برفاقه، بحميّةٍ، أن يمضوا مع الربّ، حتّى إلى الموت؟ فما الذي جعله يشكّ في قيامة ذاك الذي محضه ثقته وحبّه؟

يبدو أنّ توما لم يكذّب رفاقه، بل توخّى التثبّت من أنّ الذي ظهر لهم هو نفسه الذي آمن به منذ البدء. فهو كان قد آمن بابن الله الكائن من لحمٍ ودمٍ، ولذلك طالب بمشاهدة إنسانيّة الناهض من القبر وجسّها، للتأكّد من أنّ هذه الإنسانيّة عينها هي التي صُلبت، ودُفنت، وقامت قاهرةً الموت، ومن أنّ قاهر الموت هو الإنسان الذي ناضل وعُذِّب، وحتّى في قيامته ما برح يحمل آثار الصلب.

تلميذا عمّاوس

(بريشة تانير)

حلول الروح القدس (بريشة غريكو)

أو ربّما كان توما ممّن جعلهم موت يسوع المهين يرتابون في صحّة رسالته الإلهيّة، لزعمهم أنّ اللّه لا يرضى بمثل هذا المصير لابنه. ولذلك اقتضى توما براهين حاسمةً، لكي يتخطّى التناقض الظاهر بين رسالةٍ بدت إلهيّةً، وموتِ رسولها الذليل؛ تناقضًا بين المجد والصليب.

ذات يوم كان الربّ قد قال لتوما: «**أنا الطريق، والحقّ، والحياة. فلا أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي**». وآمن توما أنّ يسوع هو الطريق المفضي إلى اللّه، ولكنّ الصليب شوّش معالمه، فحرص على الاستدلال إليه ثانيةً، والتثبّت منه، لكي لا يضرب على دروب التيه.

وما إصرار توما على التذكير بالجراح الفاغرة، إلاّ للتأكيد على أنّ كلمة اللّه لبس جسدًا هشًّا، وسكن في ما بيننا، وواجه ظلمات المجتمع.

* *

ومن المرجّح أنّ توما لم يحتجْ إلى البراهين التي اقتضاها. فمجرّد أن وقف يسوع أمامه، وناداه باسمه، ودعاه إلى جسّه، انهارت كلّ شكوكه، وتهاوى، هو نفسه، عند قدمي المعلّم، وأطلق من أعماق كيانه أجمل صرخة إيمان: «**ربّي وإلهي!**».

صرخةٌ تعبّر عن الإيمان المسيحيّ بقوّةٍ فريدةٍ، وتتخطّى كلّ إعلانات الإيمان التي وردت في الإنجيل.

صرخةٌ هي شهادة إيمانٍ بأنّ يسوع كان حاضرًا، إلى جانبه، في أحلك ساعات ارتيابه، وأنّه دائم الحضور، وإن لم يُشاهَد.

لقد اتّضح لتوما أنّ الناهض من القبر هو هو الذي أولاه، من قبلُ، إيمانه، ولكنّه أوفر حياةً ممّا كان في أثناء وجوده على الأرض، إذ لم يعد محكومًا بأيّة حواجز وحدودٍ مادّيّةٍ، وأنّ جسده البشريّ الذي أراد جسّه، قد غدا يفيض ألوهةً .

* *

كان توما هو أكثر التلاميذ شكًّا، ولكنّه عندما آمن كان إيمانه هو الأعمق، إذ لم يخاطب، قطّ، أيٌّ من التلاميذ يسوعَ بهذين الوصفين اللّذين يوجزان الإيمان كلّه: «**ربّي وإلهي!**».

كثيرون هم الذين يرون في توما صورةً لذواتهم، فهو واقعيٌّ، لا يُخدَع، ويحرص على التحقّق من كلّ شيءٍ. ولم يتوانَ عن خرق أُصول اللياقة، فلم يثق بخبرة رفاقه الذين عرف صدقهم ونزاهتهم، وأصرّ على اختبار كلّ شيءٍ بنفسه.

وقد بات شائعًا، اليوم، القول: «لا أومن إلاّ بما أرى وألمس». إنّها عقليّة العصر المدموغة بسمة العلوم الاختباريّة التي أوهمت الكثيرين بقدرتها على تفسير كلّ شيءٍ. في حين أنّ علماء كبارًا باتوا أشدّ تواضعًا واعترافًا بأنّ أمورًا وظواهر عديدة هي واقعٌ راهنٌ يتعذّر تفسيره مادّيًّا.

وقد عبّر «أنطوان دي سانت إكسوپيري» عن حكمةٍ خالدةٍ عندما قال: «**الجوهريّ لا تشاهده العيون. بل القلب، وحده، يرى جيّدًا**».

وكم من لامرئيٍّ أصدق من كلّ مرئيٍّ!

ويسوع نفسه أكّد هذا الواقع بقوله لتوما: «**لأنّك رأيتني آمنت. ولكن طوبى للّذين لم يرَوا وآمنوا**».

بهذه التطويبة الأخيرة التي توجز مغزى الحدَث كلّه، اختُتِم الإنجيل، الذي استُهِلّ بتطويب العذراء، لأنّها «آمنت بأنّه سيتمّ ما قيل لها من لدن الربّ».

تطويبة يسوع الثمينة هذه تُسيل العزاء والرجاء في نفوسنا، وتؤكّد أنّ الربّ، حتّى عندما لا نراه، ولا نشعر بوجوده، حاضرٌ معنا، في كلّ مناحي حياتنا اليوميّة، في بيوتنا، في الشارع، وفي مراكز العمل.

توما آمن، لأنّه، من خلال جسد يسوع البشريّ الذي رآه بعينيه، استشفّ ألوهته، أمّا نحن فإيماننا أعظم، لأنّنا لم نَرَ جسد يسوع، ومع ذلك، من خلال شهادة الإنجيل، آمنّا أنّه إنسانٌ وإلهٌ، أو، بالحريّ، إلهٌ تجسّد، لأجل خلاصنا. وبفضل هذا الإيمان ستكون لنا الحياة باسمه (يوحنّا: ٢٠: ٣١).

* *

لقد ابتغى يسوع، من خلال هذا الحَدَث، أن يلقّننا درسًا ثمينًا. فقد كان بوسعه أن يبدّد شكوك توما حالما عبّر عنها، بظهورٍ مباغتٍ يُفحمه به. إلاّ أنّه تريّث ثمانية أيّام، تخيّل توما، خلالها، أنّه كان، في شكوكه، محقًّا، فكان الدرس الذي تلقّاه

أبلغ وقعًا. وفي هذا السياق يقول القدّيس غريغوريُس الكبير: «أتظنّون أنّ توما كان غائبًا بمحض الصدفة، وأنّه لمّا حضر سمع رواية الظهور، وأنّه لمّا سمع شكّ، ولمّا شكّ لمس، ولمّا لمس آمن؟ لا، لم يكن ذلك مجرّد صدفةٍ. بل الله هو الذي رتّب الأمور على هذا النحو. لقد عملت الرأفةُ الإلهيّةُ على نحوٍ مدهشٍ: فعندما لمس التلميذ المرتاب جروح جسد معلّمه، برئت نفوسنا من جراح الشكّ. والتلميذ نفسه، عندما شكّ ولمس، تحوّل شاهدًا على حقيقة القيامة».

وبناءً على شهادته وشهادة رفاقه، نؤمن نحن، في غير حاجةٍ إلى رؤيةٍ.

فمذ دوّن يوحنّا إنجيله كان عهد «الرؤية»، قد ولّى، وتلاه عهد «الإيمان». وقول يسوع: «**طوبى لمن لم يرَوا وآمنوا**» لم يكن تمييزًا لتوما عن سائر التلاميذ، بل كان فصلاً بين جيل الرؤية وجيل الإيمان.

إنّ ربط الإيمان ببراهين حسّيّةٍ لا تُدحض، هو، غالبًا، أمرٌ مستهجَنٌ، وكفيلٌ بجرح الحقائق نفسها التي يُراد إثباتها.

وغالبًا ما ينمّ اقتضاء براهين على الحبّ، والنزاهة، والسخاء، عن علاقةٍ واهيةٍ، مترجرجةٍ.

يسوع نفسه، عندما طالبه خصومه ببراهين عن منشئه الإلهيّ، وعن رسالته، رفض تقديمها؛ فلو كانت نواياهم صادقةً لآمنوا بأفعاله.

الإيمان هو المخاطرة في اقتفاء خطى يسوع، يومًا إثر يومٍ، وتقبُّل دعوته إلى السموّ بالحياة تنفيذًا لرغبة الآب. ولو اتّكأ الإيمان على براهين ملموسةٍ، لما كان إيمانًا.

كلّ من يسير يعلم، بخبرته اليوميّة، أنّ الأرض صلبةٌ تحت قدميه، ومن يتّخذ يسوع دليلاً، ورفيق حياةٍ، يعلم، من خلال لقائه الحميم به، أنّه حيٌّ، ويُغدق الحياة، و«أنّ الإنسان يتخطّى الإنسان».

والسير في إثر يسوع هو تلقّي عدوى حياته، ونفحة روحه القدّوس؛ وهو التجلّي في الحبّ، والصفح، والرجاء.

ليس الإيمان، دائمًا، سهلاً، فالحياة، والموت، والعالم، حافلةٌ بالظلمات؛ وإيماننا يهتزّ أحيانًا. ولكنّ أعمال يسوع وأقواله تُتيح لنا أن نتذوّق مسبّقًا طعم الحياة الحقّة.

وما علمناه عنها كافٍ لكي نولي إيماننا ذاك الأخ الأكبر الذي خرق جدران القَدَر الصفيقة، لكي ينتشلنا من براثن الخوف والموت.

نحن لا «نمتلك» الإيمان امتلاكًا نهائيًّا، بل نتقبّله، كلّ يومٍ، هشًّا، مرتجفًا، ولاسبيل إلى تدعيمه إلاّ بالمحبّة. فعلى حدّ قول پاسكال: «الحقيقة، بمعزلٍ عن المحبّة، ليست الله، بل هي صنمٌ ...».

والإيمان ليس عقيدةً فحسب، بل هو كلّ الكيان، والفكر، والقلب، والأقوال، والأفعال. إنّه عطاءٌ وصفحٌ. إنّه الالتصاق في ثقةٍ وشغَفٍ، بمن لا يأنف من المجيء إلى صميم ذاتنا، الحميمة.

* *

لا يمكن فصل مجد من كان هو النور، عن حياته، وموته، وأقواله، وأعماله، وجدّته التي خضّت كلّ شيءٍ، ذاك الذي قوّض الحواجز الاجتماعيّة والدينيّة، مندّدًا بكلّ الصغارات والأنانيّات، وداعيًا البشر إلى العيش في العمق، بصفتهم أبناء أبٍ واحدٍ. فذاك الذي قهر الموت لن يكفّ عن إقامة البشر من موتهم. وهو، أبدًا، يوافينا، كي يرينا جراح من يبذلون حياتهم، ويحتملون الاضطهادات، كي تولد البشريّة من جديدٍ، وتكبر.

* *

إذا خامرتنا شكوكٌ كتلك التي خامرت توما، فلنجسّ جراح يسوع في إنسانيّة من يتألّمون في قلوبهم، وأجسادهم، وكرامتهم؛ ولنُقبل على مائدة حبّه، وحينئذٍ، أمام حضوره المذهل، فلنهتف، مثل توما المؤمن: «**ربّي، وإلهي!**».

وَأخيرًا بَزَغَ الفَجْر

(يوحنّا ٢١: ١-١٤)

ما أطول الليل على المركب الذي كدّ منذ المساء، وظلّت شباكه فارغةً! فراغٌ، وظلامٌ، وكلّ شيءٍ، يبدو معاديًا وقاسيًا.

وبزغ الفجر، ناشرًا، بتؤدةٍ، خيوط ضوئه الفضيّة، على مُوَيجات البحيرة. وفجأةً لاح على الشاطئ طيفٌ ناداهم، وكأنّه يداعبهم: «**يا أولاد!**». كم استعذب أولئك الذين انهكتهم قسوة الليل، وأضناهم القلق، وشاخوا قبل الأوان، أن ينادَوا كما كانوا ينادَون وهم في ميعة الشباب: «**يا أولاد**»، ولا سيّما أنّ من ناداهم كان ما يزال واثقًا من مهارتهم: «**هل لديكم شيءٌ من السمك؟**».

لا، ليس لديهم من السمك شيءٌ! فراغٌ في المركب وفي القلب، غير أنّ الطيف يرفع صوته من جديدٍ: «**ألقوا الشباك على يمينكم**». لا بدّ لهم من تغيير الاتّجاه والنظرة، ولا بدّ من المبادرة. وها هي ذي الشباك قد امتلأت، وكادت تتمزّق. وها هو الفجر يغزو المدى البحريّ، والنور يسكّن الأذهان القلقة ...

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

يمكن تخيُّل عمق تأثّر التلاميذ الذي أحدثه ظهور المعلّم على هذا النحو. فهو، بعد قيامته، ما انفكّ محتفظًا بالرقّة العذبة التي كانت تطبع تعامله معهم من قبلُ. وهو يستخدم عناصر مادّيّةً، جمرًا وسمكًا، ولكأنّه يبتغي تأكيد واقع حضوره، وإشاعة جوّ الدفء، الذي كان يسود علاقاتهم.

بطء تعرّفهم له، دليلٌ على التحوّل الذي طرأ على جسده الممجّد. «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه» عرفه من إيعازه بإلقاء الشباك، مرّةً أُخرى، إلى اليمين، موقظًا ذكرى صيدٍ عجيبٍ آخر. كان يوحنّا أوّل من ولج قبر المخلّص، ولقيه خاويًا، فرأى وآمن. وها هوذا يهتف «**إنّه الربّ**». ويوحنّا هو، غالبًا، الوسيط بين يسوع وبطرس.

كان لا بدّ من إشارةٍ لفتحِ عيونهم، غير أنّ كلام المعلّم ما زال محتفظًا ببليغ وقعه، وما برحت إرادته محتفظةً بسلطانها على الطبيعة.

وما انفكّ بطرس متميّزًا بعنفوان اندفاعه، وبرغبته المضطرمة في محو آثار نكرانه للمعلّم الذي لم يفقد حبُّه له شيئًا من ناره.

ما كان أطيب وجبة السمك المشويّ، والخبز الساخن، بعد هذا الظهور!

القدّيس أوغسطينُس رأى في السمك المشويّ رمزًا إلى المسيح الذي سيم العذاب، ورأى في يسوع خبز الحياة الهابط من السماء.

* *

حضور يسوع غير المتوقّع هو الذي يبدّد الحيرة والضيق. هو الذي يرشد التلاميذ إلى مصيرهم، وسواء السبيل، كلّما تملّكهم القلق والاضطراب. إنّه دائمًا هناك، على الضفّة الأُخرى، وبإبحارهم نحوه، يعلنون ملكوته، ويدعون البشر إلى ولوجه، ويلعبون دورًا هامًّا فوق أمواج التاريخ الصاخبة الخطرة.

إنّنا، جميعًا، نكدح في ليلٍ متمادٍ، وغالبًا ما تبقى شباكنا فارغةً. وحينئذٍ فلنتطلّع إلى قاهر الموت والفشل، المرشد إلى ضفّة الحياة الأخرى، ولنستأنف الكدّ وفقًا لإرشاده، فهو وحده قادرٌ أن يقود مغامرتنا، ويذكّرنا بمقتضياتها وبسعادتها.

وعندما يُرهقنا الكدّ، ونرزح تحت وقر فشلنا، نجده ينتظرنا. قد أعدّ الخبز السخن والسمك المشويّ، فسحةَ استجمامٍ، ووجبة رجاءٍ وطاقةٍ متجدّدةٍ.

إنّه يتجلّى لنا، دائمًا، في مبادرة حضورٍ غير متوقّعٍ، وفي الخدمة والمشاركة، وما علينا إلاّ أن نحدّق ونُنصت، كي نتعرَّفه.

إنّ أصغر مشاركةٍ تمزّق الظلمات، وتجعلنا نشعر، في أيدينا المبسوطة، بيدَيْ من يهب كلّ شيءٍ، يدَيْن لا نراهما، ولكنّ دفئهما يشعّ فينا.

لِمَ أنتُمْ حَزانَى؟

أمام يسوع المعلّق على الصليب، وجوهٌ متجهّمةٌ، وعيونٌ يغشاها الحزن، وشعورٌ سائدٌ بالألم. ولكن هل تتعيّن، حقًّا، الشفقة، والوجوم، والحداد؟

أجل للوقار، ولكن لا للانهيار والاستسلام القانط! فذلك الذي أمسى صليبه مغروسًا في كلّ القارّات ليس مدانًا بجريمةٍ شائنةٍ، وليس واحدًا من السفلة كالمصلوبَيْن على يمينه ويساره، وليس موته فشلاً، وعارًا، وعَبَثًا لا طائل تحته. وإلاّ لما انتشرت الصلبان على امتداد العالم، ولما كان للإيمان المسيحيّ شأنٌ.

المسيحيّون الأوّلون كانوا يمقتون تصوير يسوع على الصليب بعد أن شاهدوا، بأُمّ العين، تلك الأجساد المسكينة عاريةً، مشوّهةً، مرتكزةً على إسفينٍ خشنٍ، وسط آلة العذاب التي سُمّرت عليها القدمان، فيما سُمّرت اليدان على عارضةٍ أُفقيّةٍ. تلك الأجساد كانت تتهاوى تحت ثقلها، ورؤوسها المطأطئة تتأرجح يمنةً ويسارًا، والكلاب التي استدعتها رائحة الدم تلتهم الأرجل، والجوارح تحوم حول مسرح الموت ذاك، والمعذّبون الذين أنهكتهم الآلام، يتلظّون عطشًا، ويستدعون الموت بصيحاتٍ مبهمةٍ. ذاك كان عذاب العبيد، وهو الذي تجرّعه يسوع...

بيد أنّ يسوع مضى صوب هذا المصير مختارًا طائعًا لمشيئة أبيه، وكان صلبه أكثف أعماله حياةً، وخصبًا، خلال وجوده القصير، وأشدّها عدوى بالحياة للأزمنة القادمة.

لقد صُلب لأنّه كان ممعنًا في الحياة، وفي إغداق الحياة.

ولم يكن صلبه رمز استسلامٍ أو دليل رضوخٍ، بل كان تذكيرًا بالوجود الكثيف المزلزل الذي عاشه أغنى كائنٍ بالحياة، ممّن درجوا على أرضنا.

وكان صلبه ثمن جرأته في قيادة ثورة الحبّ، وابتغائه الارتقاء بمصير البشريّة نحو ذرَى شامخاتٍ، وبناء ملكوت عالَمٍ جديدٍ، وملكوت حبٍّ دعا إليه جميع البشر، بلا استثناءٍ، متخطّيًا كلّ الفواصل، ومقوّضًا كلّ الحواجز.

لذلك لم يخجل تلاميذه من الاستفاضة في وصف آلامه، التي كانت منبع حياةٍ للبشر، بحيث بدت الأناجيل، ولكأنّها روايات الآلام، التي مهّدوا لها بمقدّمةٍ مسهبةٍ.

فمن خلال المصلوب يتجلّى الناهض من الموت، الحيّ المدهش، الذي جاء كي يضرم على الأرض نارًا.

وستظلّ حياة يسوع الحافلة بالتحدّيات، والصليب الذي توّج هذه الحياة، درب مجدٍ، وقيامةٍ، وفرحٍ.

إنّنا نحكم على نجاح يسوع أو فشله، وفقًا لمعاييرنا، ولحياتنا، في حين أنّ يسوع يريد خلق حياةٍ أُخرى، حيث قد يواكب «الفشل» أكثر مراحل التقدّم إدهاشًا، وحيث الألم يؤذن بولادةٍ جديدةٍ.

لقد خُيّل لقوى الظلام أنّها أعدمت يسوع على الصليب، وأنهته، ومحت أثره إلى الأبد. ولكنّه، هو، أعلن وأثبت خصب الحبّة التي تسقط وتموت في الثلم. وبعد أن قاوم كلّ خمائر الموت في قلوب البشر، شرعت عدوى حياته تمتدّ نحو أَمداءٍ وأزمانٍ لا نهاية لها. وبات طعم المستحيل عنيدًا لا يتراجع حتّى أمام الموت. ومنذئذٍ غدت جماهيرُ غفيرةٌ من البشر تحيا وتموت مع يسوع، يحدوها يقينٌ راسخٌ بأنّها، معه، قهرت الموت.

فيسوع مات على الصليب مثل البذار الذي يُغرَس في التربة، مثل الخمير الذي يسري في العجين، مثل الملح الذي يذوب في الطعام، مثل الشعلة التي ترتجف وهي تمزّق العتمة. غير أنّ التربة، والعجين، والظلمات أتاحت له مضاعفة الحياة، وإشاعة عدواها.

بصليبه أعطانا يسوع إشارةً تحمل لنا معنًى كبيرًا، حتّى وسط أحلك لحظاتنا ادلهمامًا، إشارةً تدعونا إلى العمل والحبّ.

لم يكن الصليب دليل موتٍ، بل كان رمزًا لملء الحياة. فهو، بلمساتٍ من دمٍ، اختصر حياة يسوع التي رجّت الكون، وما برحت ترجّه.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

كان يسوع قد قال: «**من أهلَكَ نفسه يخلّصها**». وهو أهلك نفسه، لكي يخلّصنا. وعلى حدّ قول القدّيس بولس: «**إذ إنّه تألّم وابتُلي، صار في طاقته أن يُغيث المبتلَين**» (عبرانيّين ٢ : ١٨).

في يوم صلبه، ولج لصٌّ مجرمٌ فردوسَ الفرح، واكتشف قائد مئةٍ رومانيٌّ ابن الله، واستعاض فرّيسيٌّ وعضوٌ في السنهدرين، يوسف الأَريماثيّ، عن تناول فصح اليهود بالتهيئة لفصح القيامة. وانتصبت شجرة الصليب، وسط العالم، مثقلةً بثمرةٍ ناضجةٍ، وغدا الصليب مرادفًا للحبّ، والتضحية، والخلاص، والرفعة، والبطولة. ولذلك عشِقه الكثيرون.

عشقُ المسيحيّين للصليب ليس مَرَضيًّا. فالصليب يؤكّد لكلٍّ منهم أنّه أُحِبّ حتّى الجنون. وقد بات لأصغر فردٍ فيهم بعدٌ قدسيٌّ لا يتأتّى من كونه قد قُدّ من نسيجٍ إلهيٍّ، ووُلد من قلب الله، فحسب، بل من كون يسوع قد صُلِب من أجله.

* *

عشيّةَ موته، تحدّث يسوع عن مجده، و«المجد»، في قاموسه، هو الصليب، إذ إنّه على الصليب تسنّم قمّة مجده.

هذا «المجد» تألّق على وجوه الشهداء، وما برح يسطع من خلال سِيَر رجالٍ ونساءٍ وهبوا حياتهم، وذواتهم، في كلّ يومٍ، وكلّ لحظةٍ، لخدمة المحبّة، وللتصعيد البطوليّ في معارج القداسة.

وقد غدا «حمل الصليب» على خطى يسوع، رمزًا للبطولة، والتسامي، وابتغاء الكمال. وهو ليس مهمّةً عابرةً، بل هو واجبٌ يستمرّ مدى الحياة.

وأمسى «جنون الصليب» صفة المسيحيّة وميزتها، إذ إنّه يعني أنّ الله ارتضى مقاسمتنا كلّ الوضع البشريّ، ما خلا الخطيئة، وحمله معنا أَعباء الألم، والقلق، والموت.

* *

ربّما ما برح صليب يسوع عقبةً دون إيمان الكثيرين به. ولكنّ معظم المسيحيّين ينتابهم شعورٌ بالاعتزاز، وهم يتأمّلون صليب من مضى، في ذَوْده عن حياض

العدل، والإخاء، والكرامة الإنسانيّة، حتّى غاية الشوط، ومن سكنه هوى الحرّيّة، والسلام، حتّى الموت.

وإن هم آنسوا بعض حزنٍ حيال الصليب، فلأنّهم افتقروا إلى قسطٍ وافٍ من الجاهزيّة، والجرأة، كي يناضلوا مثل يسوع، وتحت رايته، في سبيل إنماء إنسانيّةٍ متضامنةٍ، أخويّةٍ.

تتلمذوا جميعَ الأمم

(متّى ٢٨ : ١٨ – ٢٠)

كان يسوع قد ضرب لتلاميذه ورفاقه موعدًا على الجبل. والجبل، في الكتاب المقدّس، هو مكان لقاء الله واعتلانه. فمن القمّة، المشهد أرحب، والهواء أشدّ نقاءً، والعزلة أعمّ، وتُمكّن من سماع أصوات الصمت التي غالبًا ما يطغى عليها ضجيج الأحاديث الجوفاء. ويقال إنّ هذا اللقاء الأخير قد تمّ على جبل التطويبات، ممّا يزوّد الخيال بأجنحةٍ رشيقةٍ.

يقول الإنجيليّ: «**لمّا رأوه سجدوا له. ولكنّ بعضهم ارتابوا**». السجود تعبيرٌ عن الإيمان، وانتصارٌ على الشكّ. والإيمان فعلٌ حرٌّ اختياريٌّ، وليس خضوعًا لوقائع مادّيّةٍ ضاغطةٍ. ولذلك اتّسمت معظم ظهورات يسوع القائم من القبر بشيءٍ ما، كان يمنع كثيرين من تعرُّفه للوهلة الأولى، ولا يفرض الخضوع له قسرًا. فيسوع يؤثر أن يفسح للإيمان بقيامته فرصةً للنضوج والرسوخ. وإنّما سجد له التلاميذ لأنّهم تعرّفوا فيه، نهائيًّا، «ابن الله»، لا مجرّد سيّد عناصر الطبيعة، بل ربّهم، وسيّد الكون.

الريبة قد تكون رفضًا مبدئيًّا لكلّ ما لا يستوعبه العقل، وقد تكون تمهيدًا لرؤيةٍ فضلى، وبحثًا عن الحقيقة.

فهل كان بَدَهيًّا أن يؤمن بقيامة يسوع من شاهده على الصليب، وفي القبر؟

ولكنّ يسوع دنا من المؤمنين به، وممّن كانوا يقفون منه موقف التردّد والتريّث والريبة، على السواء. البوْن شاسعٌ بين الله والإنسان، ولكنّ ابن الله يتخطّى الهوّة، ويدنو. إنّه هو الذي يتّخذ مبادرة الإيمان، والناس أحرارٌ بمدّ اليد والسجود، أو بالإمساك والابتعاد.

إنجيل متّى هو أكثر الأناجيل إسهابًا في إيراد أقوال يسوع. وهذه هي أقواله الأخيرة التي يستهلّها بإعلانه: «**إنّي قد أُعطيتُ كلّ سلطانٍ في السماء وعلى**

الأرض». وبذلك أكّد مساواته للآب. ففي جميع كتب العهد القديم، اللّه هو ربّ السماء والأرض الأوحد. ولكن، بالقيامة، أطلق الآب لابنه المتجسّد كلّ سلطانٍ، حسب قول بولس الرسول: «**إذ أنهضه من بين الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماوات، فوق كلّ رئاسةٍ وسلطانٍ، وقوّةٍ وسيادةٍ، وفوق كلّ اسمٍ يُسمّى، ليس في هذا الدهر فقط، بل في الآتي، أيضًا. لقد أخضع كلّ شيءٍ تحت قدميه، وأقامه فوق كلّ شيءٍ، رأسًا للكنيسة**» (أفسس ١: ٢٠ – ٢٢).

وبموجب هذا السلطان كلّف رسله بتلمذة العالم كلّه: «**فاذهبوا، إذن، وتلمذوا جميع الأمم...**». أيّة آفاقٍ بلا حدودٍ كان يتشوّف، وبأيّ اندفاعٍ، وبأيّة ثقةٍ أوكل مهمّةً بحجم الكون لمن كانوا اثني عشر فقط، وباتوا أحد عشر، في اللحظة التي كان هو فيها يهمّ بالمضيّ للانضمام إلى أبيه السماويّ!

فبما أنّ ليسوع كلّ سلطان، جميع الأمم مدعوّة إلى وضع وجودها تحت سلطته وحمايته. والميزة التي كان قد خصّ بها تلاميذه عمّمها على جميع الشعوب بلا استثناءٍ. ومن ثمّ، على تلاميذه أن يعمّدوا، ويعلّموا، ويخلقوا الرغبة في تنفيذ مقتضيات التعليم. عليهم أن يجعلوا من آخرين تلاميذ. وعلى جميع الذين خبروا كم حوّل تعليم يسوع وجودهم، وسما به، أن يقتسموا هذه الخبرة مع آخرين وأن يعلّموهم حفظ وصايا يسوع التي يمكن إيجازها بالمحبّة.

الرسالة التي كلّف تلاميذه بها، ليست نشر إيديولوجيا، بل ترسيخ علاقاتٍ متبادلةٍ قائمةٍ على الانتماء المشترك للآب، والابن، والروح القدس، وتأسيس شركة حبٍّ عالميّةٍ، متعدّدة الجنسيّات.

«**عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس**». غطّسوهم في ماء التجديد، وفي لجّة الثالوث، رمز أسمى حبٍّ.

بقوله هذا أضاء يسوع آفاق العالم المدلهمّة، ومن قلب اللّه أفاض الحبّ على البشريّة كي يتبنّى عالمًا على صورة اللّه، عالمًا لا يني يجتذبه حبّ الثالوث الإلهيّ.

العماد الذي يدعو إليه يسوع ليس مجرّد عماد توبةٍ كعماد يوحنّا، ولا عماد موتٍ كالذي خضع له هو نفسه على الصليب – والذي قد يُشرَّف به بعض المدعوّين – بل هو عمادٌ يُدخِل إلى الحياة الإلهيّة بكلّ غناها. به يصبح المعمّدون أبناء الآب،

وعليه تقوم كلّ أعمال الحياة مصداقًا، لأنّه يقتضي من المعمّدين أن «**يكونوا أبناء أبيهم السماويّ: فإنّه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين**».... ويدعوهم إلى أن يكونوا كاملين كما أنّ أباهم السماويّ كاملٌ. والعماد يقتضي الوفاء ليسوع، «**فمن اعترف بي قدّام الناس، أعترف أنا، أيضًا، به، قدّام أبي الذي في السماوات**».

يقول الرسول بولس، في هذا السياق: «**الدليل على أنّكم أبناء، كون الله أرسل إلى قلوبنا ابنه ليصرخ فيها: «أبّا، أيّها الآب»**...».

«**عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس**»، أي باسم الله، فاللّه لا يسعه إلاّ أن يكون مشاركةً وتبادلاً، وحوارًا، لأنّه حبٌّ، ومنشأ كلّ حبٍّ وغايته، ولذلك هو ثالوثٌ.

«**وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به**».

فعلى السلوك البشريّ أن يخضع لسيادة القائم من الموت. والتتلمذ ليسوع، ليس، في المقام الأوّل، موقفًا فكريًّا، ولا هو تبليغ مبادئ، بل هو تعلّم أسلوب سلوكٍ يشمل كلّ مناحي الحياة.

وصايا يسوع هي التي ضمّنها عظة الجبل، والتطويبات، والتي ينبغي أن تظلّ خميرةً تُنضج العالم وتحوّله.

بذلك حدّد يسوع جوهر إرادته وفحوى الرسالة الجديدة المدهشة التي كلّف تلاميذه بتبليغها لجميع البشر، وجميع الأمم، وجميع الأجناس والثقافات، وفي كلّ حينٍ حتّى منتهى العالم.

مهمّةٌ جسيمةٌ تتخطّى قدرات البشر، وربّما أرهبت التلاميذ المساكين. غير أنّ يسوع، من قمّة ثالوثه وأبديّته، طمأنهم: «**وها أنذا معكم، كلّ الأيّام، وإلى انقضاء الدهر**».

كان الإنجيل قد استُهِلّ ببشارة الملاك ليوسف: «ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا يدعى اسمه «عمّانوئيل»، أي اللّه معنا. وها إنّ يسوع يختتم الإنجيل بالوعد نفسه «**ها أنذا معكم كلّ الأيّام، وإلى انقضاء الدهر**». إنّه «عمّانوئيل» إلى الأبد.

بهذا الوعد، جعل يسوع كلّ دقيقةٍ من حياتنا حافلةً برفقته، وبات حضوره، يملأ الوجود ويغمر الزمن.

مع كونه على يمين الآب سيظلّ يسوع «عمّانوئيل»، معنا، في كلّ حينٍ.

قطع يسوع هذا الوعد وهو يغادر بجسده أرض البشر. ولكنّ لحظة وداعه ولّدت حضورًا كثيفًا أبديًّا.

لقد مضى، ولكنّه سيظلّ حاضرًا. لقد ولّى عهد ظهوراته الحسّيّة بجسده الممجّد، وبدأ عهد الإيمان العاري، عهد تعلّم معرفته من غير أن نراه بعيون الجسد، والتأهّب لاستقباله على أنّه هبة الروح، ومنبع حياةٍ لجميع البشر.

غيابه أتاح اكتشافه بالروح، وحضوره في العالم أجمع.

صعوده إلى السماء لم يكن بعادًا يشيّعه الأحبّاء بالدموع، والتلويح بالأيدي، بل كان تأكيد حضورٍ فاعلٍ، لا يتراخى ولا يتوقّف، وكان ترسيخًا لهذا الحضور، وتوسيعًا لمداه إلى ما لا نهاية له.

على الأرض كان يسوع حاضرًا، بجسده، لعددٍ محدودٍ من رفاقه، ومن أفراد شعب فلسطين. وبصعوده إلى سماء الثالوث، غدا حاضرًا بروحه لكلّ إنسانٍ، حضورًا سرّيًّا. كان حاضرًا لمن يلتقيهم، وبات حاضرًا بروحه، في صميم حياتنا.

ولحضوره وجوهٌ عديدةٌ: فهو حاضرٌ بكلامه: «**من سمع منكم، فمنّي قد سمع**» (لوقا١٠ : ١٦).

وهو حاضرٌ في إخوته الصغار: «**كلّ مرّةٍ صنعتم (خيرًا) لأحد هؤلاء الصغار الذين هم إخوتي فلي قد صنعتموه**» (متّى ٢٥ : ٤٠).

وحاضرٌ في الصلاة: «**حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثةٌ باسمي، كنت أنا هناك وسطهم**» (متّى ١٨ : ٢٠).

وحاضرٌ حيثما تتحقّق المشاركة، وتخفق المحبّة، وحيثما يتحرّر البشر من الظلم والهوان، والعنف، والبؤس، وحيثما يبذل أبطال المحبّة نفوسهم في هذا السبيل.

* * * * * * * * * * * * * * * * * * *

وجديرٌ بالملاحظة أنّ الإنجيليّ متّى، في هذا النصّ، يؤكّد على الشمول، في كلّ شيءٍ: «أُعطيت **كلّ** سلطان...» «تلمذوا **جميع** الأمم...» و«علّموهم أن يحفظوا **جميع** ما أوصيتكم به»، «وها أنذا معكم **كلّ** الأيّام إلى انقضاء الدهر». كلّ ذلك يوحي بحضورٍ إلهيٍّ غامرٍ، وبتجلّي ملء إنسانيّة يسوع، وملء ألوهته.

حضور يسوع غدا يلفّ كلّ المدى و«**جميع الأمم**». فما من إنسانٍ مستثنًى من نعمة القيامة؛ وكلّ الزمن: «**كلّ الأيّام**». فما من جيلٍ، بل ما من دقيقةٍ يغيب فيهما اللّه. إنّه، أبدًا، حاضرٌ، فاعلٌ، بين ظهرانينا.

«**جميع ما أوصيتكم به**»: عمله يتناول السلوك البشريّ برمّته. فلا قطاع من نشاطاتنا لا يخضع لعمله الخلاصيّ: حياتنا الشخصيّة، والجماعيّة، والمهنيّة، والأُسرويّة؛ حياتنا الداخليّة، وحياتنا السياسيّة.

* *

تلك كانت الصفحة الأخيرة من إنجيل متّى، ولكنّها مهّدت لصفحاتٍ بيضاء لا تحصى، يتعيّن، على البشر تدوينها بمداد الإيمان والمحبّة. إنّها كلمات الناهض من الموت الأخيرة، ولكنّها بشارةٌ ينبغي إعلانها كلّ يومٍ، إلى الأبد، وبداية تاريخٍ طويلٍ لا تبدو لأفقه نهايةٌ، ومستهلّ أعظم وأنبل مغامرةٍ لكلّ الأزمان، بها يملأ اللّه العالم بذاته، ما دام على الأرض إنسانٌ يحيا.

فلنردّد مع طاغور: «لتكن حياتي، نايًا، تملأه، يا ربّ، بموسيقاك»!

« مَا تَسـمَعُونَـهُ هَمْسًا في الأذُن،
نَـادُوا بـهِ عَـلَى السُّطوح »

(متّى ١٠ : ٢٦–٣٣)

لقد حذّر يسوع تلاميذه من غدر البشر واضطهادهم، لأنّ العالم أبغض معلّمهم، فلا بدعَ إن شملهم ببغضه. ولكنّ يسوع ما انفكّ يردّد على مسامعهم، كاللازمة: «**لا تخافوا**».

الموقفان متلازمان. فلا بدّ من التبصّر والحنكة، لتعرّف الخصم، وتقييم ما يمثّله من خطرٍ، بموضوعيّةٍ. وبعد ذلك، يتعيّن الثبات والصمود في وجه التعدّيات والتجارب، بسلاح الإيمان الذي يطرد الخوف، وبشعور الانتماء إلى يسوع، والتأهّب لمشاطرته مصيره. فهذا الشعور كفيلٌ بإشاعة الثقة والجرأة.

المضطَهَدون سيكونون نهبًا بين خشيتين: خشية الجلاّد، وخشية الله. ولكن لا سلطة للجلاّد إلاّ على الجسد، في حين أنّ الحياة الأبديّة هي في يد الله، وإدانته تقضي على الإنسان بكامله، روحًا وجسدًا.

إنّ قدرات الشرّ جسيمةٌ، ولكنّها، في أيّة حالٍ، لا يسعها تخطّي إيذاء الجسد الفاني. أمّا ما يصنع قيمة الإنسان الحقيقيّة ورجاءه في حياةٍ خالدةٍ، فما من قوّةٍ بشريّةٍ تقوى على النيل منه. لذلك لا يخشينّ المؤمن سوى قوى الشرّ القادرة على إهلاك الروح.

هناك خوفٌ من البشر يدمّر النفس، وخوفٌ من الله يحرّره. الخوف من البشر يخنق انطلاقة الروح، والخوف من الله هو دهشةٌ أمام عظمته، وسمّوه، وقدراته، تُشيع في النفس الطمأنينة والثقة. ووحده من يخشى الله قادرٌ على حبّه. إذ إنّه يدرك سموّ ذاك الذي يحبّه، فيحيا في خشية ألاّ يحبّه بالقدر الكافي. وما من حبٍّ لله خالٍ من هذه الخشية.

خشية الله هي ثقةٌ مطلقةٌ في أبٍ حنونٍ، وخوفٌ من إغضابه، ومن عدم استئهال ثقته وحبّه. ولئن كان الله يسهر على استمرار جنس عصافير لا قيمة لها، فكم هو، بالحريّ، يسهر على أبنائه وتلاميذه، ويحرص حتّى على شعر رؤوسهم!

حيال الاضطهاد، البعض يخشَون قسوة البشر، فينكرون الربّ، وآخرون يدفعون حياتهم ثمنًا للشهادة له. وفي يوم الدينونة سيشهد المخلّص، أمام أبيه، لمن شهدوا له، وسينكر من أنكروه، أيًّا كانوا.

في غاية المطاف، «**ليس من محجوبٍ إلاّ سيُكشف، ولا مكتومٍ إلاّ سيُعلَم**..».

رسالة يسوع بدأت متواضعةً، خفيّةً. ولكنّه طلب من تلاميذه أن يجهروا، على رؤوس الملأ، بما همس به في آذانهم، بعيدًا عن الجموع والإعلام، حتّى وإن لم يحظَ إعلانهم برضى جميع السامعين، فمجرّد تبشيرهم شهادةٌ لبشراه، التي لا بدّ لها من الإشعاع والانتصار، مثل شمس الصباح.

وعلى الشهادة أن تكون جريئةً، كاملةً، لا تحفُّظ فيها، ولا فتور.

والملاحظ أنّ مسيحيّي اليوم أقلّ تحدُّثًا عن يسوع من سابقيهم، مع أنّه أوصى تلاميذه أن يعلنوا، على السطوح، ما سمعوه همسًا. أفلا يخشَون أن ينكرهم، في يوم الدين، أمام أبيه، مثلما هم ينكرونه، في أقوالهم وسلوكهم، أمام الناس؟

ثمّة أنماطٌ عديدةٌ من الصمت. منها ما هو ناجمٌ عن الخوف، ومنها ما هو ناجمٌ عن اللامبالاة، ومنها ما هو خيانةٌ.

هناك صمتٌ يغمره الفرح، والامتلاء، والحبّ، وهناك صمتٌ يحمي سرًّا. فأكثف لحظات الحياة هي التي يعيا اللسان في التعبير عنها. وحينئذٍ يُمسي الصمت أبلغ تعبيرًا من كلّ كلامٍ، ويُتيح سماع ما لا يُعبَّر عنه.

ولكن، أنّى للجيل الناشئ أن يعرف يسوع، إن نحن التزمنا الصمت؟ وأيّ رجاءٍ نبثّهم، إن لم نبلّغهم بشرى المخلّص؟

ألم يدعُ الرسول بولس إلى التبشير في وقته، وفي غير وقته، لكي يسري الإنجيل عبر البشريّة، ويواكب الأجيال؟

لا ريب أنّ، ثمّة، أوقاتًا للكلام، وأوقاتًا للصمت. فكثرة الكلام قد تُبلي الكلمات وتجرّدها من أيّ معنًى. ولا بدّ، حينئذٍ، من أن يُنضج الصمتُ كلماتٍ قشيبةً، نضرةً، نديّةً.

إنّنا في أحد مواسم التاريخ حيث كثرة الكلام لم تعد تعني شيئًا، لشدّة ما استُهلكت الألفاظ في الماضي، ولأنّنا باشرنا مرحلةً جديدةً، حيث البشر يتغيّرون، ويبدّلون أساليب عيشهم وتفكيرهم، وتعبيرهم.

فكم أُسيء، مثلاً، استخدام لفظة «اللّه» التي حُفرت على أحزمة المحاربين، ودُوّنت على راياتهم! وكم عُزي إلى اللّه من تفاهاتٍ وحماقاتٍ! وكم استُعمل اسمه من أجل تبرير طغيان المال والسطوة الظالمة، والدعوة إلى الاستسلام!

ليس اللّه أيّ إلهٍ، بل هو إله يسوع الذي دعاه «أبًا» لكي يكون جميع من يتوجّهون إليه بعبارة «أبانا» رجالاً مستقيمين ومسؤولين. إنّه إله الحياة الذي يُطيح بكلّ ضروب الضنك والشدّة، ويستنهض بشريّةً يريدها «على صورته ومثاله». إنّه الإله الذي لم يرَه أحدٌ، ولا يسوغ أن تُرسم له صورةٌ، لأنّ وجه ابنه، وحده، يعلن عنه. وقد أظهر الإنجيل أنّه وجه الكائن الأوفر حياةً، وعدوى حياةٍ. ولن تكفي الدهورُ كلُّها لكي تعبّر البشريّة عن كلّ ما تلقّت منه، ولكي تحياه.

فليجهد المسيحيّون في أن يحيَوا الإنجيل حياةً تكتسب، كلّ يومٍ، كثافةً وعمقًا. وحينئذٍ سيفجّر الروح فيهم الصمت أو الكلمات، وستكون الكلمة الأولى هي حياتهم. وستُبتدَع الكلمات الأُخرى، باستمرار، حقبةً إثر حقبةٍ، ولن تدع الترداد والعادة يبهتانها.

وإن جاء يومٌ دُعينا فيه للشهادة، فسيضع الروح كلماته على شفاهنا.

رِسَالَةُ الصُّعُود

«**إذهبوا، إذن، وتلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب، والابن، والروح القدس. وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وهاءنذا معكم، كلّ الأيّام، وإلى انقضاء الدهر**» (متّى ٢٨ : ١٩ – ٢٠).

كلمات يسوع الأخيرة هي كلمات تكليف التلاميذ بمتابعة رسالته ووعدهم بقوَّة روحه، الآتية من العلاء.

منذ ذلك اليوم، أُودعت بين أيدي التلاميذ، وفي قلوبهم، مهمّة تجديد الخليقة، وإشاعة عدوى تأليه البشر. يسوع يمضي إلى أبيه، كي ينطلق تلاميذه إلى أقاصي الأرض.

الحركة الأخيرة التي توجز كلّ مرور يسوع على كوكبنا تكمن في قول الإنجيليّ لوقا: «**ورفع يديه وباركهم، وفيما هو يباركهم انفصل عنهم، ورُفع إلى السماء**» (لوقا ٢٤ : ٥٠ – ٥١).

صعد يسوع إلى السماء، وهو يبارك. الصورة الأخيرة التي تركها للعالم: يداه اللتان تباركان. وعلى شهوده أن يحملوا البشرى، بأقوالهم وبأفعالهم، إلى أقاصي المسكونة، وأقاصي التاريخ، وهم يباركون.

على الشهود أن يتابعوا رسالة المعلّم، ليس فقط بتذكير الماضي، ولا بانتظار مستقبلٍ مجهول الموعد. فالبشرى عملٌ يتمّ اليوم، وهنا، وفي كلّ يومٍ ومكانٍ. إنّها تغيير الحياة، حياة الأفراد والجماعات، باطّراد.

الشهود هم صانعو التاريخ اليوميّون: بقوّة الروح ونوره، يسعَون، بلا هوادةٍ، هم أيضًا، إلى إنماء إنسانيّة عدلٍ وحبٍّ، إنسانيّة أبناء الله، تلك التي توسّموها على محيّا يسوع، وفي أعماله.

إنّ ذلك الذي مات على صليب العار، وبدا، وكأنّ السماء تخلّت عنه، قد «**رُفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله**» (مرقس ١٦ : ١٩). إذن، كان درب الصليب الذي انتهجه هو درب الفداء الذي ارتضاه الآب.

غير أنّ نصّ الإنجيل يولي الرسالةَ التي أوكلها قاهرُ الموت إلى تلاميذه، من الشأن، أكثر ممّا أولى صعودَ يسوع نفسه. فلا عجب إن عاد الله إلى سمائه. أمّا الرسالة الموكلة إلى التلاميذ فتتخطّى كلّ توقّعٍ. لقد حُمِّلوا رسالةً مدهشةً إلى الخليقة كلّها، رسالة خلاصٍ، وتحريرٍ، وشفاءٍ، وكُلِّفوا بخوض كلّ المخاطر من أجل خلق عالمٍ جديدٍ، وإنماء بشريّةٍ جديدةٍ، خليقةٍ بالجلوس إلى يمين الآب.

ما أجرأ يسوع! يريد أن تغزو بشراه العالم بواسطة أحد عشر تلميذًا، بعد أن خانه الثاني عشر!

يريدهم أن يبلّغوا المسكونة رسالته، ويدعوا البشر أجمعين إلى العمل بتعاليمه ووصاياه.

ويريدهم أن يعمّدوا البشريّة في مدًى جديدٍ، في الثالوث، في متعدّدين يكوّنون واحدًا. وحدةٌ هي أقصى ما يحلم به الحبّ. فبالعماد يتلقّى الإنسان بُنوّة الآب، وأُخوّة الابن، وقوّة الروح التي قادت حياة يسوع، والتي تتيح للمؤمن اقتفاء خطاه.

لن يتغيّر مجرى التاريخ بفعل عصًا سحريّةٍ، بل بفضل تجدّد البشرى باستمرار، عبر القرون والألفيّات، بفعل خميرة الإنجيل، وروح الله الذي يُعيد صَوْغ وجه الأرض.

ومع كرّ الحِقَب، سيظلّ التلاميذ شهودًا نشيطين، حتّى أقاصي المسكونة، بقوّة الروح. ولكأنّ صعود يسوع أتاح له أن يتكاثر من خلال من سيواصلون خلق العالم الجديد.

هم، أيضًا، سيكونون مزعجين، وسيؤكّدون، بسلوكهم، أنّ بوسع البشريّة أن تمضي، أبعد فأبعد، في ميادين العدل، والصفح، والمحبّة.

أولئك الحالمون ببشريّةٍ مؤلّهةٍ، سيكونون، دائمًا، معارضي الفوضى الشائعة، والانحطاط العامّ، وشلل الحياة الشخصيّة والجماعيّة. وسيصطدمون، أبدًا، بدعاة

الحفاظ على الوضع القائم، وبعبيد الجمود والقَدَريّة، وبعبدة المال. ولكن، حتّى في حومة الاضطهادات، سيظلّ هؤلاء الذين يحيَون في ألفة الآب، والابن، والروح القدس، معمِّدو المستقبل، يسمعون الصوت الخافت يهمس: «**ها أَنذا معكم، كلّ الأيّام، إلى انقضاء الدهر**». حضورٌ يغمر الكون كلّه، والزمن كلّه، حضور «عمّانوئيل»، «اللّه معنا».

مِنْ وَحْيِ الصّعُود

من المحقّق أنّ يسوع الذي صعد إلى أبيه، قد بقي بروحه في ما بيننا، ولم يهجر أرضنا، بل هو حاضرٌ بين ظهرانينا، كما كان حاضرًا قبل موته، وبعد خروجه من القبر، عندما همّت المجدليّة بالاطّراح عند قدميه. بولس رآه، وكان واثقًا أنّ رؤيته لـه لا تختلف عن رؤية الرسل، وبطرس، ويعقوب، وخمس مئة تلميذٍ، لـه، قبل صعوده. وقد ظهر لكثيرين آخرين، وما زال يظهر. إنّه هنا، معنا، مثلما هو في السماء، مثلما كان في السماء حيث استصحب اللصّ التائب تنفيذًا لوعده، وفي اللحد، في آنٍ واحدٍ. أوَ لم يقل: «**وها أنذا معكم، كلّ الأيّام، إلى انقضاء الدهر**» و«**حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، كنت أنا هناك وسطهم**»؟

هذه الوعود يؤمن بها المسيحيّون، ويَخْبَرونها في حياتهم. حضور يسوع ليس محصورًا في الخبز والخمر المقدّسين، بل في كلّ صغيرٍ، وفقيرٍ، ومريضٍ، ومحتاج. وهذا ما أثبتته فئةٌ رائعةٌ من أبطال المحبّة «المسيحيّة». لقد تجسّد يسوع في كلّ إنسانٍ، وأعلن: «**من قَبِل ولدًا مثل هذا من أجل اسمي، فإيّاي قَبِل، ومن قبلني، فليس إيّاي يقبل، بل الذي أرسلني**» (مرقس ٩: ٣٧).

يسوع هنا، ولكن ما أكثر الذين لا يستطيعون، أو لا يريدون رؤيته! لقد كثر المسحاء الكذبة، وما أكثر الذي يجرون نحوهم، ويُفتنون بتعاليمهم الخدّاعة، وإنجازاتهم البرّاقة!

قد نسيطر على الكون، ولكنّنا عاجزون عن تبيُّن مكاننا فيه. نمتلك مفاتيح، ولكنّنا نجهل أيّة أبوابٍ تفتح. لم نعد نعرف من أين أتينا، وإلى أين نمضي، وما غاية وجودنا، ومن نحن. نتوجّس من مستقبلنا خشيةً، لأنّنا فقدنا اليقين بأنّ مستقبلنا يتخطّى حدود الأرض، وشرعنا نشكّ في مصير الأرض نفسه.

يسوع تساءل هل سيجد الإيمان على الأرض، لدى عودته، ويبدو أنّ الإيمان غدا سلعةً نادرة.

لقد بشّر يسوع بالحبّ، الذي يهب الفرح، والسلام، والرجاء، الحبّ الذي يقود إلى النور؛ والنور هو الحياة الحقّة، التي تبدّد الظلمات؛ النور هو الله ولولاه لما كان العالم.

نَظـرَةُ يسُـوع

كتب الكردينال ألبير ديكورتري (١٩٢٣– ١٩٩٤):

«لم يقل يسوع: هذه المرأة ماجنةٌ، عابثةٌ، حمقاءُ، مدموغةٌ بمورّثات بيئتها الأخلاقيّة والدينيّة، وإن هي إلاّ امرأةٌ! بل التمس منها جرعة ماءٍ، وعقد معها حوارًا (يوحنّا ٤: ٤– ٤٢).

لم يقل يسوع: هذه المرأة التي تسعى إلى لمس معطفي، إن هي إلاّ مأفونةٌ هيستيريّةٌ. بل أصغى إِليها، وحدّثها، وشفاها (لوقا ٨: ٤٣ – ٤٨).

لم يقل يسوع: ما هؤلاء الأولاد إلاّ صبيةٌ، بل قال: «**دعوا هؤلاء الأولاد، ولا تمنعوهم من المجيء إليّ. فإنّ لمثل هؤلاء ملكوت السماوات**» (متّى ١٩: ١٤).

لم يقل يسوع: ما هذا الرجل سوى موظّفٍ مختلسٍ، يغتني بمداهنة السلطة، وباستنزاف الفقراء، بل دعا ذاته إلى بيته، وأكّد أنّ بيته ظفر بالخلاص (لوقا ١٩: ١–١٠).

لم يقل: ما قائد المئة إلاّ محتلٌّ، بل قال: «**إنّي لم أجد مثل هذا الإيمان حتّى في إسرائيل**» (لوقا ٧: ٢– ١٠).

لم يقل: هذا الشخص مجرمٌ خارجٌ على القانون. بل قال: «**اليوم تكون معي في الفردوس**» (لوقا ٢٣: ٣٩–٤٣).

لم يقل يسوع: يهوذا، هذا، ليس سوى خائنٍ، بل قبّله ودعاه: «**يا صديقي**» (متّى ٢٦: ٥٠).

لم يقل يسوع: ما هذا المدّعي إلاّ مارقٌ. بل سأله: «**أتحبّني يا بطرس؟**» (يوحنّا ٢١: ١٥–١٧).

لم يقل يسوع: ما رؤساء الكهنة هؤلاء سوى قضاةٍ ظالمين، وما هذا الملك سوى دميةٍ، وما هذا الوالي الرومانيّ إلاّ جبانٌ، وما هذه الجموع التي تشمت بي سوى رعاعٍ، وما هؤلاء الجند الذين ينكّلون بي سوى مأمورين، بل قال: «يا أبتِ، اغفر لهم لأنّهم لا يدركون ما يفعلون» (لوقا **٢٣ : ٣٤**).

« كَمَا أنا أحَبَبْتُكُمْ »

معيار الحبّ الذي أراد يسوع أن يتبادله تلاميذه، في كلّ حينٍ، هو حبّه لهم: «**كما أنا أحببتكم**».

إنّه لا يرتضي أيّ حبٍّ، بل يبتغي حبًّا على غرار حبّه، كلّيًا، منزّهًا من كلّ تحفّظٍ وحسابٍ، متأهّبًا لكلّ تضحيةٍ، حتّى التضحية بالذات.

لفظة «كما» إصبعٌ تشير إلى من شقّ الدرب، وكان المَثَل والقدوة.

و كلّ الإنجيل يروي كيف أحبّ يسوع حبًّا هزّ مجتمعًا بأسره، وقوّض الحواجز بين الخطأة ومن كانوا يظنّون أنفسهم أبرارًا، بين المتواضعين والجهّال ومن كانوا يعدّون أنفسهم عظماء وعلماء، بين السقماء ومن كانوا يتخيّلون أنفسهم أصحّاء، بين الفقراء والأغنياء، بين المنبوذين والوجهاء...

يسوع أحدث ثورة حبٍّ، وكان مجنون المستحيل. كان بركانًا متفجّرًا، ونارًا لا رغبة لها إلاّ في الاضطرام والانتشار.

و يمضي يسوع قُدُمًا في إيضاح عظمة حبّه للبشر، فيقول: «**كما أحبّني الآب أنا أحببتكم**». وبذلك ارتقى بمعيار حبّه إلى ذرًى لا تُطال. فحبّ الآب للابن، هو حبّ الذات للذات، وحبّ الكامل للكمال. وبذلك فتح يسوع هوّةً على حبٍّ لانهائيٍّ يُشيع الدوار، ونشوة اللامحدود، وتضعنا على مقربةٍ من الأسرار القصوى التي نستشفّها، أحيانًا، في لحظاتٍ فريدةٍ من وجودنا. وحينئذٍ يصبح الحبّ توظيف طاقةٍ نيّرةٍ، خيّرةٍ، خلاّقةٍ، منبثقةٍ من قلب الله، في هشاشة وجودنا، وسيكون الحبّ امتدادًا لله، وعيش حياته التي لا توصف، وتغيير العالم، بفعل روحه.

لو أنار سرّ هذا الحبّ ضمائرنا، وأمسى خميرة الجماعات المسيحيّة والمجتمعات، فأيّ نسيمٍ ربيعيٍّ سيهبّ على العالم!

سُكنى (١)

(بمشيته الرشيقة، كان يسوع يسكن الطريق، واللقاءات، والأُفق. لكلّ إنسانٍ مسكنٌ. ولكنّه يسكن، أيضًا، في علاقاته، وهواياته، وأذواقه، وصداقاته، ومسؤوليّاته. ونحن، عندما نلج حميميّة إنسانٍ نكتشف مسكنه الداخليّ الحقّ).

سألني يسوع: «أين تسكن؟»
ولم أجرؤ على إجابته بأنّي أسكن سجونًا عديدةً.
ولكنّه، هو، حطّم كلّ أبواب السجون.

سألني يسوع: «أين تسكن؟»
فلم أجرؤ على إجابته بأنّني أسكن مطارح خوفٍ.
ولكنّه غرس فيّ السلام.

سألني يسوع: «أين تسكن؟»
فلم أجسر على القول إنّني أسكن في جوف الضباب.
ولكنّه، هو، سكب فيّ نوره.

سألني يسوع: «أين تسكن؟»
ولم أجسر على القول إنّني أسكن الوحدة.
ولكنّ خطاه تأثّرت خطاي.

(١) عن جيرار بيسّيير.

سألني يسوع: «أين تسكن؟»
ولم أجرؤ على إجابته بأنّني أسكن قبري.
ولكنّه قدّم لي الحياة والشمس،
وبلاد الله المشرعة الأبواب،
ودعاني إلى السكن في الحبّ، وإلى جعله مسكنًا لانهائيًّا.

مَلِكُ الحُبّ (١)

أصحيحٌ، يا يسوع، أنّك كنت ملكًا؟ أَلم تكن، بالأحرى، راعيًا، بل خادمًا؟ ذات يوم غسلتَ أقدام أصدقائك، وفي ذلك اليوم همستَ: «**أنتم تدعونني معلّمًا وربًّا، وأَنتم على صوابٍ، لأنّي كذلك...**».

أيَّ مُلكٍ لم يُسمع بمثله جئت تؤسّس؟

أنت الملك الساعي خلف النعاج التائهة. أنت الملك الجالس إلى مائدة قومٍ سيّئي السمعة. أنت الملك الذي يصفح عن جلاّديه. أنت ملكٌ فتًى يعيد خلق العالم. أنت ملكٌ شابٌّ يحطّم العوائق. أنت ملك الحرّيّة.

كنت تتهرَّب من السلطة. كنتَ تحبّ إيقاظ البشر، ودفْعهم إلى الأمام. ملكك، يا يسوع، كنت تعطيه للجميع، كمن يفتح يده، ويمدّها. لأنّك كنت تَنشد شعب ملوك.

يا يسوع، يا ملك الملوك، يا أخا جميع البشر، كنت تحيا سرّ ملكك الأقصى. ذلك أنّ «الحبّ الأخويّ لا يأتي، فقط، من اللّه، بل هو اللّه»، كما قال القدّيس أوغسطينُس.

كنت ملك تلك الطاقة الإلهيّة المقدّمة إلى البشر، والتي لا تنضب، من أجل نموّ الحياة اللامحدود.

يا يسوع، لقد كنتَ، وما زلتَ، ملك الحبّ.

---

(١) عن جيرار بيسّيير.

أجَل، أُحِبُّ الله ![1]

وكيف لا أُفتَن به، وأنجذب إليه، وألفاظ «الجمال، والحقّ، والعطف، والحنان، والصفح، والفرح» هي التي تقودني إليه؟

أجل، إنّي أحبّه، وأعبده.

ولكن أين لي أن أراه، وأبتسم لـه، وأبعث إليه، بيدي، إيماءة شوقٍ؟ لذلك أخشى أن أخدع نفسي، عندما أقول إنّي أحبّه. ألستُ، حينئذٍ، أحلم؟

ولكنّني، شيئًا فشيئًا، فهمت: ينبغي أن أُحبّ الآخرين. وأدركتُ أنّه ليس، دائمًا، من اليسير أن أُحبّ الله، وأيقنت أنّني إن اهتممت به، وأهملت المحيقين بي، سأعيش في جوٍّ من الزيف والكذب.

وتساءلتُ هل يكفي أن أُحبّ البشر كي أفي الله حقّه؟ وأعملت الفكر في هذا الأمر طويلاً. وأحببت الآخرين. وهببتُ لغوثهم، ولبَثِّ الفرح في قلوبهم، وإذا بي أُحبّ الله أكثر،

وأدركت أنّ الحبّ أكبر من الحبّ.

---

(١) عن جيرار بيسّيير.

حُبُّ يسوع (١)

إنّ شئت معرفة معنى الحبّ، اسأل أولئك الذين التقاهم يسوع على دربه. اسأل المنبوذين الذين يكابدون كلّ ضروب النبذ، والجياع الذين يعانون كلّ أصناف الجوع، والجرحى المبتلَين بكلّ أنواع الكلوم.

اسأل تلك المرأة التي قُبض عليها متلبّسةً بجرم الزنى، المحكوم عليها، وفق الشريعة، بأشدّ أصناف الموت خزيًا. فهي ستقول لك بأيّ حبٍّ أُحبّت، بعد أن انتُشلت من براثن الهول.

اسأل ذلك الموظّف الفاسد، زكّا النصّاب، مستغلّ الفقراء، المزدرى بسبب تواطئه مع المحتلّ. فهو، بعد أن تحرّر من المطامع التي كانت تلتهمه، سيقول لك كم أُحِبّ، في ذلك اليوم الذي دعا فيه يسوع نفسه إلى بيته.

اسأل تلك الغانية التي انصبّت عليها سهام السخريّة في بيت سمعان، فهي ستصف لك النظرة التي حطّها عليها يسوع فحوّلت مهانتها إلى رقصٍ. تلك المرأة ستخبرك ما معنى الحبّ.

اسأل تلك المرأة السامريّة التي التمس منها مسافرٌ غريبٌ جرعة ماءٍ، وهي التي كان لها خمسة أزواجٍ، ستؤكّد لك، أنّها، في تلك النوبة فقط، تعرَّفت عطش قلبها الحقّ.

اسأل ذلك الرجل المشلول اليد الذي شفاه يسوع، يوم سبتٍ، في المجمع، مخالفًا، من أجله وحده، أكثر المحظورات قدسيّةً، فهو سيصف لك طعم قدرة الحبّ المحرِّرة.

---

(١) عن ستان روجييه (Stan ROUGIER: Aime et tu vivras)

اسأل سمعان بطرس هل من الرائج، في هذا العالم، إيكال أخطر المهمّات إلى من خانوا؟

اسأل جماهير الخطأة المعروفين، وجميع الضالّين من كلّ مستوًى، فسيبيّنون لك كم قاسى يسوع من الازدراء، والاستنكار، لأنّه تجاسر فعاشرهم. واسألهم هل أقام يسوع حسابًا لعواقب تضامنه معهم، المحتملة. اسألهم إلى أين يتوغّل الحبّ، عندما يكون الله هو من يحبّ. لكلّ أولئك، كان العطف قضيّة حياةٍ أو موتٍ. أولئك الرجال والنساء يعرفون أنّ ذلك النمط من الحبّ الذي يوقّع شيكًّا مفتوحًا حيال النفقات المحتملة، والمخاطر الأكيدة، هو، صميم الواقع. لقد كانوا بشعين في نظر من يزدرونهم، ازدراءً بالغًا، وإذا بهم رائعون في عينَي يسوع الذي لا يرى أيّ إنسانٍ بشعًا، بل يرى بشرًا لم يحظَوا بما يستأهلون من حبٍّ.

حُــرِّيَّةُ يَسُـــوع

يقول باسترناك: «كان لا بدّ من يسوع المسيح كي تتمكّن القرون والأجيال من التنفّس بحرّيّة».

لقد حرّر يسوع العالم، لأنّه، هو نفسه، مارس حرّيّةً أدهشت العالم، ودعت إلى حرّيّةٍ لا حدود لرحابتها، يغمرها حضور الله.

منذ مستهلّ حياته حتّى نهايتها عاش مجرّدًا من كلّ رفاهٍ، ومن كلّ مظهرٍ كاذبٍ، وعانى التشرّد واللااستقرار، وواجه العقبات، والفشل، والإنكار.

لا تذكر الأناجيل كلّ أقوال يسوع وفعاله، ولكنّها تعبّر، في كلّ صفحةٍ، عن حرّيّته المدهشة، التي أذهلت أصدقاءه، وأعداءه، والوجهاء، والمعلّمين، وأَصحاب النفوذ، والجماهير.

حرّيّة سلوكه صدمت كلّ من عرفوه. وهو أراد أن يكون تلاميذه أحرارًا مثله، وأن يمضوا، بلا هوادةٍ، قُدُمًا، نحو مزيدٍ من العدل، والحبّ، والفرح، بقلبٍ متجدّدٍ أبدًا، بحثًا عن أرضٍ جديدةٍ، وفي حرّيّةٍ لا يحدّ إبداعها حدٌّ.

إنّه لا يؤمن بالتطوّر البطيء الذي لا يُشعَر به، ولكأنّه توفيقٌ لما هو قائمٌ منذ زمانٍ مع ذوق العصر. فموسمه جديدٌ، وخمرته الجديدة فوّارةٌ، وتقتضي زقاقًا جديدةً.

حرّر شعبه وجميع الذين سيؤمنون به حتّى من نير الشريعة، لأنّه لم يرتضِ أن يدّعي بشرٌ سجن الله في إطار ممارساتٍ، وطقوسٍ، ومؤسّساتٍ، بحيث يُعمون أنفسهم، ويُعمون الآخرين. وبحرّيّته الخفّاقة حيال من يدعوه أباه، هبّ فحطّم كلّ ضنكٍ، وأحدث ثغرةً هائلةً، ورسّخ احترامًا مضطرمًا لله، واحترامًا مضطرمًا للإنسان، وبمجرّد حضوره قوّض التعاليم الأشدّ جمودًا، وفتح على اللامحدود حرّيّة البشر.

لقد قوّض أشدّ التقاليد رسوخًا، ولا سيّما تلك القائمة على حرفيّة الشريعة، وعلى المظاهر، ولم يتحرّج من تحدّي أكثر رموزها رهبةً، بعبارةٍ ستظلّ، أبدًا، نديّةً كنبع

البشريّة البكر: «**جُعل السبت من أجل الإنسان، ولم يُجعَل الإنسان من أجل السبت**».

لقد رفض لعب دور مسيحٍ سياسيٍّ محرّرٍ لإسرائيل، أو دور مصلحٍ اجتماعيٍّ، ودعا إلى الإقلاع عن إيلاء كبير شأنٍ للطعام، واللباس، وهموم الدنيا... وبشفائه البُرص والخطأة، دعا البشر إلى ولاداتٍ جديدةٍ.

بنظرةٍ منه صدّع كلّ صرح العالم العتيق: الاجتماعيّ والسياسيّ، والأخلاقيّ، والدينيّ، ولم يبنِ هيكلاً آخر سوى هيكل الإنسان.

لم يُرشد إلى طُرُقٍ معبّدةٍ، بل دفع المؤمنين به على الدروب الوعرة، وبإعلانه «**أنا الطريق**» دعاهم إلى عيش حرّيّته المُعدِية، التي تتخطّى كلّ توقّعٍ.

ولم يكتفِ بخرق فريضة السبت، بل أعلن بنوّته الإلهيّة، متحرّرًا من مفهوم الله الذي شوّهته التقاليد اليهوديّة. وكان يحيا في الله ومعه، ويعلن حضوره في العديد من تفاصيل الحياة. باسمه قلب موائد الصيارفة، وطرد باعة الهيكل، وبدّد معايير القِيَم المصابة بالشلل.

سرّ حرّيّة يسوع يثوي في الحبّ المتبادَل مع أبيه، وإلى مثل هذه الحرّيّة دعا البشر: إلى حرّيّة الابن الذي تعدّى كلّ مراحل وهن الطفولة، وكلّ عتمات دروبها، وغدا قادرًا على الاعتراف بأبيه، والظفر باعترافه، في ضوء مواجهةٍ ناضجةٍ ومُحبّةٍ، تشعّ نورًا ساطعًا ومنعشًا. حرّيّة يسوع تتحلّى بطعم لفظة «الأب»، على شفتيه، وفي نفسه، وما من حرّيّةٍ أعظم وأرحب من تلك التي يهبها الحبّ ويتلقّاها.

* *

لقد غسل يسوع أرجل تلاميذه المكسوّة بغبار الطرقات، رغم احتجاجهم بأنّ تلك إنّما هي مهمّة العبيد. وفيما هو جاثٍ عند أقدامهم أعلن أنّه معلّمهم، ولقّنهم أنّ حرّيّته خدمةٌ، ودعوةٌ إلى الخدمة.

ومضى صوب جميع المفتقرين إلى الاعتراف بإنسانيّتهم: الفقراء، والمرضى، والمحتَقَرين، والمرذولين، ولكأنّ الإنسانيّة الحقّة ينبغي أن تولد أبدًا، وتولد ثانيةً، على

هامش المجتمع الراضي عن ذاته. وقد بنى يسوع علاقةً جديدةً بين الإنسان والإنسان، بعيدةً عن الفئويّة، والهويّات الرسميّة، قائمةً على الجاهزيّة المتبادلة، والحرّيّة.

يسوع حرٌّ مع الآب، كي يجعل من جميع البشر إخوةً، ولكي يدفعهم على دروب الإخاء اللامتناهية. منذ التطويبات، لم يعد للثروة، والمعرفة، والانتماءات الدينيّة، والقبائل، والأُمم، ولمحاولات التفريق بين الإنسان والله، ما تقدّمه. ففي الواقع، يدعو يسوع الإنسان إلى الانعتاق من جميع العوائق، كي يتمكّن من الانطلاق، بلا توقّف، حرًّا، حتّى الموت.

ويسوع، بتحمّله أعتى الآلام طوعًا، حرّرنا من سطوة الألم، وبموته الطوعيّ حرّرنا من خشية الموت، وبتعليمه الغفران حرّرنا من الحقد الذي يفصلنا عن مصدر كلّ حبّ.

فهو، قبل كلّ شيءٍ، كائنٌ حرٌّ. حريصٌ على إعادة العلاقات السليمة بين البشر، وعلى تحطيم قيود الأنانيّة، والعزلة، والظلم.

حرّيّة يسوع نسغٌ إنسانيٌّ جديدٌ، مُسكرٌ، شديد النشوة، وحلمٌ بشريٌّ مجنونٌ.

لقد رأى اليهود في حرّيّة يسوع خطرًا داهمًا، فسارعوا إلى قتله. ولكنّ دويّ الإنجيل امتدّ إلى أقاصي المسكونة، مزلزلاً الضمائر والنفوس، رغم محاولات مؤمنين وغير مؤمنين الحدّ من أثره الرهيب. فهو يتحدّث بلغة حرّيّةٍ وحبٍّ، تنشر نفحة الروح القدس، الذي يهبّ حيث يشاء، ويحطّم كلّ قيدٍ. وتعليمه الموجّه إلى العالم أجمع، لا يسجن البشر في شرنقةٍ من طقوسٍ ومسلّماتٍ، بل يُشرع نفوسهم على حرّيّة أبناء الله، حرّيّةٍ تهبّ مثل نسمةٍ منعشةٍ.

وأيّةً كانت التهم التي وُجّهت إليه، فجميعها كاذبةٌ، وجميعها صادقةٌ. فهو، في جميع الحالات، قد اقترف جرم الحرّيّة. والحرّيّة، كالإنسانيّة الحقّة، وكالألوهة، يتعذّر على البشر أن يحيَوها.

مات يسوع، ولكنّه حتّى وسط أقصى آلامه، ما انفكّ يخطو على دروب الحرّيّة: «**يا أبتِ، اغفر لهم...**»، «**بين يديك أستودع روحي..**»، رغم الصلب، والمسامير، والنزاع الحارق، المضني. ومنذئذٍ ما انفكّ روحه يوقظ حرّيّات البشر.

لقد كان موت يسوع أعتى مفجّر حرّيّاتٍ عبر التاريخ. وما انفكّ دويّ هذه الحرّيّة يهزّ أركان حياة البشر والمجتمعات، وما انفكّ البشر، في إثر المعلّم، يقوّضون ضيق التقاليد الخانقة؛ وما برحت حرّيّة يسوع تستدعي بشرًا كي يصبحوا أحرارًا وإخوةً. وبات الإنسان كائنًا حرًّا يتطلّع إلى مشاركة الله حرّيّته، أسوةً بيسوع.

* *

رسميًّا أُلغيت العبوديّة، بيد أنّ جذور شتّى العبوديّات ما زالت حيّةً، وما برحت الحرّيّة أسيرةً جميلةً، توسَع كلّ يوم ضربًا، وإهانةً، وتهديدًا، وهي تختنق من جرّاء تخاذلنا، وجبننا، وضيق آفاقنا.

ومعركة الحرّيّة مستمرَّةٌ. مغامرةٌ داميةٌ ومدهشةٌ، تئنّ، وتضطرم، وتتعاقب فيها القفزات والكبوات، ولكنّها، أبدًا، لن تنهزم، بل تتخطّى، كلّ يومٍ، ما حصلت عليه من تنازلات الماضي، وتتجاوزها، كي تمضي قُدُمًا.

إنّ ابتداع الحرّيّة المستمرّ يستلزم رجالاً يقظين، مؤهّلين، دؤوبين، وتلك هي مسؤوليَّة كلّ فردٍ.

* *

ليست الحرّيّة مطلبًا في ذاتها، بل إنّ الإنسان حرٌّ كي يقرّر مصيره، كي يرفض أو يختار، كي يلتزم أو يأبى الالتزام. إنّ ما يميّزه ويحدّد شخصيّته هو كيفيّة استخدامه لحرّيّته. وحرّيّة المسيحيّ هي إقدامه الطوعيّ على الالتزام بكلّ ما يطالب به يسوع أتباعه، بحيث تغدو تلك المطالب قناعاتٍ صميمةً راسخةً في أغوار نفسه، يحياها بعمقٍ، ويتشبّث بها، لأنّها مرتكز حياته، ولأنّه يجد، في تحقيقها، تحقيقًا لذاته، وفي الامتثال لمبادئها، ازدهارًا لحرّيّته، وإثراءً لكلّ كيانه.

* *

الحرّيّة، على غرار أختها، الحقيقة، هي ابنة الله، الذي أوجدها في قلوب البشر.

والحرّيّة للمسيحيّين هي، في آنٍ واحدٍ، هوى الإنسانيّة، وصورة إلههم: أوَ ليس يسوع هو الذي أظهر لهم، جليًّا، وجه الحرّيّة الفاتن والوجيع معًا؟

إنّها مسيرةٌ دائبةٌ، واكتشافٌ متجدّدٌ، ومغامرةٌ لا تنتهي.

فهل نحن جياعٌ إلى العدل، والحبّ، والحرّيّة للجميع؟ هل نحن أحرارٌ ومحرِّرون؟

مَلِكُ الحُرِّيَّة

يا يسوع،
لقد قلتَ لي، قمْ وامشِ،
فالسبت جُعل للإنسان،
ولم يُجعَل الإنسان للسبت.
إنّ مصباح جسدك هو عينك.
لقد قلت لي ألاّ أدعو أحدًا «معلّمًا»،
وأن أهمس لله: «أَبانا»،
وحدّثتني عن كنزٍ، وجوهرةٍ،
وصليبٍ،
وعن موتٍ وقيامةٍ.
لذلك عزمت أن اتّخذك
ملكًا وحيدًا.

(جيرار بيسّيير)

يَسُوع الثَّائِر

عندما كان يسوع يذرع دروب الجليل كان يردّد: غيّروا نهج حياتكم، فههنا عالَمٌ جديدٌ قادمٌ. إنّه ملكوت الله. وكانت قلوب الشعب البسيط الطيّب تخفق انتظارًا.

فقد كان يحدّثهم عن كنزٍ ينبغي اكتشافه، عن جوهرةٍ نادرةٍ سيتمّ العثور عليها، عن بذارٍ مدهشٍ، عن خميرٍ لا يُقاوَم، عن الملح، والنور.....

يتعذّر على من يدنو منه ألاّ يتغيّر في أعماقه. غير أنّ المتحجّرين كانوا يزدادون تشنُّجًا عندما تحطّ عليهم نظرته، فتتفاقم فيهم الرغبة في قتله. ولكنّ كثيرين ممّن كانوا يسمعون أقواله كان يغشاهم شعورٌ بأنّهم لم يعودوا كما كانوا، وبأنّهم يولدون مرَّةً أُخرى. وكانت الرغبة في العطاء، والحبّ، والحياة، في سبيل الآخرين، تسري سريان النار في قلوب الجموع المحيقة بذلك الكائن الفذّ.

وهو، وسط هذا الصخب كان لا يني «يطوّب» من يرذلهم الناس، ويضطهدونهم وكذلك الودعاء، والجياع إلى البرّ، ومن يحاكي قلبهم خمرةً صافيةً، الدائبين على نسج السلام.

كان يقول إنّ القلب وحده هو المعوَّل، ويُزري بالمظاهر؛ كان يحدّق إلى الأعماق، ويَنهى عن إدانة الآخرين، ويدعو إلى حبٍّ لا يستثني أحدًا، حتّى الأعداء، ويسخر ممّن يكدّسون أموالاً وممتلكاتٍ يظنّون التحكُّم بها، في حين يُمسون عبيدًا لها.

كان ينعم بحرّيّةٍ لا تُصدَّق، ويُزري بالحواجز التي يقيمها المال والعلم، والسلطة، لوقف مسيرة البشر، ويقفز فوق شباك الفرّيسيّين.

كان يأبى سَجن الله في هيكلٍ، وفرز الأبرار عن الخطأة، واليهود عن الوثنيّين، والكهنة عن سائر الشعب. حرّيّته كانت تخطو خطواتٍ واسعةً نحو مستقبلٍ بعيد المنال، وكان يسبق زمانه بألفيّات السنين.

كان يحاور الله في حرّيّةٍ وألفةٍ، وعلّمنا أن نخاطبه مخاطبة الأبناء لأبيهم، بصفتنا

جميعًا، إخوةً، وبعباراتٍ موجزةٍ، كثيفةٍ، مثقلةٍ بالمستقبل: «**أبانا، فليأتِ ملكوتك**»، لكي يندثر ملكوت المال والكبرياء، وكلّ ضروب العنف، وتشرق شمس السلام والحبّ.

ومنذئذٍ ما برحت خميرته تعتمل في العجينة البشريّة، وما فتئ، في كلّ جيلٍ، بشرٌ يقتحمون الباب الضيّق. ويخاطرون بحياتهم كي يخلّصوها، ويرمون، جانبًا، شباكهم، كي يتبعوا من هو «**الطريق، والحقّ، والحياة**».

أبْنــاءُ الله

لقد أحبّ اللّه العالم بحيث تجسّدت كلمته في يسوع. ولكي يشيع يسوع هذا الحبّ، مات من أجله. ثمّ ظهر حيًّا، من جديدٍ، حيًّا على نحوٍ آخر، حاضرًا حضور قاهر الموت في قلوب البشر.

هكذا سعى اللّه نحو البشر كي يُتيح لهم السعي إليه بالاتّجاه المعاكس، قادمين إليه، عبر حيرتهم: «**لا أحد يأتي إلى الآب إلاّ عبر الابن**». يسوع هو طريق اللّه إلى البشر، وطريق البشر إلى اللّه. كم أحبّ اللّه العالم!

وما انفكّ اللّه يرسل ابنه، ويجسّد كلمته في إنسانٍ، كلمة سلامٍ وعدلٍ، وحبٍّ، ولو لم يفعل ذلك، لما كان إلهًا أبديًّا.

إنّ اللّه خميرةٌ إنسانيّةٌ، لأنّه يجعل من الإنسان حضور كلمته. والكلمة المتجسّد يجعل من البشر أبناءه، أبناء اللّه.

أيّ رجاءٍ يغمر قلوب المؤمنين عندما يترسّخ فيهم الإيمان بمعاصرة الآب والابن! وكم سيشعر العالم بأنّه محبوبٌ، وكم سيتحوّل، بفضل هذا الحبّ، على صورة ملكوت الإخاء الشامل!

الآب، والابن، وأبناء اللّه الذين يحدوهم روح الحبّ الأوحد.

« أينَ رأينـاكَ ، يا ربّ ؟ »

لقد مارس يسوع أسلوبًا خاصًّا في أن يكون إنسانًا وفي أن يكونًا إلهًا، أسلوبًا لم يكن معروفًا من قبل، وما برح حتّى الآن يبدو جديدًا، ومستعصيًا على الإدراك. لقد مُجّد يسوع، وعُبِد، ولم يَشِعْ، قطّ، اسمٌ مثلما شاع اسمه، عبر الأزمان، ومع ذلك ما فتئ مجهولاً.

ينتقل بنا يسوع إلى آخر الأزمنة كي يمكّننا من إدراك خطورة شأن الحاضر. أسلوبٌ بارعٌ يهتف لنا به: المساء العظيم هو هذا المساء، وكلّ مساء.

لا يلقي يسوع نور نظره على المستقبل البعيد، بل على أعماق الحياة الحاضرة. ويظهر لنا أنّ اللّه يقطن في يومنا الراهن. ومن ثمّ، فإنّ موعد أبديّتنا هو الآن، واللّه معاصرٌ لنا. فهناك، اليوم، بشرٌ جياعٌ وعطاشٌ، واليوم، بيننا غرباء، ومرضى، وسجناء، ومحرومون.

اليوم العظيم لا يتمّ في صخبٍ، وسط بروقٍ ورعودٍ. فاللّه يُرحَّب به أو يُصَدُّ ويُطرَد، كلّما رُحِّب ببشرٍ يحتاجون إلى بشرٍ آخرين، أو كلّما صُدّوا وطُردوا. فاللّه قد اندسّ متخفّيًا بين الجماهير وتضاعف وجوده بقدر ما بين البشر من أفراد. إنّنا نقابل اللّه بتواترٍ أكبر ممّا نتخيّل، ولكنّنا نعجز عن تبيُّن هويّته. وجهل اللّه، في هذا المضمار، شاملٌ، فالأخيار والأشرار، على السواء، قالوا للّه، يوم الدينونة: «**متى رأيناك، يا ربّ؟**».

وجه اللّه وجهٌ بشريٌّ؛ إنّه وجه جاري، أو زميلي، وهو، بالتأكيد، وجه ملايين العيون، وجه الجموع المسحوقة، على مدى العالم، تسحقها الفاقة، والبطالة، والعمل اللاإنسانيّ، وجَوْر الطغاة والأنظمة المستبدّة. واللّه، هنا، حاضرٌ، يعامله الناس مثلما يعاملون سواهم من البشر. وهو ليس محصورًا في أماكن محدّدة، حيث يصانعه البشر، ويعبدونه برياءٍ وزيفٍ. إنّه يقطن الجوع، والعزلة، والسجن، والمرض، والفاقة، والغمّ، والقلق، والحداد. يقطن بين من يقاسون الظلم. إنّه متوارٍ، وبلا

حدودٍ، في حياة البشر. وهيكله هو البشريّة المتألّمة، المقيّدة بجميع أصناف الموت، والمعدّة لكلّ ضروب القيامة. إنّه البشريّة المغلولة باللامبالاة والحقد، والتي يُنعشها، باطّراد، الحبّ والجرأة. إنّه إنسانيّة يسوع الإلهيّة. إنّه إنسانيّتنا.

كلامه هو أنّات البشر، وتطلّعاتهم إلى مزيدٍ من العدل، والعطف، والكرامة.

من أجل تحسين أوضاع البشر لا مهرب من التورّط، إذ لن يسعنا مسح وجه يسوع، من غير أن تتّسخ أيدينا. وإن كان لا بدّ من التورّط في العمل الاجتماعيّ، فلا بدّ من أن يستمدّ هذا العمل رؤيته وزخمه من الإنجيل، وأن يكون الإنجيل هاديه، وحاديه، وملهمه، فهو الكفيل بإبقاء جذوة الحبّ مضطرمةً، وبمضاعفة الكَلَف بالإخاء، وبشقّ الدروب نحو بشريّةٍ أرفع سموًّا. فهذا الكتاب الصغير الذي يتخطّى كلّ الحدود، يذكّرنا، في كلّ موسمٍ جديدٍ من حياتنا ومن التاريخ، بأنّ مستقبل البشر هو أن يكونوا إخوةً ليسوع، وأبناءً الأب الواحد، وورثة اللّه.

حذارِ من حصر اللّه في تخوم معتقداتنا وإيديولوجيّاتنا. بل أيّةً كانت نَزَعاتنا ومعتقداتنا، فلندع اللّه يزعجنا، فهو أبدًا يهزّ البشر كي يجعلهم أكثر إنسانيّةً. إنّه ينتزعهم من دَعَتهم وشللهم، ويطلقهم على الدروب.

الشّهَـادَةُ القُصْوَى

(يوحنّا ١٧ : ١–١١)

في ساعاته الأخيرة على أرضنا ناجى يسوع أباه وتلاميذه، في حميميّةٍ مشعّةٍ، مثلما تشعّ الوجوه التي تتبادل الحبّ، ويتنقّل النور من أحدها إلى الآخر.

لحظات هدنةٍ وبوحٍ، قبل أيّام الهزء، والمهانة، والعذاب، وقبل انتهاج درب المجد الدامي.

درب مجد يسوع هو درب دمٍ، وآلامٍ، ونزاعٍ. إنّه الشهادة القصوى.

من المحقّق أنّه ليس أعظم، وأجمل، وأسمى إنسانيةً من التضحية بالحياة.

والذين ضحّوا بوجودهم حتّى الموت يقطنون طويلاً ذاكرة البشر. إنّهم مصابيح المستقبل. هم، أيضًا، يشعّون، على امتداد قرونٍ. غير أنّ مجدهم الأشدّ صفاءً، ليس هو التكريم الذي يُحيق بتماثيلهم، بل هو الجرأة والحبّ اللّذان جعلاهم يمضون قدمًا، بلا هوادةٍ، ولا يتخاذلون أبدًا.

نحن لا نعرف جيّدًا أولئك الأبطال إلاّ إذا استسلمنا إلى أسر اندفاعهم. ولا نعرف يسوع إلاّ إذا اقتفينا أثره. ولا نعرف اللّه إلا إذا حيينا به، فليست المعارف الفكريّة، ولا العقائد السرّيّة، هي التي تجعلنا على اتّصالٍ به.

ولا يني إنجيل يوحنّا يردّد على مسامعنا أننا نتّصل باللّه فقط عندما نخوض حياةً جديدةً، وولادةً جديدةً في المحبّة.

يسوع هو الدرب المشرع، أبدًا، هو الأُفق الذي يدعو إلى بلادٍ أُخرى. فليتنا ندرك أنّنا بسيرنا معه، يواكبنا مجد الآب المشرق، ويدعو العالم إلى التجدّد والتجلّي.

الإيمانُ هُوَ تقبُّلُ يَسُوعَ وَالتّرحيبُ بِهِ

الإيمان نعمةٌ توهب للجميع، ولكن لا يتقبّلها الجميع.

لقد أخذ يسوع على اليهود قلّة إيمانهم، مع أنّ هذا الشعب عُرف بكونه أكثر الشعوب تشبُّثًا بالعبادة والطقوس، بإحياء ذكريات تدخّلات اللّه لخلاصه. ولكنّه شعبٌ يقيم الصروح للأنبياء الذين قتلهم آباؤه، ثمّ يقتل، على التوالي، كلّ نبيٍّ قادمٍ. يحيي ذكرى تدخّلات اللّه القديمة، ولكنّه لا يتقبّل افتقاده له في الوقت الحاضر. يتباهى بالآثار التي تركها اللّه على حضارته، ولكنّه يأبى أن يعيد شبابُ اللّه النظر في عاداته البالية. إنّه شعبٌ يقسر مواطنيه، بشتّى وسائل الضغط والإكراه، على الانصياع لعباداته، في حين أنّ سلوكه الراهن مادّيٌّ بكلّيّته، ولا يقيم وزنًا إلاّ لسيطرة القوّة والمال والسياسة. لقد فقد كلّ إيمانٍ وعلاقةٍ بروح اللّه. فأمسى هيكله يبابًا، وهجره اللّه.

غير أنّ يسوع وجد لدى من لم يكن لهم إلهٌ، ولا تاريخٌ دينيٌّ مقدّسٌ، الرغبةَ الحقيقيّةَ في الإيمان. هؤلاء لم يتلوا قانون إيمان، ولكنّهم رحّبوا بالحقيقة بصدقٍ، وأتاحوا للقادم إليهم بملامح الحقّ والإنسانيّة أن يغيّر عاداتهم وذواتهم.

ذاك كان شأن الضابط الرومانيّ، المحاط بتكريم شعب كفرناحوم، ومحبّته. فذلك الإنسان المستقيم، الكريم، الذي لم يأخذ عليه، يومًا، أحدٌ مأخذًا، رأى بنور يسوع، عمق واقع حياته، فاعترف: «**يا ربّ، أنا لست أهلاً لأن تدخل تحت سقف بيتي**».

وذاك كان شأن السامريّة، رغم محاولاتها التهرّب من أسئلة يسوع. غير أنّ الحقيقة التي أشرقت على نفسها، من خلال التقائها الربّ، وأقواله التي كانت كفيلةً باستثارة غضبها، حطّمت قوقعة الكبرياء التي كانت تتحدّى بها استنكار الناس، فأعلنت، بلا خجلٍ، على الملأ: «**لقد قال لي كلّ ما فعلته**».

وذاك كان شأن نيقودمس، معلّم الشريعة، الذي حمله وفاؤه لوجدانه، وبعد أن راقب أعمال يسوع وأقواله عن كَثَب، على الاعتراف: إنّ أعمالاً كهذه تحمل، بلا مراءٍ، دمغة اللّٰه. وقد عمد، في نهاية المطاف، إلى إعادة النظر في نظامه الفكريّ، وفي المعتقدات التي نشأ عليها، وآمن بالناصريّ.

وذلك كان شأن الصبيّ الذي كان يحمل، في مزوده، خمسة أرغفة شعيرٍ، ولبّى طلب الرسل باقتسامها مع خمسة آلاف رجلٍ، وهو غير عالمٍ بما سيُعاد له.

وبالإجمال كان ذاك شأن جميع الذين، منذ إبراهيم، تخلَّوا عن ضمان كلّ إرثٍ أرضيٍّ، ووثقوا بكلّ ما يتكلّم باسم الجمال، والحقّ، والخير، وبالكائن الذي لا وجه له، المنفتح على الجميع، والذي لا يحتكره أحدٌ.

وجودنا يواجه، باستمرار، نداءاتٍ لاستقبال كائنٍ أو حدثٍ، ووراء هذه النداءات يكمن يسوع: حضورٌ محبٌّ، نعمةٌ ودعوةٌ إلى الانفتاح والترحيب. وخلاصنا يكمن في استقبالنا «بالهوشعنا» «كلّ آتٍ باسم الربّ».

كلّ شيءٍ يعتمد، اليوم، على ما نؤدّيه من غوثٍ لمحتاجٍ، وكفاحٍ في سبيل الحقّ والحقيقة. غير أنّ التضامن مع الأكثر حرمانًا، الذي ضرب لنا مَثَله الأعلى بصليبه، من كان بوسعه تفادي الموت، يعلّمنا أنّ لكلّ إنسانٍ قيمةً إلهيّةً، وأنّنا، بخدمته حتّى التضحية بذواتنا، أحيانًا، لسنا ننساق لمشاعر مبهمةٍ، بل نستقبل من يوفّر الأمان لمن تعجز القوى البشريّة على توفيره لهم.

الكنز (١)

اكتشف يسوع كنزًا في الأعماق البشريّة، حيث يخفق روح الله، وباح بسرّه في الساحات العامّة، فكلّفته هذه الجرأة حياته.

ولكن لا يبدو أنّ بين معظم المسيحيّين من عثر على اكتشافٍ مدهشٍ، وليس في كلام المسؤولين الكنسيّين وفي أفعالهم ما ينمّ عن فرحٍ ديناميٍّ غامرٍ. فأين هو الكنز؟ هل أُضيع أو بُدّد؟ هل أعيد دفنه عوضًا عن استثماره؟

هل خافوا منه، ومن نشوته التي قد تمضي بهم إلى حيث لا يدرون، ولا يرغبون؟

الكنز هو أنّ البشر إخوةٌ، وأحرارٌ، وخلاّقون، وأنّهم مصنوعون من جسد الله. وهو أنّ البشر، متعاضدين، يستطيعون تحويل العالم، وجعل البشريّة، إنسانيّةً، حقًّا، تعتنق تطلّعات العدل، والحبّ، والجمال، التي تأتينا من الله.

ولكن يبدو أنّنا فقدنا هذا الكنز، إذ حَسبُنا أن نلتفت إلى ما حولنا، حيث لا نشهد أثرًا للإخاء البشريّ، وللطاقات الخيّرة الخلاّقة، وللحياة في حضور الله الحميم المنعش.

ما زال الكنز في طوايا المستقبل، ولم يُستثمَر بعدُ استثمارًا كافيًا. فهل سنشهد، يومًا، زحفًا على الإنجيل يحاكي زحف البعض نحو الذهب، والبترول، والملايين؟

الكنز هو طريق القمّة الشاهق الذي شقّه يسوع، كي يدفعنا في شعابه المصعّدة، بعيدًا عن الضمانات السهلة، حتّى الدينيّة منها، وبعيدًا عن الحنين إلى الماضي.

والكنز هو قدرتنا على أن نتمتم، في وجه ظلمات العالم، وتمزّقات البشريّة التي

---

(١) عن جيرار پيسّيير.

ترهقنا أحيانًا: «**أبانا الذي في السماوات**»، وأن نستمدّ من هذه الكلمات القدرة على استئناف مسيرتنا، وبذل الجهد كي تتجلّى، من جديد، إنسانيّة إخاء أبناء الأب الواحد.

علينا السعي الدائم إلى شراء الحقل، واكتشاف الكنز، واستثماره، والافتتان بيسوع الذي انتزعنا من حياتنا الساكنة، وأرشدنا إلى طريق الكنز، أي إلى ذاته.

لاَ تَخَـــافوا

يعلم يسوع أنّ الخوف يُسيطر على البشر، ومع ذلك يدعوهم إلى الجرأة القصوى، جرأة مواجهة الموت. إنّه يوري، في ذاته ولدى رفاقه، نور الإنسانيّة الأشدّ سطوعًا: تقبّل الموت، عن الآخرين، في سبيل قضيّةٍ ساميةٍ، ومن أجل مستقبل البشر. فالذين يخاطرون بحياتهم يَخْبَرون كم تصبح النفس خفيفةً عندما يتأهّل المرء لبذلها. وفرحهم العارم يعني أنّهم بلغوا نور الذرى. وحينئذٍ يصبح الموت الفعل الأكثر جيشانًا بالحياة.

لطالما ردّد يسوع دعوته إلى انتباذ الخوف. فعلامَ هذا الإلحاح؟ أَلأنّ الحياة، وفق مقتضيات الإنجيل، خطرةٌ، أم لأنّ الخوف، بكلّ أشكاله، يلتهم قلوب البشر؟

نحن المراهنين بحياتنا على يسوع، هل نؤتي مجتمعنا طعم الحياة وفق الإنجيل، وخميرة الحياة ونورها؟ وهل نمضي قُدُمًا، وسط المصاعب المعاصرة، بثبات الجأش الذي تحلّى به المسيحيّون الأوّلون، بهذا الحبّ الذي لا يُحبَط أبدًا، بهذا الخيال الذي يتفنّن في تغيير الحياة، وبثّ «الملح» في أوصالها؟ وهل نجد السبيل إلى ممارسة «أصالتنا المسيحيّة»، بانعتاقنا من عبوديّات المال والرفاهيّة، وبإيلائنا الأولويّة للخدمة، وللرهانات البشريّة الكبرى، وللدأب على إبداع الحياة، ولحمل بعضنا أعباء بعضٍ، كما دعا بولس الرسول؟

ينبغي أن نصيح، عاليًا، أنّ الإنسان لا يحيا بالخبز، والمال، ورفاه البيت والسيّارة، فحسبُ، وأنّ سلامته تتخطّى كلّ الضمانات المادّيّة. فالإنسان يحيا، حقًّا، عندما يخطو إلى الأمام، وعندما يقف وجودَه على تغيير العالم المحيق به. إنّ مجتمعًا مبتلًى بهوس المادّة هو مجتمعٌ فقد طعم الحياة الحقّ. فالأفراد، والجماعات، والأُمم تفتقر إلى آفاقٍ، إذ إنّها لا تحقّق طاقات وجودها العميقة إلاّ بتجاوز ذاتها.

علامَ نغفل عامل توازن كياننا الديناميّ، وهو أنّ حقيقة الحياة تكمن في بذلها؟

ولمَ يهنُ إيماننا في حبّ اللّه الذي لا يفصلنا عنه شيءٌ؟ في صميم كلّ خوفٍ

يتلقّى المسيحيّ الجرأة الأكثر تجرّدًا وثباتًا، المبنيّة على يقينه بأنّه إن أعطى، كلّ يومٍ، حياته، بل إن هو تخلّى عنها، أسوةً بيسوع، فهو إنّما يُلقي بذاته بين ذراعي إلهه، حتّى عندما تكتنفه ظلمات الشكّ والنزاع. لا بل إنّه يتوقّع من الموت نفسه، الذي يخشاه الناس ويجهدون في تناسيه، ولادةً جديدةً، ولقاء اللّه وجهًا لوجهٍ.

اللّه دائمًا جديدٌ، لا يُسجن في الماضي، بل يتفجّر من المستقبل. وقد وضع يسوع المسيحيّين في حالة انتظارٍ نشيطٍ للملكوت... وعلى الدرب الذي يقودنا إليه يدعونا إلى ابتداع الغد.

ولكي تكون الكنيسة كنيسةً، حقًّا، ينبغي أن تكون رغبة اللّه، لديها، أقوى من كلّ خوفٍ، وأن تحدّق إلى الغد، يحدوها جنون الصليب – الحكمة القصوى – كَلِفةً بالحياة والحقيقة، مراهِنةً بكلّ شيءٍ على إنجيل يسوع.

على جميع الدروب المفضية إلى عمّاوس وأمثالها، يلحق بنا من يستنكر حزننا، هامسًا: «**يا قليلي الفهم!**».

علينا، نحن المسيحيّين، أن نحيا، من أجل ملكوت اللّه، الطفولةَ الصادقة، المتغلّبةَ على كلّ خوفٍ.

يَسُــوعُ رَبُّ المُستَحيل

مناطحة المستحيل، والإيمان بإمكان تقويض جداره، تلك هي مغامرة البشريّة منذ ظلمات نشأتها.

وقد أثبت يسوع أنّه ربّ المستحيل.

فقد بشّر بحياةٍ أُخرى غير مألوفةٍ. وتحت خطاه نبتت البهجة.

المضطَهدون أصبحوا «مغبوطين». والمدانون، والمنبوذون، والمزدرون تبوّأوا مكانًا لائقًا في العالم الجديد، ونعموا، أخيرًا، بإنسانيّتهم، ولكأنّ اللّه امتزج بالبسطاء، وتحالف معهم.

المستحيلُ كان يقطن في محيّا يسوع، وفي عينيه، وفي صوته، ويوم ألقى الشعب معاطفهم وأغصان الأشجار تحت قدميه، كانوا يتوسّمون، بحدْسهم الثاقب، أنّ ذلك الناصريّ كان يحمل، في شخصه، مستقبل بشريّةٍ متحوّلةٍ. غير أنّ بغض أصحاب السلطة، وأنانيّة المالكين، ورداءة أُولي المناصب، توجّست من التحوّل، والتغيير، والتجدُّد، خشيةً. فاعتقلوا يسوع، وأدانوه، وأهانوه، وصلبوه... وبدا موته ودفنه، وكأنّهما نهاية حلمٍ مجنونٍ... وعاد المستحيل صفيقًا مثل حجر قبرٍ. واستعادت الحياة طعم الموت. وهبطَ الليل سريعًا، كثيفًا، في تلك الليلة، على أورشليم وعلى الدنيا.

ولكنّ المستحيل تحقّق بالقيامة... والحبّة التي سقطت في التربة، حاربت كلّ خمائر الموت، وحطّمت قدَر الفناء. ولحظة بدا حلم المستحيل، وقد دُفِن مع يسوع، شرعت عدوى حياته تسري في أمداءٍ وأزمانٍ لا نهاية لها.

ومنذئذٍ بات طعم المستحيل لا يُقاوَم، ويتحدّى الموت نفسه. وغدت جماهير لا تحصى من البشر، تموت وتحيا مع يسوع، يحدوها رجاءٌ راسخٌ بقهر الموت، وبتحقيق المستحيل.

يَسُوعُ الشّاعِر

أيّ وقعٍ لصوت يسوع، وهو يُنشد تطويباته وعظته العصماء على سفح هضبةٍ في الجليل، أو وهو يروي قصّة الابن الشاطر، وأمثال الرحمة والملكوت، أو وهو يضرب، من طيور السماء وأزاهير الحقول، مثالاً على سهر الآب على خلائقه!

نبرة صوته هزّت العالم، وما زالت تهزّه منذ عشرين قرنًا.

يسوع لم يكتب، ولكنّه تكلّم، وما برح صدى أقواله يملأ الدنيا، ويتردّد عبر العصور.

يسوع شاعرٌ بكلّ كيانه، وقد ابتدع لغةً خاصّةً تتجلّى من خلالها شخصيّته الفذّة، وأسلوبه الخاصّ: حِكَمٌ حادّة الوقع، فنّ روايةٍ بارعٌ، لوحاتٌ أخّاذةٌ.

شِعر يسوع يتخطّى الإحساس والكلام، بل يتخطّى إدراك أعماق الواقع. فقد أضفى على الإنسان والحياة وجهًا جديدًا. ومذْ دعا تلاميذه إلى أن يكونوا ملح العالم ونوره وروحه، ومنذ علّم البشر أن يحدّقوا إلى قلوبهم، تحوّلت رؤية العالم.

إزاء فرّيسيّي اليهود وكتبتهم، المكبّلين بقيود الحرف المميت، وإزاء روما المثقلة الخطى بما يرين عليها من رخامٍ وذهبٍ، جاء يسوع رشيقًا، خفيفًا، يرتدي النور، إنسانًا متحرّرًا من كلّ ثقلٍ، لا إمام لـه سوى الحبّ، قرويًّا لا يتخلّى عن بساطته. ومنذئذٍ تجلّى الإنسان في أصفى جوهرٍ.

ولئن كان الشاعر هو موسيقيّ طاقات الإنسان، وصائغ المستقبل ومحرّره، فما القول في يسوع الذي أنفق حياته مستنهضًا من سقماء الأرض وصغارها أناسًا متجدّدين، وجنسًا روحيًّا قشيبًا، وبشرًا مولودين من جديدٍ!

إنّ اندفاع الحياة المتفجّر يتألّق في شخص يسوع، فهو قادرٌ على بعث قدرات الخلق حتّى في أحلك ظلمات الإنسان القاتلة.

نسغُ الخليقة كلّها يسري في عروقه، فهو كلّما وقع بصره على شجرة زيتونٍ أو على حَمَلٍ، استيقظ، في أعماقه ما يشير إلى أنّه هو، على نحوٍ ما، شجرة الزيتون، وهو الحَمَل. وعندما يشهد سنابل القمح التي أشرفت على الحصاد، والكرم الذي دنا قطافه، يشعر أنّه هو العنقود الذي سيُعصر، وحبّة القمح التي ستُطحَن كي تصبح خبزًا طيّبًا. وهو يرى نفسه في البرق الذي يشقّ السماء، وفي تألّق قوس قزحٍ.

يسوع شاعرٌ حوّل صيّادي أسماكٍ إلى صيّادي أنامٍ، وسيظلّ كذلك على مدى الأزمنة والتاريخ. وستكون البشريّة التي تحيا، وتحبّ، وتتألّم، وتموت، تحت جميع الأجواء، لغة قصيدته الدهريّة التي لا تنضب، وستكون جميع وجوه البشريّة المتألّقة، وكلّ قسمات القداسة نغماتٍ في تلك الأنشودة اللامكتملة.

إنّه شاعرٌ فذٌّ، يُنشِد بشريّةً جديدةً. إنّه يتخطّى قواعد اللغة، ويُطيح بكلّ حاجزٍ بشريٍّ. وبتفجيره الحدود يظلّ قائدًا لا حدود لطموحه، يتجاوز كلّ حلمٍ بشريٍّ.

وفوق ذلك، يسوع مثّالٌ يصوغ، من البشر، وجه الله. ولكي يُبرز صورة الله، كان له جسده، ويداه، ووجهُه، المعجَم، والصلصالَ، والموسيقى، وكان موته الفدائيّ لغته الشعريّة.

إنّه شاعر الله مثلما هو شاعر الإنسان. إنّه ينبئ بالله، ويجسر على تسمية من لا يحيط به كلامٌ. يعبّر عن الله بكلامه وبكيانه كلّه. ولا بدْعَ في ذلك، فهو كلمة الله، الذي قرن الألوهة بالبشريّة، فأعلن للإنسان قَدَرًا لم تتطاول إليه أجرأ أحلامه، ومصيرًا ساميًا غارقًا في النعمة.

تتعثّر الكلمات في وصف يسوع الشاعر، فلغة يسوع هي كيانه ذاته، ممتزجًا امتزاجًا حميمًا بكيان الله.

يسوع شاعرٌ لم يخلّف آثارًا مكتوبةً، ولكنّه لا يني يفجّر قصيدة الحياة، ورعشة الإنسانيّة في الأفراد والجماعات.

إنّه يدعو، بجنونٍ، طاقة الإنسان الخلاّقة، إلى تجاوز الإنسان.

إنّه الشاعر الأسمى، فلقاؤه يحيل كلّ إنسانٍ كائنًا جديدًا، ويحمل إليه، إلى الأبد، اجتياح الحبّ المجنون، ونبض قلب الله.

أقـــوالٌ في يسُـــوع

ڤيكيتور هوغو (١٨٠٢–١٨٨٥)

(شاعرٌ، وروائيٌّ، وكاتبٌ مسرحيٌّ فرنسيٌّ، ومن أركان المدرسة الرومنسيّة)

١– وجهٌ عذبٌ، باهرٌ، ووقورٌ.
كائنٌ تغمره الحياة والضياء،
يخطر ساكبًا صفحًا حيًّا.
بوسعه أن يصعق، ولكنّه يؤثر أن يُحبّ...
يسير فوق اللجّة القاتمة، ويهدّد الريح.

أنوارٌ كانت توافيه على القمم وتحدّثه.
إنّه يغسل الخطايا، كما يُغسَل الوحل،
ويحرّر الفكر من حمأة الجسد.
أمام برق حدَقتَيْه كان إبليس يفرّ.
ومعجزاته كانت دحرًا للشرّ.
والأقوال التي تهمي من شفتيه.
تحاكي لمسة يدٍ إلهيّةٍ.

٢– أنتم، يا من يبكون، تعالَوا إلى هذا الإله، فهو يبكي.
وأنتم، يا من يتألّمون، تعالَوا إليه، فهو يشفي.
أنتم، يا من يرتعدون، تعالَوا إليه، فهو يبتسم،
وأنتم، يا من يعبرون، هلمّوا إليه، فهو أزليٌّ.

لامرتين (١٧٩٠– ١٨٦٩)

(من كبار شعرء فرنسا الرومنسيّين)

سُدْ، إلى الأبد، أيّها المسيح، على العقل البشريّ.
وبين الإنسان والله، كن أنت الوثاق.
وبأنوارك الساطعة، أضئ، إلى ما لانهاية،
الأجيالَ الغافيةَ في مهد الأزمان...
وكنْ، يا إله مهدي، إلهَ لحدي!

شاتوبريان (١٧٦٨ – ١٨٤٨)

(كاتبٌ وسياسيٌّ. من أعلام الرومنسيّة الفرنسيّة)

١– ظهر يسوع وسط البشر ممتلئًا نعمةً وحقيقةً. سلطان أقواله ورقّتها يفتنان. جاء ليكون أكثر بني البشر بؤسًا، وخصّ البائسين بكلّ معجزاته، التي نبعت من عطفه، أكثر ممّا نبعت من قدرته الفائقة.

ولكي يرسّخ تعاليمه اختار المَثَل الذي ينحفر بيُسرٍ في فكر الشعوب. وقد أدلى بدروسه الإلهيّة وهو يذرع الدروب الريفيّة...

ألدّ أعداء يسوع لم يجسروا، يومًا، على التعرّض لشخصه الإلهيّ. فإذا كانت الأخلاق الأصفى طهرًا، والقلب الأرهف رقّةً، والحياة التي تُنفَق في مكافحة الضلال، وفي تلطيف آلام البشر، هي خصال الآلهة، فمن يستطيع أن ينكر على يسوع ألوهته؟

كان يسوع نموذجًا لكلّ الفضائل. فالصداقة وجدت، راقدًا على صدره، يوحنّا، التلميذ الذي أوكل إليه أُمّه. والتسامح تجلّى في حكمه على الزانية. والرحمة رأته، في كلّ مكانٍ، يبارك دموع البؤس. في حبّه للأطفال دليل براءته ونقائه. وقوّة نفسه تتألّق وسط آلام الصليب. وتنهُّدُه الأخير هو تنهّد رحمةٍ.

* *

٢ – وحده المسيح منزّهٌ من كلّ لوثةٍ: إنّه النسخة الأكثر تألّقًا لذلك الجمال الأسمى الجالس على عرش السماوات. إنّه طاهرٌ ومقدّسٌ مثل هيكل الربّ، ولا يحدوه سوى حبّ اللّه والبشر. يسمو سموًّا لا نهائيًّا فوق مجد العالم الزائل، ويواصل، عبر الآلام، مهمّة خلاصنا العظمى، حاملاً البشر، بنفوذ فضائله، على اعتناق تعليمه، والتمثّل بحياته التي لا مفرّ من الإعجاب بها.

ألفريد دي موسّيه (١٨١٠– ١٨٥٧)

(شاعرٌ غنائيٌّ فرنسيٌّ)

ربّاه، من يستطيع، الآن، بعث الحياة
في أوصال أرضنا المقرورة،
التي كانت تحيا بموتك، والتي ستموت بفقدانك؟
بدمك الأطهر أعدتَ لها الشباب.
فيا يسوع، من سيقوى، يومًا، على أن يفعل مثل فعلك،
ومن سيعيد لنا الشباب، نحن الذين أمسِ وُلدوا، واليوم أمسَوا شيوخًا هَرِمين؟

جان جاك روسّو (١٧٦٨– ١٨٤٨)

(كاتبٌ ومفكّرٌ فرنسيٌّ)

١– أُقرّ بأنّ قداسة الإنجيل حجّةٌ تخضّ قلبي... فهل من الممكن أن يكون كتابٌ على هذا القدر من السموّ والبساطة، من صنع البشر؟

وهل يمكن أن يكون ذاك الذي يروي الإنجيلُ سيرته، مجرّد إنسان؟ وهل، ثمّة، نبرة إنسانٍ مندفعٍ، أو متشيّعٍ طموحٍ؟ أيّة رقّةٍ، وأيُّ نقاءٍ في سلوكه! وأيّة نقمةٍ مؤثّرةٍ في تعاليمه! أيّة رفعةٍ في أقواله المأثورة! وأيّة حكمةٍ عميقةٍ في خطاباته! أيّة بداهةٍ،

وأيّة رهافةٍ، وأيّ صوابٍ، في أجوبته! وأيّ سلطانٍ له على أهوائه! أين هو الإنسان، وأين الحكيم، الذي يعرف كيف يعمل، ويتألّم، ويموت بلا ضعفٍ، ولا تظاهرٍ، مثله؟

٢- إن كانت حياة سقراط وموته حياة حكيمٍ وموته، فحياة يسوع وموته هما حياة إلهٍ وموته!

لامنيه (١٧٨٢ - ١٨٥٤)

(لاهوتيٌّ ومفكّرٌ فرنسيٌّ)

ما قاله يسوع المسيح ما زال صحيحًا، وسيظلّ صحيحًا إلى الأبد: «تعالَوا إليّ، يا جميع من يبهظهم وقر العمل، وسأنعشكم». ذات يومٍ سيوافون إليه جميعهم. هذا اليوم ليس بعيدًا، بل هو، الآن، يرتعش في أحشاء المستقبل.. ويمكن استشفاف الحقبة السعيدة، في الأجيال القادمة البعيدة، حيث لن يكون العالم سوى مدينةٍ واحدةٍ تحكمها شريعةٌ واحدةٌ، شريعة عدلٍ، ومحبّةٍ، ومساواةٍ، وإخاءٍ، ودينٍ مستقبليٍّ، يشمل البشريّة كلّها، ويحيّي، في المسيح، مشرّعه الأسمى والأخير.

من أقوال دوستويفسكي (١٨٢١- ١٨٨١)

(روائيٌّ روسيٌّ شهيرٌ)

- أيّة آلامٍ مبرّحةٍ يسبّبها لي، الآن، العطش إلى الإيمان، وذلك بقدر ما تتكاثر الحجج المناقضة للإيمان. غير أنّ الله يرسل لي، أحيانًا، لحظات سجوٍّ كاملٍ، وفي أثناء هذه اللحظات، تولّدت لديّ عقيدةٌ إيمانيّةٌ في غاية البساطة، وهي أنّ لا شيء أروع، وأعمق، وأعذب، وأكثر توافقًا مع العقل، وأشدّ جرأةً وكمالاً من المسيح. بل إنّي أقول، بحبٍّ وغيرةٍ، إنّه لن يمكن، أبدًا، أن يكون شيءٌ من هذا القبيل، بل أكثر من ذلك، لو أثبت لي أحدٌ أنّ يسوع منافٍ للحقيقة، ولو ثبت ذلك، فعلاً، لآثرتُ أن أكون مع يسوع على أن أكون مع الحقيقة.

– إنّ صرخة إيماني مرَّت عبر بوتقة الشكّ.

– ليس في العالم سوى وجهٍ واحدٍ كامل الجمال، هو وجه المسيح. ومن المحقّق أنّ ظهور هذا الوجه الجمّ، اللامحدود الروعة، هو معجزةٌ لا محدودةٌ.

– إنّ طبيعة المسيح مدهشةٌ. إنّها طبيعة اللّه، ومن ثمّ فإنّ المسيح هو انعكاس صورة اللّه على الأرض.

– الكلمة صار جسدًا. هذه الحقيقة، في الواقع، تختصر كلّ شيءٍ.

رينان (١٨٢٣– ١٨٩٢)

(مؤرّخٌ، ومفكّرٌ، وناقدٌ فرنسيٌّ. من أشهر آثاره: «حياة يسوع»)

– التاريخ بأكمله يستعصي على الفهم بمعزلٍ عن يسوع.

– الإدراك الأسمى للّه الذي بلغته البشريّة، هو إدراك يسوع له.

– يسوع مثاليٌّ مكتملٌ، فليست المادّة له سوى دليلٍ على الفكرة، وليس الواقع سوى تعبيرٍ حيٍّ عن الخفيّ.

– لقد أسّس يسوع العبادة الطاهرة المنعتقة من إطار الزمن والوطن، الكفيلة بأن تمارسها جميع النفوس السامية، حتّى آخر الأزمنة.

لاكوردير (١٨٠٢– ١٨٦١)

(واعظٌ وكاتبٌ فرنسيٌّ شهيرٌ)

١ – الأردنّ استقبله، في مياهه، تحت يد السابق الذي عمّده. والجبال شهدته يتسلّق سفوحها، وفي إثره شعبٌ بأكمله، وسمعت منه أقوالاً لم يتلفّظ بمثلها آخر:

طوبى للفقراء، طوبى للباكين! البحيرات أعارت ضفافها لخطاباته، ولفيض معجزاته. وصيّادون متواضعون طوَوا شباكهم عندما رأَوه، وتبعوه، فأصبحوا، تحت إمرته، صيّادي بشرٍ. الحكماء كانوا يستشيرونه تحت ستار الليل، ونسوةٌ يواكبنَه ويخدمنَه في وضح النهار. كلّم السامريّة، وبارك الغريبة. خاطئةٌ طيّبت بالعطر رأسه، وقبّلت قدميه. وامرأةٌ زانيةٌ نالت، بين يديه، الصفح. وهو أحبّ يوحنّا الشابّ، ولعازر الكهل. كلُّ بؤسٍ استغاث به، وكلّ جرحٍ تطلّع إلى عطفه. والموت تنازل له، كي يعيد إلى أُمّهاتٍ أبناءً ثكلنَهم.

٢ – إنّنا نَنشد الحبّ، سحابةَ حياتنا، ولا نظفر منه، يومًا، إلاّ بالجزئيّ الذي يدمي قلوبنا. ولكنْ، ثمّة رجلٌ يحرس الحبُّ قبره. ثمّة رجلٌ ليس لحده مجيدًا فحسب، بل إنّ لحده محبوبٌ. ثمّة رجلٌ لم يبرد رماده، بعد ثمانية عشر قرنًا، ويولد، كلّ يومٍ، من جديدٍ، في أذهان جماهير غفيرةٍ من البشر. رجلٌ زار مهدَه رعاةٌ وملوكٌ، وقدّموا لـه، بسخاءٍ، ذهبًا وبخورًا ومرًّا.

ثمّة رجلٌ تقتفي آثاره فئةٌ رحبةٌ من البشريّة، ولا تكلّ أبدًا. ومع أنّه توارى، ما انفكّ يرى الجماهير ساعيةً في إثره، في جميع أماكن حجّه القديم، وعلى ركبتيْ أُمّه، أو على ضفاف البحيرة، وقمم الجبال، ودروب الوديان، وتحت ظلال أشجار الزيتون، وفي سرّ الصحارى...

هناك إنسان مات وأُودع الجدَث، و ما برح العالم يترصّد نومه ويقظته، وما انفكّت كلّ كلمةٍ تلفّظ بها تنبض، وتُنتج ما هو أكثر من الحبّ، تصنع الفضائل التي تؤتي، في الحبّ، ثمارها.

هناك إنسانٌ معلّقٌ منذ قرونٍ على صليبٍ. وهذا الإنسان يُنزله، كلّ يومٍ، ملايين من مكرّميه عن عرش العذاب هذا، ويجثون أمامه، وينحنون أخفض ما يستطيعون من انحناء، في غير حياء. وهناك، في الرغام، يقبّلون باندفاعٍ يندّ عن الوصف، قدميه المضرّجتين بالدماء.

هناك إنسانٌ، أُوسع بالسياط ضربًا، وقُتِل. إلاّ أَنّ حبًّا يسمو فوق كلّ وصفٍ، ينهض به من الموت والعار، ليُحلّه في مجد حبٍّ لا عهد لـه بهوادةٍ، يجد في كنفه السلام والتكريم والفرح حتّى الذهول.

هناك إنسانٌ يطارده، في آلامه وفي لحده، حقدٌ لا ينطفئ لـه سعيرٌ، ولكنّه حين يقتضي من كلّ جيلٍ ناشئٍ رسلاً وشهداء، يلقى رسلاً و شهداء، في قلب الأجيال كلّها جمعاء.

هناك، أخيرًا، رجلٌ، وهو الوحيد في هذا المضمار، بنى صرح حبّه على الأرض، وهذا الرجل هو أنت، يا يسوع، أنت يا من شاء أن يعمّدني ويمسحني بحبّه، والذي، حبُّه وحده، في هذه اللحظة، يفتح أحشائي، وينتزع منها هذه النبرة التي تهزّني، أنا نفسي، والتي كنت أجهلها.

٣ – في نظر كلّ مراقبٍ نزيهٍ ، يتراجع النور بقدر ما يتراجع يسوع ، و يتقدّم بقدر ما هو يتقدّم.

الفهرس

إهداء ٧
«لقد جئت لألقي على الأرض نارًا» ٩
الإنجيل معين حياة ١٨
يسوع ٢٨
في البدء كان الكلمة ٣٠
أمّان تلتقيان: مباركةٌ أنتِ في النساء ٣٤
مريم وإليصابات ٣٧
سرّ مريم وسرّ يوسف ٣٨
بيت لحم ٤٠
الميلاد - ١ - ٤٢
الميلاد - ٢ - ٤٤
أقوالٌ في الميلاد ٤٦
المغارة ٤٧
الولادة في الله ٤٩
وصار الله طفلا ٥٠
مَلِكان ٥٢
مريم تتأمّل ٥٤
تقدمة يسوع إلى الهيكل ٥٦
المجوس ٥٩

الأُسرة المقدّسة المشرّدة ٦١
هروبٌ ٦٣
نجّار الناصرة ٦٥
صمت يسوع ٦٧
يدا يسوع ٧٠
«أعدّوا طريق الربّ» ٧٣
البذرة التي تُلقى في الأثلام ٧٥
«أنا لم أكن أعرفه» ٧٦
«هو يعمّدكم بالروح القدس والنار» ٧٨
في مثل صباح العالم الأوّل: عماد يسوع ٨٠
تجربة يسوع ٨٤
عرس قانا الجليل ٩٥
يسوع وأَبناء قريته ٩٩
السامريّة ١٠٥
الملكوت البعيد القريب ١١٠
من هم الأسماك؟ ١١٢
دعوة متّى ١١٤
يسوع وتلاميذه ١١٧
اللمسة المجنونة ١١٩
اختراق السقف ١٢١
«أأنت الآتي، أم ننتظر آخر؟» ١٢٣
عظة الجبل ١٢٧
سعادة الله والتطويبات ١٣٠
تطويباتٌ ١٣٦

الويلات ١٣٩
من هم الذين طوّبهم يسوع؟ ١٤١
طوبى للفقراء... .... ١٤٥
طوبى للودعاء فإنّهم يرثون الأرض ١٥٢
طوبى للباكين، فإنّهم يُعزَّون ١٥٥
طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنّهم يُشبعون ١٥٨
طوبى للرحماء فإنّهم يُرحَمون ١٦٢
طوبى لأنقياء القلب، فإنّهم يعاينون الله ١٦٤
طوبى لصانعي السلام، فإنّهم أبناء الله يُدعَوْن ١٦٦
طوبى للمضطَهَدين من أجلّ البرّ... .... ١٧٠
تطويباتٌ عمليّةٌ ١٧٣
«أنتم ملح الأرض» ١٧٤
أنتم مَرَح الأرض... .... ١٧٧
أنتم نور العالم... .... ١٧٨
دُعابةٌ ١٨١
من حبّ الشريعة إلى شريعة الحبّ ١٨٢
«ما جئتُ لأنقض، بل لأتمّم» ١٨٧
من ضربك على خدّك الأيمن... .... ١٩٠
«أحبّوا أعداءكم...» ١٩٢
حبٌّ بلا قياسٍ: حرّيّة أبناء الله ١٩٦
«الوصيّة الكبرى والأولى» ١٩٨
مقتضيات يسوع ٢٠١
كيف نحسن، وكيف نصلّي ٢٠٤
«أبانا» ٢٠٩

أوفياء للنور ٢١٨
من هو الأعمى؟ القشّة والعارضة ٢٢٠
خرج الزارع ليزرع.... .... ٢٢٢
دعوهما ينميان كلاهما معًا حتّى أوان الحصاد ٢٢٥
البذرة العنيدة ٢٢٨
بذار الله ٢٣٠
كنز الملكوت ٢٣٢
ملكوت الله في ما بينكم ٢٣٥
النائم الذي يُخرس العاصفة ٢٣٧
لمستان ٢٣٩
وصيّة يسوع لمرسليه ٢٤٣
سلامٌ لهذا البيت ٢٤٥
مأدبة الصحراء ٢٤٦
مأدبة الصحراء ٢٥١
أشفق يسوع على الجموع ٢٥٢
أنا خبز الحياة ٢٥٤
القلب والأيدي ٢٦٠
طهرٌ ونجاسةٌ ٢٦٣
الكنعانيّة ٢٦٦
«من أنا؟» ٢٧٠
التجلّي ٢٧٦
تأمّلات في التجلّي ٢٨٢
عطفٌ مجنونٌ: النعجة الضالّة ٢٨٩
صفحٌ بلا حسابٍ: (سبعون مرّةً سبع مرّاتٍ) ٢٩١

نفحة الروح المدهشة: من ليس علينا فهو معنا ٢٩٤
نارٌ تطاردهم ٢٩٧
المرأة الزانية ٣٠١
الراعي الصالح ٣٠٨
«من هو قريبي؟» ٣١١
مرتا ومريم ٣١٥
«وضرب لهم يسوع مثلاً
في أنّه ينبغي أن يصلّوا باستمرار، ولا يملّوا» ٣١٦
من ليس أصمّ وأبكم، اليوم؟ ٣١٩
يصيران جسدًا واحدًا ٣٢١
طفولةٌ ٣٢٣
يسوع والشابّ الغنيّ ٣٢٤
مئة ضعفٍ ٣٣٤
عمّال الساعة الحادية عشرة ٣٣٧
وليمة المخلّعين ٣٤٢
المدعوّون كثيرون والمختارون قليلون ٣٤٥
أقوالٌ وأفعالٌ ٣٤٨
الابن الشاطر أم الأب المسرف؟ ٣٥١
لعازر والغنيّ ٣٦٣
البرص العشرة ٣٦٦
الفرّيسيّ والعشّار ٣٦٨
«يا لعازر، هلمّ خارجًا» ٣٧٢
موعدٌ مع الذات ٣٧٧
من أراد أن يكون فيكم كبيرًا، فليكن لكم خادمًا ٣٨٠

الأعمى الذي يركض ٣٨٤
انزل يا زكّا: يسوع المحرَّر والمحرِّر ٣٨٩
بحثتُ عنك ٣٩٢
هذا الرجل يقبل الخطأة، ويأكل معهم ٣٩٣
أدّوا ما لقيصر إلى قيصر، وما لله إلى الله ٣٩٥
«لم يرسل اللّه ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلّص به العالم» ٣٩٩
«أنا الطريق والحقّ والحياة» ٤٠٢
«أخذ ولدًا، وأقامه في وسطهم، وضمّه بين ذراعيه» ٤٠٦
ملك القلوب: أحد الشعانين ٤٠٨
إله أحياءٍ لا إله أمواتٍ ٤١٢
فلسا الأَرملة ٤١٤
السيّد الذي يخدم خدّامه ٤١٦
«انتصبوا وارفعوا رؤوسكم، لأنّ خلاصكم بات قريبًا» ٤١٨
اسهروا واستعدّوا، واحذروا أن يضلّكم أحدٌ ٤٢١
ترقّبٌ ٤٢٧
بانتظار الفجر ٤٣٠
توظيفٌ في الملكوت ٤٣٤
«سرّ الخدمة»، أو غسل الأَرجل ٤٣٨
«خذوا فكلوا، هذا هو جسدي، واشربوا فهذا هو دمي» ٤٤٢
أقوالٌ في الإفخارستيّا ٤٤٦
الوصيّة الجديدة: حبٌّ على مثال حبّ اللّه ٤٥٢
وأمّا أنتم فترونني حيًّا، وتحيَوْن... .... ٤٥٧
عندي أشياء أخرى كثيرةٌ أقولها لكم... .... ٤٦٠
ذاكرة المستقبل ٤٦٢

اختبارٌ لا يُدحَض ٤٦٤
ساعة يسوع ٤٦٦
«مملكتي ليست من هذا العالم» ٤٧٠
لمَ صُلب يسوع؟ ٤٧٣
كلماتٌ سبعٌ موجّهةٌ إلى الصليب ٤٧٨
انتصار المصلوب ٤٨١
الأَلم، على ضوء الصليب ٤٨٣
عند الصليب، حضور أمٍّ ٤٨٨
آلام يسوع النفسيّة ٤٩٠
آلامٌ ٤٩٤
«اليوم تكون معي في الفردوس» ٤٩٥
«لمَ تطلبنَ الحيّ بين الأَموات؟» ٤٩٧
عمّاوس ٥٠٠
«خذوا الرّوح القدس» ٥٠٥
القفزة: إيمان توما ٥٠٨
وأخيرًا بزغ الفجر ٥١٣
لمَ أنتم حزانى؟ ٥١٥
تلمذوا جميع الأمم ٥١٩
«ما تسمعونه همسًا في الأذن، نادوا به على السطوح» ٥٢٤
رسالة الصعود ٥٢٧
من وحي الصعود ٥٣٠
نظرة يسوع ٥٣٢
«كما أنا أحببتكم» ٥٣٤
سُكنى ٥٣٥

ملك الحبّ ٥٣٧
أجل، أُحبّ الله! ٥٣٨
حبّ يسوع ٥٣٩
حرّيّة يسوع ٥٤١
ملك الحرّيّة ٥٤٥
يسوع الثائر ٥٤٦
أبناء الله ٥٤٨
«أين رأيناك، يا ربّ؟» ٥٤٩
الشهادة القصوى ٥٥١
الإيمان هو تقبّل يسوع والترحيب به ٥٥٢
الكنز ٥٥٤
لا تخافوا ٥٥٦
يسوع ربّ المستحيل ٥٥٨
يسوع الشاعر ٥٥٩
أقوال في يسوع ٥٦١
الفهرس ٥٦٩

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر حزيران سنة ٢٠٠٦